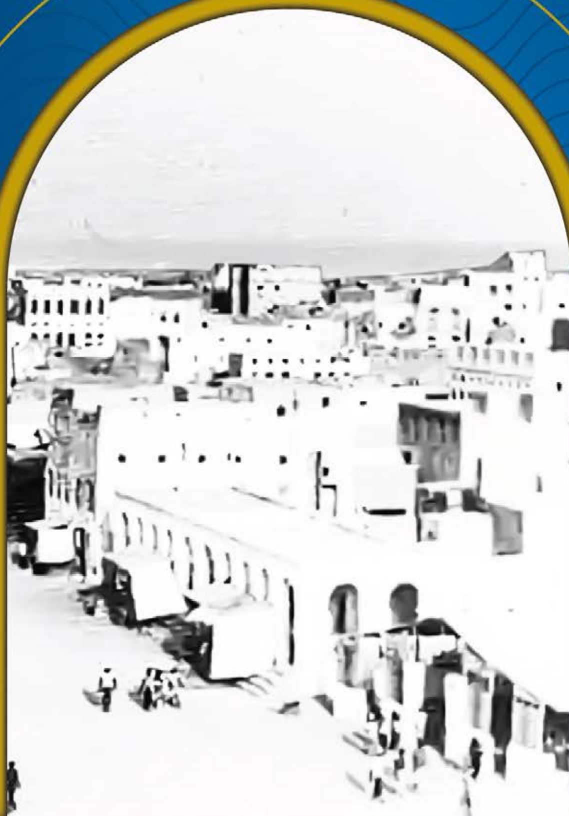
مركز حضرموت
للدراسات التاريخيه والتوثيق والنشر

المختصر في تاريخ
مدينة الشحر العام
(أحداث و روايات ونصوص)



تأليف
أنور حسن السكوتي

المختصر في تاريخ مدينة الشحر العام

أحداث وروايات ونصوص

ح مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب م/ حضرموت: 251/ 2020م

عنوان الكتاب: المختصر في تاريخ مدينة الشحر العام.. أحداث وروايات ونصوص

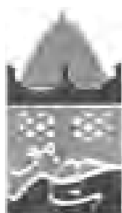
تأليف: أنور حسن السكوتي

حجم الكتاب: 17 × 24 سم

الصفحات: 574 ص

الطبعة الأولى

1442هـ - 2021م



المملكة العربية السعودية - الرياض

واتساب: 966535307788+

بريد إلكتروني: dar@wefaq.net

المختصر في تاريخ مدينة الشحر العام

أحداث وروايات ونصوص

تأليف:

أنور حسن السكوتي



إهداء

إلى روح أستاذ أساتذتي

المؤرخ

محمد عبد القادر بامطرف

المؤلف

كلمة شكر وامتنان

أتقدم بخالص الشكر والامتنان لكل من أسهم في إنجاز هذا المشروع المتواضع، الذي يعد باكورة أعمالي، سواء أكان إسهامُهُ من خلال إبداء الملاحظات والآراء، أم من خلال إمدادي بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها هذه الدراسة، وأخص بشكري وامتناني أستاذي القدير الباحث عبدالله صالح حداد الذي استنرت بآرائه وإرشاداته، وزوجتي الصبور التي كانت سندًا لي مُدَّة اشتغالي بإنجاز هذا العمل.

الباحث

الشحر / يناير ٢٠١٦م

المُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ تاريخ المدن العريقة عامة، لا يمكن اختزاله في حقب معينة أو ربطه بمُدَدٍ زمنية محددة على أنَّها هي وحدها تاريخ هذه المدينة أو تلك، كما لا يمكن التعامل مع أحداثها المختلفة بمعزل عن سابقاتها، أو دون النظر إلى ما تلاها من أحداث، وإنما التاريخُ شريطٌ متسلسلٌ مترابط الحلقات، يكمِّل بعضُه بعضًا، وكل حقبة فيه هي نتاج لسابقتها وتمهيدٌ للتي تليها.

كما أن تاريخ حضرموت العام في جغرافيتها المتعارف عليها تاريخياً، إنما هو في حقيقته تاريخ متكامل متسلسل ومترابط الحلقات، تعوزه فقط، باعتراف غالبية مؤرخيه، بعضُ الفصول التي لا تزال أحداثها ووقائعها مُحاطةً بالكثير من اللبس والغموض، وأنَّهُ بكشفها وإماطة اللثام عنها، سيكون هذا التاريخُ متكاملَ الفصول والأجزاء، وهذا يعني أنَّ تاريخ حضرموت بحاجةٍ للمزيد من البحث والتنقيب في مصادره ومراجعه المختلفة، وهو بحاجةٍ كذلك لربط أحداثه بسياقاتها التاريخية، والتعامل معها بموضوعية وفقاً لقوانينها التي تتحكم بها وتحتكم إليها.

وهذا يعني أن علينا إعادة قراءة ذلك التاريخ، وإعادة ترتيب حلقاته وتركيبها بصورة متكاملة، وبموضوعية ومنهجية علمية، تتجاوز كل سلبيات البحث التاريخي،

وتعمل على تخليصه من كل ما عَلِقَ به من الشوائب والأغلاط، التي هي في ما نرى من أكثر المعوقات التي حالت دون كشفنا لبعض حلقات تاريخنا المفقودة، ودون فهمنا المتكامل للصيرورة التاريخية التي آل إليها حاضرنا، وهذا يعني أيضًا تجنُّبُ اتباع ذلك النهج النمطي السائد في كتابة التاريخ، الذي يعتمد على إيراد الأخبار والروايات على علاتها، دون أيِّ فحص أو تمحيص في مدى صحتها وصدقها، فالكتابة التاريخية كما وصفها المؤرخ (محمَّد عبدالقادر بامطرف) في كتابه (في سبيل الحكم) تتجدد بالضرورة من خلال الاستدراك والتهذيب والمراجعة في منطلقها نحو الكمال، وإنَّ هذا التجديد لن يتحقق كما أشار إلا من خلال ((تسليط الأضواء على الحقيقة التاريخية المطمورة بالعثور على الوثائق التاريخية الصحيحة وفحصها، والتوثق بقدر المستطاع من أصالتها، وبالتثبت من صحة الرواية المحلية المستفيضة)).

إن هذه الدراسة معنيَّةٌ أساسًا بتاريخ جزء محدد من حضرموت، فهي دراسةٌ تاريخيَّةٌ لمدينة الشحر منذ تأسيسها، مرورًا بالدويلات والإمارات التي تعاقبت على حكمها، وصولاً إلى الدولة القعيطية بوصفِها آخرَ دولةٍ انتهجت الحكم الوراثي والاعتماد على العصبية العشائرية في تثبيت حكمها وترسيخه، وهو نمطٌ في الحكم ساد لقرون، وقد أفردت لهذه الدولة فصلًا مستقلًا؛ لقربها تاريخيًّا من العصر الذي نحن فيه، كما أن بعض شخوصها ومعاصريها ما زالوا أحياءً يُرزَقون، وعلى اعتبار أنَّ الدُّولَ التي تلتها كانت مختلفة تمامًا عنها وعن سابقاتها، سواء من حيث شكل الدولة ونظامها وإدارتها أم مِنْ حيث الأحداث التي ارتبطت بها وتميزت فيها، كما أنَّهُ في هذه المرحلة المتأخرة (ما بعد القعيطية) لم تعد الشحر كما كانت في غالب عهودها الماضية، ذات الشأن الكبير، التي

تتهافت الدول لخطب ودها، وتستميت أمام أسوارها الرجال؛ إذ فقدت مركزها الريادي وأثرَها الفعَّالَ في التاريخ الحضرمي عامَّةً، وأصبحت مجرَّد مدينةٍ قابعةٍ على شاطئ بحر العرب، قد شاخت وهرمت، وسُلِبَت منها عوامل التأثير.

صحيح أنَّ هناك الكثير من المؤلفات التي تناولت تاريخ حضرموت العام، ولم يغفل فيها أصحابها أثر الشحر في محيطها، كما لم يغفلوا أثر رجالاتها وعلمائها في صناعة أجزاء من تاريخ المنطقة العام، إلا أنَّها في الوقت نفسه أغفلت أحداثًا أخرى نرى أنها من الأهميَّة بمكان، ولعلَّ أصحاب تلك المؤلفات إنَّما أغفلوا تلك الأحداث؛ لأنَّها ليست بذات أهميَّة في نظرهم، أو لأنَّها في خارج إطار ما هم مهتمُّون بإبرازه من تاريخ حضرموت العام، أو لأنَّ الخوضَ فيها قد يجرُّ إلى تناول أحداثٍ أخرى، ممَّا سيُشعِّب الدراسة، ويحرفها عن مسارها المرسوم لها، فاقتصروا على الإشارة إلى بعض الخطوط العريضة من تاريخ هذه المدينة، وربطها ضمن سياقاتها المختلفة بالتاريخ العام لحضرموت، وهذا لا يعيب دراستهم في شيء، ولكن المعيب أن يتناول بعض الباحثين تاريخ هذه المدينة بشيء من التوسع مع القفز على الأحداث، وإغفال الكثير من أدوار المدينة الحية التي لعبتها طوال تاريخها، والتي تُمثِّل إذا أُبرِزَت، كما سنرى، إضافةً أخرى جديدة، ستسهم في فهم تاريخ المدينة وتاريخ حضرموت العام، بل وتاريخ جنوب الجزيرة العربية برُمَّته، ذلك أنَّ كلَّ ما كُتِبَ عن المدينة لم يخرج عن إطار ما كتبه الآخرون عنها ضمن كتاباتهم حول تاريخ حضرموت العام.

كما أنَّ منهج أولئك المؤرخين في عرض الأحداث التي تناولوها لا تخلو من نظر؛ إذ جاءت الأحداث في غالبها مبتورة ومبهمة، لا يكاد القارئ يجد فيها أية روابط تجمعها،

ولا تُقدِّم له فهمًا واضحًا للوقائع التاريخية وملابساتها، فضلًا عن إغفال أولئك المؤرخين التسلسلَ الزمنيَّ للأحداث وربطَها بسياقها التاريخي، وعدم التزام بعض تلك الكتابات بالمنهجية العلمية في التعامل مع النصوص والمراجع، واعتمادها فقط على سرد الوقائع ونقلها عن الآخر دون التحقق من مدى صحة هذه المعلومة أو تلك في مصادرها الأولية أو مراجعها المعتمدة، إلى جانب عدم تحريها الدقة في توثيقها لتواريخ الأحداث أو أعلام الأشخاص الواردة، والتي أصاب أغلبها التصحيف والتحريف، فهم في كتاباتهم تلك اكتفوا فقط بترديد ما ورد من معلومات تاريخية في بعض المصادر أو المراجع، أو نُشِرَ في وسائل الإعلام المختلفة، وتعاملوا مع تلك المواد كأنها حقائق تاريخية لا تقبل الشك أو الجدل أو النظر، فضلاً عن أنَّ عددًا من تلك الكتابات تناولت جوانب من تاريخ المدينة، ومثله من تاريخ حضرموت، من منطلق طائفي مقيت تلبَّس بصاحبها فأصبح به ممسوسًا، مما أفقد دراستهم تلك موضوعيتها ومصداقيتها، بيد أنَّنا نقول في هذا كما قال أستاذنا المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف، في كتابه المذكور آنفًا، إنَّ الروايات المحليَّة السائدة عن بعض الحوادث التاريخية ((ليست كلها اختلاقًا وتعصبًا، بل إنَّ فيها الكثير من الحقائق المتواترة، ومن تلك الحقائق ما يؤيده الواقع، ومنها ما يؤيده الثقات الذين عاشوا فصولًا من الحوادث التي يسجلها هذا الكتاب)).

ومن هنا كانت الحاجة ماسَّةً إلى إيجاد قراءةٍ لهذا التاريخ أكثر دقَّةً وموضوعيةً، وأكثر تفصيلًا وإيضاحًا، فجاءت هذه الدراسة التي تتناول جزءًا محددًا من تاريخ حضرموت العام؛ ليكون معززًا ومكملًا له، وقادرًا في الوقت نفسه على إعطاء صورة أكثر إيضاحاً لفهمه.

لقد جاءت هذه الدراسة لتسلط مزيدًا من الأضواء على مختلف الأحداث والوقائع التاريخية التي مرت بها مدينة الشحر في إطار سياقاتها التاريخية المختلفة ووفقًا لتسلسل حلقاتها، بأسلوب منهجي وبموضوعية بحتة، مع إيلاء الأوضاع السياسية أكبر الاهتمام، وهي الأوضاع التي لم يُولِها أغلبُ مَنْ كَتَبَ عن هذه المدينة اهتمامًا يُذكَر.

كما أن هذه الدراسةَ محاولةٌ لإعطاء القارئ فهمًا أوسع لُمجمَل تلك الأحداث وما أحاط ببعضها من ملابساتٍ أغفلتْها أو أهملتْها المصادرُ والمراجعُ التاريخية، فضلًا عن تصحيح ما وقع في بعض المصادر من هفوات و زَلَّات نأت بها عن حدود العلمية.

إنَّ الهدفَ من هذه الدراسة تقديمُ صورٍ واضحةٍ للأدوار التي قامت بها مدينة الشحر برجالها وأعلامها البارزين، أو مَنْ أغفل التاريخُ ذكرَهم، وإبرازُ تأثيراتهم المختلفة، سواء أكانت على صعيد المدينة نفسها، أم على صعيد حضرموت عامة، وربما على صعيد ما يجاورها من مناطق في بعض الأحوال.

كما ترمي هذه الدراسة إلى تصحيح بعض المعلومات أو الأغلاط الواردة في بعض المراجع التي تتعلق بتاريخ المدينة أو تاريخ حضرموت العام، واضعين نصب أعيننا المبدأ القائل: (إن شيوع الخطأ لا يعني صوابه)، (وإن لم نبادر بالإصلاح، فمَنْ؟!).

إنَّ اهمية هذه الدراسة تنبع من كونها تسلِّط الضوء على تاريخ جزءٍ محدَّدٍ من إقليم حضرموت، وهو الجزءُ الساحليُّ، وخاصة (مدينة الشحر)، من دون إغفال ارتباط أحداث المدينة المحلية بالتاريخ العام لحضرموت وما يجاورها.

ولقد تجنبت الخوض في تفاصيل بعض الأحداث المهمة التي تتجاوز حدود الدراسة؛ التزامًا بهذه الحدود، وخشيةَ تشعُّبِ الموضوع وتشتُّتِهِ، إلا في مواضع أملتها الضرورة.

وقد اتَّبعْتُ في هذه الدراسة منهج البحث التاريخي العلمي القائم على جمع المادة العلمية من مصادرها الأولية (مخطوطة أو مطبوعة)، أو تلك الواردة في بعض الرسائل الجامعية أو الدوريات العلمية أو الصحف، وتحليل هذه المواد المجموعة تحليلًا دقيقًا، وقد أكتفي بالإشارة إلى بعضها وأتجاوزها إلى ما بعدها حينما يتعذر علي العثور على موادها الكافية، وكذلك عند إيراد بعض النصوص أو الوثائق ارتأيت أن الخوض في تفاصيلها أو شرحها قد يُشعِّب هذه الدراسة ويبعدها عن الاختصار، فاكتفيت بسردها، كما اعتمدتُ على الموازنة بين الروايات والحوادث والمعلومات التي وردت في أكثر من مصدر أو مرجع في محاولة استجلاء الصورة الأقرب للحقيقة التاريخية.

كما عملتُ في هذا الدراسة على إيراد التاريخ الهجري في تأريخ الحوادث والوقائع، مع ما يقابله من التاريخ الميلادي أو العكس؛ منعاً لأي لبس، خاصة أنَّ بعض المراجع التي تم الاستعانة بها هنا تقتصر على التاريخ الهجري أو الميلادي، أو تذكر هذا مرةً وهذا مرة، مما يُصعِّب على القارئ ربط الحوادث زمنيًّا.

وجعلتُ عنوان هذه الدراسة: (المختصر في تاريخ مدينة الشحر العام)؛ لأنَّها بالفعل تاريخ مختصر لهذه المدينة، وقد وجدت أنَّ هناك بعض الفجوات في الوقائع والأحداث التاريخية المرتبطة بالمدينة، واستطعت من خلال الربط بين بعض الأحداث المعلومة وما توفر عنها من نتائج وتحليلها، أن أصل في النهاية إلى بعض الحلقات أو الأحداث المفقودة من تلك الأجزاء المجهولة من تاريخنا.

كما أن الخوض بتوسع في كل الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية في هذا المختصر، قد يتطلب مجلدات كاملة لرصدها وتبيانها، لذلك اخترتُ

سلوكَ سبيل الاختصار، وتسليط الضوء على الجوانب المهمة من تاريخ المدينة، واضعًا نصب عيني الجوانب السياسية من هذا التاريخ، خاصة أنَّ هذا الجانب، كما أشرتُ سابقًا، لم يَلْقَ الدراسةَ الكافيةَ في ما كُتِبَ عن تاريخ هذه المدينة، وطبعًا من غير إغفال الجوانب الأخرى المؤثرة التي قد أُشِيرُ إليها عرضًا ضمن السياق.

إنَّ الإضافاتِ التي تُقدِّمُها هذه الدراسةُ، ستُسهِم بلا شك في إعطاء القارئ فهمًا أوسعَ لمجمَل تاريخ هذه المدينة، وما أدَّته من أدوار حيَّة خلال مسيرتها، ولما مرت به من أحداث ووقائع، بعضها امتدَّ تأثيرُهُ إلى المستوى الإقليمي، وبعضها الآخر يعد إضافة جديدة لمجمل الأحداث والوقائع التي شهدتها البلاد ولم ينتبه لها المؤرخون، أو لم تنل الحظ الكافي من البحث والتحليل، فمرَّ عليها الكثير منهم مرور الكرام، فارتأيت أنَّ من الضروري بعثَها وتسليطَ مزيدٍ من الأضواء عليها؛ لتكون أكثر جلاء ووضوحًا، وبالطبع هناك أحداث وتفاصيل أخرى تخص المدينة وتاريخها، لم تسعفني المراجع والمصادر المتاحة لسبر أغوارها، واستخراج كل دررها من مكامنها، فاكتفيت بهذا الموجود، الذي أعده جهدَ المقِلِّ، على أمل أن يتيسر لي أو لغيري مزيدٌ من المصادر والمراجع، يمكن أن تُقدِّم لنا تصوُّراتٍ أكثرَ تفصيلًا وإيضاحًا للوقائع التاريخيَّة.

وأود الإشارة في ختام مقدمتي هذه إلى أنَّ ثَمَّةَ أحداثًا تاريخيةً أوردتُها هنا، قد يظنُّها بعضُهم من قبيل نبش آلام الماضي، أو من قبيل إثارة ما قد صمت عنه الزمان، وكان الأَوْلى طيَّه وتناسيَه؛ فأقول كما قال المؤرخ المرحوم أحمد الملاحي في نهاية كتابه المخطوط (المدوَّنة التاريخية الشحرية): ((وإنِّي قد سجَّلتُ كثيرًا ممَّا يُخفِيه المؤرخون في تواريخهم، ولهذا سيغضب البعض إذا قرأه، وسيحاول البعضُ إنكار بعضِ ما حُرِّر، والنَّاسُ يُحِبُّونَ

أنْ يُحمَدوا بما لم يفعلوا، والجاهلُ لا يُحِبُّ أن يُقال له: أنت جاهل، وإنِّي ذكَرْتُ ذلك في مذكرتي هذه لأُعطِيَ القارئَ صورةً واضحةً صادقةً، حتى يُمكِنَه إصلاحُ ما عَجزَ عن إصلاحه أجدادُهُ، إنْ كان أهلًا للإصلاح الاجتماعي والمجتمع، ولأجل أن يَعرف القارئُ مقدارَ التدرج الذي درج إليه الشحريُّون ومَنْ جاوَرَهم في زمن السلطنة)).

وفي النهاية لا أزعم لهذه الدراسةِ الشموليَّةَ والكمالَ، ولكنَّني آملُ أنْ تُحقِّق المرجوَّ منها، وأن تكون إضافةً جديدةً تُضافُ لرصيدِ تاريخِ حضرموت العام وتاريخِ هذه المدينةِ العريقةِ، وأن تكون مرجعًا مهمًّا لكل الباحثين في تاريخ هذا البلد، هذا فإن أصبتُ فبتوفيقٍ من الله، وإن أخطأتُ فمنِّي ومن الشيطان، والحمد لله رب العالمين.

المؤلف / آنور السكوتي

فبراير ٢٠١٦م

الفصل الأول

الخلفية الجغرافية والاجتماعية
لمدينة الشحر
مع مدخل للتاريخ السياسي القديم
حتى ظهور الإسلام

الخلفية الجغرافية لمدينة الشحر

تعد مدينة الشحر اليوم من كبريات المدن الحضرمية وأهمّها بعد مدينتي المكلا وسيئون، كما تُعد بنظر عددٍ من المؤرخين من أقدم المدن الحضرمية إلى جانب تريم وشبام، وقد لعبت هذه المدينة أدوارًا مهمَّة عبر التاريخ من قديمِه إلى اليوم.

السكان تاريخيًّا:

إنَّ أقدمَ إحصاء ديموغرافي لسكان مدينة الشحر وصل إلينا، وإن كان غير رسمي، هو ذلك الذي أورده المؤرخ (محمد عبد القادر بامطرف) في كتابه القيِّم (الشهداء السبعة)، حين أشار إلى أنَّ عددَ سكان هذه المدينة بعد الربع الأول من القرن العاشر الهجري وتحديدًا سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م ((عشرون ألف نسمة تقريبًا غير الغرباء الذين قُدِّرَ عددُهم باثني عشر ألفًا))[1]، وهؤلاء الغرباء الذين ذكرهم بامطرف بناءً على رواية الربَّان باسباع (ت: ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م) يشملون الوافدين إلى المدينة من مناطق حضرموت الوادي، وفي تقريرٍ أعدَّهُ الكابتن الإنجليزي (هينـز) سنة ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م بلغ سكان المدينة حوالي ٦٠.٠٠٠ نسمة[2]، ليتضاعف هذا العدد سنة (١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م)

---

١ الشهداء السبعة، صدر بإشراف وزارة الثقافة والسياحة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بالتعاون مع حكومة الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة مطبعة الجمهورية -بغداد ١٩٧٤م، ص٣٠، (من رواية الربَّان باسباع).

٢ الجوهي، خالد حسن، إمارة آل بن بريك في الشحر، دار الوفاق، الجمهورية اليمنية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

إلى حوالي ١٢.٠٠٠ نسمة، وهذا العددُ ضِعفُ عددِ سكان مدينة المكلا آنذاك[1]، مع مراعاة أن هذه الأعداد تقديرية، تعتمد في الغالب على قياس السكان وفقًا لعدد البيوت، وتُغفِل وجود أكثر من أسرةٍ في البيت الواحد، مما يُرجِّح أن عدد سكان المدينة كان أكثر مما ذكر.

أمَّا في القرن العشرين فقد ورد في كتاب المستشرقَيْنِ دانيال درميولين وفون فيسان اللذَيْنِ زارا الشحر في مستهل ثلاثينيات القرن العشرين قولهما: ((أن سكان الشحر حسب التقدير الرسمي ٩.٠٠٠ نسمة، لكن يبدو أنهم لا يتعدون ٦.٠٠٠ نسمة، وبما أن الغربيين لا يدركون مدى ازدحام المنازل العربية الكبيرة بالسكان فيبقى تقديرنا غير مؤكد))[2]. في حين نجد أن المؤرخ محمد بن هاشم العلوي الذي زار المدينة في تلك المدَّة، وتحديداً سنة ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م يذكر أن عدد سكانها نحو خمسة عشر ألف نسمة[3]، بينما يُقدَّر في إدام القوت بـ(١٤.٨٦٥) نسمة تقريبًا[4]، ويشمل هذا الإحصاءُ القُرى التابعة للشحر.

---

١ إنجرامس، دبليو إتش، حضرموت ١٩٣٤–١٩٣٥م، ترجمة د. سعيد عبد الخير النوبان دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠١م، ص١٤. وقد أورد إنجرامس إحصاءً تقريبيًّا لسكان المدينة في وقت إعداده لتقريره، فقدَّرهم مابين ٠٠٠.٠- ٠٠.٠٠٠، ويقول عن الرقم الأخير إنه الأقرب للصحة. ينظر: المرجع السابق ص١١٣، وص١٥. وفي فقرة أخرى قدر عدد سكان ولاية الشحر بحضرها وبدوها حوالي ٠٠.٠٣٤ نسمة. ينظر: المرجع السابق ص١٥.

٢ درميولين، دانيال فان و د. هـ. فيسان، حضرموت إزاحة النقاب عن بعض غموضها، ترجمة وتقديم محمد سعيد القدال، ط١، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ١٩٩٨م، ص٤٩.

٣ العلوي، محمد بن هاشم، رحلة إلى الثغرين الشحر والمكلا، طبع على نفقة آل الكاف، ط١، شعبان ١٣٥٠هـ ص٣٠–٣١.

٤ السقاف، عبدالرحمن، إدام القوت، ص٢١٦.

كما يذكر المستشار الإنجليزي (إنجرامس) في كتابه (تقرير عن حضرموت ١٩٣٤-١٩٣٥م) أن عدد سكان مدينة الشحر يتراوح مابين (٦.٠٠٠ -١٠.٠٠٠) نسمة، أما عدد سكان لواء الشحر ضمن ألوية السلطنة القعيطية فقد بلغ كما أشار حوالي (٣٠.٠٠٠ ٤) نسمة[1]، وثمة عدد تقريبي ورد في كتاب (أدوار التاريخ الحضرمي) لا نعلم لأي عام كان، علمًا بأن الطبعة الأولى للكتاب كانت سنة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، وفيها أنَّ عدد سكان الشحر اثنا عشر ألف نسمة[2].

المساحة:

تبلغ مساحة المديرية نحو (٣.٠١٩) كيلو متر مربع.

نشأة المدينة:

يصعب علينا أن نحدد بدقَّةٍ الحقبة الزمنية التي نشأت فيها مدينة الشحر، ذلك أن بدايات ظهورها الأول بناءً على بعض الإشارات تعود إلى ما قبل الإسلام، وبما أنَّ العلم الحديث لا يتعامل مع قضايا كهذه إلا بأدلة مادية ملموسة، من خلال ما تقدمه اللقى أو النقوش أو الاكتشافات الأثرية، بوصفها شواهد تدل على مدى الاستيطان البشري الأول ومدى حجمه وزمنه، وبما أن عمليات البحث التي شملت المدينة وما حولها في هذا المجال لا تزال في بداياتها الأولى، بل تعثرت الآن قبيل استكمالها، لذا يصعب علينا

١ إنجرامس، مرجع سابق، ص١٥ و ص١١٣.

٢ الشاطري، محمد بن أحمد، أدوار التاريخ الحضرمي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ط٢، (١/ ٢٤).

هذا التحديد، أو حتى التكهُّن بعهد وجودها المدني[1]، وهذا لا يمنع طبعًا من البحث واستقراء ما يتوفَّر من الشواهد والأدلة على أقدمية المدينة، ولكن قبل التطرق إلى هذه الأدلة، لنستعرض بعض الآراء حول نشأة المدينة، بغض النظر عن كونها روايات ذات طابعٍ يقترب من الأسطورة، أو آراءً تميل تنحو المنحى العلمي، تاركين مناقشتها المستفيضة وما سينجم عنها من نتائج، لدراسات أخرى مستقلة.

فمن هذه الآراء بشأن تأسيس المدينة:

١) القول بأقدمية المدينة، وإنَّها من المدن التي كانت تابعة لقوم عاد، بل منهم من جعلها العاصمة لتلك الدولة العظيمة التي شملت أنحاء واسعة من جنوب الجزيرة العربية، في مثلث يضم الآن أجزاء من اليمن وعُمان والسعودية. وهذا الرأي مبني على أقوال بعض الأخباريين والرواة[2]. ويرى آخرون أن عادًا الثانية (المؤمنين من قوم النبي هود)

---

١ أشار الباحث عبدالرحمن الملاحي، في إحدى دراساته، إلى أحد الأبحاث التنقيبية التي قامت بها في المنطقة بعثةٌ فرنسيةٌ سنة ١٩٩٥م، وشملت الشريط الممتد من وادي المسن (على بعد ٤ كم من مركز المدينة غربًا) حتى مخرج وادي دفيقة شرقًا، وقد عثرت تلك البعثة من خلال عملياتها الأولية على بقايا من الخزف واللقى الدالة على وجود مبانٍ قديمة في هذه المساحة، كما عثرت بموضع (دار البياني) بحارة القرية، على فخار وقطع زجاجية ولقيات أخرى يعود تاريخها إلى العصور الأولى للإسلام. ينظر: الملاحي، عبدالرحمن، مدينة الشحر بوابة حضرموت الجنوبية، ص١٨٠. وهذه البعثة لم تكمل عملها؛ نظراً للظروف السياسية والاضطرابات التي مرت بها اليمن عامة والشحر خاصة، إلى جانب قيام السلطة الحاكمة آنذاك، بوضع بعض العراقيل أمامها، وانسحبت البعثة تاركةً مواقعها لعبث العوام، ونهب ذوي النفوذ.

٢ قال المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف في كتابه ملاحظات على ما ذكره الهمداني ص٦٤: ((ويزعم أهل الشحر أن مدينة الشحر، هي مدينة عاد، وأن منطقة الشحر هي أرض الأحقاف اعتمادًا منهم على رواية قديمة تنسب إلى قتادة بن دعامة البصري (ت: ١١٨هـ)، وكان مفسرًا وملمًّا بأيام العرب وأنسابهم)).

نزحوا من الأحقاف بعد هلاك قومهم إلى الشحر على شواطئ البحر العربي، وابتنوا مستوطناتهم الساحلية، ومنها مستوطنتهم التي عُرِفَتْ في بعض النقوش اليمنية القديمة بـ(الأسعاء)[1]. وقد افترض بعض المؤرخين أنَّ المدَّة الزمنية لوجود الحضارة العاديَّة في المنطقة تقع ما بين (٢٠٠٠ - ١٠٠٠ سنة ق. م)[2]، وهي مدَّة تعد حديثة نسبيًّا مقابلة بالمُدَدِ الزمنية التي ظهرت فيها الحضارات الأخرى، والتي تمتد بعضها إلى ٥٠٠٠ ق.م. وقد ذهب بعض المؤيدين لوجود تلك الحضارة بالمنطقة إلى القول إنَّ جبل (ضبضب)، وهو الجبل المطل على المدينة من الناحية الشمالية الشرقية بمسافة حوالي ثلاثة أميال تقريبًا، كان مستوطنة لأولئك الأقوام، وإنَّ بهذا الجبل الكثير من آثارهم وشواهدهم، وإنَّ بعض هذه الآثار، كما يزعمون، لا تزال مطمورة في أماكن مجهولة منه ومِمَّا حوله. والحقيقة أن الواقع المشاهد لا يُظهر أي شيء، ولو يسيرًا، يُشير إلى وجود أثر مادي لتلك الحضارة البائدة أصلًا.

وفي محاولة الوجدان الجمعي لتأكيد هذا الظن، ذلك الذي ذهب إليه بعضُهم وفقًا للروايات الشعبية المتواترة من القول بأنَّ نبيَّ الله هودًا نزح ومن معه من المؤمنين بعد أن وقع العذاب على قومه العصاة، إلى الساحل (المدينة)، وابتنى بها منزله الذي أقام فيه وأهله، وأنَّ بنات هود قُبِرْنَ في الشحر[3] في مقبرة تسمى (الحور)، في حين قُبِرَ هُوَ عليه

---

١ الملاحي، عبدالرحمن، مدينة الشحر بوابة حضرموت الجنوبية التاريخية، ص١٨٢.

٢ الشاطري، محمد، أدوار التاريخ الحضرمي، (١/ ٣٦).

٣ ذكر لنا المؤرخ أحمد الملاحي في كتابه (المذكرة التاريخية) شذرات مما علق في ذاكرة بعض الناس عن بنات النبي هود وسكناهن في المدينة، يقول: ((وهناك مقبرة بقرب الشاطئ يقسمها السور نصفين، أحدهما خارج السور والثاني داخله، يقال لها (مقبرة الحُور) بالحاء المهملة. فمن هذا الحور ؟ فقيل: إنه رجل من الحواريين=

السلام في سفح جبل واقع شرقي بئر برهوت الشهيرة، وهو المكان الذي تُقام عنده زيارة هود الشهيرة في شهر شعبان من كل عام.

٢) القول بتأسيس مدينة الشحر في عهد الدولة السبئية التي سيطرت على أرجاء اليمن كافة[١]، وهناك أسطورة اختلقها كما نرى الرحَّالة الملَّاح الأسترالي (آلان فليرز)، ونسبها إلى أحد النواخيذ الكويتيين الذين كانوا يترددون بمراكبهم الشراعية على مدينة الشحر في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، تقول: إنَّ ملكة سبأ (بلقيس) هي من ابتنت المدينة والميناء معًا. وهذه الملكة التي حكى عنها وعن قومها عُبّادِ الشمس القرآنُ الكريمُ، كانت معاصرة للنبي سليمان عليه السلام، وتعود المدة التاريخية لهذه الملكة تقريبًا إلى القرن العاشر قبل الميلاد[٢]، وتفيد بعض الروايات أنَّ قدوم الملكة بلقيس على النبي سليمان كان في سنة ٩٥٠ ق. م[٣].

ولعل أسطورة (أنَّ ملكةً كانت تحكم المدينة) قد التبست على الراوي، هذا إنْ لم نقل إنَّها من ابتداع خيال (فليرز) الواسع، فقد شاع ضمن المتواتر من أساطير المدينة وأخبارها،

=دُفِنَ بهذه المقبرة. وقيل: إن بنات نبي الله هود عليه السلام، دُفِنَّ في هذه المقبرة، وكان يقال لهن (الحور)، وأن بيتهن كان في المحل الذي بُني فيه مسجد العيدروس في حافة عقل باغريب، كما يقال: إن بيت نبي الله هود عليه السلام كان في المحل الذي بُني فيه مسجد العيدروس بحافة الرملة)). الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية، مخطوط، ص٦١. والمقبرة التي يقسمها السور نصفين موجودة إلى الآن، وتسمى بمقبرة عبدالرحيم، نسبة للشيخ عبدالرحيم باوزير.

١ الناخبي، حضرموت، فصول في الدول والأعلام، ص٦١.

٢ فليرز، آلان، أبناء السندباد، ص١٣١. ويبدو أن الطبيبة إيفا هويك قد اطلعت على هذه الأسطورة، إذ نفت في كتابها (سنوات في اليمن وحضرموت) وصول ملكة سبأ (بلقيس) إلى حضرموت.

٣ علي، جواد، المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام،(٣/ ٢٦٤).

أنَّ ملكة قضاعية تدعى (سمعون) كانت حاكمة على المنطقة قبيل الإسلام بقرون، وقد جعلت من موقع المدينة (الأسعاء) مركزًا لحكمها[1]، ومنها حملت المدينة اسمها (سمعون)، ولا يزال هذا الاسم يُطلق على المدينة في جملة أسمائها وألقابها المتعددة، و(سمعون) حاليًّا اسمٌ لمسيال (وادي السرحة) الذي يخترق المدينة من موضعين[2]، وقد ذهب بعضُ المؤرخين إلى القول بوجود أنقاضٍ لمدينةٍ عاديَّةٍ على إحدى ضفتي هذا الوادي الواقعة إلى الشمال الغربي من المدينة[3].

ويرى المؤرخ الناخبي أن اسم (سمعون) الوارد في تلك الأسطورة ربما التبس على بعض المؤرخين، ويرى الناخبي أنَّ اسمها (سعاد)؛ لأنَّه اسمٌ مؤنث، في حين أنَّ (سمعون) اسمٌ مذكر[4]. والحقيقة أن هناك الكثير من الأسماء تطلق على الجنسين معًا، مثل: (كرامة) و (نور) و (جمعة) وغيرها.

و(سعاد) أيضًا من أسماء الشحر، ونفترض أنَّها سُمِّيَت بهذا الاسم نسبةً إلى الأميرة سعاد بنت معاشر، التي حكمت المدينة مع ابنها السلطان محمد أبي دجانة.

---

١ ينظر: بامطرف، محمد عبدالقادر، قبيلة قضاعة اليمنية.

٢ يرى بامطرف أن اسم الوادي (سمعون) قبل أن يحمل اسم الملكة القضاعية ((كان اسمه (وادي السرحة)، والسرحة أو السرح هي شجرة دم الاخوين، وكانت هذه الاشجار توجد في هذا المسيال، ولأن عود هذه الشجرة قوي جدًّا لا تأكله الأرضة أو أية آفة من آفات الخشب؛ كان أهل الشحر يسقفون بها بيوتهم إلى عهد قريب)). قبيلة قضاعة اليمنية، ص١٢.

٣ المرجع السابق.

٤ الناخبي، عبدالله، شذور من مناجم الأحقاف، ص٥٩-٦٠.

٣) أن من ابتنى هذه المدينة هو الملك الحضرمي (العزيلط)، أو (العز)، أو (العذ)، والذي سميت المدينة باسمه (Alasa)، وأنَّ المدينة قبل عهده كانت قرية صغيرة وأخصاصًا للصيادين، وأنَّه بعد أن دمر ميناء قنا الحيوي الذي كان بمثابة الشريان الرئيس لمملكة حضرموت القديمة، ابتنى في موقع المدينة ميناءً جديدًا ليكون بديلًا من ميناء (قنا)، واختار هذا الموقع؛ لأنَّه بعيدٌ عن هجمات الحميريين.

وفي إشارة للدكتور (سرجيس فرانتسوزوف) ذكر أنَّ الأسعاء (الشحر) ذُكِرَت في بعض النقوش كنقش (ينبق ٤٧) باسم (إسعين)[١].

كما أشار الباحث (عبدالرحمن الملاحي) إلى أن مدينة الأسعاء جاء ذكرها بهذا الاسم في نقش وُجِدَ بوادي (ميفعة)، يتحدث عن حصار قبيلة (ذي يزن) للمدينة، وكان هذا في منتصف القرن الرابع الميلادي[٢].

٤) القول بوجود مدينة الشحر قبل الإسلام بحوالي قرن وربع من الزمان، بناءً على أنَّ أقدم نقش جنوبي عربي عُثِرَ عليه فيه ذِكرٌ للمنطقة (ساحل حضرموت) كان باسم (يمنة) ويعود تاريخه إلى مطلع القرن السادس الميلادي، وأنَّ اسم الشحر الذي عُرِفت به اليوم، لم تُعرَف به إلا منذ سبعة قرون تقريبًا. وهذا الرأي أشار إليه الدكتور محمد عبدالقادر بافقيه، ويرى بافقيه أنَّ الساحل المعروف في التاريخ الإسلامي بالشحر كان في عهد الحميريين يسمى (يمنة)، وبسيطرة هؤلاء الحميريين (التبابعة) على حضرموت والشحر أصبح لقبهم (ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة)، وكان هذا في عهد

١ سرجيس فرانتسوزوف، تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي قبيل الإسلام وبعده، ص٤٤.

٢ الملاحي، عبدالرحمن، مدينة الشحر بوابة حضرموت الجنوبية التاريخية، ص١٧٩.

الملك الحميري (شمريهرعش). و(يمنة) أو (يمنات) في اللقب السابق قُصِد بها جنوب حضرموت، أي: ساحلها، ولا توجد منطقة في جنوب حضرموت غير ما تُعُورِف على تسميته بـ(الشحر)، وهي ساحلها[1].

٥) القول بأن قبيلة كندة بعد نزوحها من شمال الجزيرة قبل ظهور الإسلام، ابتنت مدينة الشحر، وأسست بها حيَّ (القرية) أوَّلَ مستوطنة لهم، وقد أطلقت على هذا الحي تسمية (قرية الملوك)؛ تيمناً بملوكها المشهورين عبر التاريخ، واتسعَت رقعةُ المدينة بعد الإسلام[2] على أيدي حكامها من كندة، وهم من ابتنى مسجد (الجامع) أوَّل مسجد بالشحر، وأقاموا العمران فيها.

ويستند القائلون بهذا الرأي إلى وجود بطون قبائل كندة على الساحل في أثناء ظهور الإسلام وقبله بعقود، وخاصة بطون (السكاسك) و(السكون) و(الصدف)، وإلى جانبها عدد من القبائل الحضرمية المنتمية لحضرموت (القبيلة)، كـ(ثَعْيَن) و(الحموم)، وكانت الزعامة فيها لكندة[3]، ومن بطون (الصدف) التي وجدت في زمن ظهور الإسلام، وأسسوا لهم مستوطنة في (مخلاف الأسعاء)؛ (بنو زاف بن ذخير بن غسان بن جذام بن الصدف)، وهؤلاء سكنوا مناطق (الحَيْق)[4]، و(الحَيْق) في العُرف الحضرمي يُطلق على

١ الموسوعة اليمنية (١/٤٠٨) مقال محمد عبدالقادر بافقيه مادة حضرموت؛ وانظر ايضا الملاحي، عبدالرحمن، مدينة الشحر بوابة حضرموت، ص١٧٧.

٢ الملاحي، عبدالرحمن، مدينة الشحر بوابة حضرموت، ص١٨٠، ص١٨٣.

٣ انظر بامطرف، محمد، الشهداء السبعة، ص٢٠. عند الشاطري، ثعين من قبائل بني ظنه،ادوار التاريخ (٢/ ٣٥٥).

٤ سرجيس فرانتسوزوف، تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي قبل الإسلام وبعده، ص١٨١. وينظر: قبائل سيبان، والشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي (٢/ ٣٥٩). وفيه أنَّ آل الحيق من الحالكة من سيبان. والحيق،=

أغوار الأرض، في حين يُطلق اسم (النيد/ النَّجْد) على أعالي الأرض، ومنطقة (الحَيْق) الأصلية ((تمتد من شمال غرب مدينة غيل باوزير إلى شمال غرب مدينة الشحر))[1]. وتوجد حاليًّا قبيلة حضرمية تعرف بـ(الحَيْق) أو (الحَيْقي) تسكن في المناطق الواقعة إلى الغرب من مدينة الشحر، وتنتسب إلى قبيلة (سيبان) من حِمْيَرِ حضرموت[2].

٦) أما المؤرخ سقاف بن علي الكاف فيرى أنَّ مؤسس الشحر هو (أبو ثور المهري)، وأن المدينة كانت من مواطن (قبيلة قضاعة) التي سيطرت على الساحل الحضرمي والمهري قبيل الإسلام، ويرى أن هذه القبيلة انحسر نفوذها مع مرور الأيام وانمحى اسمُها من الشحر وغربها[3].

ومن الواضح أن رأي الكاف هذا يتناقض مع نفسه، ففي الحين الذي يؤكد فيه أقدميَّة المدينة؛ لوجود قبيلة قضاعة العريقة فيها، والتي يقول عنها إنَّها تلاشى صيتها ومكانتها من الساحل بعد قدوم قبيلة كندة قبيل الإسلام؛ يقول، في الوقت نفسه،بتأسيسها لاحقًا على يد أبي ثور المهري! وعلى مايبدو أن الكاف التبس عليه ما

=تأتي بمعنى الفرضة في البحر مما يصلح لرسو السفن سواء اتخذ لذلك أم لم يتخذ. وفي النقوش حيق قنأ بمعنى فرضة قنأ. ينظر: الموسوعة اليمنية (١/ ٤٢٩).

١ يقول بامطرف في رده لبعض ماكتبه الهمداني في صفة جزيرة العرب: ((منطقة الحيق الأصلية تمتد من شمال غرب مدينة غيل باوزير إلى شمال غرب مدينة الشحر، وتسكن هذه المنطقة قبيلة صغيرة من سيبان الحميرية تسمى آل الحيق، ولاصحة لما قاله القاضي الأكوع (محقق كتاب الهمداني) من أن منطقة الحيق تمتد إلى المهرة)). ملاحظات على ماذكره الهمداني عن جغرافية حضرموت، ص٧٠.

٢ الشاطري، محمد، أدوار التاريخ الحضرمي (٢/ ٣٥٩)، وبامطرف، ملاحظات، مرجع سابق ص٧٠، والجامع، ص١٨٩.

٣ الكاف، سقاف بن علي، حضرموت عبر أربعة عشر قرناً، ص٢٩.

أورده الهمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب)، ونقله عنه علوي بن طاهر الحداد في كتابه الشهير (الشامل)، حينما قال الهمداني إنَّ الشحر هي موضعُ أبي ثور المهري. وقولُ الهمداني هذا لا يُفهِم أنَّ أبا ثور هو مؤسس الشحر، بل يُفهِم أنَّه كان مسيطرًا عليها في ذلك العصر، وعليه لا أساسَ لقول الكاف من الصحة.

وأبو ثور المهري المذكور هو مِنْ بني تبلة بن شماسة الثعينيين، أي من حضرموت القبيلة، وليس من مهرة القضاعية كما يبدو من ظاهر نسبته[1]، ويتبيَّن من كلام الهمداني والملاحي أنَّ الشحر في ذلك العهد كانت خاضعة لأبي ثور المهري، وأنَّه كان من قبيلة ثَعْيَن، بغض النظر عن قضاعيتها أو حضرميتها، وهذا يعني أن هيمنة قبيلة كندة في هذه المدَّة (القرنين الثالث والرابع الهجريين) قد تلاشت من المدينة ومن مناطق الساحل الحضرمي، مع ملاحظة الاختلاف في أصول الدُّويلات المحلية التي حكمت المنطقة لاحقًا، كإمارة آل فارس وآل إقبال وآل أبي دجانة، فيرجعها بعضُهم إلى ثَعْيَن، ويرجعها آخرون إلى كندة.

٧) بعض المؤرخين ذهب إلى أن نشأة المدينة كان في مدَّة لاحقة، وتحديدًا في عهد الملك المظفر يوسف بن عمر الرسولي (٦١٩-٦٩٤هـ/ ١٢٢٢-١٢٩٥م)، الذي تولى الحكم بعد أبيه الملك المنصور نور الدين عمر سنة٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، ففي عهده استولى المظفر على مدينة الشحر سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م، وكانت حينها كما يزعم بعضُهم

١ بامطرف، ملاحظات على ماذكره الهمداني، مرجع سابق، ص٧٨. في حين يرى المؤرخ الهمداني أن ثعين هذه هي قضاعية من أولاد يحنن بن جسريت بن الدين بن اضطمري بن مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف. ينظر: الإكليل: (١/ ٧٣)، تحقيق أوسكار لوفغرين، طبع بمطابع بريل بمدينة ليدن ١٩٦٥م.

أخصاصًا وأكواتًا للصيادين، وفيها أقام المظفر مدَّة من الزمن بنى خلالها الميناء، وأقام حولها سورًا دائريًّا يُحيط بها إحاطةَ السوار بالمعصم[1].

ومن الواضح أنَّ ثَمَّةَ خلطًا ولبسًا قد حصل لدى مَنْ تبنَّى هذا الرأي، فالمدينة قبل مقدم الرسوليين كانت عامرة بالناس، وإنَّما تعرَّضت للخراب قبل مجيئهم على أيدي الأيوبيين وعلي بن مهدي[2]، كما أنَّ الملك الرسولي المشار إليه (المظفر يوسف بن عمر) لم يأتِ بنفسه إلى الشحر حينما أخضعها مباشرة لدولته، ونستدل على هذا بما أورده مؤرخو هذه الدولة، ومنهم على سبيل المثال المؤرخ علي بن الحسن الخزرجي (ت:٨١٢ هـ/ ١٤٠٩م)، إذ لم يُشِرْ في كتابه الشهير (العقود اللؤلؤية) من قريب ولا من بعيد لمقدم الملك المظفر (يوسف بن عمر) بنفسه إلى الشحر، أو إلى حضرموت، في الحملة الشهيرة التي استولت فيها قوَّاتُه على ظفار سنة (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م)، والثابتُ هو أنَّ ابنه الملك المؤيَّد داؤد بن يوسف (ت:٧١٢هـ/ ١٣٢١م) قد قضى مدَّةً من الزمن في الشحر، وبرفقته عمته (الدار الشمسي)، وكان هذا سنة (٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م) تقريبًا[3].

١ ذهب لمثل هذا القول عدد من المؤرخين منهم شيخ الربوة أبو عبدالله محمد الأنصاري، في كتابه عجائب البر والبحر،ص٢١٧، والدمشقي، ابن بهرام، جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير ص١١٦ – ١١٧، والناخبي، عبدالله، شذور من مناجم الأحقاف، ص٦١، وباوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١٤٨، والسقاف، عبدالرحمن، إدام القوت، ص١٦٧.

٢ لمعرفة بعض حملات النهب والسلب والتدمير التي تعرَّضت لها المدينة عبر تاريخها، ينظر: بامطرف، محمد عبدالقادر، الشهداء السبعة، ص٣٥.

٣ الخزرجي، علي بن الحسن، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، عني بتصحيحه وتحقيقه: محمد بسيوني عسل، ومحمد بن علي الأكوع، مركز البحوث والدراسات صنعاء، دار الآداب، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م، (١/ ٣٤٧).

ولعل منشأ اللبس هو أنَّ الذي قَدِمَ إلى الشحر هو أخ للملك الرسولي (الأفضل) عباس بن علي (المجاهد) بن داؤد (المؤيد) بن يوسف (المظفر)، وهو الذي حكم في المدَّة من (٧٦٤-٧٧٨هـ/ ١٣٦٣-١٣٧٦م)، ويلقب هذا الأخ بـ(المظفر) أيضًا، إلا أنَّ قدومه كان بعد ما يقارب القرن من حملة جده المظفر الأول، فقد قال المؤرخ أحمد شنبل في ذكره حوادث سنة (٧٦٧هـ/ نحو ١٣٦٥م): ((وفيها وصل المظفر بن الملك المجاهد إلى حضرموت، وخرج إلى الشحر فأخذ (عرف)، ثم رجع إلى حضرموت مع محمد بن أحمد بن يماني وجماعة من أصحابه، وبالشحر يومئذ داؤد بن خليل الهكاري، وداؤد بن موسى بن حناجر ومماليك))[١]، وقال في حوادث سنة (٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م): ((وفيها انصرف الملك المظفر من الشحر إلى حضرموت، ولم يظفر بشيء، وأقام في تريم مدة، ثم سافر إلى بلاد الظاهر، ومات بها))[٢].

إنَّ اللبس واضح في تاريخ مَقْدم المظفَّرَينِ للمدينة، فقد نسب للأول ما يحتمل أن يكون للثاني، وحتى في تلك الفقرات التي تحدثت عن مَقْدم المظفر بن علي المجاهد إلى الشحر لا توجد أيّة إشارات واضحة تفيد قيام المظفر ببناء المدينة، أو إعمارها، أو تسويرها، باستثناء قلعة نسبت لآل رسول، ففي بعض المراجع ورد ذكرٌ لقلعةٍ قديمةٍ بالمدينة كان الأهالي يطلقون عليها (قلعة الرسولي)[٣]، دون أن تحدد لنا هذه المراجع هوية بانيها ولا زمنها، ولا وجود لهذه القلعة اليوم.

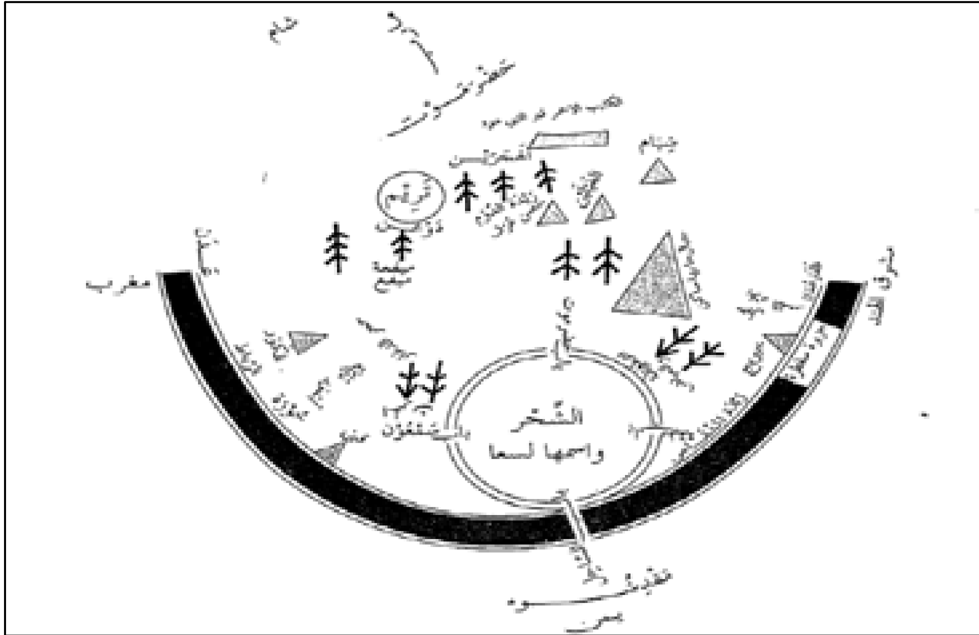
١ شنبل، أحمد، تاريخ حضرموت ص١٣٢، وعبدالنور، محمد يسلم، الحياة العلمية في حضرموت في القرنين(٧-٨هـ) أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي وحضارته، إشراف، أ.د. عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع، جامعة صنعاء، ص٢٠٠٨م، وعنده (المظفر يحي) ينظر: ص٣٩.

٢ شنبل، أحمد، تاريخ حضرموت، ص١٣٢.

٣ جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير ، ص١١٧.

ومن المرجح أنَّ المظفر هذا لم يستطع اقتحام أسوار الشحر، فانصرف عنها، وهذا ما سنبينه في حديثنا عن الدولة الرسولية.

ولعل هناك مصادر أو مراجع أخرى لم نطلع عليها يمكن أن تُجلِّيَ بعضَ ما خَفِيَ أو التبس، ومن الواضح أيضًا أن المدينة في ذلك العهد قد بلغت شأوًا كبيرًا في جانبيها العمراني والاقتصادي، ولم تكن مجرد أخصاص، كما سنبيِّنه بالتفصيل عند حديثنا عن الشحر في عهد الدولة الرسولية.



الشحر ضمن أعمال الدولة الرسولية

المصدر / ارتفاع الدولة المؤيدية ص ١٣٢، وص ٣٩٥.

نعم، لم تكن مدينة الشحر عبر تاريخها بتلك المدينة الكبيرة المترامية الأطراف، أو ذات الكثافة السكانية العالية، شأنها في ذلك شأن الكثير من المدن والعواصم الأخرى المعاصرة لها، فهي كما وُصِفَت من قِبَل بعض الرَّحَّالة عبر العصور تارة بـ(المدينة الصغيرة)، وتارة أخرى بـ(القرية الكبيرة)، وأيًّا تكن تلك الأوصاف فهي لا تقلل أو تُنقِص من قدر المدينة وأهميتها، ولا من أدوارها التي لعبتها عبر التاريخ.

وقد أشار المؤرخ أحمد الملاحي (ت ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م) إلى أنَّ أصل مدينة الشحر كان حَيَّي (القرية) و(المجرف)، ثم امتدَّت غربًا، فنشأ حيُّ (الرملة)، وكانت المقبرة الرئيسة هي مقبرة (عمرو)، وهي تعد في ذلك الزمن خارج حدود المدينة، وأنَّ كل الآثار والحصون القديمة موجودة بحيَّي (القرية) و(المجرف)، وعلى أنقاضها قامت البيوت الحديثة، ثم امتدت الشحر إلى جهتي الغرب والشمال، فنشأ حيُّ (الجزيرة) ثم حيُّ (الحوطة)، ثم حارة (الخور)، وقبيل حكم أسرة آل بن بريك اتَّسعت الشحر، فنشأ (عقل باعوين)، وحافة (عقل باغريب)، ثم امتدَّت الشحر شرقًا، فنشأت حارة (المجورة)، وسُمِّيَت بهذا الاسم لمجاورتها آل الشيخ أبي بكر بن سالم، وذكر الملاحي كذلك أنَّ الشحر عبر تاريخها لم تكن محصَّنةً بسُور إلى أن جاء القعيطي وقام بتحصينها[1].

ونحن لا نتفق مع المؤرخ الملاحي في ما يتعلق بتاريخ السور؛ إذ من الثابت تاريخيًّا أنَّ للمدينة أسوارًا عدة، تم الإشارة إليها في عدَّة من المراجع التاريخية، بل إن السور المنسوب للقعيطي إنَّما أُقِيمَ على أنقاضٍ سورٍ قديمٍ، مع بعض الإضافات ليناسب حجم المدينة في عصره.

١ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية ص٥٩-٦٣.

وقد رسم المؤرخ والفنان أحمد بن عبدالقادر الملاحي خريطةً لمدينة الشحر ضمن إطار السور (الذي بناه القعيطي)، وبَيَّنَ فيها الأحياء الرئيسة في المدينة ومواقعها.

صورة للخريطة التي رسمها المؤرخ أحمد الملاحي في كتابه المذكرة التاريخية ص٤٧٣. تبين أحياء المدينة الثمانية داخل السور ومواقعها وامتداد السور وبواباته ومواقع بعض قلاعه وأشهر المساجد،

مع ملاحظة أن اتجاه الشمال يشير للأسفل.

أسماء المدينة وألقابها[1]:

عُرِفَت مدينة الشحر بعدَّة أسماء وألقاب ذات دلالات مختلفة، ولعل تسمية (الشحر) التي تكاد المدينة تنفرد بها اليوم، وبها تشتهر، كانت في ما مضى تُطلَقُ على الشريط الساحلي لحضرموت بطُولِهِ، وتُطلَقُ أحيانًا على الشريط الساحلي الممتد من ظفار شرقًا إلى مشارف عدن غربًا، وهو الشريط الذي أطلقت عليه التوراة اسم (نود)[2]، في إشارة إلى المنطقة الواقعة شرقي عدن، وهي المنطقة التي فرَّ إليها، كما تقول التوراة، قابيلُ بن آدم، بعد قتله لأخيه هابيل.

وثمة موضع قديم في شبوة عاصمة مملكة حضرموت القديمة يُعرف بـ(أنود)، تتم فيه مراسيم تتويج الملوك الحضارمة، ممَّا قد يرجح تلك العلاقة المفترضة[3]، ومؤرخو

---

١ للاستزادة عن الشحر وأسمائها ينظر بحث أعده الأستاذ عبد الله صالح حداد بعنوان الشحر وأسماؤها الأخرى، نشر بمجلة العرب الصادرة عن دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر -الرياض - المملكة العربية السعودية، ج٣، ٤ س ٣٢ ، يناير- فبراير سنة ١٩٩٧م. ص ٢٣٨-٢٤٥؛ وينظر كذلك: إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت للشيخ عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف، دار المنهاج -لبنان -الطبعة الأولى ٢٠٠٥م ص١٩٥؛ والشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها، للمؤرخ علوي بن طاهر الحداد، تريم للدراسات والنشر، ٢٠٠٥م، نقلًا عن طبعة سنغافورة ط١، ١٩٤٠م، ص١٠٩؛ والملاحي، عبد الرحمن، بحث بعنوان، مدينة الشحر بوابة حضرموت الجنوبية التاريخية في القرن الثامن والتاسع الهجريين؛ وبامخرمة، عبدالله الطيب، النسبة إلى المواضع والبلدان(١/ ٣٦٧).

٢ ينظر: التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الرابع، العدد ١٦. وجاء عن (نود) في قاموس الكتاب المقدس أنه ((اسم سامي معناه التائه أو المنفي، وهي مقاطعة إلى الشرق من عدن، هرب إليها قايين من وجه يهوه بعد أن قتل أخاه هابيل (تك٤: ١٦).)) ينظر: قاموس الكتاب المقدس، هيئة التحرير د. بطرس عبد الملك وآخرون، كتاب إلكتروني ملف وورد، الحقوق محفوظة لشركة Compubraill.

٣ علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط٤، ٢٠٠١م، (٣/ ١٤٢، ١٥٧)؛ وباوزير، سعيد عوض، صفحات من التاريخ الحضرمي، دار الوفاق للدراسات والنشر، ط٣، ٢٠١٢م ص٢٥.

القرون الوسطى لم يعرفوا اسمًا لمكان اشتهر بموقعه الجغرافي الواقع بين ظفار عُمان وعدن، سوى اسم الشحر بوصفها إقليميًا.

أما بالنسبة لاختصاص مدينة الشحر المعروفة بهذه التسمية فمن الصعب تحديد مدَّته الزمنيَّة، لا سيما أنَّ هناك أسماء أخرى اشتهرت بها المدينة قبل اشتهارها باسم (الشحر)، منها ما ورد في بعض النقوش اليمنية القديمة كنقش ينبق (٤٧)، وهو اسم (أسعين)[١]، أي الأسعاء، كما أطلق عليها تاجرٌ يونانيٌّ مرَّ بها في أوائل القرن الرابع الميلادي اسم ساشأليتز (Sachalitae)[٢]. ويرى بعضهم أنَّ هذه التسمية الأخيرة إنَّما عني بها بلاد ظفار، أو بمعنى أدق (أرض اللبان). أمَّا الملاحون اليونانيون فأطلقوا على هذه المنطقة التي أقيمت عليها المدينة تسمية (السوق) أو المركز الأسعاء (alasa)، وهي التسمية التي اشتهرت بها خلال القرون الوسطى، وإن شابها أحيانًا بعض التحريف، إذ رُسِمَت (الأسعا) و(الأسعى) و(الأسعاء) و(تلسعا) و(لسعا)، وتمادى آخرون فرسموها (الأشغاء) أو (الأحساء)! وقد قرأها بعض المترجمين الأجانب محرَّفةً (الأحساء)، وعنه

١ سرجيس فرانتسوزوف، تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي قبيل الإسلام وبعده، تقديم وتعريب: د. عبدالعزيز جعفر بن عقيل، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الإجتماعية صنعاء ٢٠٠٤م، ط١، الآفاق للطباعة والنشر، ص٤٤.

٢ الملاحي، عبدالرحمن، مدينة الشحر بوابة حضرموت الجنوبية التاريخية، (بحث منشور ضمن كتيب يضم أبحاث الحلقة العلمية الرابعة والخامسة في ذكرى دخول المهاجر إلى الله أحمد بن عيسى إلى حضرموت، يصدر عن منتديات وادي حضرموت الثقافية الاجتماعية، تحت إشراف مركز الإبداع الثقافي للدراسات وخدمة التراث التابع لأربطة التربية الإسلامية ومراكزها التعليمية والمهنية) ص١٧٧؛ والدلالات الاجتماعية، ص١٣.

أخذها من جاء بعدهم وذهبوا بها بعيدًا، تمامًا مثلما أوردت هذه التسمية مصحفة في بعض طبعات كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر للجغرافي الشهير المسعودي، وعنه تناقلها الناقلون وذهبوا بها بعيدًا، وسنأتي لهذا النص في أثناء حديثنا عن الشحر في كتابات الرحالة والجغرافيين.

وللأستاذ الباحث (عبدالله صالح حداد) دراسة بعنوان (الشحر وأسماؤها الأخرى) أكّد فيها أن (الأسعاء) هي التسمية التي لازمت المدينة منذ القرن الرابع للهجرة، وتحديدًا عند الحسن الهمداني، واستمر الحال كذلك إلى القرن الثامن الهجري[١].

كما أطلق على المدينة اسم (سمعون) نسبة لوادٍ شهيرٍ يخترقها ويقسِّمها على أجزاء، ومن آباره كان الناس يشربون[٢]، ويرى بعضهم أن (سمعون) هو اسم ملكةٍ قضاعيةٍ حكمت المدينة[٣].

---

١ صدرت هذه الدراسة بمجلة العرب الصادرة عن دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض - المملكة العربية السعودية، ج٣، العدد ٤ يناير، فبراير سنة ١٩٩٧م ص ٢٣٨- ٢٤٥؛ وجاء عند الهمداني قوله ((وساحل هذه القرى الأسعاء موضع أبي ثور المهري)) انظر الهمداني الحسن بن أحمد صفة جزيرة العرب تحقيق محمد الاكوع، مكتبة الإرشاد صنعاء ط١ ١٩٩٠م ص١٧١. وفي بعض وثائق الدولة الرسولية جاءت باسم لسعا انظر ارتفاع الدولة المؤيدية تحقيق محمد عبد الرحيم جازم.

٢ الناخبي، حضرموت فصول في الدول والاعلام ص٥٩.

٣ انظر بامطرف في فذلكته التاريخية بعنوان قبيلة قضاعة اليمنية.



خريطة كلوديوس بطليموس ويظهر فيها اسم أرض اللبان ساشأليتز والأسعاء امبوريوم (السوق) وميناء قنا.

المصدر/بحث للبروفسورة اسمهان الجرو بعنوان العلاقات السياسية بين عمان واليمن القديم في العصر الحميري القرن(٤-٦م) ص١٠.

كما أطلق عليها (أرض اللبان) و(بلاد العنبر)، وكذلك لُقِّبَت بأم اليتامى؛ لاحتضانها جموع النازحين من مدن حضرموت الداخل وقراها، أزمان المجاعات المختلفة[1]، وفي ذلك يقول الشيخ أحمد عبود باوزير (ت:١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م):

صارت مدينتنا كما عين الحياة　　　تملأ شوارعها أنابيب المياه

ونورها يزداد أيام الغروب

سعاد يا أم اليتامى　　　يا خيرة البلدان في أرض الجنوب.

كما سميت بـ(مدينة آل عاد)، و(السوق)، و(سوق الأحقاف)، و(سدة الوادي)، فضلاً عن (الزبينة)، و(سُعاد)، وهذا الاسم الأخير لا يقل شهرة عن اسم (الشحر) لدى الحضارمة خاصة، كما يصفها بعض مؤرخيها بـ(المحروسة) أو (المحميَّة)[2]؛ لسورها المحيط بها من ثلاث جهات، كما تسمَّى بـ(البندر)؛ لوجود الميناء بها، وهذه التسمية الأخيرة تشاركها فيها مدن أخرى ذوات موانئ.

ولكل تسمية من هذه التسميات السابقة دلالتها، ولسنا بصدد بيانها هنا؛ فقد أسهب الباحثون والمؤرخون في ذلك[3].

---

١ سطر لنا المؤرخون عدد كبير من المجاعات التي حلت بالمنطقة، لعل أشهرها تلك التي حلت بالبلاد خلال فترة الحربين الكونيتين، وأدت لنزوح اعداد كبيرة من سكان حضرموت الداخل إلى المناطق الساحلية.

٢ تكرر وصف الشحر بالمحروسة في كتاب تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر للمؤرخ الطيب بافقيه، وللمؤرخ والشاعر عبد الله باحسن (ت ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م) مؤلف أسماه نشر النفحات المسكية في أخبار الشحر المحمية. حققه مؤخرًا الباحث محمد عبدالنور.

٣ للاستزادة تنظر دراسة الأستاذ عبد الله صالح حداد (الشحر وأسماؤها الأخرى)، نُشرت هذه الدراسة بمجلة العرب الصادرة عن دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر -الرياض -المملكة العربية السعودية، ج١، ٢،=

وللشاعر الشعبي الشيخ سليمان بن عوض باجردانة الشبامي قصيدة يمتدح فيها أمير الشحر مطران بن منصور (ت: ٩٢٩هـ) لدفاعه عن الدولة الكثيرية ضد المتآمرين عليها، يقول فيها:

بشر وأجود وبن دغار يبغون دخله في سعاد الزبينة خير لاراض جملة

يحسبون المدن ميسورة الكسر سهلة عاد فيها الذي يحمي لا غاب أهله[(١)]

ويرى المؤرخ (محمد عبدالقادر بامطرف)، أن أصل تسمية الشحر بـ(سعاد) جاء من لفظة (اللسة)، التي كانت تُطلق على الدلتا التي كونها مسيال (دفيقة) من الشرق ومسيال (سمعون) من الغرب، وهي دلتا امتازت بجفافها وقحولة أراضيها وضآلة النبات فيها، وأنَّه مع مرور الوقت حُرِّفَت (اللسّة) إلى ((اللسعة وذلك لشدة حرارة الشمس بها أيام القيظ، ثم حُرِّفَت (اللسعة) إلى (الأسعاء) أو (الأسعى)، ثم حُرِّفَت كلمة (الأسعاء) إلى (سعاد)، وهو الاسم الذي يطلقه أهل الشحر للدلالة على مدينتهم، وتزخر به أشعارهم الشعبية))[(٢)].

=س٣٢ ، نوفمبر-ديسمبر سنة ١٩٩٧م ص ٢٣٨-٢٤٥؛ والحداد، علوي بن طاهر، الشامل، ص١٠٩. وللشعراء الشعبيين أثر كبير في تجذير تلك الأسماء والألقاب في الوجدان الشعبي، إذ لا يزالون إلى اليوم يتغنون ويترنمون في أشعارهم ومساجلاتهم بها.

١ وردت هذه الأبيات بروايات مختلفة. تنظر في كتاب بافقيه، محمد بن عمر، تاريخ الشحر واخبار القرن العاشر، ص٨١.

٢ بامطرف، محمد عبدالقادر، الشهداء السبعة ص ١٩؛ وينظر كذلك: الرفيق النافع ص٧٥. وملاحظات على ماذكره الهمداني عن جغرافية حضرموت، تحقيق د. حسن العمودي، دار حضرموت، المكلا، ط٢، ٢٠١١م،ص٧٢.

وللشاعر الشعبي حسين أبوبكر المحضار قصيدة مغناة جاء فيها:

**قـــابليني يـــا ســــعاد		والبســي ثــوب الســعادة**

**عـدت لـك والخـيرعـاد		عـــوَّد اللّه كـــلَّ عـــاده**

**بعــد مــا طــال البعــاد		بيننـــا والشـــوق زاده**

اجتمعنـــا والتقينـــا واللقـــاء كـــان بالاحضـــان

**يـــا مدينــــة آل عــــاد		الأثـــر والرســـم عـــاده**

**جـــل خــــلاق العبـــاد		لي جعـل حبـك عبـاده**

وقد يكون لهذا الاسم علاقة بالترخيم، كما جاء في قول ابن مالك:

**ترخيمًا احذف آخر المنادى		كـ(يا سُعا) فيمن دعا سُعادا.**

ويذكر الحدَّاد في (الشامل) أنَّ للشحر اسمين آخرين إلى جانب (الشحر) و(الأسعاء) هما (الأشحار) و(الأحقاف)، ويرى أنَّ الشحرَ سُمِّيَت بهذا الاسم نسبةً إلى قبائل (الشحارا) أو (الشحرا) المهرية التي سكنتها قديمًا[1]، وقد ذكر العوتبي الصحاري في كتابه (الأنساب) رجلًا يُدعى (الشحر بن سوادة بن عمرو بن ذي قاس)[2]، تعتقد بعض القبائل الشحرية الظفارية أنَّه جدُّهم الأكبر مع جد آخر يُدعى (الأضطمري بن مهرة بن حيدان)[3]،

١ الحداد، علوي، الشامل، مرجع سابق، ص١٠٩..ولمعرفة المزيد عن قبائل الشحارا، ينظر: الشحري، علي أحمد، لغة عاد، مرجع سابق، ص٢٩ وما بعدها.

٢ العوتبي الصحاري، سلمة بن مسلم، الأنساب، تحقيق محمد إحسان النص،ط٤، ٢٠٠٦م،(١/ ١٨١).

٣ ينظر: الشحري، علي أحمد، لغة عاد، ص٢٩ – ٣٠، والهمداني، الإكليل: (١/ ٧٣).

كما يزعم بعضهم أنَّ الشحر وردت في التوراة باسم (الشحر) و(شحرايم) و(شحريا)، ولا نعتقد نحن أنَّها المقصودة بتلك الأسماء؛ فالاسمان الأخيران ذُكِرا عَلَمَيْنِ لرجُلَينِ من بني إسرائيل، وهي أسماء معروفة لديهم، فقد جاء في سفر الملوك الأول، الإصحاح الثامن، العدد ٩: ((شحرايم أحد أبناء إسرائيل))، وفي السفر والإصحاح أنفسهما، العدد ٢٧ورد: ((شحريا ابن يروحام))[1]. أمَّا عن الاسم الأول كما جاء في سفر يشوع (Joshua)، فإن الحديث إنما كان عن مدن الشام ونية أولئك اليهود توزيع أراضيها فيما بينهم[2]. ومن جهة أخرى نجد أن من بين المعبودات الكنعانية معبودًا عُرِفَ باسم (شحر) من غير (أل)، وهو يقترن بمعبود آخر يُدعى (شالم) أو (سالم) والذي تُنسَبُ إليه مدينة القدس (أورشالم) أو (أورشليم)، وثمة قصيدة كنعانية تمجد ولادة (الشحر) و(شالم) بوصفهما توءمين، وتصفهما بالآلهة المنعمة المحبوبة، و(شحر) هنا تعني السَّحَر، وهو ما قبل انبلاج الفجر، كما جاء في كتاب (موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة)،

---

١ ينظر: سفر أخبار الملوك الأول الإصحاح الثامن العدد ٩ والعدد ٢٧. كما أخبرت نصوص المسند عن وجود شخص يهودي يدعى (شحرا). ينظر: المفصل في تاريخ العرب (١٢/ ١١٧).

٢ يجب ألَّا ننسى أن التوراة محرفة ولا يُجزم بما فيها من الروايات التاريخية، فقد جاء في سفر يشوع: ((وأعطى موسى سبط بني روابين حسب عشائرهم، فكان تخمهم من عر وعير التي على حافة وادي أرنون والمدينة التي في وسط الوادي، وكل السهل عند ميدبا،حشبون وجميع مدنها التي في السهل وديبون وباموت بعل وبيت بعل معون، ويهصه وقديموت وميفعة، وقريتايم وسبمه وصارث الشحر في جبل الوادي)) الإصحاح الثالث عشر العدد من ١٥– ١٩. مع التنبه لبعض الادعاءات التي تزعم بأن موطن تاريخ اليهود بجنوب الجزيرة العربية.

في حين أن (شالم) تعني: الشفق قبل الغروب[1]، ولا ندري هل في مثل هذه الأسطورة دلالة ما، تشير لاتساع نفوذ الكنعانيين أو نفوذ بني إسرائيل، وخاصة في عهد النبي سليمان، ليبلغ الشحر شرقًا[2]، وهل في أسماء تلك المعبودات الكنعانية ما يفيد أنَّ أصولهم تعود إلى جنوب الجزيرة العربية؟ كما نجد أنَّ اسم (شحر) ورد في النقوش المسندية علمًا على أشخاص، منهم: شحرم، أي شحر من قبيلة حذوة[3]، وكذلك اسم (أب علي بن شحر) أي أبو علي من قبيلة شحر[4]، ويقول عنهما جواد علي إنهما من قتبان.

كما عُرِفَت المدينة باسم (القرية) أو (قرية الملوك)، نسبة إلى ملوك كندة الذين حكموها في عصر ظهور الإسلام وما بعده، وما زال (حي القرية) يعرف بهذا الاسم حتى اليوم.

---

١ للاستزادة ينظر: نعمة، حسن، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت،١٩٩٤م، ص٢٣٤. ويقول المؤرخ نعمة عن (شحر) و(شالم)، إنهما نجمان في السماء، مثل فينوس وعشتار، كما يقابل الإلهان (شحر/ سالم) توءمين آخرين هما(أرصو وعزو) في تدمر، ويسميان في اللغة اليونانية(أزيزوس) و(مونيموس)، أي عزيز ومنعم. واسم (أزيزوس) يقودنا أيضًا إلى اسم (إلياروس) أو (العذ) أو(العزيلط) وهي أسماء لملوك حضارمة، و(شحريا) جاء في قاموس الكتاب المقدس بمعنى يهوذا والفجر.

٢ عن العلاقة التاريخية بين الشحر(حضرموت) وبلاد الشام، ينظر: البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي، المطبعة السلفية، ط١، ١٣٥٤هـ،(١/ ٤٤). وقد أورد الأسترالي آلان فليرز، أسطورة نقلًا عن أحد البحارة، تفيد أن بلقيس ملكة سبأ، ابتنت الشحر والميناء، وسنأتي إليها لاحقًا في: (الشحر في كتابات المؤرخين والرحالة).

٣ ينظر: المفصل في تاريخ العرب (٤/ ٣٤). وقد ذكر الهمداني في أثناء تعرضه لمدن حضرموت وقراها، حصن (حذية)، والنسبة إليه (حذوي). ينظر: صفة جزيرة العرب، ص١٦٩. إلا أن المؤرخ محمد بامطرف صحح هذه المعلومة بالقول إن محفد(حذية) اسمه الصحيح (حدية) بحاء مهملة مكسورة ودال مهملة ساكنة، والنسبة إليه في عرف الحضارم (حدادي) على غير قياس، وليس (حذوي) كما ذكر الهمداني خطأ. ومحفد حدية هذا يقع في منطقة القطن، وليس في منطقة حورة، كما ذكر الهمداني. ينظر: ملاحظات على ماذكره الهمداني عن جغرافية حضرموت، ص٥٤.

٤ المفصل،(١٦/ ١٤٨).

وفي إطار التحليل السيميائي للاسم، نرى أنَّ كلمة (الشحر) مركبة مـن مقطعين هما (شح) و(حر)، ومعنيا المقطعَين ينطبقان على طبيعة هذه الأرض ببيئتها ومناخها، فالمقطع (شح) يدل على كونها قليلة الكلأ شحيحة المطر، والمقطع (حر) يدل على كونها حارَّةً جافَّةً. وهذا يقارب فرضية بامطرف المذكورة آنفًا، حين أكَّد أنَّ التسمية جاءت من (اللسة)، وبحكم طبيعة المناخ والأرض تحوَّلت إلى (اللسعة) فـ(الأسعى)، مع اختلاف اللفظتين. كما أنَّ هذا المعنى يقترب كثيرًا من دلالة الكلمة في اللغة الشحرية (الظفارية)، ففي اللغة الشحرية يطلق ((على الريف كلمة (إشحيهر)، وتعني المكان ذا المرعى، وهذه الكلمة أتت من كلمة (مشحيروت) بالشحرية، وتعني المرعى، وكذلك أتت من كلمة (مشحاروت) بالشحرية، وتعني الطريق الضيق))[1]. وهناك من يرى أنَّ تسمية الشحر أتت من كثرة المسابيل التي تنساب من المرتفعات إلى البحر، مكونة ما يعرف بـ(الشحرا).

ولعل الالتباس في (الشحر) لدى بعض كتَّاب القرون الوسطى نشأ من خلطهم بين شحرنا هذه وشحر عُمان الواقعة بـ(إقليم ظفار)، ولا تزال بعض الأسر بهذا الإقليم تنتسب إلى الشحر (القبيلة)، وتعرف بهذا الاسم (الشحري)، كما تعرف أرضهم أيضًا بأرض الشحري[2].

ومثل هذا اللبس والتداخل بين المنطقتين يحتاج من الباحثين الجادين إلى دراسة فاحصةٍ وموضوعيةٍ لتبيان أي من الشحرين هي المقصودة في هذا الخبر أو ذاك في مختلف الأدبيات التاريخية القديمة، كالحديث عن أسواق العرب في الجاهلية ومنها (سوق الشحر)، أو ما يُنسب إلى المنطقة من سِلَعٍ كالعنبر الشحري أو اللبان الشحري.

---

١ الشحري، علي أحمد، لغة عاد، ص٣٠.

٢ الشحري، مرجع سابق، ص٣٠ – ٣١.

الموقع الجغرافي:

الشحر مدينة ساحلية مطلة على البحر العربي تتوسط ما بين عُمان وعدن، تقع على نقطة التقاء خطَّي ١٤ درجة و٤٤ دقيقة شمال خط الاستواء، و٤٩ درجة و٣٩ دقيقة شرق خط جرينتش، وتبعد عن مدينة المكلا حوالي ٥٦ كم(١)، وقديمًا حددها الهولندي (بيتر فان دن بروكه) بأنَّها على ارتفاع ١٤ درجة و٥٠ دقيقة من العرض الشمالي، و١٧ درجة انحرافًا متزايدًا باتِّجاه الشمال الغربي، على الجانب البحري في جون في مكان ذي أرض قاحلة(٢). أمَّا الكابتن (هينز) فوصفها بأنها ((قريبة من الساحل وعلى ارتفاع ١٤ درجة و٣٨ دقيقة و٣٠ ثانية، من شمال خط الاستواء، و٤٩ درجة و٢٧ دقيقة و٣٥ ثانية من خط الطول شرقاً))(٣).

وحديثًا أشار المؤرخ علوي بن طاهر الحداد نقلاً عن الحسن بن أحمد الهمداني (ت:٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) إلى أن طولها يبلغ ((من المشرق مائة واثنتي عشرة درجة، وعرضها ست عشرة درجة ونصفًا وثلاث عشرة درجة))(٤).

---

١ الجوهي، خالد حسن، إمارة آل بن بريك في الشحر، دار الوفاق، الجمهورية اليمنية، عدن، ط١، ٢٠١٠م، ص٢٦.

٢ ك . خ . براور / أ. كبلاينات، اليمن في أوائل القرن السابع عشر الميلادي،مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ١٩٩٨م،ط٣، ص٥٤. وكانت زيارة بروكا للشحر سنة ١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م، وسنأتي لذكرها لاحقًا.

٣ الجوهي، خالد حسن، إمارة آل بن بريك في الشحر، ص٢٧. وللمزيد عن موقع المدينة ينظر: الملاحي، عبدالرحمن، ملامح من التداخل المعرفي بين ربابنة اليمن وعُمان، ص٢٧.

٤ الحداد، علوي بن طاهر، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها، تريم للدراسات والنشر، طبعة مصورة عن طبعة سنغافورة، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢٥. وينظر: الهمداني، الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٩٩٠م، ص٨٢.

التكوين الجيولوجي:

لا تختلف صخور المدينة وتكويناتها الجيولوجية عن التكوينات الموجودة في محافظتي حضرموت والمهرة، فهي تشمل صخورًا رمليةً وحجرًا جيريًّا وطباشيريًّا وجبس وركام كونجلومرات Conglomerate يعود عمرها إلى ما بين عصري الأوليجوسين والميوسين[١].

أما التربة فتشمل الحصى والحصباء (Gravel)، بالإضافة إلى الكثبان الرملية (Sand dunes)، والطمي (Alluvium).

الطقس والمناخ:

مدينة الشحر بحكم موقعها الجغرافي، تقع ضمن نطاق الإقليم المناخي الخاص بالسهول الساحلية لليمن عامة، وعليه لايختلف مناخها كثيرًا عن مناخ هذا الإقليم، الذي يمتاز بارتفاع درجة الحرارة طوال العام، وارتفاع الرطوبة، مع صغر المدى الحراري السنوي بسبب تأثير البحر، بالإضافة إلى قلة الامطار التي تتراوح ما بين بضعة ملّيمترات عند خط الساحل وحوالي ٢٠٠ ملم قرب مقدمات الجبال، وتتراوح الرطوبة النسبية ما بين ٦٠ و٧٠ ٪[٢].

---

١ بلفقيه، عيدروس، جغرافية الجمهورية اليمنية، ص٣٣.

٢ المرجع السابق (بتصرف)، ص٩١. وينظر: إنجرامس، تقرير عن الحالة ... ص١٢.

الأربعينيَّة والمثمّنات في الشحر:

من المعلوم أن متوسط معدل درجة الحرارة في المدينة خلال العام حوالي ٣٠ْم، وأن أشد الأشهر حرارة هي أشهر الصيف، وتبدأ من شهر مايو إلى منتصف شهر أغسطس، إذ تصل درجة الحرارة في أيام منها إلى حد لا يُطاق، تتراوح ما بين ٣٥ْم و٣٩ْم، وقد تزداد أو تقل بضع درجات عن ذلك المتوسط تبعًا لاختلاف المناخ عبر السنين، وقد اصطُلِحَ على تسمية تلك الأيام الشديدة الحرارة في العرف الشعبي بـ(الأربعينيَّة)، نسبة إلى عدد أيَّامها المفترضة.

والأربعينيَّة حالة مناخية تشهد ارتفاعًا كبيرًا في درجة الحرارة والرطوبة وتوقُّفًا شبهَ تامٍّ لحركة الرياح نهارًا ومساءً، وتستمر لمدة (٤٠) يومًا، وتبدأ من اليوم السابع من نجم الغُفر الموافق ٤ مايو من كل عام، وتنتهي بتاريخ ١٣-١٤ يونيو، وتليها مباشرةً ثمانيةُ أيَّام أخر في فصل الصيف أشدُّ حرارةً منها، يُطلق عليها (المثمّنات)، وهي الأيام الأربعة الأخيرة من منزلة الشول والأيام الأربعة الأولى من النعائم[١].

وقد سجل لنا المؤرخ الشحري الشيخ (مبارك صالح الأرضي)[٢] في يومياته (مذكرته) وقت دخول هذه الأربعينية سنة ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م، حينما ذكر أنَّها دخلت

---

١ الشاطري، محمد بن أحمد، أدوار التاريخ الحضرمي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، جدة، ط٢، ١٩٨٣م، (١/ ١٨). وقد أشار الشاطري في (١/ ١٩) إلى أن أسماء الفصول التي يتعامل بها مزارعو حضرموت واليمن تختلف عن الأسماء الشائعة؛ فالربيع الفلكي يسميه زراع اليمن وحضرموت صيفًا، والصيف الفلكي يسمونه خريفًا، والخريف الفلكي يسمونه شتاءً، والشتاء الفلكي يسمونه ربيعًا.

٢ الشيخ مبارك صالح الأرضي من مواليد مدينة الشحر في نهاية القرن الثالث عشر الهجري، وتوفي بها في ٢٥ رجب ١٣٨٤هـ. كان عاملًا في تجارة التجزئة، وكان رحمه الله مهتمًّا بتدوين الأحداث اليومية التي تقع في بلاده،=

في يوم الاثنين ٧ نجم الغفر، ١٨ ربيع الآخر ١٣٦١هـ، واصفًا أيامها بأنَّها أيَّام حمًى وحرٍّ[1]، ويقصد بالحمَى رطوبة الجو مع ارتفاع درجة الحرارة.

وثمة اعتقاد شعبي سائد أن الأربعينيَّة تساعد على نضوج التمر وتحوُّله من بُسْرٍ إلى رُطَب، وتعد علامة لقرب قدوم الخير، ولعلَّ النجم الذي تنتهي الأربعينية بانتهائه إنَّما سُمِّيَ بنجم (القَلْب)[2]؛ لأنَّه يَقْلِبُ التمرَ في عرفهم، أي يُنضجه ويُحوِّله من طورٍ إلى آخر.

الحدود التاريخية:

قبل الحديث عن الحدود التاريخية للشحر، يتوجب علينا أوَّلًا التنبيه على ما يُورَد في بعض الكتابات التاريخية، التي تسببت بقصد أو من غير قصد في بعض الإشكالات المعرفية لدى قارئها وأدَّت به إلى اضطراب المعلومات والخلط بينها، إذ يلاحظ أن هذا الاسم (الشحر) يُذكَر في بعض الكتابات بدلًا من حضرموت، القُطْر الكبير الواسع، وتارة تُذكَر حضرموت بدلًا من الشحر، وتارة تُذكَر باسم المهرة وتارة أخرى تذكر المهرة بدلًا منها، كما يخلط الكُتَّابُ بينها وبين (شحر عُمان)، فينسبون لإحداهما ما هو

=والإشارة إلى بعض الأحداث الكبرى البعيدة، وقد جمعها في سجلين غير مكتملين، يضمان الأحداث من سنة (١٩٤٠م-١٩٦٠م)، وما زال هذان السجلان مخطوطين، وهما محفوظان لدى حفدته في انتظار من يظهرهما للنور. أفدتُ هذه المعلومات من مقال للأستاذ عبدالله حداد بعنوان (الأرضي ومدونته التاريخية)، نشرة الفكر الصادرة بغيل باوزير العدد ٥، يناير-مارس ١٩٩٧م، ص٣.

١ المرجع السابق ص٣.

٢ (القلب) من الأنجم الشمسية لفصل الصيف الذي يسميه المزارعون الحضارمة خريفًا، وهذه الأنجم على التوالي: (العواء، السماك، الغفر، الزبان، الإكليل، القلب، الشول)، وتبدأ من ٢ أبريل وتنتهي في ١٩ يونيو، وعدد أيام كل نجم (١٣) يومًا.

للأخرى[1]. نعم، قد يكون بين هذه المسميات التي ذكرناها صلات وتداخل وترابط (تاريخي، جغرافي، بشري)، يصعب معه الفصل بينهما، إلا أن الواجب يحتم علينا تسمية الأشياء بمسمياتها، وإرجاع الأمور إلى أصولها.

كما لا يميز الكثيرون بين ورود (الشحر) بوصفها إقليمًا، وبين (الشحر) بوصفها لواءً أو ولايةً أو مديريةً أو مدينةً حملت هذا الاسم واشتهرت به[2]، كما حملت من قبل اسم (الأسعاء) الذي لازمها منذ عهودها القديمة إلى القرون المتأخرة.

---

١ قال ياقوت الحموي: ((الشحر بكسر أوله وسكون ثانيه، قال: الشحرة: الشط الضيق، والشحر: الشط، وهو صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن، قال الأصمعي: هو بين عدن وعمان قد نسب إليه بعض الرواة، وإليه ينسب العنبر الشحري؛ لأنه يوجد في سواحله، وهناك عدة مدن يتناولها هذا الاسم)) معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، (٣/ ٣٢٧). أما ابن خلدون فجعل الشحر في موضع عُمان، ففي حديثه عن جغرافية بلاد اليمن أشار إلى أن ((على الضفة الشمالية من هذا البحر في الجزء السادس من هذا الإقليم بلاد اليمن كلها. فمن جهة بحر القلزم بلد زبيد والمهجم وتهامة اليمن، وبعدها بلد صعدة مقر الإمامة الزيدية، وهي بعيدة عن البحر الجنوبي وعن البحر الشرقي، وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفي شماليها صنعاء، وبعدهما إلى المشرق أرض الأحقاف وظفار، وبعدها أرض حضر موت، ثم بلاد الشحر ما بين البحر الجنوبي وبحر فارس)) المقدمة، مراجعة د. سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م، (١/ ٧٣). وفي (١/ ٧٤) يقول: ((وعلى سمت نجران في الشرق أرض سبأ ومأرب، ثم أرض الشحر، وينتهي إلى بحر فارس وهو البحر الثاني الهابط من البحر الهندي إلى الشمال كما مر. ويذهب في هذا الجزء بانحراف إلى الغرب فيمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثلثة عليها من أعلاها مدينة قلهات، وهي ساحل الشحر، ثم تحتها على ساحله بلاد عمان، ثم بلاد البحرين، وهجر منها في آخر الجزء)).

٢ تعددت روايات الجغرافيين والمؤرخين الوصفية لحدود الشحر وأحوالها، ولمعرفة بعض تلك الروايات يُرجَع إلى المؤلفات الآتية: الهمداني، الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، ص٨٢، والشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ٧٥)، والحميري، عبدالمنعم، الروض المعطار في أخبار الأقطار، ص٣٣٨، والمسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر (٢/ ٢٢٣)، والمقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وياقوت الحموي،=

فـ(الشحرُ) اسمًا جغرافيًّا، لم يكن لها عبر تاريخها حدود واضحة المعالم، إذ كان يُنظر إليها على أنَّها إقليمٌ تتسع حدوده تارة وتضيق تارة أخرى تبعًا للتوسُّعات الجيوسياسيَّة بين الدويلات اليمنية آنذاك، وهذا ما نجده لدى أغلب المؤرخين والجغرافيين في القرون الوسطى، حينما يذكرون هذا الاسم (الشحر) للدلالة على منطقةٍ واسعةٍ غيرِ محددة، تشمل أجزاءً كبيرةً من سواحل حضرموت، وأحيانًا من سواحل جنوب الجزيرة العربية[1]، ولعل أوسع إطلاقٍ للشحر هو إطلاقُها على المنطقة التي تشمل أجزاءً كبيرةً من الشريط الساحلي لبحر العرب، ابتداءً من ظفار عُمان شرقًا، مرورًا بالمهرة، فالأجزاء الساحلية الشرقية من حضرموت، فمدينة الشحر (الأسعاء)، ثم الأجزاء الساحلية الغربية من حضرموت (المكلا، بروم، حجر)، فـ(بئر علي) في شبوة حيث ميناء قنا قديمًا، وصولًا إلى السواحل الشرقية لمحافظة أبين الواقعة شرق عدن، إذ عُرِفَ هذا الشريط الساحلي الممتد باسم (الشحر)[2]، بل ذهب بعضُهم إلى الفصل بين حضرموت

=معجم البلدان،(٣/ ٣٢٧)، وبامطرف، محمد عبد القادر: الشهداء السبعة ص١٨، والرفيق النافع ص٧٤. وينظر كذلك إدام القوت للسقاف، عبد الرحمن بن عبيد الله ص١٦١-١٦٢. والشحري، علي أحمد، لغة عاد، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠٠٠م.

١ في كتابه (بنات سبأ) ص٣١٤، استبعد فلبي، هاري سانت، أية علاقة لغوية بين اسم الشحر والساحل، ويظن أن اسم الشحر اشتق من الكلمة الفارسية (شهر)، التي تعني (المدينة).

٢ تسمي بعض الكتب الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية بساحل عُمان، بما فيه ساحل حضرموت. ومن هذه الكتب: دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي ، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ،(٣/ ٤٥٤)،وفيه: ((حضرموت، إقليم من جزيرة العرب على شاطئ بحر عُمان، قليلة الزرع والخيرات، إماراتها في يد شيوخ قبائلها، من مدنها المشهورة تريم، ومن موانئها (المكلا) على بحر عُمان وقصير (هكذا وردت، ولعله يقصد: قصيعر) وبروم وغيرها)).

والشحر، فأطلق على الأجزاء الداخلية من حضرموت اسم (حضرموت) أو (الأحقاف) أو (الوادي)، وأطلق على الأجزاء الساحلية منها اسم (الشحر) أو (بلاد المهرة). والحقيقة كما نراها أن (الشحر) جزء لا يتجزأ من حضرموت جغرافيًّا وتاريخيًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا، وهي تمثل الامتداد الطبيعي لحضرموت، وبوابتها الجنوبية على بحر العرب، وإطلالتها على المحيط الهندي، كما أن لها تاريخًا مشتركًا وجوارًا جغرافيًّا مع مناطق المهرة وظفار.

ويبلغ الآن طول ساحل الشحر أو قل ساحل حضرموت قرابة (٣٥٠) كم، أما مساحة السهل الساحلي لحضرموت الممتد من عين بامعبد غربًا حتى سيحوت شرقًا فتبلغ قرابة (٤٥٠) كم²[1].

وخلال بعض المراحل التاريخية المنفصلة والتي أصبحت فيها الشحر دولةً مستقلةً، أو بتعبيرٍ أدقَّ دُوَيلةً من الدويلات الحضرمية الأخرى المعاصرة لها، لم يكن لها أيضًا حدود واضحة المعالم، ولا نستطيع التكهن بالمدى الذي امتدَّت إليه رقعتُها الجغرافية، وإن كنَّا على يقين من سيطرة بعض القوى التي حكمتها عليها وعلى ما جاورها من مناطق وأرياف قريبة، كما هو الحال في عهد إمارات آل إقبال[2]، وآل أبي دجانة، وآل بن بريك (١١٦٥-١٢٨٣هـ / ١٧٥١ -١٨٦٦م)[3]، وهي الدويلات التي اتخذت من مدينة الشحر عاصمة لها، ومثلها السلطنة القعيطية التي اتخذت من المدينة عاصمة لها في

---

١ الجعيدي، عبدالله، الأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية في حضرموت، ص٨.

٢ للاستزادة عن هذه الإمارة ينظر: الشاطري، محمد أحمد، أدوار التاريخ الحضرمي،(١/ ١٧٥ – ١٧٩)، وبامطرف، محمد عبدالقادر، المختصر في تاريخ حضرموت العام، دار حضرموت للدراسات والنشر، ط٢، ٢٠٠٤م، ص٨٦-٨٩.

٣ للاستزادة عن هذه الدولة أو الإمارة ينظر: الجوهي، خالد حسن، إمارة آل بن بريك، مرجع سابق.

بدايات عهودها الأولى، قبيل انتقال هذه العاصمة إلى مدينة المكلا سنة (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م)، ولعل قلة المصادر وندرتها خلال بعض الحقب التاريخية التي شهدتها حضرموت عامة والشحر خاصة، هو الذي أعاق تحديد جغرافية حدود الدول بدقة، وهذا يصدق أيضًا على الدويلات الأخرى التي نشأت في أنحاء متفرقة من حضرموت في حقبٍ زمنية مختلفة.

وفي عهد السلطان (عمر بن عوض القعيطي) الذي حكم في المدة (١٣٤٢-١٣٥٥هـ/ ١٩٢٢-١٩٣٦م)، كانت حدود لواء الشحر تمتد من أقصى حدود جبال (دُمْخ حساي) شرقًا إلى وادي (المعنية) غربًا، ويتبع اللواء إداريًّا كل من الديس الشرقية، والحامي، وقصيعر، وريدة آل عبدالودود[١]، وقرى المعيان. وفي تقريره عن ألوية السلطنة القعيطية أشار المستشار الإنجليزي (إنجرامس) إلى أنَّ لواء الشحر بوصفه أوَّلَ ألوية السلطنة القعيطية تمتد ((حدوده من الشرق إلى الغرب من أقصى حدود جبال (دمخ حساي) إلى ميناء الشحر، ومن الجنوب إلى الشمال من البحر إلى الجبال التي تفصل الهضبة من السهول، وأن أقصى نقطة سكن في اللواء هي ريدة القعيطي))[٢]. ثم عدَّد القرى والمدن الساحلية التي تتبع هذا اللواء من جهة الشرق، دون أن يُبيِّن الحدود الغربية لهذا اللواء، مع ملاحظة أن غيل باوزير وملحقاتها ظلت طيلة

١ بن علي الحاج، محمد سعيد، عمر بن عوض القعيطي سلطان الدولة القعيطية الحضرمية، حياته – عهده – آثاره، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٤م، ص١٣٩.

٢ إنجرامس، دبليو إتش، حضرموت، ١٩٣٤-١٩٣٥م، تعريب د. سعيد عبدالخير النوبان، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠١م، ص١١٣.

مراحلها التاريخية تابعةً إداريًّا لمدينة الشحر، واستمر الحال كذلك إلى أزمان متأخرة، حتى أُلحِقَت إداريًّا بالمكلا.

وأمَّا في عهد السلطان (صالح بن غالب القعيطي) الذي حكم في المدَّة (١٣٥٥-١٣٧٦هـ/ ١٩٣٦-١٩٥٦م)، فلا يكاد لواء الشحر يختلف عن عهد حكم سابقه السلطان (عمر بن عوض)، إذ عُدَّ هذا اللواء أحدَ الألوية الستة للدولة القعيطية، يضم كُلًّا من المراكز الآتية: تبالة، والمعيان، والحامي، والديس الشرقية، وقصيعر، وريدة عبد الودود (الريدة الشرقية)[1]. وهذه الحدود لازمت المدينة إلى ما بعد انتهاء عهد السلطنة القعيطية سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

أما عن حدودها بوصفها مدينةً؛ فالمشهور أنَّها الحدود الواقعة داخل السور القديم الذي أعاد بناءَه الجمعدار (عبدالله بن عمر القعيطي) سنة (١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م)[2]، ويرى بعضهم أن هذا السور القديم الذي يحيط بالمدينة كان تحديدًا في عهد الدولة الرسولية التي احتلت الشحر سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م تقريبًا[3]، أقل مساحة من مساحة هذا السور،

١ للاستزادة ينظر: الملاحي، عبد الرحمن، بحث بعنوان الموقع الجغرافي والتاريخي والاقتصادي والاجتماعي لمدينة الشحر، ضمن مجموعة بحوث بعنوان (الشحر مدينة وتاريخ)، وباحمدان، محمد سالم، عهد السلطان صالح بن غالب القعيطي، ط١، فبراير ٢٠٠٨م، ص٥٢. وللاستزادة عن الألوية التابعة للسلطنة القعيطية، ينظر: إنجرامس، دبليو إتش، حضرموت ١٩٣٤-١٩٣٥، ص١١٣،والجعيدي، عبدالله سعيد، الأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية في حضرموت ١٩١٨-١٩٤٥م، رسالة ماجستير، جامعة عدن، كلية الآداب، قسم التاريخ، ١٩٩٩م، إشراف، أستاذ مشارك، د. أحمد محمد بن بريك، ص١٩٧. وعن لواء الشحر كما جاء في دستور الدولة القعيطية لسنة ١٩٤٠م، ينظر البكري، صلاح، في جنوب الجزيرة، ص٢٣٨.

٢ بامطرف، محمد عبدالقادر، مسرحية سور الشحر، ص١.

٣ بامطرف، محمد عبدالقادر، المختصر في تاريخ حضرموت العام، ص٩٣.

كما أنَّه كان دائريًّا، له أربعة أبواب موزعة على الجهات الأربع، وهو على مسافة غير بعيدة من البحر، في حين أن السور الذي لازم المدينة طوال القرن العشرين، وهو السور نفسه الذي أعاد بناءه الجمعدار (عبدالله بن عمر القعيطي)، كان أقرب للمستطيل مع انفراجة ببعض أضلاعه، منه للدائرة، كما أن امتداد هذا السور إلى داخل البحر (جنوبًا) من الجهتين (الشرقية والغربية) حيث نُصِّبَ على طرفيه ما عُرِفَ بالنوبتين (وهما قلعتان للمراقبة والحراسة). أما الشريط الساحلي (جنوبًا) فهو مفتوح ومتصل مباشرة بالمدينة. ويعد حي (المحط) الواقع شمال شرق المدينة خارج إطار السور، الحي الوحيد الذي لازم المدينة عبر امتدادها التاريخي، وكان يضم عددًا من الأكواخ وبيوت الصفيح التي يقطنها عدد كبير من نازحي الأرياف والبدو وبعض الأغراب[1].

١ أشار المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف في كتابه (الشهداء السبعة) عند حديثه عن أحوال المدينة في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) إلى وجود هذا الحي بموضعه الحالي وبالتسمية نفسها، ويقول عنه: ((ولعله اكتسب تسمية (المحط) لحط القوافل المحملة بالبضائع والقادمة من حضرموت بهذا الموضع؛ تمهيدًا لدخولها المدينة، أو تلك الصادرة من المدينة تمهيدًا لنقلها إلى مناطق حضرموت الداخل، وأن غالبية سكان هذا الحي من البدو)). كما أورد بامطرف في الكتاب نفسه رسمة توضيحية للمدينة ومعالمها الأساسية كما كانت سنة ٩٢٩هـ. وللأستاذ الباحث عبد الرحمن الملاحي خارطة أخرى لما كانت عليه المدينة خلال المدة ما بين ١٨٤٠و١٩٤٠م بأحيائها ومعالمها المشهورة، وسنأتي إليها لاحقًا. وقال ابن سعيد المغربي في كتابه الجغرافيا: ((وأشهر مدنها الساحلية (أي حضرموت) لسعا، وهي من حيث الطول اثنتان وسبعون درجة وعشر دقائق، والعرض اثنتا عشرة درجة)) أبو الحسن، علي بن موسى بن سعيد المغربي، الجغرافيا، ص١١٠. وذكر الحداد في (الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها ص٢٥) أن طولها من المشرق مائة واثنتا عشرة درجة، وعرضها ست عشرة درجة ونصف وثلاث عشرة درجة.

الشحر في كتابات المؤرخين والجغرافيين والرحَّالة والزوَّار

وسنقتصر هنا على نماذج نصية لبعض ما ورد في مؤلفات الجغرافيين والرحَّالة والزوَّار عن المدينة خلال مختلف المراحل التاريخية، كما سنورد نماذج أخرى حينما نتعرض لموضوع انتكاسة المدينة بعد انتقال العاصمة القعيطية إلى المكلا.

أبو القاسم عبيدالله بن خرداذبة (ت: نحو ٢٨٠هـ/ ٨٩٣ م): ويعد من أقدم الجغرافيين المسلمين، تحدث في كتابه (المسالك والممالك) عن الشحر، من ذلك قوله: ((ثم إلى عُمان خمسون فرسخًا، ثم إلى الشِّحر مائتا فرسخ، ومن الشحر إلى عدن مائة فرسخ، وهي من المرافئ العظام، ولا زَرْعَ بها ولا ضَرْعَ، وبها العنبر والعود والمسك ومتاع السند والهند والصين والزنج والحبشة وفارس والبصرة وجُدّة والقُلزم، وهذا البحر هو البحر الشرقيُّ الكبيرُ، ويخرج منه العنبر الجيِّد، وعليه الزنج والحبشة وفارس، وفيه سَمَكٌ طول السمكة مائة باع ومائتا باع، يُخاف منها على السفن، فتُنَفَّر بضرب الخشب على الخشب[1]، وفيه سمكٌ مقدار الذراع يطير، وُجوهُهُ كوجوه البوم، وفيه سمكٌ طول السمكة عشرون ذراعًا، في جوفها مثلها، وفي الأخرى مثلها، إلى أربع سمكات، وفيه

١ مثل هذه الحيتان تسمى محليًّا بالشواحط، ومفردها (شوحط) أو (شوحطة)، وهي حيتان العنبر، وللصيادين أهازيج ورقصات خاصة، تقام على ساحل البحر أو في عرضه، عند مصادفة هذا الحوت، سنتطرق إليها بالتفصيل في الفصل الخاص بالأساطير والخرافات الشعبية.

سلاحف استدارة السلحفاة عشرون ذراعًا، وفي بطنها مقدار ألف بيضة، وظهورها الذبل الجيد، وفيه سمكٌ على خِلْقَة البقر، تلد وترضع، وتُعمَل من جلودها الدرق، وسمكٌ على خِلْقَةِ الجَمَل، وفيه طير تجمع من قذى البحر عند سكونه، فتبيض وتفرخ على وجه الماء، لا تخرج إلى الأرض))[1]. ويقول في موضع آخر متحدثًا عن المسالك والطرق: ((الطريق من عُمان إلى مكة على الساحل: من عُمان إلى فرق، ثم إلى عوكلان، ثم إلى ساحل هباه، ثم إلى الشحر وهي بلاد الكندر، قال الشاعر:

**اذهب إلى الشحر ودع عُمانا		إلا تجد تمرًا تجد لُبانا**

ثم إلى مخلاف كندة، ثم إلى مخلاف عبدالله بن مذحج، ثم إلى مخلاف لحج، ثم إلى عدن أبين))[2].

الجغرافي أبو الحسن المسعودي (ت: ٣٤٦هـ/ ٩٥٧ م)[3]: **يقول عن الشحر:** ((وأهل الشحر أناس من قضاعة وغيرهم من العرب، وهم مهرة، ولغتهم بخلاف لغة العرب، ذلك أنَّهم يجعلون (الشين) بدلًا من (الكاف)، مثال ذلك أن يقولوا: هل لش فيما قلت لش وقلت لي، أن تجعلي الذي معي في الذي معش. يريد: هل لك فيما قلت لك، وقلت لي أن تجعلي الذي معي في الذي معك، وغير ذلك من خطابهم ونوادر كلامهم. وهم

١ ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله، المسالك والممالك، مطبعة بريل، مدينة ليدن، سنة ١٨٨٩م، ص٦١.

٢ المرجع السابق، ص١٤٨ – ١٤٩.

٣ المسعودي (أبو الحسن علي) ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م مؤرخ ورحالة من أهل بغداد، من ذرية الصحابي ابن مسعود، رحل إلى بلاد كثيرة، وأقام في مصر، وتوفي بها، اشتهر بتاريخه مروج الذهب ومعادن الجوهر، ومن كتبه الأخرى التنبيه والإشراف. ينظر: المنجد في اللغة والأعلام ص٥٣٢.

ذوو فقر وفاقة، ولهم نُجُبٌ يركبونها بالليل، تُعرَف بالنُّجُبِ المهريَّة، تُشبَّه في السرعة بالنُّجُب البجاوية، بل عند جماعة أنَّها أسرع منها، يسيرون عليها على ساحل بحرهم، فإذا أحست هذه النجب بالعنبر قد قذفه البحر بَرَكَتْ عليه، قد ريضت لذلك واعتادته، فيتناوله الراكب))[1]. ويقول في موضع آخر: ((ووجدت أهل الشِّحر من بلاد حضرموت وساحلها، وهي الأسعاء[2] مدينة على الشاطئ من أرض الأحقاف، وهي أرض الرمل وغيرها مما اتصل بهذه الديار من أرض اليمن وغيرها من عمان وأرض المَهْرَة))[3].

محمد بن أحمد المقدسي (ت: نحو ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م): يذكر في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) أنَّ ناحية مهرة مدينتها الشحر، وناحية الأحقاف مدينتها حضرموت[4]، وقد تكرر منه هذا القول في الصفحة التي تليها، وواضحٌ الخلطُ والوهمُ في حديثه، إذ لا توجد مدينة ناحية الأحقاف تحمل اسم حضرموت، وإنما (حضرموت) إقليم يشكل جزءًا كبيرًا من بلاد الأحقاف. وتكرر من المقدسي إيراد اسم الأسعى (الشحر) تحت اسم (اللسعة)، ويليها ذكر (شرمة)، وجعلها ضمن المناطق التابعة لنواحي زبيد[5]!

١ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،ط١، ٢٠٠٥م،(١/ ١١٧).

٢ في الأصل (الأحساء). نشر المكتبة العصرية بيروت، الطبعة الاولى ٢٠٠٥م، وأعتقد انه تصحيف لم ينتبه لها المحققون.

٣ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر،(٢/ ١٧٣).

٤ المقدسي، محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، حررها وقدم لها شاكر لعيبي، دار السويدي للنشر والتوزيع -الامارات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت. ط١، ٢٠٠٣م، ص٧٧..

٥ المرجع السابق، ص٩٠.

وهو وهم آخر[1]. ويقول في موضع آخر: ((حضرموت هي قصبة الأحقاف، موضوعة في الرمال عامرة نائية عن الساحل، آهلة، لهم في العلم والخير رغبة إلا أنَّهم شراة، شديد سمرتهم. الشحر مدينة على البحر، معدن السمك العظيم، يُحمل إلى عُمان وعدن، ثم إلى البصرة وأطراف اليمن، وثم أشجار الكندر صمغها. وموضع إرم ذات العماد ليس له أثر، من لحج إليها فرسخان في مستوى فتراها من البعد تشرق فإذا قربت لم تر شيئاً))[2].

الجغرافي الشهير الشريف الإدريسي (ت: ٥٩٠هـ / ١١٦٥م): يقول في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق): ومدينة (لسعا) صغيرة جدًّا، على ضفة البحر المالح، ومنها إلى (شرمة) على الساحل يومٌ، وبين (شرمة) و(لسعا) قرية كبيرة فيها حمة حامية كالجابية، وأهل تلك النواحي يتطهرون فيها، ويجلبون مرضاهم فيصحون بها من آلامهم وأنواع أسقامهم. ومدينة (لسعا) و(شرمة) على ساحل أرض حضرموت، وبينهما يومان على البرية))[3]. ولعلَّ المقصود بالقرية الكبيرة التي

١ اعترف المؤرخ المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم) أنه قضى في اليمن قرابة السنة، وأنه لم يطأ كل الأماكن فيها، لذلك كان اعتماده على النقل من الرواة، ونظنه لم يطأ أرض حضرموت؛ إذ كتب يقول: ((واعلم أن اليمن موضع واسع، قد أقمت به حولاً كاملاً، ودخلت هذه البلدان التي وصفت، وغاب عني منه الكثير، غير أني أذكر ما سمعت فيه من أهل الخبرة، وأستوعب مخاليفه، وإن لم أطأ الجميع، لأنه بلد يميز بالمخاليف، وأذكر وضع جزيرة العرب وتمثيلها بوصف يقف عليه كل أحد إن شاء الله تعالى)). ينظر: المرجع السابق ص١٠٤.

٢ المقدسي، مرجع سابق، ص١٠٤.

٣ ينظر الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق مجموعة من الباحثين، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، ١/ ٥٥.

فيها حمة حامية كالجابية؛ مدينة (الحامي) الشهيرة بعيونها الحارة، وهي تقع ما بين شرمة ومدينة الشحر[1].

ابن سعيد المغربي (٦١٠ – ٦٨٥هـ/ ١٢١٤ –١٢٨٦م): يقول في أثناء حديثه عن الأماكن المعمورة في الأرض في كتابه الشهير (الجغرافيا): ((أول ما يلقاك منه جبال حضرموت، وهي ممتدة من الشمال إلى الجنوب، ولها مدن خاملة الأسماء لكونها قليلة الجد، ولا يتردد عليها الركبان في البر ولا أصحاب المراكب في البحر، وأشهر مدنها الساحلية في الكتب (لسعا)، وهي حيث الطول اثنتان وسبعون درجة وعشر دقائق، والعرض اثنتا عشرة درجة، وبينهما أربعون ميلًا، وبين (لسعا) و(عدن) جبل ممتد معترض يطوّل السفر في البر، ومسافته من البحر إلى شمالي (لسعا) ثمانون ميلًا، وقاعدة حضرموت (تريم)، وهي في الجبال في شمالي (لسعا)، بينهما تسعون ميلًا، وفي شمالي تريم من مدنها المذكورة في الكتب (شنوة)[2] المذكورة بكثرة التمر، وبينهما نحو تسعين ميلًا))[3].

١ مدينة الحامي: مدينة ساحلية تقع شرق مدينة الشحر، تبعد عنها بنحو ٣٠ كم، تمتاز بعيونها الحارة، وأشهرها (معيان باشحري)، و(معيان باحامي)، كما اشتهرت قديمًا بملاحيها وصانعي السفن الشراعية. للمزيد عنها ينظر: المقحفي، إبراهيم أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع، صنعاء، المؤسسة الجامعية للدراسات للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٢م،(١/ ٣٩٧).

٢ يبدو أن هناك تصحيفًا ما في الكلمة، فلا توجد شمال مدينة تريم، بل في حضرموت كلها، مدينة تدعى (شنوة)، إلا إن كان يقصد بها مدينة (شبام) التاريخية، أما (شبوة) فهي على الغرب من حضرموت.

٣ ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى، كتاب الجغرافيا، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٧م، ص١٠١.

وفي موضع آخر يقول: ((وفي الشرق (ظفار) التي كانت قاعدة التبابعة فخربت، وهي حيث الطول ثلاث وسبعون درجة، والعرض خمس عشرة درجة، ثم يلقاك على الساحل من مدن الشحر وهي بلاد العنبر واللبان مدينةُ (مرباط)، وهي على جون يدخل إلى الشمال حتى تكون هذه المدينة عند طول أربع وسبعين درجة والعرض أربع عشرة درجة ونصف، وفي شرقيها على الجون المذكور ظفار المحدثة وهي الآن قاعدة بلاد الشحر وفرضتها المشهورة، إليها يُجلب خيل العرب، ومنها يُحمَل إلى بلاد الهند، ولصاحبها ابن الناحون عليها ضرائب، ويقال إنَّ في أرض هذه المدينة كثيرًا من عقاقير الهند، مثل النارجيل والتنبيل والفوفل والعنبا، وهي كالبطيخ تُوجد فيها طعوم مختلفة))[1]. ويقول: ((وفي شمال هذا الجون رمال الأحقاف، وهنالك قبر هود عليه السلام، وفي شمالي هذه الرمال والمدن جبال اللبان ممتدة من الغرب إلى الشرق، وليس فيها مدينة مشهورة، بل سكانها قوم من مهرة كالوحوش في صُوَرهم وكلامهم، وإليهم تنسب الإبل المهرية، وهم يُعلفونها سمكًا صغارًا تخرج من بحرهم يُقال لها الوزف))[2].

محمد بن عبدالمنعم الحميري (ت:٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م تقريبًا): يقول في كتابه (الروض المعطار في خبر الأقطار): ((الشِّحْر، بكسر أوَّله وإسكان الحاء المهملة، هو شحر عُمان، وهو ساحل اليمن، وهو ممتد بينها وبين عُمان، وأرض الشحر متصلة بأرض حضرموت، وفيها قبائل مهرة، وهي دار عاد الأولى، الذين أرسل الله تعالى إليهم

١ المغربي، ابن سعيد، الجغرافيا، مرجع سابق، ص١٠٢.

٢ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

نبيهم هودًا عليه السلام، وكانوا ثلاث عشرة قبيلة))[1]. ويقول في موضع آخر: ((والشحر مدينة كبيرة، وليس بها زرع ولا ضرع، ويكون بها العنبر، وشجرها الكندر، ومنها يحمل إلى الآفاق، واللاك بها كثير، والإبل المنتجة عند هؤلاء العرب لا يعدل بها شيء في سرعة جريها. ومن غريب ما يُنسب إليها أنها تفهم الكلام، وتعلم ما يُراد منها بأقلِّ أدبٍ تعلمه، ولها أسماء إذا دُعِيَت بها أجابت بلا تأخير، وقصبة أرض مهرة تسمى الشحر، ولسان مهرة مستعجم جدًّا لا يكاد يُفهم، وهو اللسان الحميري القديم، وهم أكثر أهل الأرض رواحلَ، وجُلُّ مكاسبهم الإبل والمعز، والسمك يصاد في ذلك البحر وبلاد عمان، وعندهم حوت صغير جدًّا يُصاد ويُشمَّس وتُعلَف به الدواب والإبل[2]، وأهل مهرة لا يعرفون الحنطة ولا خبزها، إنَّما أكلُهم السمكُ وشربُهم الألبانُ وقليلُ الماء، وقد اعتادوا ذلك وألِفوه فلا يعدلون عنه، ومن تَغرَّبَ منهم فأَكَلَ الحنطةَ تألَّم، ورُبَّما مَرِضَ. وطول بلاد مهرة تسعُمائة ميلٍ، وهي كلها رمال سيالة والرياح تسفيها. ومن آخر بلاد الشحر إلى عدن ثلثمائة ميلٍ. وفي هذه المدينة أشجار اللاك والكندر، وهي أشجار مثل أشجار التوت، إلا أنها لا تورق، بل تحمل أغصانها كلها الكندر))[3].

---

١ الحميري، محمد بن عبدالمنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، المحقق: إحسان عباس، الناشر: مؤسسة ناصر للثقافة -بيروت -مطابع دار السراج، ط ٢ -١٩٨٠م، ص٣٣٨.

٢ لعله يقصد به سمك السردين (العَيْد)، الذي يُصطاد ويُجفَّف في الشمس، ويُترك لمدة، ويسمى (الوزيف)، ويقتات به الناس، وكذايستخدم علفًا وسمادًا للزراعة.

٣ الحميري، الروض المعطار، مرجع سابق ص٣٣٨-٣٣٩.

ولعلَّ الذي لفت أنظار المؤرخين والإخباريين إلى الشحر؛ هو ما نُسِبَ لها من أنها أرض النبي هود عليه السلام وأرض قومه عاد ومدينة (إرم)، وما شاع لدى الإخباريين في القرون الوسطى، من أنَّها موطن لأجناس أُطلِقَ عليها (النسناس)، وهي في زعمهم كائنات غريبة عجيبة تُشبه القردة، ولكنها تتكلم وتنشد الأشعار! وهذه الكائنات الخرافية كان لها وجود بزعمهم في المنطقة، وقد توسعتُ في خبرها في كتابنا الآخر (من الفولكلور الحضرمي)، في الجزء الخاص بالأساطير والخرافات والتصورات الشعبية.

ومِمَّا لفت أنظار المؤرخين إلى الشحر أيضًا؛ ما اشتهرت به من كونها أرض اللبان والعنبر الشحري، وقد قيل فيها:

اذهب إلى الشحر ودع عُمانا إنْ لم تجد تمرًا، تجد لُبانا

الشحر في الوثائق الرسولية:

هناك وثيقة مهمَّة مصدرها الدولة الرسولية، وهي الدولة اليمنية التي استطاعت إخضاع حضرموت والشحر معًا، ويعود تاريخ الوثيقة إلى عهد الملك الرسولي المؤيد داؤد بن يوسف (ت: ٧٢١هـ/ ١٣٢١م)، وفيها تفصيل للجبايات التي كانت تُجبى من التجار والفلاحين والصيادين وأرباب الحِرَف وغيرهم، كما تضمَّنت معلومات عن مواقيت السفر من الشحر وإليها، وبعض القوانين الملزمة في مجال التجارة داخل الفرضة (الميناء)، بالإضافة إلى إشارات لبعض السِّلَعِ التجارية كالصِّيْفَة واللبان والتمر، وهي سِلَعٌ عملت الدولة الرسولية على احتكار شرائها، لتنفقها أو تبيعها كيفما شاءت، كما تضمنت الوثيقةُ خارطةً للمدينة المسورة وأبوابها الرئيسة، التي سبقت

الإشارة إليها، بالإضافة إلى معلومات أخرى مُهِمَّة[1]. وسنتعرض لنص هذه الوثيقة في أثناء حديثنا عن الشحر في عهد الدولة الرسولية.

الشحر في سجلات الصينيين:

إن الحديث عن الشحر في كتابات المؤرخين والرحالة يقودنا أيضًا إلى سجلات الرحلاتِ الصينية (الاستكشافية / التجارية) إلى الشحر في الثلث الأول من القرن الخامس عشر الميلادي[2]، وفيها ذُكِرَت المدينة باسم (الأسعى) أو (الأسعاء) (Alasa)، ووُصِفَت بأنَّها على ساحل البحر، وعليها سور مبني من الحجارة، في حين أن بيوتها طينية، وأنَّ أرضها شِبْه صحراوية، ومناخها حار دائم، وهي قليلة المطر، تعتمد على مياه

١ للاستزادة ينظر: ارتفاع الدولة المؤيدية، جباية بلاد اليمن في عهد السلطان المؤيد داود بن يوسف، تحقيق محمد عبدالرحيم جازم، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء والمعهد الألماني للآثار بصنعاء، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، مطبعة فن الطباعة –صنعاء، ص١٢٨–١٣٦. وجاء في كتاب (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) لشيخ الربوة، أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري (٦٥٤ – ٧٢٧ هـ) أن الشحر كانت أخصاصًا (وهي البيوت من الشجر أو القصب)، إلى أن بناها الملك المظفر الرسولي يوسف بن عمر، وحصنها بالسور، وكان هذا بعد سنة ٦٧٠هـ. ينظر المرجع المذكور ص ... نشره المستشرق الدنمركي أوغست ميرن سنة ١٩٢٣م.

٢ عدد الرحلات الصينية الاستكشافية والتجارية التي قام بها الصينيون للمحيط الهندي والبحر العربي في تلك المدة، نحو سبع رحلات، متفرقة بين ٨٠٧ و٨٣٥ هـ/ ١٤٠٥ و١٤٣٣م في عهد الإمبراطور الصيني (ينج – لو)، وبقيادة القائد العسكري (شنج – هو)، وكاتبها ومترجمها (ما –هوان) وآخرون، وبلغ عدد سفنها أكثر من ثلاثمائة سفينة، وبقوام يزيد عن ٣٧٠٠٠ طاقم. وللاستزادة عن هذه الرحلات يُنظر: محيرز، عبدالله أحمد، رحلات الصينيين الكبرى إلى البحر العربي، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ٢٠٠٠م، ص٨٩، ١٣١. وعن هذه الرحلة ينظر: الملاحي، عبدالرحمن، ملامح من التداخل المعرفي بين ربابنة اليمن وعُمان، ص٢٨.

الآبار للشرب والتي تُجلب بواسطة القِرَب، كما أشارت السجلاتُ الصينيةُ إلى منتجات المدينة، ومن أهمها: العنبر والبخور والجمال، كما ذكرَتِ البضائعَ التي سوَّقها الصينيون، وهي الذهب والفضة والمخمل والحرير الصيني والأرز والفلفل وخشب الصندل والصمغيات، كما وصفتِ السجلاتُ أهالي المدينة بأنَّهم أناسٌ متدينون ومُخلِصون في معاملاتهم، وكان هناك تبادل للهدايا بين سفير إمبراطورية الصين، وهو قائد الأساطيل الصينية نفسها (تشينغ خه) كما يرجح، وبين سلطان الشحر آنذاك، وهو (سعد بن فارس أبو دجانة)، وقد سبق الاستقبالَ استعراضٌ للقوة والعضلات من قبل الأسطول الصيني الكبير، وسنذكر نص الرحلة كاملًا في حينه، مع التعريف بهذه الرحلات وقائدها حينما نتعرض لدولة آل أبي دجانة، التي كانت زيارة الأساطيل الصينية في عهدها.

أحمد بن علي المقريزي (٧٦٦-٨٤٥ هـ/ ١٣٦٥ -١٤٤١م):

له كتيب طريف أسماه (الطرفة الغريبة في أخبار وادي حضرموت العجيبة)، أَلَّفَهُ سنة: ٨٣٩ هـ/ ١٤٣٥م، وضمَّنه أخبارًا عدةً لعجائب وغرائب نسبها إلى الحضارم بما فيهم أهل الشحر، كما ضمَّنه أخبارًا عن السحر والسحرة والكرامات وبعض العلاجات والرُّقى وغيرها، وفقًا لرواية راويتِه أبي بريك عبد الله بن محمد بن عبدالرحمن بن بريك. وأخبار هذه الطرفة أوردنا تفاصيلها في كتابنا (من الفولكلور الحضرمي). ومما جاء فيها قوله إنَّ الشحر ((مملكة منفصلة عن حضرموت وعُمان، وتسمى بلاد مهرة، وقد تضاف الشحر إلى عُمان، والشحر ملاصقة بحضرموت، وهي ساحلها، ويوجد عندهم اللبان، ويؤخذ من ساحله العنبر الشحري، وإقليم الشحر يتصل (في جهة الشرق) من غربيه

بساحل البحر الهندي الذي عليه عدن وفي شرقيه بلاد عمان وجنوبها بحر الهند وشمالها حضرموت، وهي في الإقليم الأول، وكانت من ديار عاد قوم هود ثم سكنها بعد عاد مهرة))[1].

المؤرخ البرتغالي (كاستنهيدا):

وهو الذي رافق الحملة البرتغالية الشهيرة لغزو الشحر سنة ٩٢٩هـ(١٥٢٢م)، وقد زار المدينة قبل هذه المدة، فقد وصفها بأنَّها ((مدينة كبيرة بها الكثير والكثير جدًّا من التموينات، كما توجد بها كل أصناف الفاكهة المتوفرة لدينا في اسبانيا ... إنها ميناء تجاري عظيم، بها بضائع لا تحصى أنواعها، وبها أعداد كبيرة من الخيل، وكميات من العطور والبخور، ويفد إلى الشحر -بين مَنْ يفدون إليها للتجارةِ- المسلمون الهنود أهالي (مالابار) و(كمبايا)، وفي هذا الميناء تقضي السفن فصل الشتاء؛ لأنها لا تستطيع المرور بباب المندب، ولأن الرياح الغربية تهب ضدها))[2].

الجغرافي العثماني (محمد بن علي البرسوي) الشهير بـ(ابن سباهي زاده) (ت:٩٩٧هـ/ ١٥٨٩م):

أورد في كتابه (أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك) بعض المعلومات عن المدينة في عصره، ونستشف من خلال النص الذي أورده أن لفظة (الشحر) كانت تطلق على الإقليم الساحلي ما بين عدن وعُمان، كما تُطلق أيضًا على هذه المدينة الساحلية،

١ المقريزي، أحمد بن علي، الطرفة الغريبة في أخبار وادي حضرموت العجيبة، ص ...

٢ ينظر: بامطرف، محمد عبد القادر، الشهداء السبعة ص٣٣.

كتب يقول: ((الشِّحْر: إليه يُنسب العنبر؛ لأَنَّهُ يُوجد في سواحله، وهو عدة مدن يتناولها هذا الاسم، قيل: فيه النسناس، وهو دابَّةٌ كأَنَّهُ نصفُ إنسانٍ بنصف وجهٍ ويد واحدةٍ ورِجْلٍ واحدةٍ، يَتكَلَّمُ. (شِحْر) في (اللباب) بكسر الشِّين المعجمة وسكون الحاء المهملة وفي آخرها راء مهملة، بلدةٌ صغيرةٌ من بلاد اليمن، وهي بين عدن وظفار، وماؤها من الآبار، وهي في مستوٍ من الأرض، يُنقل إليها التمر من حضرموت، بينها وبين حضرموت أربعة أيام، ويُقال للشحر: شحر عُمان))[1].

الهولندي بيتر فان دن بروكا:

زار الشحر (سنة ١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م) في عهد السلطان (عبد الله بن عمر بن بدر بو طويرق الكثيري)، وقد قدَّم (بروكا) وصفًا دقيقًا للجانب التجاري بالمدينة، إذ كان أحد أهداف زيارته هذه، إلى جانب إقامة علاقات تجارية مع السلطان باسم حكومته، كما قام بتحديد موقع الشحر حسب درجات الطول والعرض، وموقع الميناء والجمرك (الفندنغة)، وإحصاء عدد السفن الراسية، ووصف المدينة بأنَّها ذاتُ مساحةٍ كبيرة جدًّا، وبها بيوت متفرقة متباعدة معظمها مبني باللبِنِ والطين، ومَطليٌّ من الخارج بالجير، الذي يُعرف محليًا بـ(النُّوْرَة)، وبها عددٌ من المساجد، وذكر أنَّ سلطان الشحر يدفع سنويًّا للأتراك إتاوةً تُقدَّر بـ(٤٠٠٠) قطعة الثمانية ريالات و(٢٠) بونت (رطل) من العنبر الشحري مقابل حماية مياهه الإقليمية، كما أشار إلى الأعداد الكبيرة من التجار

١ ابن سباهي زاده، محمد بن علي البرسوي، أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تحقيق المهدي عيد الرواضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م. ص٤١٨.

الأجانب الموجودين في المدينة بغرض التجارة، وأن أكثر هؤلاء التجار من البانيان (طائفة من الهنود)، وذكر الكثير من السِّلَعِ الصادرة والواردة إلى المدينة، وبعض الأوزان والعملات المتداولة آنذاك[1].

ابن بهرام الدمشقي (ت: ١١٠٢هـ/ ١٦٩٠م):

ذكر في كتابه (مختصر الجغرافيا الكبير) أنَّ الشحر ولاية مستقلة، وبيَّن حدودها الغربية والشرقية، يقول: ((وإلى لحج أربعة منازل، وإلى عدن منزل واحد، وإلى الموضع المسمى (بروم) الذي هو حد ولاية الشحر، تسعة منازل، وإلى الشحر منزلان. وأول الاماكن المعمورة في ولاية (مهرة) هي المناطق التي تسمى بلاد (حيري)، وهي ثلاثة منازل، وإلى ظفار عشرة منازل. وثلاثة منازل إلى الموضع الذي يسمى (حاسك)، وهي مناطق يكثر فيها شجر اللبان، وإلى الميناء المسمى (غب الحشيش)، الذي هو حد حاكم ولاية الشحر، خمسة منازل))[2]. وفي موضع آخر يقول: ((والحاصل أنَّ شبام وتريم كانتا قريتي حضرموت، وشبام تقع في جبل وعر، ويوجد في هذا الجبل معدن العقيق والجزع، وبه مياه جارية وقرى ومزارع، ونفس حضرموت اسم لقرية تبعد عن الشحر بأربعة منازل، وهي اليوم مسكن قوم من العرب يقال لهم بنو النمر، وفي السابق كانتا

١ لتفصيل أكثر ينظر: باسنجلة، عبد الله بن محمد، تاريخ الشحر، ملحق رقم ٢، ص١٤٥ – ١٥٢، وجاكلين بيرن، اكتشاف جزيرة العرب،ص٧٨ – ٧٩. كما زارها ايضا بعد سنتان أي سنة ١٦١٦م.

٢ ينظر، الدمشقي، أبو بكر بن بهرام، جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير لابن بهرام الدمشقي، ترجمة من التركية العثمانية وحققه وعلق عليه: د. مسعد بن سويلم الشامان، إصدار مركز حمد الجاسر الثقافي، ط١، ٢٠٠٧م، ص٧٣.

الشحر وشرمة مرفأي حضرموت، ثم حدث أن اضطربت أمور حضرموت في ذلك الوقت، فقام السلطان أحمد[1] بإنشاء خليج ظفار في سنة عشر وستمائة للهجرة، واتخذ من مدينة ظفار عاصمة له، بعد ذلك بنى السلطان المظفر الرسولي[2] قلعةً في الشحر في سنة سبعين وستمائة للهجرة، وجعلها قاعدة له))[3]. وفي وصفه للشحر يقول: ((الشحر هو ساحل اليمن، وأرضه متصلة بأرض حضرموت، وهي مساكن قبائل مهرة، وكانت هي ديار عاد الأولى، واليوم الشحر هي مدينة كبيرة ليس بها ضرع ولا زرع، لكن يكثر بها العنبر وشجر الكندر، يصدر منها إلى كل الآفاق، ويكثر بها شجر اللبان وجوز الهند (النارجيل) واللاك، وتشتهر بالإبل النجيبة السريعة في سيرها، وفيها الإبل التي يسهل تطبيعها وتدريبها، فهي سريعة الفهم والإدراك، وهذا من أغرب غرائب تلك البلاد، ويضعون اسمًا لكل واحدة من هذه الإبل، فإذا ما دُعِيَت بهذا الاسم أقبلَتْ في الحال. ولهذه المدينة حاكم آخر(مستقل)، ومبانيها جميلة، وبها كثير من العلماء والفضلاء والصالحين، وتبعد عن عدن بسبع مراحل، وعن صنعاء بثماني مراحل. و(بروم) تأتي في الطريق من عدن إلى الشحر، وهي مرسى السفن، وحدُّ ولاية الشحر من الجهة الغربية))[4]. ثم تطرق إلى وصف المهرة، فقال: ((وصف مهرة: تمتد هذه الناحية من (حيرة) (حيرى) حتى تصل مكانًا يسمى (جاذباً)، وهذه المسافة كلها داخلة ضمن ولاية الشحر، وسكان

١ جاء في هامش الكتاب أنَّه السلطان أحمد الحبوضي.

٢ هو الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول، ثاني ملوك الدولة الرسولية، توفي سنة ٦٩٤هـ بقلعة تعز.

٣ المرجع السابق، ص١١٧.

٤ المرجع السابق، ص١٢٨.

مهرة لسانهم مستعجم لا يُفهَم، ويتكلمون بلغة حمير، وتكثر الإبل عند أهل تلك البلاد، وأكثر كسبهم الإبل والمعز والسمك، ويكثر السمك في بحر (الشحر)، فيصيدونه، ويصيدون نوعًا من السمك يجففونه في الشمس، ويقدمونه علفًا للدواب، وطعامهم السمك وشرابهم اللبن، حتى إنَّ بعض أهل مهرة يتوعكون من أكل الخبز والحبوب ويمرضون))[1]. ويقول أيضًا: ((و(ظفار) قصبة تتبع ولاية الشحر، وكانت هي العاصمة قديمًا، وهي تقع على رأس اللسان الداخل في الجهة الشمالية من البحر الأخضر))[2].

المستشرقان دانيال درميولين وفون فيسان:

زارا الشحر في مطلع ثلاثينيات القرن العشرين، ووصفاها بأنَّها تقع على ساحل مسطح متدرج الانحدار، لا تجد لها مرفأ إلا بعيدًا في البحر، كما وصفوا السور بأنه جديد، وزعما أنَّ هذا السور أكبر من حجم المدينة، وأن الكثير من منازل الشحر غير مأهولة ! كما ذكرا حصن بن عيَّاش ومدافعه، وأنَّ بطابقه الأرضي مدرسة مؤقتة تضم ما بين ٣٠٠ - ٤٠٠ طالب، ويقابل الحصن قصر الحاكم (دار ناصر)، وأنَّ حاكم الشحر ذو ملامح هندية، ويملك سيارةً أمريكية، وذكرا مقبرة سالم بن عمر العطاس والقبب حواليها، وأنَّ بالشحر (٣٦) مسجدًا، كما ذكرا (الباغ) الذي أصبح ضمن أملاك آل الكاف، حسب قولهما، ويُستخدم دارَ ضيافةٍ[3].

---

١ المرجع السابق، ص١٢٩.

٢ المرجع السابق، ص١٣١.

٣ ينظر للتفصيل: در ميولين، دانيال، و فون فيسان، حضرموت إزاحة النقاب عن بعض غموضها، ترجمة وتقديم وتعليق محمد سعيد القدال، ط١، دار جامعة عدن للطباعة والنشر ١٩٩٨م، ص٤٧-٤٩.

المؤرخ الأستاذ (محمد بن هاشم العلوي):

خلَّد زيارته إلى الشحر في كتابه الرائع (رحلة إلى الثغرين، الشحر والمكلا)، وكانت زيارته لها، كما ذكر في كتابه هذا، يوم الجمعة ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٠هـ[1]، الموافق ٢٥ سبتمبر ١٩٣١م، في مدة مقاربة لمقدم المستشرقين السالف ذكرهما، وقد دوَّن الكثيرَ من المعلومات القيمة عن المدينة، ووصف الحالة الاجتماعية والاقتصادية التي آلت إليها المدينة، وقدَّم لمحة موجزة عن تاريخ مدينة الشحر وسُوقها الشهير في الجاهلية، كما أشار إلى شهرة المدينة بجودة أسماكها وكثرتها، وذكر أنَّ أمير الشحر في مدة زيارته كان الجمعدار (سالم بن أحمد القعيطي)، وأنَّ مدير مدرسة مكارم الأخلاق هو السيد (عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ أبي بكر)، ومنصب السادة آل العيدروس هو السيد (حسين بن عبد الله العيدروس)، كما ذكر (الباغ) الذي اشتراه من السلطان (عمر بن عوض القعيطي) السيِّدُ (أبو بكر بن شيخ الكاف)، وأورد وثيقة الشراء تلك، كما وصف سور الشحر والسدتين والأبراج الموجودة على السور وبعض المسالف، ووصف أيضًا مقر الحاكم آنذاك المسمى بـ(دار ناصر)، إلى جانب ذكره بعض عادات أهل الشحر في استقبالهم كبارَ الضيوف والأعيان والترحيب بهم، كذكره استقبال أهل (عقل باعوين) لوفدٍ زائرٍ لهم، وهم يحملون (المشعال) وكذا ممارسة الأهالي لبعض الرقصات الشعبية كالعدة والشبواني، على شرف أولئك الزوَّار، كما قدَّم وصفًا موحشًا لبداية انهيار مكانة الشحر التي كانت المدينة الأولى في السلطنة القعيطية، خاصة بعد

---

١ العلوي، محمد بن هاشم، رحلة إلى الثغرين الشحر والمكلا، محاضرة ألقيت بنادي الشبيبة المتحدة بتريم ١٥ شعبان سنة ١٣٥٠هـ، طبعت على نفقة السادة آل الكاف العلويين – تريم.ص٢٩.

نقل العاصمة إلى المكلا، وما رافق ذلك من هجرة العقول ورؤوس الأموال معها، وأورد بعض الصور الفوتوغرافية التي التقطت خلال رحلته.

المستشار الإنجليزي (دبليو إتش إنجرامس):

أعدَّ إنجرامس تقريرًا عن حضرموت وألوية السلطنة القعيطية فيها، أورد فيه بشيء من التفصيل معلوماتٍ مهمةً عن لواء الشحر، من حيث حدوده وعدد سكانه وقبائله الحاملة للسلاح، وعدد أفراد تلك القبائل، وأسماء مقادمتها ومناصبها، إلى جانب ذكره لأهم القبائل التي تعد مدينة الشحر سوقَها، وهي: ثَعْيَن، والمناهيل، والحموم، والشعاملة، والعوابثة، والمعاري، والجوهي، وغيرها. كما ذكر مقدم الحموم في تلك المدة، وهو المقدَّم (علي بن سالم بن مجنَّح بن حبريش)، وأشار إلى زراعة التانبول بمنطقة المعدي، كما قدم نبذة تاريخية عن المدينة، وذكر أنَّ بها (٤٥) مسجدًا، وأنَّ حاكم الشحر آنذاك هو (صالح بن علي القعيطي)، كما قدَّم وصفًا للطرق البرية من الشحر وإليها، سواء كانت طرق قوافل الجمال أم طرق المركبات، وأشار إلى أهم الصناعات التقليدية بالمدينة، وعدَّ منها: تجفيف الأسماك، والصباغة، والحياكة، كما أشار إلى اعتماد أهالي المدينة في شربهم على مياه قرية (تبالة)، وأورد غير ذلك من المعلومات التاريخية القيمة[1].

---

١ لتفصيل أكثر ينظر إنجرامس، حضرموت ١٩٣٤-١٩٣٥م، ترجمة د. سعيد عبدالخير النوبان، دار جامعة عدن للطباعة والنشر ط١، ٢٠٠١م ص١٤-١٥، ص٣٠-٣٥، ص٤١-٤٣، ص٧٢، ص٧٦، ص١١٣-١١٧.

الرحالة والمصور الألماني (هانز هيلفريتس):

زار المدينة في ثلاثينيات القرن العشرين، ودوَّن بعض المعلومات عن المدينة، والتقط بعض الصور الفوتوغرافية القيِّمة، كصورة مبنى الجمرك وقصر الحاكم، بالإضافة إلى بعض المساجد والأكوات المطلة على المدينة، وتوجَّه هذا الرحَّالة إلى قرية (تبالة) القريبة من الشحر، ووصف طبيعتها وعيونها الكبريتية وصفًا ممتعًا، وذكر أنَّها ((مكان لعلاج مرضى الأمراض الجلدية، حيث يقصدها المرضى من أماكن بعيدة للاستحمام فيها، وتأتي للعيون صباح كل يوم قوافل حَمِير صغيرة من قرى نائية، تقصد المكان للتزود بماء العيون بواسطة خراطيم صنعت من جلد الماعز، وقد تم إنشاء مجرى للمياه بين تبالة والشحر يمتد لمسافة حوالي ٢٠ كيلومتر لتزويد الشحر بماء الشرب))[١].

الأسترالي (ألان فليرز) الملقب عند الملاحين الكويتين بـ(الشيخ ماجد):

زار مدينة الشحر خلال رحلته الشهيرة التي دوَّنها في كتابه الذائع الصيت (أبناء السندباد)؛ للتعرف على الملاحة البحرية والملاحين العرب الذين يجوبون مياه المحيط الهندي بسفنهم الشراعية، وكانت زيارته سنة ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م، برفقة النوخذة الكويتي (علي ناصر النجدي) على السفينة البوم المسمى (بيان/ فتح الخير)، وعلى ما يبدو أن المدينة لم تحظَ بإعجاب هذا الأسترالي؛ إذ لم يدوِّن في كتابه كثيرًا عنها، ولم تخلُ الوريقات القليلة التي دوَّن فيها انطباعاته ومشاهداته من استعلاء في غير موضعه،

١ ينظر: قادني الفضول حول العالم، هانس هيلفريتس في اليمن ١٩٣١ -١٩٣٥م رحلة موسيقية مصورة لاقتفاء الأثر، صادر عن سفارة جمهورية ألمانيا الاتحادية بصنعاء ومعهد الآثار الألماني قسم الشرق -فرع صنعاء ٢٠٠٧م، ترجمة عرفان عبود، ص ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٣٠.

واستخفافٍ بالمدينة وبموقعها، ولعلَّه تأثَّر كثيرًا بسبب وقوعه من على ظهر أحد الرجال الذين حملوه على أكتافهم لإنزاله من القارب إلى الساحل دون أن تبتل ملابسه، إذ أكسبه هذا الحادث نظرة تطيُّرية، جعلته يصب جام غضبه على المدينة وأهلها[1]، أو لعلَّ الإقامة الجبرية غير المعلنة وما لحقه من تضييق غير مباشر في أثناء إقامته في قصر الحكومة المسمى (دار ناصر) لم تعجبه، كما لم تعجبه ضيافة حاكم ولاية الشحر له، وإن لم يفصح عن تطيره وتشاؤمه ذلك.

إنَّ جُلَّ ما كتبه عن المدينة لم يخرج عن إطار غرفة الضيافة بالمبنى، ووصفه للمضيف وكرمه، وللميناء الذي رست فيه البوم الكويتية، وقد ينقل فليرز ما يعطي لمحة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالمدينة آنذاك، كإشارته إلى أنه شاهد في أثناء دخول مركبهم الميناء تسعةَ مراكب راسية، منها سبعة كويتية، واثنان فارسيَّان[2]، وفي وصفه للميناء يقول: ((لم يكن ميناء الشحر سوى مرفأ مفتوح معرض لتيارات الهواء، تهتز المراكب داخله أكثر من اهتزازها في عرض البحر))[3]. وقد قص لنا كما أشرت سابقًا،

---

١ يقول فليرز واصفًا المدينة: ((ولم يكن في شحر سوى سوق فقيرة، وعدد من المساجد البسيطة، وبعض الأبنية الآيلة للسقوط، وقصر السلطان، وجمال وحمير وماعز ودجاج، وبعض صغار التجار، وعدد قليل جدًّا من الجنود، وعدد من البدو، ومقهى واحد أو اثنين، وكثير من السمك، وكان هذا كل ما فيها، وفيما عدا بعض الأبنية الحقيرة الشأن فقد كانت المدينة باقية على حالها كما خلقها الله، وكنت أتساءل عما إذا كان فيها شيء يستحق أن يُبنى حوله ذلك السور الكبير، وقد مللت النظر إلى المدينة بسرعة، وقفلت عائدًا إلى المركب)). فليرز، آلان، أبناء السندباد، ترجمة وتحقيق، د. نايف خرما، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٢م، ص١٣٣.

٢ فليرز، آلان، أبناء السندباد، ص١٣١.

٣ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

روايةً أسطوريةً عن هذا الميناء تفيد أنَّ ملكة سبأ (بلقيس) هي من بنى هذا الميناء والمدينةَ أيضًا، وأنَّها بنَتْ أسطولها الحربي في الشحر.

وقصَّته هذه بناها على معلومة حكاها له أحد البحارة الكويتيين، ويُدعى (حمد بن سالم)، وعنها يقول: ((إنَّ ملكة سبأ لم تكن إلا امرأة، وإنَّ سخفها هو الذي جعلها تختار هذا المكان السخيف لتبني فيه سفنها، حيث لا يتوافر الخشب لبنائها، ولا المكان المناسب لتدشينها وإنزالها إلى البحر بعد الفراغ من بنائها، فلم تكن مدينة الشحر في نظري سوى قطعة مسوَّرة من الرمل تواجه بحر العرب، وكنت أتساءل إن كان هناك أي سبب أو عذر لوجودها أصلًا. وكانت تمتد مسافة ميل تقريبًا على الشاطئ، ولكن لم يكن في أي جزء منها مكان مناسب للرسو والنزول إلى البر، وكانت المدينة نفسها حقيرة فقيرة، شوارعها غير معبَّدة، وكثير من أبنيتها إمَّا آيلة للسقوط أو غير مكتملة البناء، ولم يكن فيها من البناء ما هو في حالة جيدة سوى قصر

السلطان المؤلف من بناء أبيض ضخم، والسور المحصن الذي يحيط بها، أما سوقها فقد كان صغيرًا ليس فيه ما يستحق الشراء، وكان صيد السمك على ما يبدو المهنة الوحيدة الشائعة هناك، وقد لاحظت أن الصيادين كانوا لا يزالون يستخدمون القوارب القديمة ذاتها التي كانت الواجهة تخاط بعضها مع بعض بخيوط من الألياف، ولا يستعمل فيها أي شيء آخر لتثبيتها معًا، وكان بعضها صغير الحجم، بينما البعض الآخر الذي يستعمل في نقل البضائع من السفن أكبر حجمًا، وكان للقوارب الصغيرة أشرعة، بينما كانت المجاديف تستعمل في الكبيرة، وكانت تلك القوارب الجميلة الشكل مقدماتها شبيهة بمؤخراتها، وانحناءاتها لطيفة، كما كانت مزخرفة بخطوط

بيضاء وشكل هندسي أسود وآخر أخضر على المقدمة والمؤخرة، وكان بعضها يُوجَّه بمجاديف قصيرة والبعض الآخر بواسطة السَّكَّان الذي كان يُوازن بحيث يبقى كله تحت سطح الماء باستمرار، ويُحرَّك عن طريق قطعة من الحبل تتصل بأصبع قائد الدفة، فإذا أراد هذا تغيير اتجاه القارب كان عليه فقط أن يحرك قدمه حركة خفيفة. وقد كانت القوارب الصغيرة التي يستخدمها الصيادون تستخدم شراعًا مربَّعًا واحدًا، وكانت تنساب بيُسرٍ ولُطفٍ إذا توفرت أقل نسمة من الهواء. وكان السمك اللذيذ الممتاز متوافرًا بكميات هائلة على ذلك الساحل، فقد كان الصيادون طوال النهار منهمكين في إنزال صيدهم السمين إلى الشاطئ، كما كان السمك رخيصًا جدًّا، فلم يكن ثمن حمولة قارب كاملة يزيد عن دريهمات قليلة، وكانت عملية تجفيف السمك الصغير لاستخدامه علفًا للجمال تجري في كل مكان تقريبًا على طول الشاطئ. ولم ألاحظ وصول أي شيء إلى ذلك المكان سوى السمك والتمور، وقد شاهدت أحد المراكب الفارسية وهو ينزل حمولته من التمر في المرسى))[1].

---

١ فليرز، آلان، أبناء السندباد، ص١٣١ – ١٣٢.

١ جاء في التوراة سفر التكوين الإصحاح الرابع العدد٧٣ : ((فخرج قايين من لدن الرب، وسكن في أرض نود

القبائل القديمة التي سكنت الشحر

تروي لنا كتب الأخبار أن أوَّلَ مَن استوطن هذه الأرض هم (عاد) قوم النبي هود عليه السلام، وورد في التوراة –والله أعلم بصحته–أنَّ قابيل بن آدم لمَّا قَتَلَ أخاه سكن منطقة (نود) شرق عدن، ولا يعرف قدماء المؤرخين مكانًا ذا شهرة واسعة على الشرق من عدن، غيرَ إقليم (الشحر)، ولعلَّ (نود) المذكورة هي (أنود) وهو اسم القصر الشهير أو الموضع الذي كان يُتوَّج فيه ملوك حضرموت، ويقع في شبوة عاصمة مملكة حضرموت القديمة[1].

أما بالنسبة لقوم عادٍ، فقد وردت قصتهم في القرآن الكريم، وأنَّهم هلكوا جميعهم بريح صرصرٍ عاتية، ولم ينج منهم إلا مَنْ آمن. ولو تتبعنا كتب التاريخ والأنساب لوجدنا أنَّ مِنْ نسلِ (هود) أو (عابر) كما عُرِفَ في بعض الأدبيات، قحطانَ أو يقطانَ، وهو جَدُّ اليمانيين، الذي استوطن هو وبنوه هذه الأراضي، وانتشروا في أرجائها وفي مناطق أخرى، في حين يُدرج بعضُهم (عادًا) ضمنَ أبناء قحطان، فهذا المؤرخ (عبدالرحمن بن خلدون) يحدثنا في تاريخه أنَّ يعرب بن قحطان بعد هزيمته لقوم عادٍ

١ جاء في التوراة سفر التكوين الإصحاح الرابع العدد ١٦: ((فخرج قايين من لدن الرب، وسكن في أرض نود شرقي عدن)). وقد نقل مثل هذا عدد من المؤرخين العرب كالطبري وابن كثير، ولم يحددوا موقع (نود) هذه بدقة، بل اكتفوا فقط بالإشارة إلى أنها شرق عدن. ينظر: تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري، ج١ص٩٠. وينظر أيضًا: التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الرابع، العدد ١٩ – ٢٤، والإصحاح العاشر العدد ٢٨ – ٢٩. ولمعرفة المزيد عن القبائل التي سكنت حضرموت قبل الإسلام ينظر: الكاف، سقاف علي، حضرموت عبر أربعة عشر قرناً،ص٢٦ – ٣٠.

((ولّى بلاد عاد الأولى -وهي الشحر- عادَ بن قحطان، فعُرِفَت به))[1]، كما ولّى حضرموت بن قحطان على جبال الشحر[2]. وهذا على اعتبار أنَّ عادًا قومَ هود اندثروا، وأنَّ البقية الباقية منهم (عاد الثانية) هم أبناء عاد بن قحطان.

ويرى بعضهم أنَّه في عهد ما قبل الإسلام حكمت الشحر قبيلةُ آل عليان بن مالك القضاعية، وللمؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف فذلكة تاريخية خاصة بمدينة الشحر وتاريخها القديم، استوحاها من بعض الحقائق التاريخية وما تواتر على ألسنة الناس من أخبار[3]. وأمَّا ما يتعلق بحكم قضاعة فقد جاء في المفصَّل في تاريخ العرب أنَّ أول من ملك بلاد الشحر من قضاعة هو قضاعة بن مالك بن عمرو بن حمير، وبعده تولاها ابنُهُ الحاف، كما حكمها منهم مهرة بن حيدان بن الحاف بن قضاعة، وعُرِفَت به[4]. وقد احتفظ العقل الجمعي بالعلاقة بين قبيلة قضاعة وبين الشحر إلى العصر الحديث.

١ ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون،(١/ ٧٢٥).

٢ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٣ تُنظر الفذلكة التاريخية لبامطرف ضمن كتيب: (الشحر مدينة وتاريخ) لمجموعة من الباحثين. وعن قبيلة قضاعة عند بامطرف يُنظر كتابه الجامع ص٤٥٠-٤٥١. ويُنظر: الكاف، سقاف علي، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا، مكتبة أسامة، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ص٢٩.

٤ ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٨/ ١١-١٢). ويذكر بعض الباحثين أن قبيلة قضاعة الحميرية نزحت إلى السهول الساحلية من اليمن، واستوطنت الشحر في القرن الرابع الميلادي. ينظر: الملاحي، عبدالرحمن، ومعيلي ، علي حسن، تاريخ الصراع الحمومي القعيطي ودوافعه، وثائق الندوة العلمية التاريخية حول المقاومة الشعبية في حضرموت، المنعقدة في كلية التربية، المكلا، في ٢٥-٢٦فبراير١٩٨٨م، إصدار جامعة عدن، كلية التربية المكلا، ص٢١١. وينظر كذلك: الدلالات الاجتماعية لمهرجانات ختان صبيان قبائل المشقاص، ص٤٦، والكاف، سقاف علي، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا، ص٢٩.

وثمة إشارة في كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي نقلًا عن أبي المنذر هشام بن محمد الكلبي، إلى أنَّ قبيلة طيِّئ القحطانية كانت تسكن بلاد الشحر قبل انتقالها إلى موقعها الشهير عند جبلي أجا وسلمى[1].

ويمكن القول إنَّه عندما جاء الإسلام كانت تتقاسم إقليم حضرموت عددٌ من القبائل والعشائر المعروفة منها بطون من قبائل حضرموت وأحلافها، ومن قبيلة قضاعة[2] التي منها قبائل مهرة، وكذلك قبائل كندة ببطونها وفروعها المتعددة، ومنها الصدف وتجيب وبنو معاوية. وتذكر كتب التاريخ وفود كندة ومهرة والحضارم على الرسول صلى الله عليه وسلم في السنة العاشرة من الهجرة وإعلانهم إسلامهم، وهم من هذه القبائل[3].

١ الحموي، ياقوت بن عبدالله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م،(١/ ٩٧).

٢ يقول المسعودي في حديثه عن الشحر: ((وأهل الشحر أناس من قضاعة وغيرهم من العرب، وهم مَهْرة)). مروج الذهب ص٦١. ومن بطون قبيلة حضرموت كما يرى المؤرخ محمد بامطرف الحموم وثعين. ينظر: الجامع، ص١٧٩. ويذكر المؤرخ عبدالله الناخبي ((أن حضرموت القبيلة المشهورة هي التي حكمت الشحر بعد سبأ، والتي بقيت منها قبيلة ثعين المشهورة في منطقة ريدة عبدالودود)) حضرموت فصول في الدول والأعلام، أو شذور من مناجم الأحقاف، ص٦١. ولمعرفة المزيد عن القبائل التي كانت تسكن حضرموت عند ظهور الإسلام، ينظر: الكاف، سقاف علي، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا، ص٢٦.

٣ وفد من مهرة وفدان على الرسول صلى الله عليه وسلم كان ((أحدهما بزعامة مهري بن الأبيض، والآخر قدم من الشحر، وكان يضم زهير بن فرضم أو قرضم بن العجيل بن قباث وابنه ذهبان ومجموعة من أفراد قبيلة من بني الآمري)). تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي سرجيس ص٩٧. ومن ممثلي وفد كندة الأشعث بن قيس، وعن قبيلة حضرموت وائل بن حجر الحضرمي وغيرهم.

ويرى بعضهم أنَّ الشحر سكنتها كذلك قبيلة آل غراب، التي انتقلت من منطقة بئر علي (قنا) إلى الشحر، واستقرت في مناطقها الشرقية بعد تحالفها مع قبيلتي الحموم وتَعْيَن[1].

كما سكن هذه المنطقة قديمًا أفراد أو أُسَر من قبائل الشحارى، وباسمِ هؤلاء سميت المنطقة كلها بـ(الشحر)، ثم خُصَّت بها المدينة[2]، أمَّا اليوم فإنَّ موقع هذه القبيلة ضمن إقليم ظفار العُمانيَّة[3]، وهم يزعمون بوجودهم في تلك الارض وليس غيرها منذ بدء الخليقة!

ويمكن القول إنَّه بعد ظهور الإسلام سكنت المدينة إلى جانب تلك القبائل المذكورة، فصائلُ أخرى منتميةٌ إلى القبائل القحطانية (قضاعة، حضرموت، كندة)، وأُسَرٌ تنتمي إلى الأزد (الأنصار)، وإلى حِمْيَر ومنها قبيلتا يافع وسيبان، وأخرى من نهد، ومن قبيلة مذحج، كما سكنتها بطون من قبيلة هَمْدان القحطانية، ومنها آل كثير حُكَّام حضرموت لقرون خلت.

---

١ بامطرف: الشهداء السبعة، ص١٦، والرفيق النافع، ص٧٥. وذكر الملاحي في: (الدلالات الاجتماعية واللغوية والثقافية لمهرجانات ختان صبيان قبائل المشقاص) ص٢٩-٣٠، أنَّ بيت غراب ((سكنوا في تاريخهم القديم بوادي غراب، والمعروف أيضًا بوادي اللسك، و(القرية) دون إضافة، وهي بنحو ستة كيلو مترات إلى الشرق من مدينة تريم بوادي حضرموت، ونزحوا منه بعد إجلاء الرسوليين لهم في القرن السادس الهجري إلى السهل الساحلي وتحالفوا مع الحموم، ويسكنون اليوم بقرية حلفون والمعيملة ووادي ضبا والديس الشرقية ومعبر)).

٢ ذكر المؤرخ علوي بن طاهر الحداد نقلاً عن الهمداني، قوله: ((سميت الشحر لأن سكانها كانوا جيلًا من مهرة يسمون الشَّحْرا، بفتح الشين وسكون الحاء، فحذف الألف وكسروا الشين، ومنهم من لا يكسر الشين، والكسر أكثر، والأشحار جمعها)). الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها، ص١٠٩.

٣ للاستزادة عن قبيلة الشحرى، يُنظر كتاب لغة عاد، لعلي الشحري. وقد نفى المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف الروايات التي تقول بعلاقة الشحر(المدينة) بقبائل الشحرا أو الشحرى، أو بالمهرة، وخاصة ما ذهب إليه الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب. ينظر: بامطرف، محمد عبدالقادر، ملاحظات على ماذكره الهمداني من جغرافية حضرموت، تحقيق ومراجعة: حسن صالح غلام العمودي، ص٧٢ – ٧٧.

أمَّا عن القبائل العدنانية فيُلاحظ أن غالبية البطون فيها هي من قبيلة (قريش) تحديدًا، أشهرها تلك الأسر التي اصطُلِحَ على تسميتها بـ(العلوية) أو (العلويين)، أو (آل باعلوي)، وهم من أسباط الرسول صلى الله عليه وسلم من ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ونسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد قدم إلى حضرموت جدهم الأكبر (أحمد بن عيسى) مهاجرًا من العراق، ومن نسله الكثير من الأسر العلوية كآل العيدروس، وعيديد، والحبشي، والسقاف، ومول الدويلة، والحداد، والمحضار، وآل الشيخ أبي بكر وغيرها[1]. كما استوطنتها أُسر قرشية أخرى (عباسية وأُمويَّة)، منها آل باوزير، وآل العمودي، وآل إسحاق، وبافضل، وآل باعباد. واللافت للنظر أن بحضرموت أسرًا كثيرة تنتسب لقريش بصورة تبعث على العجب بحكم كثافتها العددية، والنفوذ والتأثير الكبير الذي حازته، وهي جديرة بأن تتناولها الدراسات والأبحاث الأكاديمية.

إنَّ وجود بطون أو فصائل من كل تلك القبائل المذكورة سابقًا في المدينة، إنَّما كان على شكل أسر متحدرة منها، امتزجت مع بعضها البعض، كما فقد الكثيرُ منها ارتباطها القبلي بعشائرها. وهناك مئات الأسر الأخرى غير الأسر والقبائل المذكورة، قد سكنت المدينة، وهي بحاجة لمجلد مستقل يتناولها، وما ذكرتُ تلك إلا لشهرتها، وقد نقل لنا المؤرخ

١ أول قدوم للعلويين إلى حضرموت كان بخروج أحمد بن عيسى الملقب المهاجر وأولاده من البصرة سنة ٣١٨هـ/ ٩٣٠م، واستقراره بحضرموت. ينظر للاستزادة: شهاب، محمد ضياء، بن نوح، عبدالله، الغمام المهاجر أحمد بن عيسى بن محمد بن علي العريضي بن جعفر الصادق، ماله ولنسله وللأئمة من أسلافه من الفضائل والمآثر، دار الشروق، جدة، ط١، ١٩٨٠م. وينظر: بلفقيه، حداد أبوبكر، سطور من تاريخ المهاجر، مركز تريم للدراسات والنشر، والشاطري، محمد أحمد، أدوار التاريخ الحضرمي، مرجع سابق، ج١ ص١٥٦، وتاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، العيدروس عبدالقادر، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٩٨٥م، ص٧٤، والكاف، سقاف، دراسة في نسب السادة بني علوي.

(محمد بامطرف) عن (الربان باسباع) قوله عن سكان المدينة في القرن العاشر الهجري: ((أهل الشحر أشتات من كل قالب لفة، مهرة وعُمانيَّة وحضارم ودواعن وشبامية وبدو ويمانية وحجازية ومغاربة وهنود وسواحلية، كلهم شحارية بُوْ عن جَدّ، لكن كل دجاجة على مرعاض، ما لهم من رابطة))[١].

ويمكن القول إجمالًا -على الرغم من عدم توفر إحصاء للتوزيع الجغرافي للسكان وفقًا للعرق أو الانتماء القبلي-إنَّ ساكني الشحر اليوم أكثرهم من قبائل ثَعْيَن والحموم وأحلافهم (زي الحموم)[٢]، وفصائل من قبائل سيبان ومهرة، وأسر من بطون كندة على الأكثر[٣]. وفي عهود سابقة استقرَّ في المدينة عددٌ من الأسر اليافعية (التلد)، بعض منها

---

١ محمد بامطرف الشهداء السبعة ص٢٤.

٢ لمعرفة المزيد عن قبائل الحموم وزيها (أحلافها) ينظر: الملاحي، عبدالرحمن ، تاريخ الصراع الحمومي القعيطي ودوافعه، بحث منشور ضمن وثائق الندوة العلمية التاريخية حول المقاومة الشعبية في حضرموت، والدلالات الاجتماعية واللغوية والثقافية لمهرجانات ختان صبيان قبائل المشقاص ثعين والحموم،ص٤٨.

٣ لمعرفة المزيد من القبائل التي سكنت المنطقة ينظر: الملاحي، الدلالات الاجتماعية ص٢٣-٣١. كما قدم إنجرامس تقريرًا عن القبائل الحضرمية في منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين، وخاصة القبائل الحاملة للسلاح آنذاك. ينظر كتابه (حضرموت) المذكور سابقًا. وينظر كذلك: أدوار التاريخ الحضرمي للشاطري الذي ذكر بإسهاب الكثير من القبائل الحضرمية ومساكنها آنذاك. ويلاحظ في كثير من الأسر المنتمية لقبيلتي كندة وحضرموت أنَّها قد ضَيَّعت أصولها وسلسلة أنسابها، أو أن النسَّابة تلاعبوا بها بقصد أو بغير قصد؛ لغياب الدقة والموضوعية، فضلًا عن إخراج بعض الأسر من طبقة القبائل إلى طبقات أخرى دونها، لا لشيء سوى أنَّها لم تحمل السلاح في أثناء قيام بعضهم بإحصاء القبائل، أو لأنَّها تحضَّرت منذ عهود طويلة، أو لامتهانها بعض الحِرَفِ والمهن التي لا تليق بطبقة القبائل في نظر المجتمع آنذاك! وللاستزادة عن القبائل الحضرمية وتوزيعها في ألوية السلطنة القعيطية، ينظر: الناخبي، عبدالله أحمد، شذور من مناجم الأحقاف، والعطاس: السفينة في أنساب القاطنين في حضرموت.

استطاعت أن تكوِّن دُوَيلات، وسنأتي لذكرها لاحقًا. ولعل أول استقدام ليافع بكثرةٍ كان في عهد سلاطين الدولة الكثيرية، وتحديدًا في عهد السلطان (بدر بن محمد الكثيري) الملقَّب بـ(بدر المردوف) (ت: حوالي ١١٢٠هـ/ ١٧٠٨م)[1]، وبعضهم يرى أن قدومهم بكثرة كان في عهدٍ أقدم من العهد المشار إليه، وسنأتي لذكره[2].

وأشهر الأسر والبيوتات اليافعية التي سكنت المدينة وما زالت مقيمةً بها: آل البكري، وآل لرضي، وآل السعدي، وآل الخلاقي، وآل اليزيدي، وغيرهم، إلى جانب مَنْ حكم الشحر من قبلُ كأسرة آل بن بريك[3]، وآل القعيطي اليافعيين. كما استوطن

١ ترى بعض المصادر أن السلطان بدر الكثيري اعتمد على الجنود المأجورين من الأتراك وغيرهم في تثبيت أركان دولته، وأنَّهُ في ربيع ٩٢٨هـ/ ١٥٢٠م تقريباً وصل إلى الشحر عدة آلاف من المقاتلين اليافعيين ومن القبائل الزيدية والموالي الأفارقة. ينظر: رودينوف: من عادات وتقاليد حضرموت الغربية، ص٥٤. وذكر المؤرخ صلاح البكري اليافعي أن عدد الجنود الذين استقدمهم أبو طويرق (٥٠٠٠) مقاتل، وكان هذا سنة ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م، ينظر: تاريخ حضرموت السياسي، ج١ص١٢٦. وفي تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٩٢) أنه في عام ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م ذهب السلطان بدر بن محمد المردوف الكثيري إلى يافع لاستقدام جنود من أهل السنة (الشوافع) للوقوف ضد منافسه في الحكم السلطان عمر بن جعفر الكثيري وحلفائه الزيود. وينظر أيضًا: بامطرف، المعلم عبدالحق ص٦٩. وعن وجود يافع في حضرموت، ينظر: الجعيدي، عبدالله، الأوضاع الاجتماعية والثقافية في حضرموت، ص١٠، والبطاطي، عبدالخالق، إثبات ما ليس مثبوت من تاريخ يافع في حضرموت، وديان، محسن، وقائع من تاريخ يافع، ص٢٣٩.

٢ يرى البعض أن بدءَ استقدام يافع إلى حضرموت كان في عهد أبي دجانة الذي استعان بهم في غزو عدن أيام الطاهريين، في حين يرى آخرون أن سيف بن ذي يزن في سعيه للقضاء على الأحباش استعان بالفرس وبأفراد من قبيلة يافع التي استقرت في القطن. ينظر: بامطرف، الشهداء السبعة، ص٢٠.

٣ جاء في كتاب الشامل في تاريخ حضرموت لعلوي بن طاهر الحداد أن آل بن بريك ينتمون إلى بيت شنين من مذحج، في حين أكدت مراجع أخرى يافعيتهم. وسنأتي لذكر دولتهم لاحقًا. ينظر للتفصيل: الجوهي، خالد حسن، إمارة آل بن بريك في الشحر، ص٤٤.

الشحرَ قديمًا عددٌ من الأسر القادمة من شبوة، ومن حوطة أحمد بن زين بلفقيه، إلى جانب أعداد قليلة جدًّا ممن جُلِبُوا من إفريقيا من عبيدٍ أرقَّاء اعتِقُوا لاحقًا، وانصهروا في المجتمع، فضلًا عن الأقلية الأخرى التي جلبها سلاطين آل القعيطي ممَّن عُرِفُوا بـ(حاشية السلطان)، من جنوده ذوي الأصول الإفريقية أو الهنديَّة، الذين كوَّنوا جاليةً صغيرةً في المدينة، ومعظم أفراد هذه الجالية الأخيرة هاجروا إلى مدينة المكلا مع انتقال العاصمة إليها سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١١م، كما ارتحل عدد آخر منهم إلى عدن، أو عاد إلى بلاده بعد الاستقلال الوطني[١].

ويمكن القول إنَّ سكان الشحر اليوم خليط مهجَّن من قبائل وأسر شتى، سكنت المنطقة في عهود تاريخية مختلفة[٢]، ثم امتزجت والتحمت مع بعضها البعض لوجود الوعي بين أفرادها، ممَّا أدى إلى ذوبان كل التفاوتات الطبقية والنعرات القبلية والمناطقية، وإن لم يزل بعضهم -وخاصة ممن كانت لهم امتيازات ومراكز اجتماعية عُليا في المجتمع- متشبثين بمراكزهم السابقة تلك صوريًّا؛ رغبة منهم في استعادة مجد ضائع.

---

١ أشار إنجرامس في تقريره إلى أن النازحين من الهند والذين استقروا في المكلا أو الشحر بصورة كاملة أو جزئية بلغ عددهم حوالي (٣٠٠)، وهؤلاء يمتلكون الجنسية البريطانية. ينظر: حضرموت، ص٥٤.

٢ للاستزادة عن الأسر التي سكنت المدينة حديثًا ينظر: البطاطي، عبدالخالق عبدالله، إثبات ما ليس مثبوت من تاريخ يافع بحضرموت، ط١، ١٩٨٩م، ص١٦. وأما القبائل التي تعيش حول مدينة الشحر فهي ((قبائل ثعين والحموم وبيت حمودة والقرزي والشعاملة والمسيليين والعصارنة وآل باحباب والمعارة والجوهيين)). الكاف، حضرموت، مرجع سابق، ص١٧-١٨.

التاريخ السياسي لمدينة الشحر

تصعب دراسة تاريخ الشحر -بوصفها مدينةً أو بوصفها إقليمًا- بمعزل عن تاريخ حضرموت العام، وكذلك العكس، إذ يشكلان معًا وجهين لعملة واحدة، وكلٌّ منهما يكمِّل الآخر وليس بمعزل عنه، نظرًا لمتانة الارتباط الحيوي والتاريخي والبشري بينهما، بين مناطق حضرموت الداخل وحضرموت الساحل (الشحر بوصفها إقليمًا)، كما أنَّ مدينة الشحر خلال عهودها التاريخية المختلفة كانت كما يرى الباحث عبدالرحمن الملاحي بوابةَ حضرموت الجنوبية التاريخية.

وسنحاول في هذا المختصر تقديم صور موجزة وواضحة لمجمل الأحداث والوقائع السياسية الكبرى التي مرت بها المدينة عبر تاريخها، مع الإشارة لبعض الحوادث العابرة أو تلك التي شابها الغموض والخلط، محاولين تجلية صورتها وإيضاح معانيها بحسب ما تتيحه لنا المصادر والمراجع المتوفرة، فضلًا عن توثيق حوادث أخرى ذات صلة بتاريخ المدينة خاصة.

ويمكننا القول إنَّ هذه المنطقة الواقعة على ساحل البحر العربي، كسائر أقاليم العربية الجنوبية، خضعت في عهودٍ من تاريخها القديم لحكم المكربين والأقيال المتنازعين فيما بينهم للسيطرة على الأراضي والنفوذ[1]، وفيهم قال الشاعر:

---

١ ينظر بافقيه محمد عبد القادر، تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥م، بدون طبعة، ص٤٠. والبكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي (١/ ٣٤). ويذكر البكري، في الصفحة نفسها، أن حضرموت كانت تتقاسمها الأقيال، والأقيال جمع قَيْل، وهو الأمير الذي يسكن حصنًا أو قلعة ومن حوله بيوت الأنصار والأعوان والحاشية والخدم. وفي حضرموت أقيال كثيرون، أشهرهم كانوا في دمون وشبام وهينن والعروض وعندل والشحر. ولمعرفة المزيد من المكربين الذين حكموا حضرموت قبل أن تتحول إلى مملكة، ينظر: علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام،(٣/ ١٣٢).

وعباهل من حضرموت من بني أحمـاد والأشـبا وآل صـباح
والغـر مـن جـدن وأبنـا مـرة وبـني شـبيب والألى مـن شـاح
وبنـو الهزيـل وآل فهـد منـهم مـن كـل هـش للنـدى مرتـاح[1]

إنَّ المصادر والمراجع التي بحوزتنا، لم تذكر لنا أسماء أولئك العباهلة والأقيال والملوك الذين حكموا المدينة أو المنطقة برمتها في عصورها القديمة، وإنَّما تُشير إلى بعضهم إشارةً عامَّةً، كأن يكون ملكًا أو قَيلًا على حضرموت كافة. ومهما يكن فالشحر تعد جزءاً لا يتجزأ من مملكة حضرموت المترامية الأطراف التي تتسع رقعتُها تارة وتضيق تارة؛ وفقًا للعوامل الجيوسياسية ومعادلات القوة والهيمنة مع من يجاورها. وأشار المؤرخ صلاح البكري إلى أن أشهر أقيال حضرموت كانوا موجودين في شبام وهينن وعندل ودمُّون والشحر، دون أن يسمي لنا اسم هذا القيل أو ذاك[2]. أمَّا عن ملوك حضرموت عامة فقد حفظت لنا بعض النقوش أسماءَ عددٍ منهم، كـ(صدق إل) الذي كان ملكًا على حضرموت ومعين معًا[3]، وابنه (شهر علن بن صدق إل)، و(معد كرب بن اليفع) و(يدع إل بن ربشمس) وغيرهما[4].

---

١ من قصيدة مطولة شهيرة لنشوان الحميري، أورد أبياتًا منها صلاح البكري لكن مع كثير من التصحيف والتحريف، ينظر: تاريخ حضرموت السياسي،(١/ ٣٤- ٣٥)، والحميري، نشوان، خلاصة السير الجامعة لعجائب أخبار الملوك التابعة، ص١٨٣.

٢ البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي (١/ ٣٤).

٣ ينظر: بافقيه، تاريخ اليمن القديم، ص٤٠، والبكري: تاريخ حضرموت السياسي (١/ ٣٧-٣٨)، وجواد علي: المفصل في تاريخ العرب (٣/ ١٣٦)، وباوزير، سعيد: صفحات من التاريخ الحضرمي، ص٢٠.

٤ للمزيد عن حكام مملكة حضرموت القديمة ينظر: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٣/ ١٦٦).

ومن أبرز الشخصيات الحضرمية التي حفظ لنا التاريخ شذراتٍ من أخبارها: الملك الحضرمي (العزيلط)، الذي يفترض الدكتور محمد بافقيه أنَّه (العز) أو (العذ) المذكور في (البريبلوس) باسم (اليازوس) ملك أرض اللبان[1]، ومن اسمه اشتقت الأسعى (alasa)، وفي عهده كانت حضرموت مملكة موحدة.

وهناك ملك أسطوري يدعى (حمومة) كان ملكًا على صقع من اليمن، ذكره اللغوي والأديب محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (٧٢٩ -٨١٧هـ/ ١٣٢٩ -١٤١٥م) في كتابه (القاموس المحيط)، دون أن يحدد موقعه أو حدود مملكته أو زمنه التاريخي[2]. وقد افترض الباحث عبدالرحمن الملاحي أنَّه كان ملكًا على ساحل حضرموت (إقليم الشحر).

ولفظة (ملك) قد تطلق قديمًا على حاكم لرقعة جغرافية صغيرة، يسكنها تجمع قبلي غير بالغ التعقيد، ولا تعني بالضرورة أن يكون حاكمًا لإقليم واسع، وأنَّ صاحبها ذو سلطة كبيرة ونفوذ، وهي لفظة تتقارب مع لفظة (الأقيال) و(الأذواء) و(العباهلة) الذين عرفتهم حضرموت ومناطق أخرى من اليمن.

١ بافقيه، تاريخ اليمن القديم ص٤٠. ونلاحظ أن لفظ العز (alase) يتقارب مع لفظ (الأسعا)، ولعل تسمية (الأسعى) اشتقت من هذا الاسم. وللمزيد عن هذا الملك ينظر: جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٣/ ١٤٢).

٢ ينظر: الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط ، تحقيق مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، الناشر مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط٨، ٢٠٠٥م، ص١٠٩٨).

وافترض الباحث عبدالرحمن الملاحي اشتقاقَ اسم قبيلة (الحموم) من اسم الملك (حمومة) المذكور آنفًا[1]، وهي القبيلة الأكثر التصاقًا بالشحر والأقرب جغرافيًّا إليها. وقد اختلف النسَّابون في نسب هذه القبيلة، فمنهم من ردَّها إلى قبيلة حِمْيَر، ومنهم مَنْ ردَّها إلى قبيلة حضرموت[2]، ومنهم من نسبها إلى قبيلة كندة. ونحن نرجح نسبتها إلى قبيلة حضرموت، لا سيما فروعها الرئيسة، وهم الفصائل الأربع الرئيسة الذين يُطلق عليهم (آل عمرو)، ويطلق على كل فصيل منها اسم (بَيْت)، وهذه البيوت هي(بيت علي وفيهم الرئاسة، بيت حسن، بيت سعيد، بيت عبيد)، إلى جانب فصائل وعشائر من قبائل أخرى انضمت إلى الحموم أو تحالفت معهم، والجميع يشكل تحالفًا قبليًّا متينًا عُرِفَ بـ(زي الحموم)، أو التجمع العشائري الحمومي[3].

ويرجع نسب الحموم كما يرى الملاحي نقلًا عن الهمداني إلى (عمرو بن ذي جدن بن الحارث بن حضرموت بن سبأ الأصغر)، أي إنَّهم حميَريُّون، مع ملاحظة أن قبيلة حضرموت أقدم بكثير في عمود الأنساب من سبأ الأصغر (حِمْيَر). كما أشار الهمداني إلى

١ ينظر: الملاحي، تاريخ الصراع الحمومي القعيطي، بحث ضمن مجموعة بحوث بعنوان المقاومة الشعبية في حضرموت، ص٢١٠.

٢ من بطون قبيلة حضرموت كما يرى بامطرف الحموم وثعين. ينظر كتابه الجامع ص١٧٩. ويذكر المؤرخ عبدالله الناخبي ((أن حضرموت القبيلة المشهورة هي التي حكمت الشحر بعد سبأ، والتي بقيت منها قبيلة ثعين المشهورة في منطقة ريدة عبدالودود)). ينظر: حضرموت فصول في الدول والأعلام أو شذور من مناجم الأحقاف، ص٦١. وعن قبيلة ثعين ينظر: الملاحي، الدلالات الاجتماعية، ص٤٧.

٣ للتفصيل ينظر: الملاحي، تاريخ الصراع الحمومي، ص٢١١، والدلالات الاجتماعية، ص٤٨.

أنهم يسكنون مواقعهم الحالية منذ أن كانوا[1]. وعزوة الحموم إلى اليوم هي قولهم (بو عمرو)، يعتزون بجدِّهم الأعلى. يقول الشاعر الشعبي سالم باسباع الملقب (قريشن) في إحدى قصائده متشفيًا بالحموم بعد أن غدر بهم القعيطي في حادثة المذبحة المشهورة وسنأتي لتفاصيلها في موضعها من هذا الكتاب:

هذا جزاءِ من خان شايمنا ومن فينا قتل

قل له قرب ولعاد باتنفعك قولة بو عمور.

كما أشار الملاحي إلى أن العلامة عبدالرحمن بن خلدون الحضرمي(٧٣٢ -٨٠٨هـ/ ١٣٣١ -١٤٠٥م) ذكر أنهم من حضرموت القحطانية وليسوا من حِمْيَر، وأنَّهم دخلوا فيما بعد في تحالفات مع قبائل كندة[2].

وهذا يقودنا الى ما أوردناه سابقًا من قصيدة نشوان الحميري (ت: ٥٧٣هـ/ ١١٧٨م) التي ذكر فيها عباهلة حضرموت في قوله:

عباهلة من حضرموت من بني أحماد والأشبا وآل صباح

والغر من جدن وأبنا مرة وبني شبيب والألى من شاح

١ الملاحي، عبدالرحمن، تاريخ الصراع الحمومي، ص٢٠٩، وينظر أيضًا: ملوك حمير وأقيال اليمن وشرحها، المسمى خلاصة السير الجامعة لعجائب الملوك التبابعة، ص١٨٣.

٢ الملاحي، عبدالرحمن، تاريخ الصراع الحمومي القعيطي، ص٢١١. وللمزيد عن كندة وتحالفاتها ينظر: ابن خلدون، عبدالرحمن، تاريخ ابن خلدون ص٣٧٢. وعن أثر كندة في الجنوبية العربية ينظر: علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب،(٦/ ٦٨).

وجاء في شرح هذين البيتين من القصيدة: ((العباهلة: الملوك الذين أقروا على ملكهم لا يزالون عنه. ومن ذلك كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأقيال والعباهلة من آل حضرموت. ذو أحماد وذو جدن بطنان هما من جمهور ولد الحارث بن حضرموت بن سبأ الأصغر، وكذلك شبا بن الحارث وهم الأشبا، منهم محمَّد بن عمرو بن عبد الله بن زيد قاتل معن بن زائدة ببست))[1]، وإلى جانب شخصية عمرو بن ذي جدن الذي سبقت الإشارة إليه، أشارت بعض كتب التاريخ إلى شخص آخر من آل ذي جدن يُدعى (مؤثر الخير بن ذي جدن)، وهو ممن استعان بهم امرؤ القيس الكندي في حروبه الثأرية، ومؤثر الخير هذا كان ملكًا من ملوك حمير[2]، وقد أمدَّ امرأ القيس بخمسمائة رجل من قومه ومن سواهم من العرب، وقد اشتركت قبائل كندة وقبائل حضرموت والتبابعة في معارك عدة ذكرتها النقوش، منها المعركة التي دارت رحاها بموضع يُدعى (مأسل الجمح) بين مكة والرياض[3] سنة ٥١٦م ضد المنذر ملك الحيرة[4].

١ الحميري، نشوان، خلاصة السير الجامعة، ص١٨٣.

٢ ابن خلدون، عبدالرحمن، تاريخ ابن خلدون، (٢/ ٣٢٩).

٣ للتفصيل عنها وعن النقش ينظر: علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب،(٤/ ٢٢٤)، (٦/ ٦٩)، (٤/ ٢٢٤)، والملاحي، عبدالرحمن، تاريخ الصراع الحمومي القعيطي، ص٢١١.

٤ المرجع السابق،(٦/ ٩٦). وينظر: بن صالح، عبدالعزيز، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، المكتبة الإنجلو المصرية، ص١٦٤، ومهران، محمد بيومي، دراسات في تاريخ العرب القديم، ص٣٢٤، والسقاف، حمود، أضواء جديدة على التاريخ، تبابعة وملوك اليمن، ص٥٥.

الشحر في عهد السبئيين والحميريين

بانهيار مملكة حضرموت وسيطرة مملكة سبأ عليها، أصبحت مدينة الشحر خاضعة للسبئيين، وقد سبق أن أوردنا ما حكاه الرحالة (آلان فليرز) من أنَّ ملكة سبأ (بلقيس) هي من ابتنت المدينة وكذلك الميناء[1]، وهي حكاية لا تعدو أن تكون مجرد أسطورة لا تستند لدليل قوي، وقد حكمت تلك الملكة حوالي خمس عشرة سنة، وقيل: عشرين سنة[2]، وقد عاشت في القرن العاشر قبل الميلاد تقريبًا، في حين يرى آخرون أن المدينة التي كانت تسمى قديمًا بـ(الأسعاء) أسَّسها أبو ثور المهري[3] في عهدٍ متأخرٍ جدًّا، وقد سبق أن ناقشنا هذه الآراء.

إن الوريث لمملكة سبأ هو مملكة حِمْيَر (١١٥ق م – ٥٢٥ ب م)، ففي عهد ملكها (شمر يهرعش)، دخلت حضرموت والشحر معها ضمن مملكة ملوك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنت، ويبدأ تاريخ هذا اللقب مع نهاية القرن الثالث الميلادي، سنة ٢٧٥م، وهذا اللقب لازم عِدَّةً من الملوك الحميريين[4]، وقد افترض عالم الآثار الدكتور محمد بافقيه في دراسة له أنَّ (يمنة/ يمنت) المذكورة في اللقب السابق للملوك والتي

---

١ ينظر: فليرز، آلان، أبناء السندباد، مرجع سابق، ص١٣١-١٣٢.

٢ البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي، (١/ ٣٦)، (١/ ٣٨).

٣ الكاف، سقاف علي، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا، مرجع سابق، ص٢٩. وقد أورد بامطرف رواية أخرى تنص على أن مؤسس المدينة ومينائها هو الملك الحضرمي (العزيلط)، ومن اسمه اشتق اسم المدينة القديم (الأسعاء). ينظر: الرفيق النافع، ص٧٥.

٤ لمعرفة الملوك الحميريين بعد شمر يهرعش، ينظر: البكري، صلاح، تاريخ حضرموت، ص٣٦. ويرى بافقيه أنَّ شمر يهرعش أعلن في مطلع القرن الرابع الميلادي ضَمَّ حضرموت إلى مملكته. ينظر: تاريخ اليمن القديم ص٤٢.

اشتقت منها تسمية اليمن، يُقصد بها الجنوب أو بلاد الشحر تحديدًا[1]. ويبدو أنها هي المدَّة التي ظهر فيها اللقب الحميري الشهير (تُبَّع)، إذ لا يُطلق هذا اللقب على ملوك اليمن، كما تفيد بعض المراجع، إلا إذا خضعت لهم حضرموت و الشحر معًا[2]. ولا تمدُّنا المصادر بتفصيلاتٍ وافيةٍ عن وضع حضرموت والشحر خاصَّةً في العهد الحميري، وإن كان القليل منها تحدث عن المكانة العظيمة التي احتلتها مدينة الشحر في ذلك العهد لوجود الميناء[3].

١ في دراسته أكد بافقيه أن (يمنة) التي دار حولها الجدل تعني جهة الجنوب. وليس هناك سوى ساحل الشحر الممتد الذي يقع بالجنوب، وبدقة أكثر وجد أن بلاد الشحر هي بؤرة الجنوب أي جنوب الجنوب. ينظر: بافقيه، محمد عبد القادر، في العربية السعيدة، ص٤٣ -٦١. وينظر: الموسوعة اليمنية، مادة حضرموت،(١/ ٤٠٩)، والملاحي، عبدالرحمن، مدينة الشحر بوابة حضرموت الجنوبية التاريخية في القرن الثامن والتاسع الهجريين، ص١٧٨. ويؤكد ذلك ما أورده الهمداني من أنَّ جنوب اليمن يسمى (يمن) وشمالها (شام). ينظر: صفة جزيرة العرب، ص٨٩. وكذلك ما ورد في خارطة من أيام الدولة الرسولية لعدد من المدن اليمنية المهمة آنذاك، وكان منها الشحر، وفيها بيان للجهات ، فكانت لفظة (يمن) تشمل كل جهة جنوبية. ينظر: ارتفاع الدولة المؤيدية، مرجع سابق، ص١٣٢. ويرى بامطرف ((أن كلمة (يمنات) أو (يمنت) كانت تطلق على المنطقة الساحلية الواقعة شرق باب المندب إلى ظفار، وهي مقابلة لكلمة (تهامة) والتي تطلق على الساحل الغربي لبلاد العرب)). المختصر في تاريخ حضرموت، ص٢٣.

٢ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر،(٢/ ٨٨)، وباوزير، سعيد عوض، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص٢٧. وللاستزادة عن هذا اللقب. ينظر: الموسوعة اليمنية (١/ ٢٢٠).

٣ البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي،(١/ ٤٢). وقد أشار المؤرخ عبدالرحمن الملاحي إلى نقشٍ وُجِدَ بوادي ميفعة يتحدث عن حصار قبيلة ذي يزن لمدينة الأسعى في منتصف القرن الرابع الميلادي. ينظر: مدينة الشحر بوابة حضرموت، ص١٧٩. وللاستزادة عن أهمية ميناء الشحر عبر القرون وفي القرن ١٠هـ/ ١٦م تُراجع رسالة ماجستير للطالبة شيخة بنت صالح شعيب، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، إشراف د. سالم بابكور، ٢٠٠٥م.

كما تعرضت الأجزاء الساحلية من حضرموت لغزوات حميرية متتالية [1]. وتفيد بعض المراجع أنَّ آخر هؤلاء التبابعة هو ذو نواس الحميري (يوسف أسأر يثأر) الذي اعتنق الديانة اليهودية، وأراد فرضها على كل اليمنيين ومَنْ هم خارج اليمن. وهذا يعني أنَّ حضرموت والشحر كانتا تحت سيطرته ونفوذه طالما أنَّه يحمل لقب (تُبَّع).

لقد كان نظام الحكم في حضرموت في عهد الحميريين يختلف، كما يرى بعضُهم، عن النظام السائد في اليمن القائم على مبدأ وراثة العرش، أي إنَّ الملك يرثه ابنُه أو أخوه، ففي حضرموت ينتقل المُلْكُ إلى أوَّل مولود من الأشراف والنبلاء (العائلة الملكيَّة) وُلِدَ في أثناء حكمه (أي الملك)، وبحسب التقليد السائد فإنَّهُ عند الاحتفال بتولية الملك يَرفع إليه خاصَّتُه قائمةً بأسماء النبيلات الحوامل، فيُعيِّن المِلِكُ لكُلٍّ منهن امرأةً تقوم بمراقبتها وخدمتها حتى تَضَع، فأوَّلُ نبيلةٍ تلد غلامًا، يأمر الملكُ بمن يعتني بتربيته ويقوم بتهذيبه وإعداده للمُلْك[2].

ولم تخضع حضرموت للأحباش الذين سيطروا على العرش الحميري، بالرغم من أن تلك المدَّة ما زالت يشوبها الكثير من الغموض، وهي بحاجة إلى مزيد بحث[3].

---

١ بافقيه، محمد، تاريخ اليمن القديم، ص٤٠.

٢ البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي،(١/ ٤٠).

٣ أشار صلاح البكري إلى أن حضرموت لم تدخل في حكم الأحباش، وظلت محافظةً على استقلالها، ولم تخضع لهم سواء في أيام العلى إسكندي،أو ولديه عيزاناس، وسازاناس. ويقصد بهؤلاء أبرهة وولديه يكسوم ومسروق. ينظر: تاريخ حضرموت السياسي،(١/ ٣٩). ويؤكد هذا ما ورد ((في نقش أبرهة الشهير الذي يعود تاريخه إلى سنة ٦٥٨ من التقويم الحميري/ ٥٤٣ ميلادية، ذكر (كبير حضرموت) ضمن أعيان جنوب الجزيرة العربية الذين ثاروا ضد أبرهة، ثم تصالحوا معه)). فرانتسوزوف، سرجيس، تاريخ حضرموت=

ويبدو أنَّ مدينة الشحر، أو قُلْ منطقة الساحل الحضرمي، ظلت تحت سلطة اليزأنيين وأحلافهم من قبيلة كندة وغيرها حتى ((سبعينيات القرن السادس الميلادي، ففي منطقة الساحل الحضرمي بالذات نزل سيف بن ذي يزن المتطلع إلى العرش الحميري، مع الفرق العسكرية التي قدم بها من فارس))[1]. وقد حددت بعض المراجع موقع نزول هذه الحملة بمنطقة المشقاص التي تشمل المدن والقرى الواقعة شرق مدينة الشحر[2].

=الاجتماعي والسياسي قبيل الإسلام وبعده، تقديم وتعريب د. عبدالعزيز بن عقيل، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء، ط١، ٢٠٠٤م ، ص٤٦. ويرى د. محمد باوزير أن الغزو الحبشي قد طال حضرموت ولو من قبيل الولاء والطاعة للنفوذ الحبشي، كما أشار الى أن الاحباش استولوا على ميناء قنا الحضرمي، وكانوا عازمين على السيطرة على كل المناطق التجارية على ساحلها. ينظر: كراسات في تاريخ حضرموت وتراثها، طبع في مطبعة الإبداع، عدن، ط١، ٢٠١١م، ص٤٩-٥٠.

١ فرانتسوزوف، تاريخ حضرموت، ص٤٧. ويرى المؤرخ محمد بامطرف أن سيف بن ذي يزن بعدما استعاد ملكه بطرد الأحباش سنة ٥٧٦م، استطاع بسط نفوذه على حضرموت والشحر، ولكن سرعان ما تقلص نفوذه بقدوم القبائل الكهلانية وخاصة كندة التي سيطرت على الشحر. الشهداء السبعة ص٢٠. وذكر المسعودي أنَّ سيف بن ذي يزن مات قبل أن يستعيد ملكه، وأنَّ من استعاد ملك حمير ابنه (معدكرب بن سيف)، وهو الذي أتى بالحملة الفارسية، ونزلوا على شواطئ حضرموت بموضع يقال له (مثوب). ينظر: مروج الذهب،(٢/ ٦٤). وللباحث عبدالرحمن الملاحي دراسة أكد فيها حقيقة نزول تلك الحملة بحضرموت، وأنها كانت بمنطقة المشقاص (شرق الشحر) بموضع يدعى مثوب. ينظر: الفرس في أرض اللبان، مجلة آفاق، العدد ٦، السنة ٣، فبراير ١٩٨٤م، الصادرة عن اتحاد الأدباء والكتَّاب اليمنيين، فرع حضرموت، وينظر كذلك كتابه: الدلالات الاجتماعية واللغوية لمهرجانات ختان صبيان قبائل المشقاص، ص٤٢. وهناك آراء بعيدة ترى أنَّ الحملة الفارسية نزلت بعدن.

٢ لمعرفة المزيد عن المشقاص ينظر: الملاحي، عبدالرحمن، الدلالات الاجتماعية، ص٨، وبامطرف، محمد، ملاحظات على ما ذكره الهمداني عن جغرافية حضرموت، ص٦١. والمشقاص عند إبراهيم المقحفي تبدأ من رأس باغشوة غربًا إلى حساي شرقًا، وقدر مساحتها الإجمالية بحوالي ١٣٠كم٢. ينظر: معجم البلدان والقبائل اليمنية، (٢/ ١٥٣٨).

والبعض افترض نزولها بالمكلا غرب الشحر، وهو رأي ضعيف[1]. وقد حددها المسعودي في موقع يدعى (مثوب)[2]، واجتهد الباحث عبدالرحمن المَلّاحي في تحديد هذا الموقع، وترجح لديه في النهاية أنَّه بالمنطقة التي تقع فيها اليوم قرية (مهينم)، وبدقة أكثر فإنَّ محط نزول الحملة الفارسية القليلة العدد بقيادة الفارسي (وهرز) كانت في مثلث يضم كلًّا من قُرى قصيعر ومهينم والمَخْرَج[3]، ففي هذا الموضع خرج الفرس من سفنهم ((وقد أُصِيب بعضُهم في البحر، فأمرهم (وهرز) أن يحرقوا السفن ليعلموا أنَّه الموت، ولا وجهَ يُؤَمِّلون المفرَّ إليه فيجهدون أنفسهم، وفي ذلك يقول رجل من حضرموت:

أصبح في مثوب ألف في الجنن   من رهط ساسان ورهط مهرسن

ليخرجوا السودان من أرض اليمن   دلهم قصد السبيل ذو يزن))[4].

وكان اختيار هذا الموضع لأسباب استراتيجية عسكرية منها:

١- بُعْدُ هذا الموقع عن مركز السلطة الحبشية بصنعاء.

٢- وجود التحالفات القبلية بين اليزنيين وقضاعة والقبائل القاطنة بالأسعاء من حضرموت والسلف والصدف.

٣- العلاقات التجارية والعقائدية بين الفرس وسكان شرقي اليمن[5].

---

١ مَنْ تبنى هذا الرأي هو الشيخ عبدالله أحمد الناخبي في كتابه فصول في الدول والأعلام أو شذور من مناجم الأحقاف، ص٦٤. والأدلة التي ساقها بعيدة جدًّا عن الحقيقة حتى من الناحية الزمنية.

٢ المسعودي، مروج الذهب،(٢/ ٦٤)، وبافقيه، محمد، تاريخ اليمن القديم، ص١٦٤.

٣ الملاحي، عبدالرحمن، الدلالات الاجتماعية واللغوية والثقافية، مرجع سابق، ص٤٣ – ٤٥.

٤ المسعودي، مروج الذهب، (٢/ ٦٤).

٥ الملاحي، الدلالات الاجتماعية، ص٤٤-٤٥.

وهذا يجعلنا نتساءل عن سر عدم اختيار ميناء الشحر للرسو فيه والانطلاق منه، لا سيما أنَّ مدينة الشحر في تلك المدَّة، كما أشرت سابقًا، لم تكن خاضعةً للأحباش. وللإجابة عن هذا التساؤل نرى أنَّ أقصى نقطة وصل إليها الأحباش كانت (ميناء قنا)[1]، وتكاد تكون مدينة الشحر في موقع متوسط بين هذا الميناء الذي يسيطر عليه الأحباش والواقع جهة الغرب منها، وبين الموضع الذي نزلت فيه الحملة الفارسية، الواقع جهة الشرق من المدينة (المشقاص)، ذلك أنَّ الدواعي الأمنية تتطلب أن تكون هذه القوة الفارسية قليلة العدد، على مسافة بعيدة من مناطق وجود الأحباش لتتمكن قدر الإمكان من الابتعاد عن السواحل والتخفي بين الجبال بعيدًا عن عيون الجيش الحبشي، وليتسنى لهذه القوة فيما بعد الالتحام بالمقاومين، ولذلك كانت (مثوب) أنسب من ميناء الشحر، إذ لو نزلوا بالأسعاء لكان يُحتمل أن تصل إليهم القوة الحبشية قبل التوغل في مناطق حضرموت لقرب المسافة بين ميناء قنا وميناء الشحر، فكان اختيار ذلك الموضع أضمن لنجاح الحملة دون أن يعترضها شيء، كما أن مدينة الشحر، وإن لم تخضع مباشرة للأحباش، قد رجَّحت بعض المراجع ولاءَها وطاعتها للأحباش ولو صوريًّا[2]، وهذا يعني بالضرورة أنَّ بالمدينة عيونًا وأعوانًا للأحباش، ووجود مثل هؤلاء يشكل خطرًا على الحملة العسكرية التي يفترض فيها الالتزام بطابع السرية، على الأقل إلى أن تلتحم هذه الحملة ببقية العشائر المتمردة أو تلك الموالية لسيف بن ذي يزن[3].

١ بعض المراجع تذهب إلى أن الوجود الحبشي امتد إلى حضرموت وخاصة منطقة وادي حجر، وأنَّ بقايا أولئك الأحباش ما زالوا فيها إلى اليوم، ويطلق عليهم (الصبيان)، وأحيانًا (الحجري). إنجرامس، حضرموت، ص٥٤.

٢ باوزير، د. محمد عبدالله، كراسات في تاريخ حضرموت وتراثها، مرجع سابق، ص٤٩.

٣ يرى فرانتسوزوف أنَّ أوائل المناصرين لسيف بن ذي يزن هم قبائل السكاسك، وهي من القبائل الكندية التي عدت في مراحل لاحقة من القبائل الحميرية. ينظر: تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي، ص٧١.

وقد أشار المؤرخ عبدالرحمن الملاحي إلى نشوب معركة عُرِفَت بـ(يوم غيمان) بين قبيلتي حضرموت وكندة من جهة، وسيف بن ذي يزن والفرس من جهة أخرى[1] دون تحديد المدَّة الزمنية لهذه المعركة ولا ذكر دوافعها. ونفترض أنَّها كانت بعد انتصار سيف بن ذي يزن وقُبَيل مقتله، وأنَّ سببها محاولة اليزأنيين إبقاء حضرموت تحت نفوذهم وسيطرتهم.

١ الملاحي، عبدالرحمن، معيلي، حسن، تاريخ الصراع الحمومي القعيطي، ص٢١١.

الشحر تحت النفوذ الفارسي

بعد خضوعها للحميريين خضعت المدينة للفرس، فبعد طردِ الأحباش[1] سرعان ما انقلب الفرسُ على اليمنيين، واستأثروا بحكم المنطقة عامة، إذ إنَّ سياسة سيف بن ذي يزن الرعناء ألَّبت عليه القبائل اليمنية، فاستغل الفرس هذه الصراعات لمصلحتهم، وبعد قضائهم على سيف بن ذي يزن وسيطرتهم على البلاد، عيَّنوا ولاةً لهم (مرازبة) على الشحر وحضرموت، أحدهما يُدعى (سخت) والآخر (سنداد)[2]، كما عيَّنوا مرزبانًا من قبيلة كندة، وهو ابن عم يزيد بن أبي كبشة[3]، ربما امتنانًا منهم لما قام به ابنُ أبي كبشة سابقًا من مقاومة للأحباش، أو أنَّ هذا التعيين جاء محاولةً منهم لاحتواء الأوضاع السياسية المتوترة في حضرموت إثر التمردات والثورات التي صاحبت وجودهم، مثلما فعله لاحقًا الأمويُّون مع بروز حركة طالب الحق في المنطقة.

---

١ يرى محمد بامطرف أن سيف بن ذي يزن استعاد ملكه بطرد الأحباش سنة ٥٧٦م، واستطاع بسط نفوذه على حضرموت والشحر، ولكن سرعان ما تقلص نفوذه بقدوم القبائل الكهلانية، وخاصة كندة التي سيطرت على الشحر. ينظر: الشهداء السبعة ص٢٠. ونلاحظ أن وفاة سيف كما ورد في بعض التراجم كانت سنة ٥٧٤م، في حين يذكر بامطرف في المرجع السابق أنَّ طرد سيف للأحباش كان سنة ٥٧٦م! وهذا ينقضه ما ذُكِرَ من أنَّه توفي سنة ٥٧٤هـ، كما أن وجود القبائل الكهلانية (كندة) بحضرموت سابق لعهد سيف بن ذي يزن.

٢ ينظر: فرانتسوزوف، ص٧٣. وفي الشامل لعلوي بن طاهر الحداد، ص١٦، سمي الأول (اسبيخت). وينظر: الناخبي، شذور من مناجم الأحقاف،ص٦٢. وللمزيد عن الوجود الفارسي في مناطق المشقاص (شرق مدينة الشحر) ينظر: الملاحي، الدلالات الاجتماعية، مرجع سابق، ص٣١-٤١.

٣ فرانتسوزوف، تاريخ حضرموت، ص٧٣.

ولقد كانت قبيلة كندة الوافدة إلى حضرموت منذ زمن غير بعيد[1] من أشدِّ القبائل الحضرمية مقاومةً للوجود الفارسي، وإلى جانبها قبيلتا حضرموت ومهرة القضاعية، بينما يرى المؤرخ عبدالرحمن الملاحي أن بعض فصائل قضاعة تمجَّست وأقامت علاقات وطيدة مع القوَّة التي قدمت بصحبة سيف بن ذي يزن[2]. وفي مناطق المشقاص (شرق مدينة الشحر) بعض القلاع والرؤوس البحرية منسوبة إلى الفرس، كرأس المرزبان (رأس باغشوة حاليًّا)[3]، وقلعة شقبون، وحصن شروان[4].

---

١ يرى بعض المؤرخين أن المسكن الأول لقبيلة كندة هو حضرموت، وأن (دمون) التي ذكرها امرؤ القيس الكندي في شعره، كانت حاضرتهم، ومن حضرموت هاجرت بطون وقبائل كندية عدة إلى وسط الجزيرة العربية، واختلف بعضهم في سبب هذه الهجرة، منهم من أرجعه إلى الصراع والتنافس على الزعامة بين البطون الكندية نفسها، ومنهم من رأى أن حسان بن تبع الحميري الذي كانت تربطه بكندة علاقة قرابة ومصاهرة، ولَّى حجر بن عمرو المشهور بـ(آكل المرار) على بلاد معد كلها، فارتحل هذا بمجاميع كبيرة من قومه، وهناك أقيمت مملكة كندة في الربع الأول من القرن الخامس الميلادي، وبمقتل الشاعر امرئ القيس الكندي تضعضعت مملكة كندة مما أدى إلى نزوح العشائر والبطون الكندية إلى أوطانها الأصلية في الجنوب، حيث كونوا إمارات صغيرة، أشهرها دومة الجندل والبحرين ونجران وغمر ذي كندة. للاستزادة ينظر: طقوش، محمد سهيل، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النفائس، لبنان، ط١، ٢٠٠٩م، ص٣٢٠، ومهران، محمد، دراسات في تاريخ العرب القديم ص٥٩٩. ويرى المؤرخ صلاح البكري نقلًا عن الهمداني أن عدد الكنديين الذين وفدوا إلى حضرموت بعد جلائهم من البحرين والمشقّر وغمر ذي كندة كان نيفًا وثلاثين ألفًا، وهؤلاء أقاموا في الشحر ودوعن والكسر وعندل والهجرين ورخية ودهر وسدبة وبدا (حورة) ومنوب ودمون. ينظر: تاريخ حضرموت السياسي،(١/ ٧٣)، والهمداني، الحسن بن أحمد، صفة جزيرة العرب، ص١٧١، والشاطري، محمد، أدوار التاريخ الحضرمي، ص٦٢.

٢ الملاحي، الدلالات الاجتماعية ص٤٥.

٣ سمي هذا الرأس بهذا الاسم نسبة للشيخ محمد بن أحمد باغشوة.

٤ للتفصيل عن هذا الرأس والقلاع وعلاقتها بالفرس ينظر: الملاحي، الدلالات الاجتماعية، ٣٣-٤١.

وقبيلة (كندة) بعد مزاحمتها للمد الفارسي وانحسار هذا المد إلى مناطق اليمن، استطاعت أن تكون هي المسيطرة على معظم الرقعة الحضرمية بعد أن زاحمت عليها قبائل حضرموت الأخرى وتفوقت عليها[1].

وتشير بعض المصادر في حديثها عن الأسواق الموسمية الشهيرة في جنوب الجزيرة العربية قبل الإسلام، إلى قيام الأبناء (الفرس) بمهام الجباية (العشور) أو الخفارة وخاصة في أسواق صنعاء وعدن، في حين لا يوجد لهؤلاء الفرس أي ذكر في أسواق الشحر أو الرابية بحضرموت، إذ كانت القبائل المحلية هي من يضطلع بهذه المهمة، لا سيما قبيلتي المهرة (قضاعة) وكندة[2]، وما كانت الخفارة لتُسند لهذه القبائل لو لم تكن مسيطرة وذات قوة ومنعة.

١ البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي (١/ ٧٥)، وعصبان، أكرم، الفرق والمذاهب في حضرموت، ص٢١. ويلاحظ في قائمة المستوطنات الكندية وأسماء قبائلها الموزعة على تلك المستوطنات في حضرموت، في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، التي قدمها الباحث سرجيس فرانتسوزوف، نقلًا عن الهمداني، أنه لم تُذكر أي مستوطنة كندية في (مخلاف الأسعاء)، باستثناء أحد الفروع أو البطون الصدفية وهو (زاف بن ذخير بن غسان بن جذام بن الصدف). ينظر: فرانستوزوف، تاريخ حضرموت السياسي والاجتماعي قبيل الإسلام وبعده، مرجع سابق، ص١٧٥ –١٨٤. وهذا يرجح ما ذهب إليه الهمداني من أن الأسعاء في تلك المدة كانت تابعة لأبي ثور المهري. ينظر: صفة جزيرة العرب، ص١٧١. إلا أن هذا لا يمنع من وجود أسر وقبائل كندية أخرى، قد تكون انصهرت وذابت في القبائل الأخرى دون أن تنشئ مستوطنة مستقلة، وهذا الأرجح، كما أن تلك القائمة التي أوردها فرانتسوزوف إنما خصصت لبطون وفروع (الصدف وتجيب) الكنديتين فقط، وهناك بطون أخرى غيرهما لكندة، كمعاوية الأكرمين والسكون والسكاسك وتجيب وغيرها.

٢ ينظر: ابن حبيب، المحبر ، ص٢٦٦، والأفغاني، سعيد، أسواق العرب في الجاهلية،ص٢٦٦–٢٧٦.

وقد التزم الفرس بالإقامة في مناطق نفوذهم وسيطرتهم في اليمن إلى أن جاء الإسلام، فأقامهم النبي صلى الله عليه وسلم عمالًا له على صنعاء وما جاورها.

الطعن في أصول الحضارمة وإرجاعها إلى الفرس:

سبق أن تحدثنا عن القبائل والأسر الحضرمية التي سكنت المنطقة قديمًا، والحديث عن الوجود الفارسي بالمنطقة يجرنا إلى ما ذهب إليه بعض المؤرخين الحضارمة أو من غيرهم ممَّن حاول بقصد أو بغير قصد تدليس نسب الحضارمة ومن سكن بينهم من العرب لحاجةٍ في نفس يعقوب، كادِّعاء بعضِهم امتزاج الحضارمة بالفرس، وهي فِرْيَةٌ ليس لها أي سند علمي يُعوَّل عليه، إذ تؤكد الشواهد أنَّ الغالبية العظمى من سكان حضرموت -بما فيها الشحر- هم عرب أقحاح، راسخة جذورهم في هذه الأرض، لم يشاطرهم أرضَهم غريبٌ عنهم باستثناء قلة قليلة من ذوي الأصول الإفريقية لم تختلط مع العرب إلا في النادر وفي العصر الحديث فقط، وهذا لا يعد مؤثرًا، فغالبية الأُسَر تنتمي إلى القبائل الحضرمية القديمة التي سكنت المنطقة قديمًا وما زالت تسكنها، وبجانبها أُسَرٌ من قبائل عربية أخرى قحطانية أو عدنانية، شاطرتها السكن في حِقَبٍ تاريخية متفرقة.

ومن الادعاءات ما جاء في كتاب الشامل أنَّ الحضارمة ((خالطوا الفُرْسَ قديمًا حتى تمجَّس بعضُهم، مع التباين العظيم بين طبيعة العربي المبنيَّة على الغيرة والأنفة، وبين التمجس أو المزدكية المبنيَّة على الدياثة وفقد الغيرة، ولكن جاءهم ذلك من مخالطتهم للفرس))[1]، فالفِرْيَةُ هنا ليست واحدة! ولا يخفى ميلُ علوي بن طاهر للفرس

١ الحداد، علوي بن طاهر، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها، ص١٦.

وهو الذي يقول فيهم: ((وقد كان من حكمة الله في خروج الفرس إلى اليمن تطهيرُها من أعداء بيته العتيق، ولتخلو جزيرة العرب من الملوك لئلا يصدوا عن الإسلام، وقد نصر من بقي من الفرس الإسلام نصرًا مؤزرًا، وقاوموا الدجَّال العنسيَّ مقاومةً محمودةً، ووصلهم حظهم من الإيمان لقوله صلى الله عليه وسلم: لو كان الإيمان بالثريا لناله رجالٌ من فارس))[1].

وهذا مفتي حضرموت السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف يقول في حديثه عن دوعن: ((وأمَّا دوعن فإنَّه اسم عجمي فارسي كما يأتي في حوفه، ومنه تعرف انتجاع الأعجام بكثرة لبلاد حضرموت من عهد استيلاء الفرس على اليمن، حسبما سبق في حصن الغراب، ولم يزل بها وباليمن من أعقابهم الكثير، ألا أنهم اندمجوا فيهم مع مرور الأيام))[2]. وفي موضع آخر يقول: ((وبما أنَّ اسم دوعن فارسيٌّ، فالظاهر أنَّ كثرة أعاجمها منهم، بأمارة أنَّ صعبة أم طلحة بن عبيد الله من بنات فارس، وهي حضرمية أخت العلاء بن الحضرمي، وكانت تحت أبي سفيان بن حرب، فلم تزل به هند حتى طلقها، وتَبِعَتْها نفسُه))[3].

ووَرَدَ في ترجمة أمير كندة حضرموت الأشعث بن قيس (٢٥ق.هـ-٤٠هـ/ ٥٩٧-٦٦٠م) في كتاب الأعلام للزركلي[4] إشارةٌ بالهامش نقلًا عن كتاب المصابيح (مخطوط)

١ الحداد، علوي، مرجع السابق ص٤٦.

٢ السقاف، عبد الرحمن، إدام القوت، ص٣٠٥-٣٠٦. وينظر: المفصل في تاريخ العرب (١٢/ ٢٦٧).

٣ المرجع السابق، ص٤٤٢.

٤ الزركلي، الأعلام (١/ ٣٣٢). وعن ترجمة الاشعث ينظر: باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ، ص٤٨.

لأبي العباس أحمد بن إبراهيم الحسني[1]، فحواها أنَّ الأشعث من أصل فارسي، وانتسب أبوه إلى كندة، وكان جده معدكرب يسمى خرزاذ. فإذا كان هذا يُقال في الملوك من أمثال الأشعث، فما بالك ببقية الناس؟!

وكانت هناك مجاميع من الأعاجم في الجزيرة العربية أُطلقَ عليهم (الخضارمة)، بالخاء المعجمة وليس بالحاء المهملة، والمفرد خضرمي[2].

وثمة مَنْ ذهب إلى أن عادة المشاعيل التي اشتهرت بها مدينة الشحر وبعض مناطق ساحل حضرموت، إنَّما هي عادة ذات ارتباط بديانة المجوس وتقديسهم للنار، ظلت متأصلة في الوجدان الجمعي تتوارثها الأجيال بعد أن غاب عنهم مضمونها. وهذا أيضًا كلام غير علمي ولا يستند إلى أيِّ أدلة، وقد تناولنا هذه العادة بتفاصيلها في كتابنا عن

---

١ تنظر ترجمته في الأعلام (١/ ٨٨). وفي ترجمة المؤلف في ملحق كتاب البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني تأليف محمد بن محمد زبارة، طبعة دار المعرفة – بيروت، لبنان،ص٣٨، وأيضًا في الطبعة الأخرى من الكتاب المذكور، مطبعة السعادة بمصر، ط١، ١٣٤٨هـ، أشار المؤلف إلى أن أحمد بن عز الدين بن الحسن الحسني له عدة مؤلفات، ولم يذكر منها كتاب المصابيح. ولعل الزركلي يقصد عبدالله بن إبراهيم بن القاسم الحسني الشرفي، المترجَم له في ملحق البدر الطالع، وفيه أن له مؤلفًا في التفسير موسومًا بـ(المصابيح الساطعة الأنوار المجموعة من تفسير الأئمة الأطهار) في ستة أجزاء، فلعله هو المقصود. ينظر: ملحق البدر الطالع بمحاسن من في القرن السابع، محمد بن محمد زبارة، دار المعرفة لبنان (٢/ ١٢٦). وبملحق مطبعة السعادة بمصر. أو لعل زبارة غفل عن أنَّ له كتابًا موسومًا بالمصابيح. والأمر متروك للمحققين.

٢ جاء في تاج العروس لمرتضى الزبيدي (٣٢/ ١١٢)، عن الخضارمة قوله: ((والخضارمة قوم من العجم خرجوا في بدء الإسلام فسكنوا الشام، وفي الصحاح: فتفرقوا في بلاد العرب، فمن أقام منهم بالبصرة فهم الأساورة، ومن أقام منهم بالكوفة فهم الأحامرة، ومن أقام منهم بالشام فهم الخضارمة، ومن أقام منهم بالجزيرة فهم الجراجمة، ومن أقام منهم باليمن فهم الأبناء، ومن أقام منهم بالموصل فهم الجرامقة، الواحد منهم خِضرمي بالكسر)).

الفولكلور الحضرمي، وأكدنا فيه أنَّ أصلها التاريخي يعود إلى الهند وليس إلى إيران، وأنَّها لا تمت بصِلةٍ إلى ديانة المجوس (الزرادشتية)، فضلًا عن أنَّ الفرس أنفسهم كانوا ينظرون إلى ديانتهم تلك على أنَّها ديانة قومية خاصة بهم وحدهم، لا ينبغي مشاركة الآخرين (الغرباء) فيها[1]. والكلام من مثل هذا كثير[2]، وما هذه إلا نماذج لسنا هنا في صدد تأكيدها أو نفيها أو حتى نقدها وتبيان زيفها.

وهذا المنحى الذي يستهدف ضرب الأصول لم يقتصر على الحضارمة وحدهم، بل طال معظم سكان العربية الجنوبية، كما تجده عند غير واحدٍ من الباحثين[3].

١ علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (١٢/ ٢٧٠).

٢ لمعرفة المزيد عن علاقة الفرس بحضرموت وخاصة منطقة المشقاص ينظر: الملاحي، عبدالرحمن، الدلالات الاجتماعية واللغوية والثقافية لمهرجانات ختان صبيان قبائل المشقاص ثعين والحموم، ص٣١-٤٥.

٣ للمزيد في هذا الموضوع ينظر: علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام،(٢/ ١١٩) وما بعدها، (١٢/ ٢٦٧).

الشحر في ظل قبيلة كندة

يفيد المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف أنَّ قبيلة قضاعة، لا سيما فرعيها المهرة وبني عليان، كانت المسيطرة على ساحل حضرموت في مدَّة غير محددة قبل الإسلام، وأنَّ قبيلة بني عليان القضاعية هذه، كانت هي المسيطرة على مدينة الشحر، ويحكمها ملك منهم يدعى الهميسع بن النمر بن مرة بن عليان بن مالك القضاعي، وأنَّه بعد وفاة هذا الملك طمعت القبائل الكندية النازحة إلى حضرموت في السيطرة على المدينة، لتنشب بين القبيلتين معارك وحروب طاحنة، انتهت في النهاية بانتصار القضاعيين[1].

وقد جعل المؤرخ بامطرف من هذا الحدث مادةً دراميةً صاغ منها فذلكته المشهورة التي روت تفاصيل تلك الحروب والمعارك بين قضاعة وكندة في أثناء نزوح هذه الأخيرة إلى حضرموت الساحل. وقد اعتمد بامطرف في روايته تلك على المرويات الشعبيَّة، والتبس الأمر على بعض العوام فظنوا أنَّ تلك الرواية بشخوصها وتفاصيلها حقيقة، وعدُّوها جزءً من تاريخ المدينة القديم.

والأحداث المتلاحقة أكدت أنَّ النصر كان حليف كندة، وتراجعت قضاعة وانكمش نفوذها، لتعاود قضاعة ظهورها لاحقًا وتحكم المدينة، وكان هذا في القرن الرابع الهجري وما بعده.

---

١ بامطرف، محمد عبدالقادر، قبيلة قضاعة اليمنية، بحث ضمن مجموعة بحوث بعنوان الشحر مدينة وتاريخ، إصدار مكتب وزارة الإعلام، محافظة حضرموت، ص٩.

ومن المعروف أنَّ بلاد المهرة التي تدخل جغرافيًّا ضمن إقليم الشحر، سُميت (مهرة) نسبة لقبيلة (مهرة)، وهي من القبائل القضاعية الشهيرة، وقد عدَّ بعض النسابين العرب، ومنهم الهمداني، قبيلة (ثَعْيَن) الحضرمية التي تجاور جغرافيًّا آراض المهرة، من أبناء (يحنن) وهو أحد أحفاد مهرة بن حيدان، أي من قضاعة أيضًا[1].

إنَّ قبيلة كندة الكهلانية بعد أن استولت على حضرموت الوادي والجبل، نزحت بطون وفخائذ منها إلى السواحل الحضرمية، وأقامت في موقع مدينة الشحر الحالية أوَّل مستوطنة ساحلية لهم سُمِّيَت بـ(القرية) أو (قرية الملوك)؛ تيمنًا بملوكها الذين اشتهرت بهم عبر التاريخ[2]، وظلت هذه التسمية (القرية) إلى اليوم تُطلَق على أقدم أحياء مدينة الشحر، وفي هذا الحي ابتُنِيَ ميناء الشحر الشهير، وقد سبقت الإشارة إلى أنَّ من ابتنى المدينة (الأسعاء) وأقام بها الميناء هو الملك الحضرمي (العزيلط) أو(العز)،

---

١ للتفصيل ينظر: الملاحي، الدلالات الاجتماعية واللغوية والثقافية، ص٤٧.

٢ الملاحي، عبدالرحمن، مدينة الشحر بوابة حضرموت الجنوبية، ص، ١٨٠، ١٨٣. ويرى بعض المؤرخين أن معاوية بن ثور بن عفير وهو الملقب بمعاوية الأكرمين كان من عقبه سبعون ملكًا تملكوا مناطق مختلفة من حضرموت، آخرهم الأشعث بن قيس الكندي. باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص٣٩. ويرى الشاطري أنَّ تسمية حكام كندة وأمرائها بالملوك إنَّما يصح تجوزًا، لأنهم كما يرى مشايخ عشائر وإقطاعيون نعتوا أنفسهم بالملوك، وكثيرًا ما تسمي العرب مشايخها الأقوياء بالملوك، ويقال لمالك القرية ملكها، وقبيلة كندة يقال لها كندة الملوك؛ لولعها بالملك. ينظر: أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ٦٠)، وينظر أيضًا: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (٢/ ٣٣١). وعن ملوك كندة ينظر: ابن حبيب، المحبر، ص٣٦٥، ومهران، دراسات في تاريخ العرب القديم، ص٥٩٩ وما بعدها.

وهو ما دفع بعض الباحثين إلى افتراض أن مدينة الأسعاء القديمة هي نفسها مدينة الشحر الحالية، أو هي بمكان آخر قريب منها[1].

وقد أشار بعض المؤرخين إلى أنَّ بطون كندة كالسكاسك والسكون سكنوا شرق اليمن (حضرموت)، وأنَّ السكاسك كانوا معروفين بالسحر والكهانة، وأنَّ منهم بالأندلس قبيلة تجيب، ومن هؤلاء ملوك الطوائف بنو صمادح وبنو ذي النون وبنو الأفطس[2].

وذكر بعضهم أنَّ من عادة الكنديين في التتويج أن تُوضَع على الرأس ((عمامة ممتازة، أو ما يشبه العقال، تمامًا كما تصنع بعض العشائر اليوم، ومنها الحموم، فإنَّهُ إذا مات مُقدَّمُهم أي رئيسُهم ألبسوا من يَخلفه عمامةَ التتويج بدلًا عنه))[3].

وقد عاش إقليم الشحر في المدَّة التي سبقت الإسلام نوعًا من الانتعاش الاقتصادي والتفاعل الحضاري مع مناطق الجوار والبعيدة عنه، داخل الجزيرة العربية وخارجها، لا سيما أنَّه تُقام بالمنطقة سوق موسمية شهيرة عرفت بـ(سوق الشحر)[4]، وتُقام بالقرب منها سوق أخرى هي (سوق الرابية)[5]، وكان يرتاد هذه الأسواقَ التجَّارُ من كل البقاع والأصقاع، وفيها تُباع شتى صنوف السلع والبضائع المحلية والخارجية القادمة من

١ فرانتسوزوف، تاريخ حضرموت، ص١٢٤.

٢ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (٢/ ٣٣١).

٣ الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي، ص٦١.

٤ تقام سوق الشحر في النصف من شعبان، تحت ظل الجبل الذي فيه قبر هود. ينظر للاستزادة: ابن حبيب، المحبر، ص٢٦٦، والأفغاني، سعيد، ص٢٦٦.

٥ تقام سوق الرابية في النصف من ذي القعدة إلى آخر الشهر، في الوقت نفسه الذي تقام فيه سوق عكاظ الشهيرة. للمزيد ينظر: المحبر، ص٢٦٧، والأفغاني، سعيد، أسواق العرب، ص٢٧٥.

الصين والهند وشرق إفريقيا ومصر والشام، فضلًا عن كون هذه الأسواق مجمعًا تلتقي فيه الثقافات، وتُتبادل فيه الأخبار والروايات، ويرتاده الشعراء والأدباء والخطباء[1].

ولما لهذه الأسواق من أهمية بالغة في حياة سكان المنطقة، كان لا بُدَّ من تهيئة الاستقرار ووجود قوة تحافظ على الأمن وتُؤمِّن السُّبُل، وقد نهضت القبائل القديمة التي سكنت المنطقة (قضاعة وكندة) بهذه المهمة[2]، كما أنَّ ما تنتجه المنطقة من سلع كاللبان والمر والصبر والعنبر والأنسجة والبرود، حقَّقَ للشحريين أرباحًا طائلة أغنتهم عن اللجوء في التكسُّب إلى حملات السلب والنهب التي اشتهرت بها القبائل الأخرى.

وقد كان يتم بميناء الشحر استقبال السفن المحملة بالبضائع وتفريغها[3] تمهيدًا لنقلها على ظهور الجمال عبر محطات القوافل الممتدة من اليمن إلى الشام والعراق، كما يتم استقبال البضائع القادمة من تلك المناطق والبلدان لشحنها في هذه السفن، فكان ميناء الشحر ميناء (ترانزيت)، وقد تجلت أهميته بوضوح بعد خراب ميناء قنا الشهير في أواخر القرن الثالث الميلادي[4]، إذ حل ميناء (الأسعى) محلَّه.

---

١ عرفت حضرموت الكثير من الشعراء والأدباء في العصر الجاهلي وفي أثناء ظهور الإسلام وبعده، وقد حفلت بأخبارهم وأشعارهم كتب الأدب والتاريخ. للاستزادة ينظر: السقاف، عبدالله بن محمد، تاريخ الشعراء الحضرميين ج١، والشاطري، محمد، أدوار التاريخ الحضرمي ج١، والصرايرة، مها حسن، الحياة العلمية في حضرموت في القرنين ١-٢هـ (رسالة ماجستير، جامعة مؤته ٢٠٠٦م).

٢ علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (١٤/ ٦٥).

٣ للمزيد عن أهمية الميناء في العهد الحميري، ينظر: البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي(١/ ٤٢).

٤ في هذه المدة شن القيل السبئي (فارع الأقياني) بأمر من (شعر أوتر) ملك سبأ وذي ريدان، على العاصمة الحضرمية (شبوة) ومينائها (قنا)، وقام بتدمير العاصمة والميناء والسفن الراسية فيه. الجرو، أسمهان، طرق التجارة البرية والبحرية في اليمن القديم، مجلة جامعة عدن للعلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد الثاني،=

إنَّ عدم ذكر ميناء الشحر (الأسعاء) ضمن الموانئ اليمنية القديمة المهمة[1]، لا يعني عدم وجوده، وإنَّما يعني كما نرى أنَّه في بداياته الأولى لم يكن بتلك الأهمية الكبيرة التي نالها لاحقًا بعد خراب ميناء قنا، ذلك أنَّ الشريط الساحلي الحضرمي الذي يمتد مئات الكيلومترات من أقصى ميناء (خوروري) بظفار شرقًا إلى ميناء (قنا) الشهير في الغرب، لا يمكن أن يكون من غير ميناء أو مكان ترسو فيه السفن الشراعية للتزود بالمؤن أو لإصلاح الأعطاب واستبدال الأشرعة.

ولا يعني ذكر المؤرخين لميناء الشحر في العصور اللاحقة والإشارة إليه بوصفه ميناءً مهمًّا عدمَ وجود موانئ أو مرافئ أخرى على امتداد الساحل الحضرمي كحيريج، وريسوت، ودمقوت، وشرمة، وبروم.

=العدد الثالث، يناير-يونيو ١٩٩٩م، ص٣١. وفي النقش (إرياني ١٣/ ١٣) يحمد صاحبه إلهه لأنه أعانه عندما هاجم حيق قنأ (ميناء قنا) ميناء ملك حضرموت ودمر ما فيه. ينظر: الموسوعة اليمنية (١/ ٤٢٩).

١ للاستزادة عن الموانئ اليمنية القديمة وأهميتها، ينظر: الجرو، أسمهان، طرق التجارة، مرجع سابق، وبافقيه، محمد، تاريخ اليمن القديم، ص١٧٩.

الفصل الثاني

الشحر منذ دخول الإسلام حتى قيام السلطنات اليافعية

الشحر في عصر ظهور الإسلام وعصور الخلفاء الراشدين

لا ندري أيًّا من الملوك أو الحكام أو الأمراء من كندة أو من غيرها كان الحاكم الفعلي لمدينة الأسعاء (الشحر) زمن ظهور الإسلام[1]، وإنْ ذكرت لنا بعض المراجع أسماء عدد من الزعماء الحضارمة في تلك المدة، وخاصة أولئك الذين وفدوا على الرسول صلى الله عليه وسلم لإعلان إسلامهم، ومنهم الأمراء الخمسة أبناء عمرو بن معاوية الكندي وهم: جمد ومخوص ومشرح وأبضعة وأختهم التي تدعى العمرَّدة، ولكل واحد من هؤلاء منطقة (محجر) يقيم فيه ويتسلط[2]، وهناك أيضًا الأشعث بن قيس الكندي من بني الحارث بن معاوية[3]، ومن قبيلة حضرموت: وائل بن حجر الحضرمي الذي سمَّاه الرسول صلى الله عليه وسلم حينما وفد عليه (بقية أبناء الملوك، سيد الأقيال)[4]،

---

١ يرى صلاح البكري أن حضرموت زمن دخول الإسلام كانت تتقاسمها بطون كندة، وهي أربع طوائف إحداها تحكم المنطقة الساحلية الممتدة من حدود ظفار إلى القرى الواقعة غربها (المكلا)، وكانت عاصمتها الشحر. ينظر: تاريخ حضرموت السياسي (١/ ٧٥).

٢ باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ، ص٣٩، والشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ٦٠)، والكاف، سقاف علي، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا، ص٣٣. وذكر ابن خلدون أن العمردة هي أخت الأشعث بن قيس بن معد يكرب. تاريخ ابن خلدون (٢/ ٣٣١)، وفي موضع آخر ذكر أن هؤلاء الخمسة هم وفد حضرموت من بني وليعة، قدموا مع وفد كندة (٢/ ٤٧٦). وينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٣٣٤)، وجواد علي، المفصل (٦/ ٧١).

٣ تنظر ترجمة موسعة له في: باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص٤٨ – ٦٦. وعنه أيضًا: ابن الأثير، أسد الغابة، ص٢٤٩. وعن وفد الأشعث ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك (٣/ ١٣٨).

٤ ابن الأثير، أسد الغابة (٥/ ٤٠٥)، والشاطري، محمد، أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ٧٦).

وكان وائل مقيمًا في (شبوة) العاصمة التاريخية لمملكة حضرموت، وقد جعله الرسول صلى الله عليه وسلم سيدًا على قومه، كما وفد إليه وفدان من المهرة، أحدهما بزعامة مهري بن الأبيض، والآخر قدم من منطقة الشحر يضم زهير بن فرضم أو قرضم بن العجيل بن قباث، وابنه ذهبان، وبصحبتهم جماعة من قبيلتهم بني الآمري[1]. ولا نعلم بدقة أكان هذا الوفد الأخير قادمًا من سواحل حضرموت (الشحر) أم من منطقة (الشحري) الواقعة بإقليم ظفار العمانية، وهل كان أصحاب هذا الوفد حكامًا على كل تلك المنطقة الممتدة من سواحل حضرموت الغربية إلى ظفار في الشرق.

وإلى جانب هؤلاء ذكرت لنا كتب السير والأحاديث أسماء الكثير من الحضارمة ممَّن كانوا من الصحابة، ومن رواة الحديث[2].

وعلى كل حال، يمكننا القول إنَّ مدينة الشحر كغيرها من مدن حضرموت وقراها، وَدَّعَتْ عصرَها الجاهليَّ بدخول أهلها طواعيةً في الإسلام، ووفود حضرموت وكندة ومهرة والجعف، إلى الرسول صلى الله عليه وسلم معروفة[3]. وقد أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم الصحابيَّ معاذ بن جبل ليطوف باليمن وحضرموت، يُعلِّم أهلَها

١ فرانتسوزوف، سرجيس، تاريخ حضرموت، ص٩٧. وفي أسد الغابة لابن الأثير (٢/ ٢١١، ٣٣٠): (ابن الجعيل) وليس (العجيل)، و(ذهبن بن قرضم)، وليس (ذهبن بن زهير).

٢ من هؤلاء: عدي بن عميرة الكندي، وابنه عدي بن عدي، وشريح الحضرمي، ومالك بن هبيرة السكوني، ومحمد بن عمير بن سويد التنعي، ونفير الحضرمي. للمزيد ينظر: ابن الأثير، أسد الغابة، وشمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، وابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب.

٣ للاستزادة عن هذه الوفود، ينظر: فرانتسوزوف، تاريخ حضرموت، مرجع سابق ص٩٥ وما بعدها، وينظر كذلك: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٧٠ – ٤٧٩)، والبكري، تاريخ حضرموت السياسي، مرجع سابق (١/ ٧١-٧٢)، والشاطري، أدوار التاريخ (١/ ٨٢)، وعصبان، أكرم، الفرق والمذاهب، ص٢٧-٣٥.

الإسلامَ ومبادئه، وينشر الدعوة بين أهل الكتاب الموجودين فيها[1]، كما أرسل رسلًا من الحضارمة أنفسهم، منهم: وائل بن حجر الحضرمي المذكور آنفًا، أرسله لينشر الإسلام بين الأقيال العباهلة من حضرموت[2]، كما ولَّى النبيُّ الصحابيَّ زياد بن لبيد الأنصاري عاملًا له على حضرموت يجبي الزكوات ويقيم شرع الله فيهم.

وقد قدم الصحابي الجليل معاذ بن جبل[3] إلى الشحر يدعو أهلها إلى الإسلام ويعلمهم مبادئه وتعاليمه ويحل قضاياهم[4]، وقد استخلف عند رجوعه إلى المدينة ثور

---

١ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٨٢)، وباوزير، سعيد عوض، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، ص٥٤. ويذكر فرانتسوزوف نقلًا عن اليعقوبي، أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل قبل هؤلاء سليم بن عمرو الأنصاري لدعوة أهل حضرموت للإسلام، أي قبل قدوم وفود الحضارم إليه ببضع سنين. ثم شكك في صحة الرواية. ينظر تاريخ حضرموت السياسي، ص٩٦.

٢ ابن الأثير، أسد الغابة (٥/ ٤٠٥). وذكر فرانتسوزوف في تاريخ حضرموت ص١٠١ أن من أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأقيال والعباهلة هو الوليد بن محمد الحضرمي. ونقل هذا عن كتاب تاريخ وصاب المسمى (الاعتبار في التواريخ والآثار)، لوجيه الدين عبدالرحمن الحبيشي الوصابي المتوفى سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م. وأعتقد أنَّ هناك تحريفًا في الاسم، فلعله (وائل بن حجر الحضرمي)، وليس (الوليد بن محمد الحضرمي)، ويؤيد ما نعتقده أنه في إحدى النسخ التي اعتمد عليها المحقق (حجر) بدلًا من (محمد). ينظر المرجع نفسه، تحقيق عبدالله الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط٢، ٢٠٠٦م، ص١١. وعند بن الأثير أن مسروق بن وائل الحضرمي طلب من الرسول صلى الله عليه وسلم إيفاد مبعوثين معه لتعليم قومه الإسلام، وأن يعطيه كتابًا لدعوة الأقيال في حضرموت. ينظر: أسد الغابة (٣/ ٥١)، (٥/ ١٥٠).

٣ الجندي، السكسكي، السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق الأكوع (١/ ٨٢). وتنظر ترجمة الصحابي معاذ بن جبل في: ابن الأثير، أسد الغابة (٥/ ١٨٧)، والزركلي، الأعلام (٧/ ٢٥٨). وفي بعض المراجع أن الصحابي أبا موسى الأشعري قدم إلى حضرموت أيضًا لتعليم أهلها. ينظر: الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ٨٨).

٤ جاء في سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي (٤/ ١٥٨) في حديث عن ((عمرو بن ميمون الأودي قال: قدم علينا معاذ اليمن، رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشحر، رافعًا صوته بالتكبير، أجش الصوت،=

بن مالك الكندي ليحل محله على كندة[1]. وتروي بعض المصادر أنَّ معاذ بن جبل في أثناء ترحاله باليمن للدعوة تزوَّج في بني بكرة، وهم حيٌّ من السكون الكنديين[2].

وتشير بعض المراجع إلى أنَّ قبيلة كندة بعد عودة وفودها من عند الرسول صلى الله عليه وسلم شرعت في بناء المساجد، وكان أول مسجد يُقام بالشحر لعبادة الله الواحد الأحد هو المسجد المسمى اليوم بـ(الجامع)، وبُنِيَ كما في بعض الأقوال في القرن الأول الهجري [3]، وتُحدِّد بعضُ الأقوال تاريخ تأسيسه في السنة العاشرة للهجرة (٦٣١م). ولعلَّ قُربَ موقع هذا المسجد من حارة القرية أقدم مستوطنة بالمدينة، وعدم نسبته إلى شخصية معينة، يُرجِّح أقدميَّته. ويبقى السؤال العالق: لأيٍّ من البطون الكندية كانت السيطرة على المدينة آنذاك ؟

إنَّ قبيلة كندة هي التي كانت مسيطرة على المدينة قبيل ظهور الإسلام وبعده[4]، إلا أنَّها أصبحت بعد إسلامها تأتمر بأوامر عُمَّال النبي صلى الله عليه وسلم القائمين في مدينة (تريم) مركز حضرموت آنذاك، وأوَّل هؤلاء العُمَّال على بلاد حضرموت عامة هو زياد بن لبيد البياضي الأنصاري[5] المذكور آنفًا، وكان على السكاسك والسكون عكاشة بن ثور،

=فأُلقِيَت محبتي عليه، فما فارقته حتى حثوت عليه من التراب)). ويقال إن عمرو الأودي هذا أصلُهُ من حضرموت، وبعضهم يقول من دثينة. تنظر ترجمته في: الجندي، السلوك (١/ ٨٤).

١ عصبان، أكرم، الفرق والمذاهب في حضرموت، ص٤٣.

٢ عصبان، الفرق والمذاهب، ص٣٦.

٣ ينظر: بامطرف، الشهداء السبعة ص٣٨.

٤ البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي (١/ ٧٥).

٥ الطبري، تاريخ الرسل والملوك (٣/ ١٤٧)، وابن الأثير، أسد الغابة (٢/ ٣٣٩).

وعلى كندة المهاجر بن أبي أمية[1]، وتذكر بعض المراجع أنَّ هذا الأخير لم يحكم مناطق كندة، بل لم يقدم إلى أراضيها[2]، وأنَّ قدومَه كان لاحقًا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان يقوم بالأمر بالنيابة عنه في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم زياد بن لبيد الأنصاري.

وحينما ظهرت حركة الأسود العنسي في صنعاء واستفحل أمرها، نجا الصحابيَّان معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري إلى حضرموت، فنزل معاذ في السكون، وأبو موسى في السكاسك[3].

ولم تسلم حضرموت من تلك الفتن التي عصفت بشبه الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ سرعان ما سرت بينهم الفتنة التي عُرِفَت بـ(ردة حضرموت وكندة)، ولم تكن كما نرى رِدَّةً بمفهومها الفقهي؛ لوجود الكثير من اللبس في حيثيات ذلك الصراع الذي ارتبط بها[4]، والذي نتج عنه انقسام فصائل قبائل

---

١ تنظر ترجمته في: الزركلي، الأعلام (٧/ ٣١٠).

٢ عمال النبي على حضرموت عند بامطرف هم المهاجر بن أبي أمية المخزومي، وزياد بن لبيد، وعكاشة بن ثور. ينظر: المختصر في تاريخ حضرموت العام، ص٥١. وجاء في تاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٨١): ((على بلاد حضرموت زياد بن لبيد البياضي، وعلى السكاسك والسكون عكاشة بن ثور بن أصفر الغوثي، وعلى معاوية بن كندة عبدالله المهاجر بن أبي امية، واشتكى المهاجر ولم يذهب، فكان زياد بن لبيد يقوم على عمله)). وعند الطبري: زياد بن لبيد على حضرموت، وعكاشة بن محصن على السكاسك والسكون، والمهاجر على كندة. ينظر: تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٣٣٠).

٣ تاريخ ابن خلدون،(٢/ ٤٨٢)، والشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ٨٨).

٤ هذا القول مجرد وجهة نظر للمؤلف، إذ إن أغلب المصادر والمراجع التي تحدثت عن ردة حضرموت وكندة احتوت على روايات متناقضة تُكذِّب نفسها، يكفينا أن نقول إنها كلها ترد سبب تلك الحرب إلى (ناقة الصدقة)=

حضرموت وكندة، فانحاز بعضُها إلى جانب الأشعث بن قيس الكندي، وانحاز بعضُها إلى جانب زياد بن لبيد ومَنْ جاء لنجدته من الجيش الإسلامي، وكان هذا في بدء خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أي في السنة ١١هـ/ ٦٣٣م، وهذا يعني أنَّه لم يمض على دخول القوم في الإسلام غير عام واحد تقريبًا، وقد دارت بين الفريقين في تلك الفتنة مناوشات ومعارك، روتها الكثيرُ من المصادر والمراجع التاريخية[1]، ولم تستمر تلك المعارك والمناوشات طويلًا، إذ سرعان ما تم القضاء على الفتنة وإخمادها[2] بانتصار الفريق الذي يُمثِّل الخليفة أبا بكر رضي الله عنه.

وقد أشارت بعض المصادر إلى أن جيش المسلمين في أثناء محاصرته للمتمردين في حصن (النجير) بتريم، أرسل قوَّةً عسكريةً لتأديب أهل الساحل، فكان من جملة من

=التي تم وسمها كما أشار ابن خلدون غلطًا، دون أن يكون للجانب الديني أي دخل فيها، وللمؤلف دراسة تفصيلية في هذه الحرب قيد الإعداد. .ولمعرفة المزيد عن ردة كندة وحضرموت ينظر: الطبري، ابن جرير، تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٣٣٠)، وابن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح، تحقيق علي شيري، ط١، ١٩٩١م، (١/ ٤٥) وما بعدها، وتاريخ ابن خلدون (٢/ ٤٩٢) وما بعدها، وفرانتسوزوف، تاريخ حضرموت السياسي، ص١٠١، وبامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت، ص٥٣، وباوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص٥٢، والشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي، ص٩٠، وإبراهيم شمس الدين، مجموع أيام العرب في الجاهلية والإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ص٢٠٠٢م، ص ٢٣٦.

١ للمزيد عن هذا الصراع والحرب، ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٣٣٠)، وابن أعثم الكوفي المتوفى نحو سنة ٣١٤هـ/ ٩٢٦م وكتابه الفتوح،(١/ ٤٥) وما بعدها، والشاطري، أدوار التاريخ (١/ ٩٠).

٢ للمزيد ينظر: ابن أعثم، الفتوح، مرجع سابق، وفرانتسوزوف، تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي قبيل الإسلام وبعده، ص١٠١-١١٥، وصالح بن حامد العلوي، تاريخ حضرموت (١/ ١٤٦-١٥٧)، وصلاح البكري، تاريخ حضرموت السياسي (١/ ٧٦-٧٨).

أُرسِلَ إلى الساحل سرية بقيادة خالد بن فلان المخزومي، فقتلوا أهل (محا) وأحياء أخرى[١]. ولا ندري تحديدًا أين يقع هذا الموضع الذي يُطلق عليه (محا)، ويبدو أنَّ الاسم قد تصحَّف أو تحرَّف، ولكن ثمة إشارة حديثة نجدها لدى المؤرخ عبدالرحمن الملاحي في حديثه عن قرية ساحلية واقعة شرق مدينة الشحر (المشقاص) تُدعى (المصينعة)[٢]، وهي قريبة من الأراضي المهرية أو داخلة فيها، إذ ذكر الملاحي أنَّ يوجد في شرق المصينعة خليج دفن بالرمال يسمى خليج (مجه)، هكذا[٣]، مما يجعلنا نفترض أنَّ (محا) التي ذكرها الطبري، هي تصحيف لـ(مجه). وقد ذكر الملاحي في السياق نفسه أنَّ الحسن الهمداني أشار إليها في كتابه (صفة جزيرة العرب)، من غير أن يحدد الصفحة التي استقى منها معلومته هذه، وبالعودة لكتاب الهمداني لم نجد فيه لفظة (مجه)، ولكن وجدنا (محا)، ففي حديث عن مدينة شبام يقول الهمداني: ((وساكن شبام بنو فهد من حمير، ثم المزين، قرية ساكنها حمير، ثم مدودة، ثم تريس، وهي مدينة عظيمة، ثم مشطة قرية مقتصدة، ثم (محا) قرية عظيمة، والمخا في بلد بني مجيد، ثم العجز، قرية عظيمة مقسومة نصفين لحمير كل نصف قرية لفرقة نصف للأشباء ونصف لبني فهد))[٤].

---

١ كذا ورد عند الطبري في تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٣٣٦)، وفي طبعة أخرى كما أشار المحقق وقع (محنا) بدلًا من (محا)، ولم نفهم المقصود من هاتين اللفظتين، ولعل هناك تصحيفًا أو تحريفًا ما. وكذلك اسم القائد خالد بن فلان المخزومي، فهل هو خالد بن الوليد المخزومي ؟

٢ تبعد عن الشحر نحو ١٥٠كم شرقًا. ينظر للتفصيل: المقحفي، إبراهيم أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية (٢/ ١٥٥١).

٣ الملاحي، عبدالرحمن، الموقع الجغرافي والتاريخي والاقتصادي والاجتماعي لمدينة الشحر، ص٣٢.

٤ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص١٩٦.

فلعل تلك القرية العظيمة التي وصفها الهمداني (محا) هي التي عناها الطبري، إلا أنَّها كما هو واضح من سياق الهمداني، تُعَدُّ من قرى شبام، وبالتالي فهي بعيدة جدًا من الساحل بمئات الكيلومترات!

وتشير بعض المراجع إلى أنَّه بعد انتهاء تلك الفتنة أمر الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه (ت ١٣هـ/ ٦٣٤م) بأن تكون بلاد حضرموت تحت حكم أميرين، أحدهما على حضرموت (زياد بن لبيد الأنصاري)، والآخر على كندة والسكاسك (عبيدة بن سعد)[١]، وترك لهما حرية اختيار مساعديهم من أهل البلاد نفسها، شريطة ألَّا يكونوا ممن سبق تورطهم في ذاك التمرد الذي أُطلِقَ عليه في الكثير من الأدبيات (حرب الردة)[٢].

وفي عهد الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كان عامله على حضرموت عديَّ بن نوفل[٣]، أخا ورقة بن نوفل وابن عم السيدة خديجة رضي الله عنها، وقد أقرَّه على عمله في حضرموت الخليفةُ الثالثُ عثمان بن عفان رضي الله عنه. وثمة إشارة للمؤرخ محمد الشاطري ذكر فيها أنَّ زياد بن لبيد قد ((مكث بحضرموت آخر سني الرسول وخلافة سيدنا أبي بكر، وصدرًا من خلافة عمر، وأكثر مقامه بتريم وشبام، ثم غيرهما من المواقع الرئيسية، وتوفي في العقد الخامس من الهجرة، أول خلافة معاوية))[٤].

١ الطبري، تاريخ الرسل (٣/ ٣٤١).

٢ الطبري، تاريخ الرسل والملوك (٣/ ٣٤١).

٣ بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت، ص٥٩. وتنظر ترجمة عدي في: ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة (٤/ ١٧). وهو غير عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي، من سادات قريش في الجاهلية، المتوفى نحو (٣٠ ق هـ/ ٥٣٤م) والذي ترجم له الزركلي في الأعلام (٤/ ٢٢١).

٤ الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ٨٧).

وهذا القول لا يتعارض مع وجود عاملين أحدهما على مناطق حضرموت الداخل (الوادي) وهو زياد بن لبيد، والآخر على حضرموت الساحل (إقليم الشحر) وهو عبيدة بن سعد، ومن هنا نستطيع الافتراض أنَّ بطني السكاسك والسكون كانا على الساحل الحضرمي، إبَّان ظهور الإسلام وبعده، ومنهما كان عمّال الرسول وعمَّال خلفائه في المنطقة.

أمَّا في عهد الخليفة على بن أبي طالب رضي الله عنه فقد خضعت حضرموت إداريًّا لليمن، وكان عامل الخليفة هو عبدالله بن العباس رضي الله عنهما[1].

ومنذ هذه المدة إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين (٤٠هـ/ ٦٦٠م) و ما بعده، لم تصلنا أخبار تفصيلية عن الشحر خاصة، أو عن حضرموت عامة، وتكاد المنطقة برمتها تكون مغيَّبةً عن المشهد تمامًا، ربما لأنَّ هذه المدة قد شهدت تمدد الدولة الإسلامية الفتية خارج حدود شبه الجزيرة العربية، مما جعل أنظار المؤرخين والأخباريين تتجه صوب الأماكن الأكثر سخونة التي تشهد فتوحات وأحداثًا تاريخيةً فاصلة، كما أنَّه في تلك المدة وتحديدًا بعد انتهاء ما عُرِفَ بـ(حرب الردة)، شهدت حضرموت استجابة كبيرة لدعوة الخليفة الصدِّيق للجهاد، فهاجرت الكثير من القبائل للمشاركة في الفتوحات الإسلامية، ونستطيع ملاحظة هذا بوضوح من خلال ورود أسماء الكثير من البطون والقبائل الحضرمية والقضاعية والكندية[2] التي شاركت في تلك الفتوحات، وأسماء الكثير من

---

١ بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت، ص٥٩.

٢ ينظر: الكاف، سقاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا، ص٣٦-٣٧، والبكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي (٢/ ٢١٨)، وعصبان، الفرق والمذاهب ص٤٢-٤٩.

القادة والمقاتلين الحضارمة ممن أبلوا في معارك الفتوحات الاسلامية البلاء الحسن[1]، فضلًا عمَّن تولى منهم في الأمصار المفتوحة مهام القضاء والحسبة وإدارة الدولة[2].

ومن الواضح أن تلك الهجرات الحضرمية في معظمها كانت هجرات جماعية[3]، ولكن شهدت المنطقة أيضًا هجرات فردية إمَّا للفرار من أوضاع غير آمنة وغير مستقرة، وإمَّا للتجارة والدعوة، وخاصة في بلدان جنوب شرق آسيا وشرق إفريقيا[4]، ففي القرن الأول الهجري (السابع الميلادي)[5] هاجر كثيرٌ من الحضارمة إلى منطقة (ماليبار) الهندية. وأقدم الأسر المسلمة التي استقرت في الهند حتى قبيل غزو القائد

---

١ من هؤلاء القادة على سبيل المثال لا الحصر: العلاء بن الحضرمي، والأشعث بن قيس الكندي، ومعاوية بن حديج الكندي، وشريح بن مرة بن سلمة الكندي، وحجر بن عدي بن معاوية الكندي، وبسر بن عبدالرحمن الحضرمي، والحارث بن غطيف السكوني، ومالك بن ناعمة الصدفي، وربيعة بن زرعة الحضرمي، وربيعة بن عيدان الحضرمي، وكثير بن مرة الحضرمي، وسخرور بن مالك الحضرمي. للمزيد ينظر: بامطرف، محمد، كتاب الجامع.

٢ البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي (٢/ ٢٣٣).

٣ ذكر سعيد عوض باوزير عن ((العلامة يونس بن عطية الحضرمي، وهو أول من تولى القضاء من الحضارمة بمصر قوله إنَّه هاجر مع أبيه وأعمامه في مائة راكب من حضرموت في آخر خلافة عثمان، قال: وأنا غلام جهر أعقل ما أسمع، فأتينا المدينة وأقمنا فيها شهرًا، وكان أبي وأعمامي يجالسون أصحاب رسول الله، قال : فدخلوا يومًا على عثمان وأنا معهم، فاستأذنوه في المسير إلى مصر فأذن لهم)). الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، ص٥٧.

٤ الملاحي، عبدالرحمن، الحضارم في ممباسا ودار السلام ص٢٦، والبكري، تاريخ حضرموت (٢/ ٢٣٨).

٥ يرى البكري أن هجرة الحضارمة إلى الهند والجزر الشرقية كانت في أواخر القرن الثامن تاريخ حضرموت (٢/ ٢٣٩).

المسلم محمد بن القاسم لإقليم السند والهند سنة (٩٢-٩٣هـ/ ٧١٠-٧١١م)، هي الأسر التي أطلق عليها في الهند (المابيلا)، وتعود أصول هذه الأُسَر إلى حضرموت[١]، كما وُجِدَت جاليات حضرمية أخرى في كلٍّ من (كونكان) و(كوجرات)، ووُجِدَت جالياتٌ أخرى في دول شرق إفريقيا.

إنَّ ما لاقاه الحضارمة من قمع وقتل وتشريد لتمردهم على دار الخلافة، وما تبع ذلك من هجرات واسعة جماعية وفردية إبَّان الفتوحات الإسلامية، كل هذا أدَّى إلى انخفاض حاد في عدد سكان المنطقة، ممَّا عكس نفسه على الحياة العامة فيها، مسببًا نوعًا من الركود العام في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية كافَّةً استمر لعقود[٢].

ويرى بعضهم أن الحضارمة في هذا العهد كانوا مستقلين في كل مناطقهم، يديرون شؤونهم الحياتية بأنفسهم عن طريق رؤساء قبائلهم، وأنَّ واجبات عُمَّال النبي صلى الله عليه وسلم وواجبات عُمَّال مَنْ جاء بعده من الخلفاء الراشدين كانت ((منحصرة في الإشراف على أداء الزكاة، وإقامة الفرائض الدينية الأخرى))[٣]. وهكذا نستطيع القول إنَّ تلك الأحداث التي مرت بها المنطقة قد أثرت في حضرموت عامة، وأحدثت فيها تغيرات ديمغرافية كبيرة، إذ بدأت تتوافد على حضرموت مع الجيوش الإسلامية التي قدمت لمحاربة المرتدين مانعي الزكاة أو الإباضيين لاحقًا أعداد كبيرة من المقاتلين

١ الخالدي عمر، الوجود العربي في حيدر أباد، بحث، ترجمة وتلخيص عبدالسلام عبدالمنعم. مجلة الدارة، العدد، ٣، السنة ١٠، ربيع الثاني ١٤٠٥هـ، ص٢٢١.

٢ ينظر: بامطرف، محمد، المختصر في تاريخ حضرموت، ص٦٠-٦١.

٣ بامطرف، المرجع السابق، ص٥٩، والشاطري، أدوار التاريخ (١/ ٨٧).

القرشيين ومن الأنصار ومن قبائل عربية أخرى، استقر عدد منهم في حضرموت[1]، وتزاوجوا مع أهلها، في حين غادرها أهلها الأصليون للمشاركة في الفتوحات، وهي مفارقة عجيبة، كما أحدثت تلك الأحداث والمفاهيم الإسلامية الجديدة تصدعًا وشرخًا كبيرًا في العلاقات الاثنوقبلية بين القبائل الحضرمية نفسها ككندة وحضرموت وبطونهما وفصائلهما، أدت في النهاية إلى تفكك تلك العلاقات القبلية والعشائرية بين الفصائل والبطون المقيمة.

١ ينظر ما ذكره الشاطري عن عدد شهداء الصحابة في حضرموت وأثرهم فيها، في: أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ٩٧-٩٩).

الشحر في عهد الدولة الأموية

خلال هذه المدة التاريخية (٤٠-١٣٢هـ/ ٦٦٠-٧٤٩م) لم نستطع معرفة أسماء كل الولاة والعُمّال الذين تولوا الأمر في حضرموت والشحر، ولا معرفة كل الأحداث التي شهدتها المنطقة، بسبب افتقادنا للمصادر والمراجع، ولأنَّ الموجود منها على قِلَّتِهِ لا يُقدِّم لنا التفاصيل والمعلومات الكافية عن هذه المنطقة وأحوالها. لذا سنحاول تَتبُّعَ الإشارات والمعطيات الموجودة في تلك المصادر والمراجع وربطها، لعلَّ ذلك يُضيف لنا أشياء جديدة.

بتولي معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما (ت:٦٠هـ/ ٦٨٠م)[1] الخلافة، استعمل على صنعاء فيروز الديلمي (من الأبناء) (ت: ٥٣ هـ/ ٦٧٣م)، وعيَّنَ فيروزُ نائبًا له على حضرموت (ساحلها وواديها) لم نقف على اسمه. وفي عهد خلافة عبدالله بن الزبير[2]، وذلك بعد وفاة يزيد بن معاوية سنة (٦٤هـ/ ٦٨٣م)[3]، عَيَّنَ من قِبَلِه عاملًا على

١ تنظر ترجمته في: الزركلي، الأعلام (٧/ ٢٦١).

٢ هو ((عبدالله بن الزبير (١ -٧٣هـ/ ٦٢٢ -٦٩٢م) بن العوام القرشي الأسدي، أبو بكر: فارس قريش في زمنه، وأول مولود في المدينة بعد الهجرة، شهد فتح إفريقية زمن عثمان، وبويع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ، عقيب موت يزيد بن معاوية، فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام، وجعل قاعدة ملكه المدينة، وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة، حتى سيروا إليه الحجاج الثقفي، في أيام عبد الملك بن مروان، فانتقل إلى مكة، وعسكر الحجاج في الطائف، ونشبت بينهما حروب أتى المؤرخون على تفصيلها انتهت بمقتل ابن الزبير في مكة، بعد أن خذله عامة أصحابه وقاتل قتال الأبطال، وهو في عشر الثمانين، وكان من خطباء قريش المعدودين، يُشبَّه في ذلك بأبي بكر. مدة خلافته تسع سنين)). الزركلي، الأعلام (٤/ ٨٧)، وينظر: ابن الأثير، أسد الغابة (٣/ ٢٤١).

٣ تنظر ترجمته في: الأعلام (٨/ ١٨٩).

حضرموت يُدعى عمارة بن عمرو بن حزم الأنصاري[1]، وهذا قُتِلَ لاحقًا في مكة سنة (٧٣هـ/ ٦٩٢م).

وفي خلافة عبدالملك بن مروان (ت: ٨٦ هـ/ ٧٠٥م)[2]، عَقَدَ لعامله الحجاج بن يوسف الثقفي (ت: ٩٥هـ/ ٧١٤م)[3] الولايةَ على مكة والمدينة والطائف والعراق واليمن، وهذا بدوره ولَّى على حضرموت قريبًا له هو الحكم بن أيوب الثقفي[4].

أمَّا في ولاية آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد (ت: ١٣٢هـ/ ٧٤٩م)، فقد كان الوالي على اليمن هو القاسم بن عمر الثقفي[5]، وهذا عَيَّنَ عاملًا له على حضرموت هو إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندي[6].

ويلاحظ في هذا العصر وما قبله أنَّ معظم عُمَّال الأمويين على حضرموت إمَّا من قريش وإمَّا من الأنصار (الأوس والخزرج الأزديين)، دون أن يكون للقبائل المحلية يدٌ في إدارة بلدهم.

ويبدو أنَّ نظام الحكم الوراثي الذي اتبعه الأمويون قد ألَّب عليهم القبائل الأخرى التي كان لها مطمع في الحكم، بما فيها فصائل من قريش نفسها، ومن الواضح هنا أن

---

١ بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت، ص٦٢. وتنظر ترجمته في الأعلام (٥/ ٣٧).

٢ تنظر ترجمته عند الزركلي، الأعلام (٤/ ١٦٥).

٣ انظر ترجمته في الاعلام، مرجع سابق، (٢/ ١٦٨).

٤ ابن الديبع، الفضل المزيد، ص٤٠. وعند بامطرف: (الحكم بن مولى الثقفي). ينظر: المختصر في تاريخ حضرموت، ص٦٢. وأيضًا: صفحات مجهولة من تاريخ حضرموت، ص٤٥.

٥ تنظر ترجمته في الأعلام (٥/ ١٧٨).

٦ بامطرف، المختصر ، ص٦٢. وتنظر ترجمته في: عصبان، الفرق والمذاهب، ص٥٣.

قبيلة كندة الحضرمية كان لديها أيضًا ذلك التطلع والطموح إلى الحكم، أو على الأقل حصولها على بعض المناصب الإدارية العليا في دولة الخلافة، إلا أن تجاهل السلطة المركزية لهم دفعهم في النهاية إلى اعتناق الأفكار المناوئة للأمويين والخروج على الحاكم، وكان عليهم فقط انتظار الفرصة السانحة التي ستمكنهم من حكم العرب[١]، وقد تجلَّى هذا بوضوح لاحقًا في بروز حركة الإمام عبدالله بن يحيى الكندي الحضرمي (ت: ١٣٠هـ/ ٧٤٧م) الملقب بـ(طالب الحق)[٢]، الذي رأى أنَّ له الأحقيَّة أيضًا في حكم المسلمين، وكان هذا في خلافة مروان بن محمد (ت: ١٣٢هـ/ ٧٤٩م) آخر الخلفاء الأمويين في الشام، وليس الأمر كما يصوره بعضهم على أن حركته وثورته تلك كانت لأجل نشر أفكار مذهبه الإباضي ومناصبة الأمويين العداء.

إنَّ ما ذكرناه من الأسباب ليست وحدها ما دفع الحضارمة إلى مناوئة الأمويين، ذلك أن سياسة عُمَّال الأمويين في اليمن عامة وحضرموت خاصة، لم تكن بتلك السياسة العادلة، وأن هناك جورًا وظلمًا لحق بالكثير من الناس[٣]، فضلًا عن تجاهل خلفاء بني أمية لحضرموت، والنظر إليها على أنَّها صقع ناءٍ لا فائدة منه.

---

١ يرى بامطرف أن أول اتصال للخوارج بحضرموت كان سنة ٦٦هـ/ ٦٨٥م عندما أرسل خوارج البحرين أتباعُ نجدة بن عامر الحنفي أنصارَهم لحضرموت لجمع الصدقة باسم الفرقة النجدية. ينظر: المختصر في تاريخ حضرموت، ص٦٤.

٢ تنظر ترجمته في: الأعلام (٤/ ١٤٤)، وباوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص٦٧، والفكر والثقافة، ص٦٣، والكاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا ص٣٨.

٣ بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت، ص٦٢، والكاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا، ص٣٨، وعصبان، الفرق والمذاهب في حضرموت، ص٥٣.

لقد أدى هذا الوضع في بداياته إلى تذمر الحضارمة، ولكن مع استمراره أدى إلى تمردهم واتجاه كثير منهم إلى اعتناق مذاهب فرق الخوارج، وخاصة (الإباضية)[1]، وفي النهاية انضمام معظمهم إلى ثورة (طالب الحق)، والسعي من خلالها لنيل المطالب والحقوق، وهذا ما يفسر الالتفاف الشعبي الكبير حول هذه الحركة عند ظهورها، فليس الجانب الفكري أو العقدي وحده سببًا في قيام تلك الثورة الشهيرة، وإنَّما للعوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية أثر أساسي فيها، ولعل هذا يفسر لنا سِرَّ تلقُّب قائد الثورة الكندي بـ(طالب الحق)[2]، ومطالبته بالخلافة في عقر دارها.

صحيح أن بعض المراجع ذكرت أنَّ عامل الأمويين على حضرموت في تلك المدة التي أعلن فيها طالب الحق ثورته سنة (١٢٩هـ/ ٧٤٦م)، هو إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندي، أي من القبيلة نفسها التي ينتمي إليها زعيم الثائرين، إلا أنَّ تعيين هذا العامل كما نرى تم بعد أن استفحل أمر الإباضية في حضرموت وقويت شوكتهم، وكان رغبةً من الأمويين في تدارك أمر الثورة وثني كندة وقبائل حضرموت عن اللحاق بركب حركة (طالب الحق) الإباضية.

١ للمزيد عن المذهب الإباضي في حضرموت، ينظر: مفلح، سالم فرج، حضرموت بين القرنين الرابع والحادي عشر للهجرة. وهي دراسة حديثة وجريئة تحمل مشروع رؤية جديدة ومغايرة لما شاع وساد عن الإباضية في حضرموت. وعن الإباضية أيضًا، ينظر: عصبان، أكرم، الفرق والمذاهب في حضرموت، ص٥٠، والشاطري، أدوار التاريخ (١/ ١٢٢)، وبامطرف، محمد، المختصر في تاريخ حضرموت ص٦٣.

٢ يقول المؤرخ الشاطري: ((وقد لقبه أتباعه بهذا اللقب (طالب الحق) الذي اشتهر به والذي ارادوا أن يرمزوا به إلى مبدئهم الثوري)). أدوار التاريخ (١/ ١٢٧).

لقد فشلت تلك الثورة ولم تحقق أهدافها، إلا أنَّها عجَّلت بسقوط دولة بني مروان، ولفتت أعين المؤرخين إلى حضرموت، كما أنَّ تلك الثورة جرَّت على حضرموت مزيدًا من الدمار والقتل والتنكيل والتشريد، إذ لم يكتف الجيش الأموي بالقضاء على تلك الفرق الإباضية المهاجمة، بل تعقب الإباضيين ومن ناصرهم إلى عقر دارهم في حضرموت، وكان قائد الجيش الأموي عبدالملك بن عطية السعدي، وبعده شعيب البارقي[1].

وبالرغم من أن دافع القتل والتنكيل الأموي بالحضارمة مبعثه الانتقام واستئصال شأفة الإباضيين وأفكارهم، إلا أن الشواهد أكدت استمرارية وجود هذا المذهب، بل واستفحاله في حضرموت إلى قرون أخرى تلت.

وتدل المراجع على أنَّ مركز الإباضية خلال ثورة (طالب الحق) كان مدينة (شبام)، وتولاها بعد انصراف (طالب الحق) منها عبدُالله بن سعيد الحضرمي[2]، وكان عامل الأمويين آنذاك إبراهيم بن جبلة[3] مقيمًا في (دمون) قبيل اعتقاله ثم فراره إلى صنعاء.

ونتساءل هنا عن مدى تأثر الساحل الحضرمي ومدينة الشحر بتلك الأحداث، فبالرغم من قلة المصادر والمراجع، وسكوت أغلب المؤرخين المحليين عن هذه المدة وما جرى فيها من أحداث، فضلًا عن إقرار بعضهم بالعجز التام عن الخوض فيها، إلا أننا لا نستطيع القول إن مدينة الشحر وغيرها من المناطق والقرى كانت بمعزل عن هذا الصراع،

---

١ لمعرفة تفاصيل تلك المعارك، وما ارتكب من مجازر، ينظر: باوزير، صفحات من التاريخ، ص٧٦، ومفلح، سالم، حضرموت بين القرنين، مرجع سابق، ص٣٩، والكاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا ص٤٠، والشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ١٤٠).

٢ تنظر ترجمته في: عصبان، الفرق والمذاهب، ص٥٣.

٣ تنظر ترجمته في: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

أو إنها لم تتأثر به أو بالأفكار الإباضية التي انتشرت في المنطقة، ذلك أن الضيم والتجاهل الذي أصاب عموم اليمن من جور الولاة والعُمَّال الأمويين لابد أن يكون قد طال سكان الساحل الحضرمي أيضًا، ولابد أن يكون الناس في نقمة من تلك الأوضاع التي أسهمت في انتشار الفقر والمرض والجوع، هذا من جانب، ومن جانب آخر أن طبيعة حركات الخوارج، ومنها الإباضية، الالتزام في بدايات أمرها بطابع السرية، والعمل على استقطاب الناس لحركتها، ونشرها للدعاة والمروجين (حملة العلم) في مختلف الأمصار والبلدان، بما فيها تلك البعيدة عن مراكزهم، كدول المغرب العربي وشرق إفريقيا، فمن باب أولى أن يكون للإباضية حضور بساحل حضرموت.

وقد وصلت إلى حضرموت مجاميع من حملة العلم الإباضي ((ومنها رحلت إلى مهاجر الحضارم في شرق إفريقيا وغربي الهند، وبثت دعوتها هناك، ولم يكن دعاة العلم من الإباضيين البصريين فحسب، ولكنهم كانوا من الحضارم أنفسهم الذين لهم علاقات تاريخية بهذه الشواطئ))[1]. وهذا كما نرى هو ما جرى أيضًا في المدينة، إذ أُرسِلَ إليها الدعاة والخطباء لذلك الغرض، ولعل في غياب الإشارة إلى وجود عُمَّال للدولة في هذه المنطقة ما يرجح عمل أولئك الدعاة بحرية.

والمدينة كما نرى ومثلما كانت عبر تاريخها إلى عصرنا الحديث، ذات أهمية كبرى، كونها الشريان الرئيس لحضرموت والمنفذ الوحيد للصادر والوارد، وقد قيل في حقها إنَّ القابض على الشحر كالقابض على الحنجور، أي حنجرة حضرموت، فلا يمكن لأي

١ الملاحي، عبدالرحمن، الحضارم في ممباسا ص٢٧.

حركة سياسية أو حملة عسكرية تفكر في بسط سيطرتها على حضرموت، أن تغفل هذه المدينة أو لا تضعها ضمن أولويات مخططاتها[1]، وهو ما يشهد به التاريخ اللاحق، إذ إن كل القوى المتصارعة في حضرموت أو على حضرموت تحاول السيطرة على هذا المنفذ البحري وتأمينه، لتسهل عليها من بعد السيطرةُ على بقية الأجزاء الأخرى والتحكم بها، وإذا ما تم لإحدى تلك القوى السيطرة على الداخل الحضرمي، لا يهدأ لها بال ولا يقر لها قرار إلا ببسط نفوذها على الساحل، وليس في الساحل مدينة تضارع الشحر مكانةً وأهميةً. وهذا ما فعله على الأرجح الإباضيون. ولكن بسقوط مركز الإباضية في شبام، وهزيمة جيوشهم ومطاردة فلولهم من قبل الدولة الأموية؛ عادت الشحر مرة أخرى إلى أحضان دولة الخلافة، مع محافظتها على أفكارها الثائرة المتأثرة بالفكر الإباضي، ولا يمنع هذا من بقاء بعض الأفكار السنية.

١ مفلح، سالم، حضرموت بين القرنين، ص١٧٨.

الشحر في عهد الدولة العباسية

لم تنقض بضع سنوات على هزيمة الإباضية في حضرموت وإعادة المنطقة لأحضان الخلافة الأموية فالعباسية من بعدها، حتى سارع الحضارمة مجددًا لإعلان ولائهم للإباضيين في عُمان، حينما أيّدوا سنة (١٣٥هـ/ ٧٥٢م) الإمام الجلندي بن مسعود الإباضي العُماني، ثم الإمام ابن مسعود[١]، وكذلك فعلوا مع الإمام مهنا بن جيفر[٢].

وكان عامل العباسيين على اليمن في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (ت: ١٥٨هـ/ ٧٧٥م) هو عبدالله بن الربيع بن عبدالمدان[٣]، وتولى بعده سنة (١٤٠هـ/ ٧٥٧م) معن بن زائدة الشيباني (ت:١٥١هـ/ ٧٦٨م)[٤]. وهذا العامل أرسل أخاه نائبًا عنه على حضرموت، فاتخذ من مدينة (تريم) مركزًا لحكمه[٥]، وقد قُتِلَ هذا النائب على أيدي الحضارمة بعد مدة وجيزة من مقدمه إليهم؛ بسبب أخلاقه السيئة وسلوكه المشين وإفراطه في سفك دماء الحضارمة[٦]، ممَّا حدا بـوالي اليمن معن بن زائدة لأن يقدم بنفسه على رأس جيش جرار ضم قرابة أربعين ألف مقاتل، وكان ذلك سنة (١٤١هـ/ ٧٥٨م)[٧]،

---

١ مفلح، سالم، حضرموت بين القرنين، ص٤٠.

٢ عصبان، أكرم، ص٧٢.

٣ بامطرف، محمد، المختصر في تاريخ حضرموت، ص٦٩.

٤ تنظر ترجمة معن في: الزركلي، الأعلام (٧/ ٢٧٣).

٥ الكاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا ص٤٢، وبلفقيه، عبدالله، صفحات مجهولة من تاريخ حضرموت،ص٤٥، والبكري، صلاح، في جنوب الجزيرة ص١١٨.

٦ الكاف، سقاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا ص٤٢، وبامطرف، المختصر، ص٦٩.

٧ الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ١٤١). وحملة معن عنده كانت سنة ١٤٠هـ.

ليرتكب في حضرموت أبشع المجازر وأشنعها انتقامًا لمقتل أخيه وتعزيزًا لسلطته وسلطة بني العباس، وقد بلغ عدد قتلى الحضارمة كما في بعض المراجع نحو خمسة عشر ألف قتيل[1] بعضهم من النساء والأطفال والعجزة، ولم يغادر معنٌ حضرموت إلا بعد أن قطع أشجارها وسد عيون آبارها بالرصاص وألزم أهلها لبس السواد، إمعانًا منه في التنكيل والإهانة[2]، ثم غادرها تاركًا عليها ابنه المنصور.

وتذهب بعض المراجع الحديثة إلى أن من الأسباب التي جعلت معن بن زائدة يرتكب تلك المجازر في الحضارم، رغبته في استئصال شأفة الإباضية التي استفحل أمرها مجددًا في حضرموت[3]، وخشية العباسيين من تكرار سيناريو الإباضين مع الأمويين.

وقد تتبَّع الشراةُ من الحضارم معنَ بن زائدة متحينين الفرصة للانتقام منه، إلى أن تمكن أحدهم ويُدعى محمد بن عمرو بن عبدالله بن زيد من بني الحارث بن حضرموت[4] من قبيلة الأشباء الحضرمية، من قتله وهو في ولايته الجديدة ببيست (سجستان)[5]، وكان ذلك سنة (١٥١هـ/ ٧٦٨م)[6]. وكم فرح الحضارمة بمقتل معن! ورفعوا مقام قاتله لمقام الملوك والزعماء والأبطال، وعن حادث مقتله يقول الشاعر عبدالرحمن بن يونس:

١ بامطرف، المختصر، ص٦٩، والكاف، حضرموت، مرجع سابق، ص٤٢، وابن الديبع، الفضل المزيد، ص٤٢، والبكري، صلاح، في جنوب الجزيرة، ص١١٨.

٢ الشاطري، أدوار التاريخ (١/ ١٤١)، والبكري، صلاح، في جنوب الجزيرة العربية ص١١٨.

٣ مفلح، سالم، حضرموت بين القرنين، ص٤٠، والشاطري، أدوار التاريخ (١/ ١٤١).

٤ الحميري، نشوان، خلاصة السير الجامعة ص١٨٣، والشاطري، أدوار التاريخ (١/ ١٤٣)، والكاف، سقاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرناً، ص٤٢.

٥ بامطرف، المختصر، ص٧٠.

٦ أورد الكاف تاريخين مختلفين لمقتل معن أحدهما سنة ١٦١هـ/ ٧٧٧م، والآخر سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٤م. ينظر: حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا، ص٤٣.

يا معن أصبحت في بيداء مظلمة من بعد ما كنت بين الناس مختالا
حتى أتاك ابن عمرو في أطامرة قد جاشم الصبر أحوالًا فأحوالا
حتى سقاك بها كأسًا معتقةً من شربة جعلت في الصدر أنكالا

لقد عادت حضرموت مرغمة إلى أحضان الخلافة العباسية، إلا أنَّ هذه العودة كانت صورية فقط، فقد ظلَّ الولاء الحقيقي فيها للإباضية، ومن ثمَّ فإنَّ هوى الحضارمة واتجاههم في تلك المدة كان شرقيًّا نحو إباضيَّة عُمان، وطالما لجؤوا إليهم طلبًا للنصرة والمساندة.

قد يكون صحيحًا القول بأن هذه المدة التاريخية والمدة التي تلتها (القرنين الثالث والرابع الهجريين) تعد من أكثر المُدد التاريخية غموضًا في تاريخ حضرموت العام، ممَّا جعل المؤرخين يعزفون عن الخوض فيها، إلا أننا حاولنا تتبع الإشارات إليها هنا وهناك، لعلَّنا نلتقط بعض خيوطها التي ستوصلنا في النهاية لمفتاح بابها.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنَّ الحضارمة بعد قمع ثورتهم من قِبَلِ عامل العباسيين معن بن زائدة الشيباني قد أصبحوا مخلصين للخلافة العباسية حتى سنة (٢٦٣هـ/ ٨٧٧م)، وخلال هذه المدة تعاقب على حضرموت حوالي (٥٣) حاكمًا[١]، ووجود هذا العدد الكبير من الولاة والنواب العباسيين خلال تلك المدة الوجيزة، إن صحَّ، دليلٌ على كثرة الاضطرابات وعدم استقرار الأوضاع العامة في حضرموت، وعلى فشل أولئك النواب وعدم مقدرتهم على إخضاع الحضارمة بصورة تامة.

---

١ إنجرامس، تقرير عن الحالة في حضرموت ص٢٩.

الشحر في عهد دويلات اليمن الزيادية واليعفرية والنجاحية

تباينت وجهات النظر في خضوع حضرموت والشحر للدويلات اليمنية المستقلة عن دولة الخلافة العباسية، بين قائل بسيطرة تلك الدويلات اليمنية على حضرموت والشحر سيطرة مباشرة، وقائل بالشد والجذب بين تلك الدويلات الغازية والداخل الحضرمي الذي اجتهد في مقاومتها ودحرها، ذلك أن حضرموت في أغلب مراحلها التاريخية لم تخضع إلا لزعمائها الحضارمة، وحتى في تلك المراحل التي ثبت فيها خضوع الحضارمة لغيرهم من ملوك وسلاطين الدويلات اليمنية، كان خضوعهم ذاك محدودًا.

ومن القائلين بهذا النفوذ الحقيقي للزعماء المحليين في تلك الحقبة المظلمة من تاريخ حضرموت، المؤرخ الحضرمي سالم مفلح، الذي أكَّد في مشروع رؤيته أنَّه في نهاية القرن الثاني الهجري ظهرت في حضرموت من جديد الإمامة الإباضية، إذ برز الوارث بن كعب الحضرمي إمامًا للمنطقة، وأنَّه في سنة (٢٠٣هـ/ ٨١٨م) استطاع ابنُ زياد عامل المأمون على اليمن ضَمَّ حضرموت والشحر لمدةٍ قصيرةٍ إلى سلطته، إلا أنَّ هذا الضم كان صوريًّا فقط، ولهذا فالقول بأنَّ حضرموت والشحر استمرت تحت حكم آل زياد قولٌ ليس له أساس من الصحة، والصحيح أنَّ السيطرة كانت للعشائر[1].

---

١ مفلح، سالم، حضرموت بين القرنين، مرجع سابق، ص٤١. ويذكر صلاح البكري أنه ((في سنة ٢١٣هـ أرسل والي اليمن محمد بن زياد بن عبدالله بن أبي سفيان إلى ولاة حضرموت يطلب منهم دخولهم في طاعة العباسيين، فأجابوه إلى ذلك)). في جنوب الجزيرة العربية، ص١١٨.

وتبنَّى أغلب المؤرخين القولَ بوقوع حضرموت تحت السلطة المباشرة للزياديين فاليعفريين فالنجاحيين[1]، إلا أن أقوالهم هذه جاءت في كتبهم أخبارًا عابرةً، لم يعضدوها بأي شواهد أو أدلة تذكر، سوى الاستعانة بإشارات واردة، أغلبها منقول عن تاريخ عمارة اليمني (ت: ٥٦٩ هـ/ ١١٧٤م)[2]، وفي ذلك التاريخ ذكر لامتداد تلك الدويلات اليمنية إلى حضرموت. ونحن وإن سلَّمنا بذلك بالنسبة للمناطق الداخلية من حضرموت، فماذا نقول عن الساحل الحضرمي ومدينة الشحر خاصة؟ هل بلغته تلك الدويلات وتحكمت فيه تحكمًا مباشرًا؟ لا نعتقد ذلك؛ لأنَّ هناك شواهد تؤكد اتجاه الحضارمة عامة نحو الشرق، نحو إخوتهم إباضية عُمان (حلفاء المذهب) طلبًا للدعم

١ ممن ذهب لهذا القول سقاف الكاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا، ص٤٣، والشاطري، أدوار التاريخ (١/ ١٤٥)، وعلوي بن طاهر الحداد، الشامل، ص١١١، وبلفقيه، عبدالله، صفحات مجهولة من تاريخ حضرموت، ص٤٦. بل نسبوا إلى تلك الدويلات اهتمامها ببناء الكثير من المساجد والجوامع والسقايات وغيرها من البنى التحتية، على طول الطريق الواصل بين حضرموت ومكة. أما المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف، فيذكر في كتابه (المختصر في تاريخ حضرموت العام ص٧١-٧٢) تلك الدويلات، ولكن لا يذكر فيه بلوغهم حضرموت والشحر.

٢ اليمني، عمارة، تأريخ اليمن، طبع بمطبعة كلبرت، ورونكتن بمدينة لندن، السنة ١٣٠٩هـ، وفيه قوله: ((وملك ابن زياد حضرموت وديار كندة والشحر ومرباط وأبين ولحج وعدن والتهايم إلى حلي)) ص٤،ص٧. وتنظر ترجمة عمارة عند الزركلي، الأعلام (٥/ ٣٧). ويرى الشاطري أن الزياديين حكموا حضرموت فعليًّا في عهد محمد بن زياد الأول، وفي أوائل ولاية أبي الجيش وأواخرها، وفي عهد سلامة بن الحسين. أدوار التاريخ (١/ ١٤٧). كما شبه المؤرخ سعيد باوزير محمد بن زياد بملوك التبابعة لسيطرته على حضرموت والشحر. ينظر: صفحات، ص٨٥. ووفي خلاصة السير الجامعة لنشوان (ص١٦٦) أنَّ اليعفريين سيطروا على حضرموت في عهد محمد بن يعفر.

والنصرة في كل حال[1]، كما أنَّ ما قدَّمه لنا الجغرافيون العرب من إشارات في أثناء حديثهم عن المنطقة في زمنهم تفيد في معظمها أنَّ حضرموت والشحر كانتا واقعتين تحت سيطرة الإباضيين دون سواهم[2]، وقد أشار الهمداني إلى أن مركز إمام الإباضية هو مدينة (دوعن)، وأنَّ الشحر (الأسعاء) في هذه المدة كانت تابعةً لأبي ثور المهري[3]، وزاد المؤرخ عبدالرحمن الملاحي أنَّ أبا ثور من بني تبلة الثعينيين، أي من ثعين المهريين، وهم حكام الأسعاء[4].

---

١ للمزيد ينظر: مفلح، سالم، حضرموت بين القرنين، ص٤١ وما بعدها، وعصبان، الفرق والمذاهب، ص٧٨.

٢ أوردنا سابقًا خبر المقدسي عن الشراة الموجودين في الأسعى. ينظر: أحسن التقاسيم، ص١٠٤. وذكر المسعودي عند خبر فرار الإباضية من الجيش العباسي أنهم فروا إلى حضرموت، وظلوا فيها، ويقول مخبرًا عن زمنه: إن أكثرهم اليوم إباضية، يقصد في سنة (٣٣٢هـ). مروج الذهب (٣/ ٢٠٣).

٣ الهمداني، الحسن، صفة جزيرة العرب، ص١٧١. وزاد الشاطري أنه أخذها من اليعفريين مدة وجيزة، ثم عادت للزياديين. أدوار التاريخ (١/ ١٤٦).

٤ الملاحي، عبدالرحمن، مدينة الشحر بوابة حضرموت الجنوبية التاريخية، ص١٨٤. وفي بحثه المسمى (تاريخ الصراع الحمومي القعيطي ص٢١٢) ذكر أنَّ ثعين بطن من قبيلة قضاعة. وفي كتابه (الدلالات الاجتماعية واللغوية والثقافية لمهرجانات ختان صبيان قبائل المشقاص، ص٤٧) ذكر أن من بني تبلة الثعينيين بني قصيف (عند الهمداني في الإكليل: بنو قُضف)، وهم رهط أبي ثور عمرو بن محمد صاحب الأسعاء في عصره. وفي موضع آخر (تاريخ الصراع الحمومي القعيطي ص٢١٢) أشار إلى أن ثعين القضاعية تحالفت مع الحموم في مراحل من تاريخها القديم، وبهذا الحلف عُدَّت ضمن الحموم وانتسبت إليهم ولاء. وينظر: الهمداني، الإكليل (١/ ٧٣). أما المؤرخ بامطرف فيرى كما أشرت سابقًا أن ثعين والحموم بطنان من قبيلة حضرموت. وذكر الهمداني أنَّ من ولد ثعين آل تبلة، وهم سادة مهرة، وهو تبلة بن شماسة بن عثران بن شمام بن عجيل بن وتار بن عجل بن ثعين بن يُحُنُن. الإكليل (١/ ٧٣).

إذن من الصعب علينا الإقرار بامتداد تلك الدويلات اليمنية وسيطرتها على الشحر وميناءها [1]، ومن ثَمَّ إخضاع حضرموت جميعها، ذلك أن تلك الدويلات اليمنية لم يُكتَب لها الاستقرار في معاقلها، فضلًا عن معاقل غيرها، كما أنَّه قبل وصولها إلى الشحر لا بد أن تمر عبر مناطق حضرموت الداخل التي تعج بإباضيتها وقبائلها، وطالما أن حضرموت الداخل لم تخضع لهم إلا في مُدَدٍ زمنية قصيرةٍ جدًّا، فمن باب أولى ألَّا تخضع لهم الشحر البعيدة عن متناول أيديهم، وكذلك لم تحدثنا الروايات والأخبار عن حروب أو معارك دارت رحاها في حضرموت مع تلك الدويلات اليمنية الغازية سوى بعض الشوارد[2]، وظلت المدينة كما نرى تحت حكم العشائر المحلية المنتمية لحضرموت، وإن كان بعض هؤلاء الزعماء المحليين يرسل أحيانًا الجبايات أو الهدايا لملوك تلك الدول كنوع من إظهار الولاء والتبعية[3]، أما في المراحل اللاحقة التي خضعت فيها حضرموت لأكثر من دولة يمنية كالرسولية والطاهرية، فالغالب أنَّ ذلك كان خضوعًا صوريًّا فقط.

---

١ السيطرة على الميناء والمدينة تعني التحكم في سياستها وإدارتها، مع وجود قوات خاصة لهم، وهذا لا يمنع من أن تكون المدينة خاضعة لهم اسميًّا فقط، بينما حاكمها الفعلي هم زعماء العشائر المحليون.

٢ ذكر المؤرخ سعيد باوزير أن ((حكام صنعاء اليعافرة هؤلاء أخضعوا حضرموت لحكمهم، وأنهم قمعوا ثورة قام بها الحضارم للاستقلال بالأمر، وأقاموا الهزيلي الحضرمي، حاكم شبام نائبًا عنهم)). ينظر: صفحات، ص٨٥. كما ذكر علوي بن طاهر الحداد أن الشحر ظلت بيد ابن زياد حتى سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م. ينظر: الشامل ص١١١.

٣ ولعل هذا ما أشار إليه عمارة اليمني في (تأريخ اليمن ص٦) أنه اطلع على جباية بني زياد سنة ٣٦٦هـ فوجدها ألف ألف دينار عثرية، من دون ضرائب المراكب القادمة من الهند، ومن دون ضرائب العنبر التي يتحصلون عليها من سواحل باب المندب وعدن وأبين والشحر.

إنَّ ذكر أبي ثور المهري الثعيني وذكر سيطرته على منطقة الشحر في الوقت الذي تسيطر فيه بطون كندة على أجزاء أخرى من حضرموت الداخل[1] فيه دلالة على بروز نفوذ عشائر قبيلة حضرموت، وخفوت هيمنة العشائر الكندية التي طالما استحوذت على معظم الرقعة الجغرافية لحضرموت قبل الإسلام وبعده، نقول هذا بالرغم من ذهاب بعضهم إلى أن كندة ظلت تحكم أجزاء من الساحل الحضرمي بما فيها الشحر حتى مطلع القرن العاشر الهجري، ويقصدون بكندة دولة آل أبي دجانة آخر دولة كندية حكمت المنطقة الساحلية، ويرى آخرون أنها دولة ثعينية، أي من قبيلة حضرموت.

كلمة لابد منها عن الدويلات العشائرية الحاكمة:

حتى لا نقع في إشكالات قادمة، نقول إن هذه الامارة التي حكمت المدينة (آل أبي دجانة) والإمارة السابقة لها (آل إقبال أو آل فارس) قد اختُلِفَ في نسبها، فأقوال الأكثرين تشير إلى أنَّها من كندة، ولكننا نرجح القول بانتمائهما إلى ثَعْيَن الحضرمية؛ لبعض الاعتبارات التي سنوردها في السياق.

فمن قال بكندية (آل أبي دجانة) استدلَّ بأنَّ نسبتهم (الشعيثي) نسبة إلى الأشعث بن قيس الكندي، في حين يرى آخرون أنَّ كلمة (الشعيثي) هذه مصحَّفة من (الثعيني)، وعليه فإنَّ آل أبي دجانة من ثَعْيَن الحضرمية القضاعية وليسوا من كندة الكهلانية. وسنتناول هذه الآراء بالمزيد من التفصيل في أثناء حديثنا عن إمارة آل أبي دجانة.

١ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص١٦٥ ومابعدها

وبما أنَّ القبائل الحضرمية وخاصة (ثعين) هي التي أحكمت سيطرتها على الشحر (عين الساحل الحضرمي)، فلابد من أن تحكم سيطرتها على حضرموت الداخل أيضًا، إذ إنَّ الساحل هو المتحكم في مصير الداخل؛ لتحكمه في الحركة التجارية والصادر والوارد.

نقول هذا لأنَّ الدويلات الحضرمية الآتية (آل راشد، آل دغار، آل إقبال) التي تعاقبت على حكم حضرموت أو أجزاء منها قد تباينت آراء المؤرخين فيها، سواء في انتمائها القبلي أو المذهبي أو علاقتها السلالية ببعضها البعض، بين من يجعلها ذات قرابة واحدة، وبين من جعلها ذات أصول قبلية متباينة، وأغلب أقوال المؤرخين في الأصول القبلية لتلك الإمارات تدور بين هذه القبائل الثلاث (كندة، حضرموت، حِمْيَر). وسينصبُّ حديثنا غالبًا على الدويلات التي تعاقبت على حكم مدينة الشحر خاصة.

ظهور الإمارات المحلية المستقلة في حضرموت

إنَّ الحقبة التي سبقت ظهور الإمارات الحضرمية المستقلة المذكورة آنفًا (مطلع القرن الرابع الهجري) شهدت بروز حدث تاريخي مهم له الأثر البالغ في تغير مجرى الأحداث في حضرموت عامة، هذا الحدث هو قدوم جد العلويين الحضارمة من العراق، المهاجر أحمد بن عيسى بن محمد بن علي العريضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب[1]، وبصحبته ابنه وأحفاده وأبناء عمومته، وزاد بعضهم: وأتباع له، وما أحدث بعده من تغيرات في البنى الفكرية والاجتماعية والسياسية في حضرموت.

وبالرغم من أنَّ هذه المدة شابها اللبس والغموض وتباينت الآراء عنها، إلا أننا نستطيع القول إنها أفضل من سابقتها من حيث توفر مادة تاريخية خصبة يمكن للباحث فيها الحصول على بعض بغيته، ولكن بشيءٍ من النظر والصبر والموضوعية.

١ تنظر ترجمته وبعض أخباره في: الشاطري، أدوار التاريخ (١/ ١٥٦)، والشلي، محمد بن أبي بكر، المشرع الروي، ج١، وباوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص٧٨-٩٠)، وعصبان، أكرم، الفرق والمذاهب، ص٧٩. ولمحمد ضياء شهاب وعبدالله بن نوح كتاب عنه بعنوان (الإمام المهاجر أحمد بن عيسى، وما له ولنسله وللأئمة من أسلافه من الفضل والمآثر). طبعته دار الشروق جدة، ط١، ١٩٨٠م.

قدوم الإمام أحمد بن عيسى المهاجر وبنيه:

لقد ثار الكثير من اللغط واضطربت الآراء عن مقدم هذه الشخصية من البصرة، وعن الأوضاع العامة في حضرموت إبَّان مقدمه، فقد ذهب بعضهم إلى أنَّ مقدمه إلى حضرموت كان سنة (٣١٨هـ/ ٩٣٠م)[١]، وكان معه من أبنائه ابنه عبيد الله وحفيده بصري بن عبيد الله، وذكرت روايات أخرى أنَّ معه أبناءَ عمه الأهدليين، وأتباعًا له ينيفون على السبعين[٢]، وسكن المهاجر في منطقة تدعى (الجبيل) بدوعن، وكان أهلها كما قيل شيعةً يعادون الإباضية[٣]، وبعد تنقلات عدَّة استقر في قارة بني جشير قريبًا من منطقة (بور)، ثم في (الحسّيسة)، وبها توفي سنة (٣٤٥هـ/ ٩٥٦م).

وتذكر بعض الروايات أنَّ المهاجر خاض معاركَ وحروبًا مع الإباضية ساندته فيها الجماعاتُ الشيعية والسنية الموجودة في المنطقة، وكان المدد يأتيهم برًّا وبحرًا عبر السفن من البصرة إلى ميناء الشحر[٤]، إلى أن تمكن من القضاء على الإباضية في معركة فاصلة

١ الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ١٥٨). وعند البكري أنَّه قدم سنة ٣١٧هـ، تاريخ حضرموت السياسي (١/ ٩٨).

٢ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص٨٠، وعصبان، الفرق والمذاهب ص٨٠، والكاف، سقاف، دراسة في نسب السادة بني علوي، ص٢٨، وشهاب، الإمام المهاجر ص٤٩، وإنجرامس، تقرير عن الحالة في حضرموت ص٥١.

٣ الشاطري، أدوار التاريخ (١/ ١٥٨)، وسعيد باوزير، صفحات، ص٨٢. وأورد باوزير في الصفحة نفسها روايات أخرى تفيد أن المهاجر نزل أولًا في قرى سنية من كندة والصدف.

٤ باوزير، صفحات، ص٨٤. ومن تضارب الآراء أن باوزير يقول في الكتاب نفسه نقلًا عن (جني الشماريخ) لعلوي بن طاهر الحداد: إنَّ الإباضية في مدة هذا الصراع كانت لهم ولاية ونشاط بالشحر ودوعن. ينظر: ص٨٧.

ببحران. وبعض المؤرخين اكتفى فقط بالقول بـالمعارك الجدليَّة التي تفوَّق فيها المهاجر على الإباضية[1]، وآخرون قالوا تغلَّب عليهم بالمال[2]. وهكذا تتعدد الروايات، ولكن ما يهمنا هنا، ونعدُّه خلاصةً جامعةً لما ورد في الروايات:

- أنَّ حضرموت في المدة التي قدم فيها المهاجر لم تزل تعج بالإباضية.
- لم يكن المذهب الإباضي وحده في حضرموت، وإن كانت له السيطرة والسيادة، بل كانت هناك مذاهب أخرى، سنية وشيعية[3]، ولعلَّ أتباع أحد هذين المذهبين هم مَنْ مهَّد لقدوم المهاجر وبنيه.
- حتمية الجدل والصراع الفكري الذي ينشأ بين أتباع هذه المذاهب وانقسام حضرموت على نفسها مذهبيًّا، وصراع كهذا لن يكون دائمًا في مصلحة المذهب الذي ساد لعهود[4]، ونقصد به المذهب الإباضي.

---

١ الشاطري، أدوار التاريخ (١/ ١٥٣).

٢ عصبان، أكرم، الفرق والمذاهب، ص٨٢.

٣ يقول المؤرخ سعيد باوزير: ((وكان طبيعيًّا أن تحول السلطة التي يتمتع بها المذهب الإباضي في حضرموت خلال القرون الخمسة الأولى من الإسلام دون انتشار المذهب الشافعي الذي يقوم على أساس من العقيدة السنية التي تعتبر كثيرًا من معتقدات الخوارج نوعًا من الضلال، فلما ضعف نفوذ الخوارج بحضرموت في أوائل القرن السادس الهجري، وحكمت البلاد حكومة شافعية سنية تدين بالولاء لخلفاء بني العباس السنيين، وجد المذهب الشافعي السني في حضرموت متنفسًا للذيوع والانتشار)). الفكر والثقافة، ص٧٩.

٤ يرى المؤرخ سعيد باوزير أن من ((أهم فرق الشيعة في حضرموت من زيدية معتزلة، وإمامية باطنية، (كما) كان بها سبئيون وخوارج من طائفة الإباضية، كما كان فيها قرامطة يدعون إلى مذهب إباحي هدام، وقد كان طبيعيًّا أن يكون بين هذه الطوائف من التباين في الاتجاهات والتصادم في الآراء والمعتقدات مادة خصبة للتاريخ والأدب والثقافة)). الفكر والثقافة، ص٧٨.

- قدوم المهاجر هو مبدأ مقدم العلويين وانتشارهم فيما بعد في حضرموت وغيرها[1].
- ما زال الغموض يكتنف الانتماء المذهبيَّ للإمام المهاجر أسنِّيٌّ هو أم شيعيٌّ[2].
- على الرَّغم من القول بتفوق المهاجر وانتصاره على الإباضية في نهاية الأمر، إلا أنَّ الأحداث المتلاحقة أكدت أن الإباضية ما زالت في مركزها، وإن بدأ الخلل والتضعضع يصيبها، وهو الخلل الذي تجلى بوضوح في مدة إمام الإباضية بحضرموت أبي إسحاق إبراهيم بن قيس الهمداني، والذي ترافق مع دخول جحافل الدولة الصليحية الشيعية حضرموت.
- يبدو أنَّ المناطق الساحلية من حضرموت (إقليم الشحر) لم تدخل في ذلك الصراع مباشرة، وفقًا للمراجع المتاحة، وأنَّ هذا الصراع المذهبي انحصر في بدايته في المناطق الداخلية من حضرموت، ربما لأنَّ المناطق الساحلية غالبًا تكون الأكثر انفتاحًا من الناحية العقدية مقابلةً بالمناطق الداخلية.

١ ينتسب كل العلويين الحضارم إلى علوي بن عبيد الله بن أحمد بن عيسى المهاجر. الكاف، دراسة في نسب السادة بني علوي، ص٢٩. وللمزيد عن الأسر العلوية في حضرموت، ينظر: إنجرامس، تقرير عن الحالة في حضرموت ص٤٥.

٢ ينظر: ما قيل عن مذهبه في: الشاطري، أدوار التاريخ (١/ ١٦٠)، وباوزير، سعيد، صفحات، ص٨٨، والعطاس، مصطفى بن عبدالرحمن، صفحات مجهولة من تاريخ حضرموت، ص٢٤.

الشحر في عهد أبي إسحاق الهمداني والدولة الصليحية

يعد الإمام إبراهيم بن قيس بن سليمان المعروف بأبي إسحاق الهمداني[1] (ت: ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م) من أشهر أئمة الإباضية في حضرموت، وهو من القلائل الذين حاولوا جاهدين الحفاظ على المذهب الإباضي حينما بدأ يتزعزع ويتهاوى أمام مزاحمة المذاهب الشيعية والسنية له، وبعد قدوم جحافل الدولة الصليحية في محاولة للسيطرة على حضرموت ونشر مذهبهم الإسماعيلي بها.

وبالرغم من الجدل الذي أُثِيرَ عن هذا الرجل، وعن مؤلفاته وديوانه الشعري[2]، إلا أنَّنا نستطيع من خلال ما كتب عنه أن نستجلي بعض الأمور، خاصة ما يتعلق بالحياة الاجتماعية والسياسية في حضرموت والشحر، ومنها:

١- أن حضرموت أصبحت يتقاسمها ويتنازعها أكثر من حاكم، إذ ظهر في شبام الدغار بن أحمد الهزيلي[3]، وقبله كان على تريم قحطان بن العوم بن أحمد الذي تولاها في

---

١ تنظر ترجمته في الأعلام (١/ ٥٨)، وباوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص٩١. وعند سالم مفلح (حضرموت بين القرنين ص٥٨) أن أبا إسحاق توفي في كوجرات بالهند نحو سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م. وهذا وهم.

٢ عن أبي إسحاق ومؤلفاته بالتفصيل، ينظر: باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي، ومفلح، سالم، حضرموت بين القرنين، وعصبان، أكرم، الفرق والمذاهب، وكذلك بحثه (الأحداث التاريخية بحضرموت في منتصف القرن الخامس الهجري، قراءة في السيف النقاد)، وفرانتسوزوف، تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي ص١٩٢.

٣ عصبان، أكرم، الفرق والمذاهب، ص٩١. وكانت ولايته سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م، والكاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا، ص٤٨. وبنو الدغار كما يرى الشاطري هم أبناء عمومة لبني راشد، ومن أبرز عائلاتهم آل النعمان. أدوار التاريخ (١/ ١٧٥). ومن القبائل التي يكونها حاليًّا التجمع العشائري الثعيني (زي ثعين): الهزيلي أو بنو هزيل، ومساكنهم (ضبق هزاول) غرب وادي عسد، و(شِعْب حِفْرين) شمال قرية الضبق، وسكن عدد منهم قصيعر وساحل حضرموت. الملاحي، الدلالات ص٢٤، ص٤٧.

(٤٠٠-٤٤٠هـ/ ١٠٠٩-١٠٤٨م)[1]، وآخر كان على الشحر من آل إقبال وهو الأمير فارس بن راشد[2]. وقد أكد الباحث سالم مفلح أنَّ هذه السلطنات الثلاث تنتمي إلى بيت عشائري واحد وهو (بيت قحطان)[3]، الذي ينتمي إلى قبيلة حضرموت.

وننبِّه هنا على أنَّ لسلاطين تلك السلطنات الحضرمية أسماء متشابهة قد تؤدي إلى الخلط بينهم، ونعتقد أنَّهم على الرغم من كونهم على مذهب الإباضيَّة لم يكونوا على وفاق تام مع الإمام الإباضي أبي إسحاق، إذ لم ينصروه كما ينبغي عند استنجاده واستغاثته بهم، ربما بسبب مطامحهم في الحكم والانفراد بسيادة المنطقة.

يقول أبو إسحاق معاتبًا أحد هؤلاء الطامحين للزعامة المتقاعسين عن نصرته:

لهفي على رجل من حضرموت حكى　　أن العباد له مذ كانت البلد
لو كان في ملكهم فخر ومكرمة　　ما ناله منهم في عصرنا أحد

٢- أنَّه لم تعد للإباضية في هذه المدة قوتها السابقة.

٣- اعتماد إباضية حضرموت على إباضية عمان واستنجادها الدائم بهم، كما يُلاحظ في قصائد أبي إسحاق الهمداني.

---

١ الكاف، حضرموت، ص٤٦.

٢ مفلح، حضرموت بين القرنين، ص٥١. وفي مشجر سلاطين آل إقبال الذي أورده سقاف الكاف، أن مؤسس هذه الدولة في الشحر هو عبدالباقي بن فارس (ت ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م)، ولم يرد في المشجر ذكر لفارس بن راشد، وفي الوقت نفسه يقول إن هذه السلطنة نشأت في ظل الصليحيين ينظر: حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا، ص٤٩. أي إن ظهورها كان بعد وفاة أبي إسحاق الهمداني بقرابة ٧٢ سنة. هذا إن صحت التواريخ الواردة.

٣ مفلح، سالم، حضرموت بين القرنين، ص٢٥١.

٤- ظهور وذيوع مخالفات شرعية في نظر الفكر الإباضي المتشدد، وكان سببها الرئيس الصليحيين، فضلًا عن تسرب أفكار وعقائد أخرى مناهضة.

٥- أصبحت مدينة الشحر (الساحل) مستقلة عن سلطة حكام حضرموت (الوادي).

٦- على الرغم من تقارب حاكم الشحر آنذاك مع الفكر الإباضي، فإنَّه تجاهلَ مناشدات أبي إسحاق الهمداني للانضمام إليه ونصرته؛ رغبةً منه في إبقاء سيطرته على إقليمه (الشحر وما جاورها)، بل اتَّجه هذا الحاكم إلى العباسيين يبذل لهم طاعته. وفيه يقول أبو إسحاق في إحدى قصائده:

قد كان أرسل منشورًا لعقوتنا ... قصد البغاة وأموالًا وأخدانا

ينوي انتصار بني العباس قدوته ... في زعمه فغفرنا ذاك كتمانا[1]

٧-بروز أسماء أئمة إباضيين إلى جانب أبي إسحاق منهم سويد بن يمين في دوعن[2]، وحشمر بن جناح[3]، والملك الكندي أبو الفضل عباس بن معن بن حوشب بمنطقة وادي عرف الواقعة شمال مدينة الشحر[4]، وبروز قبائل كبني سهل، وهؤلاء من قبيلة تجيب الكندية[5]. ولا نعلم الكثير عن أولئك الأئمة.

١ عصبان، أكرم، الفرق، ص٩١.

٢ مفلح، سالم، حضرموت بين القرنين، ص٦٠. وذكر أيضًا أنه من قبيلة نوَّح.

٣ عصبان، أكرم، الفرق، ص٩٠.

٤ مفلح، سالم، حضرموت بين القرنين، ص٥٩. ويرى فيه أن مركز هذا الملك كان بوادي عرف.

٥ باوزير، صفحات، ص٩٩، وعصبان، أكرم، الفرق والمذاهب، ص٩٦.

٨- ظهور القرامطة في حضرموت واختفاؤهم لاحقًا دون أن يتركوا أثرًا ظاهرًا، ولعل ظهورهم كان قبل زمن أبي إسحاق بقليل[١]، ويظنُّ بعض الباحثين أنَّ الفكر الاعتزالي كان موجودًا أيضًا، بقرينة قدوم نشوان الحميري إلى حضرموت وثنائه على الحضارمة[٢].

هذا ومن الواضح أن مناشدات أبي إسحاق ومحاولاته الحثيثة لصد هجمات الصليحيين لم تُجدِ نفعًا، إذ وقعت حضرموت كما يذكر عدد من المؤرخين في قبضة الصليحيين، وهم كما هو معروف شيعة إسماعيلية[٣] موالون للعبيديين في مصر (الدولة الفاطمية)، وقد بسطوا نفوذهم على حضرموت والشحر سنة (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م)[٤]، ووَلَّوا عليها إثر انسحابهم السريع منها (بني معن)، وهؤلاء كانوا من قبل نوابًا لهم على عدن[٥]،

---

١ الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ١٤٨).

٢ مفلح، سالم، حضرموت بين القرنين ص٩٢-١٠٠.

٣ تامر، عارف، أروى بنت اليمن، ص٥٢. وعند سعيد باوزير أنهم شيعة إمامية. الفكر والثقافة، ص٧٤. وعند بامطرف في المختصر في تاريخ حضرموت ص٧٨، أنهم كانوا حكامًا شيعة.

٤ بامطرف، محمد، الشهداء السبعة،ص٢٢، وحداد، عبدالله، الابتهالات والمدائح في حضرموت، الابتداء والانتشار، مدينة الشحر نموذجًا، ص٤٨١. ويذكر عارف تامر في: أروى بنت اليمن، ص٤٠ أن بني معن استولوا على عدن وأبين ولحج وحضرموت والشحر سنة ٤١٢هـ، أي قبل مقدم الصليحيين. وذكر في ص٦٨ أنه في سنة ٤٥٥هـ كان الصليحي في مكة.

٥ بامطرف، محمد، الشهداء السبعة، ص٢٣، والمختصر في تاريخ حضرموت، ص٧٩، والكاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا، ص٤٤. وفي: (الحداد، علوي، الشامل، ص١١١) أن بني معن من العوالق، وكانوا أولًا نوابًا للزياديين في عدن، وبعد انقضاء ملك الزياديين استولوا على عدن وأبين وحضرموت، وبقدوم الصليحي أبقاهم في مناطق سيطرتهم السابقة. وترى بعض المراجع أن بني معن كانوا نوابًا للحسن بن سلامة، وبعد موته استولوا على عدن ولحج وحضرموت والشحر سنة (٤١٢هـ)، وظلت تحت سيطرتهم حتى أضعفهم علي بن محمد الصليحي، وأبقاهم على تلك المناطق مقابل دفع جزية سنوية. الهمداني اليعبري الحرارزي، حسين بن فيض الله، الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص٦٣.

ويرى ابن المجاور أنَّ بني معن هؤلاء انفردوا بحكم عدن ولحج وأبين والشحر وحضرموت، بعد أن تغلب (الحسن بن سلامة) على النجاحيين[1]. ولم تستمر سلطة بني معن هذه طويلًا، إذ سرعان ما تقاسمت حضرموتَ دويلاتُها المستقلةُ السابقةُ، معلنين ظهور حقبة جديدة من تاريخ حضرموت، وخاصة بدء دولة آل راشد في تريم، وهي أقدم الدويلات التي عرفت بحضرموت، ووجودها كان سابقًا لمقدم الصليحيين إلى حضرموت[2]، وظهرت كذلك دولة آل الدغار في شبام[3]، ودولة آل إقبال في الشحر، وتسمى هذه الدولة الأخيرة أيضًا بدولة آل فارس.

إنَّ قدوم الصليحيين إلى حضرموت أثَّر كثيرًا في سيادة المذهب الإباضي، هذا إن لم نقل إنَّه أجهز عليه تمامًا[4]، وأتاح المجال في الوقت نفسه لبروز بعض الفرق الشيعية[5]

١ ابن المجاور، صفة بلاد اليمن، المسمى تأريخ المستبصر، ص٨٨.

٢ أنشئت دولة آل راشد في تريم سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م، وكان مؤسسها قحطان بن العوم بن أحمد، ومن أشهر سلاطينها عبدالله بن راشد. ينظر: الكاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا ص٤٥. وتنظر ترجمة السلطان عبدالله بن راشد في: بامخرمة، قلادة النحر (٥/ ٤٧).

٣ ثاني سلطنة أنشئت في حضرموت سنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧م، مؤسسها الدغار بن أحمد بن النعمان الهزيلي. ينظر: الكاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا ص٤٧، والشاطري: أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ١٧٥).

٤ يرى الباحث سالم مفلح أن الإباضية ظلت متأصلة في حضرموت بعد خروج الصليحيين بقرون. ينظر: حضرموت بين القرنين (٤-١١هـ) بين الإباضية والمعتزلة. ونلاحظ أنه بالرغم من كثرة القصائد التي قالها أبو إسحاق في وصف معاركه ضد الصليحيين إلا أن المصادر والمراجع لم تذكر أي حروب أو معارك وقعت بين الطرفين في حضرموت، ولعل هذا ما دفع بعضهم إلى التشكيك في أبي إسحاق الهمداني والقصائد المنسوبة إليه.

٥ بامطرف، المختصر، ص٧٨. ويرى الكاف (حضرموت (بالهامش) ص٤٤) أن الصليحيين أزالوا المذهب الإباضي وأحلوا محله المذهب الشافعي، ودليله على ذلك تركهم الحكم لسلاطين حضرموت سنيي المذهب الميّالين كما قيل للسادة العلوية السنيين (؟!)

والمذهب السني أيضًا[1]، كما أن عُمَّال الصليحيين (بني معن) والزريعيين لاحقًا وهم من استقل بالمناطق الجنوبية من اليمن، حاولوا من الناحية السياسية تعزيز نفوذهم في الشحر من خلال خلق علاقات طيبة مع زعماء العشائر المحليين لضمان ولائهم ولو اسميًّا، ولربط هذه العلاقات بالمصالح الاقتصادية لكليهما، ولكن زعماء حضرموت سرعان ما استقلوا بأمر بلادهم[2].

ويرى آخرون أنَّ أوَّل ضربة موجعة وُجِّهَت للإباضية كانت بقدوم الإمام أحمد بن عيسى المهاجر ومَنْ معه وبمساندة الفئات الحضرمية الأخرى[3]، إذ عمل الجميع على ((إنهاء وجودها السلطوي ... ثم تابعوا مقاومتهم ومحاربتهم للإباضية بالهجرة في القرن الثامن (الهجري) إلى شرق إفريقيا والسعي الحثيث لنشر الإسلام بأفكار ومعتقد المذهب السني))[4].

١ تفيد بعض المراجع أن علي الصليحي كانت ولايته (٤٣٩-٤٥٩هـ/ ١٠٤٧-١٠٦٦م)، وبعد أن أخضع اليمن كله، أتاح لأهل السنة إظهار مذهبهم. تامر، عارف، أروى بنت اليمن، ص٦٤و٨١ ، والهمداني، حسين بن فيض الله، الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، ص١١٠. وسماح الصليحي بإظهار المذهب السني في حضرموت يعني كما نرى، القبول بأهون الأمرين، فهو الوسيلة الوحيدة للحد من انتشار الإباضية التي هي أشد خطرًا على سلطته ومذهبه.

٢ بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت، ص٧٩.

٣ الملاحي، عبدالرحمن، الحضارم في ممباسا ودار السلام ص٣٠، وبلفقيه، عبدالله، صفحات مجهولة من تاريخ حضرموت، تحقيق وتقديم عبدالرحمن العطاس ص٢٤.

٤ الملاحي، عبدالرحمن، الحضارم في ممباسا ص٣٠.

الشحر في عهد إمارة آل إقبال (آل فارس)

تعد هذه الإمارة من أقدم الإمارات التي حكمت مدينة الشحر وما جاورها، وقد تحدثت عنها المصادر والمراجع بإيجاز، ومع ذلك فإنَّ حظها كان أفضل من حظ غيرها من الدويلات السابقة التي حكمت المنطقة الساحلية ولا نعلم عنها شيئًا. وفوق هذا ما زال الغموض يكتنف جوانب عدَّة من تاريخ هذه الإمارة، كمعرفة الانتماء القبلي لحُكَّامها، أو مذهبهم الدِّيني، فضلًا عن أحداث أخرى متعلقة بسلاطينها وأمرائها، وعلاقتها بالدويلات الحضرمية المعاصرة لها. ومثل هذه الضبابية شملت الدويلات الحضرمية الأخرى التي عاصرت آل إقبال كآل راشد وآل الدغار، وعلى الأرجح أن ثمة صلة قرابة تربط بين هذه الأسر الثلاث[1]، وأنَّ التنافس المحموم بينها على الزعامة والسيطرة على عموم حضرموت أدَّى إلى نشوب صراعات بينها، وأحيانًا إلى إقامة تحالفات.

إن المتتبع لتاريخ حكام تلك الدويلات الثلاث وأمرائها، سيجد تشابهًا ملحوظًا في أسمائهم، وفي بعض الأحداث التاريخية كذلك، ممَّا يُشكل على الباحث المتابع، ويزيد الطين بِلَّةً عدم ضبط بعض تلك الأسماء وتصحيفها في بعض المصادر والمراجع، وخلط الأحداث التي مرت بها تلك الدويلات لدى بعض مَنْ كتب عنها.

---

١ حاول الباحث سالم مفلح تأكيد انتماء هذه السلطنات الثلاث لجد واحد هو (قحطان) من قبيلة ثعين الحضرمية، والذي هو أيضًا الجد الذي ينتمي إليه اليوم بيت الزعامة عند الحموم. بل وأدخل معها في النسب سلطنة آل الحبوضي، وآل أبي دجانة. للتفصيل ينظر: حضرموت بين القرنين (٤-١١هـ)، ص٢٤٨ - ٢٥٨. ويرى الشاطري في: أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ١٧٥) وسقاف الكاف في: حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا ص٤٧ أن آل راشد وآل الدغار هم بنو عمومة.

وسنحاول في مدخل هذا الفصل تسليط الضوء على الأحداث المهمة في تاريخ هذه الإمارة والإمارات الأخرى التي أعقبتها في حكم الشحر، وفقًا للمصادر والمراجع المتاحة.

إنَّ من المسلَّم به أن هذه السلطنة التي اتخذت من مدينة الشحر قاعدة لها، والتي عُرِفَت بسلطنة (آل إقبال)، وأحيانًا (آل فارس) نسبة إلى سلاطينها من آل فارس وآل إقبال، ونسبها بعضهم إلى مؤسسها (فارس بن إقبال)[1]، تعد السلطنة الثالثة بحضرموت في القرن الخامس الهجري، إلى جانب سلطنة آل راشد بتريم وسلطنة آل الدغار بشبام.

وقد اضطرب المؤرخون في نسب سلاطين آل إقبال، فعدَّهم بعضُهم من كندة[2]، وآخرون قالوا: مِنْ حِمْيَر[3]، ومنهم من توقَّف في نسبهم[4]، وحديثًا حاول الباحث سالم مفلح تأكيد انتمائهم القبليِّ لقبيلة (ثَعْيَن) الحضرمية، وأدرج معهم في هذا النسب سلاطين آل راشد وآل الدغار وآل أبي دجانة[5].

---

١ الكاف، حضرموت، ص٤٧، وعنده (فارس بن إقبال الكندي).

٢ إنجرامس، تقرير عن الحالة ص٣٠، والكاف، حضرموت، ص٤٧. وفي حديثه عن آل فارس ذكر الباحث بابطين أنهم من كندة، وأن أول حكامهم راشد بن محفوظ سنة ٥٠٩هـ، وطردهم ابن مهدي سنة ٦٥٠هـ (؟!). ينظر: بابطين، علي بن محمد باخيل، إدراك الفوت في ذكر قبائل تاريخ حضرموت، ص١٢٤. والقول إنهم من كندة من أوسط الآراء عند المؤرخ عبدالرحمن السقاف. ينظر: إدام القوت، ص١٦٧. وفي موضع آخر رجح أنهم من المهرة. إدام القوت ص١٦٦. بل ذكر أن دولة كندة في الشحر استمرت إلى سنة ٥٧٥هـ حينما هجم عليها الزنجيلي. ينظر: ص١٦٥. والاضطراب هنا واضح. وينظر: الملاحي، عبدالرحمن، مدينة الشحر بوابة حضرموت الجنوبية،ص١٨٣.

٣ عدَّ صلاح البكري آل راشد بطنًا من حمير، هاجروا من اليمن في القرن الثالث الميلادي، بعد سيل العرم، إلى الشحر ثم إلى عندل وهينن، ثم إلى تريم وشبام. ينظر: تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١٠٢).

٤ منهم محمد الشاطري، ينظر: أدوار التاريخ (١/ ١٧٦).

٥ مفلح، سالم، حضرموت بين القرنين. مرجع سابق. كما رجح الملاحي ثعينيتهم. ينظر: مدينة الشحر بوابة، ص١٨٣.

ولا نعلم على وجه الدقَّة البداية الأولى لظهور إمارة آل إقبال في مدينة الشحر، وقد أشارت بعض المراجع إلى أنَّ أوَّل مَنْ عُرِفَ من سلاطينها وعدَّته مؤسسًا لها هو السلطان عبدالباقي بن فارس[1](ت: ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢م)، في حين ذهب آخرون إلى أبعد من هذا، إلى الأمير فارس بن راشد[2] الذي عاصر أبا إسحاق الهمداني (ت: ٤٧٥ هـ/ ١٠٨٢م) إمام الإباضية في حضرموت، وهو الذي خاطبه بقصيدة يقول فيها:

**أجب داعيًا يدعو على الحق جاهدًا		إذا ما دعى الداعي لفعل باطل**

**سل ابنك إقبال الفتى ومظفرًا		وسل محرمًا ذا الجود يابن البهالل**

**سل ابن ظهير مع بشير معًا وسل		على إبراهيم سل سل وسائل**

**أليس التي تدعى لها يابن راشد		تحلك في الدارين أعلى المنازل.**

وثمة إشارة للمؤرخ الهمداني تفيد أنَّه كان في عصره حاكمٌ على الأسعاء (مدينة الشحر)، وهو عمرو بن محمد بن محمد بن كنانة بن حبل بن تبلة، المكنى بأبي ثور المهري، وهو كما أشار إليه من قبيلة ثَعْيَن المهرية القضاعية[3]. فلعل هذا هو المؤسس الأوَّل لهذه الإمارة أو لعلَّه من أوائل سلاطينها، على القول بأنَّ هذه الإمارة ثَعْيَنِيَّة.

---

١ الكاف، حضرموت، ص٤٧، وبامطرف، محمد، المختصر، ص٨٦. وهو غير عبدالباقي بن فارس بن إقبال المولود سنة ٥٧٤هـ. ينظر: شنبل ص٤٧.

٢ مفلح، سالم، حضرموت بين القرنين، ص٥١. ولم أجد لهذا السلطان ترجمة، ولم أجد إشارة لتلك المدة التي عاصر فيها أبا إسحاق. أمَّا إن كان يقصد به (فارس بن راشد بن إقبال) فهذا تولى السلطنة في الشحر بعد مقتل والده سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م. ينظر: شنبل، تاريخ حضرموت، تحقيق عبدالله الحبشي، مكتبة صنعاء الأثرية، ط٢، ٢٠٠٣م، ص٢٦.

٣ ينظر: الهمداني، الإكليل (١/ ٧٣).

وعلى الرغم من ندرة المصادر التاريخية الحضرمية التي تناولت هذه الحقبة وشحتها، واضطراب المراجع الحديثة التي حاولت تغطية الفراغ التاريخي بإيراد بعض الروايات المجمَّعة عن هذه الإمارة من هنا وهناك، فإنَّ ذلك لا يمنع أن ندلو بدلونا في هذا الباب مع توخي الحذر والدقة.

إنَّ ورود بعض الروايات عن هذه الإمارة أو تلك في الأدبيات المختلفة، تجعلنا نحجم عن إنكارها، لا سيما أننا لا نعرف عنها إلا ما ذكَرَتْهُ تلك الروايات، ولكننا في الآن نفسه لا نقبل تلك الروايات على علاتها، وعليه سأحاول التركيز على تلك الروايات التي أعتقد بصحتها، ومناقشة بعض نقاط الضعف في الروايات الأخرى وإظهار ما بها من خلطٍ ولبس.

في إشارة بكتاب (تاريخ حضرموت) للمؤرخ الحضرمي أحمد بن عبدالله (شنبل) (ت: ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤م) يذكر أنَّ سلطان الشحر مطلع القرن السادس الهجري (النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي) هو السلطان راشد بن إقبال بن فارس، الذي قُتِلَ لاحقًا في دوعن سنة ٥٠٩ هـ/ ١١١٥م[١]. وفي إشارة أخرى يذكر أنَّ اثنين من أبنائه وهُما فارس ومحفوظ، تقاسما حكم البلاد بعد مقتل أبيهما لمدة خمس سنوات، لينفرد بعدها السلطان فارس بن راشد بن إقبال بن فارس بحكم البلاد، بعد مغادرة أخيه محفوظ منها[٢]، وكان هذا سنة ٥١٥ هـ/ ١١٢١م[٣].

١ يقول شنبل في حوادث سنة ٥١٥هـ: ((فيها انفرد فارس بن راشد بن إقبال بولاية الأشحار، وخروج أخيه محفوظ منها)). تاريخ حضرموت، ص٢٦.

٢ شنبل، مرجع سابق، ص٢٤، والشاطري، أدوار التاريخ (١/ ١٧٦)، وعبدالنور، الحياة العلمية، ص٢٩.

٣ توفي محفوظ بن راشد سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م تقريبًا، وتوفي أخوه فارس سنة٥٥٣هـ/ ١١٥٨م. ينظر: شنبل، تاريخ حضرموت، ص٣٩، ٤٣.

واستمر السلطان فارس بن راشد بن إقبال في حكم المدينة مُدَّةً، ولأسباب لا نعلمها استلم السلطنة في حياته ابنه الأمير عبدالباقي بن فارس، وهذا الأمير توفي في حياة والده سنة ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢م في مأرب[١]، والأرجح أنَّ ابنه راشد بن عبدالباقي بن فارس هو مَنْ تولَّى السلطنة من بعده.

السلطان راشد بن عبدالباقي بن فارس بن راشد بن إقبال وقدوم الأيوبيين:

لا يُعلم تاريخ ولادته أو مكانها، وما علمناه عنه أنَّهُ استلم السلطنة بعد وفاة والده السلطان عبدالباقي بن فارس سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م، وفي عهده قَدِمَ الأيوبيُّون إلى اليمن بقيادة (تورانشاه) الأيُّوبي، ومعه جنوده الذين عُرِفُوا في الأدبيات المحلية بـ(الغُزّ)، وهم خليط من الأتراك والأكراد واليمنيين[٢]، وكان هذا سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م، وأنَّ هذا السلطان قُتِلَ سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م في أثناء قدوم عثمان الزنجيلي إلى حضرموت، قتلته قبيلةُ ثَعْيَن، كما في بعض المصادر، انتقامًا منه لقتله عيسى بن إبراهيم وأخيه أبي بكر[٣]. ولا ندري عن هذين القتيلين شيئًا، ولا عن سبب مقتلهما، ولا عن علاقتهما بثَعْيَن. في حين تذهب بعض المراجع إلى أن الغُزَّ (الأيوبيين) هم من قتلوه[٤] وانتزعوا منه المدينة، التي تعرضت حينها للسلب والنهب والتدمير[٥].

١ شنبل، تاريخ حضرموت، ص٣٧.

٢ بامطرف، المختصر، ص٨٨، وباوزير، صفحات، ص١٠٨.

٣ شنبل، تاريخ حضرموت، ص٤٨، وبامخرمة، قلادة النحر (٤/ ٣٠٧).

٤ الكاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا، ص٤٩، وعبدالنور، محمد، الحياة العلمية في حضرموت، ص٣٢.

٥ بامطرف، الشهداء السبعة، ص٣٥.

ولم تتضح لنا حقيقة دوافع الحملة الأيوبية على حضرموت، أكانت ذات أبعاد توسعية أم مذهبية أم اقتصادية، كما لم تتضح جليًّا دوافع قائد الحملة على حضرموت (عثمان بن علي الزنجيلي) الذي أثخن في القتل وسفك الدماء، واستطاع بحملته تلك القضاء مؤقتًا على كل الدويلات في حضرموت سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م.

والحقيقة أنَّ الغموض ما زال يلف أحداث تلك الحقبة التاريخية[١]، وما ذُكِرَ عنها في المراجع من روايات تحتاج إلى مزيد تحقيقٍ وتدقيقٍ.

وتذكر بعض المراجع أنه في سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م كان الحاكم على مدينة الشحر هو محمد بن فارس[٢]، والذي توفي بعد ذلك التاريخ بثلاث سنوات. ولا نعلم مَنْ حكم المدينة بعده، غير أنَّ بعض المصادر تنصُّ على أنَّ مظفر بن فارس بن إقبال قدحَكَمَ الشحر بعد ثمانية عشر عامًا[٣]، وتحديدًا سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م.

وقد أشارت بعض المراجع إلى زيارة سيف الإسلام (طغتكين بن أيُّوب) لحضرموت سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م، وإقراره سلاطين حضرموت على إماراتهم، واكتفائه بولائهم الاسميِّ لمملكة آل أيوب[٤]. وثَمَّ إشارة أخرى عند المؤرخ ابن المجاور تفيد أنَّ

---

١ للمزيد عن حملة الزنجيلي على حضرموت، ينظر: ابن سمرة الجعدي، طبقات فقهاء اليمن ص٢٢٠، والجندي، السلوك (١/ ٤٦٢)، وبامخرمة، قلائد النحر(٤/ ٣٢٣)، وباوزير، سعيد، صفحات من التاريخ ص١٠٨، والكاف، سقاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا، ص٥٠، وبامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت، ص٨٨، والشاطري، أدوار التاريخ (٢/ ١٧٧)، وعبدالنور، الحياة العلمية في حضرموت، ص٣٢-٣٣.

٢ شنبل، أحمد، ص٥١-٥٢. وفي الهامش: هو محمد بن فارس بن راشد بن إقبال.

٣ المرجع السابق ص٦٠.

٤ الكاف، سقاف علي، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا ص٥٠.

(طغتكين) حينما كان حاكمًا على عدن كان يأخذ عشورًا على التجار القادمين من حضرموت والشحر[1].

إنَّ الأحداث المضطربة التي رافقت الحملة الأيوبية على حضرموت، والحملة المشابهة لها، التي قادها قائد الغُزِّ عمر بن مهدي الحميري اليمني[2]، وما تمخضت عنه من طرد سلطان الشحر عبدالباقي بن فارس، وقَتْلِ جَمْعٍ من أهلها؛ قد أدَّت إلى توحيد جهود تلك الأسر الحاكمة لصد هؤلاء الغزاة، وقد وقفت إلى جانبهم كثير من القبائل الحضرمية التي كفَّت عن صراعاتها فيما بينها، كما أن هذه الأحداث والوقائع رفعت من شأن بعض القبائل التي أصبحت تنافس على السيطرة والزعامة، ومنها قبائل نهد(ابن شماخ) وقبائل المهرة وبني ظنة (آل يماني) وقبيلة سيبان وقبيلة آل كثير التي دخلت لاحقًا حلبة الصراع السياسي الحضرمي بقوة، وسنأتي لذكرها.

وأمَّا ما يتعلق بتاريخ مدينة الشحر آنذاك فجُلُّ ما نعرفه أنَّه في الحقبة التي قدم فيها عمر بن مهدي، كان حاكم الشحر هو الأمير عبدالباقي بن فارس (الثاني)[3]، وأنَّ ابن مهدي انتزع الشحر منه سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م على بعض الأقوال[4]، ليتجه ابن مهدي

---

١ ابن المجاور، صفة بلاد اليمن المسمى بتأريخ المستبصر ص٢٨٣.

٢ كان هذا سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م. ينظر الحداد، الشامل، ص١١١، وبامطرف، الشهداء السبعة،ص٣٥. وعند محمد بن هاشم (تاريخ الدولة الكثيرية:١/ ٥) سنة ٦١٤هـ، وينظر: عبدالنور، الحياة العلمية، ص٣٦. وقد أورد الشاطري أن قبيلة نهد قتلت ابن مهدي سنة ٦٢١هـ. أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ١٨٠). وأحسب أن هذا وهم منه.

٣ البكري، صلاح، في جنوب الجزيرة العربية، ص١٢١. لعله المولود سنة ٥٧٤هـ. شنبل ص٤٧.

٤ المرجع نفسه، وينظر: شنبل، أحمد، تاريخ حضرموت ص ٧٥. وورد عند المؤرخ السقاف، في إدام القوت ص١٦٦: أن ابن مهدي انقض سنة ٦١٦هـ على آل فارس وأخرجهم من الشحر.

بعدها نحو وادي عرف وغيل بن يمين لقمع بعض الثورات هناك، منها ثورة أحمد بن سالم بن بلعان[1] سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م[2]. واستمر ابن مهدي في زحفه إلى أن سيطر على تريم ودخلها في ٢٢ جمادى الأولى سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م، وعمل على إبعاد سلاطين آل راشد منها، وخاصة سلطانها عبدالله بن راشد، ثم سار بقواته إلى شبام ودوعن وسيطر عليها[3].

وقد عمل ابن مهدي بعد سيطرته على المدينة وطرد عبدالباقي بن فارس منها، على إعادة سلاطين آل اقبال السابقين ليكونوا حكامًا عليها، فقام بتعيين السلطان عبدالرحمن بن راشد بن إقبال حاكمًا[4] ونائبًا للأيوبيين. وتذهب بعض المراجع إلى أنَّ من عَيَّنَهُ ابنُ مهدي هو والد عبدالرحمن (راشد بن إقبال)[5]، ليظل آل اقبال بعدها موالين للأيوبيين، ومن بعدهم ورثتُهم الرسوليون.

أمَّا ابن مهدي، بحسب عدد من المؤرخين، فإنَّ قبيلة (نهد) الحضرمية هي التي تمكنت من قتله وهزيمة قواته ودحرها من حضرموت، وكان هذا سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م[6].

---

١ باوزير، سعيد عوض، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١١٢، والعلوي، محمد بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٤-٥). وورد الاسم عند المؤرخ شنبل (أحمد بن سلام بن بقلان). ينظر: ص٧٨.

٢ شنبل، تاريخ حضرموت ص٧٨.

٣ البكري، في جنوب الجزيرة، ص١٢١. وللمزيد عن حملة ابن مهدي ينظر: الكاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا ص٥١.

٤ في هامش تاريخ شنبل بتحقيق الحبشي ص٧٤ (نقلًا عن تاريخ حضرموت لباحنان) أن من عينه ابن مهدي بدلًا من (عبدالباقي بن فارس بن محفوظ بن فارس بن إقبال) هو (راشد بن إقبال) وليس (عبدالرحمن بن راشد بن إقبال).

٥ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٦ أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ١٨٠).

وهذا الانتصار المهيب لقبيلة (نهد) قد حفزها للسعي في السيطرة على حضرموت كلها، لتدخل هذه القبيلة في حروب مستمرة وصراعات دامية مع القبائل والعشائر الحضرمية الأخرى المنافسة.

وقد استطاع (مسعود بن يماني الظني) بسط نفوذه على معظم الرقعة الحضرمية في الداخل، وحاول التمدد إلى الساحل الحضرمي، والسيطرة على مدينة الشحر سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م[١]، وطرْدَ سلاطين آل إقبال منها، ويبدو أنَّه قد تم له ذلك، ولكن مؤقتًا، إذ تروي بعض المصادر والمراجع عن حملةٍ قادها لاحقًا الأمير الرسولي علاء الدين سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م بعد أن استنجد آل راشد بالرسوليين[٢]، ويظهر أنَّ هذه الحملة أعادت سلاطين آل إقبال لحكم الشحر مجددًا.

---

١ الكاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا ص٥٤.

٢ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الشحر في عهد الدولة الرسولية

من المعلوم أنَّ ورثة الأيوبيين على اليمن هم الرسوليُّون[1] الذين كوَّنوا في اليمن وما يجاورها دولةً قويةً مزدهرةً استمرت قرابة القرنين وربع القرن من الزمان (٦٢٦-٨٥٨هـ/ ١٢٢٨-١٤٥٤م)، وقد اتخذوا من مدينة تعز عاصمةً لهم ومركزًا للهيمنة والسيطرة على المناطق المختلفة، وامتدَّ نفوذهم في مُدَدٍ من تاريخ دولتهم إلى حضرموت، وجاوزوها إلى ظفار عُمان، فضلًا عن بلوغهم الحجاز.

لقد استطاعت الدولة الرسولية في بعض مراحلها أنْ تبسط نفوذها المطلق على حضرموت عامَّة، وأن تُخضع كل السلطنات الحضرمية لسلطتها، وكانت تارةً تجعل من سلاطين الدويلات الحضرمية أمراء تابعين لها يحكمون باسمها ويدفعون لها الضرائب، وتارةً أخرى تُعيِّنُ الأمراءَ والولاةَ والقضاةَ مِنْ قِبَلِها، من غير الحضارم.

وبما أنَّ هذه الدولة اشتهرت باهتمامها الكبير بالجوانب الحضارية والعمرانية، لدرجة أنْ عُدَّت عصورُها عند بعض المؤرخين من أزهى العصور التي مرت بها اليمن عامة؛ فلا عجب أن نجد لدى هذه الدولة اهتمامًا كبيرًا بحضرموت وبمدينة الشحر على وجه الخصوص، لما للشحر من أهمية اقتصادية كبرى بحكم نشاطها البحري

١ ينظر الفيفي، محمد يحيى، الدولة الرسولية في اليمن، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م. ص٢٩. وكان خروج الأيوبيين من اليمن سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م، بمغادرة الملك المسعود آخر ملوكهم وتعيين علي بن محمد بن هارون واليًا على مكة، وتعيين ابنه نور الدين عمر بن علي بن رسول حاكمًا على اليمن عامة، وبوفاة الملك المسعود سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م تقريبًا بمصر أعلن نور الدين عمر استقلاله باليمن ونواحيها، ولقب بـ(المنصور). الموسوعة اليمنية (١/ ١٧٣)، والفيفي، الدولة الرسولية في اليمن، مرجع سابق ص٤١.

والتجاري الواسع، الذي أسهم في رفد خزائن تلك الدولة بمبالغ طائلة[1]، حتى إنَّ بعض ملوك الرسوليين اقتطع المدينة لأبنائهم، وأخضعها لإدارتهم المباشرة، وهو الملك المظفَّر الرسولي (ثاني ملوك هذه الدولة)، الذي اقتطع الشحر لابنه الملك المؤيد داؤد (رابع ملوك الدولة)، ليتديرها، وقد غادرها هذا الأخير مضطرًّا بعد أشهر، وخلَّفَ نُوَّابًا له عليها.

وبالرغم من اهتمام الرسوليين بالعمران، لم يسجل التاريخ لهم أيَّ منجزات حضارية أو عمرانية بالشحر، تضاهي ما أقاموه في مناطقهم الرئيسة، باستثناء قلعة حملت اسمهم لم يُعرف موقعها في مدينة الشحر.

السلطان عبدالرحمن بن راشد بن إقبال:

هو السلطان أبو محمد عبدُالرحمن بن راشد بن إقبال بن فارس بن محفوظ بن محرم بن فارس[2]، من أعظم سلاطين الشحر وأنبلهم، وصفه الجندي فقال: ((أحد ملوك

١ للاستزادة ينظر كتاب ارتفاع الدولة المؤيدية (جباية بلاد اليمن في عهد السلطان المؤيد داؤد بن يوسف) تحقيق محمد عبدالرحيم جازم، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء، ٢٠٠٨م ص١٢٨.

٢ باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ ص١٤٨. وعند بامطرف (عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن بن راشد). ينظر: المختصرص٨٧. وفي إدام القوت ص١٦٧ (عبدالرحمن بن راشد بن إقبال بن فارس (الأصغر) بن محفوظ بن راشد بن إقبال بن فارس (الأكبر). وقد اضطرب بامطرف في نسب هذا السلطان بين آل راشد(قحطان) وآل فارس(إقبال)، ورجح الأول. ينظر: المختصر في تاريخ حضرموت العام، ص٨٦. ونحن نرجح الثاني. ونشير إلى أن هناك سلطانين حملا اسم (عبدالرحمن بن راشد)، أحدهما صاحبنا هذا (ت ٦٦٤هـ)، والآخر تالٍ له، وله صولات وجولات في الأحداث اللاحقة. ينظر: شنبل، تاريخ حضرموت، ضمن حوادث سنة ٦٩١هـ، ص١٠٧.

العرب دهاءً وكرمًا وشجاعةً، وكان يخالط العلماء ويُحبُّ الفضلاء، وكان يُقالُ له: حاتم زمانه؛ لكثرة كرمه))[1].

وقبل تولي هذ السلطان، تمكن سلاطين آل راشد من انتزاع المدينة من أسرته، وعيَّنوا حكامًا لهم عليها، وكان آخرهم كما أشرنا هو عبدالباقي بن فارس، الذي أخرجهُ ابنُ مهدي من المدينة سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، وولَّى مكانَهُ السلطانَ عبدالرحمن بن راشد بن إقبال، أو والدَهُ راشد بن إقبال، كما في روايات أخرى، ومما يرجح هذا أنَّ المؤرخ عبدالرحمن السقاف ذكر أنَّ السلطان عبدالرحمن بن راشد حَكَمَ في المدة ما بين (٦٢١-٦٦٤هـ/ ١٢٢٤-١٢٦٥م)[2].

وظلَّ السلطان عبدالرحمن حاكمًا على مدينة الشحر قرابة خمسة وأربعين عامًا، انتعشت خلالها البلاد، وتيسرت فيها أحوال العباد، وعَمِلَ مُدَّةَ حكمه على خلق علاقات طيبة مع الأيوبيين والرسوليين مِنْ بعدهم، بإعلانه الولاء لهم، واكتفى الرسوليون في بداية أمرهم بالخراج الذي يُدفَعُ لهم سنويًّا من عائدات المدينة[3] أسوةً بسابقيهم (الأيوبيين)، ثم ما لبثوا بعد وفاته وتقلُّدِ ابن أخيه السلطنة أن حكموا المدينة حكمًا مباشرًا؛ لأسباب سنأتي لذكرها.

لقد حاول هذا السلطان خلال توليه حكم البلاد، احتواءَ أبناء عمومته وضمهم إليه، وخاصة سلاطين آل راشد وآل الدغار، بعد أن شردتهم الصراعات، وفي هذا دليل

---

١ الجندي، الكندي، محمد بن يوسف، السلوك في طبقات العلماء والملوك (٢/ ٤٦٥).

٢ السقاف، عبدالرحمن، إدام القوت ص١٦٧.

٣ نفى سالم مفلح أن يكون آل اقبال يدفعون شيئًا للرسوليين في بداية عهدهم، وما دُفِعَت تلك الإتاوات كما يرى إلا بعد سيطرة الرسوليين المباشرة على الشحر وظفار سنة ٦٧٨هـ. ينظر: حضرموت بين القرنين، ص٢٨٤.

لمن يقول بوجود قرابة ما تربطهم، وقد جاء هذا الاحتواء بعد أن تأكد للجميع أنَّ سلطناتهم السابقة التي طالما تنازعوا عليها، آيلةٌ للزوال، هذا إن لم نقل إنَّها قد زالت تمامًا، وإنَّه لم تعُد بأيديهم فعليًّا غيرُ مدينة الشحر، التي باتت أيضًا مهددةً بالزوال بسبب الدويلات الحضرمية الناشئة، وهجوم القبائل عليها، فما كان من الجميع إلا الانضواء تحت لواء هذا السلطان ورايته.

وعندما آل للرسوليين حكمُ اليمن بعد الأيوبيين، قام الملك الرسولي المنصور نور الدين عمر (ت:٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) بعد توليه السلطة مباشرة، بعزل السلطان عبدالرحمن بن راشد عن إمارة الشحر، وعَيَّن مكانَه أحدَ مواليه من الغُزِّ يُدعى (أرتق)، ونقيبًا آخر يُدعى (الأصبحي)، إلا أن فساد هذين وتنازعهما على خيرات البلاد أدَّى إلى تدهور الأوضاع في المدينة، وكادت تندلع ثورة شعبية عليهم[1]، ممَّا دفع الملك الرسولي إلى الإسراع بإبعادهم، واستدعاء السلطان عبدالرحمن بن راشد لإدارة شؤون البلاد مرة أخرى، مقابل أن يدفع لهم خراجهم السنوي المعتاد، ويُضاف إليه كميات كبيرة من العنبر الشحري[2] الذي اشتهرت به المنطقة.

وهكذا أعيدت السلطة في الشحر للسلطان عبدالرحمن بن راشد، ونعمت المدينة في عهده بالأمن والاستقرار والرخاء، وانتعشت التجارة، وتحركت الأسواق، وتوافد إلى المدينة الفقهاء والأدباء والشعراء والتجار وطلاب العلم، ممَّا أحدث نهضةً علميةً

١ للاستزادة ينظر: الجندي، السلوك (٢/ ٤٦٧).

٢ ذكر بامطرف أن النواب المحليين على الشحر في عهد الصليحيين ومَنْ بعدهم ((كانوا يدفعون كل عام إتاوات من الذهب والعنبر الأصلي، يقدرها البعض بمائتين وخمسين رطلًا من الذهب، وعشرين رطلًا من العنبر)). الشهداء السبعة، ص٢٣.

صاحبتها نهضةٌ عمرانيةٌ جعلت البلاد تتسع مساحتها ويزداد تعداد سكانها، كما انتعشت حركة الميناء بسبب زيادة أعداد السفن التجارية القادمة من شتى البلدان، وهذا الانتعاش ترك أثره في حاكم المدينة الذي ازداد غناه ونَمَت ثروته، وقد أنفق هذا السلطان أموالًا طائلة في شراء المدن والأراضي، فكان أن تملك حضرموت عامة شراءً سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م، إلا أنَّها خرجت عنه بعد ثلاث سنوات من شرائها[١].

وقد ظل السلطان عبدالرحمن حاكمًا على المدينة، حتى حكم الملك المظفر الرسولي سنة (٦٤٩هـ/ ١٢٤٩م)، والذي أقره حاكمًا على البلاد[٢]، واستمر عبدالرحمن في حكمه إلى أن توفي سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م، ودُفِنَ بالشحر[٣]، وقام بالأمر بعده ابنُ اخيه أبو الفتح راشد بن شجعنة بن عبد الباقي بن راشد بن إقبال[٤]، ولم تطل ولايته، إذ حالف هذا الأميرُ سلطانَ ظفار سالم بن إدريس الحبوضي، فكانت نهايته في زنازين الرسوليين، وذكر مصادر أخرى أنَّه خرج من السجن، وكانت وفاته في زبيد[٥].

---

١ الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ١٧٦). وفي إدام القوت (ص١٦٧) أن هذا السلطان اشترى كل حضرموت سنة ٦٣٦هـ واستمرت تحت يده ثلاث سنوات، حتى انتزعها منه ابنُ شماخ.

٢ تروي بعض المؤلفات أن هذا السلطان أهدى للملك المظفر قطعة عنبر تشبه الفيل في العِظَم، والمسكَ في الرائحة. وينظر ما قيل في كرمه من قصائد في: الجندي، السلوك (٢/ ٤٦٧).

٣ دفن بين تربة الشيخ سعد الظفاري وتربة عمرو وقبره مشهور بها. السقاف، إدام القوت ص١٦٦، وبامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت العام،ص٨٧، والبكري، صلاح، في جنوب الجزيرة العربية، ص١٢٢.

٤ تنظر ترجمته في: بامخرمة، قلادة النحر (٥/ ٣٧٩). وعند البكري ورد الاسم هكذا: (راشد بن شجعنة بن ناجي بن راشد بن إقبال). ينظر: في جنوب الجزيرة العربية ص١٢٢. وأشار السقاف إلى أن راشد بن شجعنة هذا هو أخو السلطان عبدالرحمن بن راشد، وليس ابنَ أخيه. إدام القوت ص١٦٧. ولا ندري من أين جاء السقاف بهذا القول، إلا أن نقول غاب عن ذهنه اسم الاثنين.

٥ قلادة النحر (٥/ ٣٨٠).

ونورد ههنا مقتطفات من أبيات للشاعر أبي حنيفة العدني[1] الذي فارق موطنه (عدن) ليقيم تحت رعاية السلطان عبدالرحمن بن راشد، وقد أشار المؤرخون إلى أنَّ معظم قصائد هذا الشاعر كانت مدحًا في السلطان المذكور، وهي على لون (البال بال):

أنا أشهد شهادة حق   أن ابن راشد من إحدى المعجزات
هيكل الملك حرز المملكة   فارس الخيل معدوم الصفات
تعبت عيس وفادهِ وما   أتعبته العطايا والهبات.

ويقول في قصيدة أخرى (بعد ضبط مفرداتها وتصحيح ما بها من التصحيف):

عنفوني وقالوا أطلت التغرب   وأوحشت الوطن
وتبدلت عن صيرة بضبضب   واعتضت الأسعاء عن عدن
وبسمعون والسرحة تناسيت   حقات والخان الحسن

ويقول أيضًا:

ورضيت ابن راشد عبدالرحمن   عن كل من هو في اليمن
من حباني وأدناني وقرَّب   مكاني وبي ماطن طن
واصطفاني وأطلعني على   كل مضنون سره والعلن.

ويقول أيضًا:

أنت في البر وهاب القرى   أنت في البحر وهاب الفلوك
إن مدح بالكرم معطي المائة   فبمَ يمتدح معطي اللكوك
كل ملاك قحطان الورى   بكفالة بيتهم كفلوك.

---

١ للمزيد عنه ينظر: الجندي، السلوك (٢/ ٤٦٥)، وبامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت ص٨٦.

استيلاء الرسوليين على الشحر وظفار ومقتل الحبوضي

في المدة التي كان فيها الملك المظفر (٦٤٧-٦٩٤هـ/ ١٢٤٩-١٢٩٥م) حاكمًا على اليمن كان على مدينة الشحر السلطان الثري عبدالرحمن بن راشد، وبوفاته سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م تولى ابن أخيه راشد بن شجعنة حُكمَ المدينة، وابن شجعنة هذا كان في بداية أمره كعمه عبدالرحمن يدين بالولاء والطاعة للرسوليين، إلى أن تمرد عليهم بإيعاز من الحبوضي سلطان ظفار، ففي النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) كان حاكم ظفار هو السلطان سالم بن إدريس الحبوضي (ت: ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م)[1] الذي لم يخضع لآل رسول كحُكَّام الشحر، وظلَّ متمتعًا باستقلاليته، إلى أن قُتِلَ على أيدي الرسوليين، وضُمَّت بلاده إلى ملكهم.

والحبوضي كان كما نراه صاحبَ إقدام وتهوُّر وطموح، إذ حاول التمدد في حضرموت بالقوة تارةً معتمدًا على القوَّة الكثيريَّة التي جنَّدها وأحضرها معه[2] ، وبالمال تارةً أخرى مستغلًّا حاجة الناس لأمواله التي جبى معظمها من التجارة، وعَمِلَ على شراء ولاءات القبائل و شراء مدن وقرى وقلاع وأراضٍ في حضرموت، واستفاد في بسط

---

١ تنظر ترجمته في: بامخرمة، قلادة النحر (٥/ ٣٦٨). و(الحبوضي) تُكتَب عند كثيرين بالظاء (الحبوظي). ويرى بعضهم أنَّها بالضاد نسبة إلى قرية (حبوضة) من قرى منطقة السرير بوادي حضرموت. ينظر: حداد، عبدالله صالح، (حبوضة وشرمة ودمخ حساي) مجلة العرب العدد ٧-٨ السنة ٣٢ ، ٩٦-١٩٩٧م ص٥٥٧.

٢ بن هاشم، محمد، تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٩).

نفوذه على حضرموت من حالة الفوضى والاضطرابات الأمنية بين القبائل الحضرمية، واستغل أيضًا المجاعة التي أصابت مناطق الوادي سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م[١].

والحبوضي في توسعاته تلك حاول التمدد إلى الشحر، إلا أنَّه فشل[٢]، فما كان منه إلا أن حاول استمالة أميرها راشد بن شجعنة، وتحريضه على خلع طاعة آل رسول والتحالف معه، ولعل لاتحاد مذهبهما (على احتمال أنهما إباضيَّان)[٣] أثرًا في ذلك التقارب الذي جاء لمصلحة الحبوضي على حساب الرسوليين سنيي المذهب.

وأعلن ابنُ شجعنه تمرده على الرسوليين، وطرد حاميتهم من المدينة، وقطع كل ما كان يُرسَل إلى خزائنهم من ضرائب وجبايات.

إن السياسة التي اتبعها الحبوضي هي التي جرَّت حرب الرسوليين عليه[٤]، بل وأضرت بإمارة الشحر نفسها، فلم تعد كما كانت يحكمها سلاطينها مباشرة في ظل آل رسول،

١ الخزرجي، العقود اللؤلؤية (١/ ١٨١)، وباوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١٢٠.

٢ الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ١٨٢).

٣ يؤكد سالم مفلح انتماء آل إقبال والحبوضي للفكر الاعتزالي، بل وقارب بينهما سلاليًّا. ينظر: حضرموت بين القرنين ص٢٥٤.

٤ قامت سياسة الحبوضي على ممارسات خاطئة منها:

أولاً: تبديده لثروته الطائلة في شراء المدن والحصون والقلاع الحضرمية البعيدة عن نطاق سيطرته أصلًا، دون أن يملك القوة الكافية لحمايتها، أو حتى كسب ولاء الناس الساكنين فيها، إذ جعل من أخيه (الغريب عن حضرموت أصلًا) مديرًا لشؤون تلك المناطق، كما استعان بقبائل آل كثير لحماية أملاكه، غافلًا عن همة آل كثير وطموحهم إلى السيطرة والحكم، كما لم يستفد مما فعله قبله السلطان عبدالرحمن بن راشد في شراء المدن وضياعها منه، مع أن السلطان عبدالرحمن صاحب الأرض. ويبدو أن الحبوضي لما تبين له عدم مقدرته على صيانة أملاكه في حضرموت جعل أكثرها صدقه جارية له، في محاولة منه لحفظ ماء الوجه.=

مع مراعاة مصالح الطرفين وحفظها، بل آلت السلطة السياسية والإدارية في الشحر إلى سلاطين آل رسول أنفسهم، يتحكمون في إدارتها مباشرة.

إن استفزاز الحبوضي للرسوليين وتمرد ابن شجعنة عليهم، دفع بالملك الرسولي (المظفر) لأن يرسل أولًا قوة عسكرية متمرسة على كل فنون القتال بقيادة أمير من الغز يدعى (بندقار)[1]، وقد استطاعت هذه القوة بكل يسر وسهولة اقتحام أسوار المدينة وإعادة تموضعها، كما تمكنت من دحر السلطان راشد بن شجعنة الذي ولّى هاربًا حال قدوم طلائعها إلى منطقة (حصوين) بالمشقاص، تاركًا المدينة عرضة للنهب والسلب، وكان هذا سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م.

=ثانيًا: استعماله القوة العسكرية في أخذ بعض المدن والقرى التي استعصى عليه شراؤها، ممَّا أثار حفيظة الحضارم، وأصبحوا ينظرون إليه كنظرتهم إلى من سبقه من الغزاة.

ثالثًا: تحرشه بالدولة الرسولية وتعمد معاداتها من خلال نهب سفرائها الذاهبين إلى بلاد فارس، والتخاطب معهم بلغة استفزازية، وتهديده لميناء الشحر وتحريض سلاطينها على نزع طاعة الرسوليين وقطع ما يصل إليهم من إمدادات، والشروع في تجهيز أسطول حربي بغية السيطرة على عدن ومهاجمة الرسوليين في معاقلهم، دون أن يحسب حساب عيون الرسوليين المتيقظة.

رابعًا: تنفيذ ما شرع في فعله من غزو الرسوليين في معاقلهم، إذ بلغت سفنه إلى عدن، وفشلت في تحقيق أهدافها، وهي خطوة متهورة وغير مدروسة، قادته في النهاية لحتفه، وأوقعت بلاده في أيدي الرسوليين. للتفصيل ينظر: الخزرجي، علي بن الحسن، العقود اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية (١/ ١٨١)، وباوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١١٨، والشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ١٨١).

١ الجندي، السلوك في طبقات العلماء والملوك (٢/ ٤٦٨). وعند عبدالنور (سريدار). ينظر: الحياة العلمية في حضرموت ص٣٨.

ولاحقًا حاول راشد بن شجعنة استعادة المدينة بمساعدة الحبوضي، إلا أنه فشل، وطاردته قوات الرسوليين إلى مخابئه في المشقاص، فما كان منه إلا أن فرَّ لاجئًا إلى بلاد حليفه الحبوضي ظفار.

وبتزايد استفزازات الحبوضي وتماديه في إهانة الدولة الرسولية، أرسل الملك الرسولي (المظفر) حملة عسكرية كبيرة، يتضح من عدتها وعتادها أنَّها لم تكن مجرد حملة تأديبية، وإنَّما لها أهداف ومطامح أكبر طالما تاق الرسوليون إليها، ألا وهي بسط نفوذهم الكامل والمباشر على سواحل حضرموت (الشحر) وظفار، وها هي الفرصة قد سنحت، بعد أن قدَّمها لهم الحبوضي على طبق من ذهب.

لقد سيَّر الملك الرسولي في آن واحد ثلاثة جيوش بكامل عتادها، يقودها عدد من كبار قواده[1]، أحد هذه الجيوش انطلق للسيطرة على حضرموت الوادي، وليواصل بعدها المسير إلى ظفار، والجيش الآخر سار بطريق البر بمحاذاة الساحل، لينضم إلى الحامية الرسولية المتمركزة في مدينة الشحر، أمَّا الجيش الثالث فكان مسيره عبر البحر، بعد أن شحن الرسوليون عشرات الشواني[2] والمراكب بالمقاتلين وبالمؤن والمعدات التي ستحتاج إليها هذه الجيوش، وكان مسير هذه الحملة سنة ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م[3].

وقد استطاعت القوة التي اتجهت إلى حضرموت الوادي بسط نفوذها عليه بسهولة، لا سيما أنَّ مقاومة بعض القبائل كانت ضعيفة على أرجح الاقوال، كما أنَّ في حضرموت

١ لتفاصيل هذه الحملة ينظر: الخزرجي، العقود اللؤلؤية (١/ ١٨٢).

٢ الشواني: من أنواع السفن المعروفة في تلك المدة، وهي مختصة بنقل الجنود والعتاد.

٣ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١٢١، وبن هاشم، محمد، تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ١٠).

قبائل موالية للرسوليين كقبيلة (نهد)[1] كان لها أثر واضح في تمكن القوة الرسولية من السيطرة بسهولة على مدينة الهجرين، لتسلم إلى حليفهم ابن شماخ النهدي[2]، ولتتبعها في السقوط بقية المناطق الحضرمية.

وهكذا ما كادت تلك الجيوش تبلغ ظفار حتى خاضت معارك وحروبًا طاحنةً مع القوات الحبوضية، وتمكنت في النهاية من القضاء على جيش الحبوضي[3]، بل تمكنت من قتل السلطان سالم بن إدريس الحبوضي نفسِهِ، وأَسْرِ أفراد أسرته كافَّة، وأُسِرَ أيضًا الأميرُ الفارُّ راشد بن شجعنة، وأُخِذَ الجميع إلى البلاط الرسولي. وقد توفي ابن شجعنة في سجون الرسوليين بعد مدة من اعتقاله، وتذكر مصادر أخرى أنَّه أُطلِقَ سراحه، وكانت وفاته بزبيد. وهكذا ضُمَّتْ سلطنة ظفار إلى الدولة الرسولية، وكان هذا سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م.

وبسقوط حضرموت وظفار في أيدي الرسوليين، ولَّى الرسوليون على حضرموت أحد قادة حملتهم الكبار، وهو الأمير محمد بن محمد بن ناجي[4]. ومن يومها بدأت الإدارة الرسولية المباشرة للمنطقة سياسيًّا وإداريًّا، دون أن يكون للأمراء المحليين أي سلطة أو أثر فعلي، بل يعين الرسوليون أحيانًا حكامًا من غير الحضارمة، بل يلاحظ أن المدينة في بعض

١ ذكر الخزرجي أنه لم يوجد في حضرموت مناصرٌ للرسوليين غير ابن شماخ النهدي، وعمر بن علي بن مسعود، وحتى هؤلاء، كما قال، فيهم ميل للحبوضي. ينظر: العقود اللؤلؤية (١/ ١٨٣).

٢ باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١٢٤.

٣ ذُكِرَ أنَّ قوةً قَدِمَتْ من البحرين لمساعد الحبوضي في حربه تلك. العقود اللؤلؤية (١/ ١٨٤). ولا ندري ما دافع البحرين لنصرة الحبوضي، أهو التحالف معه، أم وجود تقارب ما؟ لا سيما أن عمان القريبة منه لم تساعده، وكان سلطانها أول من هنأ الرسوليين بالنصر، وأهدى لقائد الحملة فرسين ورمحين، أما صاحب البحرين فقد ذهب بنفسه لملاقاة الملك المظفر والاعتذار إليه. ينظر: العقود اللؤلؤية (١/ ١٨٥).

٤ باوزير، صفحات، ص١٢٤.

الأحيان تُترَك من دون حاكم يسوسها، إلى أن يفطن لها الرسوليون، فيبعثوا لها من قبلهم فقيهًا أو قاضيًا أو ناظرًا يتولى شؤونها وإدارتها. وهذا يعني مرور الرسوليين بأوقات عصيبة، جعلتهم يهملون هذه المنطقة، وربما تناسوها مُدَّةً، أو تعمدوا نسيانها وتدميرها.

وبإحكام الرسوليين سيطرتهم على ظفار والشحر، أرسل الملكُ المظفرُ الشيخَ أبا الخطاب عمرَ بن محمد الكنانيَّ الملقَّب بـ(البهاء)، عاملًا على الديوان الملكي في الشحر، وكانت له سيرة متأرجحة بين الشدة والضعف، ولا ندري تحديدًا متى كان قدومه، إلا أنَّهُ توفي في الشحر سنة ٦٩٥هـ/ حوالي ١٢٩٦م[١]، أي إن وفاته كانت بعد مغادرة الأمير المؤيد داؤد بن يوسف.

ففي نهاية حكم الملك المظفر يوسف بن عمر أرسَل ابنَه الأمير المؤيَّد داؤد بن يوسف ليتدير أمور الشحر، وكان هذا سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م، ورافقت المؤيَّد إلى المدينة عمته الشهيرة بـ(الدار الشمسي)، وهي من أخيار النساء حازمة عفيفة، لها الكثير من المآثر وخاصة في بلدها اليمن[٢]، ولم تطل مدة إقامتها في المدينة، إذ قُتِلَ الملك المظفر في تلك السنة نفسها، واستولى على الحكم بعده ابنُه الملك الأشرف الأوَّل عمر بن يوسف (ت٦٩٦ هـ/ ١٢٩٦م)، ممَّا دفع المؤيَّدَ إلى مغادرة الشحر مسرعًا للمطالبة بمُلك أبيه؛ إذ يرى أنَّهُ هو الأحقُّ بالمُلك والأجدرُ به من أخيه.

---

١ الجندي، السلوك (٢/ ٥٦٩)، وتنظر ترجمته عند بامخرمة، قلادة النحر (٥/ ٣٢٨)، وفيها أنه توفي سنة ٦٦٩هـ. وفي طبقات الخواص للشرجي ص٢٣٦، ترجمة لأبي الخطاب عمر بن محمد بن رشيد الكناني (لعله هذا)، ذكر أن أصله من حضرموت، وتوفي سنة ٦٦٥هـ، ودفن بزبيد.

٢ للمزيد عن الدار الشمسي، ينظر الجندي، السلوك في طبقات العلماء والملوك (٢/ ٤١)، والموسوعة اليمنية، والخزرجي، العقود اللؤلؤية (٢/ ٢٤٥-٢٤٦)، وذكر شنبل ص١٠٨ أن قدومهم الشحر كان سنة ٦٩٤هـ.

وكان من نُوَّاب الرسوليين على الشحر في تلك المدَّة النائبُ ابنُ فيض (قيصر) الذي خَلَفَ (البندقار) المذكور آنفًا، واستولى على وادي (عرف) سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م[١].

وفي السنوات اللاحقة ظلت تتجاذب المدينة مختلف القوى المحلية التي تستقل بالأمر كلما لاح لها ضعفٌ للرسوليين وانشغالهم عن المدينة، وأحيانًا تظهر الولاء الاسمي لآل الرسول، وتدفع الجبايات لهم، ومثل هذه التبعية ظلت مستمرة حتى مع تنامي ضعف آل رسول نتيجة لنزاعاتهم المستمرة على السلطة فيما بينهم من جهة، وبسبب مشاكلهم وحروبهم مع زيود اليمن من جهة أخرى.

وقد سبق أن تطرقنا لقدوم الأمير الرسولي المظفر بن الملك المجاهد إلى حضرموت والشحر في عهد أخيه الملك الأفضل عباس، وكان ذلك سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م[٢] بغرض استتباب الأمن فيها وإصلاح ما أفسده عمالهم وجنودهم وعودته في السنة التي تلتها، وكان القائم من قبل الرسوليين على الشحر في أثناء قدومه هو الأمير داؤد بن خليل الهكاري، ومعه صارم الدين داؤد بن موسى بن حناجر[٣]، وعدد من المماليك. وننبِّه هنا على أنَّ هذا الامير (المظفر) وُصِفَ في بعض المراجع كأخيه الافضل بـ(الملك)،

---

١ عبدالنور، الأوضاع العلمية في حضرموت، ص٣٩.

٢ العقود اللؤلؤية (٢/ ١١٧). وفي تاريخ شنبل ص١٣٢ أن ذلك كان سنة ٧٦٧هـ.

٣ تسميه بعض المصادر والمراجع بابن حباجر، وتارة بابن حناجر. والصحيح ما أثبتناه. وورد في مؤلف مجهول بعنوان ... تحقيق عبدالله الحبشي: ((خروج العسكر المنصور إلى ناحية الشحر والمقدم ابن حناجر وركبوا بحر عدن وذلك في اليوم ٦ من شهر شوال سنة ٧٦٨هـ)). وفي فقرة بعدها ((انهزم مولانا الملك المظفر وابن يماني من الشحر المحروس وذلك في اليوم ٧ من شهر جمادى الأولى من سنة ٧٦٩هـ)) ينظر ص٦٨. وفي العقود اللؤلؤية (٢/ ١١٧) أن هزيمتهم في سنة ٧٦٨هـ. وينظر الخبر في الشامل ص١١٢.

مما أوقع لبسًا لدى بعضهم فعدَّه ملكًا[1]، والتبس الأمر على آخرين فخلطوا بين هذا الأمير الذي قدم للشحر، وبين جده المظفر يوسف بن عمر الذي لم يزرها. وقد بيَّنا ذلك في الحديث عن نشأة المدينة.

وكان بصحبة الأمير المظفر في مقدمه للمدينة محمدُ بن أحمد بن يماني. وقد ذكرت بعض المراجع أنَّ صاحب الشحر صدَّهم عن المدينة دون أن تسمِّيه[2]، وأنَّهما اتجها معًا بعدها إلى منطقة وادي عرف لإخضاعها، ثم ارتحلا إلى تريم[3].

إنَّ مثل هذا التضارب واللبس في الروايات يجعلنا نفترض إمَّا أنَّ المظفر أراد أن يسيطر على المدينة وينفرد بها، ثم يسيطر على مناطق حضرموت الأخرى، فتصدى له عاملُ أخيه على المدينة ابنُ حناجر، وإمَّا أنَّ أحدًا ما سيطر على المدينة وانتزعها منهم ومنع هذه القوة الرسولية من السيطرة عليها. وكلا الاحتمالين وارد، ولكن الثابت أنَّه بعد هذه المدَّة بقليل أصبح أحد عمال بني رسول حاكمًا على المدينة، وفي هذا التاريخ بالذات (نهاية القرن الثامن الهجري) بدأ يبزغ نجم الإمارة الشحرية القادمة وهي إمارة آل أبي دجانة، التي سنتناولها في الصفحات الآتية.

١ ينظر: شنبل، ص١٣٢، وعبدالنور، الحياة العلمية في حضرموت ص٣٩.

٢ العقود اللؤلؤية (٢/ ١١٧).

٣ شنبل، تاريخ حضرموت ص١٣١، والشامل ص١١٢.

الحركة العلمية بالمدينة في تلك المدّة
(القضاة والفقهاء والمتصوفة)

ما كاد الأيوبيون يغادرون حضرموت حتى عادت مدينة الشحر مجددًا لأحضان حكامها السابقين آل إقبال، وعادت معها صراعات الأسر والقبائل الحضرمية الأخرى للسيطرة على المدينة، وما تكاد تسقط المدينة في يد قوة محلية جديدة حتى يستردها آلُ اقبال لتعود لها عافيتها مجددًا، وهذا الأمر سهَّلَ على الدولة الرسولية الاستحواذ على حضرموت عامة وكل ما كان في أيدي الأيوبيين.

وفي هذه الحقبة بالذات (القرنين السادس والسابع الهجريين) برز في المنطقة الكثير من الفقهاء ورجال التصوف ذائعي الصيت ممن كانوا قِبْلَةً لطلاب العلم، كما برزت المراكز العلمية وانتشرت في عموم مناطق حضرموت[1]. وفي هذين القرنين (السادس والسابع الهجريين) أصبحت مدينة تريم معقلًا للمعلمين والمتعلمين الوافدين إليها من كل مكان، ومن الواضح أنَّ الريادة لمدينة تريم ولفقهائها وعلمائها آنذاك اقتصرت على الجوانب النظرية في تحصيل العلوم والمعارف، ولم يستميلهم فقههم للخوض في غمار القضايا السياسية أو المصيرية للبلاد، إذ كان الجهد الأكبر لأولئك الفقهاء والعلماء منصبًّا فقط على تحصيل العلوم، وهو نفس ما انتهجته تيارات التصوف التي كانت حينها في بدايات نشأتها الأولى، من عزوفٍ عن الدنيا وقضاياها.

١ للمزيد ينظر: عبدالنور محمد يسلم، الحياة العلمية في حضرموت في القرنين (٧-٨هـ).

وفي تلك المدة أصبحت مدينة الشحر مركزًا علميًّا يفد إليها المعلمون والمتعلمون على حد سواء، وكان هذا نتيجة لتوفر البيئة الملائمة لطلب العلم(1).

قدوم الشيخ سعد الدين الظفاري:

في تلك الحقبة التاريخية وفد إلى مدينة الشحر قادمًا من ظفار أحدُ أعلامها الأجلاء، ذوي الأثر المحمود والفعل المشهود، وهو الإمام سعد الدين محمد بن علي الظفاري (ت: ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م)(2) الملقب بـ(تاج العارفين)، وبنى بالشحر مسجده الشهير الذي حمل اسمه بحارة المجرف سنة ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦م(3)، وقد جعل من مسجده هذا منارةً لتلقي العلم والمعرفة، ويُعدُّ هذا الشيخ من أعلام التصوف الحضرمي ورُوَّاده، وكانت وفاته سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م، وتروي بعض المراجع أنَّ موكب جنازته المهيب تعرض للاضطراب على يد الجنود (الغز) المسيطرين على المدينة آنذاك(4). ويلاحظ أن طريقة الشيخ سعد في التصوف على الرغم من قِدَمِها وجهلنا بتفاصيلها، لم تلاقِ ذيوعًا أو انتشارًا كبيرًا، ولم يكن لها أتباع ومريدون في مدينة الشحر، ولعلَّ لاختلاف طرق

١ عبدالنور، الحياة العلمية، ص٤٤ و٥٥.

٢ للمزيد عن ترجمته ينظر: السقاف، إدام القوت، ص٢٠٣. (وفيه توفي سنة ٦٠٩هـ)، وبامخرمة، قلادة النحر (٥/ ٣٤)، وباحسن، عبدالله بن محمد، دراسة وتحقيق، محمد يسلم عبدالنور، ص٣٤٧، وباعكيم، عادل حاج، أريج الياسمين في ترجمة تاج العارفين، الشيخ سعد الدين بن علي الظفاري، مطبعة وحدين الحديثة للأوفست، ط١، ٢٠١٦م. ويلاحظ أن عبدالله الحبشي يذكر أن الشيخ (محمد بن علي باعلوي) الشهير بالفقيه المقدم هو من نشر التصوف في حضرموت. ينظر: الصوفية والفقهاء في اليمن ص٢٣.

٣ عن تاريخ بناء المسجد وتاريخ تجديده ينظر: باعكيم، عادل، أريج الياسمين، ص٦٠.

٤ بامطرف، الشهداء السبعة، ص٣٥، وباعكيم، أريج الياسمين، ص٩٦.

التصوف والموقف العدائي الذي أظهره بعضُ العلويين لتلاميذ الشيخ المغالين فيه، أثرًا في إضعاف طريقته تلك[1].

وفي هذه المدة نفسها برز في حضرموت أسماء الكثير من الفقهاء العلويين وغير العلويين[2]، وسنأتي على ذكر بعض منهم.

إن قدوم الأيوبيين إلى المنطقة أدَّى إلى القضاء على ما تبقى من الفكر الإباضي، وانكماش أتباعه ومؤيديه[3]، وإلى سيادة المذاهب السنية (شافعية، أشعرية)، كما بدأت تبرز في المدينة تيارات التصوف بطرقها وحضراتها[4]، والتي بدأها في المدينة كما أشرت الشيخ سعد الدين الظفاري، ومن بعده تلاميذه النجباء كابنه الشيخ أبي بكر في ظفار، والشيخ الفقيه المقدم محمد بن علي باعلوي (ت:٦٥٣هـ/ ١٢٥٦م)[5]، والشيخ الحادي

---

١ حداد، عبدالله، الابتهالات والمدائح في حضرموت، بحث من أبحاث ودراسات فعاليات ملتقى تريم الثقافي بمناسبة تريم عاصمة الثقافة الاسلامية ٢٠١٠م، ص٥١٠.

٢ للمزيد ينظر: بامخرمة، قلادة النحر (٤/ ٤٠٥).

٣ يذكر شنبل في تاريخ حضرموت ص٥٦ أنه في سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م تقريبًا أزيلت الإباضية من مسجد شبام المعروف بمسجد الخوقة. ويفهم من حديثه أن الإباضية استمرت إلى هذه المدة، كما أن زوالها من مسجد الخوقة أو من شبام لا يعني انتهاؤها للأبد، ذلك أن الاجساد قد تزول، ولكن الأفكار تظل باقية، ولو إلى حين.

٤ يرى الباحث عبدالله حداد أن الأيوبيين على الرغم من انتمائهم للمذهب السني، أسهموا في انتشار التصوف في حضرموت، كما شجعوا على بناء القبب والأضرحة، وهم أول من أدخل بعض فصول كتاب الغزالي (الإحياء في علوم الدين) لحضرموت. ينظر: الابتهالات والمدائح في حضرموت، البداية والانتشار، مدينة الشحر نموذجًا، ص٤٨٨-٤٨٩.

٥ يرى بعضهم أن الفقيه المقدم هو أول من تصوف في حضرموت، وأنه أستاذ الشيخ سعد، وليس العكس. تنظر ترجمته في: باوزير، الفكر والثقافة،ص١٢٦، وحداد، عبدالله، الابتهالات، مرجع سابق، ص٤٩٠، وباعكيم، أريج الياسمين، ص٤٢. في حين يرى آخرون أن المهاجر أحمد بن عيسى هو أول من تصوف بحضرموت،=

سعيد بن عمر بلحاف[1] صاحب المسجد المشهور المطل على البحر بحارة المجرف الذي يحمل اسمه، وكذلك تلميذ الشيخ سعد الشيخ محمد بن علي باطحن[2]، صاحب كتاب (تحفة المريد وأنس المستفيد في مناقب الشيخ سعد بن علي الظفاري)، والشيخ أحمد بن عمر بن جوبان (باجوبان)[3]، صاحب المسجد الشهير بالمدينة الذي يحمل اسمه، وقد جعل الشيخ بن جوبان من هذا المسجد مدرسةً ورباطًا يقيم فيه طلبة العلم، وموقعه خارج سور المدينة من الجهة الشرقية، ولهذا المسجد مقبرة واسعة على الجهة الشمالية الشرقية منه، وما زال الناس يدفنون فيها موتاهم.

ويقال إنَّ الشيخ سعد السابق ذكره كان يتبع الطريقة الجيلانية (القادرية) في التصوف[4].

=أو بمعنى أدق لم يعرف أحد قبله، وفيها إشارة له بالتقدمة. ينظر: الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ١٦٣). ولعل أستاذ الشيخ سعد الدين الظفاري هو الشيخ علي بن محمد مولى مرباط، والد الفقيه المقدم، كان أسبق في التصوف من ولده ومن الشيخ سعد. بل ذكر الجندي أن الشيخ علي بن أحمد بن سالم بن محمد بامروان هو أول من تصوف من (آل باعلوي)، إذ إنهم كما يقول كانوا موصوفين بالفقه. ينظر: السلوك (٢/ ٤٦٣). وفيما ذكره الجندي عن الشيخ بامروان نظر، سواء المتعلق بعلويته أو المتعلق بتصوفه. وعن ريادة التصوف في حضرموت ينظر: قلادة النحر (٤/ ٣٩٣)، (٥/ ٢٣٠)، والحبشي، عبدالله، الصوفية والفقهاء ص٢٣ (ويلاحظ أن الحبشي في كتابه هذا لم يشر إلى ذكر الشيخ سعدالدين الظفاري)، وعصبان، الفرق والمذاهب، ص١٥٠.

١ تنظر ترجمته في: باحسن، نشر النفحات ص٣٦٠، وباعكيم، أريج الياسمين، ص٥٠. ومنهم الشيخ سعد بن عبدالله بلحاف (ت:٧٤٦هـ)، ذكره المؤرخ عبدالرحمن الملاحي وقال عنه إنه شاعر مجيد، له ارتباط وتلمذة بالفقيه المقدم، وعرف بتعلقه بالشيخ سعد الدين الظفاري. ينظر: مدينة الشحر بوابة حضرموت، ص١٩٦.

٢ تنظر ترجمته في: باعكيم، أريج الياسمين، ص٤٦.

٣ تنظر ترجمته في: باحسن، عبدالله، نشر النفحات المسكية، ص٣٦٥، وباعكيم، أريج الياسمين، ص٤٨.

٤ ينظر: باعكيم، أريج الياسمين، ص٦٥. ويرى الحبشي أن ممن تأثر بالطريقة القادرية: الشيخ إبراهيم بن محمد باهرمز، والشيخ عبدالله بن عقيل باعباد، ولم يذكر الشيخ سعد الدين الظفاري. ينظر: الصوفية والفقهاء ص٣٥.

قدوم أسرة آل باوزير إلى الشحر:

لعل أبرز حدث تاريخي في هذه المدَّة أسهم في نشر تعاليم التصوف وطرقه، هو قدوم أسرة عباسيَّة إلى حضرموت، وهي أسرة (آل باوزير) العريقة، وذلك قبيل سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م[١]، واستيطانها في بداية أمرها مدينة الشحر، إذ أقام بها الشيخ عبدالله بن يعقوب المعروف بـ(مولى المحطة)، وبنى زاويته المشهورة شمال غرب مسجد الجامع، وبرز لاحقًا حفيدُهُ محمد بن سالم بن عبدالله المعروف بـ(مولى عرف)، وهو أحد كبار رجال التصوف في القرن السابع الهجري، تتلمذ على يديه عدَّةٌ من أعلام التصوف في حضرموت، منهم الشيخ سعدالدين الظفاري المذكور آنفًا، والفقيه المقدَّم محمد بن علي باعلوي، والشيخ سعيد بن عيسى العمودي[٢]. ومن عقبه كان الشيخ عبدالرحيم بن عمر باوزير، مؤسس غيل باوزير.

وليس التصوف وحده أو الفقه الشافعي الذي بدأ يظهر ويتمدد[٣]، بل بدأت تظهر أيضًا إشارات لوجود الفكر المعتزلي، ولعل زيارة المؤرخ والأديب اليمني نشوان بن

---

١ في هذا التاريخ توفي شيخ الأسرة وعميدها يعقوب بن يوسف، بعد وصوله مع أبنائه إلى المكلا، وقُبِرَ هناك، وللمزيد هذه الاسرة، ينظر: باوزير، محمد، وبن دحمان، عبدالله، مدينة العرفان غيل باوزير ص٢١–٢٥.

٢ تنظر ترجمته في: باوزير، الفكر والثقافة ص١٣٨. وللمزيد عن هذه الأسرة، ينظر: باوزير، صفحات من التاريخ، ص١٢٨، وباحسن، عبدالله، نشر النفحات، ص٣٨٣. وعن غيل باوزير بوصفها مركزًا من مراكز العلم ينظر: عبدالنور، الحياة العلمية، ص٥٦.

٣ ينظر للتفصيل: عصبان، أكرم، الفرق والمذاهب في حضرموت، ص١٠٩. ويلاحظ في كتاب (طبقات فقهاء اليمن) لعمر بن سمرة الجعدي (ت:٥٨٦هـ) خلوه من ذكر أي فقيه حضرمي قبل سنة ٥٠٠هـ، ولعل أول إشارة تضمنها قوله إنه في سنة ٥١٢هـ اجتمع عند الفقيه زيد بن عبدالله اليفاعي في الجند ما يزيد عن=

سعيد الحميري (ت:٥٧٣هـ/ ١١٧٨م) لحضرموت، وإعجابه بفقهاء تريم وبالحركة العلمية فيها، ما يؤيد هذا[1]، ونشوان هو الذي يقول:

رعى اللّه إخواني الذين عهدتهم ... ببطن تريم كالنجوم العوائم
عليًّا حليف النجدة بن محمد ... وأبنا أخيه الغر أبناء حاتم
ومن في تريم من فقيه مهذب ... وسيد أهل العلم يحيى بن سالم[2]

وفي هذه المدَّة شهدت حضرموت عامة هجرةً واسعةً لطلب العلوم والتفقه في الدين، وأكثر البلدان التي هاجر إليها طلاب العلم الحضارم كانت مدينة زبيد[3] القريبة من السلطة المركزية للرسوليين، حيث انتعاش المدارس ووفرة المعارف وتشجيع الحكام، وكذلك هاجروا إلى مدينة مرباط (ظفار)، كما شهدت هذه المدة وفود عددٍ من

=مائتي فقيه قدموا من تهامة وأبين وحضرموت والسحول والشام، وذلك في عهد السلطان أسعد بن أبي الفتوح الحميري. ينظر ص١٥٢. ثم في ترجمة الفقيه يحيى بن أبي الخير العمراني أشار إلى أن من تلامذته محمد بن أبي مفلح الحضرمي، ص١٧٩، ص١٩٦. ومن تلاميذه أيضًا من تريم محمد بن عبدالله الحضرمي الذي قال عنه إنه أخذ عنه الفقه والحديث، وكان فاضلًا أديبًا. ص٢٠٣. وفي موضع آخر في أثناء تعداد فقهاء الأمصار في عصره أشار إلى محمد بن علي القلعي في مرباط، ومن أهل حضرموت ذكر أبا زنيج، وأبا جحوش، وأبا أكدر قاضي تريم، وأبا بكير. ص٢٢٠. وذكر أن هذين قُتِلا سنة ٥٧٥هـ، قتلهما عثمان الزنجيلي. وكذلك محمد ابن أبي ذئب ومحمد بن أبي داؤد وشيخه محمد بن أحمد النعمان الهجراني، وابن أبي الحب. ص٢٢٠-٢٢٢. وينظر: الجندي، السلوك (١/ ٤٦٣-٤٦٤). وللمزيد عن فقهاء وعلماء ذلك العصر ينظر: بلفقيه، عبدالله، صفحات مجهولة من تاريخ حضرموت، ص٧٤.

١ عن اعتزالية نشوان ينظر للتفصيل: مفلح، سالم، حضرموت بين القرنين، ص٩٢. وتنظر ترجمة نشوان في: الموسوعة اليمنية (٢/ ٩٤٦)، والزركلي، الأعلام (٨/ ٢٠).

٢ الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي (١/ ١٨٨).

٣ عصبان، الفرق والمذاهب، ص١١٥.

العلماء والفقهاء المشهورين، كالإمام محمد بن علي القلعي[1]، وأستاذه سالم بن فضل بافضل وولده[2]، وتلميذ القلعي سالم بن عبدالكريم بافضل[3]، كما نزح الكثير من العلماء والفقهاء من الداخل الحضرمي إلى الساحل. وإلى جانب الشحر وغيل باوزير شعَّت أنوار مراكز تعليمية أخرى، في بروم، وعين بامعبد، والمشقاص (الريدة وقصيعر). ومن أشهر الفقهاء في هذه المدة أبو الخير بن منصور الشماخيُّ السعديُّ نسبًا الحضرميُّ بلدًا، المتوفَّى بزبيد في السابع من جُمادى الآخرة سنة ٦٨٠هـ[4].

قدوم أسرة آل السبتي:

يحدثنا المؤرخ بهاء الدين محمد الجندي السكسكي في كتابه (السلوك في طبقات العلماء والملوك) أنَّ أقدم مَن يُذكر بالفقه في مدينة الشحر هم أسرة (آل السبتي)[5]، وهؤلاء قدموا من ظفار، وأوَّل فقيهٍ منهم هو أبو العباس أحمد بن محمد بن يحيى السبتي الذي توفي تقريبًا سنة (٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م)[6]، ويعدُّ من تلامذة الإمام القلعي، وقد

---

١ ينظر: عصبان، الفرق، ص١٢٥. ويرى سالم مفلح اعتزالية الشيخ القلعي. ينظر: حضرموت بين القرنين، ص١٥٧. وعن ترجمته ينظر: باعكيم، عادل، أريج الياسمين، ص٤٠.

٢ مفلح، حضرموت بين القرنين، ص١٢٣. وتنظر ترجمته في: بامخرمة، قلادة النحر(٤/ ٣١٦). ويلاحظ أن بامخرمة ومفلح ينسبان إليه القصيدة البكرية، بينما ينسبها أكرم عصبان إلى تلميذ القلعي سالم بن عبدالكريم بافضل.

٣ ينظر عنه: عصبان، الفرق والمذاهب، ص١٣١.

٤ الجندي، السلوك (٢/ ٣٠).

٥ يجب ألا يفهم قول الجندي على أن هذه الأسرة هي أول من اشتغل بالفقه في مدينة الشحر، وإنما على أنه يقصد أول من اشتغل بالفقه من هذه الأسرة نفسها، فقد ذكر الجندي نفسه أن قبلهم كان الفقيه باشكيل، وقد ذكرت الكتب عدة من القضاة والفقهاء في مدينة الشحر من هذه الأسرة العريقة.

٦ الجندي، السلوك في طبقات العلماء والملوك (٢/ ٤٥٨)، وتنظر ترجمة السبتي في قلادة النحر (٥/ ٣٥٩).

استدعاه السلطان عبدالرحمن بن راشد لتولي الحكم والقضاء خلفًا للشيخ الفقيه أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن سالم باشكيل الخزرجي الأنصاري[1]، وبعد وفاة الفقيه أحمد خَلَفَهُ في القضاء ابنُه عبدُالرحمن بن أحمد السبتي المتوفى في سنة ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م) تقريبًا، وبعد موت القاضي عبدالرحمن هذا تم استدعاء الفقيه أبي الخير عبدالله بن إبراهيم بن محمد بن جبر المأربي (ت:٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م) من ميفعة، وأُقِيمَ على الشحر حاكمًا ومفتيًا[2]، وتتلمذ عليه عدد من فقهاء الشحر، منهم أحمد السبتي، وحسن بن علي باجبير الحضرمي الذي تولى تدريس الفقه لاحقًا في مسجد باقرين، والفقيه علي بن عبدالله با أسد الحضرمي، وعبدالله باحارث من شبام[3].

وقد استمر أبو الخير حاكمًا ومفتيًا للشحر إلى أن سيطر الغُزُّ عليها سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م، في عهد الملك المظفر الرسولي يوسف بن عمر، فعزله عن القضاء، وعيَّن بدلًا منه عمر بن محمد بن إبراهيم الكُرَيْدِي، تصغير (الكُرْدِي)، الذي استقدمه من أَبْيَن، وكان هذا الكريدي سيء السيرة غير عادل في أحكامه، وفيه كان أهالي الشحر يقولون تهكمًا: (إنَّ بينه وبين الفقيه أبي الخير في الفقه كما بين الآدمي والبهيمة)[4]. وأبو الخير هذا توفي في حجر نحو سنة ٧٠٥ هـ/ ١٣٠٦م.

---

١ تنظر ترجمته في: الجندي، السلوك (٢/ ٤٦٤)، وبامخرمة، قلادة النحر (٥/ ٢٥٩).

٢ الجندي، السلوك (٢/ ٤٥٧)، وبامخرمة، قلادة النحر (٦/ ٣٤).

٣ الجندي، السلوك (٢/ ٤٥٧).

٤ الجندي، المصدر نفسه، وبامخرمة، قلادة النحر (٦/ ٣٤).

وفي هذا العهد كان الناظر على الشحر من قبل الرسوليين هو الكمال العسقلاني[1]، الذي حاول إصلاح الوضع القضائي، فسعى في تولية الفقيه أحمد بن عبدالرحمن السبتي[2] بعد الكريدي، وهذا الفقيه السبتي صاهر أسرة الفقيه سعيد باشكيل، وأنجب ولدَيْنِ هما محمد وأبو بكر، وبعد وفاته عُيِّنَ ابنُه الفقيهُ محمد بن أحمد السبتي الشحري، الذي تفقه على الشيخ أبي العبَّاس أحمد بن أبي بكر بن إبراهيم الرسول المخزمي الكندي[3]، وقد استمرَّ السبتي في القضاء إلى أن توفي سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م عن بضعٍ وأربعين سنة، وكانت سيرته حسنة، وخلفه في القضاء أخوه أبوبكر بن أحمد، الذي أصبح في عصر المؤرخ الجندي حاكم البلاد وخطيبها، ومعه الفقيه محمد بن أحمد أبا أسد مفتيًا ومدرسًا بـمسجد (الجامع) بالشحر.

ومن المدرسين الذين عرفوا في المدينة في تلك المدة حسن بن علي باجبير المذكور سابقًا، وكانت له مدرسة للتعليم في مسجد (باقرين)[4]. ومن الفقهاء الفقيه محمد بن سعد بن محمد بن علي باشكيل، الذي ولي قضاء زبيد ثم عُزِلَ وصُودِرَت أملاكُهُ ظلمًا، ليعود بعدها إلى الشحر[5]. كما استقر في المدينة مدَّة من حياته واشتغل بالتدريس فيها

---

١ الجندي، السلوك (٢/ ٤٥٩).

٢ ترجم له بامخرمة في قلادة النحر (٦/ ٣٥).

٣ ترجمته في: الجندي، السلوك (٢/ ٤٥٤-٤٥٦).

٤ الجندي، السلوك (٢/ ٤٦٠). وأشار بامخرمة إلى أنه كان فقيه الشحر، تفقه على يد أبي الخير بن جبر المأربي حينها وفد هذا إلى الشحر للقضاء والتدريس. ينظر: قلادة النحر (٦/ ٣٤).

٥ ترجمته في: الجندي، السلوك (٢/ ٤٦٠)، وذكره شنبل في تاريخه ص١٠١. وقال بامخرمة إنَّه وُلِدَ في الشحر سنة ٦٧٤هـ. ينظر: قلادة النحر (٥/ ٣٨٩).

الفقيهُ عبدُالله بن أسعد اليافعي (ت:٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م)[١]، الذي ابتنى بالمدينة خلال إقامته بها مسجدًا عُرِفَ باسمه بحيِّ الحوطة، وعُرِفَ لاحقًا بـ(مسجد آل مزروع)[٢]، وهناك من ينسب هذا المسجد لابنه وجيه الدين عبدالرحمن بن عبدالله بن أسعد اليافعي الذي عاش ومات في الشحر[٣]. والحديث عن أولئك العلماء والفقهاء في تلك الحقبة يطول[٤].

عُمَّال ونُوَّاب الرسوليين في المدينة:

وقفتُ على بعض الأسماء لِمَنْ تولى النَّظارة أو بعض المناصب الإدارية في مدينة الشحر باسم الدولة الرسولية، منهم:

-أبو الخطاب عمر بن محمد الكتاني: صاحب الديوان في المدينة.

-الكمال العسقلاني: كان تاجرًا من أهالي عدن، وعُيِّنَ ناظرًا في الشحر.

-الفخر الرضي بن محمد بن الموفق: قُتِلَ في الشحر لسوء تصرفاته وأحكامه.

-الجمال الشتيري: عُيِّنَ ناظرًا في الشحر.

-الأمير حسن بن جوه.

-أبوبكر بن العتمي: كان واليًا على المدينة[٥].

١ تنظر ترجمته في: بامطرف، الجامع ص٣٢٩، والشرجي، عبداللطيف، طبقات الخواص ص١٧٢.

٢ ذكر الملاحي أنَّ أسرة آل مزروع هذه كانت تعتني كثيرًا بهذا المسجد، فحمل اسمهم، وقد هاجر بعض أفراد هذه الأسرة إلى شرق إفريقيا، ويظن الملاحي أنهم كانوا إباضية. ينظر: الحضارم في ممباسا ص٣٢.

٣ الناخبي، عبدالله، يافع في أدوار التاريخ، ص٤٠. وقد ذكر الناخبي أنَّ وفاة الابن عبدالرحمن سنة ٩٤٩هـ وهذا محال، خاصة أنَّه أثبت أنَّ وفاة والده سنة ٧٦٨هـ فالفرق شاسع بين زمن الأب وابنه. المرجع السابق ص٤٠.

٤ ومنهم الفقيه عبدالله باعشير. وللمزيد عن فقهاء الشحر في تلك المدَّة ينظر: بامخرمة، قلادة النحر (٤/ ٤٠٧).

٥ الجندي، السلوك (٢/ ٦١٠).

-الأمير داؤد بن خليل الهكاري.

-الأمير داؤد بن موسى بن حباجر.

-الأمير محمد بن بوز بن حسن الكردي.

-الأمير محمد بن أحمد قراجا.

-القاضي عمر بن محمد بن إبراهيم الكريدي.

-القاضي موفق الدين علي بن أحمد الأصبحي (الضرعاني)[١].

-القائد أرتق: وهو من استولى على المدينة، وطرد راشد بن شجعنة منها.

-ابنُ فيض (قيصر) نائب الرسوليين[٢].

هذه بعض الأسماء التي استطعنا العثور عليهم في بطون الكتب، وهناك غيرهم حتمًا بحاجة لمزيد من البحث والتقصِّي. وغالبية هؤلاء القادة والنُوَّاب والقضاة الرسوليين كانوا وبالًا على المدينة وأهلها، لدرجة أن تمادى بعضهم ففرض جبايات ورسوم على الصيادين والمزارعين، بل منهم مَنْ منع دفن الأهالي في مقابر المسلمين، إلا أن يدفع لهم أهل الميت مبلغًا من المال.

١ قلادة النحر (٦/ ٣٨٤).

٢ عبدالنور، الحياة العلمية في حضرموت ص٣٩.

جباية المدينة في عهد الرسوليين (الملك المؤيد)

سنحاول في هذه الفقرة تقديم تقرير عن الجبايات التي كانت ترفع من الشحر إلى الدولة الرسولية في عهد الملك المؤيَّد داؤد بن يوسف بن عمر (ت:٧٢١هـ/ ١٣٢١م)، إذ خضعت الشحر في تلك المدَّة للرسوليين، وفي هذا النص (التقرير) الذي يعد وثيقةً مهمَّةً يمكن أن نتبيَّن من خلاله الحالة الاقتصاديَّة والتجاريَّة التي بلغتها المدينة آنذاك، مع معرفة مواسم الإبحار وحجم الضرائب وقوانينها وغير ذلك، وسنكتفي في هذا المختصر بسردها كما وردت في مصدرها وهي كالآتي[١]:

((الأعمال الشحرية خارجًا عن المتجر[٢]:

ويجب أن نقدم في ذلك فصلين:

الفصل الأول في مواقيت المواسم المباركة:

ابتداء سفر المقدشي من مقدشوه إلى الشحر في آذار في الخامس عشر منه.

ابتداء سفر الظفاري إلى الشحر في السابع عشر من نيسان.

ابتداء سفر أهل البر إلى الشحر من صنعاء ومأرب وحصي في الثامن من آذار.

ابتداء سفر الهندي من الهند إلى الشحر في الخامس عشر من تشرين الأول.

آخر سفر الهندي من الهند إلى الشحر في الثامن من آذار.

١ ينظر: ارتفاع الدولة المؤيدية، جباية بلاد اليمن في عهد السلطان المؤيد الرسولي ص١٢٨.

٢ أي يقصد بها بيان عائدات الجباية المالية التي ترفع من الشحر وأعمالها، ولا يدخل معها عائدات البيع والشراء في المتجر التابع لديوان الدولة الرسولية.

ابتداء سفر العدني من عدن إلى الشحر في العشرين من نيسان.

آخر سفر العدني من عدن إلى الشحر في السابع والعشرين من نيسان.

الفصل الثاني في القواعد المسفرة[١]. وفيه نوعان:

النوع الأول في قواعد البحر:

يجب أن تقرر خواطر أهل الهند ومقدشوه وظفار وغير ذلك أنَّ لهم العدل والإنصاف والإجمال والإتحاف، وأن يبذل لهم من أصناف العدل ما تثلج به صدورهم فإنَّهم ألفوا ممن تقدمت مباشرته من المتصرفين ضد ذلك فحصل النفور بسبب أنَّ المتصرفين يحيرونهم[٢] ببضائعهم حتى تنقضي المواسم ويقرب أوان سفرهم، ويُحرِّمُون على التجار أن يشتروا بضائعهم بحجة أنَّها مطلوبة للديوان، وليس الأمر كذلك، فيرجعون يبيعون بضائعهم على المتصرفين بما قالوا، ثم يُحرّمُون ذلك. فإذا جازت[٣] بضاعة آخر حرموها أيضًا على التجار حتى تكسد بضاعته ويتأخر إلى قرب أوان السفر فيطلب منهم نجاز أمره بصرم البيع[٤] للديوان، فيشترون منه على قدر أهويتهم، فإذا تم ذلك عرضوا عليه من حاصل بضايعهم مما يصلح لذلك التاجر، فيقيمونها عليه بقدر ما يشتهون، فحصل النفور من التجار بهذا السبب. ومن جملة ما يبذل لهم أنَّ من وصل الشحر ببضاعة ولم يجد لها مشتريًا فإنَّ الديوان السعيد المشتري لبضاعته بما اختار من

١ أي القوانين التي ينبغي على الدولة أن تراعيها في الشحر.

٢ لا يسمحون لهم بإنزال بضائعهم أو بيعها في فرضة الشحر. (المحقق). ارتفاع الدولة المؤيدية ص١٢٩.

٣ بمعنى وصلت الميناء.

٤ أي إتمام عملية البيع لديوان الدولة. (المحقق). ص١٢٩.

نقد أو بضاعة تصلح له من مال المتجر على قدر سعر الوقت. ومن أرباب السنابيق أيام الخريف لهم ما تحصل في سنابيقهم، ما عليهم إلا الواجب المعتاد للديوان السعيد، وأن الصيفة من جهات الشحر وأعمالها لا تُباع إلا للديوان السعيد.

النوع الثاني في قواعد البر:

أن اللبان لا ينباع إلا على الديوان السعيد خاصة، بالضريبة المعتادة في سائر الزمان البهار سبعة دنانير ونصف. وأنَّ التمر من أعمال حضرموت لا ينباع إلا للديوان السعيد، كل نوع على سعره الواقع. وأن لا يزاد في طريق عرف على الجباء المقرر أيام وقوف السلطان خلد الله ملكه بالشحر كما استمر ذلك ورضي به التجار. وأن لا يخمن على رب بضاعة لغرض بخس.

وهذه صورة الشحر وأعمالها ومبلغ ارتفاعها(١):

ملكية–سبعون ألفًا وثمانمائة وسبعة وتسعون دينارًا وربع.

ما تضمنه الضريبة المخلدة: اثنان وخمسون ألفًا وخمسمائة وستة وأربعون دينارًا.

هلالي: ثمانية عشر ألفًا وخمسمائة وخمسة عشر دينارًا ونصف وربع.

خراجي: أربعة وثلاثون ألفًا وثلاثون دينارًا وربع.

دور الديوان والدكاكين –ألف ومائتان وأربعة وخمسون.

الدور – ثمانية وعشرون دارًا: ستمائة دينار، الشهر خمسون دينارًا.

الدكاكين–أحد عشر دكانًا: ستمائة وأربعة وخمسون دينارًا، الشهر أربعة وخمسون ونصف.

---

١ أي إجمالي العائدات المالية المجبية من الأعمال الشحرية لعام كامل، خارجًا عن عائدات البيع والشراء لمتجر الديوان في مدينة الشحر. (المحقق). ارتفاع الدولة المؤيدية ص١٣٢.

قطع ضريبة–سبعة وعشرون ألفًا وسبعون دينارًا.

قطعة الوجوه على الرعية: مما يقسم نصفان، مقدشي وموسم: ستمائة وستون دينارًا.

قطعة في موضع المبارك: في صيف وخريف، مائة دينار.

قطعة الحرث[1]: خمسون دينارًا.

قطعة شكلنزة صيف وخريف، ستون دينارًا.

قطعة السنابيق عن أربعين سنبوقًا السنبوق خمسة عشر دينارًا.

قطعة الأنولة في النخل والأعاريب خمسمائة دينارًا.

قطعة أولاد أحمد بن يونس: مائة دينار.

ضمان ريدة المشقاص بما فيه من مزارع ومدبر ونخل وواجب المراكب الواصلة من مقدشوه إليه بسبب الصيفة: سبعة آلاف دينار.

ضمان حيريج بما فيه من مزارع ونخل: خمسة آلاف.

أعمال حضرموت: المتحصل من خرص تمر النخل وقيمة نخل الغيلين: ثلاثة عشر ألفًا.

واجب الخصار: عن أربعين سنبوقًا في الكبير دينار واحد، وفي الصغير نصف دينار: مائتان وأربعون.

رسوم الرعية: ألفان وثلثمائة وأربعة عشر دينارًا.

في الحرث: ألفان ومائة وأربعة وثلاثون دينارًا.

١ الحرث ((يقصد به قطعة أرض كبيرة من ممتلكات الدولة تقع شمال غرب مدينة الشحر بها مسافته حوالي ٢٠ كيلومترًا، وهي شرقي غيل باوزير، بها مسافته خمسة كيلومترات)). (المحقق). ارتفاع الدولة المؤيدية ص١٣٣.

حق المشيخة في الحرث: ثمانون دينارًا.

واجب الســـ[1] في الحرث: مائة دينار.

ما تضمنه المكلفات على حكم الزيادة والنقصان مما جميعه خرص النخيل: ثلاثة آلاف ومائة واثنان وخمسون دينارًا، خرصه في أيار، استخراجه في حزيران، تلقيحه في العشرين من كانون الثاني.

ما تضمنه قواعد البحر على حكم الزيادة والنقصان: سبعة وعشرون ألفًا ومائتان ودينار واحد ونصف:

مقدشي–ثلاثة جهازات: اثنتا عشر ألفًا.

ظفاري–عن ثلاث جهازات: أربعة آلاف ومائتان ودينار واحد ونصف.

موسم هندي–عن جهازين: أحد عشر ألفًا)). انتهى التقرير.

١ هكذا وردت، وقد ذكر المحقق أنَّه لم يعرف معناها.

إمارة الشحر بين ثعين/ شعيث وآل أبي دجانة

أغلب المؤرخين يرجحون نسب آل أبي دجانة إلى قبيلة كندة[1]، وأعادوا نسبهم إلى آل فارس (آل إقبال) حُكَّام الشحر السابقين، وآخرون قالوا إنَّهم من مهرة، أو إنَّ المهرةَ أخوالُهم[2]، ويقصدون بالمهرة قبيلة (ثَعْيَن) الحضرمية[3]. ويبدو أنَّ (ثَعْيَن) قد اعتراها التصحيف عند بعضهم، فكُتِبَت (شعيث) والنسبة إليها (شعيثي)، ومن قال بهذا الأخير نسبها إلى الأشعث بن قيس الكندي، وقد رجح المؤرخ عبدالرحمن الملاحي القول بثعينيتها[4]، وهذا ما ترجح لنا أيضًا، ولذا سنعتمده هنا.

حقيقة لا تُعلم البداية الأولى لنشأة تلك الإمارة التابعة لآل أبي دجانة، ولا مؤسسها الأول، ولكن الثابت أنَّ هذه الأسرة أول ما ظهرت على المسرح السياسي كانت في حيريج[5]

١ بامطرف، محمد عبدالقادر، المختصر في تاريخ حضرموت، ص٩٦، وباوزير، سعيد، صفحات، ص١٥٠، والحداد، علوي بن طاهر، الشامل، ص١١٢، والملاحي، عبدالرحمن، مدينة الشحر١٨٣.

٢ للمزيد عن هذه الأسرة ينظر: السقاف، إدام القوت ص١٦٧، والجدحي المهري، سعد بن سالم، تاريخ المهرة المسمى التطواف حول تواريخ ومشاهير بلاد الأحقاف، ص١٥٢.

٣ تشكل ثعين اليوم تحالفًا قبليًّا (ما يُعرف بالزيّ) يضم القبائل الأصلية والقبائل المتحالفة معها في عصور تاريخية مختلفة، ويتكون من القبائل الآتية: الدحيمي، المطري، البسيري، الغتنيني، الهزيلي، الدُميكي، الدكوكي، القرادي، العمقي، النحتي، الجريري، النموري، ابن هاجر، ابن حدري، بيت زحلان، ابن مرزوق بن مبرور. الملاحي، الدلالات الاجتماعية واللغوية والثقافية لمهرجانات ختان صبيان قبائل المشقاص ثعين والحموم ص٤٧.

٤ يؤكد الملاحي أن ما يرجح انتساب تلك الأسر إلى (ثعين) استنادُها على قبائل من بني محمد وهم ثعينيون من مهرة، وآل شماسة، وبني تبلة، والحموم، وبني شجعنة من آل اقبال. ومن المعلوم أن الحكام في تلك العهود لا يعتمدون على جيوش نظامية، ولكن على العصبية القبلية وما يرفدها من تجمع قبلي عرقي. ينظر: مدينة الشحر بوابة حضرموت، ص١٨٣. والشاطري يعد ثعين ضمن قبائل بني ظنة. ينظر: أدوار التاريخ الحضرمي (٢/ ٣٥٥).

٥ حيريج: ميناء قديم بساحل المهرة، اتخذها آل أبي دجانة مركزًا لهم، وتسمى حاليًّا ذرفات.

بإقليم المهرة، ومن المرجَّح أنَّ هذه الأسرة غادرت مدينة الشحر إلى حيريج، خاصة بعدما ألقى الرسوليون القبضَ على آخر سلاطين إمارة آل أقبال بالشحر السلطان راشد بن شجعنة، ونَفوا أهله إلى حيريج.

وقد لا نعلم يقينًا ما تلك القوة المحلية التي كانت مسيطرة على منطقة (حيريج) المهرية، قُبيل وبعد مغادرة أسرة آل إقبال مدينة الشحر إليها، ولكن غالب الظن الذي تعضده بعض الشواهد، أنَّ حكام حيريج كانوا من الأسرة نفسها، أو قريبين منها، نظرًا للصلات القديمة التي ربطت بين هذه الأسرة والأسر المهرية، والمرجح أنَّ أسرةً من آل الشماسي الثعينيين[1] كانت هي المسيطرة على حيريج، ومنها الشيخ شماسةُ بن أحمد الثعيني المتوفي في حيريج سنة (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)[2]، وهذه الأسرة هي التي قدمت لاحقًا برجالها من المهرة إلى مدينة الشحر بقيادة سعد بن أحمد بن شماسة الثعيني[3]، في أثناء محاولتهم طرد عامل الرسوليين على المدينة (ابن بوز) لتمرده على الرسوليين[4]،

١ أورد الشاطري أحد فروع قبيلة سيبان الحضرمية ويدعى (الشماسة) ضمن آل باعوض. ولا ندري هل ثمة علاقة تربطهم بالقبيلة المذكورة. ينظر: أدوار التاريخ الحضرمي (٢/ ٣٥٨).

٢ بامخرمة، قلادة النحر (٦/ ٢٩٠). وذكره شنبل باسم: (الشماس بن أحمد الشعيبي). ينظر تاريخه ص١٢٠.

٣ عند علوي الحداد، الشامل، ص١١٢: (سعد بن أحمد بن شماسة الشعيثي الكندي).

٤ (ابن بوز) هكذا يرد تارة عند شنبل، وتارة أخرى: (ابن نور)، أو (ابن ثور). وهو من عمال الرسوليين، أوفدوه مؤقتًا إلى الشحر سنة (٧٨١هـ) خلفًا لعاملهم الفخر الرضي بن الموفق الذي قتل بسبب ظلمه، إذ كان لا يسمح بدفن أموات أهل المدينة، إلا بجُعْلٍ يُدفع له! ويقال إن جنود الغز هم من قتله. ينظر شنبل، ص١٤٠، والشامل ص١١٢. وقد حاول ابن بوز بعد تسلمه السلطة الانفرادَ بالمدينة والسير على نهج سلفه، فأرسل الرسوليون للمدينة واليًا جديدًا، إلا أنه قُتِلَ في الطريق بتواطئ من جنود الرسوليين (الغز) الذين مع (ابن بوز). ينظر شنبل، ص١٤١. وورد اسم ابن بوز في الشامل ص١١٢ (محمد بن بوز بن حسن الكردي).

وكان ابن بوز هذا قد أعلن سيطرته على المدينة وانفراده بالحكم عن الرسوليين سنة (٧٨١هـ/ ١٣٧٩م)، كما دخل في تحالفات مع قبائل نهد والزيود، فقدمت إليه هذه القوة الثعينية من حيريج، وفيها مقاتلون من آل فارس وآل أبي دجانة وغيرهم. والتداخل هنا بين ثعين وآل أبي دجانة يجعلنا نفترض أن آل أبي دجانة أحد فروع هذه القبيلة الثعينية[١]، وليسوا من كندة أو حمير، كما يرى بعضهم[٢].

ولا نريد هنا أن نتسرع في الحكم، فلنتتبع أولًا مسار أسرة آل أبي دجانة منذ خروجها من الشحر، على فرض أنَّها من آل فارس (آل إقبال).

المرجح أن هذه الأسرة غادرت الشحر إلى حيريج، حيث بنو قومها من ثعين[٣]، (بغض النظر عن الرابط القبلي بينهما أكان من جهة الأب أم الأم)، وكانت ثَعْيَن هي التي تقوم بالأمر في حيريج نيابةً عن الرسوليين، مستفيدة من الميناء الصغير وعوائده التي للرسوليين نسبةٌ منها من دون شك. ونظرًا لما تتمتع به هذه القبيلة الثعينية وكذلك أسرة آل أبي دجانة من خبرة واسعة في مجال الملاحة البحرية وصناعة السفن والتجارة، فقد أهَّلها هذا لأن تكون هي المسؤولة عن حماية الشواطئ الجنوبية لحضرموت، من ظفار شرقًا إلى بئر علي غربًا على أقل تقدير، وكأنهم كانوا في تلك المدة (أمراء بحر)، فلا عجب إذن إذا وجدنا أنَّ أوَّل ذكر صريح لهذه الأسرة ولبعض أدوارها في تلك المدة

١ وهذا ما رجحه المؤرخ الملاحي في: مدينة الشحر بوابة حضرموت، ص١٨٣، وكذلك سالم مفلح. وحول نسب آل إقبال، ينظر: مفلح، حضرموت بين القرنين، ص٢٤٨-٢٨٥.

٢ يرى محقق كتاب إدام القوت (في هامش ص١٦٧) أن أسرة آل أبي دجانة تعود إلى قبيلة آل الشماسي الكندية، وليس لها علاقة بآل إقبال.

٣ ذكر السقاف، نقلًا عن باخرمة، أن الذين كانوا في حيريج هم الأشعثيون، نسبة إلى الأشعث بن قيس. ينظر: إدام القوت ص٢٣٠.

(النصف الأول من القرن الثامن الهجري)، كان يدور في فلك ما قلناه، ففي سنة (٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م) في عهد حاكم الشحر باسم الرسوليين الأمير داؤد بن خليل الهكاري، هرب من سجن المدينة عدد من الهنود المجوسيين، غالب الظن أنهم قراصنة، وبعد هروبهم استولوا على أحد المراكب الموجودة في الميناء وفروا هاربين، فكان أن لحق بهم مركب بقيادة أحمد بن عبدالله بادجانة، وطاردهم في البحار إلى أن ألقى القبض عليهم في جزيرة سقطرى، وعاد بهم وبالمركب إلى الشحر. وقد توفي القائد أحمد بادجانة في السنة التي تلتها[١].

وقد سبق أن أشرنا للقوَّة التي قَدِمَت من المهرة إلى الشحر بقيادة سعد بن أحمد بن شماسة الثعيني، محاولةً طرد (ابن بوز) بعد استحواذِهِ على البلاد، وتحالفه مع أعداء الرسوليين والمهريين (نهد والزيود)، وقد دارت بين الطرفين معارك عدة، وكانت الحرب بينهما سجالًا.

صحيح أن قيادة تلك القوة المهرية كانت من ثعين، إلا أننا نلاحظ أن تلك القوة الثعينية والتي خاضت معاركها ضد (ابن بوز) لمدة تزيد عن عشر سنوات، كانت تضم أيضًا مقاتلين من آل أبي دجانة وآل فارس[٢]، بل إنَّ قيادة هذه القوة قد أُوكِلَت لآل أبي دجانة، وخاصَّةً بعد أن سافر قائد ثعين (سعد بن أحمد الشماسة) إلى الملك الرسولي الأشرف سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٩م للنظر في أمر المتمرد (ابن بوز)[٣].

---

١ عن هذه الحادثة ينظر: شنبل، تاريخ حضرموت، ص١٢٧، وبامخرمة، قلادة النحر (٦/ ٢٩١)، والجدحي، سعد بن سالم، تاريخ المهرة ص١٥١.

٢ ورد في تاريخ شنبل ص١٤٨ضمن حوادث سنة ٧٩٠هـ ((فيها صال ابن بوز على لسعا وبندر حيريج، ومعه نهد وغيرهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، أشهر من قُتِلَ (علي بن أحمد بادجانة)، و(عبدالله أحمد الشيخاني)، ومن بني وقصان دحدح وثلاثة، ومن محاور اثنان، ومن شحاور اثنان، ومن بني حسحس ثلاثة، ومن بني علي بن فارس (عيسى بن فارس)، ومن جملة من قُتِلَ من عسكر بادجانة نيف وثلاثون، ومن عسكر ابن بوز نحو خمسة مقاتيل)). وينظر: الحداد، الشامل، ص١١٢.

٣ شنبل، تاريخ حضرموت، ص ١٤٨.

ولا نعلم نتائج تلك الزيارة التي قام بها هذا القائد الثعيني، ولكن ما كاد يعود من تلك الزيارة، حتى عُقِدَ في السنة نفسها اتفاق بينه وبين (ابن بوز) برعاية أحد وجهاء البلاد من آل باوزير[1]، وينص هذا الاتفاق على أن ينفرد آل الشماسي بكل عشور حيريج، بالإضافة إلى دفع خمسمائة دينار كل سنة، يدفعها ابن بوز مقابل عدم التعرض له في الشحر. ولا ندري ما الفائدة من اتفاق كهذا ستؤول مصلحته للرسوليين، إلا أن يكون بالاتفاق بند آخر لم تذكره المصادر ينص على أن يقوم ابن بوز أيضًا بدفع إتاوات للرسوليين، أو أن الرسوليين أنفسهم تخلوا عن حليفهم الشماسي، وباحوا له بعجزهم عن مساعدته بسبب الاضطرابات التي حلت بمناطقهم في اليمن. وكلا الاحتمالين وارد.

ومن الواضح أنَّ هذا الاتفاق لم يستمرَّ طويلًا، إذ سرعان ما تجدد الصراع بينهم، واستغل الثعينيون الفرصة لمباغتة (ابن بوز)، ممَّا اضطره إلى الفرار واللجوء إلى أحد ملوك اليمن الزيديين، وكان هذا سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م[2]. وظلت (ثعين) محتفظةً بالمدينة تحت قيادة سعد بن أحمد بن شماسة بموافقة الرسوليين[3]، إلى أن أرسل الرسوليون واليًا آخر على الشحر وهو الأمير محمد بن أحمد قراجا، في سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م[4]، فعاد الثعينيون بعدها إلى حيريج، وهذا يؤكد ما قلناه عن علاقة ثعين بآل رسول.

ويبدو أنَّ الرسوليين أرسلوا ذلك الوالي الجديد بدلًا من القائد الثعيني الحليف، توجسًا من أن يستقل الثعينيون بالمدينة ويقيموا عليها إمارتهم، وقد أضحت الظروف

١ المرجع السابق، ص١٤٩. وذكر أن الاسم (عبدالرحمن بن شماسة). وبالهامش نقلًا عن الجواهر (المضر بن شماسة).

٢ شنبل، تاريخ حضرموت، ص١٤١.

٣ شنبل، ص١٥١.

٤ شنبل، المرجع السابق، ص١٥١-١٥٢.

شبه مواتية لهم، ولكن لم يكن في حسبان الرسوليين أنَّ الأمير محمد أحمد قراجا، كعادة غالبية عُمَّالهم على الشحر، لم يستطع إدارة البلاد بالصورة المرجوَّة، فساءت أحوال المدينة وانتشرت الفوضى، فما كان من السلطان الأشرف الثاني إسماعيل الرسولي إلا أن أعاد ابنَ شماسة حاكمًا على الشحر بدلًا من قراجا، وكان هذا سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م[١]، ومن حينها أصبحت الشحر تحت أيدي ثعين، وأصبح أميرها هو سعد بن أحمد الشماسي الثعيني، وبعدها توفي الملك الأشرف إسماعيل سنة (٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م)، وفيها ضعفت الدولة الرسولية.

وتذكر بعض المصادر أنَّهُ في سنة ٨٠٤ هـ/ ١٤٠١م ((قدم القاضي موفق الدين علي بن أحمد الأصبحي المعروف بـ(الضرعاني) إلى الشحر ناصرًا، والأمير يومئذ ابن شماسة، فقُتِلَ القاضي المذكور في تلك السنة))[٢].

ويمكن القول إنَّه في هذه المدَّة (مطلع القرن التاسع الهجري) أصبح السلاطين المحليُّون بعد قرابة قرن وثلث من الزمان هم من يتحكمون في تنظيم شؤون المدينة سياسيًّا وإداريًّا، مكتفين بإظهار الولاء الاسمي للرسوليين، وربما دفع بعض الجبايات لهم، مع حفظ المصالح المشتركة بينهم.

واستمرَّ مجدَّدًا التنافس وصراع القبائل الحضرميَّة للاستحواذ على المدينة، وخاصة بعد أن تأكد للمتنافسين أنَّ القوة التي كان يُعوِّل عليها حكَّام الشحر في إسنادهم

---

١ شنبل، تاريخ حضرموت، ص١٥٣.

٢ بامخرمة، قلادة النحر(٦/ ٣٨٤). ولفظة (ناصرًا) الواردة في النص لعلها مصحفة عن (ناظرًا)، و(الناظر) وظيفة حكومية.

ودعمهم (وهي الدولة الرسولية) عاجزة عن تقديم أيِّ عون ومساندة، فتوالت هجمات القبائل المختلفة لانتزاع المدينة من الثعينيين.

ومما يؤكِّد ضعف الرسوليين حينها أنَّنا نراهم في سنة (٨٠٧ هـ/ ١٤٠٤م) يتخلون عن ظفار مرغمين بعد أن انتزعها منهم الحرانيون، وينتزع آل كثير ظفارَ منهم أيضًا سنة (٨١٦هـ/ ١٤١٣م)، وهم الذين ظلوا قرابة القرن والثلث (من ٦٧٧-٨٠٧هـ/ ١٢٧٨-١٤٠٤م) يُحكِمُون قبضتهم على الشحر وظفار، كما تمكن أحد أمراء آل يماني (راصع بن دويس) من انتزاع الشحر من حليفتهم (ثَعْيَن) سنة ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م[1]، أي بعد سنتين فقط من سقوط ظفار في أيدي الكثيريين، حينها أصبح لزامًا على الثعينيين مواجهة مصيرهم بأنفسهم، ونفض يدهم من الاعتماد على الخارج.

إنَّ الرواية التي تقول بسقوط الشحر في أيدي الرسوليين (الملك الأشرف الثاني إسماعيل) سنة (٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م) عاريةٌ من الصحة كما نرى؛ لوجود تحالفات بين الرسوليين وثَعْيَن استمرَّت كما سنبيِّنه إلى نهاية الدولة الرسولية، وغالب الظن أنَّ وجود مثل هذه القوة الرسولية، إن ثبت وجودها فعلًا، إنَّما كان لمساندة حليفهم الثعيني، وطرد آل اليماني من المدينة.

---

١ شنبل، ص١٥٧. قال: ((وفيها في رجب أخذ السلطان الشحر من ابن فارس)). وفي هامش المحقق، نقلًا عن كتاب الجواهر: (السلطان: راصع بن دويس). ينظر: ص١٥٧. و ذكر الحداد في الشامل ص١١٢ أن الأشرف أخذ الشحر من ابن شماسة سنة ٨٠٩ هـ، ثم جاء الجحفلي ملك دثينة بعسكره. والصحيح أن الأشرف توفي سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، واستلم بعده ابنه الملك الناصر أحمد في المدة (٨٠٣-٨١٧هـ/ ١٤٠٠-١٤١٤م).

ومِمَّا أضعف الرسوليين في مطلع القرن التاسع الهجري أنَّه بعد موت الملك الأشرف سنة (٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠م) تصارع على الحكم أبناؤه الخمسة، وقلَّ اهتمامُهم بالمناطق البعيدة، ومن المحتمل أنَّ تلك القوة الرسولية المذكورة آنفًا كانت فِرَقًا حاميات تابعةً لأحد أفراد الأسرة الرسولية خلال صراعهم على الاستيلاء على المناطق والمدن، ولكن لم يدخل في هذا الصراع آلُ أبي دجانة مباشرة. والأمر يحتاج إلى بحث أعمق.

إمارة آل أبي دجانة

في هذه المدَّة بالذات (مطلع القرن التاسع الهجري) بدأ يلوح نجم آل أبي دجانة، إذ سرعان ما استعادوا الشحر من آل يماني، مصممين على إعادة مجد أجدادهم التليد، ولكن هذه المرة ليس باسم (ثعيني/ شعيثي)، وإنَّما باسم أسرتهم آل أبي دجانة من آل فارس، وقد عزت بعض المراجع سبب انتصارهم وسيطرتهم على الشحر إلى الدعم الذي تلقوه من الرسوليين[١]، وهو ما يُرجِّح وجودَ علاقةِ حِلْفٍ بينهما، ثم نرى هذه المراجع تتكلَّم من دون مُقدِّمات عن الحرب بين (الغُزِّ) وحلفائهم آل فارس (أبي دجانة)! وهذا مثيرٌ للعجب. وعلى أيٍّ، فما يهمنا هنا أنَّ مدينة الشحر آلت في نهاية أمرها إلى آل أبي دجانة.

إنَّ العوامل التي ساعدت آل فارس على انتزاع المدينة واستعادتها من آل اليماني، كما نرى، تكمن في الصراع الدائر بين أفراد أسرة آل يماني نفسها من جهة، وبينهم وبين القبائل المنافسة لهم من جهة أخرى، وفي مقدمتها آل كثير، ومقابلةً بوضعية آل فارس تكاد تكون كلمة جموع هذه القبيلة واحدة، وقيادتها واحدة، كما أنَّ سهولة وصول

١ ذكر شنبل في تاريخه ص١٥٨-١٥٩ في حوادث سنة ٨١٢هـ أنه في هذه السنة ((حط الجحفلي تحت الشحر، فأرسل الأمير إلى آل عامر وحالفهم، وطلعوا إليه، وهرب الجحفلي. وفيها طلع راصع بن دويس إلى الشحر، وابن قسمان وابن جسار معهم، وفيها أمير تركي (يقصد من الرسوليين) فأرسل أبا قديم من سيبان، فحالفوا آل عامر وآل كثير والصبرات وغيرهم، وطلعوا من دوعن وأهله معهم، فالتقوا هم وولد راصع، فهزمهم دويس فانهزموا إلى قبلي الشحر، وقتل من الصبرات سبعة، ومن آل كثير ومن معهم عشرة، ومن الكسر ودوعن أربعة)).

الدعم والأمداد إليها من (حيريج) أسهل بكثير من وصوله إلى منافسيهم آل يماني، إذ إنَّ المسافة بين جموع آل يماني في الشحر وبين بني قومهم وحلفائهم بعيدة جدًّا، كما أنَّ خطوط مرور الإمدادات لابد أن تمر بأماكن ثعين والحموم، وهذا بحد ذاته يُعد إشكالية كبيرة بالنسبة لآل يماني، ومع أنَّ البحر منفذ استراتيجي للمسيطر على المدينة، إلا أنَّه ليس مُجدِيًا لهم، خاصة أنَّ آل أبي دجانة هم رجال البحر وأهله، وهم ربابنته وملاحوه، وهم من يملك السفن والمراكب، ولذلك يمكنهم أن يضيقوا الخناق على مَنْ هم داخل المدينة، وفي الوقت نفسه يكون البحر بالنسبة لهم نقطة ارتكاز هجومية، بعكس آل يماني القادمين من الداخل الحضرمي، وعليه لم تصمد الشحر كثيرًا في أيدي آل يماني، إذ سرعان ما تم انتزاعها منهم، لتسقط على الأرجح في يد عشيرة آل أبي دجانة وليس غيرهم.

إنَّه ليهمنا كثيرًا تحديد هوية حاكم الشحر من آل أبي دجانة في هذه المدَّة (مطلع القرن التاسع الهجري)، صحيح أنَّ آخر من ورد ذكره من تلك القوة القبلية المشقاصية التي قدمت المدينة آنذاك هو سعد بن أحمد الشماسي الثعيني[1]، والذي لا يُعلم عنه شيءٌ بعد هذا التاريخ، إلا أنه حتمًا كان من أمراء القوم وقادتهم[2]، فهو الذي قاد القوة المشقاصية لتحرير الشحر، وهو أيضًا الذي ترأس الوفد الذي ذهب إلى الرسوليين للتباحث معهم في شأن نائبهم المتمرِّد (ابن بوز)، وهو الذي عقد الاتفاق مع ابن بوز برعاية آل باوزير، وهو أيضًا من استلم المدينة وحماها، بل حكمها لمدَّة.

١ عند علوي الحداد، الشامل، ص١١٢: (سعد بن أحمد بن شماسة الشعيثي الكندي).

٢ جاء في قلادة النحر (٦/ ٣٨٤) ضمن حوادث سنة ٨٠٤هـ: ((قدم القاضي موفق الدين علي بن أحمد الأصبحي المعروف بالضرعاني إلى الشحر ناصرًا، والأمير يومئذ ابن شماسة، فقتل القاضي المذكور في تلك السنة)).

وتطالعنا بعض مصادر التاريخ الحضرمي بحادثة وقعت سنة (٨١٣هـ/ ١٤١٠م) ومفادها أنَّ ابن فارس أخذ ((قرية آل بلحاف وأخرجهم منها، فخرجوا إلى الشيخ علي بن عمر بن فارس، فأرسل بعض الفقراء إليه فلم يجبه، فسار بنفسه إليه، فرد القرية إلى أهلها))[1]. ولا ندري من المقصود بابن فارس هذا، أهو سعد الذي سبق ذكره أم شخص آخر.

السلطان سعد بن فارس أبو دجانة:

ذهب بعض المؤرخين إلى أن حاكم الشحر في النصف الأول من القرن التاسع الهجري هو سعيد بن مبارك بن فارس بادجانة الكندي[2]، وهو عند شنبل: سعد بن فارس أبو دجانة، كما ذكره ضمن حوادث سنة (٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م)، وهذا الاسم الأخير هو الذي ذكره تقي الدين المقريزي في طرفته العجيبة، حينما فرغ من تأليفها سنة (٨٤١هـ/ ١٤٣٧م)، إذ أشار إلى أنَّ متولي الشحر هو سعد بن فارس أبا دجانة الشعيثي، هكذا ورد عنده. ومما لاشك فيه أنَّ هناك تصحيفًا ما في الاسم لدى مَنْ قال بأنه (سعيد بن مبارك)، ولعلَّ من ذكر الاسم هكذا التبس عليه الأمر، وذلك أن آخر

---

١ شنبل، تاريخ حضرموت، ص١٥٩.

٢ باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١٥٠. وورد الاسم نفسه عند صلاح البكري في تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١١٦). ويَرِدُ في تاريخ شنبل ص١٧٠ضمن حوادث سنة ٨٣٢هـ اسم (سعد بن فارس أبا دجانة) الذي سار من حيريج صالاً على ظفار وهي لآل علي بن عمر. وورد في هامشه نقلًا عن كتاب الجواهر: (سعيد بن مبارك بادجانة). في حين نجد عند تقي الدين المقريزي في كتيِّبه (الطرفة العجيبة في أخبار حضرموت العجيبة) أن حاكم الشحر في أثناء تأليف كتيُّبه هذا هو (سعد بن فارس)، وكان الفراغ من تأليفه سنة ٨٤١هـ.

سلاطين آل أبي دجانة نهاية النصف الثاني من القرن التاسع الهجري ومطلع القرن العاشر هو السلطان (سعد بن مبارك بادجانة)، وبعضهم يكتبه مصحَّفًا (سعيد).

إنَّ ما يهمنا أنَّه في العقدين الثاني والثالث من القرن التاسع الهجري، كانت الشحر ومعها حيريج تابعةً لسلطة آل أبي دجانة، وكان الحاكم عليها هو سعد بن فارس أبا دجانة، وقد استطاع هذا الحاكم أن يوطد أركان دولته ويعزز سلطته وسيطرته، مستفيدًا مما يدرُّه عليه ميناءا الشحر وحيريج من مكاسب، ومن انهيار ميناء عدن المنافس الشرس، بعد أن عزفت عن دخوله السفن التجارية القادمة من الهند، وتوجه بعضها مباشرةً إلى موانئ الحجاز لأسباب لسنا بصدد بيانها هنا.

ومن الواضح أنَّ هذا السلطان كان يتطلع لبسط نفوذه وسيطرته، فقد اهتم كثيرًا بشراء السفن والمراكب التجارية والحربية وبنائها، بل حاول التمدد إلى ظفار وانتزاعها من خصومه آل كثير مثلما حدث سنة (٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م)[1]، وقد ((اهتمَّ عقب توليه الشحر بتحسين حالتها الاقتصادية، فبعث رسله إلى القبائل البدوية يدعوها إلى القدوم بقوافلها إلى الشحر، لينافس بذلك الأسواق الحضرمية الأخرى، واستطاع الأمير سعد (عند باوزير والبكري سعيد) أن يوطد لحكمه في الشحر بما كان يقوم به من أعمال مجيدة أطلقت الألسنة بالثناء عليه، فقد سار في الناس بالعدل، وساسهم بالحكمة والحزم حتى أدركته المنية، فخلفه في الحكم ابنه))[2]، وقد ذهب بعضهم إلى أن من خلفه هو ابنه

---

١ شنبل، تاريخ حضرموت، ص١٧٠.

٢ باوزير، سعيد عوض، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١٥٠. ويرى البكري أن آل أبي دجانة انتزعوا الشحر من آل كثير سنة ٨٣٨هـ. ينظر: تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١١٦). وهذا وهمٌ منه.

(محمَّد)، ولكننا نعتقد أنَّ ابنه الأكبر (شماسة بن سعد) هو مَنْ خلفَه أوَّلًا، ثم آلت الإمارة إلى ابنه الأصغر (محمد بن سعد) الذي أصبح له شأن كبير سنبيِّنه.

إنَّ أهمَّ وأبرزَ حدثٍ واجه السلطان (سعد بن فارس بادجانة) في حياته، وواجه أيضًا منافسه سلطان ظفار (علي بن عمر الكثيري) وابنه عبدالله من بعده، ذلك الذي تمثل في مقدم الأساطيل الصينية الشهيرة من أعالي البحار، والذي عُرِفَ في التاريخ باسم (رحلات الكنز)، وكانت بقيادة الطواشي الصيني المسلم (تشينغ خه)[1]، وما رافقها من تبادل تجاري، وإرسال مبعوثين وسفراء، ومن المؤسف أنَّ مصادرنا المحلية لم تهتم بتدوين حدث كهذا أو حتى بالإشارة إليه.

الأسطول الصيني في الشحر (٨٠٨-٨٣٧ هـ/١٤٠٥م – ١٤٣٣م):

على الرغم من الشهرة الواسعة التي حظيت بها تلك الرحلات الاستكشافية السبع التي قام بها الصينيون في الثلث الأول من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، وما رافقها من كتابات وأبحاث ودراسات عززت من شهرتها وقيمتها، إلا أنَّنا للأسف ما زلنا نجهل الشيء الكثير عنها، بل نجهل ارتباط تلك الرحلات الصينية بحقبة تاريخية مهمة من تاريخنا الوسيط، كنّا وما زلنا في أمس الحاجة إلى سبر أغوارها واستجلاء غوامضها وأسرارها.

لقد حظيت مدينتا الشحر وظفار بزيارة تلك الأساطيل الصينية، ضمن مجموعة مدن أخرى (بنادر) على أطراف المحيط الهندي، ومن حسن الحظ أنَّ الصينيين احتفظوا بسجلات دوَّنوا فيها مشاهداتهم ومتاجراتهم في هذه البلدان.

---

١ في بعض المراجع: (تشينغ هو).

قائد الأسطول الصيني تشينغ خه:

اسمه العربي (حجي محمود شمس)، وهو أحد أحفاد حاكم منطقة (يونان) الصينية المسلمة، وينتمي إلى إحدى السلالات العلوية المنتشرة في آسيا الوسطى، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنَّه الحفيد السادس والثلاثون للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه[1]، وُلِدَ (شينغ خه) سنة (٧٧٢هـ/ ١٣٧١م)، وكان يُطلق عليه في صغره (ماسانباو)، ومعناها: (فتى الجواهر الثلاث)، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنَّ كلمة (ماسانباو) حُرِّفَت في الأدب الشعبي إلى (السندباد) صاحب الرحلات البحرية السبع المشهورة تمامًا كرحلات (تشينغ خه) السبع[2]، أُسِرَ في صغره من قبل أسرة (المينغ) التي حكمت الصين ما بين (١٣٦٨) و(١٦٤٤م)[3]، وقد تم خصيه وتقريبه من الإمبراطور الثالث من أسرة مينغ (يونج لي أو هوان – تي)؛ لمزايا كانت فيه، وجعلت الإمبراطور فيما بعد يُكلّفه بالإشراف على بناء تلك الأساطيل الاستكشافية وقيادتها بنفسه في حملات سبع متتالية. وتوفي (شينغ خه) سنة (٨٣٨هـ/ ١٤٣٥م)، وضريحه في منطقة (نانكنج) بالصين.

وكان قوام هذا الأسطول الصيني في رحلته الأولى التي انطلقت سنة (٨٠٨هـ) وعادت سنة (٨١٠هـ/ ١٤٠٥م – ١٤٠٧م)، ثلاثمائة وسبع عشرة سفينة، من نوع

---

١ العلوي، هادي، المستطرف الصيني، دار المدى للثقافة والنشر، سوريا، تاريخ الطبع ١٩٩٤ –٢٠٠٠م، ص٣٠٥. وذكر محيرز أنَّ جدَّه من أصل مغولي. ينظر: المرجع السابق، ص٤٧.

٢ خليل، محمد محمود، الخليج والجزيرة العربية في الوثائق والحوليات الصينية فترة العصور الوسطى، أسرة مينج نموذجًا، بحث منشور في مؤتمر العلاقات العربية الصينية، جامعة قناة السويس، ٢٠١٢م (نسخة إلكترونية).

٣ محيرز، رحلات الصينيين الكبرى، ص٣٣.

الزنك (الجنك)، منها اثنتان وستون سفينة تحمل الهدايا، وهي التي عُرِفَت بـ(سفن الكنز)، وعدد طاقمها (٢٨٨٧٠) رجلًا، بين جنود وضباط وملاحين وبنَّائين وكتبة ومترجمين[1].

أمَّا الرحلة السابعة والأخيرة، فكانت بدايتها في ربيع الآخر (٨٣٤هـ) الموافق ١٩ يناير ١٤٣١م، وعادت للصين في شهر صفر سنة ٨٣٧هـ الموافق ١٤ سبتمبر ١٤٣٣م، وكان عدد الزنوك فيها يربو على المائة، وعدد الرجال (٢٧٥٥٠) بين جنود وضباط وأطباء ومجدِّفين وحدادين وتجار ومترجمين وبحارة[2].

وفي الرحلة الخامسة التي استغرقت ما بين (٨٢٠ – ٨٢٢ هـ/ ١٤١٧–١٤١٩م) وهي على الأرجح الزيارة الأولى لهذا الأسطول الصيني لمدينة الشحر، وكانت في عهد حاكمها سعد بن فارس أبي دجانة[3]، حدث ذلك الاستعراض للعضلات من قِبَل الأسطول الصيني لإثبات القوة والتفوق، بل ذُكِرَ في بعض السجلات محاصرة هذا الأسطول للمدينة، وحدوث مناوشات طفيفة بين الطرفين، أعقبها صلح وتفاهمات وتبادل للزيارات والسفارات، والذي أكدته الرحلتان اللاحقتان[4].

---

١ محيرز، المرجع السابق ص٥٧.

٢ محيرز، المرجع السابق ص٦٤.

٣ وهذا ينفي القول بأن الشحر كانت حينها في أيدي الرسوليين (الغز)، وأن أبا دجانة استولى عليها لاحقًا.

٤ إن قوة هذا الأسطول الصيني جعلت من الملك الرسولي نفسه (الناصر أحمد)، يرحب بهذا الوفد الزائر أشد ترحيب، بل كتب هذا السلطان كتابًا لإمبراطور الصين يقول فيه: ((الأمر أمرك والبلد بلدك)). ينظر: ابن الديبع، الفضل المزيد. وفيه أن هذه الزيارة كانت سنة ٨٢٣هـ. ينظر: ص١٠٧.

وحقيقة لا نعرف بالضبط الدوافع الحقيقية لذلك الاستعراض الصيني، خاصة أنَّ أهداف تلك الرحلات لم تكن حربية، ولعلَّ التفسير الوحيد الذي يمكن أن نطمئن إليه يكمن في ما وجده الصينيون من حركة ملاحية واسعة في المياه الإقليمية، مع وجود عشرات السفن التي تغطي مداخل المدينة، بعض منها حربية لحماية المدينة ومطاردة القراصنة. وقد سبق أن أشرنا إلى اهتمام آل أبي دجانة خاصة بالملاحة البحرية، ولا يُستبعد أنَّ أبا دجانة نفسه حاول أن يبني أسطولًا حربيًّا لحماية المياه الإقليمية للمنطقة وتأمينها، وهو الأسطول الذي عمل على تطويره من بعده ابنه الأمير محمد، وغزا به عدن.

كما وردت بعض إشارات إلى الرحلة في السجلات الصينية، فقد قام الأسطول بزيارة المدينة (الأسعاء) ومقابلة حاكمها، كما طلب من الحاكم تقديم سفراء وتجار يمثلونه ويمثلون بلاده لحملهم معهم في أثناء عودتهم إلى امبراطور الصين للقيام هناك بمراسيم السفارة، على أن يُعاد هؤلاء السفراء والتجار إلى أوطانهم معزَّزِين مكرَّمين في الرحلة اللاحقة. وما زالت تلك سجلات الرحلات حافلةً بالكثير من المعلومات التي تنتظر مزيدًا من البحث.

ومن المؤسف أن هذه الرحلات كلها تُنسَب في بعض الدراسات لـ(الأحساء)، وليس (الأسعاء)[1]، في مدة حاكم الأحساء آنذاك (إبراهيم بن ناصر بن جروان)،

---

١ حدث لبس وخطأ لدى بعض الباحثين الذين كتبوا عن هذه الرحلة، وخاصة في تحديدهم للبلد الذي زاره الأسطول الصيني، فقال بعضهم: الأحساء، وقال آخرون: الأسعاء، والسبب يعود على الأرجح إلى الترجمة، وإلى جهل بعضهم باسم (الأسعاء) الاسم القديم الذي أُطلِقَ على مدينة الشحر الحالية، إذ أثبت الباحثون التسمية بالحروف اللاتينية (la.sa)، واختلفوا في تحديد موقعها، إلا أنَّ الخرائط الصينية تؤكد وقوعها ما بين ظفار وعدن. والمستشرق (سارجنت) يذكر أنَّ تلك الرحلات الصينية كانت إلى الأحساء، إلا أنه يتدارك=

وسببُ هذا الخلط هو وجود لَبْسٍ في الترجمة الصينية. ولعلَّ الوثائق التي لا تزال محفوظة لدى الصينيين تقدم لنا حقائق أخرى ومعلومات مستفيضة عن هذه الرحلات[1]، بل هي الفيصل عند اختلاف وجهات النظر.

ونورد هنا ما كتبه أحد أعضاء الرحلة ومترجميها عن مشاهداته داخل المدينة، وهو صيني مسلم يُدعى (ماهوان) ويلقب بـ(تسونغ داو)، يقول عن الشحر: ((يمكن الوصول إليها من قاليقوط تحت ريح طيبة في عشرين يومًا، وهي على ساحل البحر، وسورها من الحجر، وهي مجاورة لتلال (أو إنَّ التلال قريبة منها) في صحراء ليس فيها زرع، وتُعلف البقر والخراف والجمال والخيل بسمك البحر المجفَّف، ومناخها حار دائمًا، وتربتها قاحلة، وغلتها الزراعية قليلة، إلا أنه يُزرع فيها البُرُّ، ولا ينزل فيها المطر لسنوات متتابعة، وتُحفر فيها الآبار ويُسحب الماء منها بواسطة زوجين من العجلات المسنَّنة وقِرْبَةٍ من جلد الخروف، ويَعقد كلا الجنسين شعرَهم بشكل ضفائر، ويلبسون عباءات طويلة، وتغطي النساء رؤوسهن كما تعملن في هرمز، وجدارها (سور المدينة)

=فيبدي استغرابه من عدم إيراد ميناء الشحر (الأسعاء) في سجل تلك الزيارة، دون أن يتحقق من الأمر، وإنما اعتمد على ترجمة المستشرق الإنجليزي (مايلز) لكتاب الصيني (ماهوان) المعنون بـ(مشاهداتي في شواطئ المحيط الظافر) الذي نشرته جامعة كمبريدج سنة ١٩٧٠م. ينظر: ر. ب. سارجنت، التجار والتجارة في اليمن من القرن ١٣ – ١٦م، نشر في كتاب دراسات في تاريخ اليمن الإسلامي، صادر عن المعهد الأمريكي للدراسات اليمنية، ترجمة وتقديم د. نهى صادق. ص٧٣. وللمزيد عن الموضوع ينظر: محيرز، مرجع سابق، ص١٣١، ومحمد محمود خليل: الخليج والجزيرة العربية في الوثائق والحوليات الصينية فترة العصور الوسطى، أسرة مينج نموذجًا.

١ هناك ثماني وثائق أوردها الدكتور محمد خليل في بحثه السابق وعدها خاصة بالأحساء، ونظن أنها تختص بالأسعاء (الشحر)، ولكن لا نجزم بأحد القولين إلا بعد التأكد والاطلاع.

من الحجارة، وبيوتها من الطين، ويبلغ ارتفاعها ثلاثة أو أربعة طبقات، وفي أعلاها تقع المطابخ وغرف النوم حيث يقيم الضيف، وأما الطوابق السفلى فيعيش فيها العبيد، ومنتجاتها: العنبر، البخور، الجمال السريعة. وأهلها مخلصون، ويقيمون الشعائر لجنائزهم، ويتجهون في دعائهم إلى الآلهة والشياطين[1]، وتأثرًا بما قابله ملك هذه البلاد من عطف الإمبراطور أرسل رسالة منه على ورقة من ذهب وهدايا للتعبير عن الخضوع والولاء، أما البضائع (التي باعها الصينيون) فهي الذهب والفضة والمخمل والحرير الصيني والأرز والفلفل وخشب الصندل والصمغيات))[2]. ولا ننسى أن تلك الرحلات التي قام بها الصينيون شملت كذلك ظفار وعدن في عهد حاكم ظفار ومؤسس الدولة الكثيرية في حضرموت السلطان علي بن عمر الكثيري (ت: ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م)[3]، وأثناء حكم الرسوليين لعدن.

ولا تُعلم نهاية السلطان سعد بن فارس، إلا أن ثمة إشارة أوردها تقي الدين المقريزي إلى بعض العلل التي أصابت هذا السلطان، وذكر المقريزي أنَّها بسبب سحر

١ يجب ألا تؤخذ هذه اللفظة حسب معناها الظاهر، فهناك ترجمات متعددة للنص، كما أن هناك ترجمات أخرى لم ترد فيها هذه اللفظة، وقد نقلتها هنا كما هي للأمانة العلمية.

٢ محيرز، مرجع سابق، ص٨٩ – ٩٠. وتنظر ترجمة أخرى للنص في بحث الدكتور محمد خليل . مرجع سابق. وقد أظهرت بعض التنقيبات الحديثة في المدينة التي قامت بها الباحثة الفرنسية (كلير هاردي) في الموضع المسمى (دار البياني) شمال الجمرك، وجودَ قطع خزفية تنسب لمقاطعة (هونان) الصينية، وعملات صينية تظهر التبادل التجاري بين البلدين. تنظر: مجلة سعاد، العددان ٥ و ٦، أكتوبر ٢٠٠٨م، مارس ٢٠٠٩م.

٣ توفي هذا السلطان عند محمد بن هاشم سنة ٨٢٥هـ. ينظر: تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ١٦). وعند شنبل توفي سنة ٨٣١هـ. ينظر: تاريخ حضرموت ص١٧٠. وهو غير السلطان علي بن عمر بن جعفر المتوفى سنة ٩٨١هـ.

أصابته به جارية له، يقول: ((وهذا بعينه ما أصاب سعد بن فارس الشعيثي (متولي الشحر الآن) فإنه ذاب لحمه كله، فحُمِلَ بين أربعة إلى البحر، وقد جُمِعَ عدة ممن يُتَّهَم بهذا العمل (أي السحر)، وضُرِبَ بالطبل على رأسه، فخرج القول على جاريته، فجُدِعَ أنفها بعد أن غسلته وبرئ. (قال) ومن عمل قبيلة سعد بن فارس هذا الذين يقال لهم (الشعاوثة) أن من أصابته لَقْوَةٌ في وجهة حُمِلَ إليهم حتى يضربوا على لحييه، فبمجرد ضربهم لِحْيَيْهِ يبرأ في الحال))[1]. وقد تطرقنا لهذا الموضوع بالتفصيل في كتابنا من الفولكلور الحضرمي (مخطوط).



خارطة توضح خط سير الرحلات الصينية التي قام بها أسطول (تشينج خه)
ويظهر بوضوح خط المدينة (الأسعا)
المصدر: ويكيبـيديا، مادة (ZhengHe)

---

١ المقريزي، تقي الدين، الطرفة العجيبة في أخبار حضرموت العجيبة، ص٢٨. ونلاحظ في النص نسبة السلطان إلى قبيلة الشعاوثة.



نصب تذكاري بمدينة الشحر يحاكي مقاومة الأجداد



نصب تذكاري للقائد (تشينغ خه)

أمَّا من الناحية السياسية فلعل في نص المقريزي السابق وخاصة قوله عن السلطان: ((متولي الشحر الآن)) ما يوحي بوجود حاكم آخر قبل السلطان سعد بن فارس عاصره المقريزي، وأنَّ السلطان سعد بن فارس هذا استلم السلطنة عن قريب، علمًا بأنَّ المقريزي كما أشرتُ قبلُ قد فرغ من تأليف كتابه هذا سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م، بل إنَّ لفظة (متولي) الواردة في النص توحي بأنَّهُ كان نائبًا لجهة ما لحكام هذه البلاد (الرسوليين افتراضًا)، أو أنَّ سعد بن فارس كان حاكمًا على منطقة أخرى (حيريج)، ثم تولى الشحر بعد غياب صاحبها أو موته أو مقتله، وقد أوردنا سابقًا رواية المؤرخ سعيد باوزير التي تفيد أنَّ السلطان سعيد بن مبارك كان حاكم الشحر في النصف الأوَّل من القرن التاسع الهجري، وضُعِّفَت هذه الرواية لأنَّ الثابت أنَّ سعد بن مبارك كان حاكم المدينة في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، وبعض المصادر والمراجع تشير إلى وجود الرسوليين في المدينة على الأقل في العقدين الأولين من القرن التاسع الهجري[1]، بل تشير هذه المصادر إلى أنَّ الرسوليين عاودوا هجومهم على الشحر، وقاموا بمحاصرتها سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م، لكنَّهم فشلوا وعادوا مدحورين إلى بلدهم[2].

١ قال المؤرخ شنبل في تاريخه ضمن حوادث سنة ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م، ص١٧٣: ((وفيها قتلوا الغز أبا قديم وقد أمنوه في الشحر)). يقصد أبا قديم السيباني.

٢ شنبل، ص١٧٣.

أمَّا المؤرخان محمد عبدالقادر بامطرف وعبدالرحمن الملاحي، فقد أكَّدا أنَّ الشحر كانت خاضعة للرسوليين، إلى أن هاجمهم أبو دجانة وانتزعها منهم سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م[١].

إنَّنا نرجح وجود السلطان سعد بن فارس في بداية العقد الثاني من القرن التاسع الهجري، وفي عهده قدمت تلك الأساطيل الصينية السابق ذكرُها، وتوفي لاحقًا تاركًا خلفه ولدين صغيرين أحدهما (شماسة) والآخر (محمد)[٢]، وتربَّيا تحت رعاية أمهما بنت معاشر، وأخوالهما المهرة من بيت محمَّد، ووزير والدهما المخلص سليمان بن عبود بن تاية الشحري، وقد استلم الابن الأكبر شماسة بن سعد السلطةَ بعد وفاة أبيه، إلا أن المنية عاجلته وهو في ريعان الشباب، إثر مرض أصابه سنة (٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م)، ودُفِنَ في مدينة الشحر[٣]، وقد أوصى لأخيه الصغير بالعرش من بعده.

ومن الواضح أن هذه المرحلة بالذات، تُعدُّ من أحلك المراحل وأشدها التي مرَّت بها أسرة آل أبي دجانة في مدينة الشحر، فالمتربصون بالإمارة لا يكادون يبارحون أسوار المدينة، وعلى رأسهم القوة الكثيرية التي بدأت تتشكل وتتوسع في أرجاء حضرموت

١ يرى الملاحي أنَّ أبا دجانة استطاع في هذا التاريخ انتزاع الشحر من الرسوليين، وأنَّ محاولات الرسوليين اللاحقة لاستعادتها باءت كلها بالفشل. وهذا يعني أنَّ الرسوليين كانوا هم المسيطرين. ينظر: مدينة الشحر بوابة حضرموت ص١٨٥، وبامطرف، محمد، المختصر في تاريخ حضرموت، ص٩٦. ويرى المؤرخ صلاح البكري أنَّ آل كثير كانوا يحكمون الشحر إلى أن انتزعها أبو دجانة سنة ٨٣٨هـ. ينظر: تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١١٦). وفي ظني أنَّ هذا وهم.

٢ ذكرت بعض المراجع أنه بعد وفاته في حيريج تولى السلطنة ولد أخيه (مبارك). ولا ندري أكان مبارك هذا ولد شماسة المذكور سابقًا، أم أنَّ لدى محمد أخًا ثالثًا يُدعى (مبارك).

٣ الحداد، علوي، الشامل، ص١١٢. وفيه: ((شماسة بن سعد بن فارس أبو دجانة الشماسي الكندي الشعيثي)). وينظر: شنبل، تاريخ حضرموت، ص١٧٩.

وظفار كافَّة، كما أنَّ العناصر غير الموالية في الداخل تحاول زعزعة الأمن وبث الخوف والرعب في نفوس الناس، فكان لا بد للأسرة الحاكمة من المحافظة على رباطة جأشها حتى لا تخرج الأمور عن سيطرتها، ولا بد لها أيضًا من الحزم والشدة في أوضاع كهذه.

وقد استطاعت أم السلطان (بنت معاشر) بمساندة إخوانها من بيت محمد[1] والوزير ابن تاية، تأمينَ المدينة داخليًّا من خلال القضاء على الفتن والاضطرابات، وتعزيزها خارجيًّا من خلال زيادة عدد الحراسات وتمتين الأسوار، كما استطاعوا استمالة عامة الشعب عن طريق رفع الضرائب (العشور) عنهم، مع دعم السلع الضرورية، فضلًا عن فتح باب التجنيد الاختياري والحشد بالدعاية والخطب على المنابر والأسواق ضد الغزاة القادمين.

وواضح أنَّ هذه الإجراءات والخطوات قد آتت أكلها، إذ ما كاد يصل للأسماع أن القوة الكثيرية (التي قد أعياها حصارها للمدينة أكثر من مرة دون فائدة) قادمةٌ مجددًا لغزو المدينة، ومصممةٌ على إسقاطها مهما كلَّف الأمر بقيادة السلطان عبدالله بن علي الكثيري؛ حتى سارع جنود أبي دجانة بقيادة الوزير سليمان بن تاية ومعهم المجنَّدون والمتطوِّعون من أهل البلاد للخروج وملاقاة هؤلاء الأعداء، ولم ينتظروا بلوغهم المدينة، وقد حظيت هذه الحملة الهجومية بدعم سخي من التجار انتقامًا ممَّا فعلته تلك

١ جاء في هامش كتاب (تاريخ المهرة) عن بيت محمد ما نصه: ((بيت محمد قبيلة مهرية، وهذا ما ذكره جميع مؤرخي حضرموت، ولم أر أحدًا منهم-أي المؤرخين-نسبهم إلى غير مهرة، وقد ذكر نسبهم المقحفي إلى قبيلة رعفيت المشهورة حاليًّا في بلاد المهرة (ضبوت، حوف...)، وبيت محمد هم ما يسموا حاليًّا بيت محامد في منطقة عتاب)). الجدحي، تاريخ المهرة، ص١٦٤. وثمة إشارة في تاريخ حضرموت للمؤرخ شنبل تفيد أن أخوال آل أبي دجانة هم آل عفرار. ينظر: ص١٨٨.

القبائل من سلب ونهب لقوافلهم سابقًا. وبالفعل تمَّت ملاقاة هذه القوة قريبًا من منطقة الحامي (الظاهر)، وكان لعامل المفاجأة والإصرار على إحراز النصر والاستبسال أثرٌ في حسم المعركة لمصلحة آل أبي دجانة وهزيمة الكثيري وعسكره الذين خسروا قرابة خمسين رجلًا[1].

١ الحداد، الشامل، ص١١٣، وشنبل، تاريخ حضرموت، ص١٧٩. وفيه قوله: ((وفيها (أي سنة ٨٤٨هـ) سار السلطان عبدالله بن علي لمحاربة الشحر، وفيها حينئذ ولد صغير لسعيد بن فارس، وله أم قائمة بالأمر مع مساعدة بيت محمد، وكان مسيره آخر رمضان، ووصلوا إليها في شوال وقربوا من الشحر، حتى وصلوا مكان يسمى الظاهر حول الحامي وخرد، فخرجوا لهم أهل الشحر، وكانت وقعة بين الفريقين فهزم آل كثير ومن معهم، وقتل من أصحابه قريبًا من خمسين أشهرهم يماني وعمر ولدي عبدالله بن علي، ونصار ولد محمد بن علي، وهجام بن بدر بن عمر، وخادم اسمه مطران وابنه)).

الحركة العلمية في هذه المدّة
(النصف الأول من القرن التاسع الهجري)

إن هذا النصر الذي تحقق عزَّزَ من ثقة الشعب بحاكمه، وزاد من هيبة هذه الإمارة في النفوس، وقد حاولت الإمارة في هذه المدة استغلال الأوضاع لمصلحتها، والعمل على تعزيز أمنها ورخائها من خلال الاهتمام بالتجارة وشراء السفن التجارية والحربية وبنائها، وفي هذا يقول المؤرخ عبدالرحمن الملاحي: ((دام حكم آل بادجانة مدى خمسة وستين عامًا، بدءًا من عام (٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م-١٤٩٥م)، أولوا فيها المدينة عناية كبيرة بتجارتها وحركتها ونشاطها البحري والتجاري، فاتسع عمران المدينة بازدياد الوافدين إليها والمقيمين بها، وتطور بنيانها واقتصادها، فنعمت المدينة خلال حكمهم بالاستقرار الأمني))[١]. وإن كنا نظن أنَّ مدة تولي آل أبي دجانة قبل ذلك التاريخ الذي حدده الملاحي بعقدين على الأقل.

وفي هذه المدة (النصف الأول من القرن التاسع الهجري) شهدت البلاد توافد الكثير من الفقهاء والأدباء والشعراء وطالبي الرزق، ويلاحظ أن غالبية العلماء الوافدين قدموا إليها من منارة العلم تريم، أو من دوعن، ومن أبرزهم الشيخ عمر المحضار بن عبدالرحمن السقاف (ت:٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م)[٢]، والشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بلحاج

١ الملاحي، عبدالرحمن، بوابة حضرموت الجنوبية، ص١٨٥.

٢ تنظر ترجمته في: باوزير، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، ص١٣٥، وعبد النور، الحياة العلمية، ص٦٥.

بافضل[1]، والشيخ أبو الطيب عبدالله بن أحمد بامخرمة من الهجرين (ت:٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م)[2].

كما برزت آنذاك مدينة (غيل باوزير) بوصفها إحدى حواضر العلم، التي تُشدُّ إليها الرحال، وتُهاجر إليها الرجال، حيث مشاهير العلم والتصوف أمثال الشيخ عبدالرحيم بن سعيد بن عبدالرحيم باوزير (ت:٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م)[3]، بغية التلقي من مناهلهم وعرفانهم، وقد أنجبت الغيل الكثير من العلماء والفقهاء والقضاة والمشاهير في تلك المدة (القرنين الثامن والتاسع الهجريين)، منهم العلامة محمد بن أحمد باحميش (ت:٨٦١هـ/ ١٤٥٦م)[4]، والفقيه العلامة محمد بن أحمد باجرفيل[5]، والعلامة القاضي مسعود بن سعد باشكيل (ت:٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م)، والقاضي جمال الدين محمد بن مسعود باشكيل (ت:٨٧١هـ/ ١٤٦٦م)[6]، وغيرهم كثير.

---

١ تنظر ترجمته في: الملاحي، عبدالرحمن، مدينة الشحر بوابة حضرموت، ص١٩٥.

٢ تنظر ترجمته في: باوزير، الفكر والثقافة، ص١٣٧.

٣ تنظر ترجمته في: باوزير، الفكر والثقافة، ص١٣٩، وصفحات من التاريخ الحضرمي ص١٤٦. وننبه على أن باوزير أورد تاريخين لوفاة المترجم له. ينظر: الفكر والثقافة ص١٣٩-١٤٠. وأشار باوزير إلى أنه ينقل بعض ما ورد في الترجمة من كتاب الشرجي طبقات الخواص، في حين أن اسم المترجم له في (طبقات الخواص ص١٧١) هو (أبو محمد عبدالرحيم بن أحمد بن أبي وزير الحضرمي، وهو الملقب في حضرموت بصاحب الفيل، وليس عبدالرحيم بن سعيد الملقب بصاحب الطرائق) كما ذكر باوزير في ترجمته. وهذا قد يفهم أن هناك شخصيتين، أو أن المؤرخ باوزير التبس عليه الأمر. وعن الغيل بوصفها مركزًا علميًّا ينظر: عبدالنور، الحياة العلمية،ص٥٦.

٤ تنظر ترجمته في: باوزير، الفكر والثقافة، ص١٣٧.

٥ تنظر ترجمته في: باوزير، الفكر والثقافة، ص١٤٣. وفيه أنه توفي سنة ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م. أما ترجمته في النور السافر للعيدروس ص٤٨ فتفيد أنه توفي سنة ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م. ومثله في: تاريخ الشحر لبافقيه ص٢٨.

٦ تنظر ترجمته في: قلادة النحر (٦/ ٤٣٩).

ومن ريدة المشقاص برز الفقيه والقاضي والمؤرخ عبدالرحمن بن علي بن حسَّان (٧٥٠-٨١٨هـ/ ١٣٤٩-١٤١٥م)[١]، ووالده الفقيه الزاهد علي[٢].

أمَّا في الشحر فقد برز عدد من الفقهاء والقضاة، أشهرهم الشيخ فضل بن عبدالله بافضل (ت:٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م)[٣]، وهو أحد الوافدين من تريم، وقد أقام مسجدًا ورباطًا في الناحية الغربية من الشحر (خارج السور)، وكانت له مواقف مع ابن بوز عامل الرسوليين على الشحر، ذكرتْها بعضُ المصادر. ومنهم الفقيه عبدالله بن أحمد هراوة (ت:٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، الذي يُنسب إليه المسجد المسمى (باقرين)[٤]، مع أنَّ هذا المسجد معروفٌ باسم (باقرين) قبل ظهور الفقيه (باهراوة)[٥]، وما زال يُعرف به إلى اليوم، فلعلَّ الفقيه كان مُعلِّمًا فيه واشتهر به، أو أنَّه أحد مجددي بنائه، فنُسِبَ إليه مثل كثير من المساجد الأخرى التي تُنسَب إلى غير أصحابها. ومنهم الشيخ سعيد بن أحمد

١ تنظر ترجمته في: شنبل، تاريخ حضرموت، ص١٦٢، وباوزير، الفكر والثقافة، ص١٢٦.

٢ تنظر ترجمته في: قلادة النحر (٦/ ٣٥٤)، وعبدالنور، الحياة العلمية، ص٧٥.

٣ تنظر ترجمته في: بامخرمة، قلادة النحر(٦/ ٣٦٥)، وباحسن، نشر النفحات، ص٣٩٤، والملاحي، عبدالرحمن، مدينة الشحر بوابة حضرموت، ص١٩٥. وفي طبقات الخواص للشرجي ص٢٥٨ أنه توفي بعد سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م. ولعله يقصد عبدالله بن محمد بافضل، الذي ذكره شنبل في تاريخه ص٢٠٠ ووصفه بالرجل الصالح، وأنه توفي سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م.

٤ الملاحي، عبدالرحمن، مدينة الشحر بوابة حضرموت، ص١٩٦. وقد اشتهرت هذه الأسرة في الشحر بالفقه، ومنهم جمال الدين محمد بن أحمد باهراوة، والفقيه عفيف الدين عبدالله بن أحمد باهراوة. ينظر: بامخرمة، قلادة النحر (٤/ ٤٠٧).

٥ سبق أن أشرنا إلى أحد معلمي مسجد باقرين، وهو الفقيه حسن بن علي باجبير (ت: ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) تقريبًا، الذي ذكره المؤرخ البهاء الجندي في كتابه السلوك في طبقات العلماء والملوك (٢/ ٤٦٠). وهذا دليل على أن المسجد أُقِيمَ قبل زمن الفقيه باهراوة.

باغريب الشحري، وهو من تلامذة الشيخ عمر المحضار[1]، ومن ذريته الشيخ أحمد سعيد باغريب، صاحب المسجد المشهور الذي يحمل اسمه[2]. ومنهم كذلك الفقيه المحدث الشيخ أحمد بن قضيمتي، صاحب المسجد المشهور باسمه في عقل باغريب، بناه سنة (٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م)، وهو العام نفسه الذي جدد فيه هذا الشيخ الكريم عمارة مسجد (الجامع)[3].

ومن الشخصيات البارزة التي وفدت إلى الشحر لتلقي العلم والمعرفة الشيخ محمد بن سعيد بن كبن الطبري (ت:٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م)[4]، الذي تلقى العلم على يد الشيخ فضل بن عبدالله بافضل[5]، والفقيه عبدالله بن علي بن أبي حاتم[6]، وغيرهم.

١ باوزير، سعيد، الفكر والثقافة، ص١٣٥.

٢ تنظر ترجمة الشيخ أحمد باغريب في: حداد، معجم شعراء العامية الحضارمة ص٣٢.

٣ بامطرف، محمد، الشهداء السبعة، ص٣٩.

٤ تنظر ترجمته في: بامخرمة، قلادة النحر (٦/ ٤٠٦).

٥ تنظر ترجمة الشيخ فضل في: إدام القوت ص١٩٩، وقلادة النحر (٦/ ٣٦٥).

٦ توفي سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م. شنبل، ص١٥٥.

السلطان محمد بن سعد بن فارس أبو دجانة[1]:

لقد شب هذا السلطان بعد أن عهد له بتولي السلطنة خلفًا لأخيه الأكبر (شماسة الذي وافته المنية وهو في ريعان الشباب سنة (٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م)، وتلقى هذا السلطان الرعاية الكاملة والاهتمام الكبير من والدته السيدة الحرة (بنت معاشر)[2]، ونشأ في رعاية وحماية من أخواله من بيت محمد المهريين[3].

ونلاحظ أن السلطان محمد أصبح سلطانًا في المدة نفسها التي أصبح فيها الملك الرسولي المسعود أبو القاسم حاكمًا، وهو آخر سلاطين آل رسول، وكان أيضًا صغيرًا في السن، استلم الحكم سنة (٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م)، وكان عمره حينذاك لا يتجاوز الثالثة عشرة[4]،

---

١ تذكر عدد من المراجع أن اسمه (محمد بن سعيد). وهذا في ظني وهم، كما يظهر من تتبع الأسماء والأحداث، وأعتقد أن ثمة تصحيفًا في الاسم، وتناقله الناقلون فشاع، والغريب في الأمر أن الكتاب الواحد يتعرض لذكر هذا السلطان، فتارة يسميه (محمد بن سعيد) وتارة أخرى (محمد بن سعد). ينظر على سبيل المثال: الحداد، علوي، الشامل، ص١١٤، ص١١٥، وبامطرف، الشهداء السبعة، ص٢٧-٢٩. وتكاد تجمع المراجع على أنه من قبيلة كندة. وعن (محمد بن سعيد) ينظر: البكري، تاريخ حضرموت (١/ ١١٨).

٢ لا يُعلم اسم هذه السيدة الحرة التي تنتمي لأسرة آل معاشر، وثمة افتراض أن يكون اسمها (سعاد)، وهو من أسماء الشحر، ولا نعلم لماذا سميت الشحر بسعاد. وقد وُصِفَت (بنت معاشر) هذه بأنها امرأة كاملة ذات حزم وعزم. ينظر: بامخرمة، قلادة النحر (٦/ ٤٥١)، والحداد، الشامل، ص١١٦. ووصفها المؤرخ باوزير بقوله: ((معروفة بالذكاء ورجاحة العقل وحسن السياسة)). صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١٥٠. وأكثر صلاح البكري من نعتها. ينظر: تاريخ حضرموت السياسي(١/ ١١٨).

٣ في إشارة للمؤرخ شنبل أن أخوال آل بادجانة من آل عفرار المهريين. ينظر ص١٨٨. ويرى صلاح البكري أن آل أبي دجانة من كندة، وأن والدة السلطان كندية. ينظر: تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١٢٢).

٤ ابن الديبع، الفضل المزيد، ص١١٨.

أي قبل استلام السلطان محمد الحكم بسنة واحدة، فلعل سن السلطان محمد قريب من سن هذا السلطان.

شب السلطان محمد ذا طموح جامح، إذ استفاد من استقلالية بلاده وعدم تبعيتها لملوك اليمن، باستثناء علاقات المصالح المتبادلة[1]، وأيضًا استفاد من حالة الهدوء والاستقرار النسبي داخل المدينة، ليشرع في شراء السفن التجارية والحربية، وإعداد المقاتلين البحريين، ولعله قد شاهد في طفولته أو سمع من والدته عن تلك الأساطيل الصينية التي غطت الآفاق، ومُلِئَتِ النفوس منها رهبةً وخوفًا، وعمَّا قام به الصينيون من مناوشات مع الحامية البحرية التابعة لوالده السلطان سعد بن فارس، وكيف استكانوا له بعدها طالبين السلم والتبادل التجاري معه، فضلًا عن ولع هذه الأسرة المتوارث بالبحر وعلاقتهم المباشرة بجزيرة سقطرى، التي أصبحت على مدى قرون إمارةً مهريةً بامتياز[2].

لقد أراد هذا الأمير الطموح أن يكسر التقليد، وأن يخلِّد لنفسه مآثر تتحدث عنها الأجيال من خلال بناء أسطول حربي ضخم، يستطيع به بلوغ الآفاق وفتحها، وشرع في بناء الأسطول مستعينًا بمَنْ لديه من العمال المهرة من الشحر والحامي وقشن وحيريج، كما قام أيضًا بشراء الكثير من العبيد الأقوياء، بل فكر في الاستعانة بجنود مرتزقة من الخارج يساعدونه على تحقيق طموحاته الجامحة رغم اعتراض والدته ووزير دولته، وربما دخل في علاقة صداقة مع قرينه في السن والحكم السلطان المسعود الرسولي.

١ سنلاحظ في الفقرة القادمة أن هجوم السلطان محمد على عدن لم يكن، كما أُشِيعَ، سعيًا لاحتلالها، بقدر ما هي محاولة منه لإنقاذ حلفائه التقليديين (آل رسول).

٢ ينظر للتفصيل: بامطرف، محمد، لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى، ص٥٧.

وبينما كان الأمير محمد بن سعد ينشئ أسطوله البحري، كان الوضع في مختلف مناطق حضرموت الوادي تتنازعه العشائر والقبائل المتصارعة، ولعل هذا يفسر لنا النزوح الكبير للعلماء والأدباء السابق ذكرهم من مناطق حضرموت الداخل إلى مناطق الساحل، واستيطان بعضهم في الشحر، ولعلَّ حالة الاستقرار والثراء التي بدأت تسود الشحر بسبب ازدهار التجارة فيها، والكرم الحاتمي للسلطان محمد ووالدته، هو ما أسهم بقدر كبير في أن يقدم بعض أولئك الفقهاء ليكونوا تجارًا ومستثمرين إلى جانب كونهم فقهاء ورجال دين.

أمَّا على الصعيد اليمني، فيمكن القول إن الدولة الرسولية منذ مطلع القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) كانت تحتضر؛ بسبب المنافسة المحمومة على السلطة بين الإخوة والأبناء والأحفاد من جانب، وبسبب الحروب التي لا تهدأ مع الأئمة الزيديين من جانب آخر، فنلاحظ أنه فقط خلال المدة التي كان فيها السلطان سعد بن فارس أبو دجانة والد الأمير محمد متوليًا على الشحر وحيريج، تداول السلطة من سلاطين آل رسول في مركزهم خمسةٌ على الأقل، وهم الملك الأشرف الثاني إسماعيل بن عباس (ت: ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠م)، فاستلم ابنه الناصر أحمد إلى سنة (٨٢٧هـ/ ١٤١٤م)، ثم ابنه المنصور عبدالله حتى سنة (٨٣٠هـ/ ١٤٢٧م)، ثم أخوه الملك الأشرف الثالث إسماعيل حتى سنة (٨٣١هـ/ ١٤٢٨م)، ثم الملك الظاهر يحيى حتى سنة (٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م)[1]، وما كاد القرن التاسع الهجري ينتصف وفي أثناء حكم الملك الرسولي الأخير المسعود، حتى

١ تنظر سلسلة سلاطين آل رسول في: الموسوعة اليمنية (١/ ١٧٤). وتنظر أخبار هؤلاء السلاطين في: ابن الديبع، الفضل المزيد ص١١٣.

أصبح الطاهريون أصهارُ آل رسول[1] هم من يتصدر المشهد السياسي اليمني، وهم في طريقهم للاستحواذ على إرث آل رسول كاملًا، إذ تمكن الشيخ عامر بن طاهر بن معوضة (ت: ٨٧٠ هـ/ ١٤٦٥م)[2] وأخوه علي من الاستحواذ على المقاطعات الرسولية التي كانت تحت أيديهم عندما كانوا عمالًا عليها للرسوليين، كعدن وإب وذمار ثم تعز نفسها، بل حاولوا الاستيلاء على صنعاء العاصمة الزيدية لولا امتناعها عليهم ومقاومة الأئمة لهم[3].

إن هذا الوضع سواء كان على صعيد حضرموت أم على صعيد اليمن عامة، كان من دون شك لصالح أسرة آل أبي دجانة، إذ خفت حدة المخاطر الخارجية التي تهدد مناطق نفوذهم وشعروا بالاستقلالية، فانهمكت هذه الأسرة في تأسيس وتعزيز سلطتها ونفوذها، ومن جانب آخر ظلت تعيش حالة من الحذر والتوجس وهي تراقب تطورات الأحداث العامة في اليمن، وتصاعد نفوذ الطاهريين على حساب حلفائهم التقليديين (آل رسول)، مما يعني احتمالية تهديدهم مستقبلًا، فضلًا عن محاولة آل كثير، أعدائهم التقليديين، كسب ود الطاهريين، وهذا يعني زيادة احتمالية المخاطر في المستقبل المنظور.

قد يكون مثل هذا المنحى بعيدًا عن النظرة التقليدية لعدد من المؤرخين المحدثين، التي تفترض وجود عداء ونزاع بين آل أبي دجانة والرسوليين في أواخر عهدهم بسبب استيلاء آل أبي دجانة على الشحر وطرد الحامية الرسولية منها، وكما أسلفت قد يكون

١ في سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م تزوج الملك الظاهر يحيى بن إسماعيل الرسولي من ابنة الشيخ طاهر بن معوضة. ابن الديبع، الفضل المزيد، ص١١١.

٢ تنظر ترجمته في: الموسوعة اليمنية (٢/ ٦٠٩)، والزركلي، الأعلام (٣/ ٢٥٢).

٣ هناك روايات أخرى تفيد أن مقتله كان على أبواب صنعاء سنة ٨٦٨هـ.

هذا محتملًا، ولكنه لا يمنع من وجود علاقات مصلحة متبادلة تربط بين الطرفين، خاصة أن هذا العداء المفترض ليس مع الرسوليين (الدولة الحليفة)، وإنما مع فصائل من حكامها مدة نزاعاتهم الداخلية على السلطة، في حين استمرت العلاقة مع الحكام الرسوليين الفعليين على طبيعتها، ويعزز هذا المنحى الآخر أنه حينما وقعت أحد الحروب بين الملك الرسولي المسعود وقبائل القرشيين في سنة (٨٥٠ هـ/ ١٤٤٦م)، وهي التي عرفت بـ(العذيب الأخرى)، وهزمت فيها قوات الملك المسعود، نجد أن من بين القتلى التابعين للسلطان المسعود ((جماعةً من بني إقبال))[١]، وهذا يفسر التحالف المستمر القائم بينهما، وكان قائد الرسوليين في تلك المعركة هو الأمير زين الدين جياش السنبلي[٢]، الذي تحالف لاحقًا مع الطاهريين، كما كان السنبلي هذا في طليعة القوات الطاهرية الغازية للشحر، وسنأتي لذكره لاحقًا.

بل نلاحظ أن تلك الحملة العسكرية البحرية التي قادها لاحقًا محمد بن سعد للسيطرة على عدن، ليس هدفها التوسع والسيطرة، كما هو سائد لدى المؤرخين، بقدر ما هي محاولة أخيرة يائسة لاستعادة سلطة حلفائه الرسوليين، ولتعزيز نفوذ أو سلطة آل كلد اليافعيين ليكونوا حلفاء مستقبليين بعد أن يتم له طرد الطاهريين من عدن، خاصة أن تلك الدولة الطاهرية ما زالت فتيَّة، كما أن آخر سلاطين الرسوليين الملك المسعود

١ ذكر هذه الوقعة ابن الديبع في كتابه الفضل المزيد، ص١١٨، وباخرمة، قلادة النحر (٦/ ٤٢٣). ولا ندري بالضبط مَنْ آل إقبال هؤلاء؟ أمن الاسرة التي نعنيها هنا، أم من أسرة أخرى (يمنية)، وكل الاحتمالين وارد.

٢ تنظر ترجمته في: باخرمة، قلادة النحر (٦/ ٤٣٢).

(الحليف المفترض لآل أبي دجانة) لم يُقتَل، وإنما خلع نفسه[1]، مما يعني أملهم بإعادته إلى عرشه وتنصيبه ملكًا بمساعدة الحليف أمير الشحر، لكن محاولة هذا الأمير كما نرى جاءت متأخرة جدًّا.

أما عن فكرة الغزو والسيطرة على عدن السائدة، فأعتقد أنها سابقة لأوانها، خاصة أن المناطق الحدودية لسلطنة آل أبي دجانة في الشحر وحيريج غير مؤمنة تمامًا لوجود آل كثير المنافسين، وبجانبهم كذلك قبائل حضرمية أخرى متربصة بإمارتهم، إذ كيف يتم لهذا الأمير التفرغ وإعداد العدة للسيطرة البعيدة، بينما الخطر كامن بجانبه ؟

ومن الواضح أن سياسة آل أبي دجانة، وخاصة والدة الأمير محمد ووزيره ابن تاية، لم تحبذ فكرة تدخل السلطان في شؤون الدول الأخرى، بقدر ما كانت تود لو يتم خلق علاقات جيدة مع تلك الدول، بدلًا من استعدائها، وقد حاولا جاهدين ثنيه عن فكرة غزو عدن والتدخل في شؤون الغير، مطالبين له بالاكتفاء بتعزيز الأمن في مناطق نفوذهم في الشحر وحيريج، والعمل لبناء جيش قوي يعتمد عليه، إلا أن قدوم بعض الفصائل القبلية اليافعية (آل كلد) من عدن في هذه المدة بقيادة مبارك بن صالح الكلدي، غيَّر المعادلة، فـ(آل كلد) هؤلاء كانوا حلفاء للرسوليين في صراعهم الأخير مع الطاهريين، كما كانوا أيضًا ضد (آل أحمد)، وهؤلاء من (يافع) أيضًا وحلفاء للطاهريين في ذلك الصراع[2].

١ بامخرمة، قلادة النحر (٦/ ٤٢٧).

٢ عن حيثيات هذا الصراع اليافعي اليافعي وعلاقته بصراع الدولتين الرسولية والطاهرية، ينظر: بامخرمة، قلادة النحر (٦/ ٤٢٥).

إن قدوم (آل كلد) للشحر واستنجادهم بالسلطان محمد[1] دون غيره لخيرُ دليلٍ على ما ذهبنا إليه من وجود ارتباط قوي (تحالف) بين الرسوليين وحلفائهم من طرف، وآل أبي دجانة حكام الشحر من طرف آخر، وقد حاول هؤلاء اليافعيون إقناع السلطان محمد وتزيين فكرة السيطرة على عدن له[2] حينما أوعزوا إليه بأن غالبية الناس في عدن موالون لهم، كما سهلوا له عملية احتلال عدن بحجة معرفتهم ببعض الثغرات ونقاط الضعف في المدينة المحصنة، والتي ستمكنهم من دخولها دون أن يشعر بهم أحد، وكل هذا أعطى السلطان محمدًا دفعةً قويةً لأن يشمِّر عن ساعديه ويغامر بقواته، غير آبه لاعتراضات والدته ووزيره الشيخ سليمان بن تاية الذي أودعه السجن بسبب اعتراضه هذا[3]، وعيَّن بدلًا منه وزيرًا مهريًّا.

لقد قاد أبو دجانة بنفسه تلك الحملة العسكرية البحرية باتجاه عدن لانتزاعها من الطاهريين، تاركًا المدينة وأمرها لوالدته وللوزير المعيَّن، اللذين استطاعا إدارتها بصورة جيدة خلال مدة غيابه، إلا أن مغادرته للمدينة، كما نرى، تعد في حد ذاتها مجازفة كبيرة منه، فقد غادرها وبرفقته ابن أخ له[4]، وهذا يعني غياب السلطان وورثة عرشه إذا خسروا تلك المعركة.

١ أشار المؤرخ عبدالله الناخبي إلى أن مقدم الشيخ صالح الكلدي كان في عهد والده الذي أسماه (سعيد بن مبارك بادجانة)، وليس كما أثبتناه (سعد بن فارس بادجانة)، وأن هذا الأب جعل الكلدي مستشارًا له، وعيَّنه الابنُ لاحقًا وزيرًا لإمارته. ينظر: يافع في أدوار التاريخ ص٦٣. وهذا وهم، والمؤرخ الناخبي لا يشير غالبًا إلى المصادر التي يستقي منها معلوماته.

٢ يرى بامطرف أن الهدف الرئيس من تزيين (آل كلد) للسلطان محمد فكرة غزو عدن، هو استعماله أداةً للقضاء على خصومهم (آل أحمد).

٣ وقد ذكر بامطرف أنه مات في سجنه هذا، ووصف السجن بأنه يقع في الجهة الشمالية الشرقية من حصن ابن عياش. ينظر: الشهداء السبعة، ص٣٧.

٤ من خلال تتبع الأسماء والتحقق من بعض التصحيف فيها، لم نجد ما يدل على أن هذا الذي معه ابن أخ له، ولعله ابن أخي والده، أي ابن عمه، الذي سيكون له شأن قريب.

حملة أبي دجانة للسيطرة على عدن:

قبيل أيام من انطلاقة الحملة إلى عدن، في شهر ربيع الآخر من سنة (٨٦١هـ/ ١٤٥٧م)[١] شرع الأمير محمد أبو دجانة بنفسه في إعداد التجهيزات الحربية اللازمة لتلك الحملة، وقام بحظر السفر بحرًا إلى عدن؛ كي لا يعلم بأمره الطاهريون، فجهز تسعة مراكب بكامل عتادها وعدتها، وحمل فيها جنوده من المهرة والحموم ومن يافع (آل كلد)[٢] ومن الجيش الذي بدأ يكونه من مجندين أحرار وعبيد ومرتزقة قدموا من شتى المناطق والبقاع، وقد وصف العدانية (أهالي مدينة عدن) هذا الجيش القادم لغزوهم بـ(أوباش مجمَّع)[٣]، أي خليط من المقاتلين المرتزقة غير النظاميين.

ويبدو أنَّ ثمة تساهلًا في عملية المراقبة وحظر السفر داخل ميناء الشحر، إذ استطاع أحد السنابيق التسلل خفية في الليل، وغادر الميناء منطلقًا بأقصى سرعة إلى عدن، ليتم إعلام حكام عدن بقدوم الحملة، بل إعلامهم بخطة الدخول إلى مدينة عدن[٤]، وهذا يعني وجود اختراق كبير في مركز القيادة العسكرية لآل أبي دجانة، ذلك أن تفاصيل هذه الخطة العسكرية لا يمكن أن يعلم بها إلا مَنْ كان حاضرًا في أثناء وضعها، أو أُخبِرَ بها، كما تكشف هذه الحادثة عن وجود جواسيس تابعين للطاهريين داخل المدينة.

---

١ عند باوزير سنة ٨٦٢هـ. ينظر: صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١٥٢.

٢ ابن الديبع، الفضل المزيد، ص١٢٦، وبامطرف، الشهداء السبعة، ص٢٧. ومن المهرة بيت محمد وبيت زياد. شنبل ص١٨٨.

٣ بامخرمة، قلادة النحر (٦/ ٤٥١). وفسرها علوي الحداد بأنهم عسكر مجموع من أوباش الناس. ينظر: الشامل ص١١٦.

٤ بامخرمة، قلادة النحر (٦/ ٤٥٠).

انطلق أبو دجانة بحملته غير عالمٍ بما تخفيه له الأقدار، إذ تفاجأ باستعداد حامية عدن للتصدي لمراكبه، وحالت مدافع الحامية دون بلوغه الميناء، كما تفاجأ أيضًا بقدوم تعزيزات كبرى قدم بها السلطان عامر بن طاهر، حالما وصل إليه النبأ بقدوم الحملة الشحرية ونيتها، فما كان من أبي دجانة إلا أن اكتفى بضرب الحصار على عدن من جهة البحر، ليفكر في وسيلةٍ ما لدخول المدينة[1].

ولم تكن العوامل الطبيعية في مصلحته، إذ صادف في تلك المدة هبوب رياح شديدة، دمرت مركبين من مراكبه، وأغرقتهما أمام ناظريه، واستمرت في اشتدادها مهددة بغرق بقية المراكب، فما كان منه إلا أن أمر أصحابه بإلغاء الحملة وعودة الأسطول إلى قاعدته (الشحر)، ولكن لسوء حظه انكسر المركب الذي هو فيه، وجنح به إلى شاطئ منطقة (المكسر)، ليسرع السلطان عامر بن طاهر ومعه جنوده وآل أحمد اليافعيون، إلى محاصرة المركب، وأَسْرِ كل من فيه، وعلى رأسهم الأمير محمد بن سعد أبو دجانة، وابنُ عمه، ومبارك الثابتي (الكلدي)، مع جماعة من أصحابهم. وعلى الفور وبدافع الانتقام بادر آلُ أحمد بقتل خصومهم اليافعيين، وعلى رأسهم مبارك الثابتي (الكلدي)، واحتفظ السلطان عامر ببقية الأسرى وعلى رأسهم السلطان محمد وابن عمه.

---

١ أشار المؤرخ سعيد باوزير إلى نشوب خلاف بين القيادة العسكرية لأبي دجانة وهم قبالة سواحل عدن، إذ اقترح بعضهم التظاهر بالتراجع إلى أن تطمئن الحامية المدافعة فيعودوا وينقضوا عليهم على حين غرة، في حين أشار غيرهم بالمضي دون تراجع، وفضَّل آخرون الانسحاب بعد أن كُشِفَ أمر حملتهم وتم الاستعداد لها. ينظر: صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١٥٢.

وفي زهو السلطان عامر بانتصاره، ورغبةً في إذلال خصمه الأسير (أبي دجانة)، أمر بتقييده وحمله على ظهر جمل، والطواف به في الشوارع؛ كي يراه العوام في فرجتهم، ثم أودعه في سجن (الخساف) برفقة عدد من أصحابه، وظل في السجن لمدة عامين على بعض الأقوال[1].

أما مدينة الشحر فقد أصابها الحزن الشديد لما آل إليه مصير سلطانها، مع ترقبٍ حذرٍ من القادم المجهول، وكادت الأوضاع داخليًّا تفلت عن السيطرة، لولا رباطة جأش والدة السلطان وحزمها في هذا الظرف الصعب، وكان للفقهاء ورجال الدين بالمدينة أثرٌ كبيرٌ في تهدئة روع الناس وطمأنتهم، وحثهم على الصبر والتضرع إلى الله أن يفك سلطانهم الأسير.

وقد حاول آل كثير استغلال هذا الوضع، فقدمت قوة عسكرية منهم سنة (٨٦١هـ/ ١٤٥٦م)، يرأسها بدر بن عبدالله بن علي الكثيري، وقامت بمحاصرة المدينة أيامًا قلائل، ثم عادت أدراجها من حيث أتت[2].

أما والدة السلطان، فحالما نمى إلى سمعها نبأ أسر ابنها، قامت على الفور باستدعاء كل رجال دولتها وأعيان البلاد ووجهائها، واستشارتهم في أمر ابنها وماحلَّ به، وعن نيتها في افتكاكه ومن معه من الأسرى مهما كلفها ذلك من ثمن، حتى إن اضطرت للذهاب بنفسها، والتفاوض مع الطاهريين بهذا الشأن.

١ شنبل، تاريخ حضرموت ص١٨٨، وابن الأنف القرمطي، عماد الدين إدريس، روضة الأخبار ونزهة الأسمار في حوادث اليمن الكبار ص٦٦ (وفيه أن حبس أبي دجانة كان في المقرانة)، وبامطرف، الشهداء السبعة، ص٢٧.

٢ الحداد، علوي، الشامل ص١١٦.

وقد تنوعت وتباينت آراء المؤرخين حول الأحداث التي تلت ذلك، فمنهم من ذكر أن هذه السيدة ذهبت بنفسها على رأس وفد رفيع، لملاقاة السلطان الظافر عامر بن طاهر بن معوضة، والتفاوض معه بشأن إطلاق سراح ابنها ومن معه[1]، وأن السلطان عامرًا رفض بدايةً كل العروض التي قُدِّمَت له، بما فيها عائدات ميناء الشحر لأعوام، ولكن تم الاتفاق بينهما في النهاية على أن يتم إطلاق سراح ابنها مع بقية الأسرى، شريطة أن يتقاسما مدينة الشحر، لكل منهما حكم نصف منها، وزادت بعض الروايات أن السيدة بنت معاشر بعد ذهابها إلى عدن، تم التحرز عليها مع ابنها، إلى أن سلمت لهم الشحر كاملة، فأطلق سراحها[2]. وهذه رواية ضعيفة لا تستقيم مع الأحداث اللاحقة.

ويرى آخرون أن بنت معاشر لم تذهب بنفسها للتفاوض، وهذا ما نرجحه، وإنما أرسلت مبعوثين خاصين بهذا الشأن، حرصًا منها على عدم تفلُّت الأمور وضياع السلطنة في أثناء غيابها، وأن نتائج تلك المفاوضات لم تسفر عن شيء، خاصة أن الطاهريين يطلبون فديةً كبيرةً جدًّا وهي (مفتاح المدينة)، وأنه بعد فشل هذه المفاوضات قرر السلطان عامر بن طاهر إرسال قوة عسكرية لاحتلال مدينة الشحر وكسر شوكتها، فكانت هذه القوة بقيادة الأمير زين الدين جياش السنبلي المذكور سابقًا، ولم تواجه السنبلي أي صعوبات في احتلال النصف الشرقي من المدينة، لا سيما أن اليأس قد دب في نفوس الناس، إلى جانب انهيار الروح المعنوية لجنود أبي دجانة لانكسارهم في

---

١ باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١٥٢، والحداد، الشامل، ص١١٦، والبكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١٢٠).

٢ بامخرمة، قلادة النحر (٦/ ٤٥١).

عدن وأَسْرِ سلطانهم أوَّلًا، ولضعف ولائهم ثانيًا، إذ لم يكن هذا الجيش، كما كانت الجيوش من قبله، قائمًا على العصبية العشائرية والولاء للزعيم القبلي[1]، وإنما هو جيش خليط، (أوباش مجمع) كما وُصِفَ، بالإضافة إلى كونه حديث التكوين.

وهناك رواية ثالثة، وهي الأكثر ضعفًا، تزعم أنَّ أبا دجانة قُتِلَ في سجن الطاهريين متأثرًا بالسم الذي دُسَّ له في طعامه[2]. وتشير روايةٌ رابعةٌ إلى بقاء أبي دجانة في سجن الطاهريين يذوق فيه مرارة ما اقترفه، إلى أن وافق على تسليمهم المدينة بحصونها وأموالها وسفنها أيضًا، وقد تم لهم ذلك[3].

وبطبيعة الحال لم يستقم وضع المدينة تحت ظل حكومتين تتوليان أمرها، مما أدَّى إلى حدوث اضطرابات ومناوشات بين الطرفين، استمرت لأكثر من عام، حتى ثار سخط الناس وغضبهم ((فسعوا لدى الطرفين المتحاربين بالمفاوضة، وكان على رأس المفاوضين الشيخ سعيد بن عبدالرحمن مقهد الشحري، وانتهت المفاوضة باتفاق يقضي بأن يطلق الملك الظافر الطاهري سراح الأمير أبي دجانة على أن يسافر رأسًا من عدن إلى حيريج، وعلى أن تتبعه أمه من الشحر إلى حيريج، بعد وصول ابنها إلى تلك المدينة))[4].

وهكذا تم الاتفاق، وأطلق سراح الأمير أبي دجانة سنة (٨٦٣هـ/ حوالي ١٤٥٨م)،

---

١ بامطرف، الشهداء السبعة، ص٢٧. مع بعض التصرف.

٢ باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١٥٤. وعند البكري أنه توفي في حيريج متأثرًا بالسم بعد أن أطلق سراحه. تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١٢١).

٣ ينظر: ابن الأنف القرمطي، عماد الدين إدريس، روضة الأخبار ونزهة الأسمار في حوادث اليمن الكبار والحصون والأمصار، ص٦٦.

٤ بامطرف، الشهداء السبعة ص٢٧، والجدحي، تاريخ المهرة ص١٥٨.

وسُلِّمَت المدينة بأكملها للطاهريين من دون أي مقاومة، وغادر أبو دجانة بصحبة والدته وأفراد عشيرته إلى مركزهم الذي قدموا منه بداية أمرهم (حيريج) وهي (ذرفات) حاليًّا[1].

وتجدر الإشارة إلى أن المؤرخ صلاح البكري أورد خبرًا انفرد به، ذكر فيه أنَّه بعد وفاة السلطان محمد تولَّى أخٌ له لم يُسمِّه، وكان ضعيف الشخصية، قصير النظر، سريع الغضب. ولا ندري ما مصدره في هذا الخبر[2].

---

١ الحداد، الشامل ص١١٦، وشنبل ص١٨٩.

٢ تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١٢١).

الشحر في عهد الطاهريين

نستطيع القول بأن الشحر وقعت في قبضة الطاهريين سنة (٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م)، وهي السنة التي غادرت فيها أسرة آل أبي دجانة المدينة تاركةً أمرها بأيدي الطاهريين. وتذهب بعض الروايات إلى أن أبا دجانة توفي بعد وصوله إلى حيريج[١]، وأن أحد أقربائه (لعلَّه ابن عمه) يُدعى فارس بن مبارك، هو من قاد الحملة لتحرير المدينة في ذلك العام نفسه[٢]. في حين تؤكد روايات أخرى أن السلطان محمد بن سعد بعد الإفراج عنه هو مَنْ قاد الهجوم على مدينة الشحر، وحشد لها مقاتلين من عشائره من المهرة وثعين وقبائل الحموم، وبهذه القوة تمكن من دحر الطاهريين وطرد عمالهم والاستيلاء مجددًا على المدينة[٣].

إن القوة التي أحرز بها الأمير محمد انتصاره هذه المرة، كانت من بني قومه وأحلافه، وليست كسابقتها مجرد جنود مرتزقة من أصول شتى، كما أن الحاضنة الشعبية داخل المدينة كانت بكل تأكيد تؤيدهم.

ولما بلغ السلطان الظافر عامر بن طاهر بن معوضة أن أبا دجانة استولى على المدينة وطرد نوَّابه منها، كتب إلى الفقيه شمس الدين علي بن عيسى الجرداني[٤] وأمره بالتجهز

١ الحداد، الشامل ص١١٦.

٢ ابن الأنف القرمطي، روضة الأخبار، ص٦٦

٣ بامطرف، الشهداء السبعة ص٢٨، والجدحي، تاريخ المهرة ص١٥٩.

٤ ابن الديبع، الفضل المزيد ص١٢٩. وتنظر ترجمته في: بامخرمة، قلادة النحر (٦/ ٤٣٢).

على رأس قوة، والتحرك بها للسيطرة على المدينة، إلا أن الفقيه مرض وتوفي في الطريق سنة (٨٦٦هـ/ حوالي ١٤٦٢م)، فجهز الظافر قوة أخرى كبيرة تولى هو قيادتها[١] بمساندة عمه الأمير عبدالملك بن داؤد الطاهري والأمير زين الدين جياش السنبلي[٢]، وهذه القوة سلكت طريق البر، وكانت موزعة على ثلاث كتائب، الأولى يتقدمها الأمير جياش السنبلي، وهي الأكثر عددًا، وتليها كتيبة عبدالملك، ثم كتيبة الملك الظافر عامر[٣]، وما كادت الكتيبة الأولى تصل مشارف مدينة الشحر حتى تصدت لها ببسالة نادرة قواتُ الأمير أبي دجانة، وكادت تكون لهم الغلبة، لولا أن تراءت لهم بالأفق طلائع الكتيبة الثانية التي يقودها الأمير عبدالملك بن داؤد، وهي تسرع الخُطا في طريقها للنجدة، فما كان من أبي دجانة إلا أن آثر الانسحاب بقواته من المدينة، لتدخلها كتيبة الأمير عبدالملك الطاهري والتي كان يملأ قلوبها الرغبة العارمة في الانتقام بعد أن سمعوا بتضعضع قوة السنبلي وهزيمتها، ولمَّا لم يجدوا في المدينة قوة مقاومة بعد فرار أميرها، أوسعوا الناس نهبًا وسلبًا وقتلًا. وكان انسحاب أبي دجانة ودخول القوات الطاهرية المدينة ليلة الجمعة ١٧ صفر ٨٦٦هـ، الموافق ٢١ نوفمبر ١٤٦١م تقريبًا[٤].

---

١ بلغ كراء الجمال التي تحمل الأثقال ١٠.٠٠٠: دينار. بامخرمة، قلادة النحر (٦/ ٤٥٤)، وابن الديبع، الفضل المزيد ص١٢٩، والحداد، الشامل ص١١٦.

٢ تنظر ترجمته في: بامخرمة، قلادة النحر (٦/ ٤٣٤).

٣ ذكرت بعض المصادر أن عامر بن عبدالوهاب جهز جيشين أحدهما بطريق البر بقيادته، والآخر عبر البحر. ابن الأنف القرمطي، روضة الأخبار، ص٦٦.

٤ بامطرف، الشهداء السبعة ص٢٨.

وبعد يومين من السلب والنهب وقتل كل من يعترض طريقهم، وصلت الكتيبة الثالثة بقيادة الملك الظافر الذي أمر عساكره بالكف عن النهب والسلب، ومكث في المدينة بعدها ثلاثة أشهر يرتب أمورها، ويعمل على تعزيز وجودهم فيها[1].

ولا شك أن أول المهنئين له بهذا النصر هم آل كثير، أعداء آل أبي دجانة ومنافسيهم، وقد أراد الملك الظافر استغلال هذه العلاقة والاستفادة من قوة آل كثير من خلال عقد تحالفات سياسية معهم، خاصة وهو يدرك أن آل أبي دجانة لن يتركوا المدينة كما يحلو له ويتمنى، وأنهم حتمًا سيعاودون الهجوم عليه، مما يعني استنزاف قواته، كما كان يدرك أن هؤلاء الحلفاء (آل كثير) لهم أيضًا مطامع قديمة في المدينة، وأن من الحكمة مهادنتهم واستقطابهم، كي لا ينضموا إلى فرقة المناوئين له، كما لم يغب عن باله مدى حاجته لسحب قواته الموجودة في المدينة بعد أن نمى إليه اضطراب الأوضاع في اليمن ممَّا يهدد مملكته الفتية هناك، وعليه لم يجد بُدًّا من الإسراع بالعودة لليمن، وتعيين عامل له على المدينة وهو الأمير أحمد بن إسماعيل بن شقراء النمي[2]، مع إبقاء حامية صغيرة من قواته، كما طلب من آل كثير حلفائه الجُدُد إعانة هذا الأمير ومساندته[3].

ولم يمض عام واحد على هذا التعيين حتى اضطر الطاهريون إلى سحب أميرهم من الشحر، واستخلاف الأمير بدر بن محمد الكثيري[4]؛ ليكون عاملهم عليها، وهي المرة

---

١ بامطرف، الشهداء السبعة ص٢٨.

٢ ابن الديبع، الفضل المزيد. وفي بعض النسخ، كما أشار المحقق يوسف شلحد، مكتوب (التميمي)،(اليمني). ينظر ص١٣٠ . وعند بامطرف: (أحمد بن إسماعيل بن سنقر). الشهداء السبعة ص٢٨.

٣ شنبل، ص١٩١، وبامطرف، الشهداء السبعة ص٢٨.

٤ تنظر ترجمته في: ابن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٢٨).

الأولى التي يحكم فيها آل كثير الشحر، وكان هذا سنة (٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م)[١]. وقد ظلت العلاقات حسنة بين الكثيريين والطاهريين ((وكان الكثيريون يدفعون خراجًا رمزًا للولاء للطاهريين قدرُهُ أربعة آلاف أشرفي ذهبًا (من ذوات الثمان قطع) وعشرين رطلًا من العنبر الأصلي، وكميات من المواد الغذائية))[٢].

وعلى الرغم من قصر مدة سيطرة الطاهريين على المدينة، إلا أن ما خلفوه من انطباعات في نفوس الناس كانت سيئة للغاية؛ لهول ما ذاقه العامة من فظائعهم، فحتى بعد مقدم السلطان عامر وأمرِهِ جنوده بالكف عن النهب والسلب، استمر جنوده ينهبون ويسلبون، لتذيع بين الناس تلك المقولة التي أطلقها أهالي الشحر على هؤلاء الغزاة: ((محد في آل طاهر طاهر))، وسارت هذه المقولة مثلًا يضربه العامة إلى اليوم للدلالة على فساد الكل دون استثناء.

السلطان فارس بن مبارك أبو دجانة:

بعد وصوله إلى حيريج توفي السلطان محمد بن سعد في سنة (٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م)، وخلفه على العرش ابنُ عمه السلطان فارس بن مبارك بادجانة[٣]، وهذا الشاب الطموح المتحمس لم يبرح بعد استلامه الإمارة حتى شن هجومًا مباغتًا على آل كثير في الشحر

---

١ شنبل ، ص ١٩١، وبامطرف، الشهداء السبعة ص٢٩، وباوزير، سعيد، صفحات، ص١٥٣.

٢ بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت، ص٩٨.

٣ بامطرف، الشهداء السبعة ص٢٩، الحداد، الشامل ص١١٦.

واستطاع انتزاعها منهم[1]، ثم ما لبث آل كثير أن استعادوها منه، ثم عاد فانتزعها منهم، وهكذا تأرجحت بينهم السيطرة على المدينة لمرات متتالية وفي مُدَدٍ متقاربة[2].

ولعل أبرز المعارك التي دارت رحاها بين الطرفين، تلك التي حدثت سنة (٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م)، حينما تمكن فارس بن مبارك من اقتحام المدينة وعليها آنذاك بدر بن محمد الكثيري، ليتقاتل الفريقان في الشوارع والطرقات، وانتهت المعركة بمقتل الأميرين فارس بن مبارك بادجانة، وبدر بن محمد الكثيري، مع العشرات من جنودهما. ويذكر مؤرخ الدولة الكثيرية الأستاذ محمد بن هاشم أن أبا دجانة قتل نفسه وانتحر[3]. وهذا مستبعد جدًّا.

السلطان سعد بن مبارك أبو دجانة:

تولى الحكم بعد السلطان فارس بن مبارك أخوه الأمير سعد بن مبارك بن فارس أبو دجانة، والذي استمر في نزاعاته مع آل كثير للسيطرة على الشحر، إلى أن تمكن في النهاية من استعادتها، لينصب سلطانًا عليها، إلا أن آل كثير استمروا في منازعته ومحاولة السيطرة على المدينة، إلى أن جاءت سنة (٩٠١هـ/ ١٤٩٥م) فتمكن السلطان جعفر بن

---

١ بامطرف، الشهداء السبعة ص٢٩.

٢ أشار المؤرخ بامطرف إلى أن سلاطين آل كثير تمكنوا في إحدى حروبهم مع أبي دجانة من طرده من المدينة سنة ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م. لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى ص٥٩.

٣ ينظر العلوي، محمد بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية. وعن هذه المعركة كتب يقول: ((في سنة ٨٨٧هـ جهز أبو دجانة فارس بن مبارك على الشحر، فدخلها وفيها بدر بن محمد، فخرج عليه في ثلة من العساكر، والتقى الفريقان في الشوارع، وتقاتلوا بالسلاح الأبيض، واستحر القتل في الطرفين، فقتل فارس نفسه، وقتل محمد بن بدر أيضًا، وانهزم قوم بادجانة)). وقال بعد هذا مباشرة: ((واستمر بها بدر حتى وافاه من حضرموت نعي عمه)). (١/ ٢٩). وعن هذه المعركة أيضًا ينظر: الحداد، الشامل ص١١٦-١١٧.

عبدالله بن علي الكثيري[1] بمساندة قبيلة مهرية تُدعى (بيت زياد) من التغلب على السلطان سعد بن مبارك أبي دجانة، بعد أن هُزِمَت قوات هذا الأخير شر هزيمة في موقعة كانت بالقرب من قرية (تبالة)[2]، وانسحبت فلول أبي دجانة إلى داخل المدينة، مخلِّفةً وراءَها عشرات القتلى والجرحى، وأحكم آل كثير الحصار على المدينة، لتجري بعدها بين الطرفين مفاوضات السلام، والتي أسفرت في نهايتها عن تسليم أبي دجانة المدينة، مقابل خروجه مع أفراد أسرته بسلام، على أن تكون وجهتهم إحدى بلدان شرق إفريقيا. ولم يكن لدى أبي دجانة خيار آخر غير التسليم بالأمر الواقع وتسليم المدينة، ولاحقًا قُتِلَ أبو دجانة في منفاه بممباسا شرق إفريقيا في سنة (٩٠٤)هـ[3]، دون أن يُعرَف مَنْ وراء مقتله.

وبعد سيطرة آل كثير على المدينة، قاموا بالتنكيل بالمهرة الموجودين فيها وطردهم، وخاصة المنتمين لبيت محمد[4]، معلنين انتهاء عهد إمارة آل أبي دجانة في الشحر، وبدء عهد السلطنة الكثيرية[5].

---

١ البكري، تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١٢٣)، وتنظر ترجمته في: العلوي، محمد بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية ص٢٦.

٢ تنظر تفاصيل المعركة في: الحداد، الشامل ص١١٧، وبافقيه، محمد بن عمر، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر ص١٣-١٤، وباسنجلة، تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر ص١٩. وذكر المؤرخ بامطرف أنَّ من تم هزيمته وطرده من المدينة سنة ٩٠١هـ هو الأمير فارس بن مبارك. ينظر: لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى ص٥٩-٦٠. ونرى أن الصحيح ما أثبتناه.

٣ ينظر: بافقيه، تاريخ الشحر ص٣٨، وباسنجلة، العقد الثمين الفاخر ص٢٣. وهي السنة نفسها التي وُلِدَ فيها السلطان بدر بن عبدالله الكثيري (بوطويرق).

٤ بامطرف، الشهداء السبعة ص٢٩.

٥ لمعرفة المزيد عن نهاية إمارة آل أبي دجانة في الشحر يمكن الرجوع إلى: بافقيه، محمد بن عمر، تاريخ الشحر ص١٣-١٥.

وتطالعنا بعض المصادر بوجود تحالف جديد طرأ على السطح، بين أفراد من الأسرة الكثيرية المنافسة للسلطان جعفر الكثيري، وبين سعد بن مبارك أبي دجانة بعد أن أُخرِجَ هذا من المدينة، وقام هذا الحلف مباشرة بمحاصرة المدينة لمدة سبعة أيام ولكن دون فائدة[1].

نعم، قد تكون سيطرة آل أبي دجانة على الشحر انتهت تمامًا سنة (٩٠١هـ/ ١٤٩٥م)، مثلما انتهت من قبل في جزيرة سقطرى بعد أن تملكوها لعقود، إذ انتزعها منهم آلُ عفرير المهريون سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م[2] مستغلين الصراع المستمر بين آل أبي دجانة وآل كثير؛ إلا أن سيطرة آل أبي دجانة لم تنته في (حيريج) مركز وجودهم الفعلي وقوتهم الحقيقة، واستمروا يحكمونها، إلى أن هاجمهم السلطان بدر بن عبدالله الكثيري الملقب بـ(بوطويرق) سنة (٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م) معلنًا سيطرته على حيريج وانتهاء حكم آل أبي دجانة فيها، وكان على حيريج في تلك المدة أحمدُ بن محمد بادجانة[3].

إن الأحداث السابقة التي شهدتها إمارة آل أبي دجانة في الشحر، أثبتت أنَّ التحالفات العشائرية مع فصائلها، قد زادتها قوةً وتمكينًا، كما ساعدتها على إحراز انتصاراتها المختلفة في معظم المعارك التي خاضتها، مثلما حدث في صراعهم مع بعض عمال الرسوليين السيئين، أو في أثناء دفاعهم عن (مركزهم) ضد القبائل المنافسة، إلا أن ما فعله محمد بن فارس أبو دجانة من الزج بوزيره (سليمان بن تاية) في السجن، وتكوين جيش من المرتزقة، أدى إلى إحداث شرخ عشائري في القبيلة نفسها، فلم يستطع تحقيق

١ شنبل، تاريخ حضرموت ص٢١٣.

٢ بامطرف، محمد، لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى ص٥٨-٥٩.

٣ ابن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٣٢).

أي انتصار يذكر، فلم يتمكن من السيطرة على عدن، ولا تمكين آل كلد منها، ولا الحفاظ على مدينة الشحر وحمايتها حينما هاجمها الطاهريون وآل كثير غيرَ مرة[1]، أما بعد أن تحالفت الأسرة مجددًا مع أبناء قومها وفصائلها، فقد عادت إليها قوتها وانتصاراتها، واستطاعت التفوق على خصومها ومنافسيها الطاهريين والكثيريين.

ولعل آل كثير أدركوا سر قوة آل أبي دجانة وتفوقها العسكري، إذ استطاعوا كما يظهر من مجرى الأحداث اختراقَ هذا الحلف العشائري، واستمالة بعض البيوتات إلى صفهم، كبيت زياد، بعد أن كان هؤلاء وإخوتهم بيت محمد جنبًا إلى جنب في صفوف آل أبي دجانة[2]، كما انفردت عشيرة آل عفرير بحكم جزيرة سقطرى منذ عام (٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م)، ممَّا أدَّى إلى تضعضع قوة تلك العشيرة المهرية وهزيمتها أمام قوة آل كثير الصاعدة، لتخمد هذه العشيرة تاركةً الساحة السياسية لآل كثير وحدهم.

بل يلاحظ في العهود اللاحقة أنَّ سلاطين آل كثير أنفسهم حين يكونون في حالة نزاع داخلي، يستغل طرفا هذا النزاع تنافرَ العشائر المهرية، وخاصة بيت زياد وبيت محمد، فيستميل أحد المتنازعين إحدى هاتين العشيرتين لمناصرته على حساب منافسه، وهذا المنافس بدوره يستميل العشيرة الأخرى إلى جانبه، وهذا ما نجده بوضوح في أثناء متابعتنا لأحداث الصراعات المتكررة بين الأخوين محمد وبدر ابنَي السلطان عبدالله بن

١ من المحتمل أن تكون هذه من الأسباب التي أدت إلى سوء العلاقة مع بيت زياد وانسحابهم لاحقًا من الحلف العشائري مع آل أبي دجانة، فقد ذكر المؤرخ شنبل أن بيت زياد كانوا من ضمن المشاركين في الحملة ضد الطاهريين. ينظر: تاريخ حضرموت ص١٨٨.

٢ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

جعفر الكثيري، إذ استمال السلطان محمدٌ بيتَ زياد، وهو التحالف الذي ورثه عن أبيه، في حين استمال أخوه السلطان بدر بيتَ محمد، واستمر هذا التحالف بهذا الشكل، حتى مع أبنائهم المنقسمين على أنفسهم، كما سيتضح جليًّا من سياق الأحداث القادمة.

الشحر في عهد السلطنة الكثيرية

سنحاول في هذه الفقرة الخاصة بعهد السلطنة الكثيرية في الشحر، وكذلك في فقرات السلطنات الأخرى التي تلتها، تسليطَ الضوء على بعض الأحداث المهمة في كل سلطنة ممَّا يخص مدينة الشحر، تاركين التفاصيل الأخرى للمراجع التي كتبت عن هذه الدولة أو الدويلات التي عاصرتها أو تلتها، وهي مراجع كثيرة ومتنوعة[1]، على خلاف الدويلات السابقة التي ما زال اللبس والغموض يكتنفانها، وهذا ما جعلني أسهب في الحديث عن تلك الدويلات، لاستجلاء بعض غوامضها.

وكما أشرت مسبقًا فإن أوَّل وجود فعلي لآل كثير بوصفهم حكامًا على مدينة الشحر كان سنة (٨٦٧ هـ/ ١٤٦٢م)، حينما انسحب الطاهريون من المدينة تاركين أمر إدارتها لهم، إلا أن حكمهم هذا لم يستمر طويلًا، فقد نازعهم على المدينة الأمير فارس بن مبارك بادجانة، ثم أخوه سعد بن مبارك، وظل الطرفان يتنازعان حكم المدينة إلى أن آلت في النهاية إلى حكم آل كثير بقيادة السلطان جعفر بن عبدالله الكثيري، في مطلع القرن العاشر الهجري، وتحديدًا في سنة (٩٠١هـ/ ١٤٩٥م).

---

١ من المراجع عن الدولة الكثيرية على سبيل الإجمال لا الحصر: العلوي، محمد بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية، وباوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي، (وخاصة عن السلطانين الكثيريين بدر بن عبدالله الكثيري (أبي طويرق)، وبدر بن عمر الكثيري)، والشاطري، محمد أحمد، أدوار التاريخ الحضرمي، الجزء الثاني، وبافقيه، محمد بن عمر، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، وباسنجلة، عبدالله، تاريخ الشحر المسمى العقد الثمين الفاخر في تاريخ القرن العاشر، والبكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي، وبامطرف، محمد عبدالقادر، في سبيل الحكم، والمختصر في تاريخ حضرموت العام.

ويجب ألَّا يُفهم من ذكرنا لهذا السلطان أو غيره من السلاطين الكثيريين أنهم تسلطنوا على الشحر وحدها، فقد تسلطنوا على معظم حضرموت وظفار، وقد تزيد أو تنقص مناطق نفوذهم تبعًا لنتائج صراعاتهم، كما قد يتشارك أو يتقاسم أكثر من سلطان في حكم المنطقة أو حكم جزء منها.

وقد قُتِلَ السلطان جعفر بن عبدالله، أول مؤسس للسلطنة في المدينة، في سنة (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م)[١]، وترك من الأولاد ثلاثة، هم عبدالله وبدر وعمر. واستطاع ابنه الأكبر عبدالله[٢] أن يتولى حكم أجزاء واسعة من حضرموت وظفار، واستمرت المدينة خاضعة لسلطته إلى أن توفي سنة (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م)، ودُفِنَ في مقبرة الشيخ سعد الدين الظفاري بمدينة الشحر[٣].

وفي عهده كان الأمير على المدينة مطران بن منصور، الذي أوكل له السلطان عبدالله في حياته تربية ابنَيهِ والإشراف عليهما، إلى أن بلغ الأخَوان مبلغ الرجال[٤].

---

١ العلوي، محمد بن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٢٦). وعند الطيب بافقيه أنه توفي، ولم يُقتَل. ينظر: تاريخ الشحر ص٤٠ .

٢ تنظر ترجمته في: ابن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٢٦). وتنظر قصته مع الفقيه ابن عبسين في: النور السافر ص٧٨.

٣ بامطرف، الشهداء السبعة ص٦١. وعند المؤرخ الطيب بافقيه في تاريخ الشحر ص٦٦ أن السلطان عبدالله بن جعفر توفي ليلة الاثنين الثامن عشر من محرم وقيل السابع عشر منه، من سنة ٩١٠هـ. أما عند عبدالقادر العيدروس فقد توفي يوم الأحد سلخ المحرم. ينظر: النور السافر ص٨٨.

٤ بامطرف، الشهداء السبعة ص٦١. ويرى المؤرخ محمد بن هاشم أن السلطان محمدًا كان قائد الجيوش ورأس الحربة في عهد أبيه. وهذا إن ثبت يضعف رواية المؤرخ بامطرف القائلة إن والده، أي السلطان عبدالله، أوصى الأمير مطران بحفظهما ورعايتهما لأنهما صغيران. ينظر: تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٣٠). إلا إن كان قد طلب منه هذا في صغرهما، في حالة غيابه عن الشحر.

السلطان محمد والأمير مطران بن منصور:

بعد موت السلطان عبدالله تولى السلطنة ابنه الأكبر محمد[١]، وهو جد آل عبدالودود الكثيريين في المشقاص، وقيل عنه إنَّه كان رأس الحربة في جيش أبيه. وكسلفه من سلاطين آل كثير خاض هذا السلطان معارك عدة مع مختلف القبائل والعشائر الحضرمية المنافسة له أو المتمردة عليه، بما فيهم منافسوه من أمراء الأسرة الكثيرية نفسها. وبوصية من والده قبيل وفاته أبقى هذا السلطانُ الأميرَ مطران بن منصور حاكمًا على الشحر؛ لما لهذا الأمير من فضل كبير في رعايته ورعاية أخيه في صغرهما ووفائه للعرش، وكان لهذا الأمير الموصوف بـالحزم والعزم[٢] أثرٌ كبيرٌ في حفظ المدينة وحمايتها من المحاولات الهادفة إلى احتلالها أو زعزعة أمنها[٣]، كتلك الواقعة التي كانت سنة (٩١٣هـ/ ١٥٠٧م)، حينما هاجمت المدينة، في غياب السلطان محمد، قوة قبلية متمردة مكوَّنة من بعض آل كثير ومن سيبان وآل الدغار، فتصدى لهم هذا الأمير بشجاعة، واستطاع أسر عدد من قيادات التمرد[٤]، منهم المقدم بشر بن عبدالله الكثيري، والمقدم أجود الشحبلي، وفي هذه الحادثة يقول الشاعر الشعبي الشيخ سليمان بن عوض باجردانة الشبامي في قصيدة مطولة امتدح فيها الأمير مطران:

---

١ تنظر ترجمته في: تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٣٠).

٢ بافقيه، تاريخ الشحر ص٨١.

٣ ينظر: بافقيه، تاريخ الشحر ص٩١،٨١، والعقد الثمين الفاخر ص٣٤،٣١، وتاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٣١)، والشهداء السبعة ص٦٢-٦٣.س

٤ ينظر: الشهداء السبعة ص٦٣. وعند مؤرخين آخرين أنهم اكتفوا بمحاصرة المدينة أياماً قلائل، ثم انصرفوا عنها. بافقيه، تاريخ الشحر ص٨١، وباسنجلة، العقد الثمين ص٣١.

بشر وأجود وبن دغار يبغون دخلة ... في سعاد الزبينة خير لاراض جُملة
يحسبون المدن ميسورة الكسر سهلة ... عاد فيها الذي يحمي إذا غابوا أهله
مير بن مير شامخ قاف لا قاف مثله ... متصف بالسياسة والفضائل وهي له
حين قدمه بن جعفر ورشده نسله ... يعلم انَّه ربط لا علب مهلال أصله
صدهم بالسيوف الباترة المستهلة ... خير لما رضوا بالصلح أقوام جهله.

ولعل أكثر ما شق على السلطان محمد وأرَّقه كثيرًا، أن نازعه في الحكم وإدارة شؤون السلطنة أخوه الأصغر السلطان بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري[1] الملقب بـ(أبي طويرق)[2]، فما كان من السلطان محمد إلا أن تنازل رسميًّا لأخيه بدر حقناً لدماء الأخوة، ليصبح بدر سلطانًا على حضرموت ساحلها وواديها، واكتفى السلطان محمد بحكم ظفار وحدها[3]، ففي سنة (٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م) كتب السلطان محمد بن عبدالله الكثيري رسالةً بخط يده إلى خطيب جامع الشحر الشيخ أحمد بن محمد السبتي، مفادها أن يُسقِط اسمَه من خطبة الجمعة، وأن يخطب لأخيه بدر[4]، فتم له ما أراد. وقد كان

١ تنظر ترجمته في: تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٣٤).

٢ لا نعلم لماذا لُقِّبَ هذا السلطان بهذا اللقب. ولبعض المؤرخين أقوال بعيدّة في تفسير ذلك؛ منها أنه لما اشتهر عنه من غزواته وطرق المسالك لتثبيت حكمه. ومنها أنه تصغير للقب ابنٍ له يدعى (طارق). ونحن نظن أن هذا اللقب هو تحريف للقب القائد البرتغالي (البوكيرك)، أو (البوكويرك)، أطلقه عليه العامة لبعض مواقفه المتواطئة مع البرتغاليين وقياداتهم.

٣ بامطرف، الشهداء السبعة ص٦٠-٦١.

٤ ابن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٣٢)، وبامطرف، الشهداء السبعة ص٦١، وباسنجلة، العقد الثمين ص٣٩، وبافقيه، تاريخ الشحر ص١٥٤، وباحسن، نشر النفحات ص٤٨٥.

للأمير مطران أثرٌ كبيرٌ في وأد تلك الفتنة، وإقناع السلطان محمد بالتنازل لأخيه، بالرغم مما تعرض له هذا الأمير من السلطان بدر خاصة[1].

السلطان بدر (بو طويرق) بن عبدالله بن جعفر بن عبدالله الكثيري[2]:

يعد هذا السلطان من أعظم سلاطين آل كثير على الإطلاق، ومن أكثرهم حنكةً وسياسةً ودهاءً[3]، وأطولهم حكمًا، وبلغت شهرته الآفاق، وتناقلت أخباره الركبان، واستطاع خلال تاريخ حكمه الطويل تجاوز مختلف العراقيل والصعوبات التي كادت تقوض سلطنته، ليخرج من كل منها سالمًا منتصرًا، فقد واجه بقوة تمردات القبائل والعشائر الحضرمية المختلفة، كما واجه الفتن التي نشبت بين أفراد الأسرة الكثيرية نفسها في صراعاتها على العرش، فضلًا عن حنكته السياسية في إدارة الصراع الدائر بين قوتين كبيرتين تحملان طموحات كبيرة في السيطرة والنفوذ بدأتا تطرقان المنطقة ونقصد بهما العثمانيين والبرتغاليين، إذ استطاع أن يجنب البلاد استعمار البرتغاليين واحتلال العثمانيين، بل استغل العثمانيين لتثبيت ملكه الداخلي من جهة، ولضرب البرتغاليين من جهة أخرى، وسنبين هذا لاحقًا، كما استفاد كذلك من خبرات البرتغاليين وتجاربهم.

---

١ بامطرف، الشهداء السبعة ص٦٢.

٢ عند بامطرف ((هو بدر بن عبدالله بن علي بن عمر الكثيري)). ينظر: المختصر ص٩٩. والصحيح ما أثبتناه. وللمزيد عن ترجمته وأخباره ينظر: باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي ص١٥٥-١٧٤، البكري، صلاح، في جنوب الجزيرة العربية ص١٢٧-١٣٢، وتاريخ حضرموت السياسي (١/ ١٢٥)، وبن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٣٤-٥٤)، والشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي (٢/ ٢٣٧)، وبامطرف، محمد، الشهداء السبعة ص٦٠.

٣ تباينت آراء المؤرخين في الحكم على هذا السلطان، إلا أنها تكاد تتفق على أنه من أعظم السلاطين الذين حكموا حضرموت ووحدوها ووسعوا رقعتها الجغرافية، إذ امتدت سلطنته من ظفار شرقًا إلى عين بامعبد غربًا.

وُلِدَ هذا السلطان سنة (٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)[1]، وتوفي والده وهو في سن الثامنة تقريبًا، وقد حظي خلال العقدين الأولين من عمره برعاية مباشرة من أمير الشحر مطران بن منصور بناءً على وصية والده، وما كاد يبلغ العشرين حتى بدأ يراوده حلم السلطة، ليدخل هذا الأمير في نزاعات على الحكم والإدارة مع أخيه الأكبر السلطان محمد، وكادت نزاعاتهم أن تهدد دولتهم، وربما حياته أيضًا، لولا تدخل بعض عقلاء آل كثير والأمير مطران بن منصور، الذي تمكن في النهاية كما أشرت مسبقًا من إقناع السلطان محمد بالتنازل لأخيه بدر عن حكم حضرموت والاكتفاء بحكم ظفار.

وتذكر بعض الروايات أن السلطان بدرًا الذي اتخذ من (سيئون) عاصمةً لدولته وقبيل تعيينه رسميًّا سلطانًا على الشحر وحضرموت؛ كان يمارس سلطاته بحرية تامة غير مكترث بنصائح من حوله. بل تحكي بعض المراجع عن قيام هذا السلطان وهو في منتصف العشرينيات من عمره، بعزل الأمير مطران بن منصور من إمارة المدينة مع نهب أملاكه وسجنه لأيام، ومن ثم نفيه إلى لحج وتعيين أمير المشقاص عطيف بن علي بن دحدح بدلًا منه، وكان هذا سنة (٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م تقريبًا)[2]، كما قام لاحقًا بعزل

---

١ تاريخ الدولة الكثيرية،(١/ ٣٤)،ورحلة الى الثغرين، ص٤٧. البكري، صلاح، في جنوب الجزيرة، ص١٢٧. وكتابه تاريخ حضرموت السياسي، وفيه إشارة انه ولد بشبام(١/ ١٢٥). وعند بامطرف، ولد سنة ٩٠٥هـ انظر، المختصر في تاريخ حضرموت، ص٩٩.

٢ في تاريخ الشحر لبافقيه ليلة السبت ١٠ ربيع الثاني سنة ٩٢٦هـ، انظر ص١٤٩. وكذلك العقد الثمين، ص٣٩. ونشر النفحات لباحسن ص٤٨٤. وعند ابن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية، انه كان سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م. واطلق سراحه سنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م. (١/ ٣٦) بينما في الشهداء السبعة تم اعتقاله سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م. واستمر في حبسه قرابة العشرين شهراً. ص٦١.

حاكم غيل باوزير المدعو أحمد بن النقيب[1]، وسمَّل عينيه. ولا نعلم السبب الحقيقي وراء هذا التغيير في قيادته الساحلية، فلعل هؤلاء كانوا في نظره موالين لأخيه محمد[2]، ومتقاعسين في تنفيذ بعض أوامره وقرارته المنفردة، ولعل هذا أيضًا ما دفعه للبحث عن جنود مرتزقة يعينونه في التصدي لأعدائه ومنافسيه، بدلًا من الاعتماد على عشيرته، إذ شهدت هذه المدة انقسامات في العشائر الكثيريَّة، وتبع هذا الانقسام انقسام آخر بين حلفائهم القبليين[3]، وكانت الولاءات غير ثابتة ولا مستقرة، فما كان من هذا السلطان الشاب إلا أن فكَّر في تحديث جيشه، واستقدام مقاتلين أكفاء من غير عشيرته لضمان ولائهم له، فاستقدم، كما يذكر المؤرخ صلاح البكري اليافعي، قوَّةً من يافع قُدِّرَت بالآلاف، وذلك في ذي الحجة سنة (٩٢٥هـ/ ديسمبر ١٥١٩م)[4]، وتذكر المراجع الأخرى أن استقدام يافع لحضرموت بكثرة كان بعد هذه المدة[5]. وهذا هو المرجح. كما

---

١ عند بامطرف، علي احمد النقيب، انظر الشهداء السبعة، ص٦١. وهذا العزل والتسميل عند بافقيه، تاريخ الشحر، ص١٥٥، وباسنجله، العقد الثمين، ص٤٠، ضمن حوادث سنة ٩٢٨هـ.

٢ باوزير، مدينة العرفان غيل باوزير ص٣٣.

٣ لمعرفة المزيد عن العشائر الكثيرية، ينظر: الكثيري، خالد حسين بن عمر، آل كثير أصولهم وفروعهم، مطبعة الأحقاف الحديثة، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠٠٨م. وينظر: البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١١٤)، والشاطري، محمد، أدوار التاريخ الحضرمي (٢/ ٣٧٦).

٤ البكري، صلاح، في جنوب الجزيرة العربية ص١٢٧، وتاريخ حضرموت السياسي (١/ ١٢٦). وكان عدد من استقدم من يافع (٥آ٠٠٠) مقاتل. وينظر كذلك: الجعيدي، عبدالله، الأوضاع في حضرموت (١٩١٨-١٩٤٥م) ص١٠. وقد عارض المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف هذه الرواية، مؤكدًا أن من أتى بهذه القوة اليافعية الكبيرة إنما هو السلطان بدر بن محمد المردوف بن بدر بن عمر بن بدر أبي طويرق سنة ١١١٦هـ. ينظر: الشهداء السبعة، ص١٠٠.

٥ بامطرف، الشهداء السبعة ص٩٩-١٠٠.

أكثر أبو طويرق من شراء العبيد الأفارقة وتجنيدهم في الجيش، وحاول سنة (٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م) التواصل مع الباب العالي؛ للحصول على إذن بتشكيل جيش حديث يشرف عليه ضباط أتراك يتمكن من خلاله من تأمين البلاد والتفرغ لحماية سواحل جنوب الجزيرة العربية من هجمات البرتغاليين المتزايدة[١]، وبالفعل قَدِمَت قوةٌ نظاميةٌ ضاربةٌ بقيادة ضابط شجاع يُدعى (رجب التركي)، جعلها أبو طويرق بمثابة قواته الخاصة، وأهم ما كان يميز هذه القوة النظامية الجديدة، امتلاكها لسلاح جديد فتَّاك لم يكن يعرفه الحضارمة، وهي البنادق الرومية (أبو فتيلة)[٢]، وإن كانت بعض المراجع تشير إلى امتلاك أسرة آل العمودي لمثل هذه البنادق قبل مجيئ هؤلاء الأتراك بأشهر[٣].

لقد بات واضحًا بعد كل الإجراءات التي اتخذها هذا السلطان الشاب (بدر أبو طويرق) أنَّه يعد العدة لأمر جلل. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن هذه الإجراءات ذات بُعدَينِ رئيسَين، بُعْدٍ يتمثل في حماية مملكته من القبائل والعشائر المناوئة والمنافسة، وبُعدٍ آخر يتمثل في الهجوم والسيطرة على ما في أيدي القبائل الأخرى من مناطق ومدن، ليكون الحاكم الفعلي والأوحد على حضرموت وربما مع ما يجاورها.

وقد يكون هذان البُعدان صحيحين، إلا أن هناك بُعدًا آخر لا يمكن لهذا السلطان الشاب ذي النظر الثاقب والفكر الحصيف أن يفوته أو يغفل عنه، ألا وهو تأمين حدود

١ إيفانوف، نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية ص١٢٥.

٢ ابن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٣٧). وسميت بـ(الروم) نسبة إلى الأتراك في عرف الحضارم، إذ كانوا يسمونهم الأروام. وقد ذكر بامطرف في الشهداء السبعة ص٦٣ أن استقدام بدر لرجب التركي كان سنة ٩٤٦هـ. وهذا وهم منه. إذ أشار هو نفسه في كتابه المذكور ص٦٦ لوجود هذه القوة سنة ٩٢٩هـ.

٣ بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت العام ص١١٧.

مملكته وخاصة الساحلية منها من أي اعتداءات يمكن أن تقوم بها السفن البرتغالية، بعد أن أصبحت تلك السفن تتجول بحرية مطلقة في المياه الإقليمية للخليج والبحر العربي، وتمارس أعمال القرصنة والنهب لكل ما يصادفها من سفن عربية أو إفريقية (مسلمة)، وتحاول تلك السفن السيطرة على أي مرافئ أو موانئ أو قرى ساحلية تطالها يدها أو تدميرها في حال تعذر احتلالها، فضلًا عن احتلالهم المباشر لبعض الجزر العربية كجزيرة سقطرى القريبة من حدود بلاده[1]، والتي استشهد حاكمها المحالف له السلطان عامر بن طوعري بن عفرير[2] بعد أن خاض مع البرتغاليين قبيل مقتله معارك شرسة، كما لم يغب عن ذهن أبي طويرق أن البرتغاليين بعد سيطرتهم على سقطرى أقاموا بها كنيسةً في موقع المسجد المهدَّم، مع دير صغير لطائفة الفرنسيسكان، وقلعةً أطلقوا عليها (قلعة القديس توماس)، وذلك سنة (٩١٣هـ/ ١٥٠٧م). وكان يقود تلك الحملات البرتغالية القائدان البرتغاليان (ألفونسو دي البوكيرك)، و(تريستيان داكونها)[3]. ويومها كان السلطان بدر في العاشرة من عمره تقريبًا، ومن حينها أصبحت

١ ذكرت بعض المراجع أن البرتغاليين احتلوا جزيرة سقطرى سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م. وقبلها وصلت سفن القائد البرتغالي (فنست سودري) إلى بحر العرب وجزيرة سقطرى سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٣م، ونهبوا كل ما كان يصادفهم من سفن وأغرقوها، بعد قتل ركابها أو أخذهم أسارى ليباعوا في الموانئ الأخرى. ينظر: السلمان، محمد حميد، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات،٢٠٠٠م، ص٦٨، وبامطرف، لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى ص٥٧.

٢ بامطرف، الشهداء السبعة ص٤٦. وفي كتابه لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى ص٥٩ ذكر بامطرف أن الذي استشهد في تلك المعركة هو ابنه محمد بن عامر.

٣ السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج ص١٤٩.

السفن والمراكب التجارية الحضرمية والعربية مهددة بالسلب والنهب، وكانت السفن والمراكب التجارية بما تحمله من بضائع، تشكل عماد الاقتصاد الرئيس ليس لبلدان الجنوب العربي والخليج وحدها، وإنَّما كذلك لجدة ومصر ودول شرق إفريقيا.

وظلَّ هذا التهديد المتزايد يؤرق السلطان بدرًا، وهو التهديد نفسه الذي لم يغب عن ذهن أخيه الأكبر محمد المتمركز في عاصمة دولتهم ظفار، وهو الذي شهد بعض تلك الأحداث بنفسه، بل كان في عهده احتلال جزيرة سقطرى، فكان على الأخوين توحيدُ جهودهما وسلطتهما الفتية، إلا أن إصرار أبي طويرق على إدارة شؤون حضرموت بنفسه، ومعالجة قضاياها وفقًا لرؤيته غير التقليدية، حال دون ذلك، ونظرًا لتباين الأخوين في فنون الإدارة وحل المشاكل، وكي لا تتفاقم بينهما الأوضاع أكثر، اضطر السلطان محمد في النهاية لأن يتنازل رسميًّا عن حكم حضرموت لأخيه بدر، وكان هذا في ربيع الآخر سنة (٩٢٧هـ/ مارس١٥٢١م)[1]، شريطة أن يطلق سراح الأمير مطران بن منصور، ويعيد إليه اعتباره ومكانته وأمواله المنهوبة لما لهذا الرجل من فضل عليهما وعلى أسرتهما. ومن المحتمل أن يكون هذا الشرط الأخير هو نفسه ما كان يفكر فيه أبو طويرق، إذ كان بحاجة إلى شخصية قوية ومتمرسة يعتمد عليها في إدارة حكم المدينة في ظل الأوضاع التي بدأت تستعر، فأقدام البرتغاليين بدأت تطأ أرض المدينة تارة تجارةً ومخبرين، وتارة باحثين عن مؤن لمراكبهم، كما أن الأوضاع في حضرموت (الوادي) بحاجة لأن يكون أبو طويرق حاضرًا هناك بنفسه، يديرها بمعرفته، فهي مركز عاصمته الرئيس، والأهم

١ بافقيه، تاريخ الشحر ص١٥٤، وتاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٣٢)، وباسنجلة، العقد الثمين ص٣٩، وبامطرف، الشهداء السبعة ص٦١، والمختصر في تاريخ حضرموت ص٩٩.

أن السلطان بدرًا كان بحاجة إلى شخصية تحبها الناس وتثق فيها وتنصاع لأوامرها، فكان أن تم للأخوين ما أرادا، وأُطلِقَ سراح الأمير مطران، وأُعِيدَت له أمواله واعتباره بين الناس، بل أُعِيدَ إلى منصبه السابق معززًا مكرمًا[1]، كما أُعِيدَ أحمد النقيب ليتولى إدارة الغيل وهو مُسمَّل العينين، وأُعِيدَ أيضًا الأمير عطيف بن دحدح لمنصبه السابق في المشقاص ومركزه (ريدة آل عبدالودود)، وكان هذا في شهر رجب سنة (٩٢٨هـ/ يونيو ١٥٢٢م)، ليعود الوئام بين الأخوين، وبهذا ضمن السلطان بدر إدارة شؤون ساحل حضرموت على أيدي أكفاء يعوَّل عليهم في مثل هذه الظروف، وليتفرغ لإدارة قضايا الداخل الحضرمي بنفسه، وهي الأكثر تعقيدًا وإقلاقًا له.

وقد استطاع السلطان بدر أن يحرز انتصارات كبيرة على القبائل المتمردة في المناطق الداخلية من حضرموت، كما استطاع التفوق على خصومه ومنافسيه وإخضاعهم، ومنهم ابن عمه الأمير علي بن عمر الكثيري، ليفرض قوَّته وجبروته على الجميع، غير أن تمردات القبائل ومشاكلها سرعان ما تظهر هنا وهناك، لتنغص عليه ما حققه من انتصارات، وهذه التمردات هي التي أعاقته كثيرًا عن بناء الدولة الحديثة التي طالما طمح إليها وسعى لتحقيقها، كما أبعدته تلك الأحداث الداخلية عن متابعة ما يجري في الساحل، وقد بدأ خطر البرتغاليين[2] يتنامى أكثر، وأصبحت بعض سفنهم الحربية

١ تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٣٦)، وبامطرف، الشهداء السبعة ص٦٢، وبافقيه، تاريخ الشحر ص١٥٥.

٢ في الأدبيات المحلية كان يطلق على البرتغاليين أسماء كـ(البرتقيس)، (البردجيز)، (الإفرنج). وتذكر بعض المراجع أن أول القراصنة البرتغاليين الذين عاثوا فسادًا قبالة سواحل جنوب الجزيرة العربية والخليج، هو الضابط البرتغالي (سودري)، وكان هذا سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م. ينظر: الغزو البرتغالي للجنوب العربي ص٥٤.

تتمركز قبالة السواحل الحضرمية ومدينة الشحر بالذات، فارضةً ما يشبه الحصار[1]، وهنا تجلت مرة أخرى المواقف البطولية للأمير مطران بن منصور الذي استطاع بحنكته ودهائه مجاراة البرتغاليين وإعداد العدة للتصدي لهم في حال هجومهم على المدينة، وهذا بالرغم من شحة ما لديه من إمكانيات وقدرات، وتفوق قدرات الخصم الواضحة.

إنَّ موقف سلاطين آل كثير من تطورات هذه الأحداث يتناغم وينسجم مع موقف الطاهريين إزاءها، نظرًا للعلاقات القديمة بينهما، وربما لوحدة المصير المشترك أيضًا.

١ لمعرفة تفاصيل الأحداث والمعارك التي دارت رحاها بين البرتغاليين والمدافعين عن الأراضي الحضرمية، والأدوار التي لعبها أبو طويرق وغيره من المجاهدين الحضارمة لصد تلك الاعتداءات والهجمات، يمكن الرجوع إلى كتاب المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف، الشهداء السبعة.

الوجود البرتغالي في سواحل حضرموت

سنحاول هنا الخوض في تفاصيل بعض الأحداث التاريخية المهمة التي مرت بها حضرموت عامة ومدينة الشحر على وجه الخصوص، لا سيما فيما يتعلق بالوجود البرتغالي قبالة السواحل الحضرمية، وما صاحب هذا الوجود من صراعات ومعارك كر وفر بين الطرفين، وذلك لاعتبارات عدة، منها أولًا توثيق بعض الأحداث التاريخية المجهولة، وثانيًا إبراز مجمل تلك الأحداث التي أغفلتها أو تجاهلتها الكثير من المراجع العربية والأجنبية التي أسهبت في الحديث عن الوجود البرتغالي قبالة سواحل شبه الجزيرة العربية، وأغفلت منطقة الساحل الحضرمي، وكأنها غير موجودة على الخارطة، أو كأن لم يكن لها أي أثر، ولم ينلها شيءٌ من تلك الأحداث، وهو ما يبعث الأسى في النفوس. ولعل هذا يعود إلى جهل بعض أولئك المؤرخين والباحثين من عرب وأجانب بالمصادر المحلية التي تناولت هذا الوجود، لا سيما أنَّ هذه المصادر كانت مخطوطاتٍ حبيسةَ الصناديق والأرفف في أثناء كتابتهم لأبحاثهم، أمَّا بعد طباعتها ونشرها فلا عذر لهم، كما أن المراجع المحلية الحديثة التي تناولت هذه الحقبة قليلة، ولم تتوسع في دراسة هذا الوجود البرتغالي بالمنطقة، مما جعل هذه المنطقة بالنسبة لكثير من الكُتَّاب والمؤرخين مجهولة التاريخ والتأثير[1]، ومن هنا جاءت مني هذه المحاولة المتواضعة لتجلية ما أمكن تجليته.

---

١ يؤخذ على بعض المراجع الأجنبية التي كتبت عن هذه الحقبة عدم دقتها في كتابة أسماء السلاطين والأمكنة والمواقع الحضرمية، ولعل مرد هذا إلى الترجمة، فعلى سبيل المثال في كتاب الفتح العثماني للأقطار العربية لنيقولاي إيفانوف (الذي نقله للعربية يوسف عطا اللهو وراجعه وقدم له: د. مسعود ضاهر) يسمي (آل يماني) بـ(اليمنيين)! و(الكثيريين) بـ(الكواسر)! وقد تكرر ذلك منه.

لقد تضرر الحضارم عامة من ذلك الوجود البرتغالي، وربما لا نغالي إن قلنا إنَّ ضرر هذا الوجود على الحضارمة وحضرموت كان الأشد على مستوى المنطقة، إذ كان الحضارمة مع غيرهم من العرب والهنود هم سادة المحيط الهندي دون منازع، واستمرت سيادتهم هذه منذ القدم[1]، وكان جُلُّ اعتماد الاقتصاد الحضرمي قائمًا على حركة الملاحة البحرية وعائدات السفن والمراكب التجارية التي تمخر عباب المحيط، إذ إن بيئتهم بيئة ذات جدب وقحط، مع فقر دائم بأهلها، كما أنَّ صراعاتهم الداخلية لا تنتهي، مما أعاق أي تنمية فيها، فأصبح جُلُّ اعتمادهم على الخارج، وقد بات هذا الخارج مهدَّدًا، كما عُرِفَ الحضارمة عبر تاريخهم بمهارتهم في صناعة السفن والمراكب، والإبحار بها ربابنةً ونواخيذَ أو بحَّارةً أو تجَّارًا، فضلًا عن امتلاك سلاطينهم وأمرائهم للكثير من السفن بغرض الاتجار مع بلدان حوض المحيط الهندي والخليج العربي، وجميعها بات مهدَّدًا الآن!

إنَّ أوَّل ضربة وجهت لهؤلاء الحضارم وغيرهم من العرب كانت حينما استطاع البرتغاليُّون الوصول أوَّلًا إلى شرق إفريقيا والسيطرة على مدنها وموانئها وتهديد الوجود العربي وتجارته في تلك البلدان، وكانت الضربة الثانية هي وصول البرتغاليين إلى الهند منذ أول رحلة لهم، والتي قادها القائد البرتغالي الشهير (فاسكوداجاما) ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م، وكذا رحلته الثانية سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م، ومحاولته في الأولى استمالة حكام الهند لقطع علاقاتهم التجارية مع العرب، والدخول معهم في تلك

---

١ الخالدي، عمر، عرب حضرموت في حيدر أباد، ترجمة: جمال محمود حامد، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت العدد ٤٥، ربيع الثاني، ١٤٠٦هـ، ص١٣٧.

العلاقات ولو بالقوة، وبلغ الأمر في رحلاتهم اللاحقة إلى تدمير الأساطيل العربية الراسية في تلك الموانئ الهندية، أو الماخرة عباب المحيط، فضلًا عن احتلال عدد من الدويلات الهندية.

ولم يكتف البرتغاليون بهذا التصعيد، بل تمادوا في إرسال سفنهم وأساطيلهم إلى سواحل البحر العربي، وتدمير كل ما يصادفهم من سفن ومراكب عربية بعد نهبها وقَتْلِ مَنْ فيها وإنْ كان من النساء والأطفال، وقد ((كانت شواطئ ظفار وحضرموت والمناطق القريبة من باب المندب المسرح الأساسي للقرصنة البرتغالية، وأكثر ما تعرضت للهجمات هي قشن وسيحوت والشحر وغيرها من مدن جنوب شبه الجزيرة العربية، وكذلك مصوع وزيلع وبربرا على الشاطئ الإفريقي))[1].

وقد وصلت طلائع سفنهم البحرية الأولى إلى بحر العرب سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م بقيادة البرتغالي سيء الصيت (فنست سودري)[2]، ثم تبعه القائدان سيِّئا الصيت اللذان سبق ذكرهما وهما (الفونسو دي البوكيرك) و(تريستان دي كونها)، واحتلَّا جزيرة سقطرى سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م، لتتبعها بعد ذلك الأساطيل والحملات العسكرية التي أصبحت لا تكتفي بالبحر، وإنَّما تجرأت على الإغارة والنهب من البر العربي.

ولم تسلم سواحل حضرموت من الذي يجري، فقد تعرضت موانئها وقُرَاها الساحلية للنهب والسلب مرارًا، كما حاول البرتغاليون الاستيلاء على ميناء الشحر، إلا أنَّ ما شاهدوه من تحصينات وقوةِ حاميتها جعلهم يتريثون في أمرها إلى أن تواتيهم

١ إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، ص١٢٦.

٢ الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج، ص٥٤، ٦٨.

الفرصة، خاصة أنَّ الهدف الأكبر لهم هو الوصول إلى عدن والولوج إلى البحر الأحمر، كما أنَّ الأخبار التي تصلهم عن قدوم التجريدة المملوكية من مصر بقيادة حسين الكردي[1] جعلتهم يبتعدون عن المياه العربية ولو إلى حين. ولمَّا تأكد للبرتغاليين في السنوات اللاحقة أنَّ العرب عادوا وانقسموا على أنفسهم في صراعاتهم الداخلية وصراعاتهم مع المماليك، ثُمَّ مع العثمانيين في اليمن، أخذوا يتسللون مجددًا إلى الشواطئ العربية، ولكن مع تغير في سياساتهم هذه المرَّة، وإظهار نوع من الليونة والمراوغة، ربما لكسب العرب أو لتحييدهم في صراعهم مع العثمانيين على الأقل، إلى أن تحين لهم الفرصة المناسبة لالتهام هؤلاء العرب.

وهكذا دخل البرتغاليون في علاقات ودية مع أمير الشحر مطران بن منصور، ومع سلطان حضرموت وظفار محمد بن عبدالله الكثيري، وكان هدفهم تزويد سفنهم ومراكبهم بالماء والطعام وبيع منهوباتهم في أسواق المدن الحضرمية، ولم يجد السلطان الفتيُّ بدر بن عبدالله بُدًّا من مهادنتهم، إلى أن يجد الوسيلة التي سيتغلب بها عليهم، إذ كان يعلم حقَّ العلم أنَّ هذه السفن الوافدة إنَّما هي طلائع لأساطيل أخرى في طريقها إليه، وأنَّ رفضه التعامل معهم يعني التصادم معهم والعداء، فرأى أنَّ الأنسب له القبول بالمهادنة والمراوغة.

وكعادة أيِّ استعمار في صناعة الذرائع والحجج الواهية لفرض سيطرته أو نفوذه على منطقة ما تمهيدًا لاحتلالها؛ حاول البرتغاليين تسويق بعض الحجج التي تمهد لهم

---

١ ذكر بافقيه في تاريخ الشحر ص٨٢ أن تلك التجريدة بقيادة الكردي وصلت حضرموت سنة ٩١٣هـ. وقد حققت بعض الانتصارات، إلا أن حملته الثانية أخفقت، ليتولى الإعداد لها لاحقًا العثمانيون ورثة المماليك في اليمن.

التدخل المباشر في شؤون مدينة الشحر، وربما احتلالها مباشرة كما صنعوا في سقطرى وهرمز، ومن أفاعيلهم أنَّهم حاولوا استغلال غياب السلطان بدر وقواته الخاصة عن الشحر، فادَّعوا في سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م، ((أنَّ تاجرًا برتغاليًّا اسمه (الفونسو دي فيجا) مات في الشحر منذ خمسة أشهر، وأنَّ السلطان بدر استولى على أمواله، وأنَّ قائد الأسطول يطلب تسليم تلك الأموال إليه بدون تأخير))[١]. وهذه مجرد حجة تخفي وراءها الدافع الحقيقي للتدخل في شؤون البلاد، وربما الانتقام منها بعد أن علموا مدى الدعم والمساندة التي يقدمها أبناء ساحل حضرموت والمهرة (الشحارية) ومعهم العمانيون (آل صور) للمقاومين في عدن ضد محاولاتهم احتلالها[٢]، كتلك المحاولة الفاشلة التي حاول فيها القائد البرتغالي (ألفونسو دي البوكيرك) السيطرة على عدن واحتلالها، وكمحاولة مَنْ جاء بعده كالقائد البرتغالي (لوبو سواريز)[٣]، وقد فشلت أيضًا، وكان للدعم الحضرمي أثرٌ في ذلك الصمود والمقاومة.

ولم يغب عن ذهن الأمير مطران بن منصور كذب ذلك الادِّعاء، فقد تيقَّن أن البرتغاليين ما ادَّعوا مثل هذا الادِّعاء الباطل إلا وهم يُبيِّتون شرًّا للمدينة وأهلها،

١ بامطرف، الشهداء السبعة ص٦٨. وبمناسبة ذكر اسم التاجر البرتغالي (دي فيجا)، نشير إلى ما ذهب إليه بعضهم من أنَّ قرية (دفيقة) التي تبعد كيلومترين شمال شرق مدينة الشحر وهي حاليًّا جزء من المدينة، نُسِبَت إلى هذا البرتغالي (دي فيجا) الذي دفن فيها. والحقيقة أنَّ عدة من الوثائق تؤكد ورود هذا الاسم قبل مجيء البرتغاليين بمئات السنين.

٢ الشهداء السبعة ص٥٤، والجدحي، تاريخ المهرة ص٢٠٨.

٣ الشهداء السبعة ص٥٥.

خاصة أنَّ أعلام أسطولهم الحربي بدأت تلوح في الأفق[1]، فما كان من هذا الأمير إلا أن اجتمع بالأعيان والمشايخ وعقلاء الحارات الست؛ لتدارس الموقف وتشكيل لجنة للمقاومة الشعبية، كان هو رئيسها، والشروع في وضع خطة دفاعية وتنفيذها، كما قام بالتواصل مع السلطان بدر ومع أمير المشقاص عطيف بن دحدح، طالبًا منهما إرسال مدد فوري، كما أعطى أوامره بنقل جميع النساء والأطفال وما يخافون عليه من أموال ومن ذهب وفضة إلى قرية (تبالة)، وتعيين حراسة عليها[2].

وقد كان للشيخ مبروك بن سلمان حنين، وهو من أعيان المدينة، أثرٌ كبيرٌ في هذه الأحداث، وخاصة في ترتيب أمور الساحل والميناء وتشديد الحراسات عليها، وكان هذا الشيخ في تلك المدة يتولى منصب (أمير بحر) في دولة أبي طويرق[3]، كما كان أحد المفاوضين مع قيادة الأسطول البرتغالي. ولا نعلم شيئًا عن مصيره بعد تلك المعركة التي وقعت مع البرتغاليين سنة ٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م.

---

١ كان وصول الأسطول البرتغالي يوم الخميس ٩ ربيع الآخر ٩٢٩هـ، وكان عدد سفنه أربعة عشر سفينة حربية مختلفة الأحجام. باسنجلة، العقد الثمين ص٤١. أما بافقيه فذكر أنها تسع خشب من نوع البرش والغربان. تاريخ الشحر ص١٥٧.

٢ بامطرف، الشهداء السبعة ص٧٠-٧١، والجدحي، تاريخ المهرة ص٢١٢.

٣ الشهداء السبعة ص٧١. وأهالي الشحر يطلقون على هذه اللفظة (مير بحر).

بداية المعركة (ملحمة الشهداء السبعة):

مع بزوغ فجر يوم الجمعة ١٠ ربيع الآخر سنة ٩٢٩هـ، ٢٦ فبراير١٥٢٣م[١] بدأ البرتغاليون هجومهم العنيف على المدينة بقصف الشاطئ والمراكب الراسية قُبالته[٢]، وخلال القصف قام البرتغاليون بإنزالٍ بريٍّ بزوارقهم المحمَّلة بالجنود مع كامل عتادهم العسكري، لتبدأ المعركة أولًا على الشاطئ، ثم تمتد إلى داخل المدينة بين أزقتها وبيوتها، وقد تصدى لهم أبناء المدينة بشجاعة وبسالة نادرة وغير معهودة، جعلت من هذه المعركة غير المتكافئة تُسطَّر كإحدى الملاحم البطولية الخالدة التي سطرتها الشعوب في التصدي للغزاة[٣]، فالبرتغاليون كانوا يمتلكون مختلف الأسلحة النارية والمدافع طويلة المدى، مقارنة بالمدافع العربية/ التركية المعهودة آنذاك، فضلًا عن القنابل والدروع والخوذات التي يرتديها جنودهم النظاميون، في حين لا تمتلك المقاومة الشعبية الشحرية غير السيوف والخناجر والرماح والنبال والعصي، ومعهم قلة قليلة من الجنود اليافعيين (التلد)[٤]

---

١ بافقيه، تاريخ الشحر ص١٥٧، والعقد الثمين الفاخر ص٣٩. وينظر: إيفانوف، الفتح العثماني ص١٢٩.

٢ قدر عدد سفن البرتغاليين في تلك الحملة بـ(١٤) خشبة. العقد الثمين ص٣٩. وفي تاريخ الشحر لبافقيه ص١٥٧ أنها نحو تسع خشبات برش وغربان.

٣ لمعرفة تفاصيل هذه المعركة، ينظر: الشهداء السبعة، وابن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٤١)، وباوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي ص١٦٢، والجدحي، تاريخ المهرة ص٢٠٨–٢١٨. وقد انفرد المؤرخ الطيب بافقيه الشحري في كتابه (تاريخ الشحر) بتهميش المقاومة الشعبية، يقول ص١٥٧: ((ولم يثبت له أحدمن الناس (يقصد الغازي البرتغالي)، بل انهزموا انهزامًا قبيحًا)). وهو في هذا يخالف عدة من المؤرخين، بل إنَّ نتائج المعركة كما ذكرها بنفسه تفيد عكس ما قال! فقد ذكر استشهاد الأمير مطران خلال تصديه للبرتغاليين، ومعه عدد من الفقهاء والأعيان.

٤ عن مشاركة يافع في هذه المعركة ينظر: ديان، وقائع من تاريخ يافع ص٢٤٣.

ومن الأفارقة. ولم تكن القوة التركية الخاصة التابعة لأبي طويرق والتي كانت مستأثرة بسلاح البندقية -موجودةً عند نشوب المعركة، مما عقَّد وصعَّب هذه المعركة على المقاومين، وزاد من خسائرهم.

ولولا أن لاح للبرتغاليين قدوم طلائع النجدة من المشقاص بقيادة عطيف بن دحدح[1]، واشتراكها فورَ وصولها في القتال؛ لطالت أيام المعركة، وزادت خسائرها، فكان الانسحاب البرتغالي أسلم لهم، بعد أن أمعنوا في القتل والحرق والنهب والتدمير.

الشهداء السبعة رموز المقاومة الشعبية:

إنَّ من نتائج هذه الملحمة التي استمرت ثلاثة أيام متواصلة استشهادَ عددٍ من المقاومين، وعلى رأسهم الأمير مطران بن منصور، إلى جانب عدد من الفقهاء البارزين ومُدِيري الأربطة الدينية والمدارس والأعيان، منهم الفقيه الشيخ أحمد بن عبدالله بلحاج بافضل[2] مدير مدرسة بافضل، والفقيه الشيخ فضل بن رضوان بافضل مدير مدرسة باهير، وأخوه التاجر أحمد بن رضوان بافضل، والفقيه العلَّامة يعقوب بن صالح الحريضي مدير مدرسة باهارون، والشيخ حسين بن عبدالله الجمحي الملقب بالعيدروس، وكان أيضًا تاجرًا، والشيخ سالم بن صالح باعوين المهري، وهو كذلك تاجر[3].

---

١ ذكر أنَّ في هذه القوة التي قدمت من المشقاص مقاتلين من قبائل ثعين والسماح والمناهيل والحموم. ينظر: الجدحي، تاريخ المهرة ص٢١٩.

٢ تنظر ترجمته عند العيدروس، النور السافر ص١٩٣، وبافقيه، تاريخ الشحر ص١٥٨.

٣ تنظر أماكن استشهادهم في الشهداء السبعة ص٧٣-٧٥، وخبر استشهاد بعضهم عند بافقيه، تاريخ الشحر ص١٥٧، وباسنجلة، العقد الثمين الفاخر ص٤١، والجدحي، تاريخ المهرة ص٢٢٠، وباوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص١٦٢.

إنَّ هؤلاء السبعة كانوا هم أعمدة المقاومة وقادتها، صحيح لم يكونوا وحدهم من استشهد في تلك المعركة، فهناك المئات غيرهم، ولكن نظرًا للمكانة الاجتماعية التي كان يتمتع بها كل واحد منهم في نفوس الناس، فضلًا عن أدوارهم القيادية والبطولية التي قاموا بها قبيل المعركة وفي أثنائها، فقد مجَّدهم الناس وأحيوا ذكراهم، وأضحوا رموزًا للمقاومة الشعبية في الشحر، وقد دُفِنُوا جميعًا في قبر واحد (ضريح)، باستثناء الفقيه الشهيد أحمد بافضل الذي أوصى قبل مماته بدفنه في تربة والده، وربما كان سابعُ أولئك الشهداء المدفونين، الذي غفل عن ذكره عدد من المؤرخين لعدم شهرته، هو الشهيدَ عمر بن دحران المذكور في بعض المراجع[1].

وأهالي المدينة يحتفلون مرة كل عام بذكرى استشهادهم التي استمر الاحتفال بها إلى عهد قريب[2]، وكان أول احتفال بهم عصر الجمعة الخامس عشر من ذي الحجة سنة ٩٤٣هـ،

---

١ ذكره المؤرخ باسنجلة في العقد الثمين الفاخر ص٤١. ومن المحتمل أن في الاسم تصحيفًا ما، إذ لا يوجد في الشحر أسرة عُرِفت بهذا الاسم، فلعله (بن دحمان)، و(بن دحمان) من الأسر الحضرمية العريقة التي سكنت مدينة الشحر، ومن المحتمل أيضًا أن يكون (بن دحران) هذا من المهرة.

٢ إن أول مهرجان حكومي رسمي أقيم بعد الاستقلال الوطني احتفاء بهذه الذكرى كان في ٣٠مارس ١٩٧٦م، وكان المشرف عليه حينذاك الأستاذ الباحث عبد الرحمن عبد الكريم الملاحي، ووقتها كان مديرًا للثقافة والسياحة بمحافظة حضرموت. وسميت هذه الاحتفالات بـ(الشهداء السبعة) تيمنًا بالزعماء السبعة الذين استشهدوا في تلك المعركة، وقبروا بقبر واحد بحي الكامل عقل باغريب، ماعدا الشيخ أحمد بافضل الذي دُفِنَ بمقبرة والده عبد الله بن عبد الرحمن بلحاج بافضل (ت: ٩١٨هـ). وقد جاء في تاريخ باحسن نشر النفحات المسكية (مخطوط) أنَّ هؤلاء ((الشهداء السبعة رحمهم الله تعالى دُفِنُوا جميعهم في قبر واحد بحارة أبي غريب، وعليهم حائط معمور، وقبرهم مقصود بالزيارة والتبرك، قدس الله أرواحهم، آمين)). وقد انتهى الاحتفال بهذه الذكرى رسميًّا سنة ١٩٨٧م. ويبدو أن الحضارمة كغيرهم من العرب مولعون بالعدد سبعة، بل بالشهداء السبعة، فإلى جانب هؤلاء نجد أن في تراث سكان المناطق المشقاصية (شرق الشحر)=

الموافق للخامس والعشرين من مايو ١٥٣٧م، بفضل مشورة قاضي الشحر ومستشار السلطان آنذاك الشيخ عبد الله بن عمر بامخرمة[١]. أمَّا أوَّل احتفال حكومي رسمي بهم فهو الذي أقامته حكومة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في يوم الأربعاء العاشر من ربيع الآخر ١٣٩٧هـ، الموافق للتاسع والعشرين من مارس ١٩٧٧م[٢].

وتذكر بعض الإحصائيات لحصيلة هذه المعركة أنَّ عدد القتلى من أهالي الشحر بلغ سبعمائة وأحد عشر، ثمانية وخمسون منهم أجانب مقيمون، غالبيتهم هنود وصوماليون، وبلغ عدد القتلى من المقيمين في الشحر من مختلف مناطق حضرموت مائتين وستة عشر رجلًا. أمَّا المنازل التي تهدمت من الحرائق فبلغ عددها ثلاثمائة وعشرين بين دارٍ وكوخٍ، وبلغ عدد الحوانيت التي أُحرِقَت أو نُهِبَت سبعمائة حانوت، وأمَّا المعاصر (معامل إنتاج زيت السمسم) التي أُحرِقَت مع الإبل العاملة فيها فبلغ عددها اثنتين وثلاثين معصرة[٣]. كما أُسِرَ الكثير من أبناء الشحر لم يُعرف عددهم، إلا أنَّ المؤرخ الشحري

=أحاديث عن الشهداء السبعة بقرية (معبر)، وهم الذين عُرِفُوا بـ(شهداء الراكة)، الذي استشهدوا في أثناء تصديهم للاحتلال الفارسي، وهناك كذلك (سبعة اليافة)، وهم سبعة شهداء آخرون سقطوا في تلك المعارك. ينظر: عبد الرحمن الملاحي، الدلالات الاجتماعية واللغوية والثقافية لمهرجانات قبائل المشقاص ص٣١-٣١. وفي الشحر أيضًا يوجد ما أُطلِقَ عليه (السبعة المناصب)، وهي سبعة من المساجد تقام فيها في ليلة واحدة ختومات شهر رمضان، وخاصة ليلة سبع وعشرين منه.

١ بامطرف، الشهداء السبعة ص٩٣. وتنظر ترجمة بامخرمة في: باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي ص١٧٥-١٨٣.

٢ الملاحي، أحمد، ملحق المذكرة التاريخية (مخ).

٣ بامطرف، الشهداء السبعة ص٧٩. من رواية الربان (باسباع) المعاصر للأحداث، وكتابه المفقود (بهجة السمر في أخبار بندر سعاد المشتهر).

عبدالله بن محمد باسنجلة يقول عن هذه الحادثة: ((وأُسِرَ خلقٌ كثيرٌ، فممَّن أُسِرَ وافتكَّ في الحال الفقيهُ أحمد بن عبدالله بالرعية (برعية).))[١].

وقد تولى الأمير عطيف بن دحدح حفظَ المدينة وترتيب أوضاعها بعد انسحاب المعتدين البرتغاليين، كما وضع حدًّا للنهب والسلب الذي اقترفه بعض الجنود والمماليك المفسدين وضعاف النفوس من العوام ممن استغل حالة الانفلات الأمني[٢].

وحين وصول السلطان بدر أبي طويرق لاحقًا إلى المدينة، ومعاينته حجم الخسائر والدمار الذي لحق بالناس وممتلكاتهم، أدرك بفطنته أن القادم لا محالة سيكون أسوأ إن لم يتداركه من الآن، كما أدرك حجم الدمار الذي تحدثه مدافع السفن البرتغالية الأبعد مدًى وتأثيرًا، فكان أن فكَّر في ضرورة تأمين البلاد والاستعانة بقوات مدربة من الخارج يُعوَّل عليها في ردع هذه القوة، ولم تفته تلك الاستعدادات التي يجريها الأتراك لصد هجمات البرتغاليين في البحار ووضع حدٍّ لها، فكان الأتراك بالنسبة لأبي طويرق بصيص أمل لإنقاذ سلطنته من الدمار والخراب القادم، ففكر في التواصل معهم، وأرسل أخاه محمدًا (سلطان ظفار) للقيام بهذه المهمة[٣]، مفضلًا ألا يكون هذا الاتصال مباشرًا معه؛ كي لا يثير شكوك البرتغاليين، ويزيد من نقمتهم على سلطنته، ذلك أن العثمانيين في

---

١ باسنجلة، العقد الثمين الفاخر ص٤١.

٢ بافقيه، تاريخ الشحر ص١٥٧.

٣ ذكرت بعض المصادر أنه في ٢٧ من ربيع الآخر سنة ٩٣٠هـ ((سافر السلطان محمد بن عبدالله بن جعفر الكثيري إلى لحج من طريق البحر، ودخل زبيد، وأخرج له الأمير سلمان ابن أخيه المظفر بالعسكر للقائه، وأعزه إعزازًا لائقًا به، وتزوج بزبيد، وعزم إلى مكة، وحج وجاور بمكة، واجتمع بالشريف بركات بن محمد صاحب مكة)). بافقيه، تاريخ الشحر ص١٦٠، وينظر: باسنجلة، العقد الثمين ص٤١.

هذه المدة ما زالوا منشغلين بتثبيت سلطتهم على المناطق اليمنية التي سيطروا عليها، وأنهم ما فتئوا يتنازعون فيما بينهم على السلطة، وما زالت تلك الحملات التي روجوا لها لمطاردة البرتغاليين بالنسبة لأبي طويرق في حكم المجهول، لذلك رأى أبو طويرق أنه من الانسب مهادنة البرتغاليين ومراوغتهم طوال المراحل القادمة، وإرجاء أمر الانتقام مما فعلوه بسلطنته إلى أن تحين له الفرصة المناسبة، بعد أن يكون قد أعدَّ لهم العدة الكافية، خاصة أنَّه قد خبر بنفسه غدر البرتغاليين وعدم وفائهم بالعهود[1].

وهكذا حاول السلطان بدر تعزيز أمن مدنه الساحلية بهدوء، عن طريق شراء عدد من السفن التجارية التي قلَّت أثمانها بعد أن عزف مُلَّاكها عن الإبحار بها خوفًا من إغراقها على أيدي البرتغاليين، كما حاول أيضًا تجنيد قوة أخرى من الأتراك وشراء عدد من المدافع، كما عمل على تعزيز اقتصاد بلاده وتقوية التداول المالي، إذ أمر في ربيع الأول من سنة ٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م بضرب عملة نقدية جديدة[2]، وفي سنة ٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م أمر بضرب عملة أخرى فضية تحمل اسمه من فئة الريال وفئة النصف والربع، ونقود نحاسية صغيرة وكبيرة[3].

أما أحوال هذا السلطان مع الداخل الحضرمي فقد استمر في نزاعاته مع القبائل المتمردة، وكلما قضى على تمرد هنا فاجأه تمرد هناك، ولعل أشهر هذه التمردات في هذا

---

١ الشهداء السبعة ص٨١-٨٣.

٢ بافقيه، تاريخ الشحر ص١٨٦، وباسنجلة، العقد الثمين الفاخر ص٤٤.

٣ تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٣٨)، والشهداء السبعة ص٦٣. ولعل هذا كان في سنة ٩٣٤هـ، لا سيما أن المصدرين السابقين لم يشيرا إلى هذا الحدث.

العقد ذلك الذي حدث سنة ٩٣٦هـ/ ١٥٢٩م في غيل بن يمين، حينما أعلن الحموم تمردهم على الدولة، وشرعوا في أعمال النهب والتقطع للقوافل الذاهبة إلى حضرموت الداخل والقادمة منها، كما أغاروا على بعض القرى التابعة للسلطان بدر، والتي يحتفظ فيها أهالي المدينة بممتلكاتهم الثمينة خوفًا من البرتغاليين، ومن هذه القرى قرية تبالة، وأجلَوا أهالي قرية (خرد) الواقعة شرق المدينة، ونزح أهلها إلى مدينة الشحر القريبة[1]، وهو ما أثار حفيظة السلطان بدر، فأرسل قوةً كبيرةً إلى غيل بن يمين سحقت هذا التمرد، وأجلَتِ الكثيرَ من الحموم[2]، كما تمكن السلطان من إخراج الحموم من قرية خرد، وإعادة أهلها إليها.

إنَّ تلك الإجراءات التي اتبعها أبو طويرق مع الحموم، بالإضافة إلى سياساته الإدارية الأخرى، أثارت مجددًا حنق أخيه السلطان محمد الذي تربطه علاقات حميمة مع الحموم، فكاتب هذا السلطان أخاه بشأنهم، إلا أنَّ أبا طويرق رفض مطلبه في البداية، مما جعل العلاقة بينهما تسوء، ثم ما لبث أن اعتذر لأخيه الأكبر السلطان محمد، وسعى لرأب الصدع بينهما.

علاقة السلطان بدر مع البرتغاليين:

أمَّا علاقته مع البرتغاليين، وبالرغم من توترها، فقد استطاع تملقهم وكسب ودهم عن طريق السماح لسفنهم ومراكبهم بالتزود بالوقود، كما سمح لهم بالبيع والشراء في

١ بافقيه، تاريخ الشحر ص١٩٢.

٢ تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٣٨-٣٩)، وبافقيه، تاريخ الشحر ص١٩٢.

أسواق المدينة، وليس هذا ببدع منه، فقد فعلها حكام عدن في هذه المدة، وتحديدًا سنة ٩٣٦هـ/ ١٥٣٠م[١]، كما فعلها أيضًا حُكَّامُ (قلهات) التابعة لمملكة هرمز على الساحل العماني في السنة نفسها[٢]. وبالمقابل لم يعترض البرتغاليون السفن المبحرة في أعالي البحار التابعة لأبي طويرق أو رعاياه، واكتفوا بأخذ بعض الضرائب عليها، وأعطوا تلك السفن صكًّا بعدم التعرض لها، مع تحديد نوعية السلع التي ينبغي على التجار الحضارمة الاتجار بها وكميتها.

وعلى الرغم من قسوة هذه الإجراءات واعترافها الضمني بالسيادة البرتغالية على البحار، إلا أنها ساعدت على عودة الانتعاش الاقتصادي للبلد، وبالرغم من عدم ارتياح العامة لهذه العلاقة، خاصة أنَّ جروح تلك المعركة الأليمة مع البرتغاليين لم تلتئم بعد، إلا أنَّها قبلوا بها على مضض؛ خوفًا من بطش السلطان الذي تولى الحماية لهم.

ونرى أنَّ السلطان بدرًا يهدف من هذه العلاقة وتلك المعاملة مع البرتغاليين إلى تجنيب بلاده المدافع البرتغالية، وإثارة شهوة الطمع والجشع في قلوب البرتغاليين بدلًا من القسوة وسفك الدماء، وأنَّ التعامل مع البرتغاليين من شأنه أن يثنيهم عن قتل المسافرين العرب وغير العرب عبر البحار، وتفضيل بيعهم في الأسواق التابعة له عبيدًا وأرقاء، وكذلك الحال مع سفن التجار العرب، فبدلًا من إحراقها أو إغراقها، يقوم هو بشرائها من البرتغاليين، أو يسمح لمالكيها بالشراء بثمن دون قيمتها الحقيقية، وهذا يعني خسارة أقل للملاك. ونلاحظ أنه على الرغم من أنَّ هذا التعامل الجديد شكَّل

١ ينظر: بافقيه، تاريخ الشحر ص١٩٤-١٩٥.

٢ ينظر للتفصيل: الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج ص١٥٣.

مصدرَ ربحٍ للبرتغاليين، إلا أنه في الوقت نفسه يُعدُّ مخالفةً صريحةً للأوامر التي تلقوها من قادتهم وملوكهم، التي تأمرهم بالقتل والحرق والتدمير دون تهاون[١]، ولكن هذه هي السياسة، وهكذا هي أفعال تجار الحروب.

ومن الملاحظ أن السلطان بدرًا بحنكته ودهائه السياسي قد جنَّب المدينة مزيدًا من الدمار، ومصيرًا كمصير جزيرة سقطرى أو (قلهات) و(قريات) و(مسقط) و(صحار) على السواحل العمانية والخليج العربي[٢].

نماذج من القرصنة البرتغالية:

في شعبان سنة ٩٣٠هـ/ يونيو ١٥٢٤م اعترض البرتغاليون عددًا من السفن الحضرمية القادمة من شرق إفريقيا، وأغرقوا ثلاث سفن منها لتجارٍ من الحامي، وأربعَ سفن لأهالي صور العمانية وتجار الكويت[٣].

وفي جُمادى الأولى سنة ٩٣١هـ/ مارس١٥٢٥م هاجم البرتغاليون مدينة قصيعر المشقاصية، وأحرقوا عددًا من السفن الراسية فيها، وأسروا بعض بحارتها[٤].

١ انتهج القائد البرتغالي (لوبو سواريز) سياسة معاكسة لسلفه (البوكيرك)، إذ سمح رسميًّا لكل البرتغاليين بالاشتغال في التجارة، ونتيجةً لهذا عجت البحار بالتجار القراصنة. ينظر: روبرت سارجنت، البرتغاليون قبالة ساحل جنوب بلاد العرب، مجلة اليمن، العدد ٢٦، نوفمبر ٢٠٠٧م، ص١٨٥.

٢ المرجع السابق، ص١٥٣-١٦١.

٣ بامطرف، الشهداء السبعة ص٨٤.

٤ بامطرف، الشهداء السبعة ص٨٤.

وفي محرم سنة ٩٣٢هـ/ أكتوبر ١٥٢٥م تم اعتراض سفن قادمة من الهند تابعة لتجار من الشحر، وإغراق خمس منها بعد أسر بحارتها، وقد تم افتداؤهم في مدينة الشحر[١].

وفي شعبان سنة ٩٣٣هـ/ مايو ١٥٢٧م ((أغار البرتغاليون على زوارق السمك بقرية روكب، وأغرقوا ودمروا عددًا منها، ثم اتجهوا إلى مرسى خلف (المكلا) حيث أحرقوا عددًا من هواري أهل المكلا، وثلاثَ سفن صومالية صغيرة كانت محملة بالأغنام))[٢].

وفي يوم الأحد ١٩ من جمادى الآخرة سنة ٩٣٥هـ/ ٢٨ من فبراير ١٥٢٩م، وصلت ميناء الشحر إحدى السفن البرتغالية من نوع الغراب[٣]، وصادفت في الميناء مركبًا مُحمَّلًا (فوة) وغيرها يريد الهند، فاستولى عليه البرتغاليون، ((ثم إنَّ صاحبه استفكه منهم في حيريج بألف وثمانمائة أشرفي))[٤].

ويمكن أن نستنتج من عدم اعتراض جنود السلطان بدر للمركب المذكور بالرغم من وجوده داخل الميناء، أنَّه والبضاعة التي فيه، ليس تابعًا للشحارية، فهو قادم من اليمن، بدليل بضاعته (الفوة) التي اشتهرت اليمن بكثرة إنتاجها في تلك الحقبة،

١ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٢ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٣ الغراب: مفرد غربان، وهي سفينة حربية قديمة مدببة الحيزوم ذات أشرعة ومجاديف. ينظر: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص١١٥. وهذه السفينة ((تعد من أقدم السفن الحربية التي كانت معروفة عند القرطاجيين والرومان وغيرهم، ولم تزل معروفة حتى أيام الدولة العثمانية، ولم يتغير شكلها، فكانت تسمى فيها بالغراب أو (القدرغة)، وكانت من أشهر أنواع سفنها الحربية)). عبادة، عبدالفتاح، سفن الأسطول الإسلامي ص٧. وقد سميت بالغراب لأن مقدمتها تشبه رأس الغراب.

٤ بافقيه، تاريخ الشحر ص١٨٩، وبامطرف، الشهداء السبعة ص٨٤.

وكذلك وجهته (الهند). أما الحوادث السابقة فغالبيتها كانت بعيدة عن الشواطئ الحضرمية، وأما ما جرى على شواطئ حضرموت كقصيعر وروكب والمكلا، فهذا مما لم نجد له تفسيرًا غير أنَّ هناك سفنًا برتغاليَّةً منفردةً تمارس أعمال القرصنة بدون أوامر رسمية، وتتعمد الأساطيل البرتغالية الرسمية غضَّ الطرف عنها وعن ممارساتها[1]، وأحيانًا تنكر صلتها أو علاقتها بها.

وأيضًا في جمادى الآخرة من سنة ٩٣٦هـ/ يناير-فبراير ١٥٣٠م ((وصل مركب بادقل وفيه رجل من الإفرنج، طلب الأمان على نفسه على أَنَّهُ تاجر خرج للبيع والشراء، فأُعطِيَ الأمان، وابتاع واشترى))[2]. وفي ((صباحية الاثنين تاسع عشر شهر رجب (١٩مارس ١٥٣٠م) وصل من الإفرنج غُرابٌ فيه جماعة منهم، ومعهم جماعة أسارى من المسلمين، فطلبوا الأمان ليخرجوا إلى البلد، فأمَّنهم السلطان، فخرجوا فابتاعوا واشتروا فيها، ثم عزموا إلى أصحابهم الذين ببر العجم))[3]. وزاد المؤرخ محمد بامطرف في هذه الرواية: ((وعند حدوث هذه الحادثة، كان الشيخ عبدالله بن عمر بامخرمة (ت:٩٧٢هـ/ ١٥٦٤م) الملقب بالشافعي الصغير، وهو من أبناء مدينة الشحر، موجودًا في الشحر، وقد اعترض بشدة على عدم تدخل السلطان بدر لافتداء الأسرى اليمنيين المسلمين أو احتجازهم لديه بأية صورة. وعلى إثر هذه المشادة التي صارت بينه وبين السلطان بدر انتقل الشيخ عبدالله بامخرمة إلى عدن محتجًّا على موقف السلطان

١ إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية ص١٢٦.

٢ بافقيه، تاريخ الشحر ص١٩٤.

٣ المرجع السابق، الصفحة نفسها، وبامطرف، الشهداء السبعة ص٨٥.

المشين من الأسرى المسلمين))[1]. ونرى أنَّ هذا الفعلَ قد يكون صحيحًا في الظاهر، أو أنّه قد أُشِيعَ بين العامة هكذا، ولكن يظهر من سياق الأحداث اللاحقة أنَّ في أمر مغادرة بامخرمة الشحر لعدن خفايا، فبامخرمة ليس بالشخصية العادية، وهو من المقربين من أبي طويرق، بل هو من كبار مستشاريه وكاتبه الخاص[2]، ونظن أنَّ ذهابه لعدن كان لغاية أخرى، وهي استعجال التجريدة العثمانية، أو إرسال قوة مساندة، وأُشِيعَ خبرُ مغاضبة بامخرمة للسلطان؛ حتى لا يتنبَّه الأعداء، وهذا ما حدث بالفعل لاحقًا، وعاد بامخرمة لمنصبه.

وفي يوم الخميس الثامن من محرم ٩٣٧هـ/ ٣١ أغسطس ١٥٣٠م ((وصل (غراب) من الإفرنج الذين كانوا مقيمين بعدن، وصادف قريبًا من بندر الشحر مركبًا فنهبوه، ثم لَمَّا كان أوَّل يوم الجمعة صادفوا (جلبة) دون الحامي، وقد علموا أنَّه إفرنجي فقاتلوه فقتل من المسلمين ثلاثة بالبنادق، ثم لم يظفر الملعون منهم بشيء، وانصرف بحسرته))[3].

إنَّ هذه النماذج التي أوردناها وقعت خلال مدة أقلَّ من عقد من الزمان، في ثلاثينيات القرن العاشر الهجري، إذ إنَّ هناك بلا شك الكثيرَ من الحوادث بحاجة لمن يُنقِّبُ عنها ويُظهِرُها، كما أنَّ أعمال القرصنة تلك لم تتوقف عند هذه المدة التاريخية، وإنَّما استمرت بعدها لعقود أخرى[4]. ويشير المؤرخ الروسي (نيقولاي إيفانوف) إلى أنَّ

١ بامطرف، الشهداء السبعة ص٨٥.

٢ باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي ص١٧٧.

٣ بافقيه، تاريخ الشحر ص١٩٦. وللمؤرخ محمد بامطرف تفصيل آخر وتخريج لهذا الحدث. ينظر: الشهداء السبعة ص٨٥.

٤ للمزيد من تلك النماذج، ينظر: بامطرف، الشهداء السبعة ص٨٤-٨٨.

الأسطول البرتغالي بسفنه التي ترفع شارة الصليب على أشرعتها شنَّت في المدة من (٩٢٣-٩٣٨هـ/ ١٥١٧-١٥٣١م) ((تسع حملات عسكرية كبيرة على الشواطئ الجنوبية لشبه الجزيرة العربية والقرن الإفريقي، كما شنت مجموعات مسلحة صغيرة من الزوارق الحربية البرتغالية وقراصنة البحر وبعض السفن المنفردة التي كانت تمخر عباب البحر بإذن ملكي خاص، عددًا أكبر من الهجمات على تلك المناطق، ومنذ عام ١٥٢٣م (٩٣٠هـ) بدأ القراصنة البرتغاليون يظهرون على شواطئ شبه الجزيرة العربية، ويتعاطون مهنة القرصنة لحسابهم الخاص دون إذن من أحد، فكانت السلطات الشرعية تلاحقهم شكليًّا، لكنهم في الحقيقة كانوا يستندون إلى تأييد ممثلي الملك، ويتقاسمون الغنائم معهم، كما كانوا عند الضرورة يجدون الملاذ لهم في المرافئ الملكية))[١].

قدوم العثمانيين وبداية تغير السياسة:

لقد أصبح واجبًا على السلطان بدر أبي طويرق التصرف سريعًا لرد الاعتبار للمدينة ولأهلها ولنفسه بوصفه سلطانًا مسؤولًا عن رعيته، وإلا سيواجه ثورةً عليه ربما تقوض عرشه، فقد ضاق الناس ذرعًا بتلك الممارسات الاستفزازية من البرتغاليين، والتزام السلطان الصمت، مع عدم إبداء أي ردة فعل تجاه ممارساتهم تلك، أو الاكتفاء فقط بتعويض بعض التجار عن جزء من خسائرهم المنهوبة، لقد أصبح الجميع ينظر إلى هذا السلطان على أنَّه عاجز مسلوب الإرادة، حتى أصبح الشعراء الشعبيون يستصغرونه في

١ إيفانوف، نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية ص١٢٦.

قصائدهم التي تُذاع على الملأ في مساجلاتهم ومسامراتهم[1]، وهذا أيضًا ما دفع الشيخ الفقيه عمر بن محمد العمودي وعددًا من أفراد قبيلته، إلى القدوم من دوعن إلى الشحر، وفي نيتهم جهاد البرتغاليين[2]، ولو منفردين، قاصدين بهذا الضغطَ على السلطان أبي طويرق وإحراجه، وكان هذا سنة ٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م، إلا أنَّ أبا طويرق على ما يبدو استطاع إقناع الشيخ العمودي بما يُخطط له، بل طلب منه مساعدته باستعمال وجاهته والتدخل مباشرة لحل مشاكله الداخلية مع القبائل المتمردة عليه كي يستتب له الأمر، وبالفعل تدخل الشيخ عمر العمودي في وساطات لحل بعض تلك المشاكل والنزاعات[3]، وهذا ما لم يعجب أخاه الشيخ عثمان بن أحمد العمودي، الذي ضغط بدوره على أخيه ليتنازل له عن الزعامة، فاضطر أخوه للتنازل، وقد دخل عثمان العمودي في تحالفات مع المناهضين لسياسة أبي طويرق وسلطته، بل خاض حروبًا معه فيما بعد[4]، فضلًا عن تحالفه مع الزيود.

إنَّ ما لم يدركه عامة الناس في تلك المدة هو أنَّ السلطان أبا طويرق كان يعد عدته للانتقام من البرتغاليين عن طريق الإكثار من شراء الرقيق وتجنيدهم، وتأمين المدينة وأسوارها، كما قام بشراء عدد من المدافع وتخزينها حتى لا يراها البرتغاليون فيرتابوا في أمرها، وأيضًا حاول تهدئة الداخل الحضرمي وإصلاح علاقته بأخيه محمد وحلفائه

١ للمزيد عنها ينظر: بامطرف، الشهداء السبعة ص٨٨-٩١.

٢ بافقيه، تاريخ الشحر ص١٨٦.

٣ بافقيه، تاريخ الشحر، ضمن حوادث سنة٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م، ص١٩٠.

٤ بافقيه، تاريخ الشحر ص١٩٨، وباوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي ص١٩٥-١٩٦.

الحموم، كما كان في تواصل دائم مع العثمانيين في اليمن يتتبع أخبارهم وأخبار تلك الحملة التي صارت شبه جاهزة للانطلاق.

ومثلما حدث في عدد من المناطق اليمنية التي حاول فيها العثمانيون بسط نفوذهم بالتوافد إليها أفرادًا وجماعات والعمل مع حكامها المحليين وتقديم الخدمات لهم وفقًا لرغبات الباب العالي وأوامره[1]؛ حدث هذا أيضًا مع الدولة الكثيرية وسلطانها أبي طويرق، وقد سبق أن أشرنا للتواصل القديم مع الباب العالي، ولتلك القوة التركية التي استقدمها السلطان بدر بقيادة الضابط رجب التركي، وهاهم العثمانيون يتوافدون إليه أفرادًا وجماعات، وأحيانًا في هيئة تجار حتى لا يفطن لهم أحد، مثلما حدث مع الأمير يوسف التركي الذي أصبح لاحقًا من كبار أمراء أبي طويرق، وسنأتي لطرف من أخباره في سياق الحديث.

وفي سنة ٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م[2]وصل إلى ميناء الشحر عدد من السفن التركية القادمة من زبيد، بقيادة مصطفى بيرم[3]، ومعه نائباه الخواجا الإيطالي (صفر آغا) المشهور بلقب (عبد سلمان)، والآخر (قره حسين)[4]، ومعهم أعداد كبيرة من الجنود بأسلحتهم النارية ومدافعهم الكبيرة بعيدة المدى، وكان هدفهم المعلن مجاهدة البرتغاليين في الهند

١ إيفانوف، نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية ص١٢٢.

٢ ذكر المؤرخ بافقيه هذه الحادثة ضمن حوادث سنة ٩٣٦هـ، ثم أعادها بصيغة اخرى ضمن حوادث سنة ٩٣٧هـ. ينظر: تاريخ الشحرص١٩٤، ١٩٦.

٣ بعض المصادر تذكره باسم: (مصطفى بهرام)، وذكر العيدروس في النور السافر ص٢٧٠ أن جدَّهُ الشيخ عبدالله العيدروس ووالده كانا في مدينة الشحر في أثناء قدوم هذه التجهيزة، وكانا عازمين على السفر للحج.

٤ باسنجلة، العقد الثمين ص ٤٦، وبافقيه، تاريخ الشحر ص١٩٤، ص١٩٦، وإيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية ص١٢٤.

ومناصرة سلاطينها، وخاصة سلطان كوجرات (بهادر شاه)[1] الذي استغاث بهم، في حين كان هدفهم غير المعلن هو الفرار بأموالهم وغنائمهم من القوات العثمانية الملاحقة لهم، بعد فشل انقلابهم على والي العثمانيين في اليمن وقتله[2].

ولم يجد السلطان أبو طويرق بُدًّا من استقبالهم بحفاوة كبيرة، وفي نيته عدم تفويت فرصة كهذه يمكن أن تغيِّر موازين القوى وتقلب المعادلة مع البرتغاليين، إذ طلب من الأمير مصطفى بيرم تزويده بقوة ممَّا معه من الجنود والأسلحة والمدافع، ووافق مصطفى بيرم قبيل مغادرته على إمداد أبي طويرق ببعض القوة التي تلزمه، بقيادة نائبه (الخواجا صفر)، والذي أُمِرَ بالانتظار في المدينة ريثما يصل المركب الذي فيه عائلته وخدمه وحاشيته، أمَّا بيرم فقد تقدم بالقوة التي معه باتجاه الهند، وقبيل رحيله أهدى للسلطان بدر عددًا من الهدايا والخِلَع. أمَّا مركبه العائلي فقد جنح في (المكلا) بسبب هبوب الرياح الموسمية الشرقية، مما اضطر السلطان بدرًا إلى إحضارهم عبر البر بواسطة الجمال ذات الهوادج، واستضافتهم في المدينة مدَّة الموسم.

وهذه الرياح الموسمية التجارية الشرقية المعروفة بـ(الأزيب)[3]، لم تكن في صالح إبحار الأمير مصطفى بيرم إلى الهند، إذ أعادَتْهُ إلى الشحر حينما بلغ سواحل (شرمة)،

---

١ تنظر ترجمة مفصلة له في تحفة المجاهدين ص٢٠١.

٢ إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية ص١٢٤. وما زال اللبس والغموض يلف الأحداث التي بطلها مصطفى بيرم.

٣ عن هذه الرياح وأثرها في حركة الملاحة، ينظر: الكسادي، بدر بن أحمد، القاموس البحري ص٢٤١، والملاحي، عبدالرحمن، الحضارم في ممباسا ودار السلام ص٣٨، وملامح من التداخل المعرفي بين اليمن وربابنة عمان ص٣٦.

وحينها لم يجد بُدًّا من المكوث في المدينة في ضيافة أبي طويرق طوال مدَّة الموسم[1]. وخلال هذه المدَّة استطاع أبو طويرق الاستفادة من قوتهم في إخضاع تمردات المناطق الداخلية.

ولا ندرى هل كان لهذه الحملة أو هذه الضيافة أيُّ علاقة ببعض الإصلاحات الإدارية التي قام بها السلطان أبو طويرق، ومنها عزله لأمير الشحر عطيف بن دحدح، وتعيين الأمير أحمد بن ماقوس بدلًا منه، كما جعل الحلَّ والعقد بيد الفقيه سعيد بن عبدالله الرنكي[2]، إلا أن الاحداث اللاحقة فسرت بعضًا من ذلك كما سنبيِّنه.

فدائيون من المهرة:

ما أن انقضى الموسم حتى ارتحل مصطفى بيرم من الشحر قاصدًا الهند ليلة الأحد ١٣ من ربيع الآخر سنة ٩٣٧هـ/ ٢٤ من أكتوبر ١٥٣١م، تاركًا قوة من الأتراك بقيادة (الخواجا صفر) على أن يتبعه هذا الأخير لاحقًا. أمَّا في مدينة الشحر فقد تم تعزيز الميناء بهذه القوة، وأُوكِلَ إليها أمرُ حماية المدينة، وبالفعل في يوم الخميس ١٥ من جمادى الأولى من سنة ٩٣٧هـ / ٣ يناير ١٥٣١م وصل إلى الميناء عددٌ من المراكب التجارية قادمةً من الهند، وصادف في هذه المدة أن دخلت الميناء إحدى الغربان البرتغالية، ولما رأى هذا الغراب السفن الهندية راسية قبالة الساحل، أراد سلب ما فيها، فهاجمته الحامية التركية بقيادة (الخواجا صفر)، مما اضطره للهرب، وفي أثناء فراره وعند وصوله لمدينة (الحامي) صادف مركبًا هنديًّا آخر، فأخذه بحمولته، وحينما بلغ الخبر السلطان أبا طويرق، أمر

١ بافقيه، تاريخ الشحر ص١٩٧.

٢ باسنجلة، العقد الثمين الفاخر ص٤٦.

بتحريك الغراب بقيادة (الخواجا صفر) ومعه (طراد)[1] فيه مقاتلون من المهرة، وأمرهم بمطاردة السفينتين (البرتغالية والهندية)، وبالفعل تمت المطاردة، وتمكنت هذه القوة في النهاية من اللحاق بالسفينتين، وحينما أدرك الغراب البرتغالي أن هذه القوة مدركتُهُ لا محالة ترك المركب الهندي بما فيه، مكتفيًا بأخذ ناخوذة المركب والمعلم، وولَّى هاربًا، لتعود هذه القوة بالغراب الهندي[2]، كما عاد لاحقًا ذلك الغراب البرتغالي لممارسة أعمال القرصنة مقتصرًا هذه المرة على مناطق المشقاص، واستمر في قرصنته إلى أن ضاق به المشقاصيون ذرعًا، فعزم عدد من فدائيي المهرة من منطقة (حصوين) بـ(قشن) على التخلص من هذا الغراب بأي وسيلة، وفي ظلمة إحدى الليالي انسل عدد منهم وركبوا في سنابيق صغيرة متجهين إلى ذلك الغراب البرتغالي، وتمكنوا من الصعود على سطحه دون أن يشعر بهم أحد، وذبحوا كل البرتغاليين الموجودين فيه، وعادوا سالمين! وهي مغامرة جريئة جدًّا[3].

مراوغة السلطان بدر:

أمَّا (الخواجا صفر) فلحق بعدها بصاحبه الأمير مصطفى بيرم، تاركًا لأبي طويرق قوة صغيرة من الجنود الأقوياء، ولا نعلم من كان قائدَها، إلا أنَّه في مراحل لاحقة أصبحت هذه القوة التركية بقيادة (يوسف التركي) الذي أصبح له شأن كبير، وسنتناول شخصيته ببعض التفاصيل لاحقًا.

---

١ الطرَّاد: سفن سريعة خاصة لحمل الخيول والفرسان، تستخدم غالبًا في المطاردات البحرية، ويقال له أيضًا (طريدة)، ويجمع على (طرائد). ينظر: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص١٠٧.

٢ بافقيه، تاريخ الشحر ص١٩٧.

٣ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٠٠.

إنَّ هذه الأحداث أظهرت بلا شك مدى براعة أبي طويرق في إدارة ذلك الصراع، فهو من جهة يعلم أنَّ هذه القوة العثمانية على قلَّتها لن تقيم عنده على الدوام، بل ستغادره لامحالة، ليواجه وحده مصيره المحتوم، وهم أي (العثمانيون) وإن تركوا له قوة صغيرة، فهي غير كافية لمواجهة تلك الأساطيل البرتغالية الضخمة، لذا فإنَّ التعويل على هذه القوة وحدها ومعاداة البرتغاليين لأجلها، لن يفيده في شيء، وحتى يهدِّئ من غليان الشعب، ويظهر لهم بمظهر المقاوم، ويُخلي في الوقت نفسه مسؤوليته أمام قائد البرتغاليين -سمح أبو طويرق لتلك القوة العثمانية الصغيرة بالقيام وحدها بحماية المدينة والتصدي للبرتغاليين، ليتنصل من فعلها لاحقًا متى ما قدم الأسطول البرتغالي، بحجة الضغط الشعبي، وأنَّ هذه القوة العثمانية غير خاضعة له.

وبالفعل كما دلَّت عليها الأحداث اللاحقة استطاع أبو طويرق إخلاءَ مسؤوليتهِ عن تلك التصرُّفات التي قام بها الجنودُ العثمانيُّون، وعلى ما يبدو أنَّ البرتغاليين تقبَّلوا أعذاره على مضض، ربَّما لأنَّهم ما زالوا بحاجةٍ له ولأسواقه، وعدم رغبتهم في كسب عدو آخر يمكن أن ينضم لمعسكر أعدائهم الألداء (العثمانيين)، أو ربما وهو المرجح أنَّهم بيَّتُوا النية للانتقام منه والغدر به، وهذا ما بيَّته لهم أيضًا أبو طويرق.

أمَّا عن الوضع في الداخل الحضرمي فعاد إلى الفوضى والاضطراب، كما تجرَّأت بعضُ القبائلِ على القيام بهجمات على القرى القريبة من المدينة ونهبها، بل محاصرة المدينة نفسها، فعلى سبيل المثال في سنة ٩٣٨هـ/ ١٥٣٢م وصل الخبر من المشقاص بأنَّ أحمد بن جردان وسعيد بن عبدالله بن عفرار، حشدوا قبائل مهرة (بيت زياد)، وأظهروا أنهم يريدون الشحر، ولم يساعدهم (محمد بن طوعري) شيخ بيت زياد، الأمر الذي أثار

الرُّعبَ والخوفَ في نفوس أهل المدينة[1]. كما هاجمت في السنة نفسها مجاميعُ من قبيلة سيبان، وتحديدًا يوم الأحد ٢٧ جمادى الآخرة ٩٣٨هـ/ ٦فبراير ١٥٣٢م قريةَ تبالة، واستولت على أموال لأناسٍ أودعوها فيها مخافةً من نهب البرتغاليين للمدينة[2]. وفي ١٥ محرم سنة ٩٣٩هـ/ ١٨ اغسطس ١٥٣٢م هاجمت تلك المجاميع السيبانية نفسها بقيادة سليمان باهبري قرية (شكلنزة) التابعة للمدينة ونهبتها، وأخذ باهبري بعض أهالي الشحر أسرى، منهم عوض بن مبارك بامؤمل وولده وعبده[3]، كما حاصر المدينة أيضًا بغرض السيطرة عليها في الثامن من محرم سنة ٩٤٠هـ/ ٣٠ يوليو ١٥٣٣م أخوه السلطان محمد بن عبدالله، ومعه ثلاثمائة مقاتل من بيت زياد المهرة وغيرهم، مستغلين غياب أبي طويرق في مناطق الداخل الحضرمي لإخماد بعض التمردات، إلا أنَّ الكاتب سعيد الرنكي استطاع ردعهم بتسليط المدافع العثمانية عليهم، فانسحبوا فارِّين[4]. وواضح أنَّ العلاقة بين الأخوين في هذه المدَّة قد ساءت.

وهكذا كما أشار المؤرخ محمد بن عمر الطيب بافقيه في كتابه (تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر) في وصفه لحال الناس في تلك المدَّة قائلًا ((وبقي أهل الشحر في هذه المدة في غاية ما يكون من القلق والخوف، بين فرنجي ومهري وبدوي؛ لأنَّه شاع في هذه الأيام أنَّ جماعة من آل عبدالعزيز نحو المائتين ساروا من السور، وما عُرِفَ إلى أين توجَّهوا، وفزع أهل الشحر على تبالة والغيل؛ لأنَّ التجار وسواهم قد نقلوا غالب أثقالهم إليها))[5].

١ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٠٣. وقد توفي ابن طوعري في شهر رجب من سنة ٩٤٢هـ.

٢ باسنجلة، العقد الثمين ص٤٧.

٣ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢١٢. ولا توجد حاليًّا أسرةٌ بالمدينة تحمل اسم (بامؤمل)، ولعله تصحيف لـ(بامؤمن).

٤ باسنجلة، العقد الثمين ص٤٩، وبافقيه، تاريخ الشحر ص٢١٨.

٥ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٠٣. بتصرف يسير.

إنَّ مثل هذه الأوضاع تطلبت من أبي طويرق مجابهتها بحزم وشدة، وعدم الاكتفاء فقط بالقوة التركية الموجودة معه، والتي هلك معظمها في حروبه السابقة، كما أنَّ ما كان يُميِّز هذه القوَّة سابقًا ويجعل منها قوة متفوقة، هو امتلاكها لسلاح البندقية، أمَّا الآن فقد أصبحت معظم القبائل تمتلك هذه الأسلحة، وهذا يعني مزيدًا من تعقيدات الموقف، وإن كانت القوة لا تزال في يده، خاصة وأنَّه ما زال يمتلك سلاح المدفعية دون سواه من المنافسين، إلا أنَّ ما ينقصه كان المقاتلين، فانطلق يبحث عن حلفاء جدد، وتواصل مع أشراف الجوف في اليمن، وبالفعل وصلت طلائعهم الأولى سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م بقيادة المقدَّم ناصر بن أحمد بن محمد بن الحسين، ومعه أربعون مقاتلًا من أتباعه[١]، واتفق أبو طويرق معهم على مغادرتهم لمناطقهم، والإتيان بقوة عسكرية ضخمة، وبالفعل في سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م قدمت هذه القوة بعدد يزيد عن ألفَيْ مقاتل[٢]، ولم يُضِعْ أبو طويرق الفرصة، وأرسلهم مباشرة إلى حيريج، وأضاف إليهم قوةً من حلفائه المهرة (بيت محمد) بقيادة سعيد بن أحمد المحمدي، وكان هدف الحملة السيطرة على حيريج وطرد حاكمها أحمد بن سعد بادجانة، ومعه (بيت زياد) حلفاء أخيه (السلطان محمد)، وأعداء لحلفائه (بيت محمد). وقد تم له ذلك، فطرد بيت (زياد) من حيريج، وجعل عليها حلفاءه من بيت (محمد)[٣].

١ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٢٦، والعقد الثمين ص٥١، وتاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٤٠).

٢ العقد الثمين ص٥٣.

٣ يبدو أنَّ هنا لبسًا ما، ذلك أن المعروف تاريخيًّا أنَّ آل أبي دجانة هم حلفاء لبيت محمد، وليس لبيت زياد، ولكن في هذه الأحداث تغيرت المعادلة وتغيرت الأحلاف! تنظر تلك الحادثة في: باسنجلة، العقد الثمين ص٥٣، وبافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣٢،

وكأنَّ التاريخ يعيد نفسه، إذ حينما ساءت علاقة السلطان بدر بأخيه السلطان محمد كان الفتك بأمير الشحر الذي كان حينها الأمير مطران بن منصور، وقد حدث هذه المرة نحو هذا أيضًا! فحينما ساءت علاقته بأخيه محمد نجد أنَّ السلطان بدرًا يفتك بكاتبه الفقيه سعيد الرنكي، بحبسه وتعذيبه إلى أن مات[1]. ومثله ما حدث لاحقًا مع أمير الشحر حسن باكثير. وفي الحقيقة لا ندري ما الدافع الحقيقي لإجراء كهذا! إلا أن يكون في الأمر خيانة من هذا الكاتب (الرنكي) لصالح جهة ما معادية! ويبقى هذا مجرد فرض وتخمين. كما لا ندري ما مصير الأمير السابق (بن ماقوس)، فلعله لاقى ما لاقى زميله (الرنكي)، إذ تم في المدَّة نفسها تعيين الأمير أحمد بن مطران بن منصور أميرًا على الشحر[2]، والذي قُتِلَ لاحقًا في قشن بالمهرة سنة ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م.

ومثلما عادت علاقة أبي طويرق بأخيه محمد إلى سابق عهدها من الود والوئام، نجدها تعود أيضًا بعد كل هذه الأحداث، إذ سرعان ما اصطلح الأخوان، وأعاد السلطان بدر (حيريج) لـ(بيت زياد)[3] حلفاء أخيه، ووقع هذا الصلح في يوم الأحد ٢٢ رجب ٩٤٢هـ/ ١٦ يناير ١٥٣٦م[4].

---

١ باسنجلة، العقد الثمين ص٥٣.

٢ بامطرف، الشهداء السبعة ص٨٨.

٣ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣٣.

٤ باسنجلة، العقد الثمين ص٥٣. أما عند بافقيه، فكان الصلح في ١ شوال سنة ٩٤١هـ/ ٥ أبريل ١٥٣٥م تقريبًا. إذ كتب يقول: ((وفي أول شوال اتفق السداد والمطايبة بين السلطانين محمد وبدر، بعد أن ظهر منهما بعض تشويش، وذلك – أعني السداد– على أن جميع البلدان منصوفة بينهما حضرموت والشحر وظفار وغيرها، ماعدا سيئون فهي خالصة لمحمد، وبدر يختار قبيلها تكون خالصة له أيضًا، ثم ورد الخبر أنَّ بدرًا اختار هينن، فتم الصلح والسداد على ذلك)). تاريخ الشحر ص٢٢٧.

عودة إلى الوجود العثماني في الشحر:

وكما أشرت مسبقًا، فبعد مغادرة (الخواجا صفر) ميناء الشحر للحاق بالأمير (مصطفى بيرم) أبقى في المدينة قوة صغيرة من العثمانيين تحت تصرف السلطان بدر، وكان قائدها كما نعتقد هو القائد الشاب (يوسف التركي)، والذي ما لبث أن أصبح أميرًا في سلطنة أبي طويرق، وأسهم في إخماد الكثير من التمردات، فضلًا عن قيامه ببعض المهام الدبلوماسية والحربية خارج الإقليم، منها مطاردة البرتغاليين ومحاربتهم في السواحل الهندية.

الأمير يوسف التركي:

ربما لا نعلم الكثير عن هذا الأمير الذي تولى قيادة بعض الفرق الحربية للسلطان بدر أبي طويرق؛ بسبب شحة المعلومات التي أشارت لهذه الشخصية وقصورها، ولكن من خلال تتبع مسارات الأحداث، استطعنا التعرف على بعض جوانبها، فيكاد يكون أول ذِكْرٍ لهذه الشخصية ضمن حوادث سنة ٩٣٨هـ/ ١٥٣١م، وقد وصفه المؤرخ محمد بامطرف بأنَّه أحد أهالي الشحر، وأنَّه كان تاجرًا[١]. ولا يوجد أي دليل يثبت شحريته، فالصفة المقرونة باسمه تقول إنَّه تركي! بل إنَّ المؤرخ بامطرف نفسه حينما أشار لمقاومة هذا الرجل في إحدى المعارك، غاب عنه أنَّ المصادر التي اعتمدها في معلومته تلك، وصفت هذا المقاوم في تلك المعركة باسم (الناخوذة الرومي)[٢].

---

١ بامطرف، الشهداء السبعة ص٨٦.

٢ تنظر الحادثة في: بامطرف، الشهداء السبعة ص٨٦، وبافقيه، تاريخ الشحر ص٢٠٥.

ونحن نرى أنَّ هذا الرجل في بداية أمره كان ناخوذةً مسؤولًا عن نقل المؤن والمعدات الحربية العثمانية لبعض الجبهات، فحمول مركبه الراسي بالميناء حال وصوله المدينة أول مرة يحتوي على (رصاص، مرجان، زئبق، جوخ، إلخ)[1]، وكان يريد بها الهند، وأنَّ أوَّل ذِكْرٍ له في مدينة الشحر يعود إلى سنة ٩٣٨هـ/ ١٥٣١م، وهي المدَّة التي عاد فيها من الهند مركب (الخواجا صفر) من دونه، وكان هذا المركب محملًا بالذخائر والمدافع، ليمكث المركبان (مركب صفر ومركب يوسف) قبالة ميناء مدينة الشحر.

ومن الواضح هنا أنَّ هذه التحركات العثمانية وتعامل السلطان بدر الإيجابي معها، لم تعد خافية على البرتغاليين، ففي يوم الخميس ٢١ شعبان ٩٣٨هـ/ ٢٨ مارس ١٥٣٢م، قدمت للميناء سبع سفن برتغالية (خشب)[2]، وما كادت ترى الأعلام التركية تلوح على بعض السفن الراسية، حتى شرعت من دون مقدمات بإطلاق نيران مدافعها، وفي نيتها تدمير كل السفن الموجودة بالميناء، لا سيما التركية منها، لتدور قبالة سواحل المدينة معركة بحرية بين تلك السفن، ويبدو أنَّ أهمَّ هدفٍ للسفن البرتغالية هو الاستيلاءُ على مركب (الخواجا صفر) المحمَّل بالأسلحة والمدافع، وكذلك مركب يوسف التركي، وليس إغراقهما، نظرًا لرغبتهم في الحصول على ما فيهما من ذخائر، وقد قام ناخوذة مركب (الخواجا صفر) بإعطابه عن طريق إغراق أجزاء منه في الماء، وهو تصرف ذكي يمنع البرتغاليين من الاستيلاء عليه بما فيه، كما أنَّ عملية نقل محتوياته قد تتطلب من البرتغاليين العمل أيَّامًا وربَّما أسابيع لنقلها، وطبعًا ستحول مدافع الحامية

---

١ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٠٥.

٢ تنظر تفاصيل المعركة عند: بافقيه، تاريخ الشحر ص ٢٠٥-٢٠٦، وبامطرف، الشهداء السبعة ص٨٦.

دون اقترابهم منها طوال تلك المدَّة. أمَّا يوسف التركي ومعه عدد من نواخذة المراكب الأخرى، فظلوا يقاومون بمراكبهم البرتغاليين ويناورونهم، إلى أن حلَّ الظلام.

وفي المساء التقى يوسف التركي بعدد من الجنود الأتراك ومعهم أهالي المدينة من مشايخ وأعيان وملاحين وصيادين وغيرهم؛ لتدارس الأمر، وقد تأكَّد للجميع أنَّ نيَّة البرتغاليين وهدفهم من هذا الهجوم المباغت هو:

١) الاستيلاء على مركبي الخواجا صفر ويوسف التركي طمعًا في محتوياتها الحربية، ورغبةً في النكاية بالعثمانيين، وأنَّه بعد أن تعذَّر على البرتغاليين الاستيلاء على مركب (الخواجا صفر) للعطب الذي فيه، فإنَّ الهدفَ اللاحقَ سيكون مركب (يوسف التركي).

٢) الاستيلاء على محتويات مركب (الخواجا صفر)، وهذا الهدف صعب بالنسبة للبرتغاليين؛ لأنَّ نقل هذه المحتويات قد يتطلب من البرتغاليين أيَّامًا وربَّما أسابيع، إذن فليس أمامهم إلا الهدف الثالث، وهو:

٣) تفجير مركب الخواجا صفر، وتفويت الفرصة على الأهالي في الحصول على محتوياته الحربية والاستفادة منها.

وقد أشار عليهم (يوسف التركي) بالإسراع في نقل معظم ذخائر مركبه إلى الشاطئ، بما فيها المدافع الصغيرة، وتحصين المواقع المختلفة، والإبقاء على بعض المدافع والذخائر فقط، ليواصل بها مع ثلة من أصحابه المناورة ضد البرتغاليين داخل البحر، كما حاول صرف أنظار البرتغاليين عن مركب الخواجا صفر بجعل مركبه هذا كبش فداء، كما نبَّه على ضرورة إعاقة وصول البرتغاليين ومنع اقترابهم من مركب الخواجا صفر.

وواضح أنَّ هذا أيضًا هو ما كان يفكر فيه ويخطط له البرتغاليون، وهو تفجير مركب (الخواجا صفر) بعد أن ظهر لهم تعذر نقل محتوياته. ومع بزوغ شمس اليوم التالي، بادرت السفن البرتغالية بإطلاق نيران مدافعها صوب المدينة والسفن الراسية قبالتها، بهدف إثارة الهلع والخوف في نفوس الأهالي، وفي الوقت نفسه أمرت بعض القوارب الحربية بالتسلل إلى مركب (الخواجا صفر) وتفجيره بالبارود. وقد تصدت الحامية لمدافع السفن البرتغالية، وردَّت بقوة على مصدر النيران، كما قام (يوسف التركي) وبحَّارتُهُ بمناورة حربية بمركبه، إلى أن انتهت ذخيرتهم، فغادروا المركب، ونزلوا على قارب إلى الشاطىء، تاركين المركب لقمةً سائغةً للبرتغاليين. أمَّا قوارب البرتغاليين فما كادت تقترب من مركب (الخواجا صفر) حتى باغتهم عدد من الجنود المختبئين على ظهر المركب بإطلاق النار، فتقافز الجنود البرتغاليون من على قاربهم إلى الماء، وعادوا لمراكبهم. وفي هذه المعركة التي استمرت يومين متتاليين اضطر بعض نواخذة السفن للفرار بمراكبهم بعيدًا، وخاصة تلك التي نجت من مدافع السفن البرتغالية، وفضَّل نواخذة آخرون إغراق مراكبهم حتى لا تقع في قبضة البرتغاليين.

وواضح أنَّ هذه المعركة كسبها البرتغاليون، إذ غادروا بعدها إلى حيريج، ومعهم الغنائم وعدد من السفن التجارية ومركب يوسف التركي، وهناك تم التفاوض مع ملاك تلك السفن التجارية لفك سراحها، مقابل دفع هؤلاء أموالًا كثيرةً. أمَّا مركب (يوسف التركي) فأصرَّ البرتغاليون على أخذه معهم بالرغم مما قُدِّمَ لهم من عروض مادية مقابل تحريره[1].

---

١ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٠٦.

والظاهر أنَّ هذه المعركة كانت في غياب السلطان بدر، وأنَّه لم يكن موافقًا عليها، بل يبدو لنا من خلال النصوص التي روت هذه الحادثة أنَّ هناك أوامر منه لجنوده وحاميته (الحضرمية) بعدم التصادم مع البرتغاليين، فهذا الاشتباك الذي وقع كان أساسًا بين الأتراك التابعين للخواجا صفر وبعض ملاك السفن والأهالي المناصرين لهم من جهة، وبين البرتغاليين من جهة أخرى. ومما يؤكد هذا أنَّه بعد هذه الحادثة بأقل من شهر، وتحديدًا في يوم الخميس ١٢ رمضان ٩٣٨هـ/ ١٨ أبريل ١٥٣٢م عادت مجددًا تلك الأساطيل البرتغالية بقيادة الضابط البرتغالي (أنطونيو دي سلدانا)، وحاولت السيطرة على عدد من السفن والمراكب في الميناء، إلا أنَّ (يوسف التركي) ومن معه من أهالي البلاد، لم ينتظروا أوامر الدفاع، وإنَّما تصدوا لهذه السفن بمدافعهم فور وصولها، وصادف أن الكثير من رجال الدولة كانوا موجودين في المدينة، وسارع هؤلاء إلى الشاطئ محاولين ثني (يوسف التركي) ومن معه من المقاومين عن التصدي للسفن البرتغالية، إلا أنَّ المقاومين استمروا في المقاومة والضرب بالمدافع، مما أعاق تقدم السفن البرتغالية. وكان من نتائج هذا الاشتباك أن حبست الدولة أعدادًا من أولئك المقاومين، وضربَتْ آخرين بدعوى عدم انصياعهم لأوامر الدولة وتوجيهاتها. وهو نفس ما فُعِلَ لاحقًا بالشيخ أحمد سعيد باغريب صاحب مسجد باغريب العامر إلى اليوم بالمدينة، إذ حُبِسَ وجُلِدَ في الساحة العامة عندما انتقد السلطان بدرًا على أفعاله[١].

إنَّ تلك الأفعال الصادرة من السلطان بدر قُوبِلَتْ بالاستهجان والاستنكار من قِبَلِ العامة[٢]، وعن هذا الغضب الشعبي وحالة الهيجان في الشارع عبَّر المؤرخ الطيب محمد

١ تنظر ترجمة الشيخ باغريب عند: حداد، عبدالله، معجم شعراء العامية الحضارمة ص٣٢.

٢ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٠٦-٢٠٧، وبامطرف، الشهداء السبعة، وعنده بتاريخ ١٥ رمضان. ص٨٦.

بن عمر بافقيه بالقول: ((وارتجَّتِ البلادُ ارتجاجًا عظيمًا من فعلهم (يقصد جنود السلطان)، وحزن المسلمون لذلك، وحصلت شناعة عظيمة، وذلك كله ظنًّا منهم أنَّ ذلك مما يرضي الإفرنج، ومما يتقربون به إليهم، وهيهات لا الإفرنج راضون عنهم ولا الروميُّ ولا المسلمون))[1].

ولعل في هذا ما يفسر لنا قيام السلطان بدر في تلك السنة بعزل الأمير عطيف عن إمارة الشحر، وتولية (أحمد بن ماقوس) بدلًا منه، وجعل الحل والعقد بيد الفقيه (سعيد الرنكي)[2] المذكور سابقًا، في محاولة منه لامتصاص الغضب الشعبي، وإظهار استنكاره لما قام به رجال دولته.

وبعد هذه الحادثة غاب خبر (يوسف التركي) دون أن يُعلَم عن أمره شيء، إلى سنة ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م، أي بعد إعلان أبي طويرق الولاء للعثمانيين بسبع سنين تقريبًا، حينما ظهر خبره بوصفه قائدًا كبيرًا من قادة أبي طويرق، وقد كلَّفه السلطان بالذهاب إلى حيريج لحل بعض المشاكل هناك، ومنها نزاع حاميتها مع قوة تركية دخلت الميناء[3]، ثم توالت أخباره، ومنها أنَّ السلطان بدرًا أرسله سنة٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م مع قوة لمقاتلة حاكم (أحور)، وفي هذه الحملة وُصِفَ يوسف التركي بـ(الأمير). كما أرسله لاحقًا

---

١ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٠٧، وبامطرف، الشهداء السبعة. وفيه أورد تعليقًا للمؤرخ باسنجلة عن هذه الحادثة وموقف الناس منها، وهو غير موجود في كتاب باسنجلة المحقق (العقد الثمين الفاخر)، ولعله من أقوال الربان باسباع، فالتبس الاسم على المؤرخ بامطرف. ينظر: الشهداء السبعة ص٨٦.

٢ باسنجلة، العقد الثمين الفاخر ص٤٦، وبامطرف، الشهداء السبعة ص٨٦.

٣ بافقيه، تاريخ الشحر ص٣٠٥-٣٠٦، وباسنجلة، العقد الثمين ص٨٧.

لمحاربة العمودي، إلى جانب الأمير علي بن عمر الكثيري، والفقيه الأمير محمد بحرق[1]، وانتهت الحملة بهزيمة قوات السلطان بدر. كما أُرسِلَ كذلك إلى الهند لمساعدة القوات العثمانية هناك سنة ٩٦٠هـ/ حوالي ١٥٥٣م[2]. وأُرسِلَ أيضًا في مفاوضات مع باشا اليمن سنة ٩٧١هـ/ ١٥٦٣م[3]. كما نجده حاضرًا في الانقلاب الناجح الذي قام به السلطان عبدالله بن بدر ضد والده بدر أبي طويرق سنة ٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م، وكان يوسف التركي إلى جانب أبي طويرق، وقد أُصِيبَ بحجرٍ كبيرٍ وقع عليه في ذلك الحادث[4]. ولا ندري بعدها شيئًا عن مصيره. وقد ذكر باسنجلة أنَّه في سنة ٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م خرجت قوة بقيادة السلطان عبدالله بن بدر بن عبدالله الكثيري لمحاربة أخيه جعفر بن بدر ومعه قبائل من المهرة، إلا أنَّ هؤلاء كمنوا لهم في بعض المواقع، وتمكنوا من إبادة معظم جيشه[5]، وكان من جملة القتلى ((ولد معبد، وصويلح

---

١ كثير من المؤرخين التبس عليهم اسم هذا الفقيه (محمد بحرق) المتوفى بهينن سنة ٩٥٦هـ، باسم الفقيه والأديب (محمد بن عمر بحرق) صاحب المصنفات المتوفى بالهند سنة ٩٣٠هـ، وخلطوا بين الشخصيتين. تنظر ترجمة الفقيه والأديب (محمد بن عمر بحرق) عند: باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص٣٣٥، والفكر والثقافة ص١٤٥، وبافقيه، تاريخ الشحر ص١٦٤.

٢ ذكر المؤرخ المعبري، زين الدين بن عبدالعزيز، في كتابه (تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتكاليين) أنَّه في رجب سنة ٩٦٠هـ: ((وصل يوسف التركي من ديو محل إلى فنان في غير الموسم بالمدافع الكبيرة، وأخذها من الإفرنج الساكنين فيها)). طبع الكتاب باعتناء السيد شمس الله القادري مدير مجلة التاريخ في مطبعة التاريخ ببلدة حيدر أباد دكن ص٤١.

٣ باسنجلة، العقد الثمين ص١١٥، ١١٧.

٤ العقد الثمين ص١٢٤.

٥ العقد الثمين ص١٣٩، وتاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٦٢).

ولد الأمير يوسف التركي))[1]. بل نلاحظ في بعض المصادر ذكرها ليوسف الكبير ويوسف الصغير[2]، مما يوحي أنَّ هناك شخصيتين لهما الاسم نفسه. ذكرت بعض المصادر أنَّ الامير يوسف الصغير قُتِلَ سنة ٩٥٩هـ/ ١٥٤٩م[3]. وهذا يحتاج للبحث والتدقيق أكثر، لا سيما أنَّ النصوص التي بحوزتنا لا تقدم الكثير.

والحقيقة أنَّ قدوم تلك القوة العثمانية والمقاومةَ التي قادها (يوسف التركي) ومعه الأهالي سنة ٩٣٨هـ/ ١٥٣١م، وبالرغم من عدم رضاء الدولة بها، قد عزَّزت من شأن أبي طويرق ودولته، خاصة أنَّه اضطر بعدها لتعزيز أمن المدينة وحاميتها، كما عظَّمَت من شأنه عند البرتغاليين، إذ حاولوا بعدها تعزيز اتفاقياتهم معه، ومن هذا القبيل قدوم ذلك الوفد البرتغالي إلى مدينة الشحر يوم الخميس ٧ رمضان ٩٣٩هـ/ ١٥٣٢م طالبًا من السلطان بدر عقد اتفاقية صلح رسمية مع القيادة العليا البرتغالية المقيمة في الهند[4]، ويبدو أنَّ ذلك لم يتم، فأُعيدَت المفاوضات مجددًا في سنة ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م، والتي تولاها الخواجا (عبدالله ابن الزِّمن) وسيطًا[5]، ويبدو أنَّ المفاوضات هذه المرة أثمرت

١ العقد الثمين ص١٣٩.

٢ العقد الثمين ص٩٨.

٣ ذكر المؤرخ عبدالله باسنجلة أنَّ الأمير يوسف الصغير قُتِلَ سنة ٩٥٦هـ. ينظر: العقد الثمين ص١٠١.

٤ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢١٥.

٥ لا نعلم الكثير عن هذا الخواجا بحسب ما لدينا من مصادر ومراجع. وقد أشارت بعض المصادر إلى أنه في سنة ٨٨٣هـ احترق الحرم النبوي الشريف، فتولى الخواجا بن الزمن عمارته عمارةً وصفت بأنها جيدة، وصرف عليها مالًا عظيمًا. ينظر: بافقيه، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر ص١٦. وعند ابن هاشم أنَّ اسم الوسيط (عبدالله بن أرقل). ينظر: تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٤٣).

مؤقتًا. وقد أرسل أبو طويرق مع الوسيط (ابن الزِّمن) رسالة خاصة إلى حاكم (جوه) في الهند[١]، لا ندري ما محتواها، ولكن بعد سنتين نجد هذا الوسيط الذي وُصِفَ بـ(رسول السلطان) قد عاد باتفاق جديد بين الطرفين[٢]، وأسهم في افتكاك الأسرى البرتغاليين المحتجزين لدى السلطان أبي طويرق.

حضرموت ولايةً عثمانيةً:

سبق أن أشرنا إلى أنَّه خلال ثلاثينيات القرن العاشر الهجري، كان السلطان أبو طويرق يحاول قدر الإمكان مجاراة البرتغاليين ومهادنتهم والصبر على استفزازاتهم وانتهاكاتهم المستمرة، على أمل قدوم الحملة التركية ذائعة الصيت لتنقذه وتنقذ دولته المهددة، إلا أنَّ انتظاره هذا طال عليه الأمد في ظل التطورات المتسارعة بالمنطقة، ممَّا سبَّب له حرجًا كبيرًا، وأدخله في نزاعات واضطرابات بعضها في داخل مدينة الشحر نفسها، وكان هو في غنى عنها، ومنها تلك التي نشأت بسبب مطالبة الشعب له برد الاعتبار للمقاومة، وقطع علاقته بالبرتغاليين نهائيًّا.

ومع كلِّ هذا استمرت سياسة أبي طويرق في مهادنة البرتغاليين، وتهدئة الأهالي، وترك للبرتغاليين حرية التنقل والحركة داخل المدينة، دون أن يتجرأ أحد على اعتراضهم، خاصة أنَّ السلطان بدرًا قد أوكل لجنوده مهام توفير الحماية للبرتغاليين حيثما كانوا وحيثما ذهبوا. ويبدو أنَّ البرتغاليين ارتاحوا كثيرًا إلى سياسة أبي طويرق التي

١ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣٠.

٢ تُنظر بنود الاتفاق في المرجع السابق ص٢٤٨-٢٤٩

تكاد تفقده ثقة شعبه وتهيّجه ضده، خاصة أنّه في هذه المدة نكّل السلطان بدر ببعض فقهاء المدينة المعترضين على سياسته هذه، ومنهم الشيخ أحمد بن سعيد باغريب[1] صاحب المسجد المشهور الذي يحمل اسمه، بعد أن اتهمه بتحريض العامة.

وقد استغل البرتغاليون هذه السياسة، فدخلوا في علاقات تجارية مع عدد من التجار الكبار، والتي تطورت مع الأيام لتتخذ شكل الصداقة والمنادمة، بل تمادوا أكثر في عنجهيتهم، وازدادوا استفزازًا للناس، فكانوا يجاهرون بشرب الخمر في نهار رمضان! ويتسكعون في الطرقات مع جواريهم السافرات! وكانت أخبارهم هذه تَرِدُ فورًا إلى السلطان بدر الذي كان حينها موجودًا في المدينة، إلى أن طفح به الكيل، بعد أن تأكد له أن القوة العثمانية انتهت من استكمال تجهيزاتها، فاستغلَّ وجود القوة الموجودة لديه من أشراف الجوف ويافع وعبيده النوبيين والأتراك، وقرَّر ضرب ضربته التي طالما انتظرها، عازمًا على القضاء على كل البرتغاليين سواء أولئك الموجودون داخل المدينة، أم أولئك المقيمون على ظهور سفنهم قبالة الساحل، وأعطى أوامره بسرعة التحرك والانقضاض عليهم حيثما وُجِدُوا في البر أو في البحر، وأسْرِهم أو قتلِهم، كما أرسل أوامره لعمّاله في حيريج[2] بإلقاء القبض على كل مَنْ فيها من البرتغاليين، وكان هذا يوم الأحد ٥ رمضان

---

١ تنظر ترجمته في: حداد، عبدالله، معجم شعراء العامية الحضارمة ص٣٢.

٢ ذكرت بعض المصادر أنَّ أوامر السلطان بدر وُجِّهَت لعمَّاله في ظفار، ولا ندري أكانت ظفار في تلك المدة تابعة لسلطته، أم لسلطة أخيه السلطان (محمد)، والأرجح أنه أعطى الأوامر لعماله في حيريج لأنها تابعة له في تلك المدة، إذ استعادها وطرد آل أبي دجانة منها قبل أيام فقط من هذه الحملة. تنظر الرواية عند بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣٣، ٢٣٥. والدليل على أن أبا طويرق وجَّه الأوامر لعماله في حيريج، أنَّ أولئك الأسرى العشرة قد أُسِرُوا في حيريج، وقد أرسل السلطان بدر خمسةً منهم لأخيه السلطان (محمد) حاكم ظفار، واكتفى بالخمسة الآخرين.

٩٤٢هـ/ ٢٧ فبراير ١٥٣٦م. وبالفعل قام جنوده داخل المدينة بتنفيذ أوامره، وكان عامل المباغتة لمصلحتهم، إذ استسلم على الفور عدد كبير من البرتغاليين، وأبى آخرون الاستسلام، ليدور قتال شوارع داخل المدينة، بين حاراتها وأزقتها وداخل البيوت والمحلات وفي الميناء، بل على متن السفن البرتغالية الراسية قبالة الشاطئ، ولم تمض غير ساعات قليلة، حتى أصبح معظم البرتغاليين في قبضة أبي طويرق بين أسير وقتيل، كما استولى على كل سفنهم باستثناء واحدة تمكنت من الفرار في آخر لحظة حاملةً معها عددًا غير قليل من الجنود البرتغاليين. وكانت حصيلة القتلى البرتغاليين نحو الثلاثين، أما أسراهم فكانوا أربعين من ضمنهم كبار ضباط الأسطول البرتغالي، أمَّا السفن الكبيرة التي استولى عليها أبو طويرق فبلغت أربع عشرة سفينة. وفي حيريج تم إلقاء القبض على عشرة برتغاليين، وقُتِلَ واحد منهم[1]. وفي هذا الوقت أيضًا قدمت سفن برتغالية أخرى من سواحل شرق إفريقيا، محملة بغنائم متنوعة تم نهبها من هناك، وهذه السفن لم تعلم بخبر ما حل بزميلاتها، فما كادت تلقي مراسيها قبالة شواطئ المدينة كالعادة، حتى جاءتها قوة من جنود السلطان، وألقت القبض على كل من فيها، وصادرت محتوياتها.

---

١ ينظر: بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣٣، ٢٣٥، ومحمد بن هاشم (١/ ٤١-٤٢)، وباسنجلة، العقد الثمين ص٥٣. وقد أشار العيدروس إلى هذه الحادثة، إلا أن له فيها تخريجًا عجيبًا، إذ ذكر أنه في تلك السنة ((قتل السلطان بدر الإفرنج في الشحر بعد أن عزموا على قتله، فخذلهم الله تعالى، وكان هو وإياهم في بيت يشربون، وقد أغلقوا الأبواب عليه، فأخبرته بعض الجوار منهم، ولم يجد له مخرجًا إلا من بيت الماء، فخرج منه، وسلمه الله منهم، وأصبح في ذلك اليوم هلب عليهم، وقتلوا عن آخرهم، وأرسل برؤوسهم إلى السلطان سليمان)). النور السافر ص٢٨٠. وتنظر الرواية نفسها عند ابن هاشم (١/ ٤٣).

أما الأسرى فقد احتفظ السلطان بدر أبو طويرق بعدد منهم، وتحرز عليهم في سجن بمنطقة (عرف) بعيدًا عن الساحل، وعلى رأس هؤلاء الأسرى قادة الأسطول البرتغالي، كما أرسل إلى والي العثمانيين العشرات منهم، في رسالة واضحة منه أنَّه إلى جانبهم في هذا الصراع وليس الى جانب البرتغاليين كما يشيع خصومه، كما وزع بقية الأسرى على جنوده من يافع والنوبيين وأشراف الجوف للتصرف بهم كيفما شاءوا، أما الأسرى العشرة الذين في حيريج، فاقتسمهم مع أخيه السلطان محمد حاكم ظفار، فأرسل إليه خمسة منهم، وأخذ هو الخمسة الآخرين، وقام بضرب أعناقهم على الملأ، في محاولة منه لإرسال رسالة للجميع أنَّ سياسته مع البرتغاليين تغيَّرت، وأنَّهم لن يجدوا منه بعد اليوم غير القتل والتنكيل، إلا أنَّ أخاه السلطان محمدًا حاكم ظفار خيَّب أمله باتباعه مع البرتغاليين السياسة السابقة القائمة على التملق والمهادنة، فقد ذكرت بعض المصادر أنَّ السلطان محمدًا قام بكسوة أولئك الأسرى، وتزويدهم بالمال، وإرسالهم معززين مكرمين إلى (هرمز) حيث مركز قيادتهم[1]، ممَّا أدى إلى أن تسوء العلاقة بين الأخوين مجددًا. ولعل هذا التصرف أيضًا هو ما دفع الأمير عليَّ بن السلطان محمد إلى محاولة التمرد على والده، والسعي للسيطرة على بعض المناطق الخاضعة لنفوذ أبيه[2]، ومن المحتمل أن يكون هذا بإيعاز من عمه السلطان بدر. وكان هذا في شهر رجب سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م.

إن هذا التصرف من أبي طويرق مع البرتغاليين، قد أعلى من شأنه، وعزز من مكانته، وزاد من هيبته في النفوس، وهذا ما جعل العثمانيين يسارعون في إرسال وفد

١ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣٦.

٢ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣٨.

رفيع لمقابلته، ولإجراء بعض الترتيبات؛ تمهيدًا لضم حضرموت رسميًّا للخلافة العثمانية، وتهيئة ما سيترتب على ذلك من التزامات واستحقاقات، ففي يوم السبت ١٨ من ربيع الأول سنة ٩٤٤هـ/ ٢٤ أغسطس ١٥٣٧م وصل إلى مدينة الشحر وفد دبلوماسي مكون من ثلاثين رجلًا على رأسهم (فرحات شوباصي)[١] أحد مماليك (سليمان باشا الخادم)، ومعه كتابان وخلعتان للسلطان بدر[٢]، أرسلها له السلطان (سليمان بن سليم بايزيد العثماني) عن طريق والي مصر (سليمان باشا)، وفيها تطمينات عن قرب وصول الحملة العثمانية[٣]، بمدافعها العملاقة الجديدة[٤] ذات المدى الأطول. وعند مغادرة شوباصي أرسل معه أبو طويرق هدية للسلطان سليمان[٥].

---

١ في تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٤٤): (فرحات شومای). وكذلك هو عند إيفانوف، الفتح العثماني ص١٣٤. ولعله (فرحات صوباشي)، و(الصوباشي) وظيفة عثمانية (رتبة) تعني رئيس فرقة من السباهية، وهي فرقة من الفرسان في الجيش العثماني. كما يطلق (الصوباشي) على القائم بأعمال البلدية في الأقضية والبلدات. ينظر هذا المصطلح في: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية ص١٤٥، ومعجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص١٠٣.

٢ الخلعة: ((اسم عربي لما يسمى بالتركي (قفتانو)، وهو نوع من الملابس الخارجية، أو ما يسمى بـ(البشت) أو (العباءة) أو (الرداء) الذي كان السلطان يكسيه على موظفيه أو ولاته أو وزرائه إعرابًا عن رضائه عنهم. ولهذه الخلعة درجات وأنواع كانت أعلاها ما تمنح للشريف وهي من فرو السمور)). المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ص١٠٣.

٣ تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٤٤)، وبافقيه، تاريخ الشحر ص٢٤٥.

٤ استطاعت تركيا أن تصنع مدافع عملاقة يطلق الواحد منها قذيفة تزن (١٠٠كيلوجرام)، وهو تفوق حربي أثار قلق البرتغاليين. إيفانوف، الفتح العثماني ص ١٣١. ويبدو أن بعض هذه المدافع تُرِكَ لدى أبي طويرق، وهو ما أعانه كثيرًا في حروبه.

٥ من الهدايا التي أرسلها السلطان بدر إلى السلطان سليمان فَصٌّ من الألماس النادر، وخمسمائة مثقال من العنبر الأصلي الفاخر، كما أعطى فرحات ومن معه ثلاثين بهارًا من الفلفل. تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٤٤).

وقبيل وصول وفد شوباصي للشحر مرَّ بعدن حيث السلطان الطاهري عامر بن داؤد، ومعهم خلعة ومرسوم للسلطان، تم تسليمها إياه، وقد وعدهم السلطان عامر بالرد بعد عودتهم من الشحر[1]، إلا أنَّه تهرَّب منهم ولم يقابلهم في عدن بعد عودتهم، مما أزعج العثمانيين. ويبدو أنَّ السلطان عامرًا حاول إقناع أبي طويرق وأخيه محمد، حلفائه السابقين، باتِّباع سياسة كسياسته مع العثمانيين خاصة، وكذلك ثنيهم عن تقديم الدعم والمساعدة لأشراف الجوف، لكنَّ مساعيه لم تلق صدًى، وخاصة لدى أبي طويرق، وإلا لشُنِقَ أبو طويرق مثله وعُلِّقَ على سواري إحدى السفن العثمانية. كما أن علاقة أبي طويرق بأشراف الجوف ظلت قوية، وتعززت مع الأيام لدرجة أن صاهرهم السلطان بدر، فقد وافق على تزويج ابنته بالشريف ناصر بن أحمد، كما زوَّجَ ابنة أخيه محمد بالشريف محمد بن أحمد، وكانت مراسيم هذا الزواج في يوم الخميس الخامس من محرم ٩٥٠هـ/ ١٠ أبريل ١٥٤٣م، غير أنَّ علاقة السلطان بدر بأصهاره الأشراف سرعان ما ساءت، لتتحول الصداقة إلى عداوة[2].

((وفي يوم الجمعة ١٤ ربيع أول ٩٤٤هـ / ٢٠ أغسطس ١٥٣٧م تقريبًا، خطب في الجامع الخطيب للسلطان سليمان، وهو أول خطيب خطب للأروام (الأتراك) في الشحر، وعزم القاصد وجماعته يوم الاثنين ١٩ ربيع ثاني/ ٢٤ سبتمبر، وهو شاكر يثني على السلطان بدر لما رأى منه الحشمة والمروءة والمراعاة والعطايا الجزيلة، وجوَّب له جوابًا شافيًا كافيًا بخط الفقيه عبدالله المذكور))[3].

١ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٤٥.

٢ العقد الثمين الفاخر ص٨٤.

٣ تاريخ الشحر ص٢٤٥. وعند إيفانوف أنَّ المراسيم تمَّت في أغسطس ١٥٣٨م. ينظر: الفتح العثماني ص١٣٤.

ولمَّا كان ضحى يوم الجمعة ٢٢ من ربيع الأول سنة ٩٤٤هـ/ ٢٨ أغسطس ١٥٣٧م تقريبًا ((اجتمع السلطان بدر وعسكره والقاصد وأصحابه لقراءة المراسيم بالجامع الشريف، فقرأها الفقيه عبدالله بامخرمة قائمًا، والسلطان قائم، والناس قيام تواضعًا لأمر سلطان الروم، وخلعوا على السلطان بدر الخلعتين عند قراءة المراسيم، وكان مضمونها أخبار التجريدة وعَدَدها وعُدَدها))[1].

وهكذا أصبحت حضرموت ولايةً عثمانيةً، وبعد هذا وصلت تلك التجريدة العثمانية التي طال انتظارها، وكان غرضها بلوغ الهند ومجاهدة البرتغاليين، وقد وصلت مدينة الشحر في شهر ربيع الأول سنة ٩٤٥هـ/ أغسطس ١٥٣٨م، بقيادة (سليمان باشا الخادم)[2]، الذي اكتفى بإرسال بعض مبعوثيه إلى السلطان بدر الذي لم يكن حينها في مدينة الشحر؛ ليعلمه بخبر وصولهم وانطلاق التجهيزة العثمانية وما قاموا به في عدن من التخلص من الأمير عامر بن داؤد، كما طلبوا من السلطان بدر تسليمهم بقية الأسرى البرتغاليين الموجودين لديه، وطلبوا أيضًا إمدادهم ببعض السفن من نوع الغراب مع مؤنها، تاركين لديه في المكلا سفينتهم الضخمة الراسية من نوع الـ(برشة) ريثما يعودوا لأخذها. لتمضي بعد ذلك تلك الغربان محملة بالأسرى والمؤن إلى ميناء حيريج، حيث بقية سفن الأسطول العثماني[3] التي بلغ عددها ثمانين غرابًا وعشرين برشة،

---

١ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٤٥.

٢ سارجنت، البرتغاليون قبالة ساحل جنوب بلاد العرب ص١٨٦. وفي الأدبيات المحلية يطلق على هذا القائد اسم (سليمان الطواشي). والطواشية هم المماليك الخصيان المعينون لخدمة بيوت السلطان وحريمه. ينظر: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص١٠٩. ويبدو أن دلالة المصطلح قد تطورت.

٣ تاريخ الشحر ص٢٥٣، ٢٥٦، والعقد الثمين ص٦٢.

أمَّا عدد المقاتلين فيها فقد تجاوز السبعين ألفًا[1]، وسرعان ما عادت تلك التجهيزة من الهند وفيها قائدها (سليمان الخادم)، وحين وصولها إلى قبالة المدينة، ارتاع الناس منها بمن فيهم أفراد الحامية التركية التي أعلنت حالة الاستنفار القصوى؛ ظنًّا منهم أنَّها سفن برتغالية. ثم هدأت نفوس الجميع بعد أن تأكدوا أنَّها سفن عثمانية. وكان وصولهم هذا يوم الأربعاء الرابع من رجب ٩٤٥هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٥٣٨م، وقد استقبلهم بحفاوةٍ كبيرةٍ أميرُ الشحر آنذاك أحمدُ بن مطران[2].

وقد مكث هذا الأسطول داخل المدينة أربعة أيَّام ثم انصرف. وقبيل انصراف الطواشي (سليمان الخادم)، وكأنه أراد أن يعوض مالم يتحقق له من مكسب كبير في الهند[3]، طلب من الأمير أحمد بن مطران تسليمَه بقية الأسرى الذين لديه، وعلى رأسهم أحد كبار الضباط البرتغاليين، فتم له هذا. كما أعطى الأمير أحمد سنجقًا[4]، وأمره بتسليمه للسلطان بدر بنفسه فورًا، وأرسل برفقته بعض القادة العثمانيين لمقابلة السلطان،

---

١ العقد الثمين ص٦٢. وعند الطيب بافقيه أن أصل التجريدة (٦٣) سفينة، منها خمس برش كبار والبقية غربان. ينظر: تاريخ الشحر ص٢٦٤.

٢ العقد الثمين ص٦٢، وتاريخ الشحر ص٢٥٧.

٣ عن نتائج الحملة ينظر: سارجنت، البرتغاليون قبالة ساحل جنوب الجزيرة العربية ص١٨٦.

٤ السنجق: معناها اللغوي العلم واللواء الخاص بالدولة، ثم خُصَّ بها اللواء الذي يمنحه السلطان للوالي أو الأمير تعبيرًا عن ثقته بأنه أهل للحكم، ثم تطورت الدلالة فأصبحت تعني قسمًا إداريًّا من أقسام الدولة، وحلت محلها مؤخرًا الكلمة العربية (لواء) للمعنى نفسه أي قسم إداري إلخ. للمزيد ينظر: صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ص١٣٦. وعند: دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص٩٣: ((السنجق لفظ تركي استعمل بمعنى العلم أو الراية، وبمعنى الرمح، أو اللواء. والسنجقدار: هو الذي يحمل الراية خلف السلطان أو الأمير)).

وهؤلاء طلبوا من السلطان الالتزام بدفع مرسوم للدولة العثمانية، مبلغ قدره مائتا ألف سنويًّا، وفي بعض المصادر عشرة آلاف أشرفي[1]. وتعد هذه الخطوات اعترافًا عثمانيًّا رسميًّا آخر بولاية السلطان بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري على حضرموت، وترقيته في منصبه ضمن مناصب ألوية الدولة العثمانية، وإخضاع حضرموت مباشرة لسلطتهم.

وتلت هذه الحملة العثمانية حملات أخرى[2] بغرض مطاردة البرتغاليين، وتعزيز الشواطئ الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، وهي التي عززت مكانة العرب والمسلمين وقوَّتهم في مياه المحيط الهندي، بعد أن تهاوت وكادت تتلاشى، إلا أنَّ الحروب والمعارك بين العثمانيين والبرتغاليين كانت سجالًا، وكانت علاقة أبي طويرق مع البرتغاليين متذبذبة.

إنَّ ما ذكرناه من أخبار البرتغاليين والعثمانيين مع السلطان بدر، مجرد أحداث متفرقة، وهناك بلا شك أحداث أخرى غير ما ذكرنا، بحاجة إلى من ينقب عنها ويظهرها، كما أنَّ الأحداث التي شهدتها مدينة الشحر وحضرموت عامة خلال تلك المرحلة التاريخية، كانت كثيرةً ومتنوعةً، منها الصراعات التي نشبت بين السلطان بدر وابن عمه الأمير علي بن عمر الكثيري[3]، وسيطرة ابن عمه هذا على شبام، وما تلا ذلك من تحالفات بينهما، وخاصة بعد إعلان أبي طويرق ولاءه للدولة العثمانية، ليصبح ابنُ عمه من أكابر قادته، ثم يتمرد عليه مجددًا، وينتهي به الأمر إلى الاعتقال، وكذلك قيام السلطان بدر بالتنكيل ببعض رجال التصوف خاصة المحرضين للأمير علي بن عمر،

---

١ العقد الثمين الفاخر ص٦٣، وبافقيه، تاريخ الشحر ص٢٥٨، وتاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٤٦).

٢ من هذه الحملات العثمانية حملة بري ريس، وحملة سيدي علي ريس.

٣ تنظر ترجمته عند: ابن هاشم، تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٥٤-٥٧).

والمناوئين لسلطته واتجاهه نحو العثمانية[1]. وهذا الفعل التحريضي يغاير تلك النظرة التقليدية السائدة عن انزواء رجال التصوف في زواياهم، وبُعْدِهِم عن الأمور السياسية.

بناء المدرسة البدرية:

بنى السلطان بدر في مدينة الشحر مدرسته التي عرفت بـ(المدرسة البدرية) سنة ٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م[2]، وخصص لها مبالغ من الدولة، كما استقدم للتدريس فيها معلمين أكفاء، كالعلامة علي بن علي بايزيد الدوعني (ت: ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م). وكان أمير الشحر زمن بناء المدرسة كثير بن علي بن مسعود، والمشرف على عمليات البناء هو الفقيه حسن باكثير. ولا ندري أين موقع هذه المدرسة بالتحديد، وإن كنا نرجح أنَّه في موقع مسجد (المدرسة) اليوم. ويرى آخرون غير ذلك. وللفقيه الأديب أحمد بن محمد بن عبدالرحيم بن مزاحم الجابري[3]، وهو أحد تلامذة هذه المدرسة، قصيدة أرَّخ فيها بناء المدرسة (بحساب الجُمل) يقول فيها:

شاده البدر مسجدًا قد تعالى بعلاه على النجوم المضيَّة

رب من قال أرَّخوه فقلنا مسجدٌ شيَّدوه للشافعية.

١ ينظر: تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٤٩-٥٢)، وإيفانوف، الفتح العثماني ص١٣٦.

٢ العقد الثمين ص٩٧، وبافقيه، تاريخ الشحر ص٣٣٢. وفي تاريخ الدولة الكثيرية: سنة ٩٥٩هـ. ينظر: ١/ ٥٣. وسنورد التفاصيل عن هذه المدرسة لاحقًا.

٣ توفي في لاهور بالهند سنة ١٠٠١هـ. تنظر ترجمته في: تاريخ الشعراء الحضرميين (١/ ٢٠٤).

سك العملة (البقشة البدرية) وعلاقتها بمسجد بقشة:

في سنة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م، وبموافقةٍ من الدولة العثمانية على ما يبدو، قام السلطان بدر أبو طويرق بضرب عملة نقدية جديدة وهي (البقشة)، أو (البقشة البدرية)[1]، وكان موقع ضربها في مدينة الشحر، ولا ندري أين كان ذلك في الشحر تحديدًا، إلا أنَّنا نرجح أنَّه في الموقع نفسه الذي أُقِيمَ عليه لاحقًا مسجد (بقشة) بحارة الرملة. وهذا المسجد يُنسب لبانيه الفقيه القاضي سالم بن محمد بامعيبد[2]، وهذا القاضي (بامعيبد) أُوكِلَت إليه آنذاك عدَّة مهام إلى جانب القضاء[3]. ولا نستبعد أن يكون من هذه المهام الإشراف على عملية سك النقود (البقشة) في الموضع الذي بُنِيَ عليه لاحقًا مسجده الذي لانعرف تحديدًا تاريخ بنائه[4]، إلا أنَّ المرجح أنَّه بعد سك عملة البقشة. وقد ظل الناس عبر القرون محتفظين باسم (البقشة) على الموضع نفسه الذي أُقِيمَ فيه المسجد، بل أطلقوا التسمية نفسها على المسجد الذي أقامه بامعيبد، ليظل المسجد محتفظًا بتسميته

---

١ العقد الثمين ص٥٧، وتاريخ الشحر ص٢٤٠.

٢ ينظر المزيد عن هذا القاضي في: باعكيم، عادل، العلامة القاضي سالم بن محمد بامعيبد صاحب مسجد بقشة بمدينة الشحر، رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب م/ حضرموت (٢٢٩) لعام ٢٠١٦م، ط١، ٢٠١٦م.

٣ من المهام التي أُوكِلَت للقاضي بامعيبد إلى جانب القضاء، أنَّه استنيب سنة ٩٤٤هـ ليتولى الإمامة في مسجد (الجامع)، وهي أعلى منصب علمي بالمدينة، بدلًا من القاضي السابق شهاب الدين أحمد بن عبدالله برَّعيَّة، ثم عزل من الإمامة في شهر رمضان سنة ٩٥٠هـ،واستنيب مرة أخرى سنة ٩٥٣هـ. ينظر: العقد الثمين ص٦٠، ٨٥، ٩١. كما ولي القضاء مرة ثانية سنة ٩٥٤هـ، وقد توفي بغيل باوزير سنة ٩٧٠هـ.

٤ في مؤلفه عن القاضي بامعيبد باني المسجد أشار الباحث عادل باعكيم إلى أنَّ المسجد تم بناؤه ما بين سنة ٩٤٣هـ سنة وهي السنة التي سُكَّت فيها البقشة البدرية وبين سنة٩٧٠هـ وهي سنة وفاة بامعيبد. ينظر: العلامة القاضي سالم بن محمد بامعيبد ص٣٠.

هذه حتى الآن. ولبعض الكتَّاب تخريج آخر حول تسمية هذا المسجد بـ(بقشة)، وهو أنَّه كان في موقع المسجد حِسْيُ ماءٍ تشرب منها الجمال، وبقربها مصلًّى صغيرة يُصلي فيها أصحاب الجمال، وأنَّ السلطان بدرًا كان يفرض عليهم، بعد سك عملته المذكورة، في اليوم بقشةً واحدةً مقابل شربهم وشرب جمالهم، فأصبح القاصدون لهذا المكان يطلقون على الحِسْي (ماء بقشة) أو (مصلى بقشة)، وبعد أن بنى القاضي بامعيبد مسجده في الموقع نفسه، ظل الناس محتفظين باسم (البقشة)، والذي أُطلِقَ على المسجد نفسه[1]. وثَمَّ قصةٌ أخرى طريفة مفادها أنَّ رجلًا أراد الصلاة ذات يوم في مسجد بامعيبد هذا، فنسي بُقشتَه داخل المسجد[2]، فكان يسأل الناس في الأسواق عن بقشته الضائعة التي لا يعلم أين فقدها، إلى أن وجدها بموضعها داخل المسجد، فأطلق العوام على المسجد اسم (بقشة)، ولصقت به[3].

ولا ندري كم قيمة تلك العملة النقدية (البقشة) التي سكها السلطان أبو طويرق، ولكن نعتقد أنَّ لها علاقة بالبقشة العثمانية، خاصة أنَّ سكَّها تزامن مع موالاة أبي طويرق للدولة العثمانية رسميًّا.

وقد جاء في كتاب (تاريخ النقود الإسلامية) عن البقشة أنَّها ((أساس النقد عند اليمانيين، وتقسم إلى نصف بقشة، وربع بقشة، وثُمُن بقشه، وكل عشر بقشات تساوي

---

١ باعكيم، عادل، العلامة القاضي سالم بامعيبد، ص٣٠.

٢ البُقشة: كلمة دخيلة، أصلها البقجة العثمانية. جاء عنها في معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ص٣٦: ((البقجة: جمع بقج، لفظ تركي (بوغجة) بمعنى الخنق، مثل (بوغمق). وهو قطعة من القماش تلف بها الأغراض ثم تربط أطرافها الأربعة، وقد تحفظ فيها الأوراق، وكذلك نوع من الحلوى)).

٣ باعكيم، العلامة القاضي بامعيبد ص٣٠-٣١.

ربع ريال نمساوي أو إمامي، ويقال له عمادي، وكل أربعين بقشة تساوي ريالًا واحدًا إماميًّا، والبقشة وأجزاؤها تُتَّخذ من النحاس، وتُضرَب في صنعاء اليمن، والبقشة الواحدة تساوي (القمري) عند العراقيين، أو قرشين رائجين. والبقشة من التركية (باقجة أو (بقجة)، أي صرة أو خرقة، لا سيما تلك الخرقة التي تُلَفُّ بها الدراهم، فسُمِّيَتْ بها))[1].

أمَّا المؤرخ محمد بن أحمد الشاطري فذكر في كتابه (أدوار التاريخ الحضرمي) العملات النقدية المستعملة في عصر أبي طويرق، ومنها تلك التي قام بضربها، كتب يقول: ((أمَّا العملة فقد ضربها في شكل ريالات من الفضة فئة الريال وفئة نصف الريال وفئة ربع الريال. وللريال أجزاؤه النحاسية، وحدتها بقشة، يتألف من ثمانين منها، وذلك سنة ٩٣٤هـ، وسنة ٩٤٢هـ. ويظهر أنَّ الريال أوقية (أونس)، وتستعمل فيها الدنانير العباسية والدراهم العباسية أيضًا والرسولية))[2].

ويشير المؤرخ محمد بامطرف إلى أنَّ البقشة البدرية ((استمرت في التداول مع تغير قيمتها، وهي إلى فترة متأخرة كانت تساوي حوالي فلسين بالعملة التي كانت مستعملة في اليمن الجنوبي سابقًا. وفي شمال اليمن كانت البقشة تساوي ٤٠ ريالًا إلى أن انتهى التعامل بها سنة ١٩٧٥م، بعد أن حلَّ الفلس بديلًا لها، مائة فلس يساوي ١ ريال يمني. وهذه العملة تم أخذها من الأتراك))[3].

١ المازندراني، موسى الحسيني، تاريخ النقود الإسلامية، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨٨م، ص١١٦.

٢ الشاطري، محمد، أدوار التاريخ الحضرمي (٢/ ٢٤١).

٣ بامطرف، محمد، معجم الأمثال ص٤٠٦ ، ٤٥٠.

وفي أمثالنا الشعبية الحضرمية قول العامة: (بقشة ما تغذيك تنجيك)[1]. ولهذا المثل حكاية شعبية أوردناها في كتابنا عن الفولكلور الحضرمي، في الجزء الخاص بالحكايات الشعبية. ومن أمثالنا الشعبية أيضًا: (الشارد ببقشة). وجاء في شرح هذا المثل أنَّ الهاربين من الوباء أو من الحرب كثيرون بحيث لو أراد أحد أن يشتري أحدهم لما تجاوز ثمنه بقشة واحدة لكثرتهم![2]

وفي مرحلة لاحقة لعصر أبي طويرق، أشار المبعوث الهولندي (بيتر فان بروكا) في تقريره عن المدينة، عندما زارها سنة ١٠٢٣هـ/ ١٦١٤م، إلى أنَّ سلطان الشحر وحضرموت عبدالله بن عمر بن بدر أبا طويرق الكثيري، كان يرسل للعثمانيين سنويًّا إتاوة قدرها (٤٠٠٠) قطعة الثمانية ريالات. كما أشار أيضًا إلى أنَّ في المدينة عملةً نحاسيَّةً أخرى متداولةً يُسمُّونها (الفلوس)، وكل (٧٥٠) قطعة منها تساوي قطعة الثمانية ريالات الواحدة[3].

---

١ المرجع السابق ص٤٠٦.

٢ بامطرف، معجم الأمثال والاصطلاحات العامية ص٤٥٠.

٣ ينظر: الملحق رقم (٢) في كتاب العقد الثمين الفاخر في تاريخ القرن العاشر لعبدالله بن محمد باسنجلة، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، ص١٥١.

عائلة السلطان بهادر شاه في الشحر:

في نهاية ربيع الآخر من سنة ٩٤٢هـ/ نهاية أكتوبر١٥٣٥م وصلت إلى مدينة الشحر سفن هندية تابعة للسلطان بهادر شاه بن مظفر شاه (الثاني)[١] سلطان (كوجرات)، وعددهن أربع خشب وأربعة غربان، وفيهن والدته وزوجته وأولاده، وعدد كبير من خدمهم وعبيدهم، ويرافقهم لحمايتهم جنودٌ غالبيتهم من قبائل يافع والمهرة[٢]، وقد كان سلاطين الهند يعتمدون على مثل هذه القوة العربية في جيوشهم، وبصحبتهم أيضًا قلةٌ من الهنود. ويبدو أن أحد وزراء بهادر شاه وهو الوزير (آصف خان)[٣] قَدِمَ أيضًا بصحبتهم. وقد احتوت بعض سفنهم تلك على كميات كبيرة من خشب الساج والفيني اللذين يُستخدمان في بناء السفن. وكان في نيتهم الذهاب إلى الحرمين الشريفين[٤]، قبيل أن يدخل عليهم (النيروز) وهم في الشحر، فتعذر سفرهم.

١ من ملوك كوجرات (على الساحل الغربي الهندي)، اعتلى العرش في ٢٤ شوال ٩٣٢هـ، ويعد العاشر من سلالة ملوك كوجرات. كان ملكًا ذا همة ونشاط، استطاع فتح (مالوع) في شعبان ٩٣٧هـ، وخاض معارك مع همايون بن بابر المغولي، فاضطر للاستعانة بالبرتغاليين، الذين قبلوا مساعدته مقابل شروط وافق عليها، ثم حاول التملص منهم ومساعدة المسلمين، فعلم البرتغاليين بذلك، فدبروا له مؤامرة أدت إلى مقتله سنة ٩٤٣هـ. تنظر ترجمته المفصلة في: تحفة المجاهدين في أخبار البرتكاليين، ص٢٠١-٢٠٢. وينظر: باسنجلة، العقد الثمين ص٥٤، وبافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣١.

٢ ذكر الباحث الخالدي في بحثه: (عرب حضرموت في حيدر أباد) أن جيش بهادر شاه الذي حكم كوجرات من ١٥٢٦-١٥٣٧م، ضم حوالي (٠.٠٠٠) من المرتزقة (على حد تعبيره)، جلهم من اليافعيين والمهريين ومن جماعات أخرى من جنوب الجزيرة العربية. ينظر: ص١٣٦.

٣ تم استنتاج خبر الوزير من خلال المساءلة التي أوردها بافقيه الشحري، والتي جرت بين السلطان بهادر والبرتغاليين. ينظر: تاريخ الشحر ص٢٣٩. وينظر كذلك خبر مقتل آصف خان في المرجع نفسه ص٣٤٥.

٤ العقد الثمين الفاخر ص٥٤، وتاريخ الشحر ص٢٣١.

ومن الواضح أنَّ البرتغاليين علموا لاحقًا بخبر هذه الأخشاب، وبسببها اتهموا السلطان (بهادر شاه) بدعمه للعثمانيين ألد أعدائهم، مما تسبب في مقتله، بالرغم من نفي السلطان هذه التهمة عن نفسه[1]، وكان مقتله يوم الاثنين ٣ رمضان ٩٤٣هـ/ ١٢ فبراير ١٥٣٧م[2]. وقد أرخ المسلمون سنة موته بحساب الجمل بالقول (قتل سلطاننا بهادر)[3]، أمَّا الهنود فيؤرخونه بحساب الجمل بالقول (سلطان البر شهيد البحر)[4].

وفي أثناء مقتل (بهادر شاه) كان بصحبته إلى جانب وزرائه (الخواجا صفر آغا) نائب (مصطفى بيرم) السابق ذكرهما، وقد أبقى البرتغاليون عليه، وقتلوا الوزراء[5]. أمَّا تفاصيل مصير أسرته بالمدينة فلا نملك عنها غير تلك الإشارة، والأرجح أنَّهم غادروا المدينة إلى جدَّة.

ونشير هنا إلى أن العلامة الفقيه محمد بن عمر بحرق الشحري (ت:٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م)[6]، صاحب المصنفات الشهيرة، والذي تولى قضاء مدينة الشحر لمدَّة، قد هاجر قبيل وفاته إلى الهند، واستقر في حيدر أباد حيث أُكْرِمَ من قِبَلِ سلاطين هذه الأسرة، وخاصة من قِبَلِ السلطان (مظفر شاه)[7] والد السلطان (بهادر)، إذ كان الفقيه

١ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣٩، وباسنجلة، العقد الثمين ص٤٧.

٢ ينظر خبر مقتله عند: بافقيه، تاريخ الشحر ص١٩٩، ٢٣٨، والمنيباري، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين ص٢٠١، وابن العماد، عبدالحي بن أحمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، مج ١٠، ص٣٥٧.

٣ العيدروس، النور السافر ص٢٨٣.

٤ المنيباري، تحفة المجاهدين، بالهامش ص٢٠٢

٥ بافقيه، تاريخ الشحر ص٢٣٩. وعن خبر الخواجا صفر بعد مقتل السلطان بهادر، ينظر: المرجع نفسه ص٢٦٠.

٦ تنظر ترجمته في: الجامع ص٥٣٨.

٧ تنظر ترجمته في: المختار المصون في أعلام القرون (٢/ ٨٨١).

محمد بحرق معلمًا لهذا السلطان، ومقربًا منه. وفي تلك الأرض توفي العلامة بحرق ودُفِنَ. وتقول بعض الروايات إنَّه مات مسمومًا.

اعتقال السلطان بدر لأخيه محمد ووفاته في الشحر:

ومن الأحداث البارزة أيضًا أنَّ السلطان بدرًا أبا طويرق ألقى القبض على أخيه الأكبر السلطان محمد، ووضعه في السجن بمدينة الشحر؛ بسبب اتهامه له بتحريض قبائل المهرة (بيت زياد) ضده، مما تسبب في مقتل نائبه الأمير أحمد بن مطران، وكان هذا سنة٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م[١]، ثم أطلق سراحه، وجعله نائبًا له على الشحر ونواحيها[٢]، واستمر محمد فيها مُدَّة، ثم نبذ السياسة بعد أن بلغ من العمر عِتيًّا، ليقضي ما تبقى من عمره في قصره بـ(عقل باغريب) في مدينة الشحر، ولا نعلم مكان هذا القصر اليوم، وقد توفي السلطان محمد ليلة الأحد ٢٣ من ذي الحجة ٩٧٥هـ/ ١٩ يونيو ١٥٦٩م[٣]، ودُفِنَ في مقبرة الشيخ سعد، بجوار قبر والده السلطان عبدالله بن جعفر الكثيري.

الانقلاب على السلطان بدر أبي طويرق ووفاته:

في أواخر عهد السلطان بدر أبي طويرق، تولى الإشراف على مدينة الشحر ابنُهُ الأمير جعفر بن بدر، وفي تلك الأثناء قام أخوه ولي العرش (عبدالله بن بدر)[٤] ليلة الجمعة ٢٣

١ تنظر تفاصيل ذلك: في العقد الثمين ص٩٢.

٢ تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٣٣).

٣ العقد الثمين الفاخر ص١٢٠، وتاريخ الشحر ص٣٨٨.

٤ تنظر ترجمته في: تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٦٠).

من ربيع الآخر سنة ٩٧٦هـ/ ١٥ أكتوبر ١٥٦٨م[١]، بانقلابٍ ناجحٍ على والده السلطان بدر أبي طويرق الذي بلغ شيخوخته حينها، ووُضِعَ السلطان بدر تحت الإقامة الجبرية في حصن سيئون[٢]. وعندما سمع أخوه جعفرُ أميرُ الشحر خبر هذا الانقلاب، ثار على أخيه عبدِالله، وسيَّر قوةً حليفةً له من الشحر ومن المهرة، وكان معه في تحالفه هذا الأمير ناصر بن مسعود، والشيخ عمرو بن طوعري، إلا أنَّ قوات أخيه عبدالله تصدت لهم وهزمتهم ولاحقتهم إلى مدينة الشحر التي تحصنوا فيها في حي (القرية)، لتتم محاصرة هذا الحي أيَّامًا قلائل انتهت بجلائهم عن المدينة وسيطرة السلطان عبدالله بن بدر عليها. وكان هذا في يوم الاثنين ٨ شوال ٩٧٦هـ/ ٢٦ مارس ١٥٦٩م[٣]، وبعدها أعاد الأمير جعفر الكرَّة محاولًا استعادة المدينة من أخيه السلطان عبدالله، لكنها استعصت عليه بالرغم من الهجوم الذي شنه عليها برًّا وبحرًا[٤].

وفي سنة ٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م توفي السلطان بدر أبو طويرق في محل إقامته الجبرية بسيئون، بعد أن قضى في السجن سنةً وبضعة أشهر.

---

١ العقد الثمين ص١٢٤، وتاريخ الشحر ص٣٩٢. وفي تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٥٤): (في شهر صفر من السنة نفسها).

٢ تاريخ الشحر ص٣٩٢، وتاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٥٤). وقد أورد المؤرخ باسنجلة روايتين متغايرتين بشأن اعتقال السلطان بدر، إحداهما أنه كان في منتصف شهر صفر سنة ٩٧٢هـ، وأنَّ السلطان بدرًا تنحى عن السلطة، وأقام بدلاً عنه ابنه السلطان عبدالله. والرواية الأخرى تفيد بوقوع انقلاب، وأنَّ من المشاركين فيه إلى جانب السلطان عبدالله أخواله من آل عبدالعزيز. تنظر التفاصيل في العقد الثمين ص١١٦، ١٢٤.

٣ تاريخ الشحر ص٣٩٣.

٤ تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٦١)، وتاريخ الشحر ص٣٩٤.

وظل الأخوان يتنازعان الأمر بينهما إلى أن تم الصلح النهائي سنة ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م[1]، وهي السنة نفسها التي وصل فيها الأسطول العثماني بقيادة سنان باشا إلى مدينة الشحر[2]، وكان الحاكم على اليمن يومها (مراد باشا).

ومن الملاحظ أنَّه في هذه المدَّة (النصف الثاني من القرن العاشر الهجري) بدأ التيار الصوفي في حضرموت يظهر بوضوح، وخاصة في الساحة السياسية، وقد شكل طابورًا خامسًا مع أو ضد الحاكم[3]، حيثما تكون مصلحته، واستطاع هذا التيار استمالة عدد من سلاطين الدولة الكثيرية وأمرائها-كالأمير علي بن عمر الكثيري ابن عم السلطان بدر أبي طويرق-للثورة عليه، وكذلك استمالة ابنه السلطان عمر بن بدر، وغيرهم.

كما ازدهرت في هذا العصر (القرن العاشر الهجري) الحركة الأدبية والعلمية، وظهر عدد من الأدباء والشعراء والعلماء والمؤرخين والقادة، ممَّا جعل الكثير من المؤرخين يصفون هذا العصر بالعصر الذهبي في تاريخ حضرموت. وقد توسعت المؤلفات في وصف الحركة العلمية والادبية في هذا القرن[4].

وبعد وفاة السلطان عبدالله بن بدر يوم الأربعاء ٢٤ من ربيع الأول سنة ٩٨٥هـ/ ١١يونيو ١٥٧٧م، تولى السلطنة ابنه جعفر بن عبدالله بن بدر، واستمر فيها إلى أن قُتِلَ سنة ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م، ثم تولاها عمه السلطان عمر بن بدر أبو طويرق،

١ تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٦٢).

٢ بافقيه، تاريخ الشحر ص٤١٧ .

٣ ينظر عن موقفهم هذا، خاصة ضد السلطان بدر أبي طويرق: إيفانوف، الفتح العثماني ص١٣٤-١٣٦.

٤ ينظر: الصبَّان، عبدالقادر، الحركة الأدبية في حضرموت ص٧٦.

الذي توفي في مدينة الشحر سنة ١٠٢١هـ/ ١٦١٢م[1]، ويحسب وفاته بحساب الجمل في كلمة (رضاك). وقد توفي بعد هذا السلطان بأربع سنين سكرتيره وكاتب الإنشاء بالديوان، الفقيه الأديب الشاعر عبدالصمد بن عبدالله باكثير[2]، ودُفِنَ أيضًا بمدينة الشحر سنة ١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م. وقبل وفاة هذا السلطان بعام توفي الشيخ أحمد بن أبي بكر بن سالم السقاف[3]، صاحب المسجد المشهور بحارة (المجورة)، وقد رُوِيَ عنه أنَّ أحد آل كثير قتل رجلًا في قضية ثأر، واستجار بالشيخ المذكور، فقبله، وأبقاه في منزله رافضًا تسليمه للدولة، فأمر السلطان عمر بن بدر باقتحام المنزل، فلم يجد الجنود فيه أحدًا، ثم أخرجه ليلًا والجنود محيطون بالبيت دون أن ينتبه له أحد. وعدت هذه الحادثة من كرامات هذا الشيخ [4].

وبعد وفاة السلطان عمر بن بدر تولى السلطنة ابنه السلطان الزاهد عبدالله بن عمر بن بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري[5]. وقد وُصِفَ هذا السلطان بأنَّه ((كان حسنَ الخَلْق والخُلُق، مهاب المنظر، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، وَلِيَ المُلْكَ، فأحسن القيام به، وأظهر السطوة، وقهر البادية وغيرهم، فهابته النفوس، وأمِنَتِ البلاد. ثم خرج عن

١ تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٦٦)، وباحسن، عبدالله، نشر النفحات ص٤٣٤، والشلي، عقد الجواهر والدرر ص١٣٣، والمختار المصون ص١٠٦٦.

٢ تنظر ترجمته في: الصبان، عبدالقادر، الحركة الأدبية في حضرموت ص٨٨، وحداد، عبدالله صالح، معجم شعراء العامية الحضارمة ص١٦٤.

٣ تنظر ترجمته في: باحسن، عبدالله، نشر النفحات المسكية ص١٦١.

٤ المرجع السابق ص١٦٣.

٥ تنظر ترجمته في: تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٦٧)، والشلي، عقد الجواهر والدرر ص٢٤٢.

أهله وماله، وقصد الحرمَ الشريفَ، وأعرض عن الملك، وأقام بمكة إلى أن توفي سنة ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م، ودُفِنَ بالشبيكة))[١]. وفي عهده كانت زيارة الهولندي (بروكة) للشحر[٢].

تقرير زيارة الهولندي فان دن بروكة لمدينة الشحر:

في عهد السلطان الزاهد عبدالله بن عمر (ت: ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م) كانت زيارة المبعوث الهولندي (بيتر فان دن بروكة) لمدينة الشحر في ٢٥ شعبان سنة ١٠٢٣هـ/ ٢٩ سبتمبر ١٦١٤م، ومقابلته للسلطان عبدالله، والأهم في زيارته ذلك الوصف الذي قدَّمه للمدينة ونشاطها الاقتصادي الذي شاهده. ولأهميته آثرت نقله هنا مع تعديلات طفيفة، وخاصة في ذكر بعض أسماء الأعلام، دون الإخلال بالنص المترجم، ولمن أراد النص الرئيس يمكنه الرجوع إلى المراجع المذكورة بالهامش آنفًا. كتب بروكا يقول: ((يقع المركز التجاري (الشحر) المشهور في الجزيرة العربية، على ارتفاع (١٤) درجة و(٥٠) دقيقة من العرض الشمالي، و(١٧) درجة انحراف متزايد تجاه الشمال الغربي، على شاطئ رملي قاحل في خليج كبير، وتقف السفن هناك على عمق (٨) فادم (vadem)، والقعر البحري صالح للرسو، والمسافة إلى المدينة تقارب طلقة مدفع مسبوك. والمدينة كبيرة المساحة، وذلك نتيجة لكون البيوت متفرقةً وبعيدةً كثيرًا عن

١ المختار المصون ص١٠٦٦، عقد الجواهر ص٢٤٢.

٢ للمزيد عن رحلته ينظر الملحق في نهاية العقد الثمين الفاخر لباسنجلة ص١٤٥-١٥٢. وهو مستل من كتاب (اليمن في أواخر القرن السابع عشر) لبراور وكبلانيان، ط ليدن، سنة ١٩٨٨م، ص٥٤-٥٩.

بعضها البعض. ومعظم هذه البيوت مشيدة من اللبِنِ والطين، وخارجها من الجير، وسقوفها مسطحة أيضًا، على مثال البيوت في عدن. كما تقع هنا أيضًا قلعة جميلة وكبيرة وقديمة البناء جدًّا، مصنوعة من الطين واللبِنِ، لها (٤) تحصينات بارزة مستديرة صالحة ضد الهجوم، ولكن ليس بمقدورها الوقوف أمام المدافع مطلقًا، وهذه القلعة المذكورة أعلاه مزوَّدة بحاميةٍ كبيرةٍ من العدد مكونة من جنود عرب يمكن تمييزهم عن غيرهم بوضوح بسبب شعرهم الطويل. ويقيم فيها الملك عادة. وبالقرب من الشاطئ يقع أيضًا الفندنغة (الجمرك)[1]، وهو جميل جدًّا، ويحتوي على الميزان. كما يوجد هناك (٣) كنائس كبيرة وصغيرة يسمونها (مسجد). وتقع هذه المدينة المذكورة أعلاه تحت حكم الملك المسمى السلطان (عبدالله) الذي يقيم كما ذكرت في مدينة تسمى (حضرموت)، وتبعد حوالي (٨) أيَّام سفر داخل البلاد. وتشكل هذه المدينة أيضًا مركزًا تجاريًّا مشهورًا جدًّا بالنسبة لكل العقاقير. ويدفع هذا الملك سنويًّا، لكونه عربيًّا، إتاوةً لباشا اليمن الكبير، وذلك بأمر من قبل سلطان القسطنطينية المسيطر على هذه المناطق، ويبلغ مقدار هذه الإتاوة (٤.٠٠٠) قطعة الثمانية ريالات، و(٢٠) بونت (رطل) من العنبر الجيد.

ومن جميع هذه الشعوب يحتل البانيانون المكان الرئيسي وهم أكثرهم مكرًا. وفي الأشهر فبراير ومارس وأبريل نجد هنا على العموم سفنًا من الساحل الهندي، أي من (غوا) و(كمبايا) و(سورات) و(ديو) و(دامان) و(نخينا) و(برومينس) و(جوجة). وهذه السفن مشحونة بالأقطان وأقمشة الدوتيا الكثيرة والكنكن والبفتة، بالإضافة إلى

١ الجمرك: إيطالي الأصل، وهو ديوان الضرائب للبضائع الداخلة (المكوس)، أو المارة (ترانزيت)، ويقال الكُمُرك. معجم الألفاظ التاريخية ص٥٤.

العمائم والنيلة، ولكن هذه الأخيرة بقلة، لأنَّ معظمها يرسل إلى القاهرة. ويرسل سكان قشن (catsini) والشحر جلبات عديدة إلى جزر القمر ومدغشقر وإلى ساحل مالندة. وتحمل هذه عند العودة المواد التالية: الأرز، الدخن، الزنوج، العنبر الأبيض.

ومن الساحل المقابل المسمى (زيلع)، يأتي الكثير من الماشية مثل الثور المخصي، والخروف ذي الذنب العريض، والدجاج، وأنواع أخرى مشابهة من الحيوانات اللذيذة. ومن (دردرة) وهي قرية مقابل (الشحر) تمامًا، تأتي سنويًّا كميات كبيرة من سلال التمر والحصر الأخرى التي تباع وتطلب في كل أنحاء الجزيرة العربية.

وفي الشحر تُصنَع النِّيلَةُ أيضًا، ولكنها رديئة النوعية، وقيمتها ضئيلة؛ لأنها لا تُصنَع بمهارة. ويستعمل السكان أنفسهم هذه النيلة، وهم قادرون على صبغ أقمشتهم الصغيرة بها، وبطريقة ممتازة جدًّا. ومن حضرموت تأتي هنا سنويًّا كميات كبيرة من الأفيون، ومن الجبال الكثير من العقاقير الغالية الثمن وغير المعروفة لدي، كما يقام السوق الرئيسي هنا كذلك في الصباح وفي المساء المتأخر، وذلك بسبب الحرارة الشديدة أثناء النهار.

ويعيش هنا الكثير من البانيانيين، ومعظمهم صرَّافون وصاغةُ فضةٍ، وآخرون من الهند والفارسيون، ويمارس معظمهم الصناعات اليدوية، وهؤلاء البانيانيون غشاشون جدًّا ومخادعون، لذلك أود أن أحذِّر كل إنسان منهم.

وعرب (الشحر) متواضعون جدًّا ونزيهون ولطفاء ومؤدبون ومخلصون في إيمانهم، والنساء ذوات المرتبة العليا يمشين نوعًا ما متحجبات، ولهن رفل طويل يجر خلفهن على الشارع، وهن شديدات (النظر)[1]، حِسَانٌ، جميلات التقاسيم والتقاطيع، وأجسامهنَّ معتدلة الشكل.

١ في النص المترجم: (شديدات الشهوة). وقد علق عليها المترجم، واستبعد معناها البذيء.

وأرض الجزيرة العربية على كل الجوانب البحرية شديدة القحل وغير خصيبة، ولكن حالما يقطع المرء ميلًا أو ميلًا ونصف داخل البلاد، تصبح شديدة الخصوبة. والمواشي هنا متوفرة كالثور المخصي والخروف والكابريت (cabrit) والأيل وأنثى الأيل والأرنب البري والدجاج والديك المخصي، كما أن الأغذية الطازجة موجودة هنا بوفرة كالموز والنارنج والليمون والكبَّاد والرمان والسفرجل والتمر والزبيب وأنواع أخرى مشابهة من الفاكهة اللذيذة، وينتج الفلاحون هنا زبدة جيدة أيضًا، وينقلونها إلى السوق في جلود المعز أو الخرفان، ويوجد هنالك أيضًا خبز من الدخن والقمح، وفي المساء بإمكانك الاختيار بين أنواع مختلفة من سمك البحر اللذيذ الطعم. أما ماء الشرب هنا فهو ليس ممتازًا، لذلك كان علينا طلب جلبه من مسافة بعيدة، حوالي (٤) أو (٥) أميال داخل البلاد، وهذا يكلف الكثير من النقود. وقطعة الثمانية ريالات صالحة التداول هنا أيضًا، ولكن لديهم عملة نحاسية يسمونها الفلوس (flous)، وكل (٧٥٠) قطعة منها تساوي قطعة الثمانية ريالات الواحدة.

وكانت ترسو أمام المدينة فرقاطتان تركيتان ممتازتان على استعداد دائم للتحرك في حالة وجود أي خطر على الساحل. وعند مغادرتي للبلاد كان هنالك (٢٣) مركبًا إسلاميًّا راسيًا منها الكبير والصغير)).

وفي الفقرة الأخيرة من هذا التقرير إشارة واضحة تفيد أنَّ الشحر آنذاك ما زالت خاضعة للدولة العثمانية.

التدخل الزيدي في حضرموت:

بعد أن تنازل السلطان عبدالله بن عمر عن السلطنة لأخيه السلطان بدر بن عمر ذي الميول الزيدية سنة ١٠٢٤هـ/ ١٦١٥م[١]؛ عصفت بالسلطنة الكثيرية مجددًا صراعاتها الأسرية، أكثر من صراعاتها مع القبائل الأخرى. وغالبًا ما يلجأ أمراء آل كثير وسلاطينهم إلى حكام اليمن من الأئمة الزيديين؛ طلبًا للدعم والنصرة على خصومهم، وتحوَّل الأمر لاحقًا إلى تدخل سافر لأولئك الأئمة في الشؤون الداخلية لحضرموت، بل محاولة إخضاعها لليمن.

من ذلك أولاً وفادة مبعوث الإمام المتوكل على الله (إسماعيل) الشيخ محمد بن عبدالله بن محمد المؤيدي، إلى السلطان بدر بن عبدالله، يأمره فيها بسرعة الإفراج عن عمه بدر بن عمر، وإعطائه ظفار، بعد أن تنامى لأسماع الإمام موالاة هذا الأخير له، فما كان من السلطان بدر إلا أن راوغهم، وأظهر لهم الطاعة والانقياد والتسليم[٢]، فأطلق عمَّه، وولَّاه ظفار، وفي الوقت نفسه أوعز لأخيه جعفر بن عبدالله بانتزاع ظفار من عمهما، مما دفع بعمهما وأولاده إلى الهرولة إلى الإمام؛ طلبًا لاستعادة ملكهم.

ثم ما تلا ذلك من قدوم القاضي الحسن بن أحمد بن صالح الحيمي[٣]، الذي أرسله الإمام المتوكل على الله (إسماعيل) إلى حضرموت؛ نصرةً لحليفه في المذهب بدر بن عمر الكثيري[٤]، لتثبيته في الحكم ودعمه، وكان هذا في جمادى الأولى سنة ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م.

---

١ تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٦٩).

٢ الجرموزي، تحفة الأسماع (٢/ ٨٢٦).

٣ الجرموزي، تحفة الأسماع (٢/ ٧٨٩). وفي تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٧٩): (الصفي). وبهامش إدام القوت ص١٦٨: (الصفي أحمد بن الحسن بن القاسم، ابن أخ الإمام).

٤ تنظر ترجمته عند: باوزير، صفحات ص٢٠٦، وتاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٦٩).

ثم تلك الحملة التي قادها صفي الإسلام أحمد بن الحسن في ١٨ شوال ١٠٦٩هـ/ ٨ يوليو١٦٥٩م[١]؛ لإعادة السلطة مجددًا لبدر بن عمر الكثيري، بعد ان انتزعها منه للمرة الثالثة ابنُ أخيه بدر بن عبدالله بن عمر (ت:١٠٧٥هـ/ ١٦٦٥م).

ويُنسب للسلطان بدر بن عمر الكثيري إنشاءُ الحاميات اليافعية بحضرموت[٢]، وهي التي عُرِفَت باسم (المكاتب)، والعمل على توزيعها عشائريًّا بمختلف مناطق حضرموت، وهذه الحاميات (المكاتب) شكلت القوة العسكرية التي اعتمد عليها السلطان بدر بن عمر لتثبيت حكمه، ومن حينها أُطْلِقَ على يافع (العَسْكَر)[٣]، وظلوا موالين لآل كثير إلى أن انقلبوا عليهم، وسنأتي لذكر ذلك.

والسلطان بدر بن عمر الكثيري السابق ذكره عيَّنَ خلال مدة إمارته على حضرموت ابنَه الأمير علي بن بدر بن عمر[٤] حاكمًا على مدينة الشحر بعد سيطرته عليها بمعية العسكر من يافع سنة ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م[٥].

١ للتفاصيل ينظر: الجرموزي، تحفة الأسماع (٢/ ٨٣٠)، والبكري، صلاح، في جنوب الجزيرة ص١٤٦.

٢ بامطرف، في سبيل الحكم ص ٢٩، والجوهي، خالد، إمارة آل بن بريك ص٤٦، وباوزير، شهداء القصر ص٢٩. وقد نسب المؤرخ عبدالخالق البطاطي (إثبات ما ليس بمثبوت ص٩) استقدام يافع لحضرموت وإنشاء المكاتب اليافعية للسلطان بدر أبي طويرق. وهذا وهم.

٣ العلوي، محمد بن هاشم، رحلة إلى الثغرين ص٤٧.

٤ توفي هذا الأمير (علي) في الشحر سنة ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م. تنظر تفاصيل ترجمته في: تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٨٦). كما ترجم له الباحث عبدالله حداد في كتابه (معجم شعراء العامية الحضارمة) ص٢٢٢.

٥ سيطر هذا السلطان على الشحر ومعه قوة من يافع. ينظر: باوزير، أحمد، شهداء القصر ص٢٩.

ومن تدخلات الزيود بحضرموت أيضًا: تعيين السلطان محمد (المردوف) بن بدر بن عمر الكثيري[1] سلطانًا على حضرموت، خلفًا لوالده السلطان بدر بن عمر الكثيري، بتأييد من الإمام الزيدي المتوكل إسماعيل سنة ١٠٧٣هـ/ ١٦٦٣م[2].

والزيود خلال محاولاتهم لبث نفوذهم في حضرموت، عملوا على منع راتب الإمام الحدَّاد، كما زادوا في صيغة الأذان (حيَّ على خير العمل)، إلى جانب فرضهم الخطبة باسمهم، وألزموا مختلف مناطق حضرموت بتعليماتهم واتباعها. وكما قيل لم يمتنع أحد عن الأذان بتلك الصيغة، إلا الشيخ عبدالله بن عمر بن رضوان بافضل، مؤذن مسجد باعلوي بتريم[3].

بعض ما جاء في الرسائل المتبادلة بين سلاطين حضرموت والأئمة تخص المدينة:

من الواضح أنَّ هدف الأئمة الزيديين من إرسال مبعوثيهم، ثم قواتهم لحضرموت، لم يكن سياسيًّا أو مذهبيًّا فقط، وإنَّما كان أيضًا اجتماعيًّا واقتصاديًّا، فإلى جانب رغبتهم في مد نفوذهم السياسي والعقائدي إلى حضرموت، لم يكونوا راضين عن تلك الطرق الصوفية التي يتبعها صوفية الحضارمة وأسياد هذا التيار من العلويين في حضرموت، إذ اتُّهِمُوا من قِبَلِ الزيديين في معتقداتهم وممارساتهم، كما كانت أعينهم أيضًا على مدينة الشحر وما بها من روافد ستصب جميعها في خزائن الإمام، ففي الرسالة التي بعث بها رسوله القاضي أحمد بن الحسن الحيمي في ١٠من جمادى الآخرة ١٠٦٧هـ/ ٢٥مارس ١٦٥٧م

١ ترجمته في تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٨٥). توفي محمد المردوف سنة ١٠٨٠هـ. باوزير، صفحات ص٢٢٠.

٢ بامطرف، في سبيل الحكم ص١٣.

٣ تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٧٣)، وبامطرف، المختصر ص١٠٤، والسقاف، إدام القوت ص١٦٨.

نقف على تطمينات للإمام عن حالة المدينة والميناء، وكأنه يُطمِعُ الإمامَ فيها. كتب القاضي يقول: ((والأخبار من جهة الشحر سارة، قد وصل إليها ثلاثة مراكب هندية ملاح، على ما بلغنا، وأحوال هذه الجهة جميلة سديدة، وقد اتصل بنا بعض فقهائها ممن له بصيرة وفقه نافع، ولهم عناية في إحياء المساجد بذكر الله عز وجل ودرس القرآن وتعليم الصبيان، من غير أن يقارن ذلك شيء من البدع التي يتوهم بها، وببركتكم تصلح أمور المسلمين على أتم الوجوه وأحسنها إن شاء الله تعالى، وبعد وصولنا إلى حضرموت يأتيكم التحقيق))[1].

وجاء في رسالة بعث بها السلطان بدر بن عبدالله الكثيري للإمام في ١٥ رمضان ١٠٦٧هـ/ ٢٢يونيو ١٦٥٧م: ((ثم الصادر إليكم من الخيل الجياد في مقابل ما يُقرَّر علينا لبيت المال من الزكاة والفطرة ثمانية رؤوس، حسبما ذكرناه لكم في كتاب منفرد إليكم بيد القاضي الجليل الحسن بن أحمد حفظه الله، ثم قبيل ما تقرر لكم من محصول بندر الشحر المحروس بالله من الرسم الهندي، وما تقرر لكم مما رُسِمَ على البانيان في مدة ثلاثة أشهر مائتان وعشرون قرشًا وثلاثمائة حرف، وخمسة عشر ذهبًا أحمر، الذهب الأحمر محسوب بستمائة قرش وثلاثين قرشًا، كما أنَّ جملة ما تقرر لكم من الموسم الهندي سنة سبع وستين وألف (١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م) والذي يخصكم من المتقرر على البانيان هو ثمانمائة وخمسون قرشًا، مقتضى ما قررناه لكم في الكتاب المفرد المشار إليه بيد القاضي))[2].

---

١ الجرموزي، تحفة الأسماع (٢/ ٧٩٧).

٢ الجرموزي، تحفة الأسماع (٢/ ٨٠٩)، وباوزير، صفحات ص٢١٠. وقد ذكر المؤرخ صلاح البكري أنَّ المدينة حين احتلتها جيوش الامام، كان بها نحو (٣٠٠) تاجر من البانيان البراهمة، وكان في الميناء أكثر من (٥٠٠) مركب للصيد. ينظر: في جنوب الجزيرة ص١٤٦.

مقاومة الأهالي للزيود:

كان عامل الإمام المؤيد محمد بن إسماعيل على مدينة الشحر سنة ١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢م هو حسن بن عبدالله بن عمر الكثيري[١]، وقد خرج هذا على الإمام، وقاد ثورة شعبية ضده وضد مذهبه[٢]، وتبعه في هذا التمرد عدد من القبائل المجاورة للمدينة، وخاصة قبيلتي الحموم وسيبان، فما كان من الإمام المؤيد إلا أن أرسل للمدينة الأمير علي بن بدر بن عمر الكثيري، وبصحبته قوة كبيرة من الزيود ومن يافع، واستطاع بهذه القوة إخماد الثورة، وطرد الأمير حسن بن عبدالله، لتصبح المدينة خاضعة لعلي بن بدر. وقد توفي هذا الأمير في الشحر سنة ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م.

أمَّا الثورة الأخرى ضد الأئمة في المدينة، فهي تلك التي قادها أخٌ للأمير حسن، وهو الأمير طالب بن عبدالله بن عمر[٣]، وهذه الثورة أُخمِدَت أيضًا.

ويلاحظ أنَّ الأخوين طالبًا وحسنًا تكاد ترجمتهما تكون متطابقة لدى مؤرخ الدولة الكثيرية الأستاذ محمد بن هاشم العلوي، ممَّا يدفعنا لنشكك في وجود أحدهما.

السلطان بدر بن محمد (المردوف) واستقدامه ليافع حضرموت:

في سنة ١١١٣هـ/ ١٧٠١م على عهد السلطان بدر بن محمد (المردوف) الكثيري ظهرت فتنة مذهبية، انقسم على إثرها جنود الجيش الإمامي (يافع والزيود) في حضرموت،

---

١ ترجمته في تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٨٨).

٢ البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١٤٢)، والجوهي، إمارة آل بن بريك ص٤٠.

٣ تنظر ترجمته في: تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ٨٤).

وسرت هذه الفُرْقة والانقسامات في عامة الناس، وأصبح لكلِّ فريق أنصاره. ومن نتائج هذه الانقسامات والصراعات أن عمَّتِ الفوضى والجور بحضرموت، وكادت تطيح بالدولة وتمزقها، ممَّا دفع بالسلطان الكثيري بدر بن محمد (المردوف)، وبتأييد ودعم من العلويين الحضارمة، إلى الذهاب إلى يافع واستقدام مجنَّدين (سنيين)، بهدف نصرة إخوانهم السُّنَّة في حضرموت[1]، وكان هذا في سنة ١١١٧هـ/ ١٧٠٥م، وبعد استقدام هذه القوة وخوض صراعات دامية، تمكنوا في النهاية من دحر الزيود وطردهم من حضرموت.

ثم إنَّ هؤلاء اليافعيين بعد أن رأوا ضعفًا في الدولة التي استقدمتهم، ما لبثوا أن استبدوا بالأمر لأنفسهم، وتقاسموا أراضي الدولة بين عشائرهم، فأصبحت سيئون لآل الضبي، وتريم لآل لبعوس، وتريس لآل النقيب، وشبام للموسطي، ومريمة لآل البكري، وفي غيل بن يمين الشناظير، وفي حريضة آل بن بريك، وفي الهجرين آل اليزيدي، وفي لحروم آل القعيطي، وفي القزة آل البطاطي[2]، كما استقلت قبائل آل تميم الحضرمية بقراهم ومناطقهم القديمة.

أمَّا بقية العشائر اليافعية التي توزعت في المناطق الساحلية، فقد استقلت أيضًا بحامياتها. ويرى بعضهم أنَّ الشيخ عمر بن صالح بن هرهرة، الذي كان على رأس الجيش اليافعي الذي استقدم لحضرموت، كان بصحبته (٦٠.٠٠٠) مقاتل من يافع، وقد

---

١ بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت العام، ص١٠٤، وفي سبيل الحكم ص١٣.

٢ باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٢٢.

مكث هذا الشيخ في الشحر ثلاثة أشهر، جبى خلالها مبلغًا قُدِّرَ بـ(٣٠.٠٠٠) ريال[١]. وقد أقام آل بن هرهرة حاميتهم في قرية تبالة، وما زالت أطلال حصنهم قائمة في إحدى التلال المطلة على القرية من جهة الجنوب حتى اليوم[٢].

وهكذا بعد مقدم يافع من الجبل، بدأت الدولة الكثيرية تتداعى، لتسقط أوَّلاً ظفار من أيديهم سنة ١١٣٥هـ/ ١٧٢٢م، ثم حضرموت عامة سنة ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م. وكان آخر سلاطينهم هو جعفر بن عمر بن جعفر الكثيري (ت: ١١٤٥هـ/ ١٧٣٧م)[٣].

١ السقاف، إدام القوت ص١٧١، وإنجرامس، تقرير عن الحالة ص٣٥.

٢ للمزيد عن المكاتب اليافعية واستيطانها مناطق الساحل ينظر: البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٩.

٣ المرجع السابق ص١٠٥. وتنظر ترجمته في: تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ١٠٩)، وحداد، عبدالله، معجم شعراء العامية الحضارمة ص٥١.

الفصل الثالث

الحكم اليافعي لمدينة الشحر

الحاميات اليافعية بالساحل الحضرمي (المكاتب)

كما ذكرتُ في نهاية الفصل السابق، أنَّه حينما بدأ الضعف يسري في جسد الدولة الكثيرية الحاكمة، واضطر حكامها إلى الاستنجاد بيافع ضد الجيش الزيدي وأنصاره المقيمين في حضرموت، وبعد أن تحقق لهم طرد الزيود؛ عمل سلاطين آل كثير على توزيع العشائر اليافعية القادمة من الجبل على مختلف مناطق حضرموت وقراها، واديها وساحلها، وجعلوا على كل منطقة ساحلية مكتبًا (حاميةً) أو أكثر، تتولاها إحدى العشائر اليافعية وعليها تقع حماية منطقتها مقابل استقطاع أراضٍ لها، ومقابل أموال تجبى. وقد حصر بعضهم هذه المكاتب (الحاميات) في سبع حاميات [1]، وخاصة داخل مدينة الشحر، أما في خارجها فهي موزعة على مختلف القرى والمناطق المجاورة، وتوزيعها على النحو الآتي:

١- مكتب آل الكسادي في مدينتي الديس الشرقية والحامي.

٢- مكتب آل النشادي في قرية عرف.

٣- آل بن همام في غيل باوزير .

٤- الكلدي في ريدة المعارة.

---

١ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٩، وبامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت ص١٠٦، وفي سبيل الحكم ص٢٦، والجوهي، خالد، إمارة آل بن بريك في الشحر. واستبعد الجوهي (ص٤٢) كون مكتب الكسادي في الديس الشرقية التي كانت تابعة إداريًّا للشحر، وأحل بدلاً عنه مكتب آل عياش في الشحر، ومحل حصنهم كما قال في الكودة. ومن الحاميات اليافعية الأخرى (الشناظير) بغيل بن يمين. وعن الحاميات ينظر أيضًا: بامطرف، في سبيل الحكم ص٢٩، وباوزير، شهداء القصر ص٢٩.

٥- مكتب آل البطاطي في حارة الرملة بمدينة الشحر وفي الديس الشرقية.

٦- مكتب ابن عاطف جابر في حارة الجزيرة بمدينة الشحر.

٧- مكتب ابن معوضة في حارتي الخور والحوطة من مدينة الشحر، وحصونهم بالكودة جنوب مقبرة عبدالرحيم. وكذلك في منطقة مرير الواقعة غرب مدينة الشحر.

٨- مكتب آل الشيخ علي بن هرهرة في قرية تبالة.

٩- مكتب آل بريك/ بن بريك في حصن خرد، وفي القسم الشرقي من مدينة الشحر المعروف بـ(رباط بن جوبان)[١].

١٠- آل البياني، ومحل حصنهم فوق الكودة شمال شرق الجمرك.

١١- آل بن عياش، وهؤلاء استولوا على حصن كبير بالمدينة يدعى المصبح[٢].

وأمّا مدينة الشحر فقد تقاسمتها المكاتب السبعة الأخيرة. وكانت بداية وجود بعض هذه المكاتب، كما أشرت سابقًا، مع مقدم جيش الإمام الزيدي لحضرموت، إذ

---

١ أشار الجوهي إلى أن هذا المكتب محله في حصنهم شمال غرب مسجد عمرو، والآخر شمال غرب مسجد علي. ينظر: إمارة آل بن بريك في الشحر ص٤٢. في حين أشار البطاطي إلى أن هذه المواقع كانت تخص أسرة آل قحطان بن بريك، ووجود هذه الأسرة أقدم من الأسرة البريكية التي أقامت إمارتها لاحقًا في الشحر. ينظر: إثبات ما ليس بمثبوت ص٩.

٢ السقاف، إدام القوت ص ١٧١. وكان هذا الحصن يدعى (المنيف) في العصر الجاهلي، وهو مقر حكم الملوك القضاعيين الذين حكموا المنطقة. بامطرف، قبيلة قضاعة اليمنية (بحث ضمن كتيب بعنوان الشحر مدينة وتاريخ). وعن هذه المكاتب وتوزيعها ينظر: البطاطي، عبدالخالق، إثبات ما ليس بمثبوت من تاريخ يافع بحضرموت ص٩.

كان بصحبة ذلك الجيش جنودٌ من يافع. كما استقدم السلطان بدر بن محمد (المردوف) فرقًا أخرى منهم، كما أشرت إلى أنَّ الشيخ صالح بن هرهرة اليافعي هو مَنْ كان على رأس الجيش اليافعي القادم، وقد قدم هذا الشيخ للشحر ومكث فيها مدَّة، استطاع خلالها جباية أموالٍ طائلة[1]، ثم انتقل مكتبه لاحقًا إلى قرية تبالة. كما أنَّ طائفة أخرى من يافع يُقال لهم (آل بن عياش) استولوا على حصن (المُصَبّح) بالشحر، وأقاموا به حاميتهم[2]، وقد حمل الحصن اسمهم منذ تلك المدة حتى الآن[3].

ثم بدأت بقية المكاتب اليافعية تتقاسم المدينة، وبعض الأسر المنتمية لهذه المكاتب، كما نظنها، موجودة بالمدينة إلى قبيل تلك المدة المحددة.

وقد استطاع أحد المكاتب اليافعية داخل الشحر، وهو مكتب (آل قحطان بن بريك) ضمن ما عُرِفَ بدويلات الحويف (الحارات)، أن يفرض سيطرته على بقية المكاتب الأخرى المنافسة داخل المدينة، وهذا تم بعدما دبَّ الضعف واستفحل في جسد الدولة الكثيرية، وسنحت لجنودها الأشداء هؤلاء فرصة تقاسم الكعكة.

---

١ السقاف، إدام القوت ص١٧١. ويقال لهذا المكتب آل الشيخ علي هرهرة، ومقرهم الشحر وتبالة. البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٩

٢ السقاف، إدام القوت ص١٧١. أصبح حصن آل بن عياش في محل الكودة التي فوقها العلم. البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٩. ثم تحولت إلى حديقة عامة، وحاليًّا هي سوق للخضار. وعند بامطرف أنَّ الاسم القديم لحصن بن عياش هو الرياض. ينظر: مسرحية سور الشحر ص١.

٣ يلاحظ عدم وجود أي أسرة يافعية بالمدينة تحمل اسم آل عياش، بعكس الأسر اليافعية الأخرى. وقد ذكر الشيخ أحمد الملاحي في مذكرته التاريخية أنَّ آل عياش هم من مشايخ حضرموت في القرن السادس الهجري. ينظر المذكرة ص٦٦. وهذا يعني أن آل عياش اليافعيين ليس لهم أي علاقة بهذا الحصن. ولكن الملاحي يذكر في فقرة أخرى أنَّ لابن عياش اليافعي علاقة بهذا الحصن! ينظر: المذكرة ص٤٨-٥٠.

لقد ظلَّ هذا المكتب (آل قحطان) منذ سنة ١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م يعمل جاهدًا للاستئثار بحكم المدينة، وقد تم له إخماد المكاتب اليافعية الأخرى المنافسة، باستغلال ضعف حكام المدينة من آل كثير. إلا أنَّ السلطان الكثيري جعفر بن عمر بن جعفر بن علي الكثيري[1]، وضمن محاولاته الأخيرة للإبقاء على مجد سلطنة أجداده الغابر والحفاظ عليه، استطاع القضاء على سيطرتهم، وإعادة سيطرة آل كثير على معظم مناطق حضرموت الداخل، ومن ثم اتجه نحو الساحل، وسيطر على مدينة الشحر، ليقوم بعدها بمحاولاته للسيطرة على مدينة المكلا التي بدأ صيتها يعلو، وأهميتها تظهر، بيد أنَّ سلطة آل كثير هذه، سرعان ماتداعت، وخارت قواها، فسقطت الشحر مرة أخرى بيد آل بن بريك، ليعلن هؤلاء سيطرتهم الفعلية عليها في سنة ١١٦٥هـ/ ١٧٥١م[2].

الإمارة البريكية في الشحر:

كما سبقت الإشارة، فإنَّ البداية الأولى لهذه الإمارة وسيطرتها على مدينة الشحر كانت في سنة ١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م، عندما تمكنت حاميتها (مكتب آل قحطان بن بريك) من دحر نفوذ المكاتب اليافعية الأخرى المسيطرة، والانفراد بالمدينة وإدارتها[3].

١ ترجمته في تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ١٠٩).

٢ بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت، ص١٠٧. وذكر المؤرخ عبدالله باحسن (نشر النفحات ص٤٦٠) أنَّ دخول آل بن بريك الشحر وسيطرتهم عليها كان سنة ١١٦٥هـ. وهذا وهم؛ إذ لا يعقل أن يأتوا إلى المدينة ويسيطروا عليها في العام نفسه! وينظر: باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٣٢. وعند خالد الجوهي: كان تأسيس الإمارة سنة ١١٥٦هـ. وهذا وهم آخر، ولعله سها في ضبط التاريخ الهجري، بينما ضبطه بالتاريخ الميلادي الموافق لعام ١٧٥١م. ينظر: إمارة آل بن بريك ص٤٣.

٣ عن نسب قبيلة آل بن بريك، ينظر: الجوهي، خالد، إمارة آل بن بريك في الشحر ص٤٤.

وسيطرة هذا المكتب على المدينة لا يعني انفرادته تمامًا بالحكم، إذ ما زال لسلاطين آل كثير الأمر، ولو من الناحية الصورية.

ويبدو أنَّ سيطرة آل قحطان بن بريك هذه لم تكن بتلك القوة؛ إذ تطالعنا بعض المراجع بما يفيد أن المدينة في هذه المدة كانت واقعة أيضًا تحت نفوذ الأئمة الزيديين، وثمَّة إشارة نجدها عند المؤرخ أبي طالب محسن بن الحسن بن القاسم (ت:١١٧٠هـ/ ١٧٥٦م) تفيد أنَّه في سنة ١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م ((جهَّز الإمام مولاه عثمان بن زيد إلى الشحر في ثلاثمائة من العسكر الأعيان، وأخذ عليه في حفظ البندر، والتيقظ للعماني إذا ورد أو صدر))[1].

وقد أشار الباحث خالد الجوهي، الذي ألَّف كتابًا عن إمارة آل قحطان بن بريك، إلى أنَّ أوَّل تمركز لهم داخل المدينة كان في حصنهم الواقع شمال غرب مسجد عمرو، وحصنهم الآخر المسمى (قعطبة) شمال غرب مسجد علي[2]، ويقع هذان الحصنان في (عقل باعوين).

إنَّ سيطرة آل قحطان هؤلاء على المدينة لم تدم طويلًا؛ بسبب استمرارية النزاعات والتنافس بين أفراد مكتبهم من جهة، وبينهم وبين المكاتب اليافعية الأخرى التي عُرِفَت بـيافع (الرتب)[3] من جهة أخرى، ممَّا أضعفهم وأضعف خصومهم في الوقت نفسه.

١ أبو طالب، حسام الدين محسن بن الحسن، تاريخ اليمن عصر الاستقلال عن الحكم العثماني الأول، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مطابع المفضل للأوفست، ط١، ١٩٩٠م، (١/ ١٣٦).

٢ الجوهي، خالد، إمارة آل بن بريك، ص٤٢، والبطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٩.

٣ القبائل اليافعية التي أطلق عليها هذا الاسم تشمل آل بن معوضة، وآل البطاطي، وآل عاطف جابر، وآل بن بريك لاحقًا. ينظر: الملاحي، عبدالرحمن، ومعيلي، حسن، الصراع الحمومي القعيطي، ص٢٢٣.

لقد أدى هذا الصراع الداخلي بين المكاتب اليافعية داخل المدينة إلى تفتتها، وجعلها لقمةً سائغةً لآل كثير الساعين بقوة لإعادة أمجادهم الغابرة في حضرموت، والعاملين بجدٍّ للسيطرة على مدينة الشحر ذات الأهمية الاستراتيجية، ومدينة المكلا التي بدأ صيتها يعلو، ومكانتها تظهر، وخاصة بعد استيلاء آل كساد اليافعيين عليها[1].

لقد استطاع السلطان جعفر بن عمر بن جعفر الكثيري سنة ١١٢٩هـ/ ١٧١٧م[2] القضاء على دويلة (آل قحطان) الفتية في الشحر، التي دامت قرابة نصف قرن، ليدخل هذا السلطان مدينة الشحر مزهوًّا بانتصاره، وهو يرتجز بهذه الأبيات:

قال الكثيري بن عمر بن جعفر ... لا ناد رأسي يا الشوامخ نودي

الشحر خذناها قد الله قــــدر ... عاد المكلا با تحن رعـــــودي[3]

إلا أن سيطرة آل كثير على المدينة لم تدم طويلًا، خاصة أنَّهم لم يعملوا على استئصال خصومهم ومنافسيهم أو إجلائهم عن المدينة، وإنما أبقوا عليهم داخلها، مُكتَفِين بنزع شوكتهم، كما لم ينتبه الكثيريون لتوافد اليافعيين وتزايد عددهم داخل المدينة، ممَّا سهَّل على فرعٍ من مكتب (آل بن بريك)، وهو الفرع الأكثر قوةً ونفوذًا، أن يستولي على المدينة، ويدحر آل كثير منها، وكان هذا سنة ١١٦٥هـ/ ١٧٥١م.

١ لمعرفة المزيد عن المكلا وتاريخها يمكن الرجوع إلى إدام القوت ص١١٠.

٢ السقاف، إدام القوت ص١٦٨. وفي ص١٧١ ذكر أن قدوم جعفر من اليمن إلى الشحر كان سنة ١١١٨هـ.

٣ تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ١١٠). وثمة رواية أوردها المؤرخ بامطرف في كتابه (المعلم عبدالحق: ص١٣٥)، وضعَّفها، تقول إن قائل هذه القصيدة شاعر مجهول، قالها في السلطان غالب بن محسن الكثيري، بعد احتلاله الشحر عام ١٢٨٣م.

ويعود تأسيس هذه الإمارة البريكية في مدينة الشحر إلى أسرة الشيخ عمر بن عبدالرب بن بريك، التي سكنت في بداية أمرها في حريضة، ثم انتقلت إلى الشحر بأبنائها السبعة: ناجي، وسعيد، وعبود، ومرعي، وأحمد، وجابر، وشيخان.

وقد استطاع أحدهم، بدعمٍ من بقية إخوانه، وهو الأمير ناجي بن عمر بن عبدالرب بن بريك، أن ينتصب أوَّل حاكم من هذه الأسرة على مدينة الشحر(١). وهذا الامير كان قُبَيلَ تنصيبه مسؤولًا عن مالية كل القبائل اليافعية بالمدينة، إذ تم اختياره لهذه المسؤولية؛ بسبب نزاهته وأمانته، وبسبب حياديته في ذلك الصراع بين الفصائل اليافعية، وخوف الجميع من استيلاء خصومهم على أموالهم(٢)، فكان أن أودع الجميع أموالهم وثرواتهم لدى هذا الأمير، وهذه المسؤولية عززته كثيرًا، ورفعت من شأنه ونفوذه.

وقد أورد بعض المؤرخين رواية تقول إنَّ قدوم هذه الأسرة من حريضة إلى الشحر كان بمشورة السيد عمر بن عبدالرحمن العطاس(٣)، وهو الذي ذلَّلَ الصعاب لهم، ومهَّد الطريق، مستعينًا في هذا بنفوذه ووجاهته، كما أنَّ وجود فرع سابق من العشيرة في المدينة (آل قحطان) له تجربة سابقة في الحكم، قد ساعد عى تعزيز وجود هذه الأسرة وترسيخ أقدامها في المدينة(٤).

١ بامطرف، المختصر، ص١٠٧، وباحسن، نشر النفحات ص٤٦٠، وباوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٣٢.

٢ السقاف، إدام القوت ص١٧٣.

٣ باحسن، عبدالله، نشر النفحات المسكية ص٤٦٠، والجوهي، إمارة آل بن بريك ص٤٦.

٤ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص١٠.

وقد استوطنت هذه الأسرة في بدء أمرها حارة المجرف، واشتروا عددًا من البيوت والحصون والمحال التجارية، كما اشتروا حصنًا بقرية (عيص خرد) خارج الشحر، وحاولوا أيضًا التغلغل في عمل الميناء عن طريق استيراد البضائع وتصديرها، وتطور الأمر لاحقًا إلى شراء السفن من مُلَّاكها، والمتاجرة بها مباشرةً، بل إنَّ بعضهم ينسب إليهم إقامة الفرضة (الجمرك)[١]. وسبق أن أشرنا إلى وجود (الجمرك) في أثناء زيارة المبعوث الهولندي (بيتر فان بروكا) للشحر. والمرجح أنَّ وجوده أقدم من زيارة (بروكا) تلك، فلعلَّ آل بن بريك عملوا هنا على تجديد الجمرك أو استئجاره من المتحكمين به سابقًا، وهي عادة متبعة استعملها سلاطين الدولة القعيطية لاحقًا، كما سنأتي إليه[٢]، واستمر حالهم هكذا في التمدد إلى أن آل إليهم في النهاية الميناءُ برمته، بل وأمرُ المدينة نفسها.

إن التوسع العمراني والتجاري لآل (بن بريك)، جعل منهم أسرةً فاحشةَ الثراء واسعةَ النفوذ داخل المدينة وخارجها أيضًا. وبهذا الثراء استطاعوا شراء بعض الولاءات، واستمالة القلوب إلى جانبهم، بل استطاعوا كسب صداقة القبائل البدوية القريبة من المدينة ومودتها[٣]، وخاصة قبائل (الحموم) التي شهد لها التاريخ بتمرداتها المستمرة على كل سلطة تحكم المدينة، إلا أنَّ هذا التحالف وكسب ود البدو لم يدم طويلًا، فبانتهائه انتهت دولتهم، كما سنرى بعد.

١ الجوهي، إمارة آل بن بريك ص٥٣.

٢ ينظر: البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٥٢.

٣ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٣٣. ويرى صلاح البكري اليافعي أن الأمير علي بن ناجي بن بريك أخضع الحموم بحكمته وشدته. تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١٥٣).

إنَّ آل بريك، حينما وجدوا الأوضاع داخل الشحر مهيَّأة لإعلان سيطرتهم الكاملة على المدينة، اختاروا ناجي بن عمر بن بريك، وهو الأكبر سنًّا بين إخوته، والأكثر حزمًا وعزمًا وإقدامًا ونفوذًا، وفرضوه حاكمًا على الجميع، وتم ذلك طبعًا بالتنسيق مع ذوي الوجاهة من السادة العلويين، وخاصة آل العطاس[1].

وهكذا تم إشهار الأمير (ناجي بن عمر بن بريك) أوَّل أمراء الدولة البريكية في الشحر، ليكون المؤسس لهذه الدويلة، وكان هذا سنة ١١٦٥هـ/ ١٧٥١م.

وبالرغم من معارضة بعض الفصائل اليافعية الأخرى لهذا الاستحواذ البريكي، إلا أنَّها في النهاية أذعنت وسلَّمت بالأمر، باستثناء أسرة (آل بن معوضة) المقيمة في حارتي (الخور) و(الحوطة)، فقد رفضت القبول به أو التسليم بالأمر الواقع، لتدور صراعات ونزاعات بين الطرفين، انتهت بخضوع آل بن معوضة لسلطة آل بن بريك[2].

وقد استمرت سلطة هذا الأمير إلى أن توفي سنة ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م[3]، فتولى الإمارة بعده ابنه الأمير علي بن ناجي بن عمر، الملقب بـ(القحوم)[4]، وهو الذي استطاع إخضاع (آل بن معوضة) بصورة نهائية، ممَّا دفع ببعض المؤرخين للقول بأنَّ هذا الأمير (القحوم) هو المؤسس الحقيقي لهذه الإمارة[5].

---

١ باحسن، نشر النفحات المسكية ص٢٠٥.

٢ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٣٤. ولتفاصيل هذا الصراع ينظر: الجوهي، إمارة آل بن بريك ص٥٤، ٥٥.

٣ باحسن، عبدالله، نشر النفحات المسكية ص٤٦١.

٤ الجوهي، إمارة آل بن بريك ص٥٤.

٥ الجوهي، إمارة آل بن بريك ص٥٥.

الأمير القحوم وقبائل الحموم:

لقد استطاع هذا الأمير (القحوم) بحنكته ودهائه، بعد أن استتب له حكم المدينة، كسب ود قبائل الحموم وولائها، من خلال عقد اتفاقات معهم، راعى فيها مصالحهم ومصالحه، كتلك الاتفاقية التي عقدها مع بيت علي رؤوساء الحموم وزعيمهم عوض بن عمر بن مجنّح العليي سنة ١٢١١هـ/ ١٧٩٧م، برعاية السادة آل العيدروس[١]. وقد منحت الاتفاقية للحموم الحقَّ في الخفارة البرية والبحرية، وجباية الضرائب على المزروعات (الكيلة)، وعلى الأسماك (الجدوح)، إلى جانب توفير الحماية لكل من يلوذ بهم، فضلًا عن إعفائهم من الضرائب، ومنحهم حرية التنقل بين الموانئ الخاضعة لنفوذ يافع، من بروم غرب الشحر إلى الريدة شرقًا. وبالمقابل يعترف الحموم بالوجود اليافعي في أراضيهم، وأن تكون الحدود والمواقع المتفق عليها بينهم (من بروم إلى الريدة) أراضي آمنةً بين الطرفين[٢]. وفي هذه الاتفاقية إشارة ضمنية لدخول آل كساد حكام المكلا والديس الشرقية ضمنها طرفًا ثالثًا يشمله الاتفاق. ولعلَّ ثمَّة اتفاقات بينهم سبقت هذه، لا سيما أنَّ هذه الاتفاقية المذكورة ليست الأولى بينهم، كما ذهب إليه بعض المؤرخين[٣].

هذا ووقَّع البريكي مع قبيلة العوابثة اتفاقيات مشابهة، ظلت مستمرة إلى عهود متأخرة من عمر السلطنة. ويتركز أفراد قبيلة العوابثة داخل المدينة في منطقتي (الخور) و(الرملة).

---

١ ينظر نص هذه الوثيقة عند: الملاحي، الصراع الحمومي القعيطي ص٢٢٣. وعنها أيضًا ينظر: الجوهي، إمارة آل بن بريك ص٥٦-٥٧.

٢ الجوهي، إمارة آل بن بريك ص٥٦، والملاحي، الصراع الحمومي القعيطي ص٢٢٣.

٣ الملاحي، ومعيلي، الصراع الحمومي القعيطي ص٢٢٤.

وهكذا نرى أنَّه مع بداية حكم (آل بن بريك) نعمت المدينة بالهدوء والاطمئنان، وخاصة من هجمات البدو واعتراضاتهم المستمرة للقوافل الذاهبة أو القادمة من حضرموت. كما تعايش الجميع حضرًا وبدوًا داخل المدينة وخارجها بسلام، واستفاد من هذا التعايش الطرفان معًا، وتعززت الشراكات التجارية بين رجالاتهم، ووجدت فئة الدلالين والوسطاء لنفسها داخل المدينة مرتعًا خصبًا لإبرام الصفقات وعقد الشراكات بين الأطراف المختلفة[1].

لقد أتاحت هذه الاتفاقيات لتجار المدينة التوسع في استثماراتهم، من خلال شراء البيوت والأراضي في عقر دار الحموم، وحظيت استثماراتهم وفقًا لتلك الاتفاقيات بالحماية والرعاية من الحموم أنفسهم. وبالمقابل أصبح البدو يتمتعون بامتيازات كبيرة داخل المدينة، إلا أن الكثير منهم كان عازفًا عن سكنى المدينة والتطبع بطبائع أهلها، باستثناء أفراد قلائل منهم.

تطلع آل بريك للسيطرة على غيل باوزير:

بعدما استتب لآل بن بريك أمر المدينة داخلها وخارجها، وأمنوا من سطوة الحموم ومشاغباتهم، أخذوا يتطلعون إلى التوسع، وكانت أعينهم يومئذ على غيل باوزير؛ لأهمية هذه المدينة اقتصاديًّا، إذ بها زراعة النخيل والتمباك (التبغ)، ولتأمين حدود

١ للمزيد من المعلومات عن الدلالين ودورهم في حضرموت، ينظر: الجعيدي، عبدالله، في رحاب تاريخ حضرموت الحديث والمعاصر ص١٠٦.

إمارتهم الغربية، وضمان عدم قدوم أي حملات انتقامية مباغتة قد يشنها عليهم حكام غيل باوزير من (آل بن همام) اليافعيين انتقامًا لحليفهم السابق في الشحر (ابن معوضة)، كما أنَّه في تلك المدة وقع تحالف بين ابن همام وقبيلة آل عمر باعمر[1]، وهو التحالف الذي زاد من قوة ابن همام العسكرية، واستثار طموحه للتحرش بآل بن بريك، وهذا التحرش من المحتمل أن يكون بإيعاز من الكساديين في المكلا منافسي البريكيين، إلا أنَّ القوة البريكية التي هاجمت غيل باوزير استطاعت السيطرة عليها بعد عدة مناوشات، وفرَّ حاكمها محسن بن جابر بن همام، الذي استنجد بحاكم المكلا النقيب عبدالرب الكسادي اليافعي[2].

وبعد استيلاء آل بن بريك على الغيل وفرار ابن همام منها، قام البريكيون بنفي الكثير من آل بن عمر باعمر إلى منطقة الريدة[3]، وفرَّ آخرون منهم إلى السواحل (شرق إفريقيا).

١ للتفصيل ينظر: الجوهي، إمارة آل بن بريك ص٥٨، وباحسن، نشر النفحات ص٤٦١.

٢ لمعرفة نشأة مدينة المكلا وتاريخها ينظر: إدام القوت ص ١٠٩ ومابعدها، والناخبي، شذور من مناجم الأحقاف ص٦٣. وقد تأسست إمارة الكسادي في المكلا سنة ١١١٥هـ/ ١٧٠٢م على يد مؤسسها أحمد بن سالم بن صلاح الكسادي. وهي أول إمارة يافعية في حضرموت. بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت العام ص١٠٨، وباوزير، أحمد، شهداء القصر ص٣٠، ولقب (النقيب) يطلق على كل أمير من آل كساد.

٣ السقاف، إدام القوت ص١٧٣.

بداية الصراع البريكي الكسادي:

إنَّ هذه الخطوة التوسعية التي قام بها آل بن بريك فضلًا عمَّا تحقق لهم من قبل من إنجازات كبيرة أمنية واقتصادية، جعلت من الكسادي حليفهم ونسيبهم السابق[1] يتوجس من إمارتهم الصاعدة، ويرتاب في نواياها وتطلعاتها المستقبلية، خاصة أنَّ للكسادي أيضًا مطامحه التمددية والتوسعية، بل يمكن القول بتطلعه للسيطرة على مدينة الشحر نفسها، التي شكلت بحكم موقعها المتوسط حاجزًا يفصل بين مناطق سيطرته ونفوذه، كما أنَّ التنافس التجاري البحري بين الإمارتين، ومحاولة كل منهما استقطاب التجار الأجانب والمحليين، ولَّد لديهما نوعًا من الحسد والحقد المكبوت، مع التربص بالآخر للنيل منه حالما تتأتى الفرصة. وقد وجد الكسادي الفرصة التي ينتظرها، فحينما استنجد به ابن همام حاكمُ الغيل، لم يتوانَ أو يتأخر لنصرته، وخرج النقيبُ الكساديُّ بنفسه على رأس قوة عسكرية، لإخراج آل بن بريك من الغيل، وكان يرافقه محسن بن همام. ويبدو أنَّ البريكيين علموا بخبر هذه القوَّة، واستعدوا لها قبل أن

---

١ ذكر المؤرخ عبدالرحمن السقاف نقلاً عن رواية المعمر أحمد بن مرعي بن علي بن ناجي (الثاني) بن بريك، ((أن صلاح بن سالم الكسادي كان في غيل بن يمين، فكثر شره، فطرده الشناظير منها، فألتجأ إلى علي بن ناجي الأول بن بريك بالشحر، فأجاره هو وأولاده الثلاثة: عبدالحبيب وعبدالرب وعبدالنبي. وكانت لصلاح بنت تُدعى (عائشة) جميلة الطلعة استهوت قلب علي ناجي، فطلب يدها، واستاء آل بريك من بنائه عليها، لما يعلمون من شيطنة صلاح، وخافوا أن يستولي بواسطة بنته على خاطر السلطان علي ناجي فيتنمر لهم، فبيتوا قتل صلاح بن سالم الكسادي، فغدر بهم علي ناجي. فذهب به إلى المكلا، وهي إذ ذاك خيصة للعكابرة وبني حسن، فبنى بها السلطان علي ناجي حصناً على ساحل البحر، سماه حصن عبدالنبي، احتفاظًا بالاسم لولده، وعاهد أهل المكلا لعمه صلاح بن سالم، وأجلسه مع عائلته)). إدام القوت ص١١٢-١١٣. وينظر ما قيل عن هذه الرواية في هامش ادام القوت ص١١٣.

تنطلق، إذ قاموا بخطوتهم الاستباقية ومباغتة القوة الكسادية المتمركزة في موضع (الحدبة) قريبًا من المكلا، وكان النصر حليفهم في هذا الهجوم، واضطر الكسادي للتراجع إلى مقر إقامته في المكلا تاركًا خلفه حليفه محسن بن همام مُضرَّجًا بدمائه. وفي هذه المعركة استولى آل بن بريك على الكثير من الأسلحة والمعدات الحربية التي خلَّفتها وراءَها القوَّةُ الكساديَّةُ المنهزمة، ليعود بها البريكيون غنيمةً إلى مركز إمارتهم مدينة الشحر[1].

وفي ردَّة فعل للهزيمة المنكرة وبدافع انتقامي، سعى النقيب الكسادي إلى استقدام قوة جديدة من يافع الجبل، قُدِّرَ عددها بـ(١.٢٠٠) مقاتل، وعزم على غزو مدينة الشحر معقل البريكيين، وحالما اقتربت هذه القوة من المدينة، آثرت المكث قليلًا بقرية (تبالة) لأجل التخطيط والتهيئة وتنظيم نفسها للبدء في شن هجومها. إلا أنَّ البريكي خلال مُدَّة مكث القوة الكسادية بقرية (تبالة) استطاع اختراق صفوفها وإثارة البلبلة والشقاق بين جنودها، وأفشل مخططهم[2]، فعادت تلك القوة الكسادية إلى مركزها بالمكلا تجر خلفها أذيال الخيبة والفشل.

وقد توفي الأمير علي بن ناجي بعد صلاة الجمعة في شهر ربيع الأول من سنة ١٢٢٠هـ/ يونيو١٨٠٥م، ودُفِنَ في قبة السيد سالم بن عمر بن عبدالله العطاس[3]، وهو

١ باحسن، نشر النفحات ص٤٦٢، وباوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٣٥، والجوهي، إمارة آل بن بريك ص٥٩-٦٠.

٢ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٣٥، والجوهي، إمارة آل بن بريك ص٦٠، وباحسن، نشر النفحات ص٤٦٢.

٣ باحسن، نشر النفحات المسكية ص٤٦٣. وتنظر ترجمة السيد سالم في المرجع المذكور ص٢٠٤.

أحد أولياء المدينة المشهورين، وله زيارة شهيرة تقام في النصف من محرم كلَّ عام[1]. وهذا الولي المجذوب تزوَّج في حياته بابنة عبود بن سالم بن قحطان بن بريك[2]، وهو شاهد آخر على عمق العلاقة والارتباط بين آل العطاس وآل بن بريك.

وبوفاة علي بن ناجي تولى الإمارة بعده أخوه الأمير حسين بن ناجي بن عمر (١٢٢٠-١٢٢٤هـ/ ١٨٠٥-١٨٠٩م)، ولم تستمر مدة حكمه إلا سنتين وشهرين، وسرعان ما آل الحكم لابن أخيه ناجي بن علي بن ناجي بن عمر[3]. وهذا الأمير حسين بن ناجي بن عمر توفي لاحقًا، ودُفِن أيضًا داخل قبَّة السيد الولي سالم بن عمر العطاس[4]، وهي القبة نفسها التي دُفِن فيها المرحوم صالح بن عبود بن قحطان بن بريك.

آل بن بريك وعلاقتهم بالولي العطاس وزيارته:

إنَّ دفن هؤلاء الأمراء البريكيين بقبة الولي سالم بن عمر العطاس فيه من كثير من الدلالات التي تبين لنا مدى الارتباط القوي والمتين بين آل بن بريك والعلويين آل العطاس[5]، فهم من ابتنى تلك القبة لتضم داخلها رفات الولي سالم بن عمر، ولتضم أيضًا قبورهم بعد وفاتهم، تمامًا مثلما فعل سلاطين آل كساد في المكلا ببنائهم قبة

١ لمعرفة تفاصيل هذه الزيارة ينظر: حداد، عبدالله صالح، زيارة الشحر وصاحبها العطاس، صحيفة شبام العددان ٢٣١، ٢٣٢، ١ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ/ ٣١ يوليو ٢٠٠٣م. ٨ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ/ ٦ أغسطس ٢٠٠٣م.

٢ نشر النفحات ص٢٠٦، ٢٠٧، وحداد، عبدالله، زيارة الشحر وصاحبها العطاس ص١٠.

٣ نشر النفحات، ص٤٦٣. وتنظر ترجمته في المرجع نفسه ص٢٠٤.

٤ تنظر ترجمته في نشر النفحات المسكية ص٢٠٤.

٥ عن بعض شواهد تلك العلاقة ينظر المرجع السابق، الصفحة نفسها.

يعقوب، وجعل قبورهم بجانب ضريح الشيخ يعقوب جد آل باوزير. وآل بن بريك هم أيضًا من سَنَّ تلك الزيارة الشهيرة للولي سالم بن عمر العطاس المذكورة سابقًا، في عهد أميرهم الثاني علي ناجي القحوم. وبحسب الرواة فإن الأمير علي ناجي القحوم لمَّا ((عقد العزم على القضاء على ابن معوضة، أشاع في الناس بأنَّه نذر على نفسه بأنَّه إذا تمكن من ابن معوضة أن يقيم قبةً على قبر الولي سالم العطاس، وأن يؤسس له زيارةً سنوية))[1]. وقد وفى بنذره بعد أن خلصت له وحده أمور البلاد.

ويورد المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف قصة تلك الزيارة، فيقول: ((عندما نشب خلاف بين علي ناجي ومحسن بن حسين، حول من يمسك بسدة الحكم في الشحر، نتيجة لهذا الخلاف انقسمت الأسرة الحاكمة إلى فريقين متنازعين ... وهنا وعد علي ناجي بأنَّه إذا آل الحكم إليه، سيعمل زيارة سنوية عظيمة لمقام سالم بن عمر العطاس، وقام بنشر الخبر على العامة عن طريق (الدَّلل)، وبعد أن تم الصلح بين المتنازعين وآل الحكم إلى علي بن ناجي، وفى بوعده ... ومن ذلك التاريخ تقام هذه الزيارة))[2].

وتشير بعض المراجع إلى أنَّ السيد سالم بن عمر العطاس هذا لعب دورًا كبيرًا في تثبيت سلطة آل بن بريك داخل المدينة، وإنهاء الصراع الدائر بينهم وبين بقية الفصائل اليافعية، في حين يشكك آخرون في هذا الأمر[3]، خاصة أنَّ هذا الولي (مجذوب)، وهم

---

١ حداد، عبدالله، زيارة الشحر وصاحبها العطاس ص٤.

٢ صحيفة الشرارة، العدد (٦٠١)، ٢٤ / ٨ / ١٩٨٨م، والجوهي، إمارة آل بن بريك ص١١٩.

٣ حداد، عبدالله، زيارة الشحر وصاحبها العطاس، صحيفة شبام العدد ٢٣١، مرجع سابق ص١٠.

يقصدون بهذه اللفظة معناها اللغوي وليس الصوفي[1]. إلا أنَّ الثابت يؤكد أن لأسرة آل العطاس الدور البارز في توطيد أركان تلك الدولة.

قدوم الفرق الوهابية:

خلال حكم آل بن بريك للشحر، وفي عهد أميرهم حسين بن ناجي بن عمر، قدمت إلى حضرموت فرقة استطلاعية من نَجْد تعتنق الفكر (الوهَّابي)، ولم تبلغ هذه الفرقة مدينة الشحر، إذ تصدَّى لها حال بلوغها مدينة شبام السلطانُ الكثيريُّ جعفرُ بن علي بن عمر بن جعفر بن علي بن عبدالله بن عمر بن بدر أبوطويرق (ت: ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م)[2].

١ المجذوب في اللغة يُجمَع على (مجذوبون) و(مجاذيب)، ومن معانيه المجنون. وقريب من معنى المجاذيب (البهاليل) التي وردت في مقدمة ابن خلدون (١/ ١٣٨). والمجذوب عند أهل التصوف هو ((من اصطنعه الحق لنفسه، واصطفاه لحضرة أُنسه، وطهَّره بماء قدسه، فحاز من المنح والمواهب، ما فاز به بجميع المقامات والمراتب، بلا كلفة المكاسب والمتاعب)). العجم، رفيق، موسوعة مصطلحات التصوف ص٨٣١، والكاشاني، عبدالرزاق، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق عبدالعال شاهين ص٩٦. والجذب أو الجذبة عندهم ((تقريب العبد بمقتضى العناية الإلهية المهيئة له كل مايحتاج إليه في طي المنازل إلى الحق بلا كلفة وسعى منه)). معجم اصطلاحات الصوفية ص٦٥، وموسوعة مصطلحات التصوف، مرجع سابق ص٢٤٦.

٢ تنظر ترجمته وخبر الحملة في: تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ١٢٠-١٢٢).

أمَّا الحملة الثانية لهذه الفرق الوهابية، والتي عُرِفَت تاريخيًّا بحملة (آل بن قملا)[1]، فقدمت إلى حضرموت سنة ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م[2]، وقد حالفها هذه المرة أفرادٌ من قبائل نهد ويافع وبعض الناقمين على الخرافات الصوفية من الحضارمة أنفسهم[3]. وكانت وجهة الحملة الأساسية (تريم) معقل التيار الصوفي في حضرموت. وهذه الحملة لم يعترضها أحد[4]، إذ إنَّ دافعها الرئيس والمحرِّكَ لها لم يكن سياسيًّا، وإنَّما كان عقدِيًّا، إذ عملوا خلال مدَّة مكوثهم التي قاربت أربعين يومًا، على هدم القباب الموجودة في تريم، وإحراق بعض كتب التصوف، كما نهوا الناس عن التبرك بالقبور، أو تقديم النذور لها،

---

١ اختلف المؤرخون في تحديد هوية مَنْ حملت تلك الحملة اسمه (ابن قملا)؛ فقد عدَّه المؤرخُ بامطرف أحدَ رؤساء قبيلة دهم اليمانية، وكان مرشدًا للجيش الوهابي في مسيره إلى حضرموت. أما خالد الجوهي، فيرى أنَّه مبعوث أو رسول سابق للوهابيين في حضرموت، ولقبه بالأمير علي بن قملا، وذكر أنه كان معه أخوه ناجي. ينظر: إمارة آل بن بريك ص٦١. وذكر المؤرخ سعيد باوزير في كتابه (صفحات من التاريخ الحضرمي) أنَّ من آل بن قملا أميرَ الدرعية في نجد (محمد بن حسين بن قملا). ينظر: ص٢٨٠. وأنَّ السلطان عوض بن عمر القعيطي استعان بالأمير منصور بن حسين بن قملا في محاولته السيطرة على الشحر. ص٢٩٤. وذكر المؤرخ مصطفى العطاس نقلًا عن العلامة علي بن حسين العطاس في كتابه تاج الأعراس، أنَّ قائد الحملة الوهابية سنة ١٢٢٤هـ يُدعى ناجي بن قملا، ودارت بينه وبين آل العطاس وقبائل وادي عمد اشتباكات في موقعة (بحران). تنظر تفاصيلها في: صفحات مجهولة من تاريخ حضرموت ص٨٧.

٢ يرى الجوهي أنَّ هذه الحملة قدمت سنة ١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م. وهذا يعني أن قدومها في عهد أمير الشحر حسين بن ناجي، وليس في عهد ابن أخيه ناجي بن علي بن ناجي. ينظر: إمارة آل بن بريك ص٦١.

٣ بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت العام ص١٠٨.

٤ ذكر المؤرخ مصطفى العطاس نقلاً عن المؤرخ علي بن حسين العطاس أن هذه الحملة تم اعتراضها ومقاومتها من قبل آل العطاس وقبائل وادي عمد. ينظر: صفحات مجهولة من تاريخ حضرموت ص٨٧-٩٠. وهذا يخالف ما قيل عن العلويين إنهم نزعوا السلاح من زمن، وإن كان الواقع يؤكد عدم حملهم للسلاح. بامطرف، المرجع السابق ص١٠٩ .

ومنعوا أيضًا إقامة زيارات الأولياء أو الاحتفالات الشعبية بالقرب منها، كما منعوا إقامة الرواتب والحضرات في المساجد والزوايا[1]. وكان هذا في عهد السلطان الكثيري علي بن عمر بن جعفر بن بدر[2].

وقد وصلت فرقة من أولئك الوهابيين إلى مدينة الشحر، وكان حاكمها يومها الأمير ناجي بن علي بن ناجي الذي سبق ذكره، وقد أقامت هذه الفرقة معسكرًا لها في قرية (شكلنزة)[3] القريبة من مدينة الشحر، ثم بدأت جماعات منها تتسلل إلى داخل المدينة، إلى أن ازدادت أعدادهم، فأقاموا معسكرًا آخرَ في حارة (الخور)، ولم يفعلوا شيئًا داخل المدينة، ثم انصرفوا، وعادوا إلى نجران عن طريق العبر[4].

وقد ذكر المؤرخ (عبدالله باحسن جمل الليل) أنَّ هذه الفرقة الوهابية في أثناء مكوثها في قرية (شكلنزة) حاول أميرها (علي)[5] دخول المدينة متنكرًا، فاعترضه في الطريق رجلٌ من بيت شنين، وقتله بطعنة رمح، ليدفن بعدها في مقبرة الشيخ فضل خارج سور المدينة[6].

---

١ بامطرف، المرجع السابق ص١٠٩ .

٢ بامطرف، المرجع السابق ص١٠٩ . وعند ابن هاشم أن حملة آل بن قملا كانت في أيام السلطان علي بن بدر بن علي بن عمر بن جعفر. ينظر: تاريخ الدولة الكثيرية ص١٢٢.

٣ باحسن، نشر النفحات المسكية ص٤٦٣ .

٤ بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت ص١٠٩ .

٥ عند الجوهي: (علي بن قملا). إمارة آل بن بريك ص٦١ .

٦ باحسن، عبدالله، نشر النفحات المسكية في أخبار الشحر المحمية ص٤٦٣ . وأورد الباحث خالد الجوهي نقلاً عن مخطوطة باحسن (نشر النفحات)، روايةً تقول : ((وفي هذه المرحلة وصل أحد الوهابيين متنكرًا إلى مدينة الشحر تحت اسم مستعار، يُدعى (فارس بن محمد)، فاعترضه أحد قبائل بيت شنين من الحموم، فطعنه برمح، ودُفِنَ بمقبرة فضل بن عبدالله بافضل)). الجوهي، خالد، إمارة آل بن بريك ص٦١-٦٢. وهي الرواية نفسها التي أوردها المؤرخ سعيد باوزير في كتابه (صفحات من التاريخ الحضرمي) ص٢٣٧.

أمَّا الحملة الثالثة[1] فجاءت عن طريق البحر، حين رست قبالة شواطئ المدينة خمس وعشرون خشبةً مليئةً بالمقاتلين[2]، ولم يعترضها أحد من حكام آل بن بريك أو سواهم في هذه المرة أيضًا، فهدموا القباب والقبور المجصَّصة التي كانت منتشرة بكثرة في المدينة، وقاموا بخلع بعض أبواب المساجد وكسر التوابيت التي تغطي بعض القبور أو المشاهد الخاصة بأولياء المدينة وعظمائها من السلاطين السابقين، كما قاموا بشحن بعض الأبواب والتوابيت في إحدى سفنهم، إيذانًا منهم بالرحيل بعد أن مكثوا في المدينة أيضًا قرابة أربعين يومًا[3].

وما كادت سفنهم تبلغ منطقة (ثغر مرير) غرب المدينة[4]، حتى احترقت السفينة المحمَّلة بالأخشاب والتوابيت، لتغرق في البحر ومعها عدد من تلك التوابيت والأبواب التي قذفت بها الأمواج إلى ساحل المدينة قريبًا منها، وأخذها الناس، ورُدَّت إلى أماكنها[5]،

١ ذكر الباحث خالد الجوهي أن الحملات الوهابية الثلاث هي: الأولى سنة ١٢١٩هـ، والثانية سنة ١٢٢٣هـ، وهي المشهورة بحملة ابن قملا. والثالثة هذه وكانت عنده سنة ١٢٢٤هـ. ينظر: إمارة آل بن بريك ص٦١. وبالرغم من إشارة المؤرخ محمد بن هاشم إلى وجود ثلاث حملات للوهابية على حضرموت، إلا أنه ذكر فقط الحملتين السابقتين، ولعل الثالثة تلك التي قصد بها حملة (حسن وهبة المكرمي)، والتي قدم بها من البحرين، ليغزو بها حضرموت، وكان هذا في النصف الأخير من القرن الثاني عشر الهجري. ينظر عنها: تاريخ الدولة الكثيرية ص١٢٥. أما بامطرف فلم يذكرها في مختصره.

٢ السقاف، إدام القوت ص١٧٣. وفيه أنَّ من أرسلهم هو الملك عبدالعزيز بن سعود آل سعود.

٣ السقاف، إدام القوت ص١٧٣.

٤ عند باحسن: (ثغر مديد). ينظر: نشر النفحات المسكية ص٤٦٥. و(مديد) هذا لاندري أين موقعه، فلعل في الاسم تصحيفًا، والمقصود منطقة (مرير) التي تبعد عن المدينة قرابة كيلومترين غربًا. وقد وردت عند المؤرخ سعيد باوزير في أثناء استعراضه لرواية باحسن هذه، هكذا: (ثغر مرير). ينظر: صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٣٩.

٥ باحسن، نشر النفحات المسكية ص٤٦٥.

وعدَّ المتضررون من تلك الفعلة حادثَ غرق هذه السفينة من الكرامات الخاصة بأوليائهم الموصوفين بـ(الهتفة)[1].

عدم مقاومة البريكيين للوهابيين:

إنَّ الموقف المبهم لحاكم الشحر ناجي بن علي بن ناجي، ومعه آل بن بريك، بل ويافع أيضًا، في عدم التصدي لهذه القوة المعتدية أو مقاومتها، جعل الباحث (خالد الجوهي) المؤرخ لـ(إمارة آل بن بريك) يبحث عن مبررات له، وقد لخصها في ثلاثة أسباب، نوجزها في الآتي:

١- رؤية آل بن بريك أنَّ الوهابيين ليسوا بغزاة، وأنَّ قدومهم كان لاعتبارات عقدية.

٢- التحديات الداخلية التي واجهت الأمير ناجي بن علي، خاصة أنَّ قدوم هذه الحملة كان مع بدء استلامه الإمارة.

٣- رغبة الأمير البريكي في الحفاظ على قواته وعدم استنزافها في خوض صراع كهذا، فهو في أمسِّ الحاجة لقواته، لصد هجمات منافسه الكسادي[2].

وفي الحقيقة نرى أنَّ هذه التبريرات غير مقنعة، إذ لو قيلت في تبرير الحملة السابقة (الحملة الثانية) لكان لها وجهٌ، وذلك لاعتبارات عدَّة، منها: أنَّ تلك الحملة (الثانية) لم تستهدف أصلًا القباب والتوابيت، ولم تأخذ معها شيئًا من أبواب المساجد بعد خلعها. ولا يخفى ما لهذه الأفعال من استفزاز كبير لمشاعر العامة في تلك الحقبة الذين كان لهم

١ (الهتفة) في الإصطلاح العامي: أذى أو ضرر ينال كلَّ مَنْ مسَّ بسوء ضريحًا أو مشهدًا أو مُلكًا من أملاك الولي الصالح، فتصيبه هذه الهتفة (اللعنة) التي مصدرها الولي، حتى وإن كان هذا الولي متوفى.

٢ الجوهي، خالد، إمارة آل بن بريك ص٦٣.

اعتقاد في الأولياء ومقاماتهم، كما أن حاكم الإمارة في أثناء الحملة الثانية هو على الأرجح الأمير حسين بن ناجي، الزاهد أصلًا في الحكم، وليس لديه رغبة في الدخول في حروب أو نزاعات على الملك، فهو الذي تنازل عن الحكم لابن أخيه علي بن ناجي، بعد تلك الحملة مباشرة، وربما كان تنازله بتأثير من السادة آل العطاس، بعد أن رأى الجميع ضعف شخصيته وعدم حزمه وعدم مقدرته على إدارة شؤون الإمارة كما ينبغي.

أما مع وجود الأمير القوي ناجي علي بن ناجي، فالأمر جدٌّ مختلف، فإمَّا أن يكون هذا الأمير موافقًا للوهابيين في آرائهم، ومؤيدًا لهم في تلك الأفعال التي استهدفت في المقام الأول ما كان حلفاؤه العلويون (آل الشيخ أبي بكر بن سالم) و(آل العطاس) يسعون لتثبيته وترسيخه في المدينة من عقائد وأفكار وممارسات وطقوس تجلهم وتبجلهم، وإمَّا أنَّه أُجبِرَ على عدم الاعتراض والقبول بالإهانة في دار ملكه، لا سيما أنَّ القوة التي قدمت هذه المرة (الحملة الثالثة) ليست بالهينة أو قليلة العدد والعدَّة، كما أنَّ هذه القوة اقتحمت المدينة مباشرةً عبر مينائها، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن حامية الميناء الموجودة، خاصة أنَّ وضع الإمارة في تلك الحقبة يشير لوجود صراعات مستمرة واستنفار دائم، سببه على الأغلب خصمهم الكسادي حاكم المكلا. فلماذا لم يقاوم الوهابيين أحد؟! إلا إن كان ثمة خلل ما في هذه الحامية! أو إنَّ تأثير الفكر الوهابي نفسه قد بدأ يتغلغل في صفوف شرائح المجتمع، بمن فيهم أفراد من الحاميات اليافعية نفسها داخل المدينة. وهذا إنْ صحَّ فإنَّه سيفسر لنا السبب الذي جعل من حاكم الإمارة الجديد يُسلِّم بالأمر ويذعن له، إذ لا مناصر لديه، وأمَّا العلويون فمعروف عنهم ميلهم للسلم والركون إليه حتى وإن كان على حساب طموحاتهم.

وقد أشرت سابقًا إلى أن الوهابيين حينما دخلوا (حضرموت الوادي) في حملتهم سنة ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م، ناصرتهم هناك جماعات كبيرة من قبائل نهد ومن يافع أيضًا، ومعهم النفر الناقمون على الخرافات الصوفية في حضرموت[١].

ويبقى التبرير الأخير، وهو احتمال أن قدوم هذه الحملة الثالثة كان سنة ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م، أي زمن الحملة الثانية، وقد التبس الأمر على بعض المؤرخين، وأنَّ الحاكم على المدينة حينها لم يكن الأمير القوي ناجي بن علي بن ناجي، وإنَّما عمُّه الأمير حسين بن ناجي الذي تدروش وزهد في الحكم لاحقًا[٢]، وأنَّه بسبب تخاذله وجبنه عن التصدي لهذه الحملة، تم الضغط عليه وإعفاؤه من الإمارة، وتنصيب ابن أخيه القوي (ناجي) بدلًا منه في العام نفسه (١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م)، وأنَّ الأمر ليس كما شاع في الروايات المحلية من القول بتنازله رغبةً وطواعيةً لابن أخيه.

ومن اللافت للنظر ممَّا أشارت إليه بعض المراجع، أنَّ آل العطاس في وادي عَمْد، قاوموا، وإلى جانبهم قبائل تلك الناحية، الفرقةَ الوهابيةَ التي قدمت سنة ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م، وكان قائد المقاومة علي بن جعفر العطاس[٣]. في حين لم يقاومهم آل العطاس ولا آل بن بريك في مدينة الشحر.

---

١ بامطرف، محمد، المختصر في تاريخ حضرموت العام ص١٠٨-١٠٩.

٢ لفظة (تدروش) هذه أوردها المؤرخ محمد بامطرف، في كتابه: المعلم عبدالحق ص٧٤. وتعني أن هذا السلطان نزع عنه ثياب الملك، وارتدى ثياب الدراويش. ووصف بامطرف في الصفحة نفسها هذا السلطان أيضًا بـ(المجذوب).

٣ للتفصيل ينظر: صفحات مجهولة من تاريخ حضرموت ص٨٧.

عودة للصراع البريكي الكسادي:

خلال صراعه مع آل بن بريك قام النقيب عبدالرب الكسادي سنة ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م بمحاولات عدة لتعويض خسائره المتتالية أمام البريكيين، منها اعتراض السفن والمراكب التجارية القادمة من شرق إفريقيا ومصادرتها، وخاصة السفن التابعة لتجار الشحر، والاستيلاء على ما فيها من بضائع وسلع[١]. وهذا الأمر دفع بالبريكي إلى أن يُسيِّر حملةً عسكريةً قويةً باتجاه مدينة المكلا (معقل الكسادي)، وهذه المرة نجد أنَّ النقيب الكسادي قد استعد استعدادًا جيدًا، وكمن لقوات البريكي في منطقة (الحرشيات)، لتدور بين الطرفين معركة طاحنة، كاد ينهزم فيها البريكي لولا شجاعته وبسالة قواته التي حسمت المعركة لمصلحتهم، وتقهقر جيش الكسادي وقائده النقيب عبدالحبيب بن صلاح الكسادي[٢] إلى منطقتي (البقرين) و(الديس)، مُخلِّفًا وراءه الكثير من أسلحته ومعداته التي غنمها جيش البريكي.

وبعد هذا النصر استولى البريكيون على (الحرشيات)، مما يعني تقلص رقعة نفوذ خصمهم الكسادي. ولم يكتف البريكيون بما تحقق لهم من مكاسب، بل واصلوا تقدمهم وهجومهم على مدينة المكلا نفسها، وحاصروها أولًا من جهة الجبال، ثم دكُّوها بالمدافع، كما عمدوا إلى قطع مياه الشرب عنها ليضيِّقوا على أهلها، وبسبب هذا لم تفلح المحاولات الاستبسالية للنقيب أحمد بن عبدالرب بن صلاح الكسادي لصد هذا الهجوم، بل لقي حتفه فيه[٣].

---

١ ينظر للتفصيل: الجوهي،إمارة آل بن بريك ص٦٣.

٢ باحسن، عبدالله، نشر النفحات المسكية ص٤٦٤.

٣ باوزير، سعيد،صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٣٧-٢٣٨، والجوهي، إمارة آل بن بريك ص٦٤.

وإزاء هذا الوضع المتفاقم لم يجد النقيب الكسادي بُدًّا من اللجوء إلى الوساطات والمصلحين؛ علهم يبعدون شبح آل بن بريك عن عاصمة إمارته. وبالفعل تمَّ، برعاية وسطاء من آل العيدروس وآل عمر باعمر، اتفاقٌ بين الطرفين، يقضي بأن يعيد النقيب الكسادي كل السفن والمنهوبات التي استولى عليها من تجار الشحر، ومضاعفة ثمن ما أُتلِفَ من بضائع تخص أولئك التجار، وبالمقابل يعود آل بن بريك إلى حدود إمارتهم السابقة[1].

ولا ندري لماذا قبل آل بن بريك بهذا الصلح والانسحاب، وأضاعوا فرصة ثمينة جدًّا للاستيلاء على عاصمة الكساديين بعد أن أصبحت قاب قوسين أو أدنى من السقوط في أيديهم! بل أضاعوا معها المراكز التي استولوا عليها في الحرشيات والبقرين! إنَّ انسحابهم هذا يعني إعطاء الكساديين الفرصةَ للملمة صفوفهم، وإعادة تنظيم قواتهم لممارسة المزيد من الأفعال العدائية.

وبالفعل ففي سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م، جمع الكسادي مرة أخرى قوةً قُدِّرَ عددُها بـ(٥٠٠٠) مقاتل، وتوجه بها قاصدًا الشحر، فعسكر أولًا في قرية تبالة، ولم يستطع البريكي هذه المرة اختراق هذه القوة وتمزيق صفوفها، كما صنع بسابقتها، ومن الواضح أنَّ النقيب الكسادي قد استفاد من أخطاء حملته السابقة وتحاشاها، إلا أنَّ عدم مبادرته بالهجوم جعل البريكي يبادر بالخروج إليه مباشرة، بكامل قواته بدلًا من انتظار مهاجمة خصمه له، وتلاقى الجيشان في موضع قريب من المدينة، يُقال له (المشراف)، وكان

١ باحسن، نشر النفحات ص٤٦٤-٤٦٥، وباوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٣٨، والجوهي، إمارة آل بن بريك ص٦٥.

النصر حليفًا للقوة البريكية، إذ تمكنت في نهاية المعركة من دحر القوة الكسادية، وإرغامها على العودة من حيث أتت[1].

وهكذا استمرت الإمارتان تناصب إحداهما الأخرى العداء، بالرغم من المساعي التي حاولت إطفاء نار الفتنة المشتعلة بينهما. فقد حاول بعضُ السادة العلويين التدخلَ في هذا الصراع وحلَّه بين الطرفين، ومن ذلك محاولة الإمام طاهر بن الحسين العلوي (ت:١٢٤١هـ/ ١٨٢٥م)[2] الذي أرسل مبعوثَه الشيخ سعيد بن محمد الزبيدي؛ من أجل الصلح بين الإمارتين، إلا أنَّ مساعيه لم تنجح، بالرغم من تعدد المكاتبات والرسائل التي كان الإمام طاهر يرسلها لطرفي النزاع[3]. وهناك وساطة أخرى تبنَّاها حاكمُ مسقط السلطانُ سعيد بن سلطان، إذ وفد إليه سنة ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م الأميرُ البريكيُّ ناجي بن علي، والنقيبُ عبدالرب الكساديُّ[4]؛ للتفاوض فيما بينهم. وخلال مدة التفاوض هذه مرض أمير الشحر ناجي بن علي بن بريك، وتوفِّي، ودُفِنَ في قرية (سداب) بمسقط[5].

---

١ باحسن، عبدالله، نشر النفحات المسكية ص٤٦٥، وباوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٣٨.

٢ تنظر ترجمته وأخباره في: تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ١٢٧)، والجوهي، إمارة آل بن بريك ص٦٦.

٣ ينظر نص الرسالتين الموجهتين إلى الكسادي والبريكي في تاريخ الدولة الكثيرية (١/ ١٣٢-١٣٤)، وإمارة آل بن بريك ص٦٧-٦٩.

٤ يبدو أن هذه الوساطة العمانية ليست الأولى التي تجمع الطرفين، فقد ذكر المؤرخ عبدالله باحسن في كتابه (نشر النفحات المسكية) أن المدة من ١٢٢٢هـ -١٢٤٣هـ تخللتها مفاوضات بين الطرفين. ينظر: ص٤٦٦.

٥ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٣٩، والجوهي، إمارة آل بن بريك ص٧٠. وعند المؤرخ بامطرف أن الذي قام بهذه المفاوضات وتوفي في مسقط في التاريخ نفسه (١٢٤٣هـ) هو علي ناجي الأول. وهذا وهم. تنظر ترجمة علي ناجي في: الجامع ص٤٠٢.

وبعد موت الأمير ناجي بن علي بن ناجي سنة ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م[١]،عُيِّنَ ابنُه الأميرُ علي بن ناجي بن علي (الثاني) حاكمًا على الشحر، وكان هذا الأمير وقتها صغيرًا في السن[٢]، فنازعه في الحكم محسن بن حسين بن ناجي بن بريك[٣]، لتعصف الصراعات والانقسامات بالأسرة البريكية، وبجيشها أيضًا. واستعر أوار هذه الفتنة سنة ١٢٤٨هـ/ ١٨٣١م، وفيها انقسمت المدينة على قسمين؛ الجانب الشرقي مع الأمير محسن بن حسين، ومركزه (رباط بن جوبان)[٤]، والجانب الآخر مع الأمير علي بن ناجي، وكانت المدافع والبنادق تدوي ليل نهار من مواقع الطرفين وحصونهما. وأضرَّت هذه الفتنة بالبلاد والعباد، وتعطلت بسببها مصالح الناس، واضطر الكثيرون لمغادرة المدينة.

واستمرت المناوشات دون أن تُحسم لمصلحة أحد الفريقين، فكان لا بد من تدخل جهة ثالثة لإنهاء هذا الصراع الدموي المستعر، وإنقاذ الإمارة البريكية من الفناء. وهنا تدخَّل بعضُ عقلاء آل بن بريك ومعهم العلويون آل العطاس لفضِّ هذا النزاع، وتم

١ في إدام القوت أنه توفي سنة ١٢٤٢هـ. ينظر: ص١٧٤.

٢ يرى الباحث الجوهي أن هذا الأمير استلم الإمارة في سن مبكرة دون الثلاثين من العمر. تنظر تفاصيل حكم هذا الأمير، في: الجوهي، إمارة آل بن بريك ص٧٣.

٣ يرى الباحث الجوهي أن الصراع بين الطرفين لم يكن على الحكم، وإنما له دوافع أخرى، ناقشها بإسهاب. ينظر: إمارة آل بن بريك ص٧٣-٧٤.

٤ باحسن، عبدالله، نشر النفحات المسكية ص٤٦٦، والجوهي، إمارة آل بن بريك ص٧٥. والقول بأن مركز محسن كان (رباط بن جوبان) يفيد بأن تمركزه كان خارج السور الشرقي القديم للمدينة، إلا إذا كان هذا السور القديم الذي جدده لاحقًا السلطان القعيطي، غير موجود في ذلك المكان، وفي ذلك العهد تحديدًا.

الصلح على أن يكون الأمير علي بن ناجي (الثاني) حاكمًا على الإمارة دون منازع[1]، وكان هذا يوم الخميس الرابع من ذي الحجة ١٢٤٨هـ/ ٢٥ أبريل ١٨٣٣م[2].

زيارة الإنجليزي الكابتن هينس:

في عهد الأمير علي بن ناجي (الثاني) كانت زيارة الكابتن الإنجليزي (هينس) للمنطقة سنة ١٢٤٩هـ/ ١٨٣٤م، وقد وصف هذا الأميرَ بأنّه ((يحتل مكانةً عاليةً بين نظرائه من الزعماء، وأن بإمكانه أن يجمع ويقود جيشًا يبلغ (٧٠٠٠) مقاتل في حالة الحرب))[3]. وفي عهده أيضًا حوالي سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م احتل هذا الأمير (شحير)، وجعل عليها رجلًا من آل البطاطي، وظلّت (شحير) تحت أيديهم إلى نهاية دولتهم[4].

بن سهل يسك عملته:

وفي عهد هذا الأمير قام الثري والمحسن السيد حسين بن عبدالرحمن بن سهل (ت:١٢٧٤هـ/ ١٨٥٨م)[5] بسك العملة النقدية المنسوبة إليه (عملة بن سهل)، وهي خمسيات ودواوين فضية ونحاسية، وذلك سنة ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م، وتم تداولها داخل

١ باحسن، عبدالله، نشر النفحات المسكية ص٤٦٦. ولمعرفة المزيد عن بنود هذا الاتفاق ينظر: الجوهي، خالد، إمارة آل بن بريك ص٧٥.

٢ الجوهي، إمارة آل بن بريك ص٧٥.

٣ الجوهي، إمارة آل بن بريك ص٧٣.

٤ السقاف، إدام القوت ص١٣٩.

٥ تنظر ترجمته في: السقاف، إدام القوت ص٢١٠، والجوهي، إمارة آل بن بريك ص١٢٧.

المدينة وفي بعض مناطق حضرموت كتريم[1]، كما قام بن سهل أيضًا بتجديد عمارة مسجد الجامع ومسجد عيديد بالمدينة. وقد توفي هذا السيد في مدينة الشحر، ودُفِنَ في قبَّة عبدالله باهارون[2].

وهذه العملة المنسوبة لابن سهل استبدل بها لاحقًا السلطانُ عوض بن عمر القعيطي في أواخر سنة ١٢٩٣هـ/ اواخر ١٨٧٦م، الروبيةَ الهنديةَ وكسورَها (الحرف، البيسة، الأردي)[3].

١ الشاطري، أدوار التاريخ (١/ ٣٩٧). وفيه أن بن سهل ((جزَّأ الريال النمساوي إلى عشرين وحدة فضية وعشر وخمس، يساوي مجموع كل من هذه الوحدات نصف ريال نمساوي، أي نصف أوقية تقريبًا وزنًا، ويضاهي الريال قيمة حوالي مائة وعشرين سنتًا يسمى السنت خمسية)).

٢ الجوهي، إمارة آل بن بريك ص١٢٧.

٣ حداد، عبدالله، رجال الشحر في شرق إفريقيا ص٩٧. وعن العملات المستعملة في عهد السلطنة القعيطية ينظر: إنجرامس، تقرير حول الحالة في حضرموت ص١٧.

قدوم جنرالات الجيش العربي في نظام حيدر آباد وتأسيس دويلاتهم في حضرموت

وفي عهد الأمير علي بن ناجي بن بريك (الثاني) برز على الساحة السياسية الحضرمية عددٌ من الشخصيات التي أثَّرت في مجريات الأحداث، وغيَّرت وجه الخارطة السياسية لحضرموت عامة. وأبرز هذه الشخصيات هم ذوو الرتب العسكرية الذين خدموا في الجيش العربي لنظام حيدرآباد، وهم غالب بن محسن الكثيري، وكانت رتبته (غالب الدولة)، وعبدالله بن علي العولقي، ورتبته (سيف الدولة)، والجمعدار عوض بن عمر القعيطي، ورتبته (نواز جنج).

هؤلاء الثلاثة استطاعوا خلال إقامتهم في الهند جَنْيَ أموالٍ طائلة، وامتلاك إقطاعات كبيرة وعبيد، وبأموالهم الطائلة تلك، وعن طريق أعوان لهم ووكلاء في حضرموت، استطاعوا، بخُطط متشابهة، التمددَ قليلًا قليلًا في حضرموت، من خلال البدء بشراء الحصون والقلاع، ثم القرى والمدن، لتكون هذه الأماكن نقاط ارتكاز للتوسع القادم الذي خطط له هؤلاء الكبار منفردين لتأسيس دويلاتهم.

اشترى الحاج عمر بن عوض القعيطي (ت:١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م) المقيم في الهند، عبر وسطائه، قرية (الريضة) في القطن، اشتراها سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩هـ[1] من آل

---

١ بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت العام ص١٢٨، والبطاطي، عبدالخالق، إثبات ما ليس بمثبوت ص٣٠.

العيدروس العلويين، ثم أرسل إليها أبناءه الأربعة، وكان أبرزهم الجمعدار عوض بن عمر القعيطي، وذلك تمهيدًا للاستيلاء على سائر مدن حضرموت وقراها. وتم لهؤلاء الأبناء بعدها شراء نصف مدينة شبام من حاكمها السلطان منصور بن عمر الكثيري، وبعد ذلك أجهزوا عليه، وسيطروا على باقي شبام، وكان هذا سنة ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م.

أمَّا غالب بن محسن الكثيري[1] المقيم أيضًا في الهند، فقد اشترى أولًا، عن طريق عمه علي بن أحمد الكثيري وعبود بن سالم الكثيري، قريةَ (الغرف) من آل تميم، سنة ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م، تمهيدًا لإحياء الدولة الكثيرية، واستئصال يافع. وقد استطاع لاحقًا السيطرة على تريم سنة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م، وعلى سيئون سنة ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م، وعلى تريس سنة ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م، بعد أن طرد الحكام اليافعيين منها. وخلال تلك المدة عمل آلُ كثير على استمالة القبائل الحضرمية إلى جانبهم، وتأليبها ضد الوجود اليافعي في حضرموت، بإثارة النعرات القبلية. وقد انحازت إليه عدة من القبائل الحضرمية. وكردة فعل لتلك الدعاوى التي أطلقها آل كثير، انحازت العشائر اليافعية إلى بعضها، ووحَّدت سواعدها وكلمتها، بعد أن طغت على علاقاتهم الصراعات والاقتتال، كما بدأت الأموال والمساعدات تنهال عليهم من إخوتهم في (حيدرآباد)، وتشد عضدهم، فأصبحت يافع بهذا قوةً قبليةً كبيرةً لا يُستهان بها في حضرموت عامة[2].

١ تنظر ترجمة موسعة له عند: باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٤٤-٢٥٤.

٢ باوزير، أحمد، شهداء القصر ص٣٣.

أمَّا عبدالله بن علي العولقي[1] فاشترى أولًا حصنًا بقرية الحزم (الصداع) من آل بن بريك سنة ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م[2]، تمهيدًا للاستيلاء على غيل باوزير وما يجاورها، إلا أنَّه لم يستطع إتمام مخططه، إذ توفي سنة ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م[3]، فخلفه ابنُه الضابط أيضًا في جيش حيدر آباد محسن بن عبدالله العولقي، ورتبته (مقدم جنج)[4]. وهو أيضًا لم يستطع التمدد، فاكتفى بتقديم الدعم اللوجستي لكل من ناصب القعيطي العداء إلى أن تحين له فرصة.

وقد أشار المؤرخ عبدالله باحسن إلى أنَّ العولقي حينما كان في الهند حاول بأمواله الطائلة دعم الحملة الكثيرية لغزو الشحر سنة ١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م[5].

---

١ تنظر ترجمته عند: بامطرف، الجامع ص٣٤٠، وحداد، عبدالله، معجم شعراء العامية الحضارمة ص١٨٦.

٢ يرى المؤرخ محمد بامطرف أن العولقي اشترى قرية الحزم كاملة، وليس حصنًا فيها. ينظر: المختصر في تاريخ حضرموت العام ص١٢٨-١٢٩، وفي سبيل الحكم ص٣١. ويرى المؤرخ عبدالخالق البطاطي أن العولقي قدم أولاً إلى الشحر، وسكن بها وبنى فيها بيته المشهور قبالة بيت وكيله وصديقه (بن عبادي)، على الضفة الغربية لمسيال سمعون، ثم اشترى معيان الصداع من الشيخ (أحمد بن عبدالملك) لسقي زراعته ونخيله هناك، وليس القرية كلها التي كانت تابعة وقتها لآل العطيشي باوزير. وحينما أراد بناء حصنه في تلك الأرض، استأذن من الأمير (علي بن ناجي)، فأذن له، وكان يوالي آل بن بريك حتى انتهاء دولتهم، فتحول إلى موالاة آل كثير نكاية بعدوه القعيطي. ينظر: إثبات ما ليس بمثبوت ص٢٣-٢٤. ويرى المؤرخ عبدالله باحسن أن العولقي بنى حصنه سنه ١٢٦٠هـ. ينظر: نشر النفحات المسكية ص٤٧١. أي قبل عشرين سنة من التاريخ الذي ذكره المؤرخ بامطرف لشراء قرية الحزم. وهو ما نفاه المؤرخ البطاطي.

٣ وفاته عند حداد في صفر ١٢٨٥هـ. ينظر: معجم شعراء العامية ص١٨٦م.

٤ بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت العام ص١٢٩.

٥ باحسن، نشر النفحات المسكية ص٤٦٧.

التحالف البريكي الكسادي:

لقد كان الطمع والحقد والتنافس بين أولئك الثلاثة على أشد ما يكون، وكلٌّ منهم يحاول التوسع وإزالة كل عائق يقف أمام أطماعه غير آبه لحكام المنطقة السابقين، وكانت أنظار الثلاثة مُصوَّبةً نحو الساحل وكيفية بلوغه والسيطرة عليه. وهنا أدرك حكام الساحل (البريكيون والكساديون) أن الأمور لم تعد كما كانت، وأنَّ الصراعات التي لا تنتهي بينهم لا بُدَّ من حلها، وأنَّ التحالف حفاظًا على مصالحهم المشتركة أنسبُ لهم من العداء والتناحر، كيلا يخسر جميعهم بوجود هؤلاء المنافسين الجُدد. وهكذا بدأت الإمارتان في عقد تحالفات، منها الاتفاقية التي عُقِدت في مدينة غيل باوزير بين الأمير علي ناجي والنقيب محمد عبدالحبيب الكسادي، وتنص على ((وجوب مساعدة كلٍّ منهما للآخر عند أي هجوم مسلح على المناطق التابعة لهما))[1].

وقد ذهب عدد من المؤرخين إلى أنَّ هذا التحالف (الاتفاق) عُقِدَ في المدة التي كانت فيها جموع آل كثير وحلفائهم تحاصر مدينة الشحر، نقلًا عن المؤرخ باحسن[2]. وفي ظني أنَّ هذا وهم؛ إذ إنَّ مثل هذا التحالف والتعاضد لا بد أن يكون سابقًا بكثير لوصول تلك الحملة الكثيرية ومحاصرتها المدينة، خاصة أنَّ هاتين الإمارتين قد تحالفتا قبل هذه

١ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٤١. ونص الاتفاق عند باحسن: ((واتفق المذكوران (يقصد الكسادي والبريكي) بغيل باوزير، وترابطا وتعاهدا أن يكونا كرجل واحد، وأن البندرين، أعني الشحر والمكلا، كالبندر الواحد، ومتى وصلت الأقوام والتجاهيز إلى المكلا فالدولة علي بن ناجي سعد النقيب، والنقيب سعد علي ناجي كذلك، وعليه ترابطوا وتعاقدوا وتعاهدوا)). نشر النفحات المسكية ص٤٦٨.

٢ نشر النفحات المسكية ص٤٦٨. وينظر: الجوهي، إمارة آل بن بريك، ص٨٥.

المدة، حين قطعوا الإمدادت والتموينات الذاهبة إلى مناطق حضرموت الداخل، للضغط على آل كثير، بعد أن بدأ آل كثير في السيطرة على معظم مناطق الداخل وطرد يافع منها. وهو ما دفع آل كثير إلى النزول بقواتهم ومحاصرة الساحل، في محاولة منهم لاحتلال مناطقه، وطرد يافع[1].

محاولات الكثيري للسيطرة على الساحل والاستعانة بالعثمانيين:

إنَّ مثل ذلك الاتفاق والتحالف بين البريكيين والكساديين تجلى في الواقع العملي سنة ١٢٦٦هـ/ ١٨٥٠م، حينما حاول آل كثير الدفع بقواتهم نحو الساحل للسيطرة عليه[2]، وساعدهم في مخططهم هذا بعض أعوانهم العلويين، وتم إعداد خطة عسكرية افتُرِضَ لها النجاح، شاركت فيها الدولة العثمانية الموجودة بالحجاز، من خلال تبنيها إرسال قوة عسكرية[3] من المرتزقة الأتراك، وهي التي انطلقت لاحقًا من ميناء جدة

١ باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٨٢، والجعيدي، عبدالله، الأوضاع الاجتماعية والثقافية ص١٦.

٢ هذه الحملة عند المؤرخ عبدالرحمن السقاف كانت سنة ١٢٦٧هـ . ينظر: إدام القوت ص١٠٧. وتعزو بعض المراجع سبب هذه الحملة إلى الانتقام بعد أن منع آل بريك وآل كساد وصول أي شكل من أشكال التموينات الغذائية لمناطق الساحل الحضرمي، بعد اتساع نفوذ آل كثير وسيطرتهم على مختلف مناطقها. ينظر: باوزير، أحمد، شهداء القصر ص٣٥. نقلاً عن الشاطري في أدوار التاريخ الحضرمي.

٣ قدرت هذه القوة العثمانية عند المؤرخ باحسن بحوالي (٤٠٠) مقاتل. ينظر: نشر النفحات ص٤٦٧. وأيضًا باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٤٠. بينما قدرها المؤرخ أحمد باوزير بنحو (٣٠٠) مقاتل نظامي. ينظر: شهداء القصر ص٣٥. وكذلك بامطرف، في سبيل الحكم ص ٢١. أما الجوهي فأشار إلى أن عددها حوالي (٥٠٠) مقاتل، نقلًا عن بن حميد. ينظر: إمارة آل بن بريك ص٨٣.

فالحديدة[1]، وكان قائد القوة أحد العلويين الحضارم يُدعى إسحاق بن عقيل بن يحيى[2]، ومعه الأمير عبود بن سالم الكثيري[3]. وكان غرض هذه الحملة إلى جانب الهدف المعلن عنه، وهو ضم الإمارتين الشحر والمكلا للدولة العثمانية[4]، تمكينَ آل كثير من الشحر عن طريق محاصرة مدينتي المكلا والشحر من جهة البحر، واعتراض السفن الداخلة أو الخارجة من موانئ المدينتين؛ لصرف أنظار الكساديين والبريكيين عن تلك الاستعدادات والحشود التي يقوم بها آل كثير في الداخل الحضرمي من أجل غزو الساحل. وعند وصول القوات الكثيرية إلى مشارف المدينة، تبادر هذه القوة بهجومها البري، بينما تهاجم القوة التركية من البحر[5].

وتذكر بعض المراجع أنَّ تلك القوة التركية استولت وهي في طريقها للمدينة على منطقة (بروم) التابعة للكسادي، بعد أن استعانت بحوالي (٤٠٠) مقاتل من البدو

---

١ يرى البكري أن هذه القوة استولت في الحديدة على ستة مراكب لآل بن بريك. ينظر: تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١٧١).

٢ تنظر ترجمته عند بامطرف، الجامع ص٨٢.

٣ باحسن، نشر النفحات ص٤٦٧، وباوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٤٠، ٢٥٠. وللمزيد ينظر: الجوهي، إمارة آل بن بريك ص٨١. وعنده أن هذه القوة تحركت من مكة بقيادة إسحاق بن عقيل وسالم بن عبدالله بن سمير. ينظر: ص٨٢.

٤ الجوهي، إمارة آل بن بريك ص٨٢.

٥ باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٤١، والبكري، تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١٧١)، وبامطرف، في سبيل الحكم ص٢١.

القريبين من المنطقة[1]، ثم سارت باتجاه المكلا، فالشحر. وكان هذا سنة ١٢٦٦هـ/ ١٨٤٩م[2].

ولسوء حظ هذه الحملة البحرية فقد تسببت رياح الخريف الشديدة في هيجان البحر، وحالت دون استقرار السفن أو رسوها قبالة شواطئ الشحر[3]، كما أنَّ القوة الكثيرية البرية المعوَّل عليها في الهجوم لم تصل إلى الشحر في موعدها المحدد، وكذا تفاجأت هذه الحملة بأنَّ الحامية البريكية في المدينة كانت مستعدة لها، بل بادرتها بإطلاق قذائف مدفعيتها، فانسحبت هذه القوة إلى (شرمة)، وحاولت النزول إلى البر هناك، إلا أنَّ البريكيين كانوا أسرع منها[4]، ولعل البريكيين استفادوا من القوة الكسادية المتمركزة في الديس والحامي، فباشرت هذه القوة بالهجوم، ودارت بين الطرفين معركة حامية، انهزمت فيها القوة التركية، وهربت بسفنها متجهةً شرقًا نحو (قصيعر) في انتظار هدوء البحر، وقد غرقت إحدى تلك السفن بما فيها من معدات وذخائر[5].

---

١ باوزير، أحمد، شهداء القصر ص٣٤. ويرى البكري أن القوة الكسادية تصدت لها ودحرتها. تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١٧١).

٢ يلاحظ أنَّ المؤرخ سعيد باوزير أرَّخ لهذه المعركة (معركة مرير) تارة بسنة ١٢٦٩هـ. ينظر الصفحات: ٢٥٠، ٢٨٢، وتارة أخرى بسنة ١٢٦٦هـ. ينظر ص٢٤٠. وفي إدام القوت ص ١٧٥: أن هذه المعركة سنة ١٢٦٧هـ. والذي نظنه صحيحًا هو ما أثبتناه.

٣ باحسن، نشر النفحات المسكية ص٤٦٧.

٤ قدَّر باحسن عدد القوة البريكية التي طاردت السفن التركية بـ(١٥٠) مقاتلًا فقط. ينظر: نشر النفحات المسكية ص٤٦٧.

٥ باحسن، نشر النفحات المسكية ص٤٦٧.

وخلال تلك المدة قامت هذه السفن باعتراض السفن والمراكب الذاهبة إلى الشحر أو المكلا، ومنعها من الدخول في الميناءين، فارضةً ما يشبه الحصار عن بُعد. وحينئذٍ وصلت القوة الكثيرية، وكانت خليطًا من قبائل حضرموت، تضمُّ إلى جانب مقاتليها مقاتلين من قبائل نهد والصيعر والعوابثة، ومعهم المشايخ آل العمودي، ومقاتلون من قبائل الحموم أيضًا[1]. وقد سبقت الإشارة إلى التحالف بين الحموم والبريكيين.

ورابطت هذه القوة الكثيرية خارج المدينة فارضةً حصارًا بريًّا، بعد أن وُزِّعَت إلى فرقتين، إحداهما عسكرت في منطقة (دفيقة) الواقعة شمال شرق المدينة، والأخرى رابطت بمنطقة (مرير) الواقعة إلى الغرب من المدينة. ومهمَّةُ هذه الأخيرة منعُ أي نجدة كسادية قد تقدُم لمساندة البريكي[2]، وتسهيل الاتصال بالحملة البحرية التركية[3].

وبعد أن استقرت الرياح وهدأ هيجان البحر بانتهاء فصل الخريف، عادت القوة التركية من قصيعر إلى الشحر، لتبدأ بالهجوم بحرًا كما هو مخططٌ له، وفي الوقت نفسه بدأت القوة المرابطة في دفيقة بهجومها البري وتسلق الأسوار. أمَّا طريق البحر فكان مفتوحًا للداخلين منه إلى المدينة. وهكذا دارت معركة حامية الوطيس برًّا وبحرًا، استبسل فيها البريكيون وقاتلوا بشجاعة نادرة، وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بالقوة الكثيرية وحلفائها، وانسحبت القوة الكثيرية إلى قرية (دفيقة). أمَّا الفرقة الكثيرية

---

١ باحسن، نشر النفحات المسكية ص٤٦٧. وللمزيد عن التحالفات التي عقدها آل كثير مع القبائل الأخرى، وخاصة تلك المحيطة بالشحر كالعوابثة والحموم، ينظر الجوهي، إمارة آل بن بريك ص٧٩-٨٠.

٢ ينظر: باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٤١، ٢٥٠. وقد أرخ لهذه المعركة بسنة ١٢٦٩هـ. ص٢٥٠. وهذا سهو منه. خاصة أنه سبق أن أثبت التاريخ صحيحًا سنة ١٢٦٦هـ.

٣ باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٨٢.

الأخرى المتمركزة في منطقة (مرير) فقد هاجمها النقيب صلاح بن محمد الكسادي وهزمها. وقد قدَّر المؤرخ باحسن عددَ القوة الكسادية التي قدمت نصرة لآل بن بريك بحوالي ألف مقاتل، في حين قدَّر أعداد الفرقة الكثيرية المتمركزة في (مرير) بحوالي ثلاثة آلاف مقاتل[1]. وفي ظني أنَّ هذا العدد الأخير مبالغٌ فيه. وقد كان للقعيطي إسهام كبير في دعم إخوته اليافعيين في هذه المعركة[2].

إنَّ ما يهمنا هنا هو أنَّ تلك القوة الكسادية هاجمت القوة الكثيرية المتمركزة في (مرير) وانتصرت عليها، بل قطعت عليها طريق الفرار والالتحاق بالفرقة الأخرى المتمركزة في (دفيقة)، فما كان من هذه القوة الكثيرية المتضعضعة إلا النجاة بجلدها، والفرار باتجاه حضرموت الداخل. في حين التحمت القوة الكسادية بحليفها البريكي المتمركز داخل المدينة، وباتوا معًا يعدُّون العُدَّة للانقضاض على الفرقة المتمركزة في دفيقة.

ومن الواضح أنَّ تلك الهزائم المتتالية قد فتَّت في عضد الفرقة المتمركزة في دفيقة، فدبَّ في أفرادها الخوف والرعب، وانهارت معنوياتهم، وخاصة بعد الهزيمة النكراء للفرقة المتمركزة في (مرير)، التي كانوا يؤمِّلون منها إعاقة تقدم الكسادي، ومنعه من الالتحام بالبريكي.

---

١ باحسن، نشر النفحات المسكية ص٤٦٧. يشير المؤرخ سعيد باوزير إلى أن القوة الكسادية تبلغ ألف مقاتل، ولم يشر إلى عدد القوة الكثيرية المتمركزة في مرير، إلا أنه قال عنها: (قوة كبيرة). ينظر: صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٤١. وأما صلاح البكري فقدَّر عددها بـ(٥٠٠) مقاتل. ينظر تاريخ حضرموت (١/ ١٧٢). وأما المؤرخ عبدالرحمن السقاف فقدَّر كل القوة الكثيرية بما فيها التركية بـ(٥٠٠أ) مقاتل. إدام القوت ص١٧٥.

٢ يذكر المؤرخ سعيد باوزير أنَّ القعيطي أرسل نجدة من يافع تحت قيادة سعيد بن حسين بن علي الحاج. ينظر: صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٨٢.

وهكذا، ما كادت شمس اليوم التالي تشرق، حتى تفرقت كلُّ تلك الجموع المتمركزة في (دفيقة)، ولحق كلٌّ بأرضه، تاركين خلفهم كثيرًا من الأسلحة والمعدات، وأمَّا القوة التركية فركبت سفنها وغادرت المدينة تجر خلفها أذيال الهزيمة والخيبة[١].

إنَّ من الواضح أنَّ هذه الحملة الكثيرية على الرغم من تفوقها العددي، كان ينقصها التخطيط الحربي والتنسيق العسكري بين قواتها المتفرقة، ممَّا سهَّل للقوَّتين البريكية والكسادية منازلة كل قوة على حدة وتدميرها[٢]. وقد بلغ عدد القتلى من الطرفين أكثر من ألف قتيل[٣].

إنَّ هذا النصر والاستبسال في الدفاع عن المدينة الذي أبداه الأمير علي بن ناجي بمساعدة حليفه الكسادي وبعض قبيلة آل تميم، عزز كثيرًا من هيبة هذا الأمير، فوُصِفَ بالشجاعة والإقدام، وتغنَّى بانتصاراته الشعراء المعاصرون لهذه الأحداث. فهذا الشاعر الشعبي المعلم عبدالحق (ت: ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م)[٤] يقول في إحدى قصائده:

**بندر علي نعمك علي بن ناجي		ذي في جهتنا كاملات اصفاته**
**اهزم جيوشًا قصدها في هزمه		الخصم منه ظاهره هزماته**
**من مثل بن ناجي صمد شامخ جبل		يحير عقله من حضر هجماته**
**بالزند والخصم والظن انَّه		مع الرعية صالحة نياته**[٥].

---

١ ذكر المؤرخ عبدالرحمن السقاف أن من نتيجة فشل هذه الحملة أن السلطان عبدالمجيد العثماني أقال السيد إسحاق بن عقيل من مشيخة العلويين بمكة، واستبدل به السيد محمد بن محمد السقاف. إدام القوت ص١٧٥.

٢ للمزيد عن أسباب فشل الحملة الكثيرية–العثمانية، ينظر الجوهي، خالد، إمارة آل بن بريك ص٨٥–٨٦.

٣ البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١٧٢).

٤ لمعرفة المزيد عن هذا الشاعر ينظر: بامطرف، المعلم عبدالحق، وحداد، عبدالله صالح، معجم شعراء العامية الحضارمة ص١١٦.

٥ بامطرف، المعلم عبدالحق ص١٢٨.

وهكذا نجد أنَّ التحالف (البريكي-الكسادي) قد أثمر، وعزَّز من قوة الطرفين المتحالفين، بل من قوة يافع في المنطقة، كما أنَّ القعيطي عمر بن عوض، وإن كان غير حاضر في حضرموت، لم يكن بمعزل عن هذه الأحداث ولا غائبًا عنها، وهو المتابع والمتربص لكل تحركات عدوه ومنافسه اللدود غالب بن محسن الكثيري الذي لم يكن أيضًا في أثناء هذه الأحداث حاضرًا في حضرموت، لكنَّ كلَّ واحد منهما (القعيطي والكثيري) سخَّر كلَّ إمكانياته وقدراته في إمداد قومه بالمال والعتاد والرجال، وإذكاء نار الحرب والفتنة، حتى أصبحت حضرموت ساحة حرب يتلاعب بها هؤلاء الكبار، ومن ورائهم بريطانيا التي لا بد أنَّ لها يدًا خفيَّةً في هذا الصراع، خاصة أنَّه قد تم لها احتلال عدن سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م، وأصبحت عينها تتطلع لبسط نفوذها وسيطرتها على بقية مناطق الجنوب العربي، وهو ما تكشَّف لاحقًا. ولعلَّ هذا هو ما دفع الأتراك للتدخل وقطع دابر بريطانيا في حضرموت.

إنَّ النصر الذي تحقق للحليفين (البريكي-الكسادي) عزز من تلاحمهما، خاصة أنَّ الأحداث في المنطقة بدأت تستعر، وأصبحت تدخلات الدول الكبرى وفرض الهيمنة على البلدان الضعيفة واضحة. وبما أنَّ عدوَّهما الكثيري استطاع عقد اتفاقيات مع الدولة العثمانية بوصفها قوة كبرى، فقد توجب عليهما أيضًا البحث عن قوة أخرى تضاهيها حتى لا تُبتَلع دويلاتهم في الأيام القادمة، ولم يكن في تلك المدة دولة يمكن أن تقوم بهذا الدور كبريطانيا، التي أصبحت قواعدها قريبةً جدًّا من مناطق نفوذهم بعد احتلالها عدن، كما أنَّ السفن البريطانية أصبحت من أكثر السفن ترددًا على سواحلهم وموانئهم.

وبعد سنة واحدة من تلك المعركة التي شاركت فيها قوات عثمانية إلى جانب آل كثير، سارع نقيب المكلا محمد بن عبدالحبيب الكسادي بطلب وضع بلاده تحت الحماية البريطانية في يناير سنة ١٢٦٧هـ/ ١٨٥١م، إلا أنَّ طلبه هذا رُفِضَ[١]؛ لأنَّ مخططات الإنجليز كانت ترمي لزرع شخصيات أخرى جديدة تهيمن على المنطقة، وتُنفِّذ سياستها كما تريد. ولم تمض أسابيع على ذلك الرفض حتى توفي النقيب محمد في يوم الأحد ٢٣ من ربيع الأول ١٢٦٧هـ/ ٢٦ يناير ١٨٥١م[٢]، واستلم الحكم بعده ابنه صلاح بن محمد الكسادي (ت:١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م).

الصراع على السلطة وبداية تفكك الإمارة:

أمَّا الأمير علي بن ناجي، فقد واجهه داخل المدينة، بعد ذلك الانتصار الذي تحقق له على آل كثير، عددٌ من المشاكل والاضطرابات، منها تنافس أمراء سلطنته على السلطة وتنازعهم بسببها، كما أنَّ غالبية الأمراء باتوا يعملون لأجل مصلحتهم الشخصية على حساب المصلحة العامة للدولة[٣]. وقد حاول العلويون، وخاصة السيد أبابكر بن عبدالله العطاس، رأب الصدع بين أفراد السلطنة، إلا أنَّه أخفق في ذلك، وبعد أن يئس منهم قال فيهم كلمته المشهورة: ((لقد راجعنا أهل بريك لمحبتنا فيهم، فلم ينفعهم كلامنا، والظاهر أنَّ بريكهم قريبًا إلى الانكسار، واللهُ يفعل ما يشاء ويختار))[٤]. وفي

١ الجوهي، إمارة آل بن بريك ص٩٢.

٢ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٣ باحسن، عبدالله، نشر النفحات المسكية ص٤٦٩.

٤ المرجع السابق ص٤٦٩-٤٧٠.

قوله هذا إشارة واضحة لتخلي العلويين آل العطاس عن حلفائهم التقليديين آل بن بريك، وانتقالهم لدعم غيرهم وتمكينهم، وخاصة القوتين الصاعدتين الكثيرية والقعيطية.

وفي عهد الأمير علي بن ناجي تحطمت إحدى السفن البريطانية (جورج أندرسون) قبالة سواحل الشحر، فسارع إليها الأمير علي بن ناجي مقدمًا لطاقمها الناجي كل أنواع الرعاية والمساعدة، وكان هذا سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م[١]. وهذا الفعل الذي قام به الأمير البريكي مع كونه إنسانيًّا بحتًا، لكنَّه من الناحية السياسية يهدف إلى قطع دابر الحجج والذرائع التي تلجأ إليها الحكومة البريطانية لتبرير تدخلاتها في شؤون الغير، تمامًا كالذي حدث لعدن من قبل[٢]. كما كان يهدف في الوقت نفسه إلى إظهار نوعٍ من الود لهذه الحكومة؛ سعيًا إلى كسب صداقتها، أو على الأقل اتِّقاء شرها، إلا أنَّ السياسة الخارجية للدول الكبرى لا تقبل العواطف ولا المحاباة، فكان أوَّل ضغط على السلطنتين البريكية والكسادية تمهيدًا للتدخل في شؤونها هو فتح ملف إلغاء الرق.

ضغوط بريطانيا لتحرير الرقيق:

بعد الحادثة السابقة بسنة، زار المقيم السياسي بعدن البردجير (وليام كوجلان) ميناءي الشحر والمكلا[٣]؛ للتباحث مع أمرائها بشأن تجارة الرقيق ومنعها، وهي تجارة طالما كان لها رواج كبير في هذين الميناءين[٤]، وطالما حظيت بتشجيع من حكامها، وربما

---

١ بامطرف، في سبيل الحكم ص ٢٤، والجوهي، إمارة آل الكسادي ص٩٣.

٢ للمزيد عن كيفية احتلال بريطانيا لعدن، ينظر: ناجي، سلطان، التاريخ العسكري لليمن ص٢٢.

٣ الجوهي، إمارة آل بن بريك ص٩٥.

٤ الجوهي، إمارة آل بن بريك ص٩٥.

بممارستهم لها أيضًا[1]. وقد حاول الأمير علي بن ناجي مجاراة بريطانيا في مسعاها بموافقته لها ظاهريًّا، لتستمر بعدها المفاوضات بهذا الشأن سنين أُخَر. ومع إلحاح بريطانيا وإصرارها وجد الأمير نفسه في النهاية مضطرًّا للتوقيع مع بريطانيا على معاهدة إلغاء تجارة الرقيق، وكانت هذه المعاهدة سنة ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م[2]. وقبيل التوقيع عليها اشترط البريكي قبول حليفه في المكلا (الكسادي) التوقيع على اتفاقية مماثلة مع بريطانيا، وهذا ما كان يرغب به ذلك الحليف، فحُرِّرَت الاتفاقية بينهم في ٢٥ من ذي القعدة ١٢٧٩هـ/ ١٤مايو ١٨٦٣م[3].

لقد نصت اتفاقية الرقيق هذه ((على التزام علي بن ناجي وتصميمه على تحريم استيراد الرقيق أو تصديره، وأنَّه سوف يمتنع شخصيًّا من القيام باستيراد الرقيق وتصديره، ولن يسمح لأيٍّ من رعاياه بممارسة هذه التجارة، وأنَّ أي إنسان يمارس هذه التجارة سوف يلقي القبض عليه، ومصادرة ممتلكاته من قبله أو من قبل أي سفينة بريطانية تابعة لحكومة بريطانيا، وأنَّه سوف يتم إطلاق سراح الأرقاء))[4].

---

١ ذكر الشيخ أحمد الملاحي أن للعبيد أسواقًا رائجة في مناطق الكسادي والبريكي، وأنَّ بالشحر ((بنايات خاصة للعبيد الذين يردون من وراء البحر، الرجال لأنفسهم والنساء لأنفسهن. وهذه البيوت كانت في حافة (باذييب) بجوار المدرسة الشرقية الابتدائية التي بجوار مسجد باذييب، فأما أحد البيوت فقد تهدم وصار محله قاعة، وأما الآخر فهو آيل إلى الدمار. وكان آل باسباع وقريشن هم النخاسين في بيع العبيد (الدلل.))). المذكرة التاريخية (مخ) ص٢٥٦. وعن تجارة العبيد ينظر: البكري، تاريخ حضرموت السياسي (٢/ ١٣٦).

٢ بامطرف، في سبيل الحكم ص١٦٣، والجوهي، المرجع السابق ص٩٥، والجعيدي، عبدالله، في رحاب تاريخ حضرموت ص٥٩.

٣ للاطلاع على صيغة هذه المعاهدة مع نقيب المكلا، ينظر: بامطرف، في سبيل الحكم ص١٦٣. وقد ذكر إنجرامس في تقريره أن الإنجليز عقدوا معاهدة أخرى مع الكسادي سنة ١٨٧٧م، بشأن إلغاء تجارة الرقيق. ينظر: ص٣٧.

٤ المرجع السابق، ص٩٨. وقد استمرت تجارة الرقيق حتى في عهد السلطنتين الأخيرتين (القعيطية والكثيرية).

إنَّ قبول الأمير علي بن ناجي بن بريك بهذه الاتفاقية إدانةٌ صريحةٌ لنفسه بممارسة ما كان ينكره، كما أنَّها ضيَّقت عليه الخناق اقتصاديًّا. ولعل هذا يفسر لنا السر وراء تخلي البريكي لاحقًا عن أراض له في قرية (الصداع)، وبيعها للعولقي عدو يافع في السنة نفسها، أي سنة ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م[1]. ولعل هذا كان نكاية من البريكي بالقعيطي، فقد عُرِفَ عن العولقي أنَّه العدو اللدود للقعيطي، وكان الأجدر بالبريكي إن كان مضطرًّا إلى بيع إقطاعاته، أن يبيعها للقعيطي لا العولقي.

ولاحقًا بشأن إلغاء الرق ألزمت بريطانيا القعيطي بعد سيطرته على مدينة الشحر بالتوقيع على اتفاقية مماثلة لإلغاء الرقيق والمتاجرة به. وهي الاتفاقية التي أُبرِمَت في تاريخ ٢٦ من رمضان ١٢٩٠هـ/ ١٧ نوفمبر ١٨٧٣م. وفيها التزم القعيطي للحكومة الإنجليزية ((بأن يلغي ويمنع وارد وصادر الرقيق إلى ومن ميناء الشحر وجميع متعلقاتها ومن هذه المناطق إلى أي مكان في إفريقيا أو آسيا أو غيرهما))[2].

وبالرغم من تلك الاتفاقيات، ظلَّ العبيد في العهد القعيطي يشغلون مكانتهم التقليدية السابقة، وخاصة مَنْ كان يعمل لدى الدولة في جيشها (الحاشية)، إلى أن أعلن السلطان صالح بن غالب القعيطي، بعد عقود من تلك الاتفاقية، عتقَ جميع عبيد الحكومة، وكان هذا سنة ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م[3]. وسنأتي لهذا الموضوع بالتفصيل حينما نتطرق إلى تمرد عبيد السلطان في مدينة الشحر.

---

١ بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت العام ص١٢٨.

٢ لتفصيل هذه المعاهدة ينظر: بامطرف، في سبيل الحكم ص١٦٣-١٦٤.

٣ الجعيدي، عبدالله، في رحاب تاريخ حضرموت الحديث والمعاصر ص٨٠.

تطلع آل كثير للسيطرة على الساحل ونهاية إمارة آل بريك:

عندما عاد السلطان غالب بن محسن الكثيري من الهند إلى حضرموت طلبًا للاستقرار سنة ١٢٧٢هـ/ ١٨٥٥م، بعد أن صفَّى كل ممتلكاته في الهند(١)، كان في نيته تقويض الحكم اليافعي في المنطقة، والدعوة إلى طرد يافع إلى خارج حضرموت، وإحياء سلطنة آل كثير وهيمنتها، وهي دعوة عززت من لُحمة آل كثير وتعاضدهم، وعززت من لُحمة الاتحاد الشنفري الذي يضمهم مع بقية قبائل الاتحاد. وكان اعتماد السلطان غالب لتحقيق ذلك الحلم على أفراد أسرته وعشيرته، وفي مقدمتهم الأمير عبود بن سالم بن محمد الكثيري، وهو ابن أخته وابنُ ابنِ عمه(٢). وقد عدَّهُ المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف القائدَ الأوَّلَ والمفكِّرَ والمدبِّرَ والمخطِّطَ لتحركات آل كثير كافَّة(٣)، وإلى جانبه شقيقُ السلطان غالبٍ (عبدُالله بن محسن)، وهو الذي قاد حملة الاستيلاء على الشحر وطرد آل بن بريك منها(٤)، وعمه علي بن أحمد، وابنُ ابن عمِّه عبدالله بن صالح بن محمد(٥).

أمَّا الحاج عمر بن عوض القعيطي فقد ظل ملازمًا مقر إقامته في الهند، يُدبِّر الخطط، ويُدير السياسات، ويُرسل الدعم، ولم يغادر الهند إلى أن توفي في حيدر آباد الدكن سنة

١ يذكر البكري أن هذا السلطان اضطر لمغادرة الهند بعد أن وشى به القعيطي والعولقي لدى ملوك حيدر آباد، فعاد إلى حضرموت لينتقم. ينظر: تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١٥٧).

٢ بامطرف، المعلم عبدالحق ص١٣٦.

٣ بامطرف، المعلم عبدالحق ص١٣٩. كما عدَّه المؤرخ صلاح البكري من أعظم رجالات آل كثير وأكثرهم شجاعةً وإقدامًا. ينظر: تاريخ حضرموت السياسي (١/ ١٥٥).

٤ بامطرف، المعلم عبدالحق ص٣٩.

٥ المرجع السابق ص١٣٦.

١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م[1]، بعد أن تمكن من إرسال أبنائه إلى حضرموت، مزوَّدين بالتعليمات والإرشادات للقيام بالدور العملي الهادف الى إنشاء السلطنة القعيطية وتمكينها.

وقد رأى الحاج عمر قبيل رحيله عن الدنيا اللبنات الأولى التي وضعها أبناؤه في ذلك الصرح المنشود. وكان على رأس أبنائه الجمعدار عوض بن عمر القعيطي[2]، وهو أكثر إخوته حماسةً وعزيمةً وذكاءً وإقدامًا.

وهذان الرجلان (غالب الكثيري وعوض القعيطي) استطاعا التمدد والتوسع في مناطق حضرموت الداخل واحتلال مناطقها في سباق محموم لسنا بصدده هنا، لتتجه أنظارهما إلى الساحل الحضرمي، وكلٌّ منهما يسابق الآخر في السيطرة على مناطقه وموانئه. وبما أنَّ الإمارتين الساحليتين يافعيتا الانتماء، فقد أشكل أمرهما على القعيطي اليافعي أيضًا، فهو الساعي ضمن مخططه المعلن إلى وحدة يافع في مواجهة تحديات آل كثير وحلفائهم، وهو الرامي في مخططه غير المعلن إلى تقويض سلطنتي يافع في الساحل والتهامهما. فكان لزامًا عليه استعمال أسلوب الالتواء والمرواغة في إظهار تحالفه ونصرته لهاتين الإمارتين من ناحية، لا سيما أنَّه بحاجة إليهما، ومن ناحية أخرى يتربص بهما إلى أن تواتيه الفرصة لالتهامهما. كما كان القعيطي يهدف إلى إعاقة طموح خصمه اللدود الكثيري، ومنعه من الوصول إلى أي منفذ بحري[3] مهما كلَّفه ذلك من ثمن.

---

١ أدوار التاريخ الحضرمي (٢/ ٤٠٥)، وباوزير، شهداء القصر ص٣٨.

٢ يرى بعضهم أن عوض هو أكبر إخوانه. ينظر: باوزير، أحمد، شهداء القصر ص٣٧. ويرى عبدالخالق البطاطي أنَّ الجمعدار عوض كان أصغر سنًّا من أخويه محمد وعبدالله. ينظر: إثبات ما ليس بمثبوت ص٢٧. وكذلك هو عند: باحسن، نشر النفحات المسكية ص٤٧٢.

٣ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٥٢، والجعيدي، الأوضاع الاجتماعية والثقافية ص١٧.

احتلال آل كثير مدينة الشحر:

في خطوة استباقية، استطاع السلطان غالب الكثيري حشدَ قوَّةٍ مكوَّنةٍ من ثلاثة آلاف مقاتل معظمها من الشنافر والحموم[1]، واتَّجه بها صوب الساحل (مدينة الشحر)، ولم يعمد قائدا الحملة الكثيرية عبدالله بن محسن الكثيري وعبود بن سالم الكثيري، إلى إنهاك المدينة عن طريق الحصار، أو انتظار وصول قوات إضافية من القبائل المجاورة الموالية، وإنَّما سارعا إلى الهجوم المباغت على المدينة من جهاتها البرية الثلاث[2]، تملؤهما عزيمة وإصرار كبيران على تحقيق النصر وتعويض هزائمهم السابقة، ولعلَّ سبب هذا التسرع في الهجوم ما تنامى لأسماعهم من قدوم تعزيزات من يافع الداخل، فأرادوا تفويت الفرصة عليهم. وقد استطاعت هذه القوة اقتحام المدينة، لتدور داخلها وبين أزقتها حرب شوارع لم يصمد فيها آل بن بريك كثيرًا، وسرعان ما انهارت قواهم ودبَّ فيهم الرعب والخوف، فآثروا الانسحاب وترك المدينة، وانسل الأمير علي بن ناجي، ومعه أخوه ناصر بن ناجي، وعددٌ من أفراد أسرتهم وحاشيتهم إلى حيث كانت بعض سفنهم راسية قبالة الساحل، ليغادر الجميع تاركين المدينة تواجه مصيرها المجهول[3].

إنَّ الأمير علي بن ناجي لو كان صمد قليلًا لبلغته النجدة اليافعية القادمة من القطن، والتي شارف وصولها مناطق الساحل عند بدء الهجوم الكثيري، وربما كانت هذه النجدة ستغير من المعادلة.

---

١ الجوهي، خالد، إمارة آل بن بريك ص٩٩.

٢ الجوهي، إمارة آل بن بريك ص١٠٠، وباوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٥٢.

٣ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٤٢، والسقاف، إدام القوت ص١٧٦.

وفي وصف هذه الحادثة يقول الشاعر الشعبي المعلم عبدالحق، وهو من المعاصرين لها، متهكمًا بالأمير البريكي:

ذكروا ولد ناجي علي، حمّل حريمه والسقل
عجبت يوم الرعب في قلبه قذف خذه الفشل
والخوف والتخويف زاده، ظنّي انَّه ما عدل
لو راض بايصّله مانه مثل من حمَّل وشَل
لكن أبو محسن على نيته جاته بالسهل.

لقد عُدَّ هذا التصرف من الأمير علي بن ناجي بن بريك ضعفًا وخذلانًا ليافع، جعل من حليفه الكسادي يُدير له ظهره، ولا يستقبله، ولا يسمح له بدخول المكلا[1]، كيف وقد سلَّم بلاده لقمةً سائغةً لعدوهم اللدود الكثيري!

وتذهب بعض المراجع إلى أنَّ بعض أسباب هزيمة البريكيين وسقوط دولتهم، تعود إلى خيانة بعض أفراد هذه الأسرة، واتخاذ الحاضنة الشعبية لهم موقفًا حياديًّا من هذا الصراع، فضلًا عن تقاعس الحليف الكسادي أو تكاسله في إرسال النجدة، ممَّا عجّل بإلحاق الهزيمة بالبريكي[2]. ويُضاف إلى ماسبق أنَّ البريكي لم يكن يمتلك أيَّ خطوط دفاع أمامية تعززه أو تعيق تقدم أعدائه[3].

وهكذا سقطت مدينة الشحر في أيدي آل كثير، يوم السبت الخامس من جُمادى الآخرة ١٢٨٣هـ/ ١٤ أكتوبر ١٨٦٦م، وهو يوم انتهاء إمارة آل بن بريك[4].

---

١ رد الكسادي على البريكي طالب اللجوء بقوله: ((لا يصلح سيفان في جفير)). السقاف، إدام القوت ص١٧٦.

٢ بامطرف، المعلم عبدالحق ص٧٥، والجوهي، إمارة آل بن بريك ص١٠١.

٣ الجعيدي، عبدالله، الأوضاع الاجتماعية والثقافية في حضرموت ص١٦.

٤ باوزير، شهداء القصر ص٣٧. ولمعرفة المزيد عن نهاية هذه الإمارة وأسباب سقوطها المدوي، ينظر: الجوهي، إمارة آل بن بريك ص٩٨-١٠٢.

محاولات البريكي استعادة المدينة واستغلال القعيطي لها:

ذكر بعض المؤرخين أنَّ علي بن ناجي بن بريك في أثناء إقامته في (أحور) بعد سقوط إمارته، حاول استعادة الإمارة مرة أخرى، من خلال محاولته طلب الدعم والمساعدة، تارة من الإنجليز، وتارة من العثمانيين، وتارة من الكسادي حليفه السابق، إلا أنَّ جميع هؤلاء لم يبدوا أي تجاوب معه، أو شفقة عليه، بالرغم من العروض الكبيرة والتنازلات التي قدمها لهم، إذ أصبح هذا الأمير البريكي في نظر الجميع أميرًا من غير إمارة، وزعيمًا من غير شعب[1].

والوحيد الذي استغل هذا الموقف لمصلحته هو الجمعدار عوض بن عمر القعيطي، بعد أن وجد فيه الفرصة المواتية لتحقيق مطامعه في الحصول على موطئ قدم له في الساحل، وفي أحد الميناءين الرئيسين (الشحر أو المكلا)، فوافق على مساعدة آل بن بريك، واشترط عليهم عدة شروط[2]، أهمها تنازل آل بن بريك الكامل عن المدينة بعد طرد آل كثير منها لتكون خالصة له، وبالمقابل يعيد إليهم كل حصونهم وممتلكاتهم المنهوبة[3]، وألا يتدخلوا في الحكم بأي صورة من الصور، وأن يكونوا من جنس الرعايا معزَّزين مكرَّمين، كما اشترط عليهم أيضًا مساعدته في معركة استعادة الشحر. ولم يجد آل بن بريك بُدًّا من الموافقة والإذعان لشروط القعيطي. وسنورد لاحقًا تفاصيل سيطرة القعيطي على المدينة.

١ الجوهي، إمارة آل بن بريك ص١٠٣.

٢ باحسن، نشر النفحات المسكية ص٤٧٠.

٣ الملاحي، ومعيلي ، الصراع الحمومي القعيطي ص٢٢٦.

وفعلًا عاد الأمير علي بن ناجي بن بريك إلى الشحر، محمولًا على ظهر الجمعدار عبدالله بن عمر القعيطي حاكم الشحر الجديد، الذي كان في استقباله في أثناء نزوله السفينة التي تُقِلُّه[1]، إلا أنَّ البريكي لم يطق العيش في المدينة وقد أصبح بلا حول ولا قوة، وكان قبلها الآمر الناهي، فغادرها إلى (أحور)[2]. وقد توفي هذا الأمير (علي بن ناجي) بعد صلاة الجمعة، ودُفِنَ في لحج صباح السبت الحادي والعشرين من ربيع الأول سنة ١٢٩٣هـ/ ١٧ أبريل ١٨٧٦م[3].

سبب هزيمة آل كثير وضياع الشحر منهم:

بعد أن استولى الأمير عبدالله بن محسن الكثيري على الشحر سنة ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م، انتشى آل كثير بهذا الانتصار السريع والسهل، فقرروا التحرك فورًا للسيطرة على المكلا، واتخذوا هذا القرار المتعجل قبل اتخاذ التدابير اللازمة لتأمين مدينة الشحر نفسها، والحفاظ على هذا المكسب الثمين الذي تحقق لهم[4]، وتحركت قواتهم في تلك السنة نفسها باتجاه مدينة المكلا، يملؤها العزم والإصرار على تحقيق نصر مؤزر وسهل، كما تم لهم في معركة السيطرة على الشحر.

١ السقاف، إدام القوت ص١٧٦

٢ الجوهي، إمارة آل بن بريك ص١٠٥.

٣ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٤٣. وعند الجوهي أنَّ وفاته بالتقويم الميلادي في أبريل ١٨٧٥م. وهذا وهم، والصحيح ما أثبتناه. ينظر: الجوهي، إمارة آل بن بريك ص١٠٥.

٤ السقاف، إدام القوت ص١٧٧. وتروي بعض المراجع أن الأمير عبود بن سالم الكثيري، بعد أن تم لهم إجلاء آل بن بريك من الشحر، ذهب إلى منطقة وادي رخية؛ لاستقدام مجندين من قبيلة الشحابلة، يتولون مهمة حماية المدينة، وذلك عند مسير القوة الكثيرية إلى لمكلا. بامطرف، المعلم عبدالحق ص١٤٠.

وقد أدَّت بهم هذه العجلة وسوء التدبير والتقدير، إلى هزيمة نكراء على أسوار مدينة المكلا، بل ارتدَّ هجومهم هجومًا مضادًّا، شنَّه عليهم يافع، أدَّى إلى إجلائهم عن مدينة الشحر نفسها، قبل أن تكتمل فرحتهم بالاستيلاء عليها. ونورد هنا أبياتًا من الشعر الشعبي للشاعر المشهور والمعاصر لتلك الأحداث (المعلم عبدالحق الدموني)، من قصيدته التي أرسلها للسلطان غالب بن محسن، مهنئًا له بالنصر، ومحذِّرًا في الوقت نفسه أخاه الأمير عبدالله قائد الحملة من العجلة في السيطرة على المكلا، يقول في مطلعها[1]:

أسألك يا معبود يا ملجأ ومنجى من سأل
يا من لك التصريف في لولا وفي قولة لعل

إلى أن قال:

من مثل عبدالله ومن له في الجهة ضد او مثل
طابت له (الفرضة) ويهناه الذي فيها نزل
حرمت على غيره، وهو له بارق الجودة زجل
(بندر علي) بالأمس وامَّا اليوم من يذكره زل
(بندر ولد محسن) فهل حد يشبه السلطان هل
خُصَّه سلامي قل له اصبر في مكانك لا تصل
في الشحر وطّد مركز الدولة وذا شأن الدول
العلة تسكر من زبيبة، الحذر يا من عقل
مولى العجل ما يتم مقصوده ولا ينال الأمل

١ بامطرف، المعلم عبدالحق ص٣٨-٣٩. و(الفُرضة) يقصد بها مقر الجمرك والميناء في مدينة الشحر. و(بندر علي) يقصد بها الشحر، وكانت تابعة لـ(علي ناجي)، أما (بندر ولد محسن) فيقصد بها أنَّ المدينة أصبحت تابعةً للسلطان غالب بن محسن. وينظر: ديوان المعلم عبدالحق (الوقائع فيما جرى بين تميم ويافع) ص٢٨.

ويبدو أنَّ النقيب صلاح بن محمد الكسادي أمير المكلا، لم يتعلم من الدروس السابقة التي مر بها، ولم يستفد من المعارك التي خاضتها أسرته مع آل بن بريك على حدود إمارته، والتي يفترض فيها أن تبيِّن له مكامن الضعف والقوة في مناطقه ليحتاط لها، إذ لم يُظهر الكسادي استعدادًا قويًّا للقوة الغازية القادمة، ولم يُؤمِّن حدود بلاده وأطرافها، ولم يسدَّ كل الثغرات التي قد يستغلها عدوه، والشيء الوحيد الذي فعله وكان مفيدًا له، أنَّه استفاد من تلك القوة اليافعية القادمة من الداخل التي لجأت إليه بعد أن تأكد لها فرار مَنْ جاءت أساسًا لنصرته، وهو الأمير علي ناجي بن بريك، وسقوط مدينة الشحر بيد آل كثير. كما استفاد من مساعدات أسرة القعيطي والعائدات المالية التي ترسلها له في سبيل حشد الجيوش، أو إرسالهم للفرق المقاتلة إلى الساحل.

وعند وصول القوة الكثيرية إلى أطراف المكلا، كانت في انتظارها القوة الكسادية وهي على أهبة الاستعداد، إلا أنَّها فاقدة للتخطيط الجيد ولاستراتيجية الدفاع.

وهكذا دارت عدة اشتباكات على أطراف المكلا، وتحديدًا في منطقتي (الحرشيات) و(البقرين)، لتنتقل الاشتباكات بعدها إلى (جول مسحة) و(حصن خازوق)[1]. وكان النصر في البداية لمصلحة آل كثير، إلا أنَّ استبسال حامية الكسادي، والمدد الذي توافد إليه برًّا وبحرًا، ساعده على الصمود، وشجَّعه على القيام بهجوم آخر مضاد، استطاع به طرد القوات الكثيرية من أرضه، وردَّها على أعقابها مهزومةً إلى مدينة الشحر[2].

١ عن تفاصيل هذه المعركة ينظر: باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ٢٢٨.

٢ باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٥٢.

الفصل الرابع

مدينة الشحر
في عهد السلطنة القعيطية

قيام السلطنة القعيطية في مدينة الشحر

تمكنت أسرة آل القعيطي من التمدد والسيطرة على عدَّةٍ من المدن والقرى الحضرمية في الداخل الحضرمي، في بداية ترسيخ أقدامهم في حضرموت، لكنَّهم عجزوا عن إقامة دولة لهم هناك، بالرغم من سيطرتهم على شبام. ومن هنا بدأت الأطماع تراودهم في التمدد إلى الساحل الحضرمي، والحصول على منفذ بحري يستطيعون من خلاله تضييق الخناق على السلطنة الكثيرية في الداخل، وتسهيل اتصالهم ببلاد الهند الداعمة لوجستيًّا لهم، فكان لا بُدَّ لهم من السيطرة على إحدى الإمارتين الشحر أو المكلا؛ تمهيدًا للتمدد والسيطرة على كل مناطق الساحل أوَّلاً، ثمَّ التوغل في حضرموت الداخل؛ للقضاء على سلطة آل كثير.

وبما أنَّ إمارة آل بن بريك اليافعية قد وقعت فريسة للأطماع الكثيرية والتآمر الداخلي، فإنَّ أعين آل كثير ستتجه لا محالة صوب المكلا عاصمة الكساديين، لذلك فكَّر القعيطيون بضرورة وجودهم فعليًّا في المكلا لمتابعة الأوضاع والإشراف عليها عن كثب، بدلًا من إرسال الأموال والجيوش والعتاد للكسادي وأهلهم القعطة.

لذلك قدم الجمعدار عوض بن عمر القعيطي بنفسه من الهند بعد سقوط الشحر في أيدي آل كثير، واتَّجه فورًا إلى المكلا على رأس قوة عسكرية مكوَّنة من ((٢٠٠ مقاتل من مهاجري يافع بالهند، و(٥٠٠) مقاتل من الهنود الرويلة[1]، وثلاث بواخر وستِّ

١ عرَّف بامطرف (الرويلة) بأنهم جنود أفغانيون جنَّدهم القعيطي من حيدر آباد، ينتمون إلى قبيلة الـ(Rohilla)، والحضارم ينطقون هذه التسمية رويلة. للتفصيل ينظر: بامطرف، في سبيل الحكم ص٣٧.

سفن شراعية مزوَّدة بعشرين مدفعًا وذخائر كثيرة))[١]. كما تواصل مع أخيه في القطن الجمعدار محمد بن عمر القعيطي، فقدم إلى المكلا ومعه (٢٠٠) مقاتل من يافع ومواليهم، و(٣٠٠) من الحلفاء، كما وصل من يافع الشيخ علي الحريبي، ومعه (١٥٠٠) مقاتل، ووصله من نجد الأمير منصور بن حسين بن قملا، ومعه (٥٠٠) مقاتل، منهم (١٠٠) فارس[٢]. وكان قدوم الجمعدارعوض إلى المكلا في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان سنة ١٢٨٣هـ/ ٢٩ يناير ١٨٦٧م.

وعلى الفور التقى الجمعدار بالنقيب الكسادي، وبأفراد من أسرة آل بن بريك، وأعوانهم من العشائر اليافعية، واتفقوا جميعًا على شن هجوم كبير على الشحر، وطرد آل كثير منها. وقد اشترط القعيطي على الجميع أنَّ الشحر ستكون ملكًا من أملاكه، لا ينافسه عليها أحد، حال سقوطها في أيديهم[٣].

وفي يوم الاثنين ١٩ من ذي الحجة ١٢٨٣هـ/ ٢٤ أبريل ١٨٦٧م[٤]، شن القعيطي ومَنْ معه من القوات التي تجاوزت الـ(٣٠٠٠) مقاتل، هجومًا عنيفًا ومباغتًا على الشحر من ثلاث جهات الشمالية والغربية والبحرية (الجنوبية). وتمكنت يافع من

---

١ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٩٤.

٢ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٩٤.

٣ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٣٧. وبعض المراجع تشير إلى أن هذا الاتفاق ينص على أن تكون الشحر مناصفة بين القعيطي والكسادي. السقاف، إدام القوت ص١١٧. وللتفصيل عن هذا الاتفاق ينظر: بامطرف، في سبيل الحكم ص٤٠.

٤ بامطرف، في سبيل الحكم ص٤٨. وعند باوزير: كان الهجوم في (٢٤) من ذي الحجة. ينظر: صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٩٤.

الإنزال البري بالقوارب من جهة الجنوب، لتدور بين أزقة المدينة وشوارعها معركة من أشرس المعارك في تاريخ المدينة، استمرت ليومين متتاليين، انهزمت في نهايتها القوات الكثيرية، وآثرت الانسحاب والعودة إلى حضرموت الوادي[1]، مخلفةً وراءَها أربعين قتيلًا، والكثير من الجرحى والأسرى، وكان عدد القتلى من يافع ستة عشر مقاتلًا[2].

وهكذا سقطت مدينة الشحر في أيدي القعيطيين يوم الأربعاء ٢٦ من ذي الحجة ١٢٨٣هـ/ ١مايو ١٨٦٧م. ولم يتأخر عمر بن عوض القعيطي بعد هذا النصر عن إعلان الشحر مُلكًا من أملاكه. وبهذا تبخرت آخر أحلام البريكيين في العودة لمجدهم الغابر.

وتذكر بعض المراجع أَنَّهُ في بداية سنة ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م، وبعد ذلك الانتصار اليافعي على آل كثير ((عُقِدَ لقاءٌ في قصر (دار ناصر) بمدينة الشحر، بين الجمعدار عوض بن عمر والنقيب صلاح بن محمد الكسادي، وبعض القادة العسكريين، وشارك في الاجتماع بعضٌ من آل بريك، وتم الاتفاق فيه أنَّ الشحر أصبحت ملكًا من أملاك الحاج عمر بن عوض القعيطي))[3]. وفي العُرف السائد أنَّ مَنْ ملك الشحرَ كأنَّما ملك حضرموت عامةً[4]؛ للأهمية التي كانت تتمتع بها الشحر. وقد قيل في هذا: إنَّ القابض على الشحر كالقابض على الحنجور.

١ يرى المؤرخ عبدالرحمن السقاف أنَّ السلطان غالب بن محسن الكثيري كان في المدينة، وكاد يهلك، لولا أنَّ أحد عبيده ويدعى (صنقور سليمان) خاطر بروحه وأنقذ السلطان. إدام القوت ص١٧٧. وللتفاصيل ينظر: بامطرف، في سبيل الحكم ص٤٧-٤٩.

٢ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٩٤.

٣ بامطرف، في سبيل الحكم ص٥٢، والجوهي، إمارة آل بن بريك ص١٠٤.

٤ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٣٧.

وقد وقع اختيار أسرة آل القعيطي على الجمعدار عبدالله بن عمر القعيطي ليكون حاكماً على الشحر. وفي هذه المدة، انتقل عبدالقوي بن عبدالله غرامة[1] من ضيافة أمير المكلا ليستقر في الشحر، حيث ابتنى فيها بيتًا لنفسه بعونٍ ماليٍّ من النقيب صلاح بن محمد الكسادي[2].

إنَّ انتصار يافع على آل كثير، وسيطرة القعيطي على الشحر، أضاع على النقيب الكسادي آماله في التمدد إلى هذه المدينة المهمة التي تعد بوابة حضرموت الجنوبية وشريانها الرئيس، بل أضاع عليه أيضًا فرصة السيطرة على غيل باوزير، المدينة الثالثة في الأهمية في ساحل حضرموت، إذ بعد استيلاء القعيطي على مدينة الشحر سنة ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٧م، عقد زعماء قبيلة آل عمر باعمر، وهي أقدم قبيلة مسلحة تسكن الغيل، اتفاقًا مع القعيطي يخوِّله السيطرة الإدارية على المدينة. فأرسل إليهم القعيطي

١ كان ابن غرامة اليافعي من حكام تريم حينما آل الأمر إلى تقاسم يافع للمقاطعات الحضرمية، وقد احتال آل كثير على عبدالقوي بن غرامة عن طريق بعض العلويين، واستطاعوا في نهاية الأمر الاستيلاء على تريم، وإخراجه منها ذليلًا، فذهب إلى سيئون مدةً عند يافع، فلم يجد لديهم غير الإهانات والاستخفاف به، ثم استقدمه النقيب صلاح بن محمد الكسادي أمير المكلا، ورتب منزلًا ومعاشًا كافيًا له ولأسرته ولبعض خدمه. وبسقوط الشحر في أيدي القعيطي، طلب ابن غرامة من الكسادي السماح له بالإقامة في الشحر، فسمح له. ينظر: بامطرف، المعلم عبدالحق ص١٤٤-١٥٠. وذكر الشاطري أن السيد حسين بن سهل اشترى مدينة تريم من الشيخ عبدالله عوض غرامه بـ(٠٠.٠٠٠) ريال نمساوي، وكتبت له الوثائق، ولكنه أبقى ابن غرامة على ما هو عليه. ينظر: أدوار التاريخ الحضرمي (٢/ ٣٩٧). وفي موضع آخر ذكر أنَّ الشيخ عبدالله بن غرامة كان متأثرًا بالوهابية. ينظر: (٢/ ٤٠٠). ولعل توجهه هذا هو ما جرَّ عليه سخط بعض العلويين المناوئين لذلك الفكر، وسعيهم في تقويض ملكه.

٢ بامطرف، المعلم عبدالحق ص١٥٠.

أحد قوّاده ويُدعى عنبر عبيد الرباكي، وقد أقام هذا القائد بالغيل مدةً، متخذًا من (حصن الرقيمي) الواقع شرق المدينة مقرًّا لإدارة شؤون الغيل وملحقاتها[1].

أمّا الجمعدار عبدالله العولقي فيبدو أنَّه لم يتحمل صدمة استيلاء منافسه وعدوِّه اللدود (القعيطي) على مدينتي الشحر وغيل باوزير، إذ وجد نفسه بين فكي كماشة، ليعاجله الموت وهو في حيدر آباد الدكن سنة ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م[2]، دون أن يحقق حلمه ولو بامتلاك قرية صغيرة يقيم عليها دولته. وخلَفَه ابنُه الوحيدُ محسن بن عبدالله، الذي ورث عن أبيه عداءَه للقعيطي وليافع جميعًا.

١ السقاف، إدام القوت ص ١٧٧، وباوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٩٩.

٢ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٣٠٣. وتذكر بعض المراجع أن العولقي تعرض لمحاولة اغتيال في الهند. إدام القوت ص١٥٨.

القعيطي يستميت في الدفاع عن المدينة:

حاول الكثيري بعد هزيمته الساحقة التي أخرجته من الشحر، إعادة الكرة واحتلال الشحر، ففي أواخر شهر رجب سنة ١٢٨٤هـ/ نوفمبر ١٨٦٧م[١] حشد قوة كبيرة من الشنافر وحلفائهم الشحابلة، قُدِّرَ عددها بحوالي ثلاثة آلاف مقاتل[٢]، وتولَّى دعمها ماديًّا عبدالله بن علي العولقي[٣] قُبَيل وفاته، واتجه بها صوب الساحل ومدينة الشحر تحديدًا، وكان بالشحر حينها الجمعدارعوض بن عمر القعيطي بنفسه، على رأس ألف مقاتل من يافع[٤].

وزحفت الحشود الكثيرية بقيادة الأمير عبدالله بن محسن الكثيري، ومعه عدد من الأمراء الآخرين، وعلى رأسهم الأمير عبود بن سالم الكثيري، والأمير منصور بن غالب الكثيري الذي كان وقتها فتى حديث السن[٥]. وعند وصولهم إلى مشارف المدينة، تمركزت قوَّاتهم في قرية (دفيقة)؛ استعدادًا لمحاصرة المدينة ومهاجمتها، ففكر الجمعدار

١ بامطرف، في سبيل الحكم ص٥٤. وفي قصيدته الملحمية صوَّر لنا الشاعر المعلم عبدالحق تفاصيلَ هذه المعركة. وتنظر تفاصيلها أيضًا عند: بامطرف، المعلم عبدالحق ص١٧٦-١٩١. وقد أرخ عبدالحق لهذه الحملة في بيتين من قصيدته تلك، ويقول فيهما:

يوم الثلوث آخر رجب والأربع بعد الثمانين انضباط اعـدادي
والألف والمئتين ياضرب الفتن من هجرة البدر الرسول الهادي.

٢ بامطرف، المعلم عبدالحق ص١٨٣.

٣ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٩٥.

٤ بامطرف، المعلم عبدالحق ص٧٧، والبكري، في جنوب الجزيرة العربية ص٢٠٤.

٥ بامطرف، المعلم عبدالحق ص١٨٣.

عوض في طريقة لاستدراج القوة الكثيرية إلى داخل المدينة، وفي ظنه أنَّ الكثيريين لا يعرفون المسالك والطرق الداخلية، وأنَّ بالإمكان نصب الكمائن لهم وقنصهم فرقةً فرقةً، وقام بتعزيز المواقع والطرق المختلفة، وفاتَهُ أنَّ آل كثير يعرفون جيدًا جغرافية المدينة! وهكذا سمح القعيطي للكثيريين بإحداث فجوة في سور المدينة الشمالي المحاذي لمسجد باهارون الذي كان موقعه خارج السور، لتتسلل عبرها وسط الظلام طلائعُ القوة الكثيرية، وكانت خطَّة القعيطي أن يسمح لهذه القوة بالتوغل داخل المدينة، لتتم محاصرتها وإبادتها.

وتقول بعض الروايات إنَّ الخطة تمَّت هكذا ونجحت[1]. في حين تذكر روايات أخرى أنَّ الكثيريين أدركوا الخطة، خاصة أنَّ لهم عيونهم داخل المدينة، فلم تتوغل طلائعهم في أزقة المدينة الداخلية، وإنَّما اكتفت بالسيطرة أولًا على أطراف الجزء الشمالي الغربي من المدينة، ثم اتجهت نحو أطراف الجهة الشمالية الشرقية حيث البوابة الرئيسية. وتم لتلك الطلائع القضاء على مكامن القعيطيين ومخابئهم في تلك المواقع، كما استطاعت بلوغ البوابة الشمالية للمدينة (سدة العيدروس) وفتحتها للفرق الأخرى المنتظرة.

وما بزغ نهار اليوم التالي حتى أصبحت القوة الكثيرية مسيطرة على كل الجزء الشمالي من المدينة، وهي في طريقها للتوغل جنوبًا باتجاه الوسط (المركز)، ودارت بين الطرفين معارك طاحنة استمرت ستة أيام متواصلة، استطاع فيها آل كثير إحراز تقدم

---

١ ذكر المؤرخ عبدالرحمن السقاف أنَّ الكثيريين استطاعوا فتح ثغرة في السور والتسلل عبرها لداخل المدينة، لتتم بعدها محاصرة هذه القوة وإبادتها، بعد أن قُطِعَ عليها خط العودة. ينظر: إدام القوت ص١٧٧. وينظر: كذلك: بامطرف، محمد، المعلم عبدالحق ص١٨٦.

كبير، والاستيلاء على الجزء الأكبر من المدينة، وبلوغ بعض المواقع قبالة (دار ناصر)[1]، حيث مقرُّ السلطان القعيطي، ومحاصرته[2].

وكادت غالبية القوة اليافعية أن ترفع الراية البيضاء، لولا تدخل عدد من العلويين مفاوضين بين الطرفين حقنًا للدماء. وفي تلك المفاوضات التي وافقت عليها غالبية يافع اشترط آلُ كثير لإنهاء المعركة مغادرةَ يافع المدينة عن طريق البحر، مع ترك أسلحتهم[3]، والإبقاء على السلطان القعيطي في مقر إقامته للنظر في أمره لاحقًا.

وتذكر بعض المراجع أنَّ السلطانَ عَوَضًا وافق مبدئيًّا على هذه البنود، بعد أن لمس في أصحابه ميلهم للسلم، وكشف لهم الخطَّة التي أضمرها في نفسه، وفحواها أنَّه سيبقى صامدًا وحده في الحصن عندما يغادرون هم المدينة، ثم يقوم بتفجير الحصن بمَنْ فيه لحظةَ دخول أوَّل كثيري إليه، وأخبرهم بأنَّه سبق أن قام بتفخيخ هذا الحصن كاملًا ليكون جاهزًا للانفجار استعدادًا لمثل هذا الموقف!

لكن هذه الفكرة الانتحارية للقعيطي لم تعجب بعض قيادات يافع من آل المصلي وغيرهم، ففضَّلوا الصمود والاستماتة والموت بشرف[4]. فهم في لحظة بالغة الحرج (نكون أو لا نكون). واقترح بعضهم استعمال الحيلة وبث الإشاعات في صفوف

١ ذكر المؤرخ سعيد باوزير أن آل كثير استطاعوا في تلك المعركة التوغل في المدينة فاحتلوا (دار باجمال) المواجهة لدار ناصر مقر السلطان القعيطي. ينظر: صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٩٥.

٢ بامطرف، المعلم عبدالحق ص١٨٣. وتذكر مراجع أخرى أنَّه عند سيطرة آل كثير على دار ناصر، كان القعيطي متمركزًا في حصن بن عياش قبالته، أي على بعد أمتار جنوبًا.

٣ بامطرف، المعلم عبدالحق، ص٧٧.

٤ بامطرف، المعلم عبدالحق ص٧٧.

الكثيريين لعلَّ وعسى تتضعضع قواهم، منها الإشاعة التي تفيد قدوم فرق نجدة وتعزيزات جديدة.

وقد لاقت فكرة الاستماتة ونكون أو لا نكون، هوًى في نفس الجمعدار القعيطي، فخرج بنفسه من الحصن، ومعه عدد من أمراء يافع، شاهرين أسلحتهم تملؤهم الحماسة والعزيمة، معلنين مواصلة القتال.

ورفع هذا الموقف غير المتوقع من معنويات بقية جنودهم، خاصة بعد أن سرت الشائعات عن قدوم نجدات كبيرة من يافع والمكلا والهند، وانطلت هذه الحيلة على آل كثير أنفسهم، فظنوا أنَّ الأمر كما أشيع، وأنَّ هناك نجدةً قد وصل بعضها ليافع، وأنَّ بعضها في الطريق إليهم[1]. ولمَّا عاين آل كثير تلك الاندفاعة اليافعية ومدى استماتتهم في المقاومة، أيقنوا أنَّ الأمر كذلك، فتضعضعت فرقهم، وانهارت معنويات جنودهم، وتحول سير المعركة من إحراز آل كثير التقدم إلى تراجعهم القهقرى، وانسحب أمراؤهم سريعًا يجرون خلفهم أذيال الهزيمة.

ويعد هجوم آل كثير هذا، آخر هجوم مباشر على المدينة، إذ تبدلت بعدها موازين القوى، وتغيرت المعادلة السياسة بتدخل القوى الكبرى، كما تغير وضع يافع في حضرموت، وانتقلوا من الضعف إلى القوة، ومن وضعية المدافع إلى وضعية المهاجم.

١ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٩٥.

إنَّ خسائر آل كثير في تلك المعركة بلغت نحو (١٢٠) قتيلًا، و(٦٠) جريحًا، و(٢٠) أسيرًا. أمَّا من يافع فكان عدد القتلى (٢٤)، والجرحى (١٠). وغنموا كل الذخائر والمؤن التي خلفها وراءه الجيش الكثيري[1].

القعيطي يحصن المدينة ببناء السور والقلاع:

بعد أن انتصر الجمعدار عوض بن عمر القعيطي، ودحر آل كثير عن المدينة، فكَّر في ضرورة تأمين هذه الجوهرة الثمينة وعدم إضاعتها بأي حال من الأحوال، فهي المعوَّل عليها لتكون نقطة الارتكاز الرئيسة، والمنطلق لكل تحركاته المستقبلية الرامية لبسط نفوذه على عموم المناطق الساحلية الأخرى من جهة، وللتحكم في مصير المناطق الداخلية (حضرموت الوادي) من جهة أخرى، فبسيطرته على المدينة والساحل يستطيع الضغط على آل كثير المعتمدين كثيرًا على هذا الميناء في صادراتهم ووارداتهم، ولهذا توجب عليه أوَّلًا تأمين المدينة من أي هجمات مستقبلية محتملة يمكن أن يقوم بها آل كثير، أو غيرهم من القبائل الساحلية الموالية لهم أو المتحالفة معهم، أو تلك المناوئة لحكم يافع في المنطقة.

ولم يتأخر القعيطي في تأمين قلعته الجوهرة، إذ سارع بتكليف أخيه الجمعدار عبدالله بن عمر حاكم الشحر بالشروع في إعادة بناء سور المدينة وتحصينه وتمتينه؛ ليتحمل طلقات المدافع، وقد شمل هذا المشروع:

١ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٩٥، والسقاف، إدام القوت، الهامش ص١٧٧، والبكري، في جنوب الجزيرة العربية ص٢٠٥. وفيها أن عدد قتلى يافع (٢٦)، منهم الأمير عبدالله بن عوض بن محمد القعيطي، وسالم غالب بن علي الحاج، وثلاثة من آل تميم، وخمسة من الهنود.

١-تجديد بناء السور القديم، وتزويده ببعض الإضافات ليكون أكثر قوةً ومتانةً وارتفاعًا.

٢-توسعته ليشمل بعض الأماكن التي لم يشملها سور المدينة القديم.

٣-تحصين السور بالقلاع والأكوات الموزَّعة على مختلف امتداداته، وعددها (٣٤) كوتًا (قلعة)، إلى جانب البوابتين الرئيستين للمدينة، سدَّة (بوابة) العيدروس في الجهة الشمالية، وسدة الخور في الجهة الغربية. وبناء النوبتين، وهما قلعتان حجريتان على طرفي لسانين بحريين يمتدان لداخل البحر من الجهتين الجنوبية الشرقية، والجنوبية الغربية.

٤-إعادة بناء القصور والدوائر الحكومية في الداخل وتجديدها، كدار ناصر وحصن بن عياش، بعد استكمال بناء السور.

٥-تجديد بناء الأكوات المنتشرة خارج المدينة على طريق القوافل باتجاه قرية (الواسط) ومدينة غيل باوزير؛ لتقوم بمهام المراقبة وحفظ الطريق.

وقد رُصِدَ لهذا المشروع الضخم الذي استمر العمل فيه قرابة العشرين عامًا[١] مبالغ طائلة، إلا أنَّها لم تفِ بكل احتياجات البناء ولا احتياجات العمَّال، واستنزفت خزانة هذه الدولة الناشئة، مما دفع السلطان القعيطي إلى فرض الجبايات على جميع المواطنين، وعلى التجار بصورة أكبر، وفرض على المواطنين من ذوي الشرائح الكادحة للعمل سخرة في بناء هذا الصرح الكبير الذي استهدف في المقام الأول تأمينه، وتأمين دولته ثانيًا[٢]،

١ بدأ العمل في مشروع السور في المدة من (١٢٨٤-١٣٠٥هـ/ ١٨٦٧-١٨٨٧م). بامطرف، مسرحية سور الشحر ص١.

٢ لمعرفة المزيد عن بناء هذا السور، ينظر: بامطرف، محمد، مسرحية سور الشحر، طبعة قديمة على ورق الإستنسل، نشر فرقة الشحر للمسرح التابعة لإدارة الثقافة والسياحة م/ الشحر.

وقد أُعفِيَ من العمل بعض فئات المجتمع كالسادة العلويين، ورجال دولته، وجماعة الهنود الذين يُطلق عليهم (البانيان)، وهم التجار الهندوس، وكانوا موجودين بكثرة في المدينة في ذلك العهد.

القعيطي يُسيِّر حملةً لتأديب آل كثير في الداخل الحضرمي:

حين شعر القعيطي بالاطمئنان على حال المدينة في أثناء بنائه السور، فكَّر في ضرورة القيام بخطوة استباقية والهجوم على معاقل آل كثير في الداخل الحضرمي، حتى لا تتكرر هجماتهم على الساحل، وللتضييق عليهم في الداخل، بل للسيطرة على عاصمتهم إن أمكنه ذلك[1].

وحشد السلطان عوض بن عمر القعيطي سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م جيشًا تجاوز تعداده سبعة آلاف مقاتل، معظمهم من يافع (العسكر)، ومن المماليك الأفارقة (الحاشية)، والهنود (الرويلة)، كما انضم إلى هذا الحشد فرق من قبائل آل تميم ونهد والكُرب ودهم ويام. وقد شارك في هذه الحملة النقيب صلاح بن محمدالكسادي بخمسمائة مقاتل من أتباعه، وبمبلغ (١٠٠.٠٠٠) ريال، استدانها من القعيطي !![2] وقد تولى السلطان عوض تجهيز هذا الجيش بمختلف المعدات والأسلحة والمؤن التي يحتاجها، وكانت الدعاية الحربية التي سبقت هذه الحملة قد شاعت وذاعت، وبلغ

١ بامطرف، المعلم عبدالحق ص١٦٣.

٢ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٩٦، ومحمد بن هاشم، رحلة إلى الثغرين ص٥٢. وعند الجعيدي أن المبلغ (١٦٠أ٠٠٠) ريال. ينظر: الأوضاع الاجتماعية والثقافية ص١٨.

صداها مسامع آل كثير في الوادي، وأرعبتهم. وقد أسهم بعض الشعراء الشعبيين في هذه الدعاية والترويج لها عبر قصائدهم التي تصف هذه الحملة وتُهوِّلها، مثلما نجد في قصيدة الشاعر الشعبي الشهير عمر محمد باعطوة[1]، وهو معاصر للحملة، والتي يقول فيها:

طوفان لا حق نوح يذكر عنده — ذلا غرام ! حتى الجبل با يزوله

ومدافع الرحمن مثل الراعد — تقذف صواعق بالنقم مدخوله

قد شفتها بالشحر وقت المكرهة — سمعون منها قد يبسن سيوله

تخرب دمن، وامًّا الحوامل تنسف — من رجة الباروت حل شعوله

يا طارف ارفع ذه بلاء يحمينا — الله من آفاته المجهوله

وفوق ذا يافع، ونِعمك يافع — رجال من ذاك الجبل منقوله

أهل الرياسة دائمًا تزهى بهم — وايضا الحروبة هي بهم مكفوله

مايخيب مسعاهم إذا الأمر اشتكل — مايضيمهم بعد الطلب وشكوله[2]

وبالرغم من ذلك التجهيز الكبير والتخطيط الجيد للحملة مع الدعاية التحريضية التي سبقتها، فقد فشلت فشلًا ذريعًا[3]، وسقط عدد من قادتها قتلى كالقائد علي صالح الجهوري، وابنه عبدالقوي، وأحمد عامر الحضرمي، وكذا العشرات من يافع وغيرهم.

١ تنظر ترجمته عند: حداد، عبدالله صالح، معجم شعراء العامية الحضارمة ص٢٥٤.

٢ ينظر: للتوسع: بامطرف، المعلم عبدالحق ص١٦٦.

٣ تنظر تفاصيل هذه الملحمة عند: باوزير، سعيد، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٩٦-٢٩٨.

ويعزو بعض المؤرخين فشل هذه الحملة إلى استماتة آل كثير في الدفاع عن معاقلهم، وسوء التنسيق بين القيادات اليافعية، وتنازعها في اتخاذ القرارات، والخلافات القديمة العالقة بين بعض الفرق اليافعية المشاركة في الحملة[1]، فضلًا عن مشاركة بعضهم على مضض في هذه المعركة التي ليست لهم أي رغبة فيها[2]. وهو ما تجسد في موقف النقيب الكسادي حاكم المكلا، ((فقد كان يتوجس شرًّا من مطامع القعيطي التي لا تقف عند حد، ويرى أنَّ انتصار القعيطي في هذه المعركة الحاسمة ليس في صالحه، ثم هو في نفس الوقت يخشى أن تُهاجَم المكلا وهو على رأس أكثر جنوده في داخل حضرموت))[3]. كما أنَّ مرور بعض تلك الفرق اليافعية ببعض الأراضي التي لا تدين لهم بالولاء، قد أثار حفيظة القبائل القاطنة فيها، ودفعها لمهاجمة هذه القوات، مثلما حدث حينما مرَّت إحدى الفرق اليافعية على طريق عقبة العرشة بوادي عرف متجهةً لعقبة الفقرة، بهدف بلوغ تريم ومحاصرتها، إذ هُوجِمَت هذه الفرقة بغتةً، من قِبَلِ بعض الفصائل الحمومية، وقُتِلَ قائد الفرقة علي الجهوري مع ابنه وعشرين آخرين من يافع، واستُولِيَ على كل معداتهم. وهذه المعركة هي التي اشتهرت باسم (الغييضات)[4].

١ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٥٤، وبامطرف، المعلم عبدالحق ص١٧٣.

٢ عن معارضة الكسادي لهذه الحملة وأسبابها، ينظر: بامطرف، المعلم عبدالحق ص١٦٣.

٣ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٩٨، وبامطرف، في سبيل الحكم ص٦٨.

٤ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٩٨، والملاحي، الصراع الحمومي القعيطي ص٢٢٧.



صورة جانبية لطرف من سور الشحر جهة الشرق
وفي أقصاه أحد الأكوات



صورة قديمة لبقايا سور الشحر بموقع الخيشة على مسيال سمعون،
وتظهر في طرفه الغربي إحدى القلاع (الأكوات)

وللمؤرخ عبد الرحمن عبد الكريم الملاحي خريطة للمدينة من تصميمه، توضح بالتفصيل سور المدينة، مع مختلف المواقع والحويف والأسواق والمساجد والحصون والمقابر، في المدَّة من عام (١٢٥٦-١٣٥٩هـ/ ١٨٤٠ - ١٩٤٠م).



رسم الأستاذ عبدالرحمن عبدالكريم الملاحي



صورة قديمة لكوت المشراف، التقطها الألماني هانس هيلفريتس،
ويظهر فيها بجانب الكوت أحد جنود الحراسة



صورة قديمة لدار ناصر (قصر الحكومة)

تمدد القعيطي وسيطرته على مناطق الساحل الحضرمي:

بالرغم من تلك الهزيمة المنكرة التي مُنِيَ بها أمام آل كثير في الداخل الحضرمي، وبالرغم من العلَّة التي أصابته فأقعدته أسابيع عن العمل[1]؛ لم تُحبَط معنويات القعيطي، ولم تتقلَّص طموحاته التوسعية، كما أنَّ هزيمته هذه جعلته يفكر جديًّا في الاستيلاء أوَّلًا على كل المناطق الساحلية بما فيها المكلا، وطرد الكسادي منها، ثم التفرغ للداخل الحضرمي، لذلك قرَّر البدء بالاستيلاء على مدينة الحامي، فأرسل قوة قدرت بثلاثمائة مقاتل، استطاعت السيطرة على الحامي بسهولة، وكان هذا سنة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م[2]. ثم تقدمت قواته نحو الشرق، فاحتلَّت رأس باغشوة، فالقرن، فالديس الشرقية سنة ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٨م[3]. وفي سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م أرسل خمسمائة مقاتل استطاع بهم احتلال (قصيعر)، بعد قتال عنيف مع حاميتها[4]. وبهذا تمت للقعيطي السيطرة على كل

---

١ أصيب الجمعدار عوض بن عمر بعد هذه المعركة بشلل نصفي أقعده أسابيع. بامطرف، المعلم عبدالحق ص١٧٣. وللمزيد عما جرى ينظر: المرجع نفسه ص١٧٢.

٢ أورد المؤرخ عبدالله باحسن في تاريخه رواية مضطربة عن سيطرة آل القعيطي على الحامي، إذ ذكر أنَّ الجمعدار عبدالله بن عمر القعيطي قتل حاكم الحامي النقيب عبدالله بن سعيد الكسادي بعد صلاة الجمعة، أول جمعة في رمضان سنة ١٣١٠هـ. وفي الوقت نفسه ذكر أنَّ الجمعدار عبدالله توفي يوم الأحد ٢١ من ربيع الأول سنة ١٣٠٦هـ! ينظر: نشر النفحات المسكية ص٤٧٥.

٣ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٣٠٤، وبامطرف، في سبيل الحكم ص١٠٠

٤ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٣٠٤. في حين أشار المؤرخ عبدالرحمن السقاف، بناء على رواية الأمير محمد بن عبدالله بن عبدالودود أنَّ القعيطي سنة ١٢٩٤هـ جهز عددًا من السفن والمقاتلين، واتجه بهم إلى قصيعر، والتي لم يكن بها في ذلك الحين أحد من آل كثير، فسيطروا عليها دون مقاومة، ولما سمع آل كساد الموجودون في الريدة أنَّ هذه القوة قادمة إليهم، حملوا أمتعتهم وأرادوا الفرار، لولا أن احتضنهم المقدم سالمين بن حسن بن قحطان العليي، و،سكنهم منطقة عسد الجبل، وظلوا من حينها تحت حماية الحموم. ينظر: إدام القوت ص٢٢٧-٢٢٨.

مناطق الشريط الساحلي شرق مدينة الشحر، وما يُعرَف بـ(المشقاص). ليبدأ القعيطي بعدها مسعاه التوسعي غربًا، إذ سيطر أوَّلًا على (شحير)، التي لم تقاومه قبائلها بعد موافقته على شروطهم المعروضة، والمتمثلة في إعفائهم من الضرائب، والإبقاء على عوائدهم السابقة[1]. وبعدها اتجه إلى مدينة (غيل باوزير).

سبق أن أشرنا إلى أن مدينة (الغيل) قد أعلنت ولاءَها للقعيطي سنة ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م، إثر انتصاره الأوَّل على آل كثير في الشحر، حينما وفدت إليه قبائلها من (آل عمر باعمر)؛ لإعلان قبولهم بالتبعية له، وأنَّ القعيطي أرسل إليهم مملوكه (عنبر عبيد)[2]؛ لإدارتها نيابةً عنه. واستمر عنبر مدَّة يدير غيل باوزير، لكنَّ العولقي وآل كثير ومعهم الكسادي، عملوا على تحريض آل عمر باعمر على التمرد على القعيطي، في محاولة منهم لتشكيل جبهة موحدة ضد القعيطي وأطماعه، وكان لهم هذا، إذ قام آل عمر باعمر بطرد النائب عنبر، واستنجد عنبر بآل بن همام اليافعيين في الغيل[3]، ولكن دون فائدة. كما جهَّز ذلك الحلف (الثلاثي) قوةً عسكريةً مشتركة، أرادت احتلال الشحر سنة ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م، لكنَّ القعيطي تصدَّى لها وهزمها في معركة (المشراف) الشهيرة[4].

---

١ السقاف، إدام القوت ص١٤٠.

٢ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٩٩. ويقال إن عنبر عبيد هذا من موالي آل الرباكي.

٣ ينظر: السقاف، إدام القوت ص١٥٠.

٤ بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت العام ص١٣٠، وفي سبيل الحكم ص٩٧.

لقد أغضب هذا الحلف الثلاثيُّ القعيطيَّ كثيرًا، فسعى للانتقام وردِّ الصاع صاعين، فاتَّجه غربًا، مرسلًا قوةً كبيرةً قُدِّرَ عددها بألف وستمائة مقاتل[1]، واستطاعت هذه القوة، كما أشرتُ سابقًا، بسط نفوذها على (شحير)، ثم الاتجاه شمالًا نحو غيل باوزير ومحاصرتها. وبالرغم من استماتة آل كثير والعولقي ومعهم آل بن عمر باعمر، في الدفاع عن الغيل، استطاع القعيطي سحق صمودهم وقوتهم بمدافعه، وتمكن من احتلال غيل باوزير، بعد أن مزق كل المدافعين شر ممزق. وبدخول القعيطي الغيل ألقى القبض على مَنْ بقي على قيد الحياة من آل بن عمر باعمر، وأودعهم سجنه في مدينة الشحر، ونفى آخرين إلى الخارج، وكان هذا في شهر رجب ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م[2].

وبعد الغيل اتجه القعيطي بقواته نحو (الصداع) وقرية (الحزم)، حيث (حصن العولقي) ومقاتلوه المتحصنون فيه، وبالرغم من شدة المقاومة التي أظهرها المقاومون داخل الحصن وصبرهم على الحصار المفروض، تمكَّن القعيطي في النهاية من إجبارهم على الاستسلام، كما تمكن من دكِّ حصن العولقي وتسويته بالتراب، في رسالة واضحة لآل العولقي أنَّه انتصر عليهم في ذلك التحدي القديم. ولم يكتف القعيطي بهذا، وإنَّما أخذ كمية من تراب أنقاض هذا الحصن[3]، وبعث بها إلى الهند، ليتم نثرها أمام ناظرَيْ

---

١ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٣٠١. وكان من قادة هذه الحملة: سعيد أحمد الحضرمي، وسعيد بن علي النقيب، وسعيد حيدر البكري. ينظر: البكري، في جنوب الجزيرة العربية ص٢٠٥.

٢ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٣٠١، وبامطرف، في سبيل الحكم ص٩٨، وحداد، رجال الشحر في شرق إفريقيا ص٨٨.

٣ بامطرف، المختصر في تاريخ حضرموت العام ص١٣٠، والسقاف، إدام القوت ص١٥٦. وفي موضع آخر ذكر أنَّ السلطان عوض أحضر بوابة حصنه الواقع فوق هضبة بمنطقة الحزم بقرية الصداع. إدام القوت ص١٦٠. =

محسن بن عبدالله العولقي، لتتبخر بعدها أحلام العوالق في إقامة دولة لهم بحضرموت. وكان هذا سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م. وكانت نهاية محسن العولقي، كما قيل، هي الموت غبنًا بعد هذه الحادثة سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م، فخلفه ابنُه حسين[١].

إنَّ هذا الحصن الذي بناه العولقي على رأس قارةٍ مرتفعةٍ، وأنفق عليه آلاف الروبيات[٢]، يُعدُّ من أعظم المعالم العمرانية التي شُيِّدَت في حضرموت؛ لفرادة تصاميمه، وما حواه من صنوف الزخرفة والفنون، وكان التأثير الهندي في تصاميم معالمه واضحًا[٣]، وقد عُدَّ هذا الحصن رمزًا للقوَّة العولقية، ولطالما تغنَّى به الشعراء الشعبيون في قصائدهم ومساجلاتهم، ومن ذلك قول أحدهم:

سلام ألفين يا حصن مبني فوق قارة بناك العـــولقي، ما يعول بالخسارة.

=أما في كتاب الزعيم فأشار إلى أن الجمعدار عبدالله هو من قاد تلك الحملة على حصن العولقي، وأنه بعد سقوط الحصن حمل من ترابه ألف كيس، وأرسلها إلى الهند، وتولى الجمعدار عوض نثرها أمام موقع (شاد منارة). ينظر: ترجمة الزعيم المحضار ص٣٥.

١ المرجع السابق، الصفحة نفسها. وفي المذكرة التاريخية للملاحي (مخ) أن هدم حصن العولقي كان سنة ١٢٩٢هـ.

٢ يقال إنَّ نفقات العولقي على الحزم والصداع بلغت ثمانية آلاف ألف روبية! إدام القوت ص١٥٦. أي (٨٠٠٠٠٠٠) ثمانية ملايين روبية! وقد ذكر المؤرخ أحمد الملاحي في مذكرته التاريخية (مخ)، نقلًا عن مذكرات الشيخ عمر بادباه المسماة (أروى الرواء بأخبار عمر مبارك بادباه) أنَّ العولقي بعد إبرامه اتفاق الاستسلام مع القعيطي، نقل كل ما خف وزنه وغلا ثمنه من حصنه هذا إلى مدينة الشحر في قطار من الإبل شبه متصل ليلَ نهارَ لمدة شهر كامل! وهي المدة التي حُدِّدت له في اتفاقية الاستسلام لنقل أفراد أسرته وحاشيته وممتلكاته من ذلك الحصن. وبالرغم من بعض المبالغة في الوصف إلا أن فيه دلالة على مدى الغنى والثراء الذي كان يتمتع به العولقي.

٣ للمزيد من التفاصيل عن هذا الحصن، ينظر: باوزير، محمد، كراسات في تاريخ حضرموت وتراثها ص٩٠. وينظر: كذلك: الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية (مخ). ملحق في نهاية المخطوط.

وثمة إشارة أوردها المؤرخ أحمد الملاحي تفيد أنَّ الأبواب التي كانت موزعة على سور الشحر، ومنها بوابتا سدَّتي العيدروس والخور، هي من تلك الأبواب التي جلبها القعيطي من حصن العوالق بعد تدميره[1].

وهكذا استطاع القعيطي السيطرة على معظم مناطق ساحل حضرموت، ولم يتبق لإكمال مخططه التوسعي والسيطرة على كل حضرموت، إلا بعض المدن والقرى التي يسيطر عليها الكثيري في الداخل الحضرمي، والكسادي في مناطق ساحل حضرموت الغربية، بالإضافة إلى بعض الأراضي المتفرقة التي تتملكها بعض القبائل هنا وهناك، والتي لن يلاقي القعيطي صعوبةً في كسر شوكتها وإخضاعها. ولكي يتفرغ القعيطي للساحل ويتمكن من إزالة الكسادي، أبرم سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٦م اتفاقيةً مع السلطان الكثيري وآل تميم لترسيم الحدود بينهما، مع اعتراف كلٍّ منهما بسلطة الآخر على أراضيه المحددة، وهي الاتفاقية التي عُرِفَت بـ(صلح المسندة)[2].

وكما نرى فإنَّ هدف القعيطي من هذه الاتفاقية إلى جانب أهدافها المعلنة، ضمانُ عدم تدخل آل كثير في حروبه الساحلية القادمة أو تمدداته. وقد أشار إنجرامس في تقريره أنَّ القعيطي استطاع سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٦م مهاجمة تريم، واحتلال غيل بن يمين والريَّان ومعيان المساجدة[3].

١ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية (مخ) ص٣٠٤.

٢ بامطرف، في سبيل الحكم ص١٠٠. وللتفاصيل، ينظر: الملحق الثاني بالمرجع المذكور ص١٥٨.

٣ إنجرامس، تقرير عن الحالة في حضرموت ص٣٨.

استيلاء القعيطي على المكلا:

بعدما استولى القعيطي على (قصيعر) سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م توفي حاكم المكلا النقيب صلاح بن محمد الكسادي[١]، فخلفه ابنُه عمر بن صلاح[٢]، وأراد القعيطي استغلال وفاة النقيب، وانشغال قواته بالحرب في دوعن، فعاد من سفرته في الهند، واستقرَّ أوَّلًا عِدَّة أشهر في مدينة الشحر، ثم ذهب بعدها إلى النقيب عمر الكسادي مُعزِّيًا[٣]، وبصحبته قوةٌ من الجنود، وهناك صارح النقيب عمر الكسادي برغبته في استعادة الدَّيْنِ الذي على والده، والذي يُقدَّر بمائة ألف ريال[٤]، في محاولة منه للضغط على النقيب كي يرضخ، ويقبل بالعرض البديل الذي قدَّمه له، وهو إسقاط الدَّيْن الذي على أبيه، ويدفع له القعيطي مائةً وخمسين ألف ريال، مقابل تنازل الكسادي عن نصف المكلا وبروم والحرشيات[٥].

---

١ عند باوزير: توفي هذا الأمير سنة ١٢٨٨هـ. ينظر: صفحات من التاريخ الحضرمي ص٣٠٥. وعند: السقاف، في إدام القوت، توفي في ربيع الآخر سنة ١٢٩٠هـ. ينظر: ص١١٤.

٢ ترجمته في: الجامع ص٤٠٧. ووصفه إنجرامس في تقريره بـ(المريض عقليًّا). ينظر: الحالة في حضرموت ص٣٧.

٣ السقاف، إدام القوت ص١١١. ولتفاصيل تلك الأحداث ينظر: بن هاشم، رحلة إلى الثغرين ص٥٢-٥٥.

٤ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٣٠٥. وعند إنجرامس أنَّ المبلغ ١٦٠٠٠٠ريال. ينظر: تقريره ص٣٨.

٥ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٣٠٥. وذكر السقاف أن القعيطي لَمَّا سار إلى المكلا بغرض التعزية ((وبعد أن اجتمع له بها من عسكره نحو ثلاث مئة دخلوا أرسالًا، طالب بذلك الدَّين، فسَفَرَ الناسُ (تدخلوا للصلح) بين عمر بن صلاح والقعيطي، على أن يحتل القعيطي ناصفة المكلا إلى أن يستوفي ماله من الدين. ولكن عمر صلاح استدعى عسكره من كل ناحية، وأذكى نار الحرب. وعندما أحس القعيطي بالهزيمة استوقف الحرب، ونجا بنفسه)). إدام القوت ص١١١. وينظر: بامطرف، في سبيل الحكم ص١٠٢، وإنجرامس، تقرير عن الحالة ص٣٨. مع اختلاف في تقدير مبلغ هذا الدين.

ولم يجد النقيب الكسادي بُدًّا في النهاية من الرضوخ للقعيطي، والقبول بعرضه[1]. ولكنَّه بات يضمر له العداء، ويحيك المؤامرات السرية؛ بغيةَ التخلص منه، إلا أنَّ مساعيه باءت بالفشل، وأخذ العداء بين الطرفين يستحكم ويظهر للعلن، ثمَّ تحول لاحقًا إلى اقتتالٍ، وحاول آل كثير التدخل إلى جانب الكسادي[2]، ممَّا دفع القعيطي إلى إشراك حكومة عدن لحسم الموقف[3].

وثمة وثيقتان أوردهما المؤرخ عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف في كتابه (إدام القوت)، عن اتفاق الهدنة التي عُقِدَت بين الجمعدارين عوض بن عمر القعيطي وأخيه عبدالله حاكم الشحر من جهة، والنقيب عمر بن صلاح الكسادي من الجهة الأخرى برعاية بريطانيا. حُرِّرَت الأولى سنة ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م، والأخرى سنة ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م. فليراجعها من أراد الاستزادة[4].

وخلال هذا الصراع، حاول الكسادي الاتصال بآل كثير والتحالف معهم لتدعيم جبهته، ولكن دون فائدة. وقد جاءت نتائج المفاوضات مع حكومة عدن لمصلحة القعيطي[5]،

١ عن بنود اتفاقية المناصفة، ينظر: بامطرف، في سبيل الحكم ص٩٢.

٢ من معارك آل كثير انتصارًا للكسادي معركة (التخم)، وكان النصر فيها لآل كثير. ينظر: باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٣٠٦.

٣ السقاف، إدام القوت ص١١٧. وتنظر مقترحات حاكم عدن لحسم النزاع عند: بامطرف، في سبيل الحكم ص١٠٢.

٤ السقاف، إدام القوت ص١١٥-١١٦، ص١٢٠.

٥ لتفاصيل هذا الصراع، ينظر: السقاف، إدام القوت ص١١٤ ومابعدها، وابن هاشم، رحلة إلى الثغرين ص٥٣، والبكري، في جنوب الجزيرة العربية ٢١٢.

وأُجْبِرَ النقيب الكسادي في النهاية على مغادرة المكلا سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م، ليستقر في منفاه بزنجبار[١].

وهكذا آل أمرُ المكلا وملحقاتها (بروم) سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م إلى أسرة آل القعيطي، يتداول حكمها السلطان عوض وأخوه عبدالله بن عمر، إلى أن توفي هذا الأخير سنة ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م[٢]، لينفرد السلطان عوض بحكم البلاد، ويسعى لتوريث السلطة لأبنائه وحفدته من بعده. وكان لبريطانيا الدور الأكبر في تمكين القعيطي وسيطرته على المكلا، بعد أن انحازت إليه كليًّا في صراعاته مع الكسادي، ذلك أنَّ مصلحتها السياسية اقتضت منها نصرة هؤلاء الحكام الجدد[٣]، بدلًا من دعم الاثنين في صراعاتهم، ولأنَّ التعامل ((مع أمير واحد قوي، خيرٌ من التعامل مع أميرين ضعيفين)). وكان القعيطي في الرؤية البريطانية هو الأمير القوي[٤].

القعيطي ومعاهدة الصداقة مع الإنجليز:

بعد أن صَفَت المكلا وملحقاتها لحليفهم القعيطي؛ عمل الإنجليز مباشرةً على تكبيله وتكبيل مناطق نفوذه في الساحل بالمعاهدات والاتفاقيات، ومنها اتفاقية أو

١ في ترجمته عند بامطرف: كان وصول النقيب عمر بن صلاح جزيرة زنجبار في ١٨يناير ١٨٨٢م، ومعه أفراد أسرته وجماعة من أعوانه، وقد قوبل بحفاوة كبيرة من قبل سلطانها برغش بن سعيد البوسعيدي. الجامع ص٤٠٧.

٢ السقاف، إدام القوت ص١٢٠.

٣ باوزير، أحمد، شهداء القصر ص٣٩.

٤ الجعيدي، عبدالله، الأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية في حضرموت ص١٩.

(معاهدة الصداقة) الشهيرة التي عقدت في ١٢ من رجب سنة ١٢٩٩هـ/ ٢٩ مايو عام ١٨٨٢م[1]. وقد وقَّعها بالأصالة عن نفسه ونيابةً عن أخيه عوض وورثتهما، جمعدارُ الشحر عبدالله بن عمر القعيطي، و(جيمس بلير) المقيم السياسي في عدن، بحضور الشهود صالح محمد جعفر، و(س. هـ. سيلي ريبون) نائب الملكة والحاكم العام للهند.

وذكر المؤرخ باحسن في تاريخه أنَّه بعد التوقيع على هذه الاتفاقية وصل ((مركب الإنجليز من بندر عدن، وفيه بعض حكام الإفرنج، وأخرج إعلانًا وضعه في سوق الشحر، مرسومًا فيه أنَّ الدولة الإنكليزية سعد الدولة القعيطية. ووضع حينئذ بنديرة الإنكليز على بعض البيوت ببندر الشحر، وعند ذلك انقبض كل من القبائل المعاندين عن المخالفة))[2].

١ تنظر بنود هذه المعاهدة عند: باوزير، أحمد، شهداء القصر ص١١٦، والكاف، سقاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا ص١٤٦، والسقاف، إدام القوت ص١٢١. مع التنبيه على أن صاحب إدام القوت جعل تاريخ هذه المعاهدة ٢٩ مارس ١٨٨٢م. والصحيح ما أثبتناه. ووهم المؤرخ بامطرف أيضًا في مختصره حين ذكر أن هذه المعاهدة كانت سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م. ينظر: المختصر في تاريخ حضرموت العام ص١١٥.

٢ باحسن، عبدالله، نشر النفحات المسكية ص٤٧٥.

الشحر العاصمة الأولى للسلطنة القعيطية

بعد سيطرة آل القعيطي على مدينة الشحر سنة ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م، لم يستطع أحد انتزاعها منهم، بالرغم من بعض المحاولات التي قام بها آل كثير وحلفاؤهم آل كساد، وذهبت محاولاتهم تلك سُدى، لتظل المدينة بأيدي القعيطيين الذين اتخذوها عاصمةً أولى لسلطنتهم[1]. ويُعدُّ الجمعدار عبدالله بن عمر القعيطي أوَّلَ حاكمٍ قعيطيٍّ على الشحر نيابةً عن أسرة آل القعيطي. وكانت معظم إقامات عبدالله بحضرموت في الشحر، ثم تأرجحت مُدَدُ مكوثه بها، خاصة بعد سقوط مدينة المكلا في أيديهم سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م؛ إذ أصبحت المكلا بحاجة إلى أحد الجمعدارين لتولي إدارتها وتنظيم شؤونها، فكان عبدالله يتردد على المدينتين في حال غياب أخيه، وعند عودة أخيه من الهند يعود هذا للشحر. وهكذا ظل الجمعدار عبدالله بن عمر القعيطي حاكمًا على الشحر إلى أن توفي يوم الأحد ٢١ من ربيع الأول سنة ١٣٠٦هـ/ ٢٥ نوفمبر ١٨٨٨م[2]، بعد أشهر من توقيع (معاهدة الحماية) مع بريطانيا[3]. وقد دُفِنَ بالمدينة داخل

١ يرى بعضهم أنَّ العاصمة الأولى للسلطنة هي شبام وليس الشحر، منهم السلطان غالب بن عوض القعيطي (الثاني)، وخاصة في كتاباته الأخيرة. ينظر: كتابه: (الشيخ علي بن محمد العماري كما يتذكره السلطان غالب القعيطي). وتنظر: مجلة حضرموت الثقافية الصادرة عن مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، العددان (١ ، ٢)، يوليو –ديسمبر ٢٠١٦م.

٢ باحسن، عبدالله، نشر النفحات المسكية ص٤٧٥، وبامطرف، في سبيل الحكم ص١٥٥، وحداد، رجال الشحر في إفريقيا ص٨٣. وعنده أن الوفاة كانت في ١٢ من ربيع الأول.

٣ وقعت هذه المعاهدة في تاريخ ١ مايو ١٨٨٨م الموافق تقريبًا ١٩ شعبان ١٣٠٥هـ. وعن بنود هذه المعاهدة، ينظر: باوزير، شهداء القصر ص١١٨، والكاف، سقاف، حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا ص١٤٩، وبامطرف، في سبيل الحكم ص١٦١.

قبَّة الشيخ عبدالله بلحاج بافضل[1]. ووُصِفَ يومُ وفاته بأنَّه كان يومًا مشهودًا. وفي عهده، كما أشرنا، كان البدء بمشروع سور الشحر، لكنَّه توفي دون إتمامه، ودون إتمام حصن بن عياش بعد ((أن أفنى في عمارته فلوسًا كثيرة، إلا أنَّه أخذ به إلى الجانب الشرقي أكثر، وأبقى شيئًا منه في جانبه القبلي، وأحكم عمارته المذكورة، وقبل إتمامه توفي))[2]. كما لم يكمل مشروع بناء منتجع (الباغ) الذي باعه لاحقًا السلطانُ عمر لآل الكاف[3].

وبعد وفاته تولى إدارة السلطنة ولداه منصَّر وحسين، إذ إنَّ أكثر إقامة عمهما السلطان عوض كانت في الهند، أمَّا المكلا فقد جعل السلطانُ عوض نائبَه عبدَالخالق الماس عمر الحبشي حاكمًا عليها.

وهكذا أصبح الأمير حسين بن عبدالله[4] (ت:١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م) قائمًا بأعمال الشحر في السلطنة، وأخوه الأمير منصَّر قائمًا بأعمال شبام. وقد فكَّر السلطانُ عوض في وسيلة لإزاحة الأخوين، وحصر السلطنة في أبنائه هو، فأرسل ابنه الأمير غالب بن عوض

١ باحسن، نشر النفحات المسكية ص٤٧٥.

٢ باحسن، نشر النفحات المسكية ص٤٧٥، وابن هاشم، رحلة إلى الثغرين ص٥٠.

٣ نص الوثيقة التي وافق فيها السلطان عمر بن عوض القعيطي على بيع الباغ وقطعة أرض أخرى قريبة خارج السور شرقًا بجانب مسلف عيديد سنة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م، أورده ابن هاشم في كتابه: رحلة إلى الثغرين ص٤١.

٤ تنظر ترجمته عند: بامطرف، الجامع ص١٧٥. وللأمير حسين بن عبدالله ابنٌ يدعى سيف بن حسين القعيطي، وهو من مواليد الشحر، ونشأ وتثقف في حيدر آباد، حيث درس القانون والأدب في الجامعة العثمانية، وتوفي سنة ١٩٦٨م، له عدة مؤلفات ذكرها المؤرخ عبدالله الناخبي في كتابه يافع في أدوار التاريخ ص٤٢. ومنه أخذنا هذه الترجمة للابن.

إلى الشحر؛ ليقيم فيها، فحدثت منافسة بين الأميرين حول إدارة شؤون البلاد[1]، فما كان من الأمير حسين الذي أحس بتهميشه وسلبه سلطته، إلا الاستنجاد بأخيه منصر، الذي تحرك إلى المكلا معلنًا استيلاءه عليها، ممَّا دفع بالسلطان عوض إلى العودة مسرعًا من بلاد الهند إلى المكلا، والنظر في أحوال ابني أخيه[2]. واستطاع السلطان عوض بحنكته إبعاد ابن أخيه منصَّر إلى غيل باوزير ليتولى إدارتها[3]، واستقدام ابنه الجمعدار غالب من الشحر إلى المكلا، وترك الجمعدار حسين على الشحر. وبهذا هدأت الأمور، ولكن رغبة الجمعدار لم تهدأ، لا سيما أنَّه يدرك تمامًا مطامح أبناء أخيه، وخاصةً حسينًا الذي لا يرضى أن يكون نائبًا للسلطان القعيطي كبقية النواب والولاة، وإنَّما يطمح إلى سلطنة مستقلة[4]، فهو القائل في إحدى قصائده الشعبية[5]:

قصدي كما الناس لا زايد ولا قاصر — والدون ماباه وأحسن حكم بوشترة
به القناعة وعند الناس باخابر — بالعز وإلا دخلنا في وسط زمره
في ملك محبوب مابا جار باعامر — ولا حكومة مخارش هو وباصرة

---

١ باحسن، نشر النفحات المسكية ص٤٧٦، والبكري، في جنوب الجزيرة العربية ص٢١٥.

٢ باحسن، نشر النفحات المسكية ص٤٧٦.

٣ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٤ ينظر: البطاطي، عبدالخالق، إثبات ما ليس بمثبوت ص٤٣، وحداد، عبدالله، الشاعر الشعبي فرج بلسود ص٣٢. وتنظر ترجمته عند: حداد، عبدالله، معجم شعراء العامية الحضارمة ص٦٧.

٥ للاطلاع على باقي أبيات القصيدة ينظر: حداد، عبدالله، معجم شعراء العامية الحضارمة ص٦٨. وقد أورد المؤرخ عبدالخالق البطاطي بيتين منها برواية مختلفة عمَّا أورده حداد. ينظر: إثبات ما ليس مثبوت ص٤٣.

وكان لبعض المصلحين أثرٌ في نزع فتيل ذلك الصراع الذي نشب بين الجمعدار عوض وأبناء أخيه عبدالله، وخاصة منصب عينات السيد أحمد بن سالم بن سقاف بن الشيخ أبي بكر بن سالم[1]، لكنَّه كان سلامًا مؤقتًا.

وأخبار أبناء عبدالله القعيطي مع عمهم ذاع صيتها وانتشر في أرجاء القطر الحضرمي كافَّة، بل بلغت المهجرَ الإفريقي، فهذا الشاعر الشعبي سالم عبود بانبوع، الذي كان حينها بجزيرة زنجبار، يقول مستهزئًا بمشعلي الفتنة:

**هذا خرج فصل والثاني كتب واخبار		مادريت نكتم سراري أو نخبرهم**
**ظهروا في الارض ياجماعة ثنين نفار		عيال رجَّال واحد با يزوجهم**
**وبغا لهم ياعباد الله بنات تجار		ولا درى ان في عياله شيء يعتبهم[2].**

الجمعدار عوض وانفراده بالسلطة وتلقبه بالسلطان:

سبقت الإشارة إلى أن الأخوين حسينًا ومنصَّرًا كانا يطالبان عمَّهما الجمعدار عوضًا بحقهما في الملك والثروة، بناءً على وصية جدهم الحاج عمر بن عوض القعيطي[3]، كما كانا يريان أنَّ الأثر الأعظم في ترسيخ هذه السلطنة وتمددها كان لوالدهما الجمعدار عبدالله بن عمر القعيطي، فهو الذي خاض الحروب وأدار البلاد وضَبَطَ أمورها، في حين كان عمُّهم عوض يقضي أيَّامه متنقلًا بين الهند وحضرموت!

١ البكري، في جنوب الجزيرة العربية ص٢١٦، والسقاف، إدام القوت ص١٧٨، وحداد، عبدالله، الشاعر الشعبي فرج بلسود ص٣٢.

٢ للاطلاع على باقي أبيات القصيدة ينظر: حداد، عبدالله، رجال الشحر في شرق إفريقيا ص٨٤.

٣ إنجرامس، حضرموت ص٨٨.

وعندما رأى الأخَوان مماطلة عمِّهما لهما، وتجاهله لحقوقهما، لا سيما بعد أن أعلن نفسه سلطانًا، وأوصى أن تكون السلطنة من بعده محصورة في أولاده[1]، كما أرسل قبلها ابنه غالب بن عوض لمدينة الشحر وليًّا للعهد، ليزاحم ابن عمه في إدارتها[2]، عندما رأى الأخوَان كلَّ هذا، ما كان من حسين إلا أن استقل بالشحر، كما استقل أخوه منصَّر بغيل باوزير، وكادت الحرب تشتعل مع عمهم، وانقسمت عساكر الدولة من يافع على قسمين[3]. وهنا تدخَّلت حكومة بريطانيا المقيمة في عدن، لفَضِّ النزاع، فاستدعت الثلاثة المتنازعين سنة ١٣١٩هـ/ ١٩٠٠م، وبعد مشاورات ومداولات لم تُحسَم نتائجها، عاد الأمير حسين إلى الشحر مُدَّعيًا أنَّ الحكم جاء لمصلحته. وغادر السلطان عوض إلى الهند، تاركًا ابنه السلطان غالبًا على حكم المكلا، وهذا ادَّعى أيضًا أنَّ الحكم جاء لمصلحته والده![4] فتجدَّد الصِّراع بينهما.

وبعد هذا بعام، أي في سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م، عاد السلطان عوض من الهند، واتَّجه مباشرةً إلى عدن، ثم عاد إلى الشحر في شهر ربيع الآخر ١٣٢٠هـ/ يوليو ١٩٠٢م ومعه بارجتان حربيتان إنجليزيتان فيهما عدد من الضباط والجنود الإنجليز للتفاوض،

---

١ المرجع السابق، ص٨٨، وبن علي الحاج، عمر بن عوض القعيطي ص٤١.

٢ في ترجمته لجده حسين المحضار، ذكر حامد بن أبي بكر المحضار أنَّ السيد المحضار تولى الصلح والتوفيق بين الأمير حسين وابن عمه غالب، بل أشار إلى رغبة السلطان غالب في التنازل لولاية العهد لابن عمه بدلًا من النزاع، وأنَّه تعهَّد بهذا، إلا أن حسينًا رفض. ينظر: الزعيم السيد الحبيب حسين بن حامد المحضار والسلطنة القعيطية، ص١٢.

٣ نشر النفحات المسكية ص٤٧٦.

٤ نشر النفحات المسكية ص٤٧٦.

وتم استدعاء الأمير حسين إلى البارجة، وبعد محادثات طويلة، عاد الأمير حسين ليُعلِمَ أصحابه بعدم اتِّفاقه مع عمِّه، وأنَّ الأمر قد يتطلب مواجهة، وأجابه أعوانه بأنَّهم إلى جانبه في كل أمر يتخذه[1].

وفي اليوم التالي، استُدعِيَ مرَّةً أخرى إلى البارجة، فذهب إليها بنفسه، لتغادر به وبعمِّهِ إلى عدن، وبعد مداولات عدَّة هناك، تم الحكم لمصلحة عمِّه السلطان عوض، الذي عاد إلى المكلا ثم إلى الشحر ليقبضها، ففرَّ من المدينة أغلب الموالين للأمير حسين في أثناء صراعه مع عمه. أمَّا الأمير حسين نفسه، فلم تسمح له حكومة عدن بالرجوع إلى الشحر، وأبقته عندها على أن يلحق به أخوه الأمير مُنصَّر، وبالفعل لحق به، ليغادر الأخَوان عدن إلى منفاهما في حيدر آباد سنة ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م[2]، بصحبة أُسَرهم وعبيدهم، ليخلو الجوُّ لعمِّهم السلطان عوض وورثَتُهُ[3] في إدارة شؤون السلطنة[4].

وبعد هذه الأحداث غادر السلطان عوض إلى الهند، تاركًا على المكلا (عاصمة السلطنة) وليَّ عهده ابنَه السلطانَ غالبَ بن عوض بن عمر القعيطي، الملقَّب بـ(غالب السادات)

١ باحسن، نشر النفحات المسكية ص٤٧٦. وقد ذكر عبدالرحمن الملاحي أنَّه في هذه السنة دارت معركة عسكرية بين الطرفين، تُبودل فيها إطلاق قذائف المدفعية ورصاص البنادق، وانتهت بقبول التحكيم. ينظر: الصراع الحمومي القعيطي ص٢٣٠.

٢ بامطرف، الجامع ص١٥٧.

٣ في سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م أصدرت حكومة الهند أمرًا بوقف استعمال عوض بن عمر للقب (الجمعدار)، واستبدال لقب (السلطان) به. البكري، صلاح، في جنوب الجزيرة ص٢١٦.

٤ باحسن، نشر النفحات المسكية ص٤٧٧.

و(أبونا آدم)، ليقوم بالأمر فيها دون منازع. وجعل على الشحر الجمعدار عيسى بن علي بن عمر القعيطي.

وبعد وفاة السلطان عوض بن عمر القعيطي في حيدرآباد (الدكن) سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م[١]، تولى العرش ابنُه السلطان غالب بن عوض القعيطي[٢]، وفور تولِّيه قام بنقل العاصمة السياسية من الشحر إلى المكلا سنة ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م، وجعل وزيره ونائبه الأوَّل على السلطنة السيد حسين بن حامد المحضار (ت:١٣٤٥هـ/ ١٩٢٧م)[٣]، كما عيَّن الشيخَ ناصرَ بن أحمد بوبك القعيطي حاكمًا على الشحر خلفًا للجمعدار عيسى بن علي القعيطي[٤]. ثم تواتر على إدارة المدينة والولاية حكامٌ من آل القعيطي أو من قبيلة يافع في الغالب، وكان آخرهم بعد الاستقلال الوطني في تاريخ ١٢ من جمادى الآخرة ١٣٨٧هـ/ ١٧ سبتمبر ١٩٦٧م، علي محفوظ بن بريك (١٣٤٩-١٤٠١هـ/ ١٩٣٠-١٩٨١م)[٥] نائب لواء الشحر خلفًا للنائب المتقاعد عبدالخالق البطاطي.

---

١ بامطرف، الجامع ص٤٢٣، وبن علي الحاج، عمر بن عوض القعيطي (حياته، عهده، آثاره) ص٤١. وقد ترجم له الزركلي صاحب الأعلام تحت اسم (عوض بن محمد بن عمر القعيطي). ينظر: (٥/ ٩٤).

٢ تنظر ترجمته عند: الزركلي، الأعلام (٥/ ١١٤).

٣ البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي (٢/ ٢٨). وتنظر ترجمة السيد المحضار عند: حداد، عبدالله، معجم شعراء العامية الحضارمة ص٦٣، والزركلي، الأعلام (٢/ ٢٣٤)، والمحضار، حامد بن أبي بكر، الزعيم السيد الحبيب حسين بن حامد المحضار والسلطنة القعيطية، عالم المعرفة، جدة، ط١، ١٩٨٣م.

٤ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت من تاريخ يافع في حضرموت ص٣٩. وقد توفي الشيخ ناصر بن أحمد في ١٢ من ربيع الأول سنة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م. المرجع: عبدالله حداد، نقلًا عن مدونة الأرضي.

٥ المرجع السابق، الصفحة نفسها. وتنظر ترجمة مختصرة له عند: بن بريك، محمد، من بوجمبورا إلى سعاد ص١٧٣.

انتكاسة المدينة بعد انتقال العاصمة وفقدانها لمركزها الطليعي

هناك عدَّة أسباب لانتكاسة مدينة الشحر، وإصابتها بالشلل في جوانبها الحياتية كافَّة، يمكن أن نوجزها في الآتي:

١ **أسباب سياسية**: إن لانتقال العاصمة السياسية للسلطنة القعيطية من مدينة الشحر إلى مدينة المكلا أثرًا واضحًا في تلك الانتكاسة، كما أنَّ عمل بعض سكان الشحر المنتمين إلى يافع في أجهزة الدولة المختلفة، تطلَّب منهم الانتقال والإقامة حيث العاصمة وكرسيُّ السلطان، وغالبية هؤلاء كانوا من قادة الجيش، الذين فضَّلوا المغادرة إلى المكلا مع عائلاتهم، وسبقت الإشارة قريبًا إلى (العسكر) الذين كانوا مُوالين للأمير حسين بن عبدالله، وفرُّوا من المدينة هربًا بجلودهم من الجمعدار عوض ومَنْ جاء بعده. كما أنَّ كثرة الحروب والصراعات التي خاضتها السلطنة القعيطية مع منافسيها (آل كثير، آل كساد)، أو مع المتمردين عليها (قبائل الحموم) أو بين أفراد الأسرة الحاكمة نفسها، شكَّلت عواملَ طردٍ دفعت بالكثير من السكان للارتحال، بحثًا عن الأمن والاستقرار في بلدان غيرها.

٢ **أسباب اقتصادية**: إذ هاجر الكثير من أبناء الشحر إلى بلدان شرق إفريقيا، وبعضهم فضَّل الهجرة إلى عدن أو الهند، وكان دافع الجميع إلى الهجرة الرغبة في تحسين أوضاعهم الحياتيَّة، والعيش عيشةً كريمة. وغالبًا ما تتسم مثل هذه الهجرات بطابع الهجرة الدائمة،

وبعض هذه الهجرات ضاربٌ في القِدَم، خاصة أنَّ الحضرمي عامة والشحري على وجه الخصوص، اشتهر عبر التاريخ بتنقلاته وهجراته إلى الأقطار المختلفة، وأكثر تلك الهجرات كانت إلى بلدان حوض المحيط الهندي. ولكن في هذه الحقبة التي نحن بصددها ازدادت حدَّة الهجرة وارتفعت نسبتها.

٣ **أسباب اقتصادية تجارية:** لقد شهد ميناء المكلا في ذلك العهد ازدهارًا لا مثيل له، وكان في مزاياه الطبيعية يتفوَّق على ميناء الشحر الضحل. وهذه المزايا أهَّلت ميناء المكلا لأن يستقبل السفن التجارية الضخمة (الشراعية والبخارية)، مع سرعة التفريغ والشحن وسهولتها، ممَّا دفع الكثير من تجار المدينة إلى تفضيل ميناء المكلا، وانتقلوا لممارسة تجارتهم أو فتح فروع لمحلاتهم هناك، وبعض منهم ارتحل بعائلته، كما غادر المدينة عدَّة عائلات من ذوي الأصول الهندية، واستقرَّت في المكلا، وأغلب هؤلاء يعملون في أعمال التجارة والصرافة.

٤ **أسباب اجتماعية:** انعكست الصراعات السياسية المذكورة على الأوضاع الاجتماعية بالمدينة، إذ ساد الجهل والفقر والجوع والمرض، وعُدِمَ الاهتمام بالبنى التحتية للمجتمع، بل أصبح المجتمع مفككًا، تمزِّقه الصراعات السياسية القائمة، والنزاعات والخصومات التي لا تنتهي بين حارات المدينة وأحيائها، وغابت في هذه المعمعة أصوات المصلحين والخيرين، بعد أن أصبحوا (كالمؤذن في مالطا). ومن الأمثلة لما ذكرنا من حال المجتمع، تلك الاشتباكات التي حدثت بين حارة المجرف وحارة المجورة المتجاورتين سنة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م، والتي قُتِلَ فيها شخصٌ من المجرف وجُرِحَ الكثير من الجانبين،

وتعطلت عملية صيد الأسماك داخل المدينة، فاضطر حاكم المدينة حينها لسجن الكثير منهم، مع جلد زعماء الحارتين في الساحة العامة[1]. ومثلها النزاعات المتكررة التي تنشأ بين أهالي عقل باعوين وأهالي عقل باغريب.

إنَّ كلَّ سببٍ من هذه الأسباب ربَّما لا يكون بذي تأثير كبير في الأوضاع العامة بالمدينة إذا كان منفردًا، ولكن وجودها معًا في مُدَدٍ زمنية متقاربة ومتداخلة، أثَّر كثيرًا في البنية الاجتماعية في المدينة. ولا ننسى أنَّ عدد سكان المدينة يومذاك ليس بذاك العدد الكبير، ومن ثمَّ فإنَّ أي هجرة أو نزوح منها سيؤثر كثيرًا فيها، وهو ما حدث بالفعل.

كما أنَّ لعامل الاستقرار بعد وقوع المنطقة تحت الوصاية والحماية الإنجليزية، وتدخل الإنجليز في كل سياسات السلطنة، أثرًا في ذلك الازدهار الذي حظيت به عاصمة السلطنة الجديدة (المكلا)، على حساب بقية المدن التابعة لها.

ومن أسباب تلك الانتكاسة التي حلت بالمدينة بعد انتقال العاصمة، أنَّ تلك الصراعات السياسية السابقة جعلت حكام المدينة منشغلين بها وبتمكين أنفسهم على حساب انشغالهم بالبنى التحتية من تعليم وصحة وتحسين مستوى معيشة الناس. كما أصبح هم حكامها الأول هو جباية الضرائب والعشور من المواطنين، خاصة أنَّ الحكومة آنئذ كانت تعاني من حالة إفلاس ومديوينة[2]. وحتى عائدات الميناء لم ينظر لها على أنَّها عائد للدولة يمكن أن يعود ريعه للمواطن، وإنَّما على أنَّه حق خاص للسلطان! بل نلاحظ في تلك المدة أنَّ الدولة عملت على تأجير ميناء الشحر نفسه لبعض التجار

---

١ بامطرف، كيف كنا وكيف أصبحنا ص٥.

٢ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٥٠.

للتخلص من أعباء ميزانية العاملين فيه وميزانية صيانته، والاكتفاء فقط بالعائد السنوي الذي يُؤخَذ من هؤلاء التجار المستأجرين! فعلى سبيل المثال ((في سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م استأجر آل (باشراحيل) من الدولة جمارك الشحر لمدة عشر سنوات بمبلغ سنوي قدره (٦٠٠.٠٠٠) روبية. وفي عام ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م إلى عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م استأجر الميناء (علي عبود حميد) بإيجار سنوي قدره (٩٥٠.٠٠٠) روبية، وفي عام ١٣٤٠هـ/ ١٩٢١م استأجر آل (الكاف) جمرك الشحر لمدة سنتين بإيجار سنوي قدره (٦٠٠.٠٠٠) روبية، وفي عام ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م استأجر الأخوان الهنديان (حاج لالا) و(جمعة لالا) جمارك الشحر بإيجار سنوي قدره (٨٠٠.٠٠٠) روبية))[١]. وطبعًا هذه المبالغ كلها تذهب إلى خزينة السلطان في الهند، حيث مقر إقامته الرئيس، بعد أن يستقطع منها رواتب الجنود والموظفين والكيلة التي تصرف للحاشية، دون أن يستفيد المواطن من هذه المبالغ إلا في بعض الحدود الدنيا[٢].

الحالة المزرية التي بلغتها المدينة كما وصفها بعض الزوَّار:

إنَّ تلك الانتكاسة التي حلت بالمدينة، نستطيع أن نلمسها بوضوح من خلال ما كتبه بعض المؤرخين و الرحَّالة الذين زاروها في النصف الأول من القرن العشرين، أو من خلال قصائد بعض الشعراء الشعبيين في تلك المدة التي تعكس الواقع الذي آلت إليه المدينة.

---

١ بامطرف، محمد، كيف كنا وكيف أصبحنا ص١٥-١٦. وعن تأجير السلاطين القعيطيين للموانئ ينظر: إثبات ما ليس بمثبوت ص٥٢. وفيه أن السلطنة أجَّرت موانئ الشحر والديس والحامي وقصيعر والريدة لبيت (حاج لالا) بمبلغ (٠٠٠.٠٠-) ريال فرانصة (نمساوي). وللمزيد ينظر: الجعيدي، عبدالله، الأوضاع الاجتماعية ص١٦٣.

٢ تنظر شهادة المؤرخ صلاح البكري على سبب انتكاسة الشحر في كتابه: في جنوب الجزيرة العربية ص٥٧.

فعلى سبيل المثال، زارها من المؤرخين عدة مرات، العلامة المؤرخ ومفتي حضرموت عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف (ت:١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م)[١]، وكان في بعض زياراته تلك ينزل ضيفًا على أسرة الشيخ الوجيه صالح بكار باشراحيل[٢]. فكتب يقول عن المدينة: ((وكانت للحضارمة تجارة واسعة بالشحر، وكانوا يتيامنون بها يجلبون منها، ويجربون فيه البركة. ولا يزال العلويون يترددون إليها، ولا سيما المحضار والعيدروس، لأنهم يجدون فيها من الانشراح ما لا يوجد في سواها، إلا أن طرقها ملتوية، وشوارعها متسخة، وأهلها لا يتعهدون أخيلتهم وميازيبهم، ويسرع الخراب إلى ديارهم من هذه الناحية))[٣].

كما زارها المؤرخ محمد بن هاشم العلوي سنة ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، ودوّن بعض مشاهداته وملاحظاته في كتابه (رحلة إلى الثغرين، الشحر والمكلا)، ومما كتبه عنها قوله: ((والشحر كان من القديم ثغرًا تجاريًّا مهمًّا يتنافس في امتلاكه ملوك الجزيرة، وله ذكر مجيد في التاريخ القديم والحديث لسنا الآن بصدد ذكره، وقد بلغ عمران الشحر مبلغًا لا بأس به، لاسيما في أيام السلطان المرحوم الحاج (عوض بن عمر القعيطي). وقد كانت السفن الشراعية التي يمتلكها بعض بيوتات الثروة بالشحر قبل أربعين سنة أكثر من ثلاثين سفينة تمخر البحر بين الشحر والمكلا ومسقط وعمان والبصرة وشرق إفريقيا وغير ذلك، ولكن الآن لا شيء من ذلك مطلقًا))[٤]. ثم كتب يقول: ((والشحر في

١ تنظر ترجمته في: الموسوعة اليمنية (٢/ ٦٢٩).

٢ السقاف، عبدالرحمن، إدام القوت ص٢١٥.

٣ السقاف، إدام القوت ص٢١٥.

٤ بن هاشم، محمد، رحلة إلى الثغرين ص٤٣-٤٤.

الوقت الحاضر سائرة نحو الخراب والدمار سيرًا حثيثًا، يتجلى ذلك للداخل إليها من أول وهلة، فالشوارع خالية والمنازل مقفرة خربة، والسوق خال إلا من بضعة دكاكين مفتوحة، يتثاءب أهلها كسلًا وكسادًا. وفي الشهر الماضي تداعى من منازل الشحر خمسون بيتًا على ما يُقال، كلها لا يقدر ذووها على ترميمها أو تشييد بدل عنها، فاضطروا إلى استئجار منازل أخرى أحقر من تلك درجة وأعتق عهدًا تؤويهم وعائلاتهم))[١]. ويقول عن مينائها: ((ميناء الشحر من أتعس الموانئ وأوعرها، إذ لا رصيف يرسو القارب إليه، بل يُترَك راسيًا داخل البحر، بحيث إنَّ قاصد الركوب فيه يلزمه أن يخوض الماء إلى خصره على الأقل، ولهذا يضطر من يحرص على بقاء ثيابه سالمة من البلل أن يمتطي أكتاف الرجال للوصول إلى القارب، والمسافة من الشاطئ إلى مرسى الرفاص تستغرق تجديفًا نحو تسع دقائق))[٢]. وفي موضع آخر كتب: ((وقد بلغ الضجر من الإقامة في الشحر بنا كلنا أقصاه، فما تلقى إلا شاكيًا ومتذمرًا، والبعوض والحر جاءا ضغثًا على إبالة، واجتماعهما يشيد سدًّا منيعًا دون النوم))[٣].

وقد أوردنا سابقًا ما كتبه الرحَّالة الاسترالي (آلان فليرز) في وصفه لحالة المدينة المزرية التي شاهدها خلال زيارته لها، مطلع أربعينيات القرن العشرين[٤].

---

١ بن هاشم، رحلة إلى الثغرين ص٤٤.

٢ المرجع السابق ص٥١.

٣ المرجع السابق ص٧٨.

٤ ينظر ماكتبه فليرز، آلان، عن المدينة في كتابه (أبناء السندباد) ص١٣١ – ١٣٢.

كما زارها أيضًا المؤرخ صلاح البكري اليافعي، الذي كان حينها مرافقًا للسلطان صالح القعيطي في إحدى زياراته للواء الشحر في شوال ١٣٦٦هـ/ أغسطس ١٩٤٧م. وقد كتب عنها قائلًا: ((وتقع الشحر على سطح متسع من الشاطئ الذي ينحدر تدريجيًّا إلى البحر، ولهذا ترسو السفن بعيدًا عنه لضحولته، وبالشاطئ كثبان رملية يبلغ ارتفاعها من ٢٠-٣٠ قدمًا، وفي أوقات المدِّ يرتفع حتى يجرف بعض هذه الكثبان. وباب المدينة كبير، ولكن ليس به ذوق فني، ولمَّا دخلنا فوجئنا برائحة كريهة ناجمة عن السمك المتعفن، ومررنا ببيوت غير مسكونة وبخرائب عديدة))[1]. وفي الصفحة نفسها كتب أيضًا: ((ومن يُلقِ نظرةً عامَّةً على الشحر يجدها صورة من صور القرون الغابرة، ولا شك أنَّ انصراف الحكومة عن تعميرها وعدم اهتمامها بمستقبلها، وإحجام الأهالي عن إصلاحها، كل ذلك من أعظم سبب للحالة المحزنة التي صارت عليها))[2].

أمَّا عن الشعر الشعبي الشاهد التوثيقي الحيُّ على انتكاسة المدينة في تلك الحقبة، فيمكننا الاستشهاد هنا بأبيات من قصيدة طويلة للشاعر الشعبي أحمد عبدالله باحميد (ت: ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م)[3]، وهي من القصائد الأثيرة التي يتغنى بها أهلُ الشحر في مناسبات الزواج إلى يومنا هذا، خاصة في أثناء زف العريس من بيته إلى المسجد للقيام

---

١ البكري، صلاح، في جزيرة العرب ص٥٦. وينظر أيضًا ما كتبه عن المدينة في كتابه الآخر: تاريخ حضرموت السياسي (٢/ ١٤١). وهو لا يختلف كثيرًا عمَّا كتب في الكتاب الأول، إن لم نقل هو نفسه.

٢ البكري، في جزيرة العرب ص٥٧.

٣ تنظر ترجمته عند: حداد، عبدالله، معجم شعراء العامية الحضارمة ص٣٤.

بمراسيم (عقد النكاح)، أو في أثناء زفِّهِ إلى بيت زوجته لإحضارها، وهي المراسيم التي تعرف محليًّا بـ(عبيد الحُري). يقول في مطلعها[1]:

يا الله يا رب يا من للدعاء تسمع — يا مرزق الخلق قاصيها ودانيها
يا المرتجى يا الذي راجيك ما يرجع — تعلم بالاحوال لي في نفس راجيها

إلى أن قال:

وادخل إلى الشحر لي منها الشرف ينبع — سعاد لي شيَّد المولى مبانيها
سوق الكحيلة عليها النور يتلمَّع — لي يبَّست فتنة القعطة مراعيها
وقع لها يا رفيقي حال ما ينفع — وين المربي الذي هو با يربِّيها
من كثر جور المشقة عينها تدمع — ولعاد لحقت مداوي لي يداويها.

وهذه أبيات أخرى من قصيدة رباعيَّة شاهدة على العصر، لشاعر شحري آخر معاصر للشاعر باحميد، وهو الشاعر الشعبي سالم محمد باحويرث (ت: ١٣٣١هـ ١٩١٢م)[2]، وفيها يقول متحسرًا ومتأسفًا على ما آلت إليه أحوال مدينته بعد أن نقل السلطان غالب القعيطي (ت:١٣٤٠هـ/ ١٩٢٢م) العاصمةَ منها إلى المكلا:

١ حداد، عبدالله، الشاعر الشعبي فرج أحمد بلسود ص٥٦. وقد أورد المؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف أبياتًا من هذه القصيدة في كتابه (الميزان) ص١٣٨، ونسبها لعبدالله محمد باحويرث. والصحيح ما أثبتناه. وبامطرف نفسه في (كيف كنا وكيف أصبحنا) ص ١٤ ذكر هذه الأبيات ونسبها لباحميد. وتنظر ترجمة الشاعر باحميد عند: عبدالله حداد، معجم شعراء العامية ص٣٤.

٢ تنظر ترجمته عند: حداد، معجم شعراء العامية الحضارمة ص٩٦.

آهـوين يـا شـحر سمعـون الكحيـل	وسـوقها مـن زمـن يرقـل رقيـل
ولا بتـــاوي يماثـــل بـــه مثيـــل	اللّه يشــهد وخلقــه شــاهدين
كانـت كمـا أيـام سمعـون الكحيـل	وهــي بــلاد الغنــا والغنتليــل
مــاهي كمــا تاربــة أرض البطيـل	لا هي كمـا القطـن ولا كـالعنين
تجارهـــا رجـــال نـــازلهم بنـــد	كـل يـوم مركـب ينزلهـا عـدد
ماموســـم هـــذه الســـنة إلا كعـــد	شفها عجيبة تقع بعض السـنين
سمعـون يـا كافنـا الظـل الظليـل	أيـن الهميسـع وابنـه شـرحبيل
لي حلـوا سـعاد جيلًـا بعـد جيـل	نعمـك قضـاعة رجالًـا راشـدين
سمعون شي الشحر رجعت كالصداع	وقوتنـــا في زعـــايم باســـباع
وان تمـــت إلا هكـــذا الضـــياع	أهله غـدوا للسـواحل شـاردين.

إلى آخر تلك الأبيات التي بلغت أربعًا وخمسين رباعية.

وقد أورد المؤرخ عبدالله حداد أخبار عدة من الشعراء من مدينة الشحر وما يجاورها من مناطق في الحقبة التي نتحدث عنها، وكيف دفعت بهم أوضاع البلاد إلى الهجرة والسفر، وخاصة إلى بلدان شرق إفريقيا، وذلك في كتابيه: (رجال الشحر في شرق إفريقيا)، و(معجم شعراء العامية الحضارمة). وليس الشعراء وحدهم من اضطر للهجرة والسفر هربًا من واقعهم المؤلم وسعيًا في حياة أفضل، بل نجد كذلك عددًا من المعلمين والمثقفين ممَّن نهل من مدارس الشحر، وخاصة مدرسة (مكارم الأخلاق)، ونشير هنا باختصار إلى بعضهم، فمنهم سالم أحمد حميدان (ت:١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، وأخوه عوض، وهذان افتتحا مدرسةً في ممباسا. ومحمد عوض باجبع (ت:١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) افتتح مدرسةً

(معلامة) في بربرة، وتوفي بالمدينة. وأحمد محمد الصوري، هاجر إلى جيبوتي (ت: سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، وعبدالله عمر بن الشيخ أبي بكر[١].

وقد استمر تجاهل الدولة للمدينة وفضلها إلى أن زارها السلطان عمر بن عوض القعيطي، ضمن زياراته لمختلف مناطق سلطنته سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م، ونظرًا لما شاهده من حفاوة الاستقبال وكرم الضيافة الذي لم يتوقعه من أهل المدينة، فقد وقف أمام الجماهير التي احتشدت لتحيته، وخاطبهم قائلًا: ((وأوعدكم عند عودتي من الهند إن شاء الله سوف أُحوِّل العاصمة إلى الشحر، وأجعلها مقر إقامتي. وهذا وعد منِّي، ووعد الحُرِّ دَيْن))[٢].

١ المرجع السابق ص١٠٣-١٠٧.

٢ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٨٥

أبرز الأحداث التي شهدتها المدينة في عهد نواب القعيطي

-الصراع القعيطي الحمومي:

عندما احتل القعيطيون الشحر سنة ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م، وهي أول قاعدة ساحلية تثبت عليها أقدامهم، سارعوا إلى بناء التحصينات والاستحكامات حولها، استعدادًا منهم لصد أي هجمات متوقعة. وقد أفادتهم هذه التحصينات كثيرًا، كما أنَّ الجمعدار عوض بن عمر القعيطي في تلك المدة ما فَتِئَ يرسل للمدينة الفرقة تلو الأخرى من الجنود (الرويلة)، ويستقدم المقاتلين من جبل يافع استعدادًا للمعارك القادمة. لكنَّ أشدَّ ما كان يؤرق آل القعيطي هو قبائل الحموم القريبة من المدينة، وما يمكن أن تثيره هذه القبائل من قلاقل واضطرابات تعكر صفو أمنهم، خاصة أنَّ لهذه القبيلة العريقة تحالفاتها السابقة مع أعدائهم آل كثير، بل أفشل الحموم بعض مخططات يافع في أثناء تحركات القعيطي ضد آل كثير، كالذي حدث في وقعة (الغييضات) التي تحدثنا عنها سابقًا.

ونتيجةً لحرمان هذه القبيلة من المكاسب والامتيازات التي كانوا يتحصلون عليها سواء من المدينة أو من المرافئ الواقعة شرقها، وخاصة بعد سيطرة أسرة القعيطي على المدينة[1]؛ بدأ الحموم بإعاقة تحركات القعيطيين في مناطق نفوذهم خارج المدينة، وكذلك التعرض لقوافل رعاياهم المارة بأراضيهم ونهبها، فكان لا بدَّ من وضع حدٍّ

١ الملاحي، الصراع الحمومي القعيطي ص٢٢٧.

لهذه القبيلة بالسِّلْم أو بالحرب، فعقد الجمعدار عبدالله بن عمر القعيطي اتفاقيةَ صلحٍ معهم سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩م[1]، لكنَّها لم تستمر طويلًا، إذ ما زال الحموم يطمحون إلى بعض الامتيازات التي كانوا يتحصلون عليها من الحكومات المتعاقبة على حكم المدينة، كإعفائهم من الرسوم الجمركية ومن الضرائب، فضلًا عن إعطائهم الحقَّ لأخذ جباياتهم المعهودة من الصيادين والمزارعين (رعايا الدولة)، وهو ما لا يستقيم مع مفهوم الدولة الذي يطمح القعيطيون لتثبيته. فعادت النزاعات بين الطرفين، واستمرت إلى أن عقد الجمعدار عبدالله بن عمر اتفاقيَّةً أخرى معهم سنة ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م، وفيها ((اعترف الحموم بسلطته على الشحر وما حوإليها، ودانوا له بالولاء (سمعة وتبعة)، والتزم عبدالله بن عمر حاكم الشحر بدفع مبلغ (٤٠) ريالًا لزعيم التحالف الحمومي))[2]. ويلاحظ أنَّ سنة هذه الاتفاقية هي السنة نفسها التي أنهى فيها الجمعدار القعيطي بناءَه لسور المدينة، واطمئن على تأمينها، وقبيل أشهر فقط من توقيعه اتفاقية الحماية مع بريطانيا[3]. إلا أنَّ الجمعدار عبدالله بن عمر توفي كما أشرت سابقًا سنة ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م، أي بعد مدَّة لا تبلغ العام من توقيعه لتلك الاتفاقية مع الحموم، ليتولى بعده ابنُه الجمعدار حسين بن عبدالله حكمَ لواء الشحر، نائبًا عن عمه السلطان عوض.

ومن الواضح أنَّ الجمعدار حسينًا ضرب بتلك الاتفاقية التي أبرمها والده مع الحموم عرضَ الحائط، وعادت النزاعات بينهما من جديد. إلا أنَّ النزاع الذي نشأ

١ المرجع السابق ص٢٢٨.

٢ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٣ ينظر عنها: بامطرف، في سبيل الحكم ص١٦١.

لاحقًا على اقتسام السلطنة بين هذا الأمير ومعه أخوه منصَّر حاكم الغيل من جهة، وبين عمهم السلطان عوض وابنه غالب من جهة أخرى، دفع بـالأمير حسين لأن يفكِّر ويعيد حساباته في علاقاته مع الحموم، فاتصل بمنصب آل العيدروس السيد أحمد بن حسين العيدروس؛ ليقوم بحكم وجاهته الروحية بالوساطة بينه وبينهم، لإنهاء الصراع القائم. وقد استطاع هذا المصلح أن يقارب بين وجهات النظر، وأن يوفِّقَ بين الطرفين من خلال توافقهم على بنود اتفاقية أولية أو تمهيدية، تمَّت بين الأمير حسين والمقدَّم سالمين بن حسن العليي زعيم التحالف الحمومي، بعد أن عرض كلٌّ منهما مطالبه، ووافق الطرف الآخر عليها. وكان هذا في شهر ربيع الآخر ١٣٢٠هـ/ يوليو ١٩٠٢م[١]. أمَّا الإقرار النهائي لهذه الاتفاقية والتوقيع عليها، فلا نعلم عنه شيئًا، ولكن من المحتمل وفقًا لما دلَّت عليه الوقائع اللاحقة أنَّ وساطة السيِّد العيدروس كانت إيجابية، وخفَّفت حدَّة التوترات. ولكن مال المؤرخ عبدالرحمن الملاحي إلى احتمال عدم إبرامها في صيغتها النهائية؛ بسبب احتدام الصراع بين الجمعدار حسين وعمِّه السلطان عوض بن عمر[٢]، والذي انتهى بنفي حسين وأخيه للهند، كما بيَّناه سابقًا. ولكن يرجح ما ذهبنا إليه أنَّ غالب بن عوض بعد تولِّيه حكمَ الشحر مباشرةً، وإزاحة ابن عمه حسين بن عبدالله نهائيًّا، لم يعترف بتلك الاتفاقية مع الحموم، ولا بالالتزامات التي التزم بها ابنُ عمه حسين بن عبدالله ((بل شدَّد في مناهضتهم والتضييق عليهم وحصارهم، فقاوموه، وضيَّقوا الخناق عليه، وامتنعوا عن نقل المؤن إلى وادي حضرموت، وساءت الأحوال

١ للتفصيل عنها ينظر: الملاحي، عبدالرحمن، ومعيلي، حسن، الصراع الحمومي القعيطي ص٢٢٩.

٢ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

المدنية))[1]، واستمرَّ الأمير غالب في سياسته هذه، حتى بعد أن تولَّى السلطنة، وانتقل إلى المكلا عاصمة السلطنة الجديدة، وظلَّ نوابه على الشحر متمسكين بتلك السياسة الرامية إلى ليِّ ذراع الخصم وتجويعه بقطع كل أشكال التبادل الاقتصادي بينهم، بل وصل الأمر إلى عدم السماح للحموم بدخول المدينة!

ولعلَّ خير من يُصوِّر لنا تلك الحرب الاقتصادية خير تصوير، الشاعرُ الشعبيُّ أحمد معلاق (ت:١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م)[2]، وهو من مناصري الحموم، يقول في إحدى قصائده:

طرحوا لنا عنبر شوكي، على السدة، حسبونحا بانموت
لا تبنَّد البندر، عـاد الخلاء معنا، ما تبـــنَّدت سيحوت

في إشارة واضحة إلى أن أبواب مدينة الشحر، إذا ما أُغلِقَت في وجوههم، فإنَّ أبواب المدن والموانئ الأخرى البديلة ما زالت تحت نفوذهم، وخاصة المناطق المشقاصية (الشرقية).

-مذبحة الحموم وماقيل فيها من روايات:

تولى الشيخ ناصر بن أحمد بن عبدالله بوبك الحدادي القعيطي[3] حُكمَ الشحر نائبًا عن السلطان غالب، وقد عُرِفَ عنه غلظته وسوء تدبيره[4]، وكان يتمتع بحظوةٍ كبيرةٍ

---

١ المرجع السابق ص ٢٣٠.

٢ تنظر ترجمته عند: حداد، عبدالله، معجم شعراء العامية الحضارمة ص٤٤.

٣ توفي سنة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م. وفي إدام القوت ذُكِرَ باسم (ناصر أحمد بريك) ص١٨١. والصحيح ما أثبتناه. وعند عبدالله صالح حداد: (ناصر أحمد بوبك الحدادي). ينظر: الشاعر الشعبي فرج بلسود ص٣٥. وهذا هو الصحيح. وقد سبق الشيخَ ناصرًا في تولي الشحر نيابة عن السلطان عوض وابنه غالب، الجمعدارُ عيسى بن علي بن عمر القعيطي، ويبدو أنَّه لم تطُل مدَّة توليه. فخلفه الشيخ (ناصر أحمد) هذا. ينظر: ترتيب من تولى المدينة في عهد السلطنة عند: البطاطي، عبدالخالق، إثبات ما ليس بمثبوت ص٣٩.

٤ الملاحي، عبدالرحمن، ومعيلي، حسن، الصراع الحمومي القعيطي ص٢٣١.

لدى السلطان غالب؛ بسبب مواقفه ومناصرته الشديدة له خلال صراعه مع ابن عمه حسين بن عبدالله. وقد سار هذا النائب على نهج سلطانه في سياسته العدائية تُجاه الحموم، بل ربَّما زاد عليه في عدائيته، خاصة أنَّه تضرَّر شخصيًّا من أفعال الحموم، إذ إنَّه كان غنيًّا، وكان يملك أسطولًا بحريًّا تجاريًّا[1]، ولا شكَّ أنَّ تقطعات الحموم للقوافل المارة بأراضيهم، وللسفن والمراكب والقوارب التي ترسو في الموانئ الأخرى غير الشحر، قد هدَّدت تجارته، وأثارت حنقه وحفيظته، فلم يجد سبيلًا لردعهم إلا التنكيلَ بهم، وجَعْلَهم عبرةً لمن يعتبر. لكنَّ الحموم كانوا بعيدين عن متناول يده التي لا تتجاوز سور المدينة، ولن يطالهم بطشه إلا بصعوبة كبيرة، وتكاليف باهظة، فكان لا بد من حيلةٍ ما لاستدراجهم إلى حيث ينال منهم[2].

ويسوق لنا المؤرخ صلاح البكري رواية مضطربة عن هذا الصراع وأبعاده، جاء فيها أنَّه في سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م انتهى اتفاقُ صلحٍ عُقِدَ سابقًا بين الحموم وآل القعيطي، وأنَّ الحموم أرادوا تجديدَ هذا الصلح، وزيادةَ المرتَّب الذي كانت تدفعه لهم الحكومةالقعيطية، وكانت تدفع لهم أربعةَ آلاف ريال، وأنَّ هذا الأمر لم يعجب السلطان

١ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٢ تباينت آراء المؤرخين في تناولهم لهذه الحادثة وللحوادث التي ارتبطت بها، وكلٌّ ينطلق من أيديولوجياته واتجاهاته. وللمزيد من التفاصيل عنها، ينظر: البطاطي، عبدالخالق، إثبات ما ليس بمثبوت من تاريخ يافع في حضرموت ص٤٥ ومابعدها، والسقاف، عبدالرحمن، إدام القوت ص١٨١، والملاحي، عبدالرحمن، الصراع الحمومي القعيطي ودوافعه ص٢٣١، والبكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي (٢/ ٢٩).

ولا نائبه في الشحر، فأوعز السلطان لنائبه بالفتك برؤساء الحموم، وزَجِّ البقيَّة في السجون، وعددهم قرابة الأربعمائة من شتَّى الفصائل الحمومية[1].

ورواية البكري هذه تُناقِضُ الروايةَ الحكوميةَ التي رواها المؤرخ عبدالخالق البطاطي، التي تشير إلى رغبة الحكومة نفسها في الصلح وسعيها إليه، في محاولة منها لاستدراج الحموم المتمردين وقمعهم. وسنأتي لها بعدُ.

أمَّا المؤرخ عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف، فذكر أنَّ الحموم كانوا يمارسون قطع الطريق على القوافل، وسلبَ المارة من رعايا السلطنة، بالرغم من اتفاقية الصلح التي عقدوها مع الحكومة القعيطية، وبالرغم من التزام الحكومة ببنود الصلح اتقاءَ شرهم، وأنَّ الحكومة استمرَّت في صرف المبالغ المالية التي كانت تُعطى للحموم منذ أيام البريكيين[2].

وفي إحدى المرَّات، هاجمت جماعةٌ من قبيلة سيبان أفرادًا من الحموم، طلبًا لثأرٍ سابقٍ بينهم، فقتلوهم، فظنَّ الحمومُ أنَّ الحكومة القعيطية هي من ساعدت سيبان في ذلك، فكمنوا ببعض الطرق لنفرٍ من يافع وقتلوهم. وكتم الأمير ناصر بن أحمد غيظَهُ بعد هذه الحادثة، وأظهر لهم أنَّ هذا الأمر لم يُثر حفيظته، وبدأ يستميلهم شيئًا فشيئًا، إلى أن استدرج مقادمةَ فصائلهم بدعوى عقد اتفاقية صلح جديدة مع الحموم كافَّةً، تحفظ لهم مصالحهم وتثبتها، وزعم لهم أنَّ السلطان سيقدم إلى الشحر قريبًا لهذا الغرض. وبعد

١ البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي (٢/ ٣٠). وعنده أنَّ قتل زعماء الحموم وعددهم (٢٩) كان عند حصن دار ناصر، وهذا وهم.

٢ إنَّ المبلغ الذي كانت تدفعه الحكومة القعيطية، كان يدفع لمقدَّم القبيلة وحده، وليس لكل الحموم، تمامًا مثلما تفعله بريطانيا مع سلاطينهم، دلالةً على أنَّ هؤلاء السلاطين من رعاياها.

دخول زعماء الحموم للمدينة وبصحبتهم المئات من مرافقيهم، وعندما تفرَّقوا في شوارع المدينة وأزقَّتها لقضاء بعض أغراضهم وحوائجهم، أخذهم النائب على غرة، وألقى القبضَ عليهم جميعًا، وأعدم على الفور سبعةً وعشرين رجلًا من مقادمتهم ورؤسائهم، ودفنهم في قبر واحد، وزجَّ بالبقية في السجون[1].

وقد أسهب المؤرخ عبدالخالق البطاطي اليافعي كثيرًا في وصف هذه الحادثة وشرح أبعادها وحيثياتها، وهو، كما أشار إلى نفسه، شاهدُ عيان، لكن كان للعصبية القبلية، فضلًا عن توليه فيها بعدُ مناصبَ حكوميةً رفيعةً في السلطنة، أثرٌ في توصيفه لتلك الأحداث، وتغليبه وجهة نظر السلطة تُجاهها[2]. فقد ذكر البطاطي أنَّ الحموم في تمرداتهم تلك، كانوا مدفوعين من قبل جهة سياسية لم يُسمِّها، هدفها إثارة القلاقل والفتن والاضطرابات في السلطنة، وأنَّ الحموم خلال الأعوام (١٣٣٣-١٣٣٧هـ/ ١٩١٤-١٩١٨م)[3]، كانوا ((يعبثون بالأمن في لواء الشحر بالسلب والنهب في الطرقات وبعض القرى الصغيرة في لواء الشحر، وفي الآخر بلغ بهم التمرد إلى القتل بالغدر والتخريب والسرقة واللصوصية، إلى أن قاموا (بيت سعيد) و(بيت شنين) بقتل حرس السدة الشمالية للشحر غدرًا بعد المغرب، والدخول ليلًا إلى مدينة الشحر نفسها للتخريب، وقاموا بعقر جمال المعاصر حق أهل الشحر في ساحة رقيص عمرو ورقيص

١ السقاف، إدام القوت ص١٨٠.

٢ ينظر للتوسع: البطاطي، عبدالخالق، إثبات ما ليس بمثبوت من تاريخ يافع في حضرموت ص٤٥ ومابعدها.

٣ إنَّ هذه المدة المحددة هي مدَّة الحرب العالمية الأولى، والتي عُقِدَ في نهايتها صلحُ عدن، بين القعيطي والكثيري، قبل وقوع الحادثة بنحو سنة. ينظر: إثبات ما ليس بمثبوت ص٧١-٧٤.

غبطة ورقيص عيديد، وهربوا، وقاموا (بيت غراب) بنهب سفينة كانت راسية في ميناء القرن بالديس الشرقية، ونهبوا ما فيها غدرًا، ومن جملة ذلك (٩٠٠٠٠) ريال فرانصة حق الشاعر أحمد بكير من المكلا، وقام (بيت علي) بأبشع صورة من القتل بالغدر عندما اعترضوا قافلة جمال خارجة من الشحر إلى غيل باوزير ملك وتبع آل باشراحيل، وكان بسعفها جندي لحراستها اسمه عبدالله صالح بن عبدالله الشرفي))[١]. ومن جملة ما نُهِبَ من هذه القافلة خمسة آلاف ريال فرانصة ملك للتجار آل باشراحيل. وقد أغضبت هذه الحادثة النائب ناصر بن أحمد بوبك، فأرسل رسالة عاجلة إلى السلطان غالب، مع عبدالله بن حبيب بوبك، يطالب فيها السلطان بالتعامل بجدية وحزم مع هذه الحادثة، أو بقبول استقالته! فما كان من السلطان غالب إلا أن قدم بنفسه ليلًا إلى الشحر راكبًا سيارته، وليس معه أحد غير عبدالله بوبك هذا وسكرتيره الخاص صالح مصفر، والتقى بناصر بوبك وببعض قيادات يافع، كما أُحضِرَ في اللقاء التاجر عبدالقادر باشراحيل. وبعد مفاوضات حول كيفية رد الحكومة على الحموم، وافق السلطان غالب على مقترح ناصر أحمد بقمع الحموم واستئصال شأفتهم، وأعطاه في هذا أمرًا كتابيًّا بالقيام بما يلزم، وشهد على الأمر الشيخ صالح البطاطي، وسالم عبود مخارش، وصالح مصفر. وأُلزِمَ التاجرُ باشراحيل بتحمل كل نفقات الحملة، ووافق باشراحيل قائلًا للسلطان غالب: ((ولكن طلبي أن تأمّن الطرق، وشفنا بغيت باروح المعيان وحماري ينهق في الطريق، وما معي جندي))[٢].

---

١ البطاطي، عبدالخالق، إثبات ما ليس بمثبوت ص٤٥، وبامطرف، كيف كنا وكيف أصبحنا ص٥.

٢ إثبات ما ليس بمثبوت من تاريخ يافع في حضرموت ص٤٥-٤٧.

وفي عصر اليوم التالي غادر السلطان غالب بسيارته، أمَّا النائب ناصر أحمد فاتَّصل ببعض مناصب العلويين من آل الشيخ أبي بكر بن سالم، وآل العيدروس، وببعض الدلالين، للتواصل مع الحموم، وإقناعهم بقبول التفاوض مع الحكومة. وقد كان للنائب ما أراد،وعمل على استدراج الحموم إلى داخل المدينة من دون سلاح، بعد أن أعطاهم كل عهود الأمان، وسمح لهم بحرية الحركة داخل الشحر، وتمَّ كلُّ ذلك بضمانة أولئك السادة المناصب من العلويين، وبعض الوجهاء.

وفي أثناء المفاوضات لإنهاء الصراع بينهم، اشترط النائب ناصر أحمد عدَّةَ شروط منها: ((تسليم الجناة، وعودة المنهوبات، وتعويض ما خرَّبوه))[1]. وكان ردُّ الحموم أنَّ مامضى قد مضى، ومابقي غير العفو والمسامحة، مع شروط أخرى اشترطوها، تضمن لهم بعض الحقوق والامتيازات كحقِّ الكيلة والشراحة والجدوح. وهذه الشروط لم توافق عليها الحكومة؛ لأنَّها تمس سيادة الدولة.

واستمرَّت المفاوضات بين الطرفين قرابة الشهرين، واطمأنَّ الحموم، وقلَّ حذرهم، بعد أن زال توجسهم من الغدر بهم.

أمَّا ناصر أحمد فتواصل مع السلطان غالب بعد أن رأى المفاوضات تسير نحو طريق مسدود، وأعطاهُ السلطانُ الضوءَ الأخضرَ، لإنهاء المسألة بأي شكل من الأشكال، قائلًا له إنَّه سيرسل وزيره السيد حسين بن حامد المحضار ليقوم بحلِّ المسألة، إنْ لم يستطع هو -أي النائب-حلَّها. في إشارة ضمنية إلى عجزه وفشله، لكن بهدف إلهابه واستثارتِه، خاصة أنَّ النائب لم يكن على وفاق ووئام مع الوزير المذكور.

١ إثبات ما ليس بمثبوت ص٤٧.

وما كان من النائب (بوبك) بعد ما جرى إلا أن اجتمع سرًّا ببعض مقادمة يافع لاستشارتهم، فأشاروا عليه بالفتك برؤساء الحموم والزج ببقيتهم في السجون. وبناء على هذا سعى في الخفاء لاستقدام قوة من الحامي وشحير وتبالة والمعيان، لتتولى هذه القوة في ساعة الصفر محاصرة (حي المحط)[1] أوَّلًا، ثم اقتحامه واعتقال كل مَنْ فيه من الحموم، وقتل مَنْ يقاوم. كما ستشكل تلك القوَّة تعزيزًا للقوة الداخلية. وتضمنت الخطة أيضًا أن يقوم الجنود من يافع ومن الحاشية (الجنود الأفارقة والهنود الذين في المدينة) برصد كل تحركات الحموم وأماكن وجودهم، واعتقالهم فورًا.

وهكذا كُتِبَ لخطة ناصر أحمد النجاح وتحقيق بعض أهدافها، ففي عشية يوم الأربعاء ٢٦ من ربيع الآخر سنة ١٣٣٧هـ/ ٢٩ يناير ١٩١٩م، تمكن رجال الحكومة من اعتقال أغلب الحموم الموجودين داخل المدينة، وفيهم رؤساء عشائرهم ومقادمة فصائلهم، كما دُوهِمَتِ البيوتُ التي احتموا فيها، ومنها بيوت المناصب العلويين الوسطاء والضامنين، وبيوت بعض الوجهاء والأعيان التي لجأ إليها أفراد من الحموم في فرارهم.

أمَّا القوة القعيطية في الخارج، فقد تمكنت من محاصرة (حي المحط)، وإلقاء القبض على كل الحموم الذين كانوا فيه. وكان عدد مَنْ ألقي القبض عليهم من البدو نحو ستمائة مسلَّح، وتم في هذه العملية مصادرةُ كلِّ أسلحتهم وجمالهم التي قدموا بها.

١ حي المحط: من الأحياء القديمة التابعة لمدينة الشحر، وكان موقعه خارج السور في الجهة الشمالية الشرقية، وبيوته في تلك الحقبة من الخيام أو من الخشب أو علب الصفيح، ذات بناء عشوائي، وغالب من يسكنه هم البدو، من الحموم وغيرهم، وبعض الغرباء.

وقد ذكر المؤرخ البطاطي أيضًا في روايته لهذه الحادثة أنَّ قوات القعيطي الموجودة في منطقتي الديس وقصيعر ألقت القبض على نحو خمسين رجلًا من الحموم في الليلة نفسها، وأُرسِلُوا فورًا إلى الشحر.

وفي الشحر، بعد أَسْرِ الحموم وتقييدهم بالسلاسل والحبال، تم رصُّهم في الساحة المواجهة لدار ناصر (مبنى الحكومة)، وسط حراسات مشددة، وهناك ((أُجرِيَت عملية الفرز، فمن كان من المتمردين آنفي الذكر رُحِّلَ للسجن، ومن كان من المسالمين من البدو أُطلِقَ سراحه. وسجن في نفس العملية تلك الليلة من الحموم المتمردين نحو ثلاثمائة وخمسين نفرًا مع مقادمتهم))[1].

وفي صباح اليوم التالي الخميس ٢٧ من ربيع الآخر ١٣٣٧هـ/ ٣٠ يناير ١٩١٩م[2] ((أعدم سبعة وعشرين نفر منهم، بما فيهم مقادمتهم. وتحديد العدد سبعة وعشرين مبني على مقدار المقاتيل الذين قُتِلُوا على يد الحموم في الفتنة))[3]. وكان إعدامهم بين الكشاريات جنوب (سدة العيدروس)، وهي البوابة الشمالية للمدينة، المطلة على (حي المحط)، وقد حُفِرَ لهؤلاء السبعة والعشرين قبرٌ واحدٌ شمال شرق السدة، دُفِنُوا فيه في يوم مقتلهم نفسه.

---

١ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت، ص٤٧.

٢ المرجع السابق ص٤٧. وينظر: السقاف، إدام القوت ص١٨٠.

٣ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت. ومن هؤلاء الـ(٢٧) من مقادمة الحموم كما ذكروا في بعض المراجع: المقدم سالم بن علي بن مجنّح بن حبريش العليي، وكرامة بن سالمين بن حسن العليي، وحيمد بن عمرو بن الفرج الغرابي، ومرضوح بن عوض اليميني. ينظر: البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٤٧، والسقاف، إدام القوت ص١٨١.

هذه تكاد تكون هي الرواية الرسمية للحكومة القعيطية، وهي مبنية على رواية شاهد عيان، وهو المؤرخ عبدالخالق البطاطي. وقد يكون المؤرخ في ذلك العهد حدثًا لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره[1]، إلا أنَّ حادثة كهذه عميقة الأثر في النفوس كفيلة بجعل المرء يتذكر أحداثها بوضوح، كما أنَّ البطاطي نفسه يشير في روايته إلى اعتماده أيضًا على روايات مَنْ كان يكبره سنًّا في ذلك الوقت، ومنهم والده الشيخ عبدالله صالح البطاطي، وآخرون ممَّن عاصروا تلك الأحداث.

تساؤلاتنا عن الروايةالرسمية:

إنَّ هذه الرواية وإنْ كنَّا لا نستطيع إنكارها، لأنَّ ثمَّة رواياتٍ مثبتةً في مصادر ومراجع أخرى لا تكاد تختلف عنها إلا في بعض الجزئيات، وقد أشرنا لبعضها، إلا أنَّها في الوقت نفسه تثير لدى الباحث بعض التساؤلات التي تدفعنا لنفترض وجود عامل المبالغة واختلاق بعض الأحداث، كالقول بأنَّ السلطان غالبًا بعد وصول رسالة النائب (بوبك) وتهديده فيها بالاستقالة، جاء بسيارته للمدينة وما معه غير رجلين! وهذا أمرٌ مستغربٌ! ويُعدُّ مخاطرةً كبيرةً وتهوُّرًا من السلطان غالب إن ثبت عنه! فالسلطان بهذا الفعل يعرض نفسه لخطر الوقوع في كمين قد ينصب له في طريقه، لا سيما أنَّ أعداد السيارات يومذاك محدودٌ جدًّا، مما يجعل التعرف على سيارته أو استهدافها أمرًا سهلًا للغاية. ومثلُ هذا يُقالُ في زعم مغادرة السلطان في عصر اليوم التالي مصطحبًا مرافقَيه السابقَينِ فقط!

---

١ النائب عبدالخالق البطاطي من مواليد مدينة الشحر سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م. تنظر ترجمته في: مدرسة مكارم الأخلاق ثمانون عامًا من الجهد والعطاء.

ثم ما الداعي للمفاوضات مع الحموم التي استمرت طيلة شهرين متتاليين دون فائدة تذكر؟! مع أنَّ الرواية تقول إنَّ السلطان غالبًا في زيارته الأولى تلك، على فرض صحتها، قد أعطى النائب (بوبك) الضوء الأخضر للتصرف بذلك الأمر المكتوب الذي شهد عليه الشهود! بل ألزم التاجر باشراحيل بتحمل نفقات الحملة المقررة. وهذا يعني أنَّ الاتفاق كان لتصفية الحموم، وليس لمفاوضات معهم امتدت قرابة الشهرين.

بل نجد المؤرخ صلاح البكري يُصرِّح بأنَّ السلطان قدم بنفسه في ليلة القبض على الحموم، وأعطى النائب (بوبك) أوأمره بقتل الحموم، وخاصة زعماءهم الـ(٢٩)! وليس الـ(٢٧)[1]. والصحيح هو العدد الأخير.

وكيف يمكن للحاميات في قصيعر والريدة، على قلة عددها، وبعد أن غادرها العشرات من الجنود لمحاصرة (حي المحط)، أن تجازف بإلقاء القبض على خمسين من الحموم؟! وكيف تنقلهم على وجه السرعة إلى الشحر دون أن تفكر بمخاطر إمكانية اعتراضها ؟! إلا إن كانوا قد سلكوا طريق البحر عبر السفن، فهذا محتمل. ثم إنَّ فعلًا كهذا من الحاميتين، حتمًا سيُواجه بردة فعل شديدة من الحموم الموجودين في تلك المناطق، والتي هي مناطق وجودهم الفعلي أصلًا، ويُوجد بها كثيرٌ منهم. فهل يكون من المعقول استنزاف أعداد تلك الحاميات بتكليفهم بنقل أولئك الأسرى الخمسين بدلًا من العمل على تعزيزها ؟! لا سيما وقد استُقدِمَت أعدادٌ منها من قبل لتتولى محاصرة حي المحط !!

---

١ البكري، تاريخ حضرموت السياسي (٢/ ٣٠). وقد التبس عدد قادة الحموم أيضًا على المؤرخ أحمد الملاحي بين (٢٥) و(٢٧). ينظر: المذكرة التاريخية ص٣٨. والصحيح ما أثبتناه.

ثم لماذا تعجل النائب في قتل زعماء الفصائل الحمومية السبعة والعشرين طالما أنَّهم مع المئات من قومهم في قبضته ولم يمض على اعتقالهم يومٌ واحد؟! أما كان الأولى المساومة بهم ؟ والأهم من ذلك أنَّه لم تُجرى لهؤلاء السبعة والعشرين أي محاكمة[1] ولو صورية !! ثم لماذا لم يحسب النائب (بوبك) أي حساب للضامنين والوسطاء من المناصب والوجهاء، خاصة أنَّ بعض هؤلاء المناصب والوسطاء تربطهم صلات روحية واجتماعية بالحموم، فضلًا عن مصالح اقتصادية مشتركة لهم في مثاوي الحموم. ولماذا لم يحسب أي حساب للمواطنين الذين ستُهدَّد مصالحهم وحياتهم، إذا كان هذا الفعل كما زعمت الحكومة يستهدف في المقام الأول حماية المواطنين وتأمينهم والانتقام ممن ظلمهم ! أفلا تدرك تلك الحكومة أبعاد العُرف البدوي الذي يحتكم له الحموم ويمتثلون له بقوة، وهو المعروف بـعُرف (الشايم واللايم)[2]، وأنَّ آثاره ستنعكس سلبًا على هؤلاء الرعايا الأبرياء العزل ؟!

---

١ كان قاضي الشرع في عهد النائب ناصر بوبك هو القاضي (محمد بن عمر بن سالم العماري).

٢ عن العرف القبلي (الشايم واللايم) يقول المؤرخ عبدالرحمن الملاحي: ((يقضي العرف القبلي بأنَّ المشمول بحماية القبيلة له الحق في طلب الحماية عندما يتعرض للخطر، وعلى القبيلة الحامية مساعدته والدفاع عنه، وأنَّ التقاعس عن تقديم الحماية للائذ والمحتمي تَصِمُ القبيلة الحامية بالجبن والضعف ... يوجَّه إليها اللوم من الآخرين، لذلك قيل عن المحمي بأنه (شايم)، وممتلكاته تسمى (لايم) في العرف. فالقاطنون بمواطن الحموم هم شايم ولايم، على الحموم الدفاع عنهم. والقاطنون في مدينة الشحر والقرى المسيطر عليها الحكم القعيطي هم شايم ولايم السلطة القعيطية. وعندما تعتدي فصائل الحموم على سكان المدينة والقرى المتنقلين بينها فإنها من منظورها العرفي –تعتدي على شايم القعيطي لتبين مدى ضعفه لعدم قدرته على الدفاع عنه)). الصراع الحمومي القعيطي ودوافعه ص٢٣٥. وينظر: الصبان، عبدالقادر، لمحة عن حياة البدو ص٢٩. كما أنَّ القبائل تنظر لمن دونهم من الطبقات الضعيفة وخاصة طبقة العمال والفلاحين والصيادين وغيرهم، نظرة ازدراء واستحقار، وكان القبيلي يقول عنهم: (تيسي بن شاتي)، بمعنى أنَّ هذا (الضعيف) بأجمعه ملك لي، وأنا الذي أتحكم في حياته أو مماته.

ولماذا تم دفن الزعماء جميعًا في قبر واحد، وبقرب سدة العيدروس تحديدًا (المدخل الشمالي للمدينة) حيث الطرف الجنوبي الغربي لـ(حي المحط)، وهو الحيُّ الخاصُّ بالتجمعات البدوية وغالبيتهم من الحموم، ولم يتم دفنهم في مقابر المسلمين أو بموقع آخر بعيد؟! بل ذكر المؤرخ عبدالرحمن السقاف أنَّ عملية الدفن تلك، كانت ((من غير غسل، ولا صلاة، ولا تكفين))[1]!! وزاد المؤرخ أحمد الملاحي، بناءً على رواية شهود عيان، أنَّ النائب (بوبك) كان ناويًا أيضًا أن يقتل مثلهم في اليوم التالي أمام سدَّة الخور، لولا أن وصل السلطان غالب، ونهاه عن هذه الفعلة واستنكرها، وقال للنائب : ((إنِّي برئ ممَّا فعلتَ))[2].

الرواية الحمومية عن المذبحة:

أمَّا الرواية الأخرى التي تميل نوعًا ما للحموم فهي التي دوَّنها المؤرخ عبدالرحمن الملاحي وزميلُه الدكتور حسن معيلي، في بحثهما الموسوم بـ(الصراع الحمومي القعيطي ودوافعه)، خاصة أنَّهما اعتمدا في روايتهم للحادثة على شهود عيان من الحموم أنفسهم. وهي رواية لا تختلف كثيرًا عن الرواية السابقة للمؤرخ البطاطي في خطوطها العريضة، جاء فيها : ((وفي محاولة لقمع القوة الحمومية أوعز ناصر أحمد إلى الوسطاء من آل العيدروس للتفاوض مع زعيم الحموم لإبرام اتفاقية جديدة تنهي حالة العداء القائم، وسمح لجميع الفصائل بدخول الشحر للتسوق ومزاولة نقل البضائع على إبلهم،

---

١ السقاف، إدام القوت ص١٨١، والملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية (مخ) ص٣٩.

٢ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية (مخ) ص٤٠.

وأعلن عن هدنة مؤقتة (صلح عرضة) لحين إبرام معاهدة صلح دائم. فأقبلت جموع من أفراد القبائل إلى الشحر بعد انقطاع طويل عنها متسوقين، ساعين إلى وسطائهم من الدلل للتعاقد مع الوكالات التجارية لنقل بضائعهم إلى وادي حضرموت كعادتهم، فوفدوا إلى المدينة مطمئنين إلى إعلان الصلح المؤقت. وفي صبيحة أحد أيام ربيع الأول من عام ١٣٣٧هـ وفد إلى الشحر عدد من الفصائل الحمومية، يترأسهم زعيم التحالف سالم بن حبريش، استجابةً لوساطة آل العيدروس لإبرام معاهدة جديدة. فساد المدينة شعور بالتفاؤل والأمل بتحقيق صلح شامل ينهي حالة الاضطراب والخوف الذي دام طويلًا، ولكن حاكم المدينة كان يضمر في نفسه خدعة تقتل الأمل المشع من عيون سكان المدينة، فأصدر في ضحى اليوم نفسه أوامره إلى جنوده بإغلاق المدينة وإلقاء القبض على الزعماء الحموميين وأتباعهم المنتشرين في الأسواق. وتوجه في ضحى ذلك اليوم سالم بن حبريش وبعض من رؤساء الفصائل بصحبة الوسطاء آل العيدروس إلى قصر الحاكم لإجراء التفاوض معه، بينما بقي بعض من هؤلاء في منزل آل العيدروس، وآخرون في منازل أصدقائهم وفي محلات الوكلاء مع وسطائهم التجاريين، فلم يشعروا إلا بالجنود يقودون أفراد الحموم إلى السجن مهددين كل من يعترضهم بالقتل، ودارت مواجهة بين آل العيدروس في منزلهم وبين الجنود القعيطيين، صوَّب فيها كلٌّ منهما سلاحه ضد الآخرين، مدافعين عمَّن احتمى بهم من أفراد الحموم، ولكن الجنود اقتحموا المنزل بعد أن تسلل منه عدد من الحموميين من الباب الخلفي))[1].

١ الصراع الحمومي القعيطي ودوافعه ص٢٣١.

وفي ظهر ذلك اليوم تم الإعلان في الشوارع عبر منادي الدولة أنَّ الحكومة ألقت القبض على أربعمائة من الحموم، وأنَّه سيتم عصر اليوم نفسه إعدام سبعة وعشرين من زعمائهم، ((وتم التنفيذ بالفعل أمام البوابة الشمالية للمدينة، بين ثكنتي الجنود (الكشاريات)، ذبحًا بالخناجر. ومن بين الزعماء سالم بن حبريش، وحيمد بن سالم زعيم بني غراب، وآخرون من بحسن وبيت سعيد وبيت عبيد ... وتُرِكُوا حيث قُتِلُوا إلى عصر اليوم التالي، حيث حُفِرَ لهم قبر واسع يشملهم جميعًا، يبعد شمالي البوابة (٥٠) مترًا، ودُفِنُوا فيه))[١].

تساؤلاتنا عن الرواية الحمومية:

ونلاحظ أنَّ هذه الرواية اعتراها اضطراب في تحديد تاريخ هذه الحادثة بدقة، إذ جعلتها في أحد أيَّام ربيع الأوَّل[٢]، وحصرت كل الأحداث منذ مقدم زعماء الحموم، ووجود المئات من أفراد فصائلهم البالغة (٤٠٠) وانتشارهم في أرجاء المدينة، ثم لملمة الـ(٤٠٠) حمومي من دون أي مقاومة تُذكر، باستثناء مقاومة آل العيدروس، ثم تنفيذ القتل الجماعي للزعماء، كل هذه الأحداث تحصرها الرواية في مُدَّة لا تزيد عن ربع يوم (حوالي ٦-٧ ساعات على الأكثر)!

ومن المعروف أنَّ غالبية طوائف السادة العلويين، ومنهم آل العيدروس قد نزعوا السلاح وتركوه منذ زمن بعيد، وكان اعتمادهم فقط على وجاهتهم ونفوذهم الروحي، فكيف تمكن هؤلاء من حمل السلاح وإشهاره في وجوه رجال الدولة ؟! ومن أين جاء لهم

---

١ الصراع الحمومي القعيطي ص٢٣٢.

٢ المرجع السابق، ص٢٣١. والتاريخ نفسه للحادثة ورد عند المؤرخ عبدالله حداد، الشاعر الشعبي فرج بلسود ص٣٥. وما نعتقده صوابًا هو ما أثبتناه في رواية المؤرخ البطاطي.

هذا السلاح ؟! وأيضًا لماذا لم تقم تلك القوة التي قدمت لمنزل آل العيدروس (موقعه بعقل باعوين، إلى الجنوب من مسجد العيدروس) بمحاصرة المنزل أولًا قبيل اقتحامه، وهذا إجراء احترازي من أولى بدهيات عمليات الاقتحام! كما أنَّ هذا الاقتحام تم بعد فرار كل من كان داخل المنزل من الحموم !! والأهم من كل هذا كيف يمكن للحموم الأربعمائة زعماءً وأفرادًا المخاطرة بالدخول إلى عرين الأسد زرافاتٍ، وجميعهم أعزل من السلاح ؟!

وقد أشار لهذه الحادثة أيضًا المؤرخ أحمد الملاحي حينما أفاد بأنَّ مقدم الحموم التجأ إلى بيت المنصب (العيدروس)، وبحكم وجاهته لم يستطع عسكر الدولة اقتحام المنزل، إلا بعد أن صدرت لهم أوامر النائب باقتحامه ولو بالقوة، فكان لهم ما أرادوه[1].

أمَّا عن بقية أسرى الحموم الذين زُجَّ بهم في السجون فيروي المؤرخ البطاطي أنَّ وزير السلطنة السيد حسين بن حامد المحضار لمَّا علم بالحادثة، وكان غير راض عنها، عاد أدراجه من حضرموت الوادي[2] ، وأول ماعمله فور وصوله المدينة أن أزال بناء القبر الذي عمل للسبعة والعشرين من قتلى الحموم[3].

---

١ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية (مخ) ص٣٨.

٢ ذُكِرَ أنَّ وجود الوزير هناك كان لأجل التفاوض مع السلطان الكثيري بشأن التمهيد لاتفاقية عدن وإزالة الخلاف بين السلطنتين (الكثيرية والقعيطية). ينظر: إثبات ماليس بمثبوت ص٤٩. مع ملاحظة أنَّ اتفاقية عدن قد حررت في تاريخ ٢٧ شعبان ١٣٣٦هـ، وأن هذه الحادثة تمت في ٢٦ ربيع الآخر ١٣٣٧هـ. فلعل ذهابه إلى الوادي كان لغرض آخر. وعن اتفاقية عدن وبنودها ينظر: البكري، في جنوب الجزيرة العربية ص٢٢٥، وتاريخ حضرموت السياسي (٢/ ٣٧)، والبطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٧١-٧٤..

٣ كان القبر طوله ٢٧ ذراعًا، وعرضه ١٠ أذرع. إثبات ما ليس بمثبوت ص٤٩. وفي المذكرة التاريخية أن الحموم أنفسهم قاموا بكسر ذلك القبر بعد أن جُصِّصَ على شكل (دكة) يقعد عليها الناس! وذلك بعد أن ضاقوا ذرعًا بهذه الإهانة. ينظر: الملاحي، (المذكرة التاريخية) ص٣٩.

وفي اليوم التالي طلب الوزير حامد من النائب ناصر أحمد إطلاق المعتقلين جميعًا، فرفض هذا الأمر، فهدَّده المحضار بأنَّه سيقوم بنفسه بإطلاق سراحهم. فما كان من النائب ومعه عدد من مقادمة يافع، إلا أن شددوا الحراسات على السجن، ضاربين بأوامر الوزير عرض الحائط. واستاء الوزير كثيرًا من هذا التصرف، وغادر مسرعًا إلى العاصمة (المكلا) لمقابلة السلطان غالب، ولكن، كما ذكر المؤرخ البطاطي، وجد الوزير من السلطان تأييدًا مطلقًا لكل ما قام به النائب، لتسوء بعد هذه الحادثة العلاقة بين السلطان غالب ووزير دولته السيد حسين بن حامد المحضار، خاصة أنَّ السلطان أمر الوزير بعدم التدخل في شؤون لواء الشحر[1]، وتركها للنائب.

مصير الحموم السجناء:

أمَّا بقية أفراد الفصائل الحمومية السجناء بالمدينة، فكثير منهم مات في السجن لأسباب متعددة[2]، ولم يطلق سراح من تبقى على قيد الحياة، إلا بعد أن قضوا في السجن مدَّة طويلة. وثمة روايات تذكر أنَّ الوزير المحضار بعد انقضاء مدَّة طويلة على حبس الحموم، سعى في تدبير مكيدة محكمة لتهريبهم من سجن الشحر، وأنَّ هذه المكيدة نجحت[3]. وكان حصيلة من مات من الحموم في السجن زمن اعتقالهم تلك مائة وسبع أنفس[4].

١ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٤٩–٥٠.

٢ ذكر المؤرخ عبدالرحمن الملاحي أن أولئك الحموم ((مات كثير منهم في السجن من شدة القهر والغيظ والأسف. ويمكن مات بعضهم جوعًا)). الصراع الحمومي القعيطي ص٢٣٢. كما أشار صلاح البكري إلى موت كثير منهم في السجن. تاريخ حضرموت السياسي (٢/ ٣٠).

٣ للتفاصيل ينظر: إثبات ما ليس بمثبوت ص٦٥، وبن علي الحاج، عمر بن عوض القعيطي ص١٥٣.

٤ السقاف، إدام القوت ص١٨١.

وقد عدّ المؤرخ صلاح البكري هذه الحادثة من أهم أعمال السلطان غالب إلى جانب احتلاله لساه ووداي الأيسر[1].



مجاميع من البدو بعد اعتقالهم، والصورة على ما يبدو في ثلاثينيات القرن العشرين

١ البكري، صلاح، في جنوب الجزيرة العربية ص٢٢٩.

ردة فعل الناس تجاه المذبحة:

أُصِيبَ الناسُ داخل المدينة بالذهول؛ لهول ما شاهدوه، ولشناعة الفعلة التي أقدم عليها النائب ناصر أحمد، إذ لم يدر في خلد أحد أن يقوم النائب بما قام به!

يروي المؤرخ أحمد الملاحي أنَّ أهالي الشحر بعد هذه الحادثة، أشفقوا على أطفال الحموم، بعد أن تيتم الكثير منهم، ومنهم من أصبح دون عائل، وقد أدارت لهم السلطة ظهرها، فتولوا هم تربية أولئك الصغار ورعايتهم حتى كبروا، ((فبعضهم رجع إلى البادية عندما عرف أهله، وبعضهم تحضَّروا، والبنات تزوَّجن))[1].

وقد تباينت ردود أفعال الناس تجاه هذه الحادثة وماتلتها من أحداث، بين مؤيد لما فعله النائب بالحموم[2]، ومعارض استاء كثيرًا من هذه الفعلة، وخاصة أولئك الوسطاء والضامنين والدلالين وكذا من تربطهم بالحموم صلات قرابية أو اجتماعية أو علاقات اقتصادية مشتركة.

١ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية (مخ) ص٣٩.

٢ ذكر المؤرخ البطاطي أنَّ جميع اهل المدينة فرحوا بما قام به النائب، وأقاموا لهذه المناسبة الأفراح. ينظر: إثبات ما ليس بمثبوت ص٤٨. وهذا التعميم من المؤرخ نراه غير صواب، ويخالف الواقع والمنطق، إذ إن الاستياء لا بد من وجوده، على الأقل لدى مَنْ عرَّضتهم تلك الحادثة للحرج، كالسادة الوسطاء والدلالين، وبعض من لديه قرابة أو مصالح مشتركة مع فصائل الحموم.

الشعراء الشعبيون وتفاعلهم مع هذه الحادثة:

خير ما يصور لنا حالة الناس ومواقفهم من تلك الحادثة، هو الشعر الشعبي، فقد تفاعل الشعراء الشعبيون مع هذه الحادثة، وجاءت قصائدهم انعكاسًا لميولهم واتجاهاتهم ومواقفهم من الحكومة تأييدًا أو معارضةً[1]. فمن نماذج الشعر المؤيد لما قامت به الحكومة القعيطية، القصيدة الذائعة الصيت للشاعر الشعبي سالم سعيد باسباع الملقب (قريشن) المتوفَّى سنة (١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م)[2]، والتي يقول في مطلعها:

ذا فصل والثاني ضوانا هاجسي ملقي زعل
والليـل عبَّرتـه ونا فـكـر عا دور الفـكـور
وفكرت في أمر القبائل ياجماعة والدول
ولحقت للدولة مقاطب لي تقشب بالشعور

إلى أن يقول:

بين الكشاريات قد قمنا الوعيدة والقبل
من له طلب يحضر يلقي طعن في وسط النحور
حضروا بني مالك ولقوا ضرب في الداسي هول
والحاشية حضروا وشلوا الألف كله والكسور
سبعة وعشرين لي سقطوا وشلوهم وصل
والمحبسة تطبل وعاد الطست باقي عا يفـور

١ عن هذه الحادثة وتفاعل الشعراء الشعبيين معها، ينظر: حداد، عبدالله صالح، الشاعر الشعبي فرج أحمد بلسود ص٣٤، وباوزير، محمد، مدينة العرفان غيل باوزير ص١٠٩-١١٠، وباوزير، أحمد، الوطنية في الشعر الشعبي من منشورات فرع المركز اليمني م/ حضرموت (٧) المكلا، أبريل ١٩٨٠م، ص٢١.

٢ تنظر ترجمته في: معجم شعراء العامية الحضارمة ص٨٣.

إلى آخر تلك القصيدة فائقة التصوير[1]. والعجيب أنَّ لهذا الشاعر نفسه قصيدة أخرى جميلة في رثاء صديقه مقدَّم قبيلة الحموم كرامة بن سالمين العليي، بعدما قُتِلَ غِيلةً وهو على سفر بين الشحر والمكلا، يقول فيها[2]:

تحزن عليك البادية يا راس نضرب به مثل
من الدمخ لا عين بامعبد ونجده والرضاح
آه على الساس القوي آه على دقم الجبل
آه على الهيراب لي عز اللواشق واللواح

وللشاعر الشعبي عمر عوض العماري[3] الشهير بـ(بو رايح) المتوفَّى سنة (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م)، قصيدةٌ كانت سببًا في مقتله لاحقًا على يد أفراد من الحموم[4]، يقول فيها:

يا كم حوجة لي لقاها بوسعيد اليافعي
(ناصر) نصره الله على أهل القلوب الظالمات
الله يقيمه في مقام الصدق والملك العلي
بحق سورة لم تر والواقعة والصافات
سبعة وعشرين لي زفوا بهم يا صاحبي
من دون لي هم في السلاسل والقيود المكنات

١ للمزيد عن هذه القصيدة وشرح مفرداتها، ينظر: الملاحي، عبدالرحمن، الصراع الحمومي القعيطي ودوافعه ص٢٣٢-٢٣٤. وتنظر أبيات منها عند: الجعيدي، عبدالله، الأوضاع الاجتماعية ص١٩٣.

٢ حداد، معجم شعراء العامية الحضارمة ص٨٤.

٣ تنظر ترجمته عند: حداد، عبدالله، معجم شعراء العامية الحضارمة ص٢٤٨.

٤ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

بين الكشاريات وطوا كل من قرنه قوي

يومين في يومين ظلت روسهم متعاضلات

ذي نصفة المسكين والله ينتصف في الباطلي

قولة (نصيف الله) تقطع في الحيود الراسيات

أمَّا جانب الحموم في هذا الصراع فتجسده بعض قصائد الشاعر الشعبي أحمد معلاق، وقد سبق أن استشهدنا ببيتين من قصيدته عن الحرب الاقتصادية التي شنَّها القعيطي عليهم قبل الحادثة، وإصرارهم على الصمود، وبعد هذه الحادثة قال الشاعر معلاق في إحدى المساجلات[1]:

يقول معلاق شو ذا مخيلة قوية ثارت وبايسيل ماها

والذي مالقى له مرادع يشله وادي عرف والقبالي

ماهي مزاييب وشعاب

الميزان من شغل بومبي معانا والواق من شغل الولاية

نوخذ ونمشي عليها

سيرعالحق ما نوخذ الناس باطل خايف من الله

قفاها نيران وحساب.

وإلى جانب الشاعر أحمد معلاق المناصر للحموم، برز كذلك الشاعر الشعبي سالمين سعيد بن حريض[2] الملقَّب بـ(كعموم) المتوفَّى سنة (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م)، والشاعر

---

١ باوزير، أحمد، الوطنية في الشعر الشعبي ص٢١.

٢ تنظر ترجمته عند: حداد، معجم شعراء العامية الحضارمة ص١٠١.

الشعبي محفوظ بن عبدالرحمن العطيشي[1]، والشاعر الشعبي أحمد محمد بكير[2]، الذين تستطيع أن تلمس اتجاهاتهم من خلال قصائدهم والمساجلات الشعرية التي خاضوها مع شعراء الحكومة القعيطية ومناصريها.

وإلى جانب من استشهدنا بأبيات لهم من أنصار الحكومة وهم كُثُر، نشير كذلك إلى الشاعر فرج أحمد بلسود، وصلاح النوبي، ومرتع باجليدة، وعبود علي بامعرفة، وسعيد عبدالله قشمر، وغيرهم[3]. وقد استعمل شعراء كلا الطرفين شعرَهُ للتحريض وشبِّ نار الفتنة وإثارة العامة، وازدادت حدة هذه الأمور مع الأحداث المتلاحقة.

إنَّ أحداث تلك الحقبة من الزمن وفَّرت للشعراء المتبايني المواقف والاتجاهات، مرتعًا خصبًا ترتع فيه قرائحهم، فأنتجوا قصائد عبَّرت أصدق تعبير عمَّا يجول في نفوس الناس وتضطرم به أحاسيسهم وانفعالاتهم، وكان لهذه القصائد من الأثر البالغ في النفوس ما جعل العامة تحتفظ بكثيرٍ من تلك القصائد، أو على الأقل بأبيات منها، تردد صداها ليلَ نهار، وفي كل مناسبة واحتفال، ومع كل سمر ومقيل، ولولا هذا التفاعل الشعبي معها لما وصل إلينا شيء منها، إذ كان الناس حينها غير مهتمين بتدوين الشعر العامي وكتابته.

---

١ للمزيد من قصائد الطرفين في هذا الصراع وما تلاه من أحداث، ينظر: حداد، عبدالله، الشاعر الشعبي فرج أحمد بلسود.

٢ له ترجمة في معجم شعراء العامية الحضارمة ص٤١.

٣ تنظر تراجم هؤلاء الشعراء عند: حداد، عبدالله، معجم شعراء العامية الحضارمة.

وبطبيعة الحال فإنَّ وضعًا كهذا بلغ من التوتر مبلغه، سوف يترك أثره في المواطنين داخل المدينة، وفي مَنْ يشملهم مفهوم الرعايا التابعين للدولة خارجها، وهذا يعني مزيدًا من إراقة دماء هؤلاء الذين لا ناقة لهم ولا جمل في هذا الصراع الدائر.

ويُذكَر أنَّ الوزير حسين بن حامد المحضار بعد حادثة الحموم هذه، وبينما كان في ضيافة أحد أصدقائه للعشاء، مرَّ بجانب المنزل أهل (عقل باعوين)، ومعهم مشعالهم يلعبون به ويتراقصون حوله، فخرج إليهم المحضار، وارتجز بيتًا يصف حالته والحالة الكئيبة التي بلغتها المدينة بعد تلك الحادثة، طالبًا منهم إنشاده في أثناء رقصهم، على أساس أنَّه لم يكن راضيًا عن تلك السياسة التي انتهجها النائب ناصر أحمد، ولا عن الطريقة التي عالج بها ذلك الصراع، يقول المحضار:

يا شحرنا قال بو طالب وراش ما انتي على العـــادة

وقد فطن لمغزاه الشاعر الشعبي (قشمر)، وكان من ضمن أهالي (عقل باعوين)، فأجابه قائلًا:

كل سبايبش من غالب ومن عساكرش والسادة

وثمة مراجع أخرى تفيد أنَّ البيتين هما للوزير المحضار قالهما في المناسبة نفسها.

وبالطبع لم ينته الصراع الحمومي القعيطي بمقتل أولئك الزعماء الحموميين، وبسجن المئات منهم كما أرادت له الدولة، وإنَّما استمرَّ واستعر، وطغى على الأحداث اللاحقة طابع الانتقام والتربص بالخصم، وربَّما التمثيل به إن وقع في اليد! إلا أنَّ غالبية الأحداث الدموية، لحسن حظ الشحريين خاصة، كانت بعيدة عن سور المدينة[1]. ولا يعني هذا عدم اكتوائهم بنارها.

١ للمزيد ينظر: الملاحي، عبدالرحمن، الصراع الحمومي القعيطي، والبطاطي، عبدالخالق، إثبات ما ليس بمثبوت ص٤٩.

ما بعد حادثة مذبحة الحموم:

بعد حادثة الحموم الشنيعة تلك، هدأت المواجهات وخفَّت حدة التوترات، إذ لم يُبدِ الحموم ردَّةَ فعلٍ سريعةً، وهو ما لم يكن متوقعًا منهم، فقد آثروا الانسحاب عن المشهد، والانزواء في مناطقهم ومثاويهم، ممَّا جعل أغلب النَّاس يجزمون أنَّ الضربة التي تلقاها الحموم كانت هي القاضية، ولن تقوم لهم بعدها قائمة. وفي هذا يقول الشاعر الشعبي أحمد محمد بكير يعاتب الحموم عتابًا رقيقًا، ويحرضهم صراحة على الانتقام والأخذ بالثأر[1]:

سمعت شيء في الديس كالعادة زجل وإلا رجز

من بعدما قبضوا كبير الرأس مصموم النياب

لكن كما قيل إنَّ البدوي لا ينسى ثأره وإن طال به الأمد. ولم تطل حياة السلطان غالب بعد هذه الحادثة كثيرًا، إذ عاجله الموت في حيدر آباد الدكن (الهند) يوم الخميس ٤ شوال ١٣٤٠هـ/ ١ يونيو ١٩٢٢م، ودُفِنَ بجوار قبر أبيه السلطان عوض بمقبرة (أكبر شاه)، فخلفه في الحكم أخوه السلطان عمر بن عوض القعيطي (ت: ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٦م)[2].

وبتولي السلطان عمر السلطنة أبقى على وزير دولتهم السابق السيد حسين بن حامد المحضار في منصبه، بعد أن وُفِّقَ هذا الوزير في إدارة السياسة العامة للدولة، وفي إطفاء الفتنة قبيل استعارها بين السلطان عمر نفسه وابن أخيه صالح بن غالب، والتي انتهت

١ الجعيدي، عبدالله، الأوضاع الاجتماعية ص١٩٥.

٢ للمزيد عن هذا السلطان، ينظر: بن علي الحاج، محمد سعيد، عمر بن عوض القعيطي سلطان الدولة القعيطية الحضرمية حياته، عهده، آثاره.

بعقد اتفاق بينهما يقضي بقبول صالح بن غالب بأن يكون عمه عمر سلطانًا، على أن يكون هو (أي صالح) وليًّا للعهد[1].

وطوال تلك المدَّة كانت مساعي الوزير حسين المحضار مستمرَّةً لإقناع السلطان غالب، ثم السلطان عمر من بعده، بإطلاق سراح الحموم المعتقلين في سجن الشحر، خاصة بعد موت الكثيرين منهم داخله. إلا أنَّ مساعي الوزير كما هو واضح لم تثمر، بالرغم من منصبه ووجاهته! وتذهب بعض الروايات إلى أن الوزير المحضار دبَّر حيلةً، انتقامًا من موقف الحكومة هذا، أدَّت إلى فرار مَنْ بَقِيَ من سجناء الحموم، وكان هذا في عهد النائب على الشحر سالم أحمد القعيطي صهر السلطان عمر. في حين يذكر آخرون أنَّ هذه الحيلة دُبِّرَت بعد أن تمكَّن الحموم أنفسهم بقيادة مقدَّمهم (علي بن سالم بن حبريش) من الانتقام لمقتل زعماء فصائلهم، إثر هجومهم الشرس والمباغت على الديس الشرقية وإستباحتهم لها، وفيه تمكن الحموم من قتل أعدادٍ من يافع، وأسر أعداد أخرى، واستعادة هيبتهم وكرامتهم، وكان هذا سنة ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م[2]. وبحسب رواية المؤرخ عبدالخالق البطاطي فإنَّ للوزير المحضار يدًا في هجوم الحموم على الديس أيضًا[3].

وعلى إثر النصر الذي حققه الحموم في الديس الشرقية ارتفعت روحهم المعنوية، وعادت إليهم من جديد جرأتهم على تحدي الدولة، ونصب الكمائن لها في الطرقات

---

١ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٦٧.

٢ للتفصيل عنها، ينظر: البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي (٢/ ٤٨). وعنده وقعت الحادثة سنة ١٣٤٣هـ، والجعيدي، عبدالله، الأوضاع الاجتماعية والثقافية في حضرموت ص١٩٤-١٩٨.

٣ لمعرفة تفاصيل هذه الأحداث، ينظر: البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٥٣ ومابعدها.

الخارجية واقتناص جنودها، مع التربص بكل من يَمِتُّ لها بصلة لنهبه أو سلبه، فعادت الاضطرابات الأمنية أسوأ من ذي قبل.

ولم يهدأ الصراع القعيطي الحمومي إلا بعد أن تدخل سلاطين آل كثير ومعهم آل الكاف، وتمكنوا سنة (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م) في منطقة غيل بن يمين من عقد اتفاق صلح بين الطرفين، لإنهاء حالة الاقتتال الدائر بينهما. فهدأت الأوضاع قليلًا، وكان هذا في عهد السلطان عمر بن عوض القعيطي، بعد التوقيع على اتفاقية الإصلاح الوطني بين السلطنتين.

وثيقة بين أهالي المدينة للحد من تكاليف الزواج وبعض الظواهر السلبية:

في عهد النائب سالم أحمد القعيطي تم جمع عقلاء مدينة الشحر وأعيانها ومشايخها؛ للتوقيع على وثيقة عهد أو اتفاق بينهم للحدِّ من تكاليف الزواج وتقنين عملية الاحتفال به، إلى جانب محاربة بعض السلوكيات الشاذة التي بدأت تتفشى في المدينة كاختلاط النساء بالرجال في أثناء الزيارات والاحتفالات السنوية التي تقام حول أضرحة بعض الأولياء داخل المدينة وخارجها، أو جلوس بعض الشباب المتسكعين في بعض طرق النساء المستقيات للنظر إليهن. فكان من شأن هذه الوثيقة التي تعهد الأهالي بالتقيد بها أن سَهَّلت من فرص الزواج، ومنعَت في الوقت نفسه تلك السلوكيات السيئة الشاذة على المجتمع الشحري. وقد حُرِّرَ هذا الاتفاق يوم الثلاثاء ٢٤ محرم ١٣٤٥هـ الموافق ٣ أغسطس ١٩٢٦م[١].

---

١ عن تفاصيل هذه الوثيقة وشرحها، ينظر: حداد، عبدالله، نشرة الفكر الصادرة بغيل باوزير ، العدد ٧ يوليو–سبتمبر ١٩٩٧م.

اتفاقية الإصلاح الوطني بين السلطنتين:

في أثناء انشغال السلطان عمر بن عوض القعيطي باحدى سفراته في الهند مصطحبًا معه صهره نائب لواء الشحر سالم أحمد القعيطي؛ عيَّن على الشحر نائبه حامد عبدالخالق الماس الحبشي[1]، وفي هذه المدَّة قَدِمَ إلى مدينة الشحر وليُّ العهد صالح بن غالب القعيطي، ومعه وزير سلطنتهم الجديد السيد أبوبكر بن حسين المحضار؛ بغرض إقامة مراسيم التوقيع على اتفاقية (الإصلاح الوطني الحضرمي) بين الدولتين الكثيرية والقعيطية، وهي الاتفاقية التي عرفت في بعض الأدبيات باتفاقية (الطيب الساسي) وكانت ترمي في ظاهرها إلى فض النزاعات بين السلطنتين، وتوحيد جهودهما نحو (الوحدة الوطنية الحضرمية). وكان ممثل السلطنة الكثيرية هو ولي العهد علي بن منصور الكثيري. وحُرِّرَت هذه الاتفاقية بتاريخ ٢٦ جمادى الآخرة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م[2]. وكان من بنودها إلى جانب تحقيق الإصلاح والأمن بين الدولتين، تأسيس جمعية وطنية مشتركة هدفها الإصلاح، كما تم تعيين ممثل للسلطنة الكثيرية في الشحر، وممثل للسلطنة القعيطية في تريم، وكان ممثل السلطنة الكثيرية في الشحر هو حسن بن عبود بن سالم الكثيري، وقد أقام هذا في بيت سعيد سالم بن حيدر، في حافة العيدروس بعقل باعوين[3].

١ في مدة حكم هذا النائب لمدينة الشحر وقعت (هدَّة الغالبي)، وهي اشتباكات كانت بين أهالي عقل باعوين وأهالي عقل باغريب، في ٦ محرم ١٣٤٧هـ/ ٢٤ يونيو ١٩٢٨م. ينظر: حداد، عبدالله، نائب القعيطي في الشحر سالم بن أحمد، مجلة شعاع الأمل، العدد ٩٧، أكتوبر ٢٠٠٩م، ص٣٨. وقد أشار ابن هاشم في رحلته إلى الثغرين إلى وجود هذا التنافس والصراع بين العقلين خلال رحلته الشهيرة إلى الشحر والمكلا. ينظر: ص٧٦.

٢ للتفصيل عنها، ينظر: البكري، تاريخ حضرموت السياسي (٢/ ٥٦)، والبطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٦٩-٧٠، وابن علي الحاج، عهد السلطان عمر بن عوض القعيطي ص١٦٠-١٦٤، وباحمدان، عهد السلطان صالح ص٢٠-٢٣.

٣ إثبات ما ليس بمثبوت ص٧٠. وابن علي الحاج، عهد السلطان عمر بن عوض القعيطي ص١٦٣.

اتفاقية سنغافورا:

بعد هذه الاتفاقية سعى الطرفان لإقامة مؤتمر آخر مكمل في سنغافورا، يضم كل الحضارمة في المهجر؛ بغرض إشراكهم فيما تم الاتفاق عليه، وتوحيد الجهود والرؤى لصياغة مستقبل حضرموت. وقد اختير الطيب الساسي ليتولى هذه المهمة والسفر لسنغافورا، برعاية من آل الكاف. وبعد لقاءات واجتماعات عدة في المهجر أكمل مؤتمر سنغافوراجلساته ليلة السبت ٢٢ من ذي القعدة ١٣٤٦هـ/ ١٢مايو ١٩٢٨م، وقد خرج المجتمعون ببنود وقرارات عدة تمَّت المصادقة عليها[١].

إنَّ القرارات التي تم الاتفاق عليها في اتفاقية الشحر السابقة، أو تلك التي تمخض عنها مؤتمر سنغافورا والتي اتفق على بنودها رعايا الجانبين القعيطي والكثيري في المهجر، هي من ناحية أخرى تلغي اتفاقية سابقة بين السلطنتين، وهي ما عُرِفَ بـ(معاهدة عدن)[٢]، فهي تعيد لآل كثير نفوذهم على أجزاء واسعة من حضرموت، بعد أن تقلصت رقعة دولتهم في حدود ضيقة جدًّا، كما أنَّها تجرد السلطان القعيطي من سلطته وسلطنته بتشكيلها مجلسًا وطنيًّا أو مجلسًا تشريعيًّا[٣]، ممَّا دفع السلطان عمر،

١ عن بنود مؤتمر سنغافورا وقرارته، ينظر: سعيد، أمين محمد، ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم ص٤٣١-٤٣٧، وابن علي الحاج، عهد السلطان عمر بن عوض القعيطي ص٣٢٦-٣٣٢. مع ملاحظة أن الاخير أورد التاريخ بالميلادي ١٢مايو ١٩٢٧م.

٢ وقعت في ٢٧ شعبان ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م. ينظر: البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٧١، وباوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٣١٩-٣٢٠، وبن هاشم، رحلة إلى الثغرين ص٦٥، سعيد، أمين محمد، ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم ص٤٢٩، وفيلبي، جون، بنات سبأ ص٢٥٤-٢٥٧، والمحضار، حامد، الزعيم السيد الحبيب حسين بن حامد ص١٠١، والبكري، تاريخ حضرموت السياسي (٢/ ٣٨).

٣ حداد، عبدالله، نائب القعيطي في الشحر سالم أحمد، مجلة شعاع الأمل العدد ٩٧، أكتوبر ٢٠٠٩م، ص٣٨.

وكان حينها في الهند، لأن يعود مسرعًا معلنًا إلغاء هذه الاتفاقيات التي وقَّعها وليُّ عهده السلطان صالح[1]، وأمر بمنع دخول السيد محمد بن عقيل بن يحيى حضرموت[2]، أمَّا (الطيب الساسي) فقد صُودِرَ ما بحوزته من وثائق وأوراق، ونُفِيَ إلى خارج البلاد.

وردًّا على إصدار السلطان عمر بيانًا لنفي مخرجات تلك الاتفاقيات، أصدرت اللجنة التنفيذية التي تمخضت عن مؤتمر سنغافورة بيانًا تدافع فيه عن نفسها، وتبرر ما قامت به من خطوات، ونفت في بيانها ما قيل عن عدم اطِّلاع السلطان عمر على مجريات المؤتمر وحيثياته، بل ونفت أيضًا إصدار السلطان عمر بيان النفي ذاك، فهي تكذب البيان الصادر، وتؤكد في الوقت نفسه التزامها بتلك القرارات الصادرة عنها[3].

وفي المقابل أرسل السلطان عمر برقيةً عاجلةً للجمعدار سالم أحمد القعيطي، يستعجله فيها مغادرة الهند والتوجه مباشرة إلى الشحر لضبطها، وكان وصول الجمعدار سالم أحمد وعائلته إلى مدينة الشحر في ١٠ محرم ١٣٤٩هـ الموافق ٦ يونيو ١٩٣٠م[4]، وقد لاقى عند وصوله ترحيبًا كبيرًا من الأهالي والأعيان الذين امتلأت بهم الفرضة (الميناء)[5]. ولا ندري ما الذي أخَّر الجمعدار سالم أحمد عن الوصول إلى حضرموت في وقت أبكر من هذا!

---

١ عن رفض السلطان عمر لقرارات المؤتمر وماتمخض عنه، ينظر: سعيد، أمين محمد، ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم ص٤٣٧. كما نُشِرَ الرد في مجلة الشرق الأدنى المصرية العدد ٤٤ الصادرة في ربيع الأول ١٣٤٧هـ.

٢ سعيد، ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم ص٤٣٩.

٣ للاطلاع على هذا البيان، ينظر: ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم ص٤٣٨.

٤ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٧٥، وحداد، عبدالله، مجلة شعاع الأمل العدد ٩٧، أكتوبر ٢٠٠٩م، ص٣٨.

٥ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٧٥، وابن علي الحاج، عهد السلطان عمر بن عوض القعيطي ص١٧٢.

تأسيس نادي الإصلاح وزيارة السلطان عمر:

خلال عهد النائب سالم أحمد القعيطي شهدت المدينة بعض التغيرات والإصلاحات الطفيفة المتعلقة بالبنية التحتية للمدينة، كتأسيس بعض المدارس والنوادي، وفتح المطار جنوب مسجد الشيخ فضل بافضل، كما عمل على تأسيس (نادي الإصلاح) بالشحر في أوائل سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م تقريبًا[١]، وهو عبارة عن ((مجلس تشريعي حسب نظامه ودستوره وتحت رئاسة السيد عبدالقادر أحمد بافقيه، بلجنتين لجنة إدارية ولجنة فخرية من كبار العلماء والمثقفين، والكل رئيسها بافقيه))[٢]. وافتتح هذا النادي سالم أحمد ومعه القاضي الشيخ أحمد عوض المصلي. وتتمثَّل أهداف هذا النادي، كما أعلنها رئيسُه بافقيه، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح ذات البين، وحل المشاكل بالتعاون مع النائب. وكان هذا النادي يعتمد على جمع التبرعات واشتراكات الأعضاء، والتي لا تتجاوز خمس روبيات في الشهر. وقد بلغ عدد أعضاء هذا النادي في اليوم الأول لافتتاحه نحو ثلاثمائة عضو[٣].

وبعد تأسيس هذا النادي بنحو ثلاثة أسابيع ((وصل السلطان عمر في زيارة تفقدية للشحر، وقرَّر زيارة النادي للتعرف على الأعضاء وسير العمل وإظهار التأييد منه مباشرة، وأُقِيمَت له حفلة كبرى حضرها أغلبية أهل الشحر. وفي الحفلة أعلن تأييده للنادي،

١ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٧٨. وعنده: (في أوائل عام ١٣٥١هـ/ تقريبًا مايو ١٩٣٢م). وقال قبله: (إذا لم تخني الذاكرة). وعند أحمد الملاحي، في: المذكرة التاريخية (مخ) ص٨١: في أواخر سنة ١٣٥٢هـ.

٢ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٧٧.

٣ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٧٨.

وأعلن تبرعه له بخمسمائة روبية وجراية شهرية من المالية عشرين روبية في الشهر، وغادر الحفلة بكل حفاوة وتكريم))[1]. وفي عصر اليوم نفسه حضر السلطان عمر حفلة افتتاح المبنى الجديد لـ(المدرسة الشرقية) بالشحر، بعد انتقالها إليه من (حصن بن عياش)، وقد أقام في المدينة ثلاثة أيام[2].

ولم يستمر نادي الإصلاح طويلًا، فسرعان ما تركه راعيه الجمعدار سالم أحمد القعيطي، ومؤسساه عبدالقادر بافقيه،وعبدالرزاق باذيب، برحيلهما معًا إلى عاصمة الدولة (المكلا)، إذ عُيِّنَ الجمعدار سالم وزيرًا للدولة خلفًا للسيد أبي بكر بن حسين بن حامد المحضار سنة (١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م)، وعُيِّنَ بافقيه سكرتيرًا للوزير، وباذيب مساعدَه[3]،وعُيِّنَ صالح بن علي القعيطي نائبًا على لواء الشحر، بدلًا من سالم أحمد[4]. وقد وصف المؤرخ أحمد الملاحي هذا النائب (صالح بن علي) بالجور على الرعية، وعرض نموذجًا من جوره[5].

١ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٧٨.

٢ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٧٨.

٣ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٧٩، والملاحي، المذكرة التاريخية (مخ) ص٨١.

٤ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٧٩. وتذكر بعض المراجع أنَّ صالح بن علي القعيطي كان نائبًا على شبام، وعزله السلطان عمر في شهر رجب ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م. ينظر: ابن علي الحاج، عهد السلطان عمر ص١٩٤.

٥ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية ص٤٦١-٤٦٢.

السلطان عمر ووعده الأهالي بجعل المدينة عاصمة لسلطنته:

عندما أنهى السلطان عمر بن عوض القعيطي زياراته لمناطق حضرموت الداخل، بما فيها زيارته للسلطنة الكثيرية سنة (١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م)[١]، زار في النهاية مدينة الشحر، واستُقبِلَ استقبالَ العظماء والفاتحين، فاحتشد الناس قريبًا من (بئر غميانة) الواقعة شمال سدة العيدروس، لتحية السلطان، كما كان في استقباله رسميًّا كبارُ موظفي الدولة والأعيان والوجهاء، وأُقِيمَ حفل كبير في الساحة القريبة من (دار ناصر)، شاركت فيه أغلب الفرق الشعبية بالمدينة برقصتها المعروفة والشهيرة بـ(رقصة العدة)، كما استُقبِلَ بالزوامل. وفي الحفل ألقى كلمة نادي الإصلاح الشيخ صالح سليمان عفيف، هنَّأ فيها السلطان، وألقى الشيخ فرج جمعان باظفاري كلمة الأهالي، أمَّا كلمة السلطان الجوابية فقد ألقاها سكرتيره عبدالقادر أحمد بافقيه[٢]. وقد علَّق السلطان عمر على ما شاهده من حفاوة الاستقبال بقوله: ((لقد جهلنا الشحر وأهل الشحر وثقافتهم وكرمهم وذوقهم وذكاءهم، ولكن أوعدكم عند عودتي من الهند إن شاء الله سوف أُحوِّل العاصمة إلى الشحر، وأجعلها مقرَّ إقامتي، وهذا وعد مني، ووعدُ الحُرِّ دَيْن))[٣].

١ بدأت هذه الرحلة صباح الأربعاء ١٢ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣هـ/ ٢٩ يوليو ١٩٣٤م. لتفاصيلها، ينظر: ابن علي الحاج، عهد السلطان عمر ص١٨١.

٢ لتفاصيل هذه الزيارة، ينظر: البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٨٢ وما بعدها. وابن علي الحاج، عهد السلطان عمر ص١٩٤.

٣ ابن علي الحاج، عهد السلطان عمر ص١٩٥.

وفي اليوم التالي، كما يذكر المؤرخ عبدالخالق البطاطي، خرج السلطان عمر وبصحبته المهندس عبيد عمر بامطرف؛ لتفقد مسجد المدرسة، ومعهم خريطة لتوسعة المسجد، وجعله جامعًا كبيرًا، وبعد المعاينة صَرَف مبلغًا قدرُهُ (٦٠٠.٠٠٠) روبية، ووضعه عند عبدالله جعفر وكيل (حاج لالا)، وبعدها زار حارات المدينة لمعاينة الأماكن التي سيقيم فيها الجوابي (خزانات لحفظ ماء الشرب)، ومدها بأنابيب الماء القادم من (الجابية الكبرى)، وقد استلم من المهندس تصوُّرًا لمتطلبات هذا المشروع وتكلفته[1]، إلا أنَّ كلا المشروعين لم يُنجز! إذ سرعان ما اختَلَف بشأنهما وبشأن المبلغ المرصود لهما الوزيرُ والمهندسُ، كما أنَّ السلطان عمر وافته المنيَّة بعدها.

صلح إنجرامس وتنظيم الجيش وتحديثه:

حينما بدأت نُذُر الحرب العالمية الثانية تلوح في الأفق بظهور الحكومات الدكتاتورية الحاملة لفكر الغزو والتوسع والشروع في تطبيق ذلك عمليًّا، أيقنت بريطانيا أنَّ العالم مقبل على حرب كارثية تهدد جغرافية دول أوروبَّا، وربما جغرافية العالم كله، ولكي يخف العبء عليها في تحمل تبعات سيطرتها على حضرموت، ولقطع دابر أي تدخل أجنبي يمكن أن يتسرب إلى المنطقة خاصة أنَّ هناك تحركات (إيطالية، ألمانية، تركية) تم رصدها من قبل-أوعزت بريطانيا لمستشارها المقيم في حضرموت (هارولد إنجرامس) بسرعة العمل والتحرك لإحلال السلام في مختلف المناطق والقرى الحضرمية، وخاصة مع رؤساء القبائل والعشائر الذين يمثلون القلق الأكبر للدولة القعيطية ومن ورائها

١ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٨٦.

بريطانيا الساعية لتثبيت وجودها وتمكينه في هذه المراحل الحساسة، وليتسنى لها التفرغ لقضاياها المصيرية ولتلك القضايا الكبرى. وهكذا أُشِيعَ بين الناس أنَّ مساعي الصلح هذه نبيلة غرضها هو إحلال السلام والبدء في تحديث حضرموت وتطويرها لتواكب عصرها. وقد كان للسادة العلويين أثرٌ كبيرٌ في تلك الوساطات لإحلال السلام، وكان من أشهرهم السيد المحسن أبوبكر بن شيخ الكاف[1]. واستطاع المستشار البريطاني بحنكته ودهائه وقوة شخصيته جعل القبائل الحضرمية تندفع بقوة لتوقيع هذا الصلح والهدنة لمدة ثلاث سنوات تبدأ من ذي الحجة (١٣٥٥هـ - ١٣٥٩هـ/ ١٩٣٧-١٩٤٠م)[2]. وهي السنة نفسها التي عقدت فيها معاهدة الاستشارة الشهيرة[3].

وقد بدأ إنجرامس فورًا بخطواته العملية لإجراء الصلح بين القبائل والدولة[4]، كما عمل على تنظيم الجيش وتحديثه، فاستقدم سنة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م الكولونيل (روبنسن) قائدجيش الليوي؛ ليقوم بعملية التنظيم والتحديث وفقًا للنمط الهندي القائم في حيدرآباد[5]،

١ الجعيدي، عبدالله، الأوضاع الاجتماعية والثقافية في حضرموت ص٢٢٧.

٢ الجعيدي، عبدالله، في رحاب تاريخ حضرموت ص٧٤، وباوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٣٢٢. ويذكر الجعيدي في كتابه الآخر أن الصلح كان في المدة: (١٩٣٦-١٩٣٩م). ينظر: الأوضاع الاجتماعية والثقافية في حضرموت ص١٩٨.

٣ عن بنود هذه المعاهدة لعام ١٩٣٧م، ينظر: باوزير، شهداء القصر ص١١٩.

٤ ذكر المؤرخ صلاح البكري (في جنوب الجزيرة العربية ص٢٣٦) أن الموقعين على هذا الصلح من زعماء القبائل والعشائر بلغ (٠٠٠.: ٠) موقِّع! وهو عدد كبير مقابلة بعدد سكان حضرموت الذي لا يزيد على المليون نسمة آنذاك! وعند الجعيدي، عبدالله: (١٤٠٠أ) معاهدة صلح بين رؤساء القبائل والعشائر. ينظر: الأوضاع الاجتماعية والثقافية في حضرموت ص٢٢٧.

٥ باحمدان، عهد السلطان صالح ص٣٤.

فتمَّ له خلال تلك المدة الوجيزة تأسيس الجيش النظامي، وقد أبقى على جزء من الجيش غير النظامي، وأسند قيادته إلى القائد محمد محسن السعدي، إلى جانب تأسيسه لجيش البادية الحضرمي (HBL) سنة ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م[1]، والشرطة القعيطية بقسميها العسكري والمدني، وعمل على تزويد هذه القوات بالأسلحة والمعدات والأجهزة الحديثة المتطورة، وقام بنشر تلك القوات في مختلف الأراضي الحضرمية بحسب مهامها واختصاصاتها.

تمردات الحموم على صلح إنجرامس:

وأمَّا قبائل الحموم -وهي أكثر القبائل التصاقًا وارتباطًا بالمدينة- ومثلها بعض القبائل الأخرى، فسرعان ما تمردت على هذا الصلح (صلح إنجرامس)، لأنَّ مصالحها ما زالت مهددة، ومشاكلها ما زالت قائمة، إذ لم تبذل الدولة القعيطية جهدًا لحلها خلال المدة الماضية، هذا إن لم نقل إنَّ الدولة القعيطية عملت على تفاقم تلك المشاكل من خلال فرض قوانين ضريبية جديدة، وإن كان ذلك مفروضًا على الجميع بدوًا وحضرًا لكن البدو أشد تضررًا، كما أنَّ توسيع وجود أجهزة السلطنة العسكرية بما فيها الجيش الذي لم يعد مرابطًا على الحدود والمدن الكبرى فقط، بل تعداها إلى المناطق التي تمثل عقر دار رؤساء البادية ومنهم الحموم.

---

١ الجعيدي، الأوضاع الاجتماعية ص٢٣٥.

كما أنَّ انهيار اقتصاد هذه القبائل بسبب حلول الكيروسين بديلًا من الحطب والفحم، وحل استيراد الأغنام من الصومال محل الأغنام المحلية[1]، زاد وضع البدو السيء سوءًا، وزاد من معاناتهم، هذا إلى جانب المشاكل السابقة العالقة بين البادية والدولة المتعلقة بشق الإسفلت ومرور السيارات بأراضيها، والتي ازدادت تفاقمًا بعد أن سمحت الحكومة القعيطية بنقل البضائع بالسيارات، بعد أن كانت السيارة مقتصرة على نقل الركاب وحدهم[2]. وقد اعترف إنجرامس في تقريره بأنَّ مثل هذه التطورات ستؤدي إلى معارضة البدو وتمردهم، كتب يقول: ((ولا شك أنَّ الجَمَّال الشريفَ هو من سيُعبِّر عن معارضته بأكثر من وسيلة حين يشعر بتهديد لمعيشته ولحياته اليومية من حركة السيارات محملة بالبضائع كبديل متطور للنقل بإبله))[3]. إلا أنَّ إنجرامس بعد أن أصبح مستشارًا لم يُعِر لحقوق البدو أي أهميَّة أو مجرَّد اعتراف بها!

وهكذا عادت بعض القبائل إلى ما كانت عليه من قطع الطريق والنهب، بعد أن ألجأتها الحاجةُ إلى ذلك، وتحكي بعض الروايات أنَّ قبائل الحموم قامت سنة (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م) بتخريب الطريق الرابط بين الشحر وحضرموت الوادي (الطريق الشرقي)[4]، كما اعترضوا خمس سيارات محملة بالبضائع، ونهبوا حمولتهن[5].

١ باحمدان، عهد السلطان صالح ص٣٩.

٢ الجعيدي، الأوضاع الاجتماعية ص١٩٨.

٣ إنجرامس، تقرير الحالة ص١٠.

٤ للتفصيل عنها ينظر: الجعيدي، الأوضاع الاجتماعية ص١٥٤.

٥ الجعيدي، الأوضاع الاجتماعية ص١٩٨. وعند باحمدان: (ثلاث سيارات). ينظر: عهد السلطان صالح ص٣٨.

وقام الحموم أيضًا بقتل نائب السلطان على مدينة غيل باوزير (عمر بن عوض مخارش) وسائقه من آل باقحوم سكان الشحر، في ذي القعدة سنة (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨م)[1] حينما كان الاثنان في طريقهما من الغيل إلى الشحر بموضع يسمى (حمى)[2]. وكان نائب الشحر يومذاك الشيخ عمر صالح بن الشيخ علي.

فما كان من إنجرامس إلا أن أرسل رسولًا إلى الحموم يطلب منهم تسليم القتلة وإعادة المبالغ المنهوبة مضاعفةً في أسرع وقت، متوعدًا إياهم بالدمار والخراب، إلا أن قبيلة (بحسن التامبول)[3] إحدى الفصائل الرئيسة لقبيلة الحموم استولت على سيارة أخرى تابعة للدولة ونهبَتْها، فطلب منهم إنجرامس دفع (((١٠٠) بندقية، و(٣٠) رهينة، وإعادة المبلغ المأخوذ، و(١٠٠) رأس غنم، و(٤٠) ناقة، وتسليم الجناة أو رهينتين من كل فخيذة))[4]، وأعطاهم مهلة للإذعان.

وعندما رفض الحموم هذا الطلب، ((قام إنجرامس وبمساعدة من سلاح الطيران الملكي البريطاني بقصف قرى الحموم، وخاصة قرى المعدي ونيسم معقل بن حبريش، وهدد البريطانيون بمواصلة القصف حتى يتم تسليم الأفراد الذين قاموا بعمليات

---

١ بامطرف، محمد، محاضرة كيف كنا وكيف أصبحنا ص٩.

٢ من مذكرات محفوظ سعيد المصلي، نشرها أ.د. أحمد بن بريك، مجلة حضرموت الثقافية العدد (٢) أكتوبر- ديسمبر ٢٠١٦م ص٨٠. وعند بامطرف أنَّ (مخارش) وسائقه كانا في طريقهما من الشحر إلى المكلا. محاضرة كيف كنا وكيف أصبحنا ص٩.

٣ يلقبون بـ(بحسن التامبول) نسبة للتامبول الذي يحتكرون زراعته في أراضيهم. كما يُطلق عليهم أيضًا (بحسن المعورب)؛ للتمييز بينهم وبين بحسن البازميري الساكنين في مناطق المقد والحامي.

٤ باحمدان، عهد السلطان ص٤٠.

النهب مع الأشياء المنهوبة، كما وزَّع البريطانيون منشورًا إلى كل القبائل في حضرموت هددوا فيه بعقاب مماثل لكل من يعمل على الإخلال بالأمن))[1].

وقد ذكر المؤرخ محمد بامطرف فيما يتعلق بحادثة مقتل نائب الغيل وسائقه أنَّ الإنجليز قاموا بإسقاط القنابل على معاقل الحموم إلى أن استسلموا، ففُرِضَت عليهم عقوبة قُدِّرَت بنحو (٦٠،٠٠٠) روبية هندية، كما ألزمهم إنجرامس بتسليم قتلة مخارش وباقحوم. وقد صدر الحكم على القتلة لاحقًا بالسجن المؤبد، لكن سرعان ما أُطلِقَ سراحهم بعد صدور هذا الحكم[2].

وأمَّا ما يتعلق بحادثة النهب فقد استسلم الحموم تحت قصف الطيران البريطاني وبسبب قطع التموين عن قراهم، حتى كادوا يهلكون. ولإذلال الحموم بعد استسلامهم؛ طلب منهم إنجرامس إحضار الجناة والمنهوبات إلى مدينة الشحر. ويُصوِّر لنا المؤرخ أحمد الملاحي هذا المشهد قائلًا: ((فأقيمت لهم حفلة كبيرة أمام الحصن (دار ناصر)، فحضرها الإنجليزي (إنجرامس) والضباط الأردنيون والجنود والعبيد ونائب الشحر وجم غفير من الأهالي، وكان ذلك بعد العصر في شهر ذي الحجة ١٣٥٦هـ (فبراير ١٩٣٨م تقريبًا)، فحكم إنجرامس على البدو المجرمين أن يحملوا ما نهبوه على ظهورهم، ويطوفوا به وسط الحفلة، والناس كلهم ينظرون إليهم ويتفرجون عليهم، وكانت الطائرات الست تُحلِّق عليهم في الجو، وتقوم بألعاب ممتعة للناظرين طول

---

١ الجعيدي، الأوضاع الاجتماعية ص١٩٩.

٢ بامطرف، محاضرة كيف كنا وكيف أصبحنا ص٩.

العشية إلى قريب المغرب، والبدو يُهانون بين الملأ على مشهد من هذا الجمع الكبير، ثم أُطلِقَ سراحهم، فذهبوا إلى أصحابهم مع رؤسائهم أذلَّة))[1].

ومثل هذه الأحداث جعلت الناس تتساءل عن جدوى ذلك الصلح الذي دعا إليه إنجرامس ومن معه ((وعلم الإنجليز بهذا التساؤل، فأوعزوا إلى صحيفة عربية أن تنشر خبرًا كاذبًا مفاده أنَّ الحموم باعوا ميناء عسد الفاية للإيطاليين، ورددت الصحف البريطانية هذا النبأ))[2].

وبرغم ذلك الإذلال والإهانة التي سعى الإنجليز إلى إلحاقها بالحموم كي لا تقوم لهم قائمة بعدها، نجد أنَّ الأحداث المتلاحقة تثبت أنَّ الحموم خصم تصعب هزيمته، وأنَّ ((أساليب العقاب والمذلة لا يمكن أن تكون أسبابًا حاسمة لإنهاء حالة أي صراع أو نزاع، بل غالبًا ما تكون النتائج عكسية))[3]، إذ عاد الحموم إلى قطع الطريق ونهب السيارات المارة بأراضيهم، كما تصدوا لمشروع إنشاء مركز لجيش البادية الحضرمي، الذي كان الإنجليز والدولة القعيطية يزمعون إقامته في معقل دارهم (غيل بن يمين) ومقر زعيمهم المقدم علي بن سالم بن حبريش العليي، وطردوا الحامية القعيطية المتمركزة في الغيل. فكان أن سيَّر المستشار البريطاني قوة عسكرية من الجيش القعيطي لمهاجمة غيل بن يمين ودكِّها بالمدافع، ودارت بين الطرفين معركة عنيفة، قُتِلَ فيها عددٌ

١ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية ص٣٦.

٢ بامطرف، محاضرة كيف كنا وكيف أصبحنا ص٩.

٣ الجعيدي، الأوضاع الاجتماعية ص٢٠٠.

من الجانبين، وكان النصر في نهاية المطاف حليف القوات القعيطية التي دخلت غيل بن يمين في نهاية شهر رمضان سنة (١٣٥٨هـ/ ١٥ نوفمبر ١٩٣٩م)[١].

ولم يمض على هذه الهزيمة التي حلَّت بالحموم ستة أشهر، حتى توفي زعيمهم المقدَّم علي بن سالم بن حبريش العليي، وذلك في شهر ربيع الأول ١٣٥٩هـ/ أبريل ١٩٤٠م[٢].

ومن الواضح أنَّ هذا الصراع استمر بعد وفاة مقدَّم الحموم، ففي ١٩ سبتمبر ١٩٤٠م الموافق ١٦شعبان ١٣٥٩هـ تقريبًا ((أصدرت السلطنة القعيطية بيانًا أعلنت فيه مقاطعتها للحموم وملاحقتهم في أي موضع يحلون فيه، وفي اليوم التالي ٢٠ سبتمبر ١٩٤٠م عقدت السلطنة القعيطية صلحًا مع الحموم اعترفت فيه بحقوق الحموم التاريخية الموروثة، باستثناء ضريبة على الأغنام الداخلة مدينة الشحر))[٣].

وبعد انتهاء مدَّة الهدنة السابقة بين القبائل التي استمرت لمدة ثلاث سنوات، طلب المستشار البريطاني تمديدها عشر سنوات أخرى من (١٩٤٠-١٩٥٠م). وقد استجابت لذلك معظم القبائل الحضرمية، ومنها قبائل الحموم. وخلال الهدنة خفَّت حدة التوترات بين الجانبين[٤]، ولكن لم تنته، إذ ثمة إشارة للمؤرخ مبارك صالح الأرضي في مدوَّنته تفيد أنَّه في فاتحة ربيع الأوَّل ١٣٦٠هـ/ ٢٩ مارس ١٩٤١م عُقِدَ صلح بين الدولة والحموم (بيت علي وبيت شنين وبيت عجيل وبيت زرقاحة وبيت زين) لمدة

---

١ البكري، في جنوب الجزيرة العربية ص٢٣٥-٢٣٦، والجعيدي، الأوضاع الاجتماعية ص٢٠٠.

٢ الجعيدي، الأوضاع الاجتماعية ص٢٠١، نقلاً عن صحيفة فتاة الجزيرة العدد ١٦ السنة الأولى ٢٨ أبريل ١٩٤٠م ص٨.

٣ الجعيدي، الأوضاع الاجتماعية ص٢٠١.

٤ لمعرفة أسباب تقلص الصراع القعيطي الحمومي، ينظر: المرجع السابق ص٢٠١-٢٠٢.

شهر واحد ينتهي بتاريخ ٨ ربيع الآخر ١٣٦٠هـ الموافق ٤ مايو ١٩٤١م[1]. ولا نعلم أسباب هذه الهدنة، إلا أنَّ مدتها توافق عادة سنوية تقام في المدينة، وهي الاحتفالات الدينية التي تستمر لأكثر من شهر، وتُعرَف بـ(شهر الموالد)، وأيامها تعد من الأيام المعظمة. وربَّما كان لهذه الهدنة علاقةً ما بها.

وخلال السنوات العشر هذه ظلَّ الحموم محتفظين بعوائدهم وأعرافهم داخل أراضيهم، ولم يخضعوا لسلطة الدولة القعيطية وقوانينها إلا في سنة (١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م)، وكان خضوعًا مؤقتًا كما سنأتي له.

ثورة حاشية السلطان صالح (العبيد):

ضمن المساعي الحثيثة للسلطان صالح لتحديث الجيش وتطويره وفقًا لاستشارة المستشار البريطاني المقيم (هارولد إنجرامس) وذلك بعد التوقيع على معاهدة الاستشارة بين السلطنة القعيطية والمملكة المتحدة سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م، واجَهَ في بداية أمره مصاعب جمة، ورفضًا واسعًا لهذه التحديثات، خاصة من قبل المعنيين بها، ونقصد بهم (الجيش)، فقد كان هذا الجيش غير نظامي، ومقصورًا على الفصائل اليافعية الذين يُطلق عليهم محليًّا اسم (العسكر)، وعلى فئة العبيد (الحاشية)، ومعهم الجنود الذين جلبهم القعيطي من الهند، ومنهم أفغانيون يُطلق عليهم (الرويلة)، وقد يدخل هؤلاء مع العبيد في التشكيل المعروف بـ(الحاشية).

١ حداد، عبدالله، الأرضي ومدونته التاريخية، نشرة الفكر الصادرة بغيل باوزير العدد (٥) مارس ١٩٩٧م.

وكان أفراد الجيش من (العسكر) في تلك المدَّة يتمتعون بصلاحيات واسعة، ويتصرفون مع المواطنين كأنَّهم هم الدولة، فلا لوائح ولا قوانين يتقيدون ويلتزمون بها، فضلًا عن اشتغال الكثير منهم بأعمال التجارة والربا[1]، أي إنَّهم جمعوا بين الوظيفة العسكرية والمدنية[2]، فساد الظلم والجور وانتشر الفساد وأرهق الشعب بالضرائب، كما أن العبيد (الحاشية) يكادون يكونون عبئًا على الدولة، خاصة أنَّ الأوضاع الأمنية بدأت تستقر نسبيًّا، ولم تعد هناك حاجة للكثير منهم، فكان لا بد من إحداث تغيير جذري في بنية المؤسسة العسكرية وتركيبتها؛ لتتواكب مع متغيرات العصر وطبيعته، وفتح المجال لكل شرائح المجتمع للالتحاق بسلك الجندية (الجيش –الشرطة).

وفي إجراء أولي لتطهير الجيش من الفاسدين وتقليص نفوذ العسكر وقوتهم، أصدر السلطان صالح أمرًا لغالبية أفراد الجيش يلزمهم فيه بالذهاب إلى مناطق حضرموت الوادي للتدرب في معسكرات خاصة، ولحماية حدود السلطنة، فضلًا عن تكليفهم بأعمال قتالية هناك ضد قطاع الطرق واللصوص والمتمردين على الدولة. ومَنْ من لا يمتثل من أفراد الجيش لهذه الأوامر أو يرفض الذهاب، يُفصَل من الجيش ويُجرَّد من سلاحه[3]. وبهذا استطاع السلطان التخلص من الكثير من العسكر الرافضين.

أمَّا حاشية السلطان (العبيد) فقد كانت لهم امتيازات خاصة لدى الدولة، لا سيما أنَّهم يدَّعون بأنَّ هناك اتفاقًا قديمًا عقدوه مع السلطان الراحل عوض بن عمر القعيطي

١ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية (مخ) ص٢٤.

٢ الجعيدي، في رحاب تاريخ حضرموت ص٧٨.

٣ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية ص٢٣-٢٤.

يقضي بأنَّ لهم الثلث في مُلك القعيطي[١]، فكان من امتيازاتهم الحصول على الكيلة التي تصرفها الدولة لهم ولأسرهم[٢]، فضلًا عن استئثارهم بالأكوات والقلاع المنتشرة بالمدينة، والتي اتخذوها سكنًا لهم. وهذه الامتيازات شكلت عبئًا على الدولة، بالإضافة إلى الضغوطات الخارجية التي تطالب السلطان صالح بتحريرهم[٣]. فكان أن اجتمع السلطان صالح بهؤلاء العبيد سنة (١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م)، وخيَّرهم بين أن يكونوا أحرارًا وتُصرف لهم أراض زراعية في منطقة (ميفعة) يستثمرونها، مقابل استقالتهم من الجيش وقطع الكيلة عنهم، أو البقاء في الجيش مقابل أجر نقدي محدد يُصرف لهم

١ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية (مخ) ص٢٧. والوصية التي تركها السلطان عوض بن عمر القعيطي حول ملكه ووراثة عرشه وثرواته وأمواله وآلية توزيعها، لم تشر أن للعبيد ثلثًا في هذا الملك أو أن لهم حقوقًا. وأمَّا ما ذكره الملاحي (ثلث الملك) فنظنه مجرد وعد من السلطان لاستغلال هؤلاء العبيد ودفعهم للاستبسال في طاعته ونصرة ملكه. وعن نص الوصية ينظر: المحضار، حامد بن أبي بكر، الزعيم، ص٥٤.

٢ الكيلة الخاصة بهؤلاء العبيد تقوم مقام الأجر إلا أنها ليست نقدًا، وهي كما عرفها المؤرخ أحمد الملاحي قائلًا: ((وأما الكيلة فهي اسم لما يُكال للعبيد من الطعام (يعني الذرة) شهريًّا، فكل عبد من عبيد السركال (أي الحكومة) صبيًّا كان أو رجلًا، ذكرًا كان أو أنثى، يعطي له كيلاً مقدرًا من الذرة، يكفيه مدة الشهر كله. بل كان هذا المقدار الذي يُعطى له يزيد على كفايته، فيبيع الزائد، ويشتري له ما يريد من السمك واللحم والرز والسمن والخضرة وكل مايشتهيه. فإذا ولد لهم مولود أسرع أبوه إلى الكرَّاني (أي الكاتب) وسجَّل اسمه، وأجرى لزوجته مصاريف خاصة مدة النفاس، مصاريف (أي نفقة) كاملة بدون بخس، ويعطي للمولود شاة منيحة، يتغذى من لبنها حتى يبدأ يأكل، فيعطي له كيلة شهريًّا، وكذلك مصاريف الختان (لأن عادة الحضارم يختنون لأولادهم بعد أسبوع من الولادة)، والحاصل أن السلطان كان منعمًا عليهم وقائمًا بجميع نفقاتهم من دون تقتير، ولم يكلفهم بأعمال شاقة، بل إن أكثرهم كانوا فارغين من أي عمل، ولكنهم ما عرفوا قدر هذه النعمة فيشكروها)). المذكرة التاريخية (مخ) ص٣٢-٣٣.

٣ في عام ١٩٣٩م أصدر السلطان صالح قانون العبيد الذي قضى بتحريرهم تحت مبرر الدوافع الإنسانية. باحمدان، عهد السلطان صالح ص١١٨.

شهريًّا من دون أي كيلة، ويجري عليهم ما يجري على كل موظفي الدولة. إلا أنَّ العبيد رفضوا هذين الخيارين، وأرادوا الاستمرار على ما كانوا عليه.

ولكن السلطان أبى إلا الاستمرار في تنفيذ سياسته الإصلاحية، وكان أول إجراء عملي فعله تُجاه (الحاشية) هو قطع (الكيلة) التي كانت تُصرف لهم. وهنا ثارت ثائرة العبيد، وتمردوا كلُّهم ((الذين هم بالمكلا والذين هم بالشحر، وثاروا على الحكومة، وحملوا سلاحهم كلهم، فأمَّا عبيد الشحر فقد تجمَّعوا في كواتهم المحدقة بالبلد، وقفلوا أبواب البلد كلها، فخافت الرعايا منهم أن ينهبوا الدكاكين والبيوت، لأنَّ العبيد أكثرهم لا يذخرون شيئًا من التموين في كواتهم، فمن المعلوم أنَّ النهب لا محيص منه، فكان من الضروري أن يقف السوق، وتقفل الدكاكين، فهرول الناس إلى الدكاكين ليشتروا لهم كل مايحتاجون إليه في مدة هذه الثورة والمقاومة، وملؤوا الزيار ماء، فبلغ ثمن التنكة الواحدة من الماء أربع آنة في ذلك الوقت، ومن قبل كان ثمنها نصف آنة، والآنة عبارة عن عشرة سنتات. فأمَّا عبيد المكلا فقيل إنَّهم هجموا على المالية وطردوا الحرس من العسكر، واستولوا على المالية. وأمَّا عبيد الشحر فلم يحسنوا الرأي؛ لأنَّهم أفلتوا الحصن المحتوي على جميع الدوائر والمكاتب بما فيها المالية، والأسلحة والذخائر، بعدما كانت تحت أيديهم، وتحت حراستهم، وتركوا أيضًا الجمرك بالسيف، وكان به أرز كثير وذرة وتمر وسمن وغير ذلك، تركوا كل هذا وانحصروا في أكواتهم التي تحيط بالمدينة مع السور، فجاء العسكر من بني سعد اليافعيين واستولوا على الحصن وعلى الجمرك وتركوا العبيد قابعين في أكواتهم بعيدين من الحصن ومن السوق، وخاف أهل البلد وجلسوا في بيوتهم، ولما رأى العبيد العسكر قد استولوا على الحصن ندموا على

تفليتهم الحصن من أيديهم، وجاءت طائفة من شباب العبيد ورتَّبوا في بيت مكارم ضد العسكر، ورتَّبوا أيضًا في بيت (ناصر جابر النوبي) وهو رئيسهم الأكبر، ورتَّبوا أيضًا في بيت أحد العبيد ضد العسكر أيضًا. وهذه البيوت الثلاثة محدقة بالحصن الذي فيه العسكر، وبات العبيد يحارشون العسكر طول الليل، ولما كان ربع الليل الأخير بدأ الضرب من العسكر (بندق واحد)، فرد عليهم العبيد ببنادقهم من كل جهة من البيوت الثلاثة، والذين هم في الأكوات يضربون كذلك في الفضاء نحو الحصن، لأنَّ البيوت كانت حائلة بين الحصن والأكوات، واستمر الضرب بين الفريقين نحو ربع ساعة فقط، ثم وقف الضرب من دون ضرر لأحد الفريقين، ولكنهم خوَّفوا الرعايا وزعل منهم النوم، وجاء الفجر فصلَّى أكثر الناس متأخرين، وبقيت المدينة مقفلة ثاني يوم، لا داخل إليها ولا خارج منها. ولما آن غروب الشمس جاءت سيارة من المكلا فيها ضباط أردنيون ومعهم أوامر من السلطان، وبعد المفاهمة فتح لهم العبيد باب المدينة (سدة العيدروس)، ودخلوا بسيارتهم حتى وصلوا الحصن، فاستقبلهم نائب الشحر محمد محفوظ النقيب الكسادي بالترحيب))[1].

وكان من نتائج هذه المفاوضات أن وافق العبيد على مضض على نيل حريتهم وتسليم أسلحتهم والتخلي عن (الكيلة) التي كانت تُمنح لهم، باستثناء الأرامل من نسائهم والأيتام وكبار السن والعجزة، إذ تكفل السلطان صالح بإعالتهم ورعايتهم، أمَّا بقية العبيد فبعضهم وافق على الالتحاق بالجيش أو الشرطة مقابل راتب شهري

---

١ ينظر للمزيد: الملاحي، المذكرة التاريخية (مخ) ص٢٩-٣٠. وقد أفادنا الباحث عبدالله صالح حداد أنَّ النائب محمد محفوظ الكسادي (من أهل الحامي) كان نائبًا على الشحر ما بين (ديسمبر ١٩٤٢-١٩٤٤م).

يُمنَح له، وبعضهم فضَّل البحث عن عمل آخر كالبناء أو النجارة أو الخياطة أو حمل البضائع أوغيرها من المهن.

ويتحدث المؤرخ الملاحي عن آثار تلك الأحداث في العبيد، فيقول: ((تبهدل العبيد مساكين، وتجنَّن بعضهم، ومرض بعضهم، ومات أكثر عقَّالهم أسفًا وحزنًا، وسافر أكثر الشباب، والبعض اشتغل في الجعالة والنجارة وجرورة الماء والخياطة، والبعض منهم توظفوا بوليس في الجمرك والشرطة المسلحة وغير المسلحة والجندية، والبعض يتكففون الناس، والبعض توظفوا مراسلين وفراشين وحمَّالين ونحو ذلك من المهن. وأمَّا أطفالهم بعدما وصلوا سبع سنين التحقوا بالمدرسة الابتدائية، واندمجوا مع الشعب، والتحق بعضهم بالمدرسة الوسطى والجامعة، فمنهم الكاتب والمدرس في الابتدائية والوسطى، ومنهم من شغل منصبًا كبيرًا في إدارة المعارف))[1].

وهكذا تمَّت في عهد السلطان صالح بن غالب القعيطي أكبر عملية تحرير للعبيد بإعلانه سنة ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م عتق جميع عبيد الحكومة القعيطية[2].

زيارة المستر قريفس لمدينة الشحر واطلاعه على دستور مدرستها:

ضمن الإصلاحات التي تبناها السلطان صالح لتحديث أنظمة السلطنة القعيطية وتطويرها فيما يخص النظام التعليمي، بعث إنجرامس طلبًا لعميد كلية بخت الرضا بالسودان المستر (قريفس)[3] سنة ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م ليقوم بوضع خطة للتعليم في

١ المذكرة التاريخية (مخ) ص٣٠-٣١.

٢ الجعيدي، في رحاب تاريخ حضرموت الحديث والمعاصر ص٨٠.

٣ باوزير، شهداء القصر، ص٥٠. وعند أحمد الملاحي في مذكرته التاريخية: (قرفث). ينظر: ص١٣٥.

حضرموت لمدة عشر سنوات، وقد جاء (قريفس) إلى حضرموت، وزار مدينة الشحر للاطلاع على دستور مدرسة مكارم الأخلاق والاستفادة منه في وضع الخطة العامة لتطوير التعليم في حضرموت. وعند وصوله إلى المدينة طلب مقابلة مدير مدرسة مكارم الأخلاق وقتذاك، وهو السيد عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ أبي بكر، والذي قابله في بيته، ثم في مدرسته ((وفي أثناء زيارته اطلع على المنهج الدراسي كله والدستور الموضوع لهذه المدرسة، وأمر الكاتب (مسلم بلعلا) أن ينقل رؤوس مواضيع هذا الدستور، ثم تودع، ورجع إلى المكلا حيث يقيم المستشار البريطاني))[1].

وقد قدم لنا الشيخ أحمد الملاحي وصفًا لهذا الإنجليزي في أثناء زيارته لمدينة الشحر، فقد كان ((يرتدي زي العرب، إزارًا فوق الشميز الأبيض، مع شد وسطه بسبتة على هيئة الحضارم، لابسًا على رأسه الغطاء والعقال على هيئة الأردنيين، كما أنه يحسن اللغة العربية))[2].

وقد وقع اختيار السيد (قريفس) على الشيخ السوداني القدَّال بن سعيد القدَّال، ليتولى مهمة تنفيذ تحديث النظام التعليمي بحضرموت؛ لمواصفات توفرت فيه، بيَّنها قريفس في تقريره المقدم للمستشار إنجرامس[3].

١ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية (مخ) ص١٣٥ . والمقصود بكلمة الدستور هنا اللائحة المدرسية.

٢ المرجع السابق، بقليل من التصرف ص١٣٦ .

٣ تنظر أسباب اختيار قريفس للشيخ القدال في: شهداء القصر ص٥٠ .

زيارة الشيخ القدَّال للمدينة لتنفيذ سياسة قريفس:

قدم الشيخ القدال إلى مدينة المكلا سنة ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م بصفته مساعد المستشار الثقافي، وقد منحته الدولة لقب (ناظر المعارف). والقدال كما وصفه الشيخ الملاحي في مذكرته التاريخية ((من الموظفين القدماء الذين يتزيَّون بزيِّ الفقهاء المتصلين بالصوفية، وله تجربة بمعالجة إدخال النظم الجديدة في المدارس، كما أنَّ له إلمامًا بالنظام الحديث والقديم، عارف بشئون الإدارة الحديثة ... من مدينة (كسلا) بالسودان، ومن حذق سياسته ادَّعى أنَّه من أصل حضرمي))[1].

وبعد أن مكث القدال أيامًا قلائل في مدينة المكلا اتَّجه إلى مدينة الشحر لمقابلة علامتها وفقيهها السيد عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ أبي بكر بن سالم مدير مدرسة مكارم الأخلاق، وعن الزيارة كتب الملاحي يقول: ((وصل الشحر يوم الجمعة وحضر صلاة الجمعة، فصلَّاها بجنب السيد عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ أبي بكر بن سالم العلوي (مدير المدرسة) في الصف الأول حذو الإمام، وكان لباسه كالمعتاد في السودان، قميص أبيض ناصع ... وكان نزوله في بيت السلطان المسمى (دار ناصر)، وبعد صلاة العصر ذهب لزيارة المدير في بيته، فاجتمع به في بيت أخيه المنصب، وبالصدفة كان ذلك اليوم تُقرأ فيه حضرة الشيخ أبي بكر بن سالم مع ضرب الدفوف، يحضرها جم غفير من الناس في المسجد، وفي العادة أنَّهم يحضرون في بيت المنصب بعد خروجهم من المسجد، ويقرأ أحدهم ما تيسر من كلام الصوفية، ثم ينشد آخر قصيدة صوفية بألحان موسيقية غنائية جميلة، يسمونه (السماع)، فيطرب له السامعون ويتواجدون، والشيخ القدال قد مارس

١ المذكرة التاريخية (مخ) ص١٣٧.

مجالسة الصوفية، وأخذ الإجازة من شيخ الطريقة، كما أنَّه يُحسن الذكر في حلقات الطريقة، فاغتنمها فرصة يتزلف بها إلى ود أصحاب هذه الروحة، ليستميل قلوبهم إليه بحسن الظن، وأظهر من نفسه الوجد والهيمان والتعشق إلى الحضرة الأحمدية أو المحمدية كما يفعل ذلك الصوفية، ثم وثب وثبة وجثا على ركبتيه أمام المنشد[1]، وقعد متكئًا بمرفقيه على خديه ناكسًا رأسه قائلًا: (زدنا ياشيخ)، ولما فرغ المنشد رجع إلى محله وقد لفت أنظار الحاضرين إلى حسن عقيدته في التصوف والصوفية، فما يسعهم الآن إلا أن يطمئنوا إليه ويتقبلوا خطته الجديدة بدون اعتراض، ثم زار المدرسة يوم السبت، واستقبله المدير والمدرسون، وأرادوا أن يجمعوا له الطلبة في قاعة الحفلات، فرفض، وعرضوا عليه أن يزور الطلبة في فصولهم فأبى، ولكنه قال: إني أحب أن أتعارف مع المدرسين واحدًا واحدًا، فتعرَّف بهم وكتب أسماءهم وتاريخ التحاقهم بالمدرسة، وقدَّر ماهيتهم، وأنا واحدٌ منهم))[2].

وهكذا سارت سياسة القدال التعليمية الجديدة على خير ما يرام، بالرغم مما قُوبِلَت به في البداية من ريبة وفتور[3]. وبعد نحو عشر سنوات من تنفيذها قدم مرة أخرى لحضرموت السيد (قريفس)؛ لتقييم تلك السياسة التعليمية الجديدة التي وضع هو خططها، وأوكل تنفيذها إلى الشيخ القدال، فكان الارتياح واضحًا؛ للنجاح الذي تحقق، وقد أشار إلى هذا النجاح السيد قريفس في تقريره المقدم إلى الشيخ سيف بن علي البوعلي سكرتير الدولة القعيطية آنذاك[4].

---

١ يدعى المنشد محمد عوض باجبع. المذكرة التاريخية (مخ) ص١٤٠.

٢ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية (مخ) ص١٣٨-١٤٠.

٣ ينظر: المذكرة التاريخية ص١٤١.

٤ ينظر: باوزير، أحمد، شهداء القصر ص٥١.

الأمير علي بن صلاح القعيطي وإقامته الجبرية في المدينة:

الأمير علي بن صلاح بن محمد بن عمر بن عوض القعيطي هو أحد أمراء الأسرة القعيطية، ولد في الريضة عاصمة القطن سنة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م(١)، عُيِّنَ نائبًا للسلطنة القعيطية في شبام والقطن، وبسبب بعض الخلافات السياسية مع السلطان عمر بن عوض القعيطي، ثم مع ابن أخيه السلطان صالح بن غالب القعيطي، اتُّهِمَ هذا الأمير بممارسة بعض الأعمال المشبوهة مع حركة ابن عبدات وضد السلطنة، فأصدر السلطان صالح مذكرة رسمية سلمت إليه عقب حضوره للمكلا لمقابلته جاء فيها: ((إنَّ صاحب السمو السلطان لم يأمر باتخاذ إجراءات ضدك في الوقت الراهن ما عدا الأمور التالية:

١-ستسكن الشحر وستبقى بها طالما اقتضت مشيئة صاحب السمو ذلك. (تحديد إقامة).

٢-غير مسموح لك بأي حال من الأحوال أن تعود إلى وادي حضرموت أو تسافر إلى أي مكان آخر إلا بترخيص خاص من صاحب السمو. وخذ إنذارًا بهذا أنَّك إن خالفت هذا الأمر فستتخذ إجراءات خطيرة ضدك))(٢). وقد أمضى على هذه المذكرة سكرتير الدولة بالنيابة الشيخ سالم أحمد باصديق، وأرسلت نسخة للمستشار البريطاني المقيم ولنائب لواء شبام ونائب لواء الشحر، وكان تاريخ هذه المذكرة السبت ١٤ جمادى الآخرة ١٣٦٤هـ الموافق ٢٦ مايو ١٩٤٥م(٣).

١ تنظر ترجمته عند: باوزير، سعيد، الفكر والثقافة ص١٧١-١٧٨، وابن علي الحاج، عمر بن عوض القعيطي حياته -عهده، ص١٥٧.

٢ باوزير، الفكر والثقافة ١٧٦.

٣ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

وهكذا ظلَّ هذا الأمير في مقر إقامته الجبرية بمدينة الشحر لمدة عامين، اعتلَّت خلالها صحته ومرض مرضًا شديدًا، ونُقِلَ على إثر ذلك إلى عدن للعلاج، إلا أن حالته ازدادت سوءًا، فنُقِلَ إلى القطن، وتوفي هناك في رجب سنة ١٣٦٧هـ/ مايو ١٩٤٨م.

زيارة السلطان صالح بن غالب القعيطي للمدينة:

في شوَّال سنة ١٣٦٦هـ/ أغسطس ١٩٤٧م في عهد نائب اللواء أحمد عمر باصرَّة الملقب بـ(أحمد القبيلي)، زار السلطانُ صالح بن غالب القعيطي مدينة الشحر مع عدد من مسؤولي الدولة، وبصحبته المؤرخ صلاح البكري الذي قدَّم لنا وصفًا جميلًا ومتكاملًا لهذه الزيارة، ودوَّن مشاهداته للحياة العامة داخل المدينة، في مادة دسمة يستطيع من خلالها الباحث أو القارئ العادي أن يكوِّن صورةً واضحةً لما كانت عليه المدينة آنذاك. وقد سبق أن استشهدنا بنماذج من هذه الرحلة، وسنحاول في هذه الفقرة التطرق إلى بعض الجوانب الأخرى[1].

إنَّ زيارة السلطان صالح هذه للمدينة جاءت متزامنة مع احتفال العامة بإحدى المناسبات الروحية التي تقام سنويًّا في شهر شوال، حتى إنَّ الجمع الذي احتشد لاستقبال السلطان لم يكن بذاك الحجم المتوقع، فغالبية الناس منشغلة بإحياء فعالية زيارة (مول الشعب) المنسوبة للولي أحمد بن صالح بن الشيخ أبي بكر، وبالزيارة التي تليها في منطقة (الواسط) القريبة منها حيث مشهد السيد عمر المحضار. ورفع من شأن هذه الزيارة حضور السلطان وأعوانه، إذ اعتاد الناس أن لا يحضر الحكام وأرباب

١ للمزيد ينظر: البكري، صلاح، في جنوب الجزيرة العربية ص٥٦-٦٠.

الدولة مناسباتهم المعظمة، إلا زيارة الولي سالم بن عمر العطاس التي تقام في منتصف شهر محرم من كل عام[1] تعظيمًا لها.

وقد وصف المؤرخُ البكريُّ نائبَ لواء الشحر (باصرة) بقوله: ((وهو على جانب عظيم من النشاط والذكاء وقوة الشخصية وكرم الأخلاق، وله في قلوب قبائل لواء الشحر مقام كريم، وتستفيد الحكومة القعيطية من خدماته إلى حد كبير))[2].

والجدير بالذكر هنا أنَّه في المدَّة التي كان فيها أحمد باصرَّة نائبًا للواء الشحر؛ عمل بمكتبه الشيخ علي بن محمد العماري، وهو من مواليد الشحر سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م تقريبًا. وتولَّى هذا العمل بعد تخرجه في معهد (تحسين الوحدات، القسم الإداري)، وأصبح هذا الشيخ لاحقًا قائمقام مدينة الحامي، ثم عُيِّنَ نائبًا للواء شبام، فدوعن، كما تدرَّج في عدة مناصب حكومية إلى أن أصبح وزيرًا للسلطنة في آخر عهدها[3].

ومن الواضح أنَّ الناس في هذه الحقبة كانت تنمى لأسماعهم أخبار مصر وما تبوَّأته من مركز سياسي وأدبي مرموق، إذ كانوا يسألون البكري (المقيمَ في مصر) عن هذه الموضوعات.

وعن لبس النساء في تلك المدة يقول المؤرخ البكري: ((والمرأة محتجبة لا ترى شيئًا من جسمها، لأنَّها عندما تخرج من منزلها تلبس جلبابًا أسود يغطي جسمها كله، وعلى

---

١ لمعرفة تفاصيل هذه الزيارة ينظر: حداد، عبدالله صالح، زيارة الشحر وصاحبها العطاس، صحيفة شبام، العددان ٢٣١، ٢٣٢، ١ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ/ ٣١ يوليو ٢٠٠٣م. ٨ جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ/ ٦ أغسطس ٢٠٠٣م.

٢ البكري، في جنوب الجزيرة ص٥٨.

٣ سنأتي بالتفصيل لترجمة الشيخ علي العماري.

وجهها نقاب شفاف))[1]. وأمَّا لبس الرجال فيذكر أنَّه لا يختلف عن لبس رجال عدن ولحج، فهو ((يتكون من إزار يغطي نصف الجسم الأسفل، وسترة على قميص وعمامة وحذاء، ومن النَّادر أن ترى رجلًا يلبس الزي الإفرنجي، ولم يكن ظهوري بالزي الأوربي يثير شيئًا من الدهشة ما عدا في البوادي التي مررت بها))[2]. ويفضل الناس الجلوس على الأرض على فرش وثيرة وسجاجيد فاخرة، ولكن في دوائر الحكومة يجلس الموظفون على الكراسي.

وقد أقام الأهالي للسلطان حفلة عظيمة أمام مقر إقامته بدار ناصر، وامتلأت الساحة بالحشود الغفيرة من رجال ونساء، وعزفت الجوقة الموسيقية أنغامها ترحيبًا بالسلطان، وقامت فرقة من الجيش بألعاب رياضية، وقد اصطف تلاميذ المدارس في الميدان وشاركوا في تحية السلطان، كما أُلقِيَت بعض الخطب احتفاءً بهذه المناسبة[3].

وقد زار المؤرخ البكري في رحلته هذه مدرستي مكارم الأخلاق والغربية (مقرها حصن بن عياش)، وذكر أنَّ مدرسة مكارم الأخلاق تعد أكبر مدرسة في الشحر، إذ بلغ عدد تلاميذها (٢٥٠) تلميذًا[4].

---

١ البكري، في جنوب الجزيرة ص٥٩. وقد تكلم الشيخ أحمد الملاحي بإسهاب عن لباس الحضارم والمرأة الشحرية آنذاك، مع رسوم تو ضيحية. ينظر: المذكرة التاريخية (مخ).

٢ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٣ المرجع السابق ص٦٠.

٤ للمزيد عن ملاحظاته المتعلقة بهاتين المدرستين، ينظر العنوان الخاص بالجانب العلمي والتعليمي في عهد السلطنة.

وفي هذه الرحلة أيضًا زار المؤرخ البكري، برفقة النائب أحمد باصرة وصالح باشراحيل وآخرين، مغارة (جبل ضبضب) التي كثر فيها الجدل والأقاويل، وتحدث عنها الوجدان الشعبي بشيءٍ من الخوف والرهبة، وكان غرض هذه الرحلة هو استكشاف المغارة، والوقوف على ما فيها من آثار مزعومة[١].

يد القعيطي تمتد إلى وادي عَرَف (معقل الحموم):

يعد وادي (عَرَف) بقراه ومناطقه المتعددة، من أهم المراكز التابعة لقبائل الحموم والخاضعة لسيطرتهم وحدهم دون شريك، إذ ظل عبر تاريخه وتعاقب الدول والحكومات التي سيطرت على المنطقة برمتها متمتعًا باستقلاليته، لا يقر ولا يعترف ولا يخضع إلا لسلطة مقادمته ورؤساء عشائره، ولا يحتكم إلا لأعرافه وسوارحه القبلية، وكان هذا الوادي بمعزل عن نفوذ الحكومات المتعاقبة على حكم الشحر، أو يكاد يكون كذلك[٢].

وحتى الدولة القعيطية نفسها في بدايات عهدها لم تحاول إخضاع هذا الوادي وحمله على التبعية والإنقياد لسلطانها، بل تركت أمره لمقادمته ورؤساء عشائره يديرونه دون أن يتدخل في شؤونهم أحد، وكأنَّها كانت تركز اهتمامها على تأمين خطوط مواصلاتها وسلامة مرور قوافلها ورعاياها في تلك المناطق.

---

١ تناولنا هذه الرحلة وما ارتبط بالمغارة من تصورات بإسهابٍ في كتابنا (من الفولكلور الحضرمي)، الجزء الخاص بالأساطير والخرافات. ولمعرفة ما كتبه المؤرخ البكري عن رحلته إلى تلك المغارة، ينظر: في جنوب الجزيرة العربية ص٧٨. وعن هذا جبل ضبضب والرغبة في اكتشافه، ينظر: الملاحي، المذكرة التاريخية (مخ) ص٥٨.

٢ هناك محاولات عدة عبر التاريخ لإخضاع الوادي، منها محاولة الأيوبيين والرسوليين، إلا أنَّ محاولاتهم باءت بالفشل.

واستمر هذا الحال إلى أن تولى نيابة لواء الشحر المقدم أحمد عمر باصرة السيباني، الذي أراد إخضاع كل مناطق اللواء دون استثناء لسلطة الدولة، فاتصل بسكرتير الدولة يومها، وهو سيف بن علي البوعلي العماني، وعرض عليه فكرة إخضاع وادي (عرف)، فوافقه على ذلك، وقدَّم له بعض التسهيلات لإنجاح مهمته. وجهَّز المقدَّم باصرة قوةً عسكريةً بقيادة محمد السعدي اليافعي، وسار هذا الأخير سرًّا إلى وادي (عرف)، بعد أن تواصل مع بعض أفراد يافع المقيمين في (عرف)؛ ليمدُّوه بالدعم اللوجستي في سبيل إنجاح مهمته.

وصادف وصول الحملة العسكرية إلى مشارف قرية (عرف)، احتفالًا كبيرًا لزواج جماعي (حراوة) أقامه الحموم لعدد من أبنائهم وبناتهم، وكانوا جميعًا منشغلين باستقبال الضيوف، وبممارسة رقصاتهم الشعبية وترديد زواملهم البدوية التي تُطلق فيها الأعيرة النارية. فما كان من هذه القوة المتسللة إلا أن اتخذت مراكز في الجبال المحيطة بالقرية، وتمكنت مجموعة بقيادة (السعدي) من التسلل إلى داخل القرية والتحصن في أحد بيوت يافع المقيمين هناك، ((واستمر البدو في زاملهم يتزملون ويتبرعون بالجنابي وإطلاق طلقات البنادق المزعجة حتى ارتجت بها الوادي، وأوَّبت معهم الجبال وانذعرت منها الوحوش والغزلان حتى بعدوا عن القرية. والعسكر مرتبون في أماكنهم بالجبال المحيطة بالقرية وفي داخل القرية. ولما أرادوا البدو أن يرجعوا بالزامل إلى داخل القرية، أرسل إليهم القائد الشجاع المجرب المشهور محمد السعدي رسولًا يقول لهم: إن محمد السعدي هنا في البلد، وإنه يقول لهم: ممنوع الضرب في الزامل داخل البلد، ادخلوا بدون ضرب. وأعلمهم الرسول بما حصل، وأنَّ الجبال ملآنة بالعسكر. فعند ذلك بهتوا

وانزعجوا وتشتتوا كتشتت سبأ وانقهروا، ففرقة منهم رجعوا إلى صرومهم ووديانهم، وفرقة دخلوا البلد بدون ضرب، وفرقة توقفت ريثما يتأكدوا من الأمن وعدم الغدر. وبطلت شجاعتهم وفوالتهم واستسلموا لحكم السعدي وخضعوا. فمن ذلك اليوم سرت عليهم جميع الأحكام المدنية التي تجري بمدينة الشحر، إلا أنَّ الحكم فيها كان حكمًا عسكريًّا لمدة نحو سنتين أو زائدًا. والآن بها مدرسة ابتدائية، وكان ذلك بتاريخ ( ) شهر ...... سنة ١٣٦٧هـ))[١] الموافق سنة ١٩٤٧م.

وهكذا أُخضِعَ الوادي برمته للحكومة القعيطية، ويبدو أنَّها المرة الأولى في تاريخ الحموم التي يخضعون فيها لسلطة الدولة وقوانينها، وكانت هذه الحادثة في عهد السلطان صالح بن غالب القعيطي.

ويبدو أنَّ خضوع الحموم لم يستمر؛ إذ تُظهِر الأحداث اللاحقة أنَّ البدو ما زالوا يمارسون أفعالهم المصنفة حكوميًّا بأنَّها خارجة عن القانون، فعلى سبيل المثال في يوم الثلاثاء ١٥ من ذي القعدة ١٣٧٤هـ/ ٦يوليو ١٩٥٥م ((حصل هوش (نهب) من قِبَلِ البدو على موتر (شاحنة) شامي وباصبيح في طريق حضرموت. والهوش جم ما هو قليل، والله العالم كيف يسير الخبر هم والدولة))[٢]. ولا ندري مَنْ قصد الراوي بـ(البدو) أهُمُ الحموم أم غيرهم.

١ هكذا في الأصل. الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية (مخ) ص٣٢٩-٣٣٠.

٢ من مقال للباحث عبدالله حداد، نقلًا عن مدونة الشيخ مبارك صالح الأرضي (مخ). نشرة الفكر، مرجع سابق.

مجاعة الحموم سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م:

في سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م عم الجفاف مناطق الحموم لقلة الأمطار وقلة (الوزيف) الذي كانوا يعلفونه مواشيهم، ويستخدمونه سمادًا للزراعة، فحلت بأرضهم مجاعة كادت تهلكهم، فسارعت الحكومة القعيطية ممثلة بسكرتير الدولة بتشكيل لجنة ترأسها نائب لواء الشحر آنذاك حسن قحطان إليهري، والمساعد البدوي، وقوام المقاطعات في اللواء. عملت هذه اللجنة على ((منح الحموم قروضًا زراعيةً لتوسيع الأراضي الزراعية، وتشغيل الأيدي العاطلة عن العمل، وإنشاء مراكز حكومية لبيع الطعام في المناطق البعيدة بأسعار لا تزيد عن أسعار البيع بالمكلا، وكذا إرسال كميات من الطعام على متون السيارات. وبهذا أمكن احتواء المجاعة وإنهاؤها))[١].

وقد سبق هذه المجاعة مجاعات أخرى، كانت كوارث حلت بحضرموت عامة، منها تلك المجاعة التي وقعت سنة ١٩٤٣م، وراح ضحيتها قرابة عشرين ألفًا من الحضارمة[٢]. والمجاعة الأخرى التي وقعت سنة ١٩٤٨م[٣]. ومن الواضح أن الحكومة القعيطية طيلة عهودها لم تحسب حسابها لمثل هذه الكوارث والمجاعات التي تحل بالمنطقة، كما لم تسع لإيجاد احتياط من المؤن والغذاء لحالات الطوارئ أو الحروب، خاصة أنَّها أوكلت للتجار وحدهم مهمة توفير المواد الغذائية للشعب، واكتفت بجمع

---

١ باحمدان، عهد السلطان صالح ص١٣٦-١٣٧.

٢ للمزيد عنها ينظر: داؤد، محمد سعيد، حركة ابن عبدات في الغرفة، بحث ضمن كتاب بعنوان المقاومة الشعبية في حضرموت ص٨٨.

٣ عن هاتين المجاعتين ينظر: باحمدان، عهد السلطان صالح ص١٣٤-١٣٦، والمذكرة التاريخية ص١٦٦.

الضرائب على تلك المواد. واستمرَّ هذا الحال إلى أن توترت العلاقات الإمريكية السوفيتية بسبب كوبا ضمن ما عُرِفَ بالحرب الباردة، وكادت تندلع حرب عالمية ثالثة، حينها استجاب السلطان غالب بن عوض لنصائح بعض مستشاريه للتخفيف من الضغط الشعبي الذي تزايد خوفًا من حدوث مجاعة بسبب الحرب المحتملة، فاشترى السلطان كميات كبيرة جدًّا من الأرز، وقام بتخزينها في المكلا وفي الشحر بـ(حصن بن عياش)؛ تحسبًا لأي كارثة[1].

في المجاعات التي حلت بحضرموت عامة، كان لمدينة الشحر الأثر الأكبر في التخفيف من معاناة الناس وسد احتياجاتهم، إذ فتحت ذراعيها وآوت كل الوافدين إليها والنازحين والمشردين من شتى البقاع دون استثناء، ليعيش بها هؤلاء حياة كريمة، ولعل هذه المواقف الإنسانية النبيلة التي سطرها أهالي المدينة هي ما جعلت العامة يطلقون على الشحر ذلك اللقب الشهير (أم اليتامى)، وللشيخ أحمد عبود باوزير (ت:١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م) قصيدة يقول فيها[2]:

صارت مدينتنا كما عين الحياة تملأ شوارعها أنابيب المياه

ونورها يزداد أيام الغروب

سعاد يا أم اليتامى يا خيرة البلدان في أرض الجنوب.

١ المذكرة التاريخية (مخ) ص٣١٥.

٢ تنظر ترجمته عند: حداد، معجم شعراء العامية الحضارمة ص٣٦.

وتشير بعض المراجع إلى أن أهالي الشحر خلال زمن المجاعة عرفوا أكلات شعبية لم تكن معروفة من قبل، منها الأكلة المسماة بـ(الكشيشة)[1]، و(عنبولة)، وكان مصدرهما شرق إفريقيا. وكان أغلب ما يُقدَّم للمحتاجين من أكلات هو الشوربة والعصيد، إلى جانب ما يجود به البحر من السمك.

السلطان عوض يزور الشحر ويحضر زيارة الولي سالم بن عمر:

من التقاليد السنوية لأغلب حكام الشحر وأمرائها ونوّابها، وتحديدًا منذ عهد الأمير ناجي بن بريك، أن يشارك كبارُ رجالِ الدولة أهاليَ المدينة احتفالاتهم الشعبية، وخاصة احتفالهم بأكبر زيارة روحية عرفتها حضرموت، وهي زيارة الولي سالم بن عمر العطاس، التي فاقت في شهرتها زيارة النبي هود.

وفي أثناء زيارة السلطان عوض بن صالح القعيطي لمدينة الشحر[2] بغرض تفقد أحوالها سنة ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م، حضر مراسيم هذه الزيارة التي صادفت عصر يوم الاثنين ١٤ محرم ١٣٧٩هـ/ ٢٠ يوليو ١٩٥٩م، وكان برفقته عدد من المسؤولين في الدولة، على رأسهم المستشار المقيم ووزير الدولة (جيهان خان)، كما رافقه أيضًا الوفد الكثيري المقيم في المكلا ونائب لواء الشحر آنذاك الشيخ المؤرخ عبدالخالق البطاطي. وقد تقدم موكب السلطان الفرقة الموسيقية السلطانية التي شاركت الأهالي في إحياء

---

١ الكشيشة: مطبوخ مدقوق الذرة الشامية يضاف إليه الماء والسمن. حداد، رجال الشحر في شرق إفريقيا ص٧٢.

٢ ليست هذه الزيارة هي الأولى للسلطان عوض، فقد ذكر الشيخ مبارك الأرضي في يومياته (مخ) أنه في فاتحة ذي القعدة ١٣٥٩هـ (الموافق ١ديسمبر ١٩٤٠م) وصل السلطان (الأمير) عوض بن صالح القعيطي إلى الشحر هو وزوجته لزيارة أهلها. نشرة الفكر الغيلية العدد (٥) مرجع سابق.

مراسيم تلك الزيارة التي حضرتها حشود كبيرة من مختلف المدن والمناطق، كما شاركت في فعاليات الزيارة عدد من الفرق الشعبية التابعة لأحياء المدينة وحاراتها، وقدَّمت كعادتها عروضها الشعبية المعروفة بـ(رقصة العدة)[1]، كما شارك في هذه الاحتفالية أهالي غيل باوزير بعدَّتهم الشهيرة بـ(عدة الغيلي)[2]. ((وفي مساء يوم الزيارة أقام نادي (الاتحاد الثقافي الإصلاحي الرياضي)[3] ليلة ترفيهية بالباغ، حضرها خلق كثير، ومن بينهم ولي العهد والمستشار المقيم ووزير الدولة وبعض المسئولين، وكانت ليلة ممتعة سُرَّ بها الجميع. ففي تمام الساعة التاسعة نزل الستار على نغمات موسيقى (عاش جمال)، فإذا بالجمهور يشاهد تمثالًا من الخشب (الماسنيت) لرئيس الجمهورية العربية المتحدة (جمال عبدالناصر) بحجمه الطبيعي مُحيِّيًا بيده الجمهور تحيةً متحركةً، وعندها رد الجمهور التحية بالتصفيق والهتاف الذي استمر ما يزيد على ثلث ساعة. وبعد ذلك قال رئيس النادي كلمة حماسية قُوطِعَت عدة مرات بالتصفيق، وقد نوه فيها بأنَّ نادي الاتحاد قدَّم هذه اللوحة الخالدة التي قام برسمها الفنان (محمد علي مخارش) بمناسبة العيد السابع للثورة، ثم تلا بعد ذلك بقية البرنامج وهو عبارة عن موسيقى وأغانٍ وألعاب رياضية وهزلية))[4].

١ لمعرفة المزيد عن هذه الرقصة ينظر: حداد، عبدالله صالح، رقصة العدة من الألعاب الشعبية، منشورات فرع المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف م/ حضرموت، المكلا سبتمبر ١٩٨٠م.

٢ صحيفة الطليعة العدد ١٠ الصادرة يوم الخميس ١ صفر ١٣٧٩هـ/ ٦ أغسطس ١٩٥٩م. ص٣.

٣ للاستزادة عن هذا النادي، ينظر: باحمدان، عهد السلطان صالح ص٧٦.

٤ صحيفة الطليعة العدد ١٠ الصادرة يوم الخميس ١ صفر ١٣٧٩هـ/ ٦ أغسطس ١٩٥٩م. ص٣.

ويبدو أنَّ الصراعات بين (الحويف) و(الحارات) في المدينة، والتي أشرنا إلى نماذج منها سابقًا، لم تنته إلى هذا العهد، إذ إنَّه في اليوم الثالث من هذه الزيارة ((سلَّم أهالي حارة باعوين طبولهم إلى منصب الحارة، حيث أعلنوا بانهم سيتركون الطبول نهائيًّا، والسبب في ذلك أنَّ سعادة نائب الدولة بالشحر أمر بحجز مقدَّم الحارة مع مساعده على إثر مرورهم بشارع يدعى "مِطراق حنَّين"))[1].

ومن الواضح أيضًا في هذه المدة التي زار فيها السلطان عوض مدينة الشحر أنَّ المد القومي العروبي قد بدأ يتغلغل في صفوف العامة، مؤذنًا ببروز حقبة جديدة مناهضة للتبعية الخارجية وخاصة لبريطانيا وأعوانها في الداخل.

---

١ صحيفة الطليعة العدد ١٠ الصادرة يوم الخميس ١ صفر ١٣٧٩هـ/ ٦ أغسطس ١٩٥٩م. ص٣.



حشود غفيرة من الأهالي بالساحة العامة للاحتفالات أمام مبنى الحكومة (دار ناصر)
ويظهر في الخلف حصن بن عياش وحديقة البلدية



بطاقة معايدة تظهر السلطان صالح بن غالب القعيطي بالوسط وولي العهد الأمير عوض بن صالح القعيطي والأمير غالب بن عوض بن صالح القعيطي
وبالأسفل منظر عام لمدينة المكلا المصدر المكتبة العامرية للتوثيق (عبر الإنترنت)

حكام لواء الشحر ونوَّابه وقضاته في عهد السلطنة القعيطية

بعد سيطرة القعيطي على مدينة الشحر تولى إدارتها عدد من الحكام والأمراء والنواب، وكان أغلب من تم تعيينهم على لواء الشحر هم من بيت القعيطي أو مكتب الموسطي، وأحيانًا من فصائل يافع الأخرى، وفي عهد السلطان عمر بن عوض القعيطي الثاني (١٩٢٢-١٩٣٦م)، حينما قسمت السلطنة إلى ألوية؛ عيَّن على كل لواء ممثلًا عنه يُدعى النائب أو المقدَّم، ويتحصل هذا الممثِّل على راتب معين من الحكومة ويمارس سلطته ونفوذه وفقًا لصلاحيات معينة تُمنح له[١]. وسنذكر بعض مَنْ كانوا حكامًا أو نوابًا على لواء الشحر أو على مدينة الشحر نفسها عاصمة اللواء، وهم[٢]:

١-الجمعدار عبدالله بن عمر القعيطي، حاكم السلطنة نائبًا عن أخيه عوض.

٢- الجمعدار حسين بن عبدالله القعيطي، نائب لواء الشحر.

٣-الأمير غالب بن عوض القعيطي قبل أن يكون سلطانًا.

٤-الجمعدار عيسى بن علي القعيطي.

٥-ناصر بن أحمد بوبك القعيطي، نائب لواء الشحر.

٦- سعيد بن ناصر بوبك القعيطي.

---

١ ابن علي الحاج، عمر بن عوض القعيطي، ص١٣٨.

٢ ينظر: قائمة بعدد من هؤلاء النواب عند البطاطي: إثبات ما ليس بمثبوت ص٣٩. وللمزيد عن نواب القعيطي في الألوية الأخرى، ينظر: المرجع نفسه ص٣٩-٤٤.

٧-حامد عبدالخالق الماس[١]، كان سنة ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م نائبًا للواء الشحر.

٨- الجمعدار سالم أحمد القعيطي، نائب لواء الشحر سنة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م[٢].

٩- صالح بن علي القعيطي[٣]، كان نائبًا للواء الشحر سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م.

١٠-الشيخ عمر صالح بن الشيخ علي بن هرهرة، توفي في الرابع من ربيع الأول ١٣٧٠هـ الموافق ١٤ ديسمبر ١٩٥٠م[٤].

١١-النقيب محمد محفوظ الكسادي، كان نائبًا للواء الشحر سنة ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م[٥].

١٢-عمر بن سالم القعيطي.

١٣-المقدم أحمد عمر باصرة.

١٤-حسن قحطان، كان نائبًا للشحر سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م[٦].

---

١ إثبات ما ليس بمثبوت ص٦٩. وفي عهده وقعت (هدة الغالبي) بين أهالي عقل باعوين وأهالي عقل باغريب. حداد، عبدالله، نائب القعيطي في الشحر سالم أحمد، مجلة شعاع الأمل العدد ٩٧ أكتوبر ٢٠٠٩م ص٣٨.

٢ إثبات ما ليس بمثبوت، ص٧٥.

٣ ذكره المؤرخ أحمد الملاحي، في المذكرة التاريخية (مخ) ص٤١٦. وقد ذكر الرحالة هاري سانت جون فلبي الذي زار مدينة الشحر سنة ١٩٣٦هـ أن قائمقام المدينة وحاكمها رجل كبير في السن يدعى (صالح صقر). ومانظنه يقصد إلا هذا الأمير. ينظر: بنات سبأ ص٣٠٨.

٤ من مذكرات الشيخ مبارك صالح الأرضي (مخ)، نقلًا عن الباحث عبدالله حداد (الأرضي ومدونته التاريخية)، نشرة الفكر الصادرة بغيل باوزير، العدد (٥) يناير-مارس ١٩٩٧م ص١٣.

٥ ذكره المؤرخ الملاحي في المذكرة التاريخية ص٣٠.

٦ باحمدان، عهد السلطان صالح ص١٣٦. وفي هذه المدة المذكورة وفقًا لما ورد في مدونة الشيخ الأرضي (بناء على رواية حداد) أن نائب لواء الشحر كان (مخارش) وليس (قحطان). ولعل هذا الأخير تولاها بالنيابة عن مخارش ريثما يعود. ومما يرجح هذا أنه في تلك السنة التي عُين فيها حسن قحطان نائبًا للواء الشحر، أشار الأرضي في مدونته إلى مغادرة مخارش اللواء إلى حجر لتفقد بعض أملاكه.

١٥ –حسين بن محسن مخارش، عُيِّنَ نائبًا للواء الشحر سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٢م[١].

١٦ – عبدالخالق عبدالله البطاطي، كان نائبًا للواء الشحر سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م[٢].

١٧ –علي محفوظ بن بريك، آخر نائب للواء الشحر.

القضاء والمحاكم بالمدينة في عهد السلطنة:

كانت المحاكم في حضرموت تعتمد في قضائها على المذهب الشافعي، وعلى آراء الشيخ ابن حجر عند الخلاف[٣]. وكان في بداياته الأولى ((قضاء شرعيًّا بحتًا، أي إن المحاكم الشرعية هي التي كانت تعالج القضايا الجنائية والحقوقية المختلفة، وكانت هناك محكمة واحدة عُرفية كانت لها صلاحيات النظر في بعض القضايا الجنائية والمنازعات الناشئة عن المعاملات التجارية))[٤].

١ جاء في مدونة الأرضي حسب رواية الباحث حداد أن النائب (مخارش) عين سنة ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م نائبًا للواء الشحر بعد انتقال المقدم باصرة إلى دوعن. ويبدو لي أنه تولاها نيابة عن النائب باصرة لحين عودته؛ إذ أشارت المدونة المذكورة لاحقًا إلى تعيين اللواء مخارش نائبًا للواء الشحر سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٢م. وفي فقرة أخرى أشار الأرضي إلى أنه في سنة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م تحول النائب مخارش إلى حورة نائبًا عليها. وقد توفي مخارش سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م بمدينة جدة.

٢ الملاحي، المذكرة التاريخية ص٧٩. وتنظر ترجمته في: مدرسة مكارم الأخلاق، ثمانون عامًا من الجهد والعطاء ص٤٧.

٣ بكير، عبدالرحمن عبدالله، المدخل إلى المسائل المختارة لمحاكم حضرموت، طبع بمطبعة الإمام بمصر على نفقة عبدالله علي بامخرمة، ص١٤.

٤ الجعيدي، عبدالله، الأوضاع الاجتماعية ص٢٥٢. وينظر: باوزير، الفكر والثقافة في حضرموت ص١٨٢، والناخبي، شذور من مناجم الأحقاف ص١٠٥.

ولبيان حالة القضاء في مدينة الشحر نورد هذا النص للمؤرخ أحمد الملاحي (ت:١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م) الذي عاش في ذلك العهد: ((وليس هناك قانون معروف في الدولة، وإنَّما كل نائب وحاكم وعسكري يعمل بما يستحسنه ويهواه، والأحكام كلها مخترعة، ولا هناك تسجيل للدَّعاوى والأحكام، والسلاطين جُهَّال، والنُّوَّاب والحكَّام والضباط وكبار الناس في الدولة خس من السلطان في الجهل. وأمَّا القاضي فكان من المتمكنين في الفقه، وهو الحاكم الوحيد الذي يحكم بعلم، ولا أقول إنَّ القضاة كانوا متصفين بالعدل، فقليلٌ ما هم، وأحكام القضاة كانت فوضى، وتُقرَّر الأحكام شفهيًّا وتُنفَّذ من دون تسجيل، ولا هناك تفتيش على دعاويهم وأحكامهم، ولا هناك استئناف ولا محكمة رسمية، وإنَّما بيت القاضي هو المحكمة، فالقاضي كان يفصل بين المتخاصمين ويُنفذ الحكم في المكان الذي هو فيه، ولو في الشارع، وأكثر قضاة القرى غير متمكنين في أحكام القضاء والفرائض والأنكحة، وكانت أحكام القاضي معرضة للانتقاد والبُطلان من سائر الفقهاء، فإذا حكم القاضي مثلًا في قضية فيها خلاف بين العلماء، قام منافسوه وأبطلوا حكمه، والسلطان ومَنْ معه في معزل من ذلك؛ لأنَّهم جُهَّال، ولأنَّ مصدر الأحكام القضائية غير مضبوطة. وفي عهد السلطان عمر بن عوض القعيطي[1] رأيت أهل الشحر فرقتين؛ ففرقة تأتمر بالقاضي الشرعي الرسمي، وهي تسعة أعشار المدينة، فيصومون بأمره ويفطرون بأمره، وأمَّا الفرقة الأخرى وهي عشر معشار أهل المدينة، وهم حافة الحوطة، مخالفون الجماعة، فلا يصومون بأمر

---

١ في مخطوط المذكرة التاريخية ص٤٦٣: (عمر بن غالب القعيطي). والصحيح ما أثبتناه.

القاضي ولا يفطرون، وإنَّما يتبعون علماءهم، وعلماؤهم شاذون ومدَّعون ومتعصبون، فهم يفطرون وأهل البلاد وقراها كلهم صائمون، ويصومون والناس كلهم في البلاد فاطرون، والسلاطين والأمراء يرون ذلك، ولا يتدخلون ليروا وجهة مخالفتهم للجماعة، فالبلاد فوضى لا سراة لهم))[1].

وفي موضع آخر يذكر المؤرخ الملاحي أنَّ الحاكم (القاضي) في العقودالأولى من القرن العشرين لا يستطيع أن يدفع شرَّ العسكر عن الرعية (الحضر) داخل المدينة، ((فإذا جاء الحضري عند الحاكم يشتكي بالعسكري، لم يُنصف له، بل قد يُعاتَب على مقاومته للعسكري، وإذا جاء العسكري وقدَّم دعوى على المسكين (يعني الحضري) ففي الحال يخرج الحُكْم على المسكين، ولم يقبلوا له أيَّ دفاع عن نفسه، فإذا حبس هذا المسكين في الشوكي (أي السجن الصغير) أو في المحباسة (أي السجن الكبير)، ثم أذن له الحاكم بالخروج فلا يسمح له حارس السجن بالخروج، حتى يدفع له مبلغًا من النقود، وأكلُه في الحبس على نفسه))[2].

ومن الصور الأخرى للقضاء أنَّه ((إذا جاء المشتكي إلى الحاكم، واشتكى بأحد الحضر، يقول له الحاكم: خذ له حضارًا وتعال أنت وإيَّاه. (والحضار هي حصاة صغيرة تُؤخذ من الأرض، وتُقدَّم للمطلوب، ويُقال له: هذا حضار لك من الدولة، قُمْ

---

١ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية (مخ) ص٤٦٢-٤٦٣.

٢ المرجع السابق ص٤٥. وموضع المحباسة المذكورة أو كما كان يطلق عليها الأهالي (المحباسة الغويطة) لوجود زنازين لها تحت الأرض، هو الموضع الذي قامت على أنقاضه مدرسة الشيخ عبدالكريم الملاحي بحارة الرملة، على مقربة من مسجد (بقشة). ويبدو أن موضع هذه المحباسة (السجن) يعود إلى عهود أقدم.

واتبعني)، فهذا الحضار له احترام وهيبة في القلوب، فلا يقدر أحد أن يردَّه؛ لأنَّ مَنْ ردَّه، يُرسل له عبد من عبيد السلطان، ويسوقه إلى المحكمة ذليلًا، فالرعوي يعتبر إرسال العبيد إليه إهانة وتعزيرًا وكسرَ شرف، ثم إنَّ الحاكم يغلظ عليه ويقسو))[1].

والقضاة المدنيون في السلطنة قبيل عمليات الإصلاح والتحديث ((كانوا لا يحملون أي شهادات جامعية، باستثناء قاضٍ واحدٍ يُدعى عبدالعزيز عبدالرحمن الأنصاري رئيس محكمة الاستئناف، والحال كذلك عند المحامين الذين تعاملوا مع مهنة المحاماة عن طريق الخبرة والذكاء الشخصي، وكان في مقدور أي انسان أن يترافع أمام المحاكم؛ إذ لا يتطلب المثول أمام المحاكم أي إذن رسمي))[2].

ومن العقوبات التي كانت تنفذ على الجاني في تلك المدة أنَّ ((السارق لا يُحكم عليه بقطع اليد، وإنَّما يُجلد ويُصلب على مدفع ويُترَك في الشمس حتى يموت. فهذا حكم السارق الذي يقفز البيوت ويكسِّر الدكاكين ويُخوِّف البلد. وأمَّا الذي سرق مرةً مرتين فإنَّه يُلبَس القيد ويُؤمر بحمل ما سرقه ويطوف به العبيد في الشوارع ويُضرَب ويُسجَن. وفي الغالب لا يسرق في البيوت والدكاكين إلا غريب عن البلد أو عبد خسيس النفس))[3].

ولعل هذا يفسر لنا ذلك الحكم التعزيري الذي حكم به إنجرامس على بعض البدو المتهمين بالنهب وقطع الطريق، بأن جعلهم يحملون على ظهورهم كل ما نهبوه،

١ المرجع السابق ص٤٦.

٢ الجعيدي، الأوضاع الاجتماعية ص٢٥٣.

٣ المذكرة التاريخية ص٤٧.

ويطوفوا به في الساحة العامة أمام حشود الناس[1]. إذ إن حكمه ذاك لم يكن بعيدًا عن العُرف الشعبي للبلاد.

أمّا في المناطق القبلية والأرياف فغالبًا ما يتم الفصل في المنازعات والمخاصمات التي تنشأ بين الناس عن طريق الأعراف القبلية السائدة التي كان لها من القوة ما يفوق قوة القانون، وكان مقادمة القبائل وشيوخ العشائر والفصائل هم مَنْ يقوم بعمليات التحكيم والفصل هذه، وقد يدخل معهم قضاةً ومحكمين بعضُ ذوي الوجاهات من فئتي السادة والمشايخ. ولا يتساوى في أعراف البدو القبيليُّ وغيرُه ممَّن لا تسنده عشيرة قوية تدافع عن حقه.

وقد اجتهدت السلطنة القعيطية في تطوير الأجهزة القضائية وتنظيمها، وكان للشيخ عبدالله بن عوض بكير أثرٌ كبيرٌ في إصلاح القضاء وتوسيع نطاق محاكمه الشرعية، فضلًا عن ابتعاث عدد من الحضارمة لاستكمال تعليمهم العالي، وتأهيلهم لتولي القضاء في المستقبل[2].

وفي سنة ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م أصدر السلطان صالح قانون تعديل محاكم الدولة وكانت التعديلات في القانون شكلية[3]. وفي ٢ صفر ١٣٧٦هـ/ ٢٩ سبتمبر ١٩٥٦م أصدرت السلطنة القعيطية قانونًا ينص على إعادة تنظيم محاكم الدولة وتشكيلها[4].

---

١ الملاحي، المذكرة التاريخية ص٣٥، والجعيدي، الأوضاع الاجتماعية ص١٩٩.

٢ تنظر ترجمته عند: الناخبي، شذور من مناجم الأحقاف، والسقاف، إدام القوت ص١٥٣. وفيه أن هذا الشيخ تدرج في المناصب القضائية إلى أن أصبح سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٢٧م رئيس القضاة الشرعيين.

٣ الجعيدي، الأوضاع الاجتماعية ص٢٥٣.

٤ لمعرفة مواد هذا القانون، ينظر: بكير، عبدالرحمن، المدخل إلى المسائل المختارة لمحاكم حضرموت ص١٩٣.

ويُعدُّ مبنى دار ناصر في عهد السلطنة القعيطية هو المبنى المخصص للدوائر الحكومية ومنها المحكمة، إذ خُصِّصت لها غرفة بذلك المبنى، ثم انتقلت في مراحل متأخرة إلى بيت (باصالح)، على المدخل الشرقي لسوق شبام، ثم تعددت أماكن مقرها.

قضاة المدينة في عهد السلطنة القعيطية:

نذكر من القضاة الذين تولوا القضاء في المدينة منذ قيام السلطنة القعيطية إلى زوالها[1]:

١-الشيخ ناصر بن صالح بن الشيخ علي، توفي في ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٠هـ[2].

٢-الشيخ محمد بن أحمد باالحيد باوزير[3].

٣-الشيخ سعيد بن محمد الأحمدي، تولى القضاء مرتين، في الآخرة منهما كان خلفًا للسيد البار[4].

٤-الشيخ محمد بن عمر بن بكران بن سلم[5].

١ تنظر قائمة بعدد قضاة المدينة في عهد السلطنة عند: البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٣٩. وللأخ الباحث أحمد كرامة البحسني دراسة قيد الإعداد اطلعت على بعضها، جمع فيها كل قضاة المدينة عبر تاريخها.

٢ تنظر ترجمته عند: باحسن، عبدالله، نشر النفحات المسكية في أخبار الشحر المحمية ص١٨٥.

٣ ذكره المؤرخ باحسن في كتابه تنبيه العقلاء ص٣٨، وكذلك البطاطي في: إثبات ما ليس بمثبوت ص٣٩.

٤ ذكره البطاطي في: إثبات ما ليس بمثبوت ص٣٩. وتنظر ترجمة له في هامش كتاب تنبيه العقلاء بشرح ما جرى على بعض أبناء الفضلاء، تأليف عبدالله محمد باحسن، تحقيق عادل حاج باعكيم ص٣٦.

٥ تنظر ترجمته عند: باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٥٨. وصدر حديثًا لأحمد بن عمر بارفعة كتاب عن صاحب الترجمة بعنوان: ثلج الفؤاد بالأمن والسلم في ترجمة العلامة محمد بن عمر بن سلم وتاريخ رباطه.

٥-الشيخ محمد عمر بن سالم العماري، وهو من مواليد مدينة الشحر، تولى القضاء سنة ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨هـ[١].

٦-السيد البار[٢].

٧-الشيخ أحمد عوض المصلي[٣].

٨-الشيخ عبدالله بن عوض بكير[٤]، رئيس المجلس العالي للقضاء.

٩-الشيخ محمد عبدالله باجنيد[٥].

١٠-الشيخ محمد عوض بن طاهر باوزير[٦].

١١-الشيخ أحمد محمد البيتي (الغزالي)[٧].

١٢-الشيخ سالم مبارك الكلالي[٨].

---

١ تنظر ترجمته عند: باوزير، سعيد، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، ص١٧٩. كما ذكره السلطان غالب بن عوض القعيطي في كتابه الصادر حديثًا: (الشيخ علي بن محمد العماري كما يتذكره السلطان غالب بن عوض القعيطي)، ص٢١.

٢ ذكره البطاطي في: إثبات ما ليس بمثبوت ص٣٩.

٣ ذكره البطاطي في: إثبات ما ليس بمثبوت ص٣٩.

٤ تنظر ترجمته عند: الناخبي، عبدالله، فصول في الدول أو شذور من مناجم الأحقاف ص١٠٣، وإجازة عامة في الأسانيد والمرويات ص٣٠، والسقاف، إدام القوت ص١٥٣، وباوزير، الفكر والثقافة ص١٨١.

٥ ذكره البطاطي في: إثبات ما ليس بمثبوت ص٣٩.

٦ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٣٩. وتنظر ترجمته عند: باوزير، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي ص١٨٤.

٧ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٣٩.

٨ تنظر ترجمته في: مدرسة مكارم الأخلاق، ثمانون عامًا من الجهد والعطاء ص٤١، وحداد، عبدالله، معجم شعراء العامية ص٩٣، والناخبي، حضرموت، فصول في الدول والأعلام ص٩٤.

١٣-الشيخ محفوظ بن سعيد المصلي، من مواليد مدينة الشحر، عُيِّنَ قاضيًا شرعيًّا في مدينة شبام[١].

١٤-الشيخ سالمين سعيد شطر[٢].

١٥-الشيخ محفوظ عبدالله بن حازب[٣]، كان مدرسًا وقاضيًا، وذكر الشيخ الملاحي أنَّه مات مسمومًا في قرية السويري؛ لأنَّه لا يقبل الرشوة، ولا يجامل أحدًا من المتخاصمين عنده[٤].

١٦-الشيخ عبدالقادر محمد بن عمر العماري[٥].

١٧- الشيخ سالمين بن سالم سرور[٦].

١٨-المؤرخ والقاضي عبدالله محمد باحسن جمل الليل[٧] (ت:١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م)، وكان عضوًا في المحكمة الشرعية.

١ ينظر: أحمد الملاحي، المذكرة التاريخية (مخ) ص٢٣١، وباوزير، الفكر والثقافة ص١٨٤. وتنظر نبذة عنه في كتابه تنبيه العزائم إلى شرح أمثال الحضارم، تحقيق عادل باعكيم.

٢ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٣٩.

٣ تنظر ترجمته عند: بن سلم، أحمد، مرافئ تربوية ص٤١.

٤ الملاحي، المذكرة التاريخية(مخ) ص٢٣٢. وذكره باسم الشيخ (محفوظ بن حازم). وأثبتنا ما نظنه الصحيح.

٥ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٣٩. وفي عهد القاضي المذكور صدر لأول مرة حكم قضائي في قضية حيازة حشيش، وكان هذا سنة ١٩٥٩م. ينظر: صحيفة الطليعة العدد (٣) الصادرة بتاريخ: ١١ يونيو ١٩٥٩م. وتنظر ترجمة مقتضبة له في كتاب (الشيخ علي بن محمد العماري، كما يتذكره السلطان غالب بن عوض القعيطي)، ص٢٠.

٦ تنظر ترجمته عند: مجموعة من المؤلفين، مدرسة مكارم الأخلاق، ثمانون عامًا من الجهد والعطاء ص٤٢. وورد الاسم عند الشيخ أحمد الملاحي (الشيخ سعيد بن سرور). ينظر: المذكرة التاريخية ص٢٣١.

٧ تنظر ترجمته في مقدمة كتابه: نشر النفحات المسكية في أخبار الشحر المحمية، تحقيق محمد عبدالنور، والسقاف، تاريخ الشعراء الحضرميين (٥/ ٦٠)، وباحمدان، عهد السلطان صالح ص١٨.

١٩-الشيخ علوي الجفري، تولى القضاء قبل ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م، وخلفه القاضي بامطرف.

٢٠-الشيخ عبدالله بن عوض بن عمر بامطرف (ت: ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م)[1].

٢١-الشيخ محمد سالم الحدادي اليافعي[2].

٢٢-السيد عبدالله محفوظ الحداد[3].

٢٢-الشيخ عمر بن سعيد باغزال، من مواليد مدينة الشحر سنة ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م، اشتغل بالمحاماة مدة، ثم عُيِّنَ مديرًا للأوقاف والتركات العامة بالدولة القعيطية، وهي تعادل (وزارة الأوقاف)، وأمضى في إدارتها ثلاثة عشر عامًا[4].

---

١ تنظر ترجمته عند: بارفعة، أحمد بن عمر، ثلج الفؤاد بالأمن والسلم في ترجمة محمد بن سلم ص٣٦٨. وجاء عنه في مذكرة الشيخ (مبارك الأرضي) أنه قدم إلى الشحر يوم الاثنين ٢٧ من ذي الحجة ١٣٦٩هـ بدلًا من القاضي علوي الجفري. وممن تولى القضاء من هذه الأسرة في مدينة الشحر أيضًا القاضي الشيخ (عوض بن سعيد بامطرف) المتوفى سنة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م تولاه في أواخر عهد الدولة البريكية. إدام القوت ص١٤٧. وذكره المؤرخ باحسن في كتابه (تنبيه العقلاء) وله بهامش الكتاب المذكور ترجمة مقتضبة ص٥٩.

٢ ذكره أحمد الملاحي في المذكرة التاريخية (مخ) ص٢٣١.

٣ تنظر ترجمته عند: بارفعة، أحمد، ثلج الفؤاد بالأمن والسلم، مرجع سابق ص٣٥٨. وهو غير اللاعب (عبدالله بن محفوظ الحداد) المترجم له في كتاب سعدالله، كرة القدم في الشحر ص٥٤، والذي ذكر فيه أنه من مواليد إفريقيا سنة ١٩٤٨م. ويذكر الباحث محمد سالم بن بريك أن القاضي عبدالله محفوظ الحداد انتخب سنة ١٩٥٩م رئيسًا لنادي الاتحاد الثقافي الإصلاحي الرياضي بالشحر. ينظر: من بوجمبورا إلى سعاد ص١٣٩.

٤ تنظر ترجمة الشيخ في كتاب: مدرسة مكارم الأخلاق ثمانون عامًا من الجهد ص٤٦.

وللاستزادة عن الحكام والقضاة في بقية المراكز التابعة للواء الشحر، أو غيرها من الألوية القعيطية، يمكن الرجوع إلى كتاب الشيخ عبدالخالق البطاطي (إثبات ما ليس بمثبوت من تاريخ يافع في حضرموت)، ففيه تفصيل وسرد لعدد من القضاة والمناطق التي تولوها[1].

ومن المحامين الذين عرفتهم المدينة آنذاك نذكر: حامد يسر اليزيدي، وسعيد بن داؤود، وفرج أحمد بن نويصر (محام وإمام مسجد)، وأحمد عوض باحميش (إمام مسجد وخطيب)، والشيخ عبدالله أحمد اليزيدي (جندي وإمام ومحام)[2]، والشيخ علي محمد سواد اليافعي (كان مدرسًا ثم تولى القضاء، ثم عُزِلَ فصار محاميًا)[3].

١ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٣٩-٤١.

٢ ذكره الشيخ أحمد الملاحي في المذكرة التاريخية (مخ) ص٢٣١.

٣ المرجع السابق ص٢٣٢.

أبرز المعالم الأثرية في المدينة في عهد السلطنة القعيطية[1]

سبق أن أشرنا إلى أن القعيطي حالما وقعت المدينة تحت سيطرته، شرع في إعادة بناء سور الشحر ليكون أكثر متانة واستحكامًا، مع إقامة عدد من القلاع والحصون الموزعة على امتدادات هذا السور يطلق عليها الأكوات (جمع كُوْت) وعددها (٣٤) كوتًا. كما بنى على هذا السور حصنين ضخمين لهما بوابتان كبيرتان (سدَّتان) تسمحان بمرور قوافل الجمال المحملة، ولاحقًا أصبحت تمر منهما السيارات. أحد هذين الحصنين في الجهة الشمالية، ويطلق عليه (سدة العيدروس)، والعيدروس هو الشيخ عبدالله بن شيخ العيدروس، صاحب المسجد الذي حمل اسمه بعقل باعوين، وموقعه قريبٌ جدًّا من هذا الحصن. والحصن الآخر في الجهة الغربية، ويطلق عليه (سدة الخور)[2] نسبة لحي الخور الذي أُقِيمَ فيه هذا الحصن.

كما أقام القعيطي نوبتين (قلعتين) شاختين على طرفي الجانب الجنوبي الشرقي، والجنوبي الغربي من سور المدينة، على رأس لسانين بحريين يمتدان إلى داخل البحر لمسافة ٤٠٠ ياردة[3] طول كل لسان ٢٠٠ ياردة. كما جدَّد القعيطي بناء عدة من الحصون والقصور

١ تحدثنا عن هذه المعالم الأثرية بالمدينة وغيرها باستفاضة في الجزء الأول من كتابنا الذي لم ينشر بعد (من الفلكور الحضرمي، مدينة الشحر نموذجًا). وللمزيد ينظر: الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية، (مخطوط) ص٦٦.

٢ ذكر المؤرخ أحمد الملاحي في مذكرته التاريخية أن السدتين وبقية أبواب سور الشحر أحضرها القعيطي من أنقاض حصن العولقي بعد أن دكه بالمدافع واستسلم من فيه سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م. ينظر: ص٣٠٤.

٣ للمزيد عنه ينظر: بامطرف، محمد، مسرحية سور الشحر، والملاحي، عبدالرحمن، الصراع الحمومي القعيطي ودوافعه ص٢٦٣، وابن هاشم، رحلة إلى الثغرين ص٤٦.

داخل المدينة، لعل أبرزها حصن ناصر الشهير بـ(دار ناصر)[1]، والذي اتخذته الدولة القعيطية مركزًا لحكمها ومقرًّا لإقامتها، وكان مبنًى فريدًا في جماله وتصاميمه أشاد به كل الزوار والكتَّاب. وكذا أُعِيدَ بناء (حصن بن عياش) ومبنى (الباغ)، إلا أن هذين الصرحين كما أشرت قبلُ، لم يكتمل بناؤهما، فتُرِكَ الأول على حالته، وبِيعَ الآخرُ لأسرة آل الكاف، باعه لهم السلطان عمر سنة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م[2].

وبالإضافة إلى الأكوات (القلاع) الموزعة على أنحاء مختلفة من سور المدينة، بنى القعيطي أكواتًا أخرى على الطريق المار من الشحر شمالًا إلى وادي عرف وإلى غيل باوزير، كما أقام ثكنتين للجنود إلى الجنوب مباشرة من سدة العيدروس، وثكنةً عسكريةً أخرى خارج المدينة من الجهة الشمالية، إلى الشمال من مدرسة الجماهير (مدرسة عمرو بن العاص حاليًّا)، أطلق على هذه الثكنة اسم (الرزميت).

ونلاحظ أنَّ أبرز المعالم العمرانية التي أنشئت في بداية عهد الدولة القعيطية، بُنِيَت لأغراض عسكرية بحتة، هدفها تأمين مركز السلطنة الفتية، وتأمين المدينة من الهجمات الخارجية، وهذا يعكس الحالة المضطربة للأوضاع التي شهدتها المدينة والمنطقة على حد سوى في تلك الحقبة. ولم تهتم الدولة القعيطية بالجوانب الخدمية إلا في عهد متأخر بعد أن هدأت الأوضاع، وكان الاهتمام بهذه الجوانب محدودًا جدًّا، خاصة أنَّ اهتمام

---

١ ذكر المؤرخ أحمد الملاحي أن الحصن المسمى بدار ناصر نسبةً إلى الأمير ناصر بن بريك، كان يشمل فقط الجزء الغربي الممتد على ضفة مسيال سمعون، وهو ثلاثة طوابق، أما الجزء الأكبر (الشرقي) فقد بناه القعيطي. ينظر: المذكرة التاريخية ص٦٧، وابن هاشم، رحلة إلى الثغرين ص٤٦.

٢ ينظر: وثيقة البيع العلوي، ومحمد بن هاشم، رحلة إلى الثغرين، ص٤١.

السلطنة، كما أسلفنا، تركز في الأغلب على العاصمة (المكلا) على حساب غيرها من المدن والقرى التي ظلت محرومة من أيسر المشاريع إلا ما ندر، وكان حظ الشحر من ذلك الاهتمام ضئيلًا جدًّا، لكنَّه على ضآلته، والحق يُقال، أفضل مقابلةً بغيرها من المدن الواقعة تحت حكم السلطنة باستثناء العاصمة.

وقد كان للأهالي الأثر البالغ في إقامة عدَّةٍ من تلك المشاريع التي ارتكزت عليها البنية التحتية للمدينة، بل يمكن القول إن تلك المشاريع (العسكرية) المذكورة سابقًا، هي في الأساس مشاريع أهلية قامت على أكتاف الأهالي من عمال وفلاحين وصيادين وبنائين وغيرهم من أبناء الطبقة الاجتماعية المقهورة في المجتمع، وكان العمل في تلك المشاريع سخرة مقابل قوت يومهم، وربما ببعض البيسات التي تُعطى لهم، وهي لا تتناسب مع المشاق التي يبذلونها في ذلك العمل[١].

١ للتفصيل ينظر: مسرحية سور الشحر للمؤرخ محمد عبدالقادر بامطرف.


The Qu'aiti castle "Husn bin Ayyash" and the Qu'aiti Gendarmerie "Gendarmah", Al Shehr 1942

حصن بن عياش وأمامه استعراض عسكري للجنود الجندرمة سنة ١٩٤٢م



صورة قديمة لسدة الخور من الخارج



صورة حديثة لما تبقى من سدة الخور (الصورة من الداخل)



صورة قديمة لإحدى القلاع (الأكوات)



البوابة الغربية لمدينة الشحر والسور المحيط بالمدينة

المصدر/ باحاج، أحمد سعيد، الرحلات والدراسات الجغرافية لحضرموت، ط١، جدة، ١٩٨٨م، ص١٠١.

مشاريع البنية التحتية في عهد السلطنة القعيطية

لم تهتم السلطنة القعيطية في العقود الأولى من سيطرتها على المدينة، بمشاريع البنية التحتية[1]، والسبب في هذا يعود إلى انشغالها بصراعاتها ونزاعاتها مع خصومها ومنافسيها. ويتمثل ما قامت به السلطنة من مشاريع عمرانية في المشاريع الخاصة بتحصين المدينة وتأمينها، أي تأمين سلطتها وعواصم حكمها ببناء الأسوار وتشييد القلاع (الأكوات) المحيطة بالمدن أو القريبة منها، مع بناء الحصون الداخلية لرجال الدولة. وحتى هذه المشاريع كما أشرت آنفًا قامت في الغالب على أكتاف الأهالي وبجهد سواعدهم.

مشروع المياه:

ولعل أهم مشروع خدمي أُنجِزَ في تلك الحقبة وتحديدًا في عهد السلطان غالب بن عوض القعيطي (الأول)، هو مدُّ المدينة بالمياه الصالحة للشرب عبر أنابيب طويلة تمتد من (قرية تبالة)، لتخزن المياه داخل المدينة في خزانات كبيرة أعدت لهذا الغرض في الموقع المسمى بـ(الجابية)[2]، ثم يتولى السقاؤون إيصالها للبيوت مقابل أجر يدفعه المواطن. وقد كان اعتماد الناس قبلها على مياه الآبار المحفورة بوادي سمعون، أو آبار (دفيقة)، أو الآبار الأخرى القريبة من المدينة (خارج السور) كبئري (شراحينا) و(غميانة). وتُنزح المياه من هذه الآبار بطريقة (السناوة)، أمَّا مياه الآبار المحفورة داخل البيوت القديمة

---

١ بن سلم، أحمد، مرافئ تربوية ص٢٧.

٢ الناخبي، عبدالله، حضرموت فصول في الدول أو شذور من مناجم الأحقاف ص٦٢.

أو المساجد، والتي تعد مصدرًا رئيسًا للماء بالنسبة للسكان، فغالبها مياه غير صالحة للشرب بسبب تلوثها بمياه المجاري، أو بسبب تسرب مياه البحر إليها ممَّا أكسبها ملوحة زائدة.

وإلى جانب السقائين من الرجال امتهنت بعض النساء السقاية من تلك الآبار القريبة من المدينة، أو من موقع الجابية بواسطة (القرب)، وثمة وثيقة مهمة تعود لسنة (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م)، تشير بوضوح لامتهان النساء جلب المياه من تلك الآبار[1].

وفي بعض المراجع أنَّ مشروع جلب مياه الشرب من منطقة تبالة كان في عهد الوزير حسين بن حامد المحضار وزير الدولة القعيطية (ت ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م)، وللوزير نفسه قصيدة بمناسبة نجاح مشروع الماء هذا قال فيها[2]:

**قال بو طالب وصل مـاء العتم للجابية		بالسهـالة والقبول**
**يشربون الناس منه بالهنـاء والعافـية		بركة اللّه والرسول**

وفي عهد السلطان صالح تم مد أنابيب المياه من موقع تجمعها المسمى بـ(الجابية) إلى مواضع داخل الأحياء والحارات، لتكون قريبة من البيوت ويسهل على الناس الاستقاء منها.

أمَّا عن المدارس، ففي البدء كانت هناك مدرسة واحدة بالمدينة استمرت لعقود، وهي مدرسة (مكارم الأخلاق)، وكان للأهالي القسط الأكبر في تأسيسها. أمَّا بقية المدارس التي أُنشئت بإشراف الدولة وتطبيق المناهج الحكومية فيها، فهي لم تُعرَف إلا في مطلع أربعينيات القرن العشرين، ولم يتجاوز عددها ثلاث مدارس.

١ نشرت هذه الوثيقة في عدد من الصحف المحلية، ومنها مجلة الفكر العدد (٧)، يوليو – أغسطس – سبتمبر ١٩٩٧م ص٤–٥. نشرها بها الباحث عبد الله صالح حداد.

٢ من مقال للأستاذ الباحث عبد الله صالح حداد، مجلة التراث الشعبي العدد ٧، ١٩٧٨م ص٩٠، وينظر كذلك كتيبه الخاص عن (رقصة العدة) ص١٣.



موقع حفظ مياه الشرب المسمى بالجابية (شمال مسجد بن عتيق)

مطار الشحر:

في عهد السلطان عمر تم افتتاح مطار الشحر[1]، وهو أول مطار على مستوى ساحل حضرموت[2]، ويقع خارج السور الغربي للمدينة على الجنوب من مسجد الشيخ فضل بافضل، ويقوم هذا المطار بالرحلات الداخلية فقط، وقد استعمله سلاح الجو البريطاني مهبطًا لطائراته أسوة بالمطارات الأخرى التي أُنشئت تحت إشراف مهندسيه. ولم يتم الاعتماد على هذا المطار كثيرًا بسبب كثرة سقوط الطائرات فيه، فأُلغِي.

١ ابن علي الحاج، عمر بن عوض القعيطي، حياته، عهده، آثاره ص١٢٩، والملاحي، المذكرة التاريخية (مخ) ص٤٦٦. وأشار إنجرامس لمطار الشحر في تقريره عن الحالة في حضرموت ص٧٦.

٢ الملاحي، المذكرة التاريخية ص٤٦٦. ثم تلاه مطار في فوة غرب المكلا، وألغي، ثم مطار بريدة آل عبدالودود، وألغي أيضًا، ثم مطار (ريدة الشجر) القريب من قرية الريان، واستحسنه الإنجليز فتم اعتماده.

تنظيم الأسواق:

في عهده عَمِلَ السلطان صالح بن غالب القعيطي على تنظيم أسواق المدينة وترتيبها، وجعلها في مواقع متجاورة، وخصَّص مكانًا لبيع الملابس والأقمشة، ومكانًا آخر للخياطة والتطريز بالقرب منه، وموقعًا ثالثًا للحياكة، وموقعًا خاصًّا ببيع الأسماك، وبجواره سوق خاص بالخضار والفواكه، وافتتح ما عُرِفَ بـ(الماركيت)، وهو مبنًى خُصِّصَ لبيع الحلويات، كما خُصِّصَت مواقع لبيع الأغنام وأعلاف المواشي، وأخرى للأخشاب والمنتجات اليدوية من طينية وخوصية وخزفية. وعُيِّنَ على السوق مسؤول أُطلِقَ عليه (حاكم السوق)[1]، مهمته الفصل في المنازعات والشجار اليومي الذي قد ينشأ بين الباعة والمشترين، فضلًا عن ترتيب عمل السوق وتنظيمه. وكان الفصل في المنازعات يتم وفقًا لأحكام متعارف عليها، وليس بناءً على قوانين أو لوائح. وظل هذا العرف هو المتحكم في السوق إلى أن أُدخِلَت بعض التعديلات على القضاء في عهد هذا السلطان، لتصبح عمليات البيع والشراء أكثر تنظيماً. وممَّن تولى مسؤولية (حاكم السوق) في عهد السلطنة: سليم سالم النوبي، ومحمد سعيد الصومالي، وطه علي الأرضي، وعلي باكثير.

الجانب الصحي:

افتُتِحَ في عهد السلطان عمر أوَّل مستشفى (وحدة صحية) بالمدينة، وكان موقعه في الجانب الجنوبي الغربي لحصن بن عياش. وقبلها كان اعتماد الناس في التداوي على الطبِّ الشعبي[2].

---

١ المذكرة التاريخية (مخ) ص٤٦.

٢ بسطت القول في مواضيع الطب الشعبي بالمدينة في كتابنا (من الفولكلور الحضرمي).

وعندما زار الرحالة الإنجليزي (هاري سانت فلبي) المدينة خلال رحلته الشهيرة سنة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م، أشار إلى وجود طبيب عربي يدعى (محمود حواس)، كان مقيمًا في قصر (الباغ) الذي تملكه أسرة آل الكاف، ويستلم هذا الطبيب كما ذكر راتبًا قدرُهُ ستون ريالًا تدفعه له الحكومة. وهذا الطبيب هو الذي عالج الطبيبة (فريا ستارك) في أثناء زيارتها المدينة عندما أصابتها الحمَّى[1]. وكان من أشهر الأطباء في المدينة في خمسينيات القرن العشرين (هارون محمد أبو القاسم)[2].

هذا وخَصَّصَ السلطانُ النصف الغربي من (حصن بن عياش) للبرقيات (اللاسلكي) والبريد[3]، وعَمِلَ على تحديث مبنى الجمرك، وأضاف إليه مكتب إدارة البريد، كما أنشأ عددًا من المرافق الإدارية، وجعل مقرَّها (دار ناصر).

وفي عهد السلطان صالح هُدمت الثكنات العسكرية القريبة من سدَّتَي العيدروس والخور (من جهة الداخل)، لتتمكَّن السيارات الكبيرة من المرور عبر البوابتين[4].

١ فلبي، هاري سانت جون، بنات سبأ ص٣٠٨. مع ملاحظة أن اسم الطبيب هذا تارة يذكر (حواس) بالحاء المهملة، وتارة (جواس) بالجيم المعجمة.

٢ انتقل هذا الطبيب بداية الستينيات إلى لواء دوعن، وتكريمًا لخدماته أقام النائب البطاطي والمجلس البلدي بالمدينة مأدبة غداء وحفلًا لتوديعه. ينظر: صحيفة الطليعة العدد (٣٦)، ٧شعبان ١٣٧٩هـ/ ٤ فبراير ١٩٦٠م.

٣ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية (مخ) ص٦٦.

٤ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية ص٦٩.

مشروع الكهرباء:

لقد بدأ العمل في تأسيس الكهرباء سنة ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م في عهد نائب لواء الشحر عبدالخالق البطاطي، وكانت المدَّة التشغيليَّة لها تتراوح بين خمس وستِّ ساعات في المساء. وقد دُشِّنَ هذا المشروع، بإسهام عدد من تجَّار المدينة وأعيانها، تحت اسم (الشركة الوطنية للكهرباء بالشحر)، ومُنِحَ الترخيص الحكومي رقم (٨٦/ ٢٠/ ٢٢) المؤرخ في ٢٨ شوال ١٣٨١هـ الموافق ٣/ ٤/ ١٩٦٢م، وبرأس مال بلغ (١،٠٠٠،٠٠٠) مليون شلن[1]. وقد ضم مجلس إدارة الشركة كلًّا من: حسن عمر بن سلم، ومحمد عبدالله باعباد، وعبدالله أبوبكر مهدمي، وعبدالقادر علي باذيب، وسالم عبدالرحمن باجرش، وعوض سالم شعيب، وعلي سلمان شامي، وفرج سعيد بدية، وناصر صلاح البطاطي، ومحمد علي جوَّاس[2].

محطة المحروقات:

في عهد النائب البطاطي أيضًا أُسِّسَت أوَّل محطة للمحروقات، وهي عبارة عن شركة مساهمة كان لتجار المدينة الأثر الأكبر في تأسيسها. وتقع هذه المحطة على بُعد أمتار شمال سدة العيدروس (المدخل الشمالي للمدينة)، وما زالت قائمة اليوم. وقبل إنشاء هذه كانت تورَّد للميناء صفائح الكيروسين، ويتولى كبار التجار توزيعها على الدكاكين والمحلات الصغيرة التي تبيعها للمواطنين.

---

١ ينظر إعلان الاكتتاب وشراء الأسهم الخاصة بالشحر في الوثائق الملحقة.

٢ ينظر: صحيفة الطليعة العدد (١٤٦)، بتاريخ ١٤ من ذي القعدة ١٣٨١هـ/ ١٩ أبريل ١٩٦٢م، ص٧.

الشركه الوطنيه للكهرباء بالشحر

يعلن رئيس مجلس ادارة الشركه الوطنيه للكهرباء بالشحر بانه قد تأسست شركه اهليه لانارة الشحر وضواحيها وتشغيل جميع الاجهزه الكهربائيه وبيع جميع ادوات الاناره . وذلك بموجب ترخيص حكومى رقم ٨٦/٢٠/٢٣ المؤرخ ٢٨ شوال ١٣٨١هـ الموافق ٣/٤/١٩٦٢م وتسمى هذه الشركه باسم «الشركه الوطنيه للكهرباء بالشحر».

رأس المال : ٠٠٠ ١٠٠٠ مليون شلن

عدد الاسهم : ١٠٠٠٠ عشره الف سهم.

قيمة السهم : ١٠٠ مائة شلن.

يدفع ٧٥٪ من قيمة السهم كدفعه اول متى طلب من المساهمين. كما يسرنا أن نعلن لجميع الراغبين فى المساهمه فى الوطن والمهجر انه لدينا الآن اربعه الف وخمسمائة سهم ٤٥٠٠ وكذلك ستساهم الحكومه بما لايقل من الفين وخمسمائة سهم ٥٠٠٠ ولذلك نود ان نعلمكم انه سيكون باب الاكتتاب مفتوحا الى آخر يوم من شهر مايو القادم وفى حالة زيادة الاسهم على الاسهم المطلوبه سيكون القبول بالاولويه.

وكل من يرغب فى الاكتتاب عليه الاتصال بنا بالعنوان التالى :—

كتابياً:— رئيس مجلس الاداره بالشحر

برقياً:— الكهرباء /الشحر.

رئيس مجلس الاداره بالنيابة

محمد عبدالله باعباد

صدر هذا الإعلان بصحيفة الطليعة العدد (١٤٨) الصادرة بتاريخ الخميس ٢٨من ذي القعدة ١٣٨١هـ الموافق ٣ مايو ١٩٦٢م.



طابع بريد الدولة القعيطية، وتظهر عليه صورة السلطان صالح وسدة الخور



حفل افتتاح مشروع كهرباء الشحر، ويظهر في الصورة نائب لواء الشحر الشيخ عبدالخالق البطاطي



أول محطة للمحروقات، شمال سدة العيدروس، ويظهر خلفها حي المحط وقد بدأ العمران يغزوه، وعلى مقربة منها دُفِنَ زعماء الحموم الـ(٢٧).



صيادون في أثناء جدوحهم من البحر يحملون أسماك السردين (العَيْد)، ويظهر في أقصى شمال غرب الصورة مبنى الجمرك والبريد.

إدارة المالية في عهد السلطنة:

كان أول نائب يتولى إدارة مالية الشحر في عهد السلطنة القعيطية هو هلال الحبشي المسؤول المالي للجمعدار عبدالله بن عمر القعيطي، كما تولاها أيضًا في عهد ابنه الأمير حسين بن عبدالله[1]. وفي عهد السلطان عمر بن عوض القعيطي أُسنِدَت إدارة المالية إلى محسن حسين لرضي (اليافعي) ومساعديه عبدالله محمد بشهر، وصالح سالم باسلوم، وسعيد علي وحدين[2].

وممَّن تولى إدارة مالية الشحر أيضًا سعيد علي بامعيبد[3]، وهو غير المؤرخ سعيد بن علي بامعيبد (ت:١٣٢٢هـ/ ١٩٠٢م) مؤلف كتاب (بهجة السمر في أخبار بندر سعاد المشتهر)[4]، وما زال هذا الكتاب مخطوطًا.

إدارة الميناء والجمرك في عهد السلطنة:

لم يكن للجمارك في عهد السلطنة القعيطية نظام خاص أو قواعد محددة، إذ يتحكم فيه رجال الجمارك، فهُمْ من يحدد العشور والضرائب. وقد سبق أن أشرنا إلى بعض الأسر التي استأجرت ميناء الشحر من القعيطي مقابل مبالغ تدفع سنويًّا، كأسرة آل

١ حداد، معجم شعراء العامية ص١٠٠.

٢ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٥٢، وابن علي الحاج، محمد سعيد، عمر بن عوض القعيطي، حياته، عهده، آثاره ص١١٦.

٣ ذكر الباحث محمد سالم بن بريك أن سعيد علي بامعيبد أُعدِمَ مع آخرين سنة ١٩٧٥م من قبل تنظيم الجبهة القومية، بتهمة التخطيط لمحاولة انقلاب على الحكم. ينظر: من بوجمبورا إلى سعاد ص٢٥٢.

٤ الملاحي، عبدالرحمن، ملامح من التداخل المعرفي بين ربابنة اليمن وعمان ص٩١.

باشراحيل، وآل حميد، وآل الكاف، وآل جمعة لالا ، وبيَّنا مقدار المبلغ السنوي الذي كان يدفعه هؤلاء للحكومة[1].

ويذكر المستر إنجرامس في تقريره عن الحالة في حضرموت أنَّ إيرادات مدينة الشحر من الجمارك في المدة ما بين (١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م) إلى (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م) بلغت (٤١٠.٠٠٠) روبية، بمعدل (٨٢.٠٠٠) روبية في كل عام، وأنَّه في الأول من المحرَّم ١٣٥٣هـ/ ١٥ أبريل ١٩٣٤م تم تعديل إيجار ميناء الشحر، ورُفِعَ إلى (٦٦.٠٠٠) روبية في الشهر[2]. وفي إشارة أخرى يفيد أنَّ هناك ضريبةً ثابتةً عامةً تُفرَض على كل البضائع الداخلة أو الخارجة وهي ٨ ٪[3].

وخلال زيارته للمدينة سنة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م قدَّم لنا الرحالة (هاري سانت جون فلبي) وصفًا لحالة الجمرك وكيفية إدارته بناء على معلومات زوَّده بها التاجر عبدالله جعفر، إذ كتب يقول: ((يوجد كوخ أو كوخان على خط البحر (الماء)، وهي عبارة عن مكاتب سلطات الجمارك، غير أنَّ البضائع التي يتم تفريغها من السفن تظل مبعثرة على طول الساحل حتى حضور أصحابها لاستلامها. لقد أوكلت مهمة تحصيل الرسوم الجمركية بمدينة الشحر بما في ذلك رسوم الدخولية (البلدية) المقررة على البضائع الواردة إلى المدينة أو الخارجة منها إلى أحد تجار قوجراتي واسمه عبدالله جعفر، وهو ينتمي إلى طائفة الشيعة، وذلك بمبلغ وقدره (٦٦.٠٠٠) ريال في الشهر.

١ ينظر ما سبق من الحديث عن انتكاسة المدينة بعد انتقال العاصمة للمكلا.

٢ إنجرامس، تقرير عن الحالة في حضرموت ص١٠٤.

٣ المرجع السابق ص١٠٥.

وفرضت ضريبة مقدارها ريالان على كل حمولة داخلة إلى المدينة أو خارجة منها، بينما حددت تعريفة الجمارك البحرية بمقدار ٥٪ ، ٨٪ ، ١٠٪ حسب القيمة المنصوص عليها في فاتورة الشراء ووفقًا لنوعية البضائع. كما تم تخصيص ضريبة خاصة بالتبغ الذي يمثل الإنتاج الرئيس لسواحل حضرموت، قدرت ضريبة التبغ بين (٦٠-٧٠) ريالاً لكل عبوة مقدارها (٣٠٠) طن، وتتراوح قيمتها بين (٦٠-٧٠) ريالًا، وهذه تمثل على وجه التقريب (٢٠٪). لقد كانت السلطات المسؤولة تفكر -وقت زيارتي للمدينة- في إلغاء نظام تكليف أفراد بعينهم مهمة جباية الضرائب نظير مبلغ محدد مقابل أتعابهم ومسؤولياتهم، وأدخل نظام جمع الضرائب المباشر))[1]، ثم كتب يقول: ((ومما لا شك فيه أنَّ هذا النظام المقترح -إذا طُبِّقَ بمصداقية وأمانة- سوف يزيد الربط السنوي الحالي للجمارك والرسوم التي تبلغ مئة واثنين وثلاثين ألف ريال (١٣٢.٠٠٠) مستوى حوالي (١٠.٠٠٠) جنيه إسترليني من الشحر وحدها))[2]. كما أشار فلبي خلال زيارته لمؤسسة التاجر عبدالله جعفر إلى وجود البسكويت والمعلبات من الفواكه.

أمَّا ضرائب الترانزيت الداخلية فقد كان السلطان عمر بن عوض يأخذ في عهده عن كل جملٍ محمَّلٍ روبيةً واحدةً، وعن كل جمَّال آنتيْن[3].

ولم نقف على كشوف بأسماء من تولى إدارة ميناء الشحر وجمركها في عهد السلطنة القعيطية، فضلًا عن أسماء بقية مديري مرافق الدولة الأخرى وموظفيها، ولكن

١ فلبي، هاري سانت جون، بنات سبأ ص٣١١.

٢ المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٣ إنجرامس، تقرير عن الحالة ص١٠٦.

استطعنا اقتناص أسماء بعضهم من إشارات عابرة في بعض المصادر والمراجع، وقد لا نعرف المدة الزمنية لتولي أولئك الموظفين الإدارة، ومن هؤلاء: عبدالرحمن خان، وهو من غير أبناء الشحر، أمَّا أبناؤها الذين عملوا في إدارة الميناء والجمرك فنذكر منهم: سالم قَطَن، وصالح محمد بازهير، ومحمد عوض بامطرف، ومحمد عبدالله الهندوان، ومحمد سالم الريوي، وعبدالرحمن سعيد بازرقان، وكانت بداية هذا الأخير موظفًا للجمارك سنة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م، ثم أصبح فيما بعد مساعدًا لسكرتير الدولة القعيطية في الشؤون الإدارية والمالية، ثم وزيرًا للسلطنة بالنيابة. ومنهم سعيد علي بخضر (توفي في العقد الثالث من القرن العشرين) وهو شحريٌّ ولادةً ووفاةً، ويعد من الشعراء الشعبيين بـ(عقل باعوين)، كان مساعدًا لمدير جمارك الشحر في عهد السلطنة القعيطية[1].

مصلحة البريد:

كانت مصلحة البريد مرتبطة في البداية بمصلحة البرق (اللاسكي)، ومقرها بالنصف الغربي لحصن بن عياش، ثم تحولت هذه المصلحة (البريد) إلى مصلحة الجمارك بمبنى الجمرك نفسه القريب من البحر، وإلى نهاية الخمسينيات من القرن العشرين كانت الخدمة البريدية (إرسال الرسائل واستلامها) سيئةً للغاية، فعندما أصدر ناظر البرق والبريد بالسلطنة القعيطية في ١ رجب ١٣٧٩هـ/ ٣١ ديسمبر ١٩٥٩م قرارًا حكوميًّا يمنع المسافرين من حمل الخطابات معهم، ويوجب تسليمها

١ تنظر ترجمته في: معجم شعراء العامية الحضارمة ص١٢٠.

لمصلحة البريد لتقوم بإيصالها لأصحابها[1]؛ كان أن تقدم عدد من أعيان مدينة الشحر[2] بخطاب مفتوح عبر صحيفة (الطليعة) مطالبين الحكومة بإعفاء مسافري الشحر خاصة من هذا القرار، معللين مطلبهم هذا بسوء الخدمة البريدية بمدينتهم، فالرسائل التي يحملها البريد بين عدن والشحر، كما أفادوا في شكواهم، تصل بعد أسبوع كامل[3]!

وقبل افتتاح مكتب البريد كان الناس يرسلون رسائلهم وخطاباتهم مع المسافرين، أو بوساطة شخص يقال له (المكتب) يتولى حمل الرسائل وإيصالها إلى أصحابها في مدة زمنية قصيرة مقابل أجر زهيد يُدفع له[4].

الهجرة والجوازات:

لا نعلم تحديدًا متى تم افتتاح مكتبي الهجرة والجوازات داخل المدينة في عهد السلطنة القعيطية، كما لا نعلم جميع المسؤولين الذين عملوا في هذا المكتب، إلا أنَّ أشهر من خدم في هذا المجال في عهد السلطنة وما بعدها النقيبُ عبدالله محمد المزجاجي (ت:١٤١١هـ/ ١٩٩٠م)[5]، والضابط سالم سعيد اليزيدي.

---

١ ينظر: صحيفة (الطليعة) الأعداد ٣٢،٣١، ٣٣.

٢ الأعيان المذكورون في ذلك الخطاب هم: أحمد سعيد لرضي، وعلي سلمان شامي، ومحمد سالم بابحير، وعبدالقادر علي باذيب، وأحمد عبدالله باغميان، وسالم عبدالرحمن باجرش، ومحمد عبدالله باعباد.

٣ صحيفة الطليعة العدد ٣٣، الخميس ١٥رجب ١٣٧٩هـ/ ١٤ يناير ١٩٦٠م، ص٧.

٤ البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي (٢/ ١٣٧)، وإنجرامس، تقرير عن الحالة ص٧٦.

٥ تنظر ترجمة له عند: بن بريك، محمد سالم، من بوجمبورا إلى سعاد، ص١٢٣.

المظاهر العلمية والثقافية في المدينة في عهد السلطنة

مدرسة مكارم الأخلاق نموذجًا

من أهم المنجزات التي اهتم بإنشائها الأهالي تأسيس مدرسة (مكارم الأخلاق)[1]، أوَّل صرح تنويري علمي يشيَّد بالمدينة لأبناء كل الطبقات الاجتماعية وعلى أسس حديثة ذات لوائح ونظم إدارية متقدمة[2]، بعد أن كان التعليم السائد تقليديًّا يقوم على تعليم التلاميذ أساسيات القراءة والكتابة وبعض المعارف والعلوم الدينية في أماكن معروفة يطلق عليها المعلامات (الكتاتيب)، أو في حلقات المساجد.

وقد كان لما سُمِّيَ آنذاك بـ(الحزب الوطني) أثر كبير في هذا التأسيس[3]، كما كان للداعية الحضرمي السيد علوي بن عبدالرحمن المشهور أثرٌ ملموسٌ في توعية الناس وحثهم على الإسهام في إقامة هذه المدرسة وإرسال أبنائهم للالتحاق بها، وكذا أسهم رجل الفضل والإحسان المرحوم صالح بكار باشراحيل[4] في توفير الأدوات والأثاث

---

١ لمعرفة المزيد عن هذه المدرسة، ينظر: الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية، ص٣٧٣ ومابعدها، والملاحي، عبدالرحمن، مدخل مدرسة مكارم الأخلاق، جهود أهلية رائدة في سبيل تنمية المجتمع (مخطوط لدي نسخة منه).

٢ ينظر للتفصيل: المصدران السابقان.

٣ ننبه على أن الحزب الوطني هذا ليس حزبًا سياسيًّا، إذ لا توجد أحزاب سياسية في تلك الحقبة، وإنما هو جماعة شبابية من مختلف الطبقات، ذات انتماءات وطنية، تهدف لخدمة البلاد والحفاظ على مصالحها، أطلقت على نفسها هذه التسمية. ينظر: مدرسة مكارم الأخلاق، ثمانون عامًا من الجهد والعطاء ص٢٨-٢٩.

٤ تنظر ترجمته في: مدرسة مكارم الأخلاق، ثمانون عامًا من الجهد والعطاء ص٣٩.

المدرسي على نفقته الخاصة، وقدَّمت السلطنة القعيطية بعد موافقتها على إنشاء هذه المدرسة مساعدةً ماليةً قُدِّرَت بأربعين ريالًا شهريًّا، إلى جانب تبرع السلطان غالب بمبناه غير المكتمل المسمَّى (الباغ) لإقامة المدرسة فيه[1]، وكان هذا قبل بيعه لآل الكاف، أمَّا بقية نفقات المدرسة فتكفَّل بها الأعيان والوجهاء والتجار.

ويتوجب علينا التنبيه هنا إلى أنَّ إنشاء مدرسة حديثة تتجاوز التقليد المتوارث، وتستوعب كل الفئات الاجتماعية، لاقى حينها معارضة شديدة، واستنكارًا كبيرًا، خاصة من قبل بعض أولئك الراغبين في سيادة الجهل والتخلف، واستمرارية تقاليدهم البالية على حساب وعي الشعوب ونهضتها[2]، تمامًا مثلما حدث قبل ذلك حينما تمت محاربة أحد دعاة التنوير الأزهريين في المدينة، وهو الشيخ محمد بن عمر بن سلم[3] (ت:١٣٢٩هـ/ ١٩١١م)، مما اضطرَّه إلى الانتقال إلى مدينة (غيل باوزير) التي احتضنته وفتحت له أبوابها، فاستقرَّ فيها، وأقام بها رباطه المشهور[4].

---

١ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية، ص٤١١-٤١٢. وقد ذكر المؤرخ البطاطي أن السلطان غالبًا، بتأييد من نائبه على لواء الشحر ناصر أحمد بوبك القعيطي، جعل التعليم في هذه المدرسة إجباريًّا على أهالي الشحر. ينظر: إثبات ما ليس بمثبوت ص٢٠. وقد تخرج من هذه المدرسة عدد من الذين قاموا بمهام كبيرة في الدولة القعيطية.

٢ الملاحي، المذكرة التاريخية (مخ) ص١٤٥، ومدرسة مكارم الأخلاق ثمانون عامًا ص٢٧-٢٨.

٣ تنظر ترجمته عند: السقاف، إدام القوت ص١٤٧، وبن سلم، سالم أحمد، مرافئ تربوية، كتاب رقم ٢، صادر عن الإعلام التربوي بمكتب تربية حضرموت المكلا ٢٠٠٧م، والملاحي، المذكرة التاريخية (مخ) ص١٤٦. وصدر حديثًا: كتاب ثلج الفؤاد بالأمن والسلم في ترجمة العلامة بن سلم وتاريخ رباطه للشيخ أحمد بن عمر بارفعة، عني به سامي بن محمد باشكيل، دار تقريب التراث للنشر والتوزيع، حضرموت، ط١، ٢٠١٦م.

٤ عن هذه الأوضاع ينظر: مدرسة مكارم الأخلاق، ثمانون عامًا من الجهد والعطاء ص٢٥.

وبعد كثير من الجدل بين المؤيدين والمعارضين حسم السلطان غالب بن عوض القعيطي النزاع بتأييده للفئات التنويرية الساعية لإقامة هذه المدرسة[1].

وقد تم افتتاح المدرسة يوم الخميس ١٠ صفر ١٣٣٧هـ/ ١٤ نوفمبر ١٩١٨م[2]، بمقرها الأول (الباغ)، وكان أوَّل مدير لها هو السيد أبوبكر بن علوي بن عبدالرحمن المشهور، ثم خلفه على إدارتها السيد محمد الحامد، ثمَّ السيد علوي بن أحمد مديحج، ثمَّ تعاقب على إدارتها عدَّةُ مُديرين.

وفي عام ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م انتقلت هذه المدرسة من (الباغ) إلى (حصن بن عيَّاش) موقتًا، ثم نُقِلَت إلى مقرها الجديد الواقع إلى الغرب من مسجد (باذييب) سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م[3]، بعد أن تبرَّع رجل الخير والإحسان الشيخ سليمان بن عبدالله عفيف بالموقع الذي كان يملكه لإقامة المدرسة عليه. وكان هذا الموقع قبل أن يتحول إلى مدرسة عبارة عن (حوش) وُقِفَ نصفُه لطلبة العلم، وثلثُهُ لفئة من المتصوفة أتباع الطريقة الأحمدية لممارسة طقوس طريقتهم، وهي من طرق التصوف السائدة بالشحر[4].

---

١ تشير بعض المصادر إلى أن وفد الأهالي الذي ذهب لمقابلة السلطان غالب طلباً لموافقته ودعمه لإنشاء هذه المدرسة، كان برئاسة السيد هدَّار محمد الهدَّار. ينظر: الملاحي، عبدالرحمن، مدخل مدرسة مكارم الأخلاق، جهود أهلية رائدة في سبيل تنمية المجتمع (مخطوط) ص٥.

٢ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٢٠. وبعض المراجع تذكر أن الافتتاح كان في شهر ربيع الأول ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م. الملاحي، عبدالرحمن، مدخل مدرسة مكارم الأخلاقص ٦ (مخطوط).

٣ البطاطي، إثبات ما ليس بمثبوت ص٧٨. ومن المحتمل أن تكون سنة ١٣٥٢هـ، خاصة أن تاريخ انتقالها تزامن مع تأسيس نادي الإصلاح الوطني. ينظر: المرجع السابق، والملاحي، المذكرة التاريخية (مخ) ص٨٠.

٤ ذكر المؤرخ أحمد الملاحي أن السلطان صالحًا في نهاية عمره تصوَّف وأخذ الطريقة على السيد محبوب بن محمد بن عبدالقادر الجيلاني المقيم بمدينة الشحر. ينظر: المذكرة التاريخية (مخ) ص٣١٠.

ووُقِفَ الباقي للغرباء (الدراويش)[1]. وكان نائب لواء الشحر آنذاك هو الجمعدار سالم أحمد القعيطي[2]. وظلت المدرسة في هذا المبنى إلى يومنا هذا، وظل هذا المبنى محافظًا على معالمه الفريدة إلى أن أُهمِلَ في العقدين الأخيرين، فتهدَّم الجانب الشمالي منه، ولم تقم الحكومات المتعاقبة بترميمه أو صيانته، وأمسى اليوم مبنًى آيلًا إلى السقوط.

وفي سنة ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م حُوِّلَت هذه المدرسة من إشراف الأهالي عليها إلى إشراف الدولة مباشرة، مع تطبيق المناهج الخاصة بإدارة المعارف، وسُمِّيَت بـ(المدرسة الابتدائية)، وكان هذا في عهد السلطان صالح بن غالب القعيطي[3]. ولمعرفة المزيد عن النظام التعليمي في هذه المدرسة يمكن الرجوع إلى دراسة أعدها الباحث عبدالرحمن الملاحي، عنوانها: (مدخل، مدرسة مكارم الأخلاق الأهلية بالشحر، جهود أهلية رائدة في سبيل تنمية المجتمع (من ١٣٣٧-١٣٥٩هـ/ ١٩١٨-١٩٤٠م)، ولم تنشر هذه الدراسة بعد[4]. كما يمكن الرجوع إلى كتاب (الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي) لمعرفة المزيد عن النظام التعليمي في المدارس الابتدائية في عهد السلطنة في أربعينيات القرن العشرين[5].

---

١ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية ص٧٨. ونلاحظ أن كلمة (الدروايش) تُطلق محليًّا أيضًا على جموع الحجيج القادمين من باكستان في طريقهم للحجاز، وغالبيتهم فقراء، ويمكثون مدة في الشحر قبل مواصلة سفرهم.

٢ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية ص٧٨.

٣ ينظر: الملاحي، عبد الرحمن، مدخل مدرسة مكارم الأخلاق الأهلية بالشحر (مخطوط) ص٧-٨. وعند بن سلم أنَّ تحوُّل نظام الإشراف على المدرسة كان سنة ١٩٤١م. ينظر: مرافئ تربوية ص٤٢.

٤ بحوزة المؤلف نسخة مصورة من هذا المخطوط القيِّم للمؤرخ عبدالرحمن الملاحي. كما احتوت مخطوطة المذكرة التاريخية لعمه المؤرخ أحمد عبدالقادر الملاحي على الكثير من المعلومات في هذا الشأن. وبحوزتي نسخة مصورة من هذه المخطوطة أيضًا.

٥ باوزير، سعيد، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي ص١٩٥.

وقد سبق أن أشرنا إلى زيارة المستر (قريفس) للمدرسة من أجل أن يتعرف على نظامها ومناهجها، كما زارها من قبل آل الدبَّاغ مؤسسو مدرسة (الفلاح) بالمكلا للغرض نفسه، وزارها أيضًا الشيخ محفوظ يسلم بن عبده[1] مفتش السلطنة، والطيب الساسي[2]، وجميعهم أثنوا على هذه المدرسة خيرًا، وأشادوا بها[3].

وفي شهر شوال ١٣٦٦هـ/ أغسطس ١٩٤٧م زار المؤرخ صلاح البكري هذه المدرسة، وكتب عنها قائلًا: ((وتعتبر أكبر مدرسة في الشحر، إذ يبلغ عدد تلاميذها (٢٥٠) تلميذًا، موزَّعين على سبعة فصول، يتولى تعليمهم سبعةٌ من المدرسين، ومعظم الفصول صحية، ولكن تنقصها الأدوات والنظافة والإدارة الحازمة والمعلمون الأكفاء، ومستواها العلمي ليس بأحسن من مستوى مدارس الشرج والقارة وقصيعر، وكانت أهليَّةً ثم ضُمَّت إلى الحكومة))[4].

وهذه المدرسة عبر تاريخها عُرِفَت بتسميات متعددة، فسُمِّيَت أوَّلًا بمدرسة (مكارم الأخلاق)، ثم غُيِّرَ اسمُها إلى (المدرسة الابتدائية) في مطلع أربعينيات القرن العشرين، ثم سُمِّيَت (المدرسة الشرقية) تمييزًا لها عن المدرسة الغربيَّة التي أُنشِئَت سنة ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م، وأُطلِقَ عليها اسم مدرسة (الشهيد باشراحيل) بعد الاستقلال الوطني وفي عهد حكم الحزب الاشتراكي اليمني، وأخيرًا أُعِيدَ لهذه المدرسة اسمها الأول (مكارم الأخلاق) في تاريخ ١٠ شوال ١٤١٥هـ/ ١٢ مارس ١٩٩٥م[5].

---

١ تنظر ترجمته في: مجلة حضرموت الثقافية العدد (٢) أكتوبر-ديسمبر ٢٠١٦م. ص٤٢. من مقال للأستاذ سند بايعشوت.

٢ تنظر ترجمته في: المرجع السابق ص٤٤.

٣ ينظر: الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية (مخ) ص٢٥٨-٢٦٢.

٤ البكري، صلاح، في جنوب الجزيرة العربية ص٧١.

٥ بن سلم، مرافئ تربوية ص٤٣.

المدارس والأربطة والكتاتيب

المدارس:

إنَّ مدرسة (مكارم الأخلاق) ليست المؤسسة التعليمية الأولى بالمدينة، إذ عُرِفَت قبلها مدارس أخرى منها (المدرسة البدريَّة) التي أقامها السلطان بدر بن عبدالله أبو طويرق في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري، وجلب لها معلمين أَكْفَاء كالشيخ علي بن علي بايزيد الدوعني، وهي المدرسة نفسها التي نظنُّ أنَّ القاضي الشيخ ناصر بن صالح بن الشيخ علي بن هرهرة اليافعي (ت:١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م) أعاد إحياءَها بعد اندثارها، في هذا العهد الذي نتحدث عنه، تحت اسم (المدرسة)[١]، وموقعها على مدخل سوق المدينة الرئيس، في الجهة الجنوبية الشرقية من ضريح (الشهداء السبعة). وقد جعل الشيخ ناصر من هذه المدرسة أيضًا مسجدًا للعبادة، وحمل هذا المسجد التسمية نفسها (المدرسة). ويعد الشيخ ناصر أستاذًا للعلامة محمد بن عمر بن سلم (ت:١٣٢٩هـ/ ١٩٠٧م) المعلِّم في مسجد ابن عمران، ثمَّ المؤسس لرباط غيل باوزير[٢].

---

١ ذكر المؤرخ أحمد الملاحي أن هذه المدرسة يُحتمل أن تكون المدرسة نفسها التي كان يدرس فيها العلامة الشهيد أحمد بن عبدالرحمن بافضل، واحتج بأن موقع هذه المدرسة كان خاليًا من البيوت، وهو قريب من الموقع الذي صُرِعَ فيه الشهداء السبعة ودفنوا (ضريح الشهداء السبعة). المذكرة التاريخية ص٢٦٦. ونرى أن هذه الحجة ضعيفة، وما نميل لصحته هو ما أثبتناه.

٢ باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي ص٢٥٩. وعن هذا الرباط ينظر: بن هاوي باوزير، محمد، وبن دحمان، عبدالله، مدينة العرفان غيل باوزير ص٤٨-٤٩. ولتفصيل أكثر ينظر: بارفعة، أحمد بن عمر، ثلج الفؤاد بالأمن والسلم في ترجمة العلامة محمد بن عمر بن سلم وتاريخ رباطه الشهير بالتعليم والعلم.

ولا ننس كذلك الأثر التنويري لمسجد (الجامع) بوصفِهِ مؤسسةً تعليميةً منذ تأسيسه إلى تضاؤل وهجه وخفوت صيته في نهاية العقدين الأخيرين من القرن العشرين.

ولا نملك من المعلومات عن هذين الصرحين (المدرسة والجامع) بوصفِهِما مؤسستين تعليميتين ما يكفي لرسم صورةٍ واضحة المعالم لأنظمتهما التعليمية أو نوعية الدروس العلمية التي كانت تُدرَّس فيهما، ولكن بما أنَّهما في الأساس مكانان للعبادة (مسجد، جامع) فلا بد من أن تشتمل علومهما في المقام الأول على العلوم الدينية والشرعية، ولعلها تستهدف فئات الشباب والرجال، وإلا لأصبح حالها حال بقية الكتاتيب (العُلم) وحلقات الدروس المنتشرة في الكثير من مساجد المدينة، وهي التي يسميها بعضهم بـ(الحزب) أو (الحلقة) والتي تُخصَّص لتعليم الأطفال التجويد والتلاوة وحفظ السور وأحكام الصلاة إلخ.

الأفكار الإصلاحية لهذين الصرحين (المدرسة/الجامع):

في بداية القرن العشرين سادت المنطقة مفاهيم النهضة الحضرمية وبحث السبل التي من شأنها انتشال الحضارمة من واقعهم السيئ المتردي، كما سادت بالمنطقة أيضًا مفاهيم الهوية والأصالة مقابل مفاهيم المعاصرة والاندماج، إلى جانب مفاهيم المساواة والإخاء الاجتماعي وغيرها.

وكان المنشأ الأول لهذه الأفكار التحديثية هو المهجر الإندونيسي، إذ ظهرت ثَمَّ عدد من الحركات والجمعيات الحضرمية[1] التي تبنت ذلك الحراك الثقافي والفكري التنويري

١ من تلك الجمعيات: (جمعية خير ١٩٠٣م)، (الجمعية الخيرية ١٩١٠م)، (الجمعية العربية الإسلامية ١٩١٢م)، (جمعية الإصلاح والإرشاد ١٩١٤م)، (الجمعية اليافعية ١٩٢٥م)، (جمعية الرابطة العلوية ١٩٢٨م)، (الوحدة العربية ١٩٢٩م). ينظر: الجعيدي، في رحاب تاريخ حضرموت ص٤٢، والأوضاع الاجتماعية والثقافية ص١٨٠.

وآلية تطبيق الإصلاحات الهادفة إلى بناء الوطن الأم (حضرموت) وتحديثها، وقد تلا ذلك الحراك جدلٌ فكريٌّ وصراعٌ ثقافيٌّ بين الحضارمة أنفسهم ألقى بظلاله على البلاد والعباد، إذ انقسم الحضارمة في الوطن من الناحية العقدية والفكرية إلى دعاة للتحرر من التقليد والجمود، وهم المتأثرون ببعض الأفكار التنويرية الوافدة من المهجر الإندونيسي أو من مصر العروبة، وبأفكار الحركة الإرشادية[1]، وإلى دعاة التمسك بالماضي وإرث الأجداد، المتأثرين بأفكار الرابطة العلوية.

وبدأ في تلك الحقبة تغلغل أفكار الدعوة الوهابية الثائرة على النظم والتقاليد الدينية السائدة بعد أن أضحت أفكارها تلاقي انتشارًا وصدًى وقبولًا بين بعض الناس، إلا أنَّ ظهورها بوضوح كان في نهاية عهد السلطان عوض بن صالح القعيطي، حين قويت شوكة أنصار التيار الوهَّابي وارتفعت أصواتهم في المساجد، وأصبحت أفكارهم تنتقل من الجانب النظري إلى التطبيق العملي، إذ قاموا في المدينة بتكسير بعض القبور وإحراق بعضها[2].

ولا ندري من الذي تزعَّم تلك الاتجاهات المتباينة داخل المدينة؛ لعدم المعلومات الكافية عنها، ولكن يمكننا أن نشير إلى أسماء بعض روَّاد التنوير في المدينة، ومعظمهم كانوا طلابًا بمدرسة مكارم الأخلاق، ثُمَّ أصبحوا معلمين فيها وفي غيرها من مدارس السلطنة، منهم الشيخ عوض مطران قرينون، وعقيل سعيد بن إسحاق، وسالم أحمد بن سلم، وخميس كرامة حمدان، وعمر سعيد باغزال، وعلي عبيد النوبي، وحسن عمر بن سلم،

١ ينظر عنها: الجعيدي، عبدالله، الأوضاع الاجتماعية ص١٨١. وقد صدر لهذه الجمعية نشرة بعنوان: (هذا بيان للناس)، فيها ذكر لشيء من أخبارها وأخبار الصراع الذي نشب بينها وبين الرابطة العلوية.

٢ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية (مخ) ص١٠٦، ٣١١.

وسالم سعيد منصور (صديق الكتاب)، ومحمد عوض حميدان (عشار)، وعوض أحمد حميدان (المعلم)، ومحمد محفوظ باخميس، وعلي محمد سواد، وعبدالله محمد باداؤد، وصالح سعيد القارة، وعلي سعيد السعيدي[1].

وخلاصة القول أنَّه يمكننا افتراضًا تصنيف مسجد (المدرسة) مع الاتجاه (الإرشادي)[2]، وتصنيف مسجد (الجامع) مع الاتجاه الآخر (المحافظ). وللعلم فإنَّ مدرسة الشيخ ناصر هذه، كما أشار المؤرخ أحمد الملاحي، قد خلت من الطلبة وأصبحت مسجدًا فقط، بعد وفاة شيخها سنة (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م)[3]، أي قبل الإعلان عن تأسيس الحركة الإرشادية بنحو ثلاثة عقود، لكنَّ هذا لا يمنع من تبني المدرسة لأفكار تتوافق مع ما تبنته لاحقًا الحركة الإرشادية، فالأفكار لا تموت بموت أصحابها، ولا تخمد بتكميم أفواه دعاتها، ولعل أصداءَها قد انتقلت بعيدًا، وأسهمت في بلورة فكر الحركة الإرشادية.

وعلى العموم فإنَّ هذه الحقبة تحديدًا بحاجة ماسَّة إلى مزيدٍ من الدراسة والبحث، إذ لا تزال يشوبها بعض اللبس والغموض.

وأمَّا المدارس الثانوية التي كانت تُشكِّل مرحلةً متقدمةً من التعليم، فقد أُنشِئَت أَوَّلُ ثانوية للبنين بالمدينة سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، وكان موقعها عند افتتاحها بـ(دار

١ بناء على رواية للأستاذ الباحث عبدالله صالح حداد.

٢ يلاحظ أن أعضاء الجمعية اليافعية الموجودين في جاوة سنغافورا، والتي بلغ عدد أعضائها آنذاك نحو ثلاثمائة، كانوا أجمعون في حزب الإرشاد، باستثناء خمسة منهم. ينظر: بن علي الحاج، عهد عوض بن عمر، ص١٦٥. وهذا يُرجِّح أن تكون المدرسة التي أسسها الشيخ ناصر بن هرهرة اليافعي تتبنَّى فكر هذا الاتجاه.

٣ الملاحي، المذكرة التاريخية (مخ) ص٢٦٦.

ناصر)، ثم انتقلت إلى (حصن بن عياش)، لتستقر في النهاية بمبنى الباغ سنة ١٩٧٢-١٩٧٣م، وكان أوَّلُ مديرٍ لها هو الأستاذ والأديب والشاعر محمد عوض حميدان عشار (١٣٤٢-١٤٠٥هـ/ ١٩٢٣-١٩٨٤م)[١]، ثم تعاقب على إدارتها عدد من المديرين[٢].

الأربطة والزوايا

رباط المصطفى بالشحر:

تأسس هذا الرباط على يد الشيخ السيِّد عبدالله بن عبدالرحمن بن محمد بن الشيخ أبي بكر بن سالم (ت:١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م)[٣]، وهو من أشهر الأربطة والمعاهد الدينية التي عرفتها مدينة الشحر، وقد تم افتتاحه مطلع سنة ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م، ويُعدُّ بحقٍّ منارةً للعلم يقصده الطلاب من مختلف الأعمار للنهل من معين علومه.

وقد عمل هذا الرباط منذ تأسيسه على استقطاب طلاب العلم من مدينة الشحر ومن المناطق المجاورة لها، ولشهرته وذيوع صيته أقبل إليه طلاب العلم من خارج القُطر الحضرمي، من بلدان جنوب شرق آسيا في الغالب، وبعض بلدان شرق إفريقيا.

وأهمُّ العلوم التي تدرس فيه هي علوم التوحيد والفقه الشافعي، إلى جانب علوم اللغة كالنحو والبلاغة، فضلًا عن علوم التصوف وغيرها.

---

١ تنظر ترجمته في: مدرسة مكارم الأخلاق ثمانون عامًا من الجهد والعطاء ص٤٨.

٢ من هؤلاء: الدكتور أحمد محمد بن بريك، والأستاذ محمد عمر باموسى، والأستاذ جمعان باضريس، والأستاذ محمد سالم بن سلم، والأستاذ وليد صياد، والأستاذ محمد علي العماري.

٣ تنظر: ترجمته، مدرسة مكارم الأخلاق ثمانون عامًا من الجهد والعطاء ص٣٧-٣٨، وبن سلم، سالم أحمد، مرافئ تربوية ص١٩-٢٢، وبن بريك، محمد، من بوجمبورا إلى سعاد ص١١٥.

وبهذا المعهد مكتبة رائعة، فاتحة أبوابها لطلاب المعهد، تحتوي على آلاف الكتب المخطوطة والمطبوعة.

وبالرغم من أنَّ هذا الرباط مؤسسة أهلية، لها مناهجها وبرامجها الخاصة بها، تذكر بعض المراجع أنَّه مؤسسة حكومية[1]. وهذا مخالف للواقع.

وما يزال هذا المعهد يؤدي رسالته، بعد أن توقف نشاطه قرابة العقدين من الزمان (مدة السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين)؛ لأسباب سياسية، ليعود بعدها إلى نشاطه التعليمي بوتيرة أعلى، وهمة أكبر. وهو الآن تحت إشراف الداعية السيِّد عمر بن محمد بن حفيظ.

ومن أشهر مَنْ علَّمَ في هذا الرباط الشيخ عبدالكريم بن عبدالقادر الملاحي (ت: ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)[2].

وربَّما لا يكون هذا الرباط هو الأول من نوعه في المدينة، إذ عرفت المدينة خلال تاريخها أربطة أخرى كرباط بن جوبان، ورباط الشيخ فضل بافضل. إلا أننا لا نملك الكثير من المعلومات عن تلك الأربطة، مقابلةً بهذا الرباط. كما عرفت المدينة في تاريخها الوسيط عددًا من الزوايا: منها: زاوية باغشير، وزاوية باهارون، وزاوية باعديلة، وزاوية باهير. وفي عهد السلطنة القعيطية وُجدت زاوية عُرِفَتْ بـ(الزاوية الأحمدية)، وكان مقرها في العقد الأوَّل من القرن العشرين بالمبنى الذي أُقِيمَت فيه لاحقًا مدرسة مكارم الأخلاق، ثم انتقلت هذه الزاوية إلى مبناها الآخر الواقع على بُعد عشرات الأمتار جهة الشمال

١ حمدان، عهد السلطان صالح بن غالب القعيطي ص٨٣.

٢ تنظر ترجمته في: مدرسة مكارم الأخلاق ثمانون عامًا من الجهد والعطاء ص٤٤.

الشرقي من المدرسة. وما تزال هذه الزاوية عامرةً بالمريدين والأتباع، وتُقام بها عدد من الحضرات وجلسات السماع، ومريدو هذه الزاوية يتبعون الطريقة (الأحمدية) في التصوف[1].

الكتاتيب (العُلُم):

عرفت مدينة الشحر خلال تاريخها عددًا من العُلم (الكتاتيب)[2] الخاصة بتعليم الصبيان مبادئ القراءة والكتابة والحساب، وتعليمهم الصلاة والتلاوة مع حفظ قصار السور، إلى جانب بعض المعارف الدينية[3].

وتقع هذه الكتاتيب ببعض البيوت المنتشرة في مختلف أحياء الشحر القديمة التي وقفها أصحابها لهذه الغاية النبيلة، وكانت هذه الكتاتيب أكثر انتشارًا قبل افتتاح المدارس الأهلية والحكومية. وفي الخمسينيات من القرن العشرين اقتصرت هذه الكتاتيب على تعليم الفتيات، وبعضها اتَّجه لتعليم النساء لمحو أُمِّيَّتهن.

وكان تعليم الصبيان في هذه الكتاتيب يتم مقابل أجر زهيد يُدفَع للمؤدِّب صباحَ كل يوم خميس، وفي المثل الشعبي: (المعلم في خميسه). ويطلق على هذا المؤدِّب اسم (المُعلِّم)، بينما يُطلق اسم (الأستاذ) على المدرِّس في المدارس الحكومية. وبحسب التقليد الذي كان متَّبَعًا في الكتاتيب يذهب وليُّ أمر التلميذ بابنه للمعلم في المرة الأولى ويخاطبه

١ تنسب الطريقة الأحمدية إلى الصوفي أحمد البدوي (ت: ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م). وبخلاف بقية مناطق اليمن التي عرفت طرق التصوف الكبرى كالقادرية والرفاعية والسهروردية والنقشبندية، فإن الطريقة التي سادت بالشحر هي الأحمدية. ينظر: الحبشي، عبدالله، الصوفية والفقهاء في اليمن ص٣٥.

٢ للمزيد عن هذه العُلم ونظامها يمكن الرجوع إلى: الملاحي، المذكرة التاريخية (مخ) ص٣٦٣.

٣ الملاحي، المذكرة التاريخية (مخ) ص١٤٣.

بالقول: ((إنّي أخرجتُه من ذمتي إلى ذمتك))، و((هات لي العظم وخذ اللحم))[1]. ويعني هذا القول تفويض ولي الأمر لهذا المعلم ليقوم بكل ما يراه مناسبًا في تعليم ابنه وتأديبه، ولو اضطر إلى استعمال الضرب، فلا يعترض الأب ولا يتدخل.

ومن أشهر الكتاتيب التي وصلتنا أسماؤها: (عُلمة بن صنيف) بحارة المحط، و(عُلمة فطحان) وموقعها جوار ضريح الشهداء السبعة، و(عُلمة عمر صالح بن منيف) التي تُعرف بـ(عُلمة القصيّر) وموقعها على مدخل سوق شبام بالقرب من مشهد الولي باعوين، و(علمة عبيد مبارك هلال)، و(عُلمة سالم سعيد بن حسينون)، و(عُلمة باجبع)، و(عُلمة عوض حميدان)، و(عُلمة عوض باحضرمي) بحارة العيدروس بعقل باعوين،و(عُلمة باقنانة)، و(عُلمة بن نويصر)، و(عُلمة باسويد)، و(عُلمة سالم عوض باصالح)، و(عُلمة بن سرور) بجوار مسجد الغالبي.

وأمّا الكتاتيب الخاصة بتعليم الفتيات، فمنها عُلمة السيدة (بخيتة بنت سالم السعيدي)، وهي من أوائل المعلمات في المدرسة النظامية، وعُلمة السيدة (نور مدية) المنسوبة إلى السيدة (نور بنت مبارك مدي)، وموقعها بمنزلها القديم بجوار مسجد (بن أحمد) بحارة عمرو، و(عُلمة صالحيَّة) المنسوبة إلى السيدة (نور بنت عمر باصالح)، وموقعها بحارة عيديد، و(عُلمة محروسة) المنسوبة إلى السيدة (نور بنت محمد محروس)، وموقعها بحارة المجورة. وأقدم هذه العُلُم هي عُلمة السيدة (ربيعة بنت سليمان بن سيف بن راشد الجساسية)[2] والدة الشيخين الجليلين عبد الكريم وأحمد ابنَيْ الشيخ عبدالقادر الملاحي.

١ الملاحي، المذكرة التاريخية ص٣٦٤.

٢ للمزيد عن هذه المعلمة الفاضلة تُنظر ترجمة ابنها المؤرخ أحمد الملاحي لها، في مؤلفه (المذكرة التاريخية (مخطوط) ص١٩٢.

هذا وافتتحت سنة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م أوَّل مدرسة حكومية لتعليم الفتيات بمدينة الشحر، وهي مدرسة وسطى، وكان أوَّلُ مديرٍ لها فتاةٌ فلسطينيةٌ لاجئةٌ بالأردن، تُدعى (نهاية)، وقد وصفها المؤرخ أحمد الملاحي بأنَّها ((مُصِرَّةٌ على أن تبقى متبرجة كعادتها في الأردن))[1].

المدارس الحديثة في المدينة:

إلى جانب مدرسة مكارم الأخلاق التي أصبحت الدولة تتولى شؤونها وترعاها في مطلع أربعينيات القرن الماضي، أُنشِئَت المدرسة الغربيَّة سنة ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م[2]، وقد زارها المؤرخ صلاح البكري عام ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م، وكتب عنها قائلًا: ((المدرسة الغربية، وتقع على مقربة من القصر السلطاني، وتتكون من أربعة فصول وأربعة مدرسين نشطين، يحاولون بكل ما لديهم من مقدرة تطبيق روح التجديد في التعليم))[3].

وفي سنة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م أُسِّسَت أوَّلُ مدرسةٍ حكوميةٍ للتعليم الابتدائي خاصةٍ بالبنات. وفي سنة (١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م) افتُتِحَت المدرسة (الوسطى) بالباغ[4]، بعد أن نُقِلَت منه مدرسة مكارم الأخلاق (الشرقية) إلى مبناها الحالي. وفي سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م أُنشِئَت مدرسةٌ ابتدائيةٌ في حارة المحط.

---

١ المرجع السابق ص٢٠٧.

٢ باحمدان، عهد السلطان غالب ص٨٣.

٣ البكري، في جنوب الجزيرة العربية ص٧١.

٤ باوزير، الفكر والثقافة ص١٩٣، والملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية ص١٠٥، ص٧٨.

وورد في كتاب (أدوار التاريخ الحضرمي) أنَّ عدد المدارس الابتدائية بلواء الشحر في ما بين عامي (١٣٨٥-١٣٨٦هـ/ ١٩٦٥-١٩٦٦م) نحو ثماني عشرة مدرسة، منها مدرستان للإناث، وأمَّا المدارس المتوسطة في تلك المدة فكانت ثلاث مدارس للبنين وواحدة للإناث[1]. ومن المؤسف عدم توفر إحصاءات رسمية تفيدنا في تتبع تطور العملية التعليمية بالمدينة، خلال تلك العقود السابقة.

ووفقًا لإحصاء سنة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م فقد بلغ إجمالي عدد مدارس المديرية خمسًا وثلاثين مدرسة، منها أربع مدارس ثانوية، وإحدى وثلاثون مدرسة للتعليم الأساسي. وبلغ إجمالي القوة الوظيفية بالمديرية ألفًا وتسعةً وخمسين موظفًا، وإجمالي عدد الطلاب (١٥٠٩٤) طالبًا، منهم (١٣٦٤٢) طالبًا في مرحلة التعليم الأساسي، و(١٤٥٢) طالبًا في مرحلة التعليم الثانوي. وبلغ عدد الأطفال المسجلين بروضة ١٤ أكتوبر (٦٠٧) طلاب، وبها ثلاثةٌ وثلاثون مربيًا ومربيةً[2].

١ الشاطري، محمد بن أحمد، أدوار التاريخ الحضرمي ص٤٣٠-٤٣١. ولمعرفة المزيد عن واقع التعليم بالمحافظة خلال الأعوام من ١٩٤٠ – ١٩٥٠ ينظر: باوزير، سعيد عوض، الفكر والثقافة ص١٩٠ – ٢١٥.

٢ صحيفة التربوي العدد (٧)، أبريل ٢٠٠٧م، الصادرة عن مكتب التربية والتعليم بمديرية الشحر / محافظة حضرموت ص٢٠.

وهذه قائمة بالمدارس التي تأسست في المدينة/المديرية. خلال القرن العشرين.

اسم المدرسة	الموقع / المنطقة	سنة التأسيس	اسم المدرسة	الموقع / المنطقة	سنة التأسيس
مدرسة مكارم الأخلاق	الشحر/ باعوين	١٩١٨م	مدرسة الجلاء	الزعبلي/ الشحر	١٩٨١م
مدرسة الهدى	الحامي	١٩٣٣م	مدرسة الفقيد بامعرفة	حي المحط/ الشحر	١٩٨١م
			مدرسة النور	الواسط	١٩٨٥م
مدرسة السلام	الشحر/ السوق	١٩٥٩م	مدرسة معاذ بن جبل	المعدي	١٩٨٨م
مدرسة الإمام الشافعي	المعيان	١٩٦٥م	ثانوية البنات بالحامي	الحامي	١٩٩٢م
ثانوية محمد بامطرف	الشحر/ باعوين	١٩٦٦م	مدرسة ابن رشد	حي ليبيا/ الشحر	١٩٩٢م
مدرسة صلاح الدين	الحامي	١٩٦٦م	مدرسة ابن خلدون	زغفة	١٩٩٢م
مدرسة سعيد بن المسيب	عرف	١٩٦٧م	مدرسة زيد بن ثابت	الحقلة	١٩٩٤م
مدرسة ٢٢ مايو	المقد	١٩٧٢م	ثانوية الملّاح باطايع	الحامي	٢٠٠٠م

اسم المدرسة	الموقع / المنطقة	سنة التأسيس	اسم المدرسة	الموقع / المنطقة	سنة التأسيس
مدرسة الإمام الشوكاني	البرح	١٩٧٢م	مدرسة الملاحي	الرملة	٢٠٠٠م
مدرسة ابن الهيثم	تبالة	١٩٧٢م	مدرسة المنصوري	طمحة	٢٠٠١م
مدرسة طارق بن زياد	العيص	١٩٧٣م	مدرسة أبي بكر الصديق	حرحير	٢٠٠٣م
ثانوية باحسن للبنات	الشحر	١٩٧٤م	مدرسة الفقيد بافضل	١٤٠ شقه	
مدرسة عمرو بن العاص	الغربية / الشحر	١٩٧٥م	مدرسة الفقيد مصاقع	المنصورة / الشحر	٢٠٠٧م
مدرسة وائل بن حجر	حقب	١٩٧٩م	مدرسة النوبان	١٨٠ شقة	٢٠٠٨م

المصدر: مكتب إدارة التربية والتعليم م / الشحر



صورة حديثة لمدرسة مكارم الأخلاق، ويظهر فيها عام التأسيس ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م



صورة أمامية لمدرسة مكارم الأخلاق في مطلع تسعينيات القرن العشرين

المكتبات:

عرفت مدينة الشحر عدَّةً من المكتبات التي وُقِفَت على طلاب العلم على اختلاف مستوياتهم الثقافية والتعليمية (من دون نظام الإعارة)، ولعل أشهرها مكتبة مسجد الجامع، ومكتبة (المدرسة البدرية) التي أسسها السلطان بدر بن عبدالله الكثيري الملقب بـأبي طويرق، كما احتوى مسجد (المدرسة) على مكتبة ضمت أمَّهات الكتب آنذاك، وَقَفَها الشيخُ ناصر بن هرهرة على طلاب العلم.

وعندما افتتحت مؤسسة الرباط التعليمية وَقَفَ عليها مؤسسُها السيد عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ أبي بكر مكتبةً ضمَّت المئات من الكتب في شتى فروع المعرفة، وخُصِّصَت لطلاب الرباط.

كما وجدت بالمدينة عدد من المكتبات الصغيرة بمنازل بعض الفقهاء، أو الشخصيات الاجتماعية من الوجهاء والأعيان، وكثير من هؤلاء لم يبخلوا على أحد بالاستفادة من محتوى مكتباتهم، ولعلَّ من أشهر هذه المكتبات الشخصية مكتبةُ الفقيه والمحدِّث الشيخ أحمد المصري باشميلة، ومكتبة قاضي المدينة الشيخ أحمد عوض المصلِّي[1]، ومكتبة الشيخ الوجيه صالح بكار باشراحيل، ومكتبة نائب لواء الشحر عبدالخالق البطاطي، ومكتبة وزير السلطنة عبدالرحمن بازرقان، ومكتبة الفاضل عبدالرحمن بن أحمد البيض[2] صاحب مسجد (بن أحمد) بحافة عمرو.

١ بن سلم، أحمد، مرافئ تربوية ص٣٧.

٢ له ترجمة عند: حداد، عبدالله، معجم شعراء العامية الحضارمة ص١٥٧.

المكتبة السلطانية بالشحر:

في سنة (١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م) افتتح السلطان صالح بن غالب القعيطي في مدينة الشحر فرعًا لمكتبته السلطانية التي افتتحها في المكلا، وقد ضمَّت في البداية ثمانمائة مجلد[١]، وأراد السلطان أن تكون على غرار المكتبة السلطانية التي أنشأها في المكلا، غير أنَّ الفارق كبير بين المكتبتين من حيث عدد الكتب، ومن حيث المساحة، فضلًا عن المبنى والتأثيث.

وكان أوَّلُ مَنْ تولى أمانتها هو الأستاذ علي سعيد سرور السعيدي[٢]، وتولى إدارتها الأستاذ عبدالله صالح بن عثمان، يساعده الأستاذ صالح عبدالقوي بن جحنون[٣]. وكان موقع هذه المكتبة إلى الجنوب الغربي من سوق شبام، بالطابق العلوي للعمارة المشهورة باسم (السيت) بوسط السوق الشعبي[٤].

---

١ باوزير، الفكر والثقافة ص٢١٩، وباحمدان، عهد السلطان غالب مرجع سابق ص٨٧.

٢ تنظر ترجمته في: مدرسة مكارم الأخلاق ص٥٣.

٣ أورد الباحث محمد باحمدان (في: عهد السلطان صالح ص٨٧) خبرًا آخر يفيد تأسيس هذه المكتبة سنة ١٩٤٤م، وأن أول أمين لها هو الأستاذ عبدالله بن عثمان. وكلا المعلومتين وهم، والصحيح ما أثبتناه. وللأستاذ الباحث عبدالله حداد بحث مفصل عن هذه المكتبة قيد الإعداد، اطَّلعت على بعض منه.

٤ عمارة السيت: من العمارات القديمة المشهورة بالمدينة، كان يقيم بها التاجر المعروف عبدالله جعفر وكيل التاجر الهندي (حاج لالا)، وتقع العمارة في وسط السوق، وما زال بعض بنيانها قائمًا، وجُدِّد الكثير منه، وفي إحدى غرفها يقع مقر نادي الاتحاد الثقافي الرياضي. وبطابقها السفلي كانت توجد دكاكين الحلاقين، وفي الجانب الشرقي منها دكاكين المواد الغذائية. وبعد الاستقلال أصبحت هذه العمارة مقرًّا لمكتب العمال، ومكتب اتحاد الشباب (أشيد). وفي بعض المراجع أن شاعر الأغنية العامية مبارك عوض الكلالي اشترى عمارة السيت هذه من مُلاكها. تنظر ترجمة الشاعر الكلالي عند: حداد، عبدالله، معجم شعراء العامية الحضارمة ص٢٨٧. =

وقد زار المكتبة المؤرخ صلاح البكري في شوال ١٣٦٦هـ/ أغسطس ١٩٤٧م وكتب عنها يقول: ((وزرتُ المكتبة السلطانية التي أنشأها عظمة السلطان، وهي في أشد الحاجة إلى المساعدة الأدبية، وقد أهديتها نسخةً من كتابي "تاريخ حضرموت السياسي"))[١].

وأمَّا المكتبات التي تبيع الكتب والمواد القرطاسية فأوَّلُها ظهورًا في المدينة هي مكتبة الشيخ محمد أحمد بن سلم، وموقعها بدُكَّان والده بسوق شبام[٢]. وعدَّها بعضُهم الأُوْلى على مستوى حضرموت، إلا أنَّنا لا نعلم تحديدًا تاريخ افتتاحها. وهناك أيضًا مكتبة (قرطاسية) الشيخ سالم هلال الحبشي، وموقعها حاليًّا دُكَّان الهندوان على المدخل الجنوبي الغربي لسوق شبام، وهذه المكتبة كانت فرعًا للمكتبة الوطنية بالمكلا التي كان يملكها الأستاذ أحمد حدَّاد، وهو أيضًا من أبناء مدينة الشحر. ومن المكتبات في ذلك العهد مكتبة الثقافة للشيخ حسن محمد العمَّاري بالقرب من مسجد الغالبي، ومكتبة الشيخ طه علي الأرضي.

=وقد زار هذه العمارة الرحالة (فلبي) في أثناء زيارته للمدينة سنة ١٩٣٦م، وكتب عنها يقول: ((لقد خُصِّصَ الطابقان الأرضي والأول لمؤسسة عبدالله جعفر كمكاتب للأعداد الكبيرة من الكَتَبَة والموظفين الذين يعملون في المؤسسة، أمَّا حسابات وسجلات المؤسسة فهي محفوظة في قوجراتي. أمَّا الطابق العلوي والذي خصص لأسرة عبدالله جعفر فتبدو عليه آثار النعمة والبهجة)). بنات سبأ ص٣١١-٣١٢.

١ البكري،صلاح، في جنوب الجزيرة العربية ص٥٩.

٢ بن سلم، أحمد، مرافئ تربوية ص٣٦.

الأنشطة الاجتماعية والثقافية والرياضية في عهد السلطنة

إنشاء المجالس الأهلية:

عرفت المدينة عددًا من المجالس الأهلية التي تهتم بتقديم الخدمات والتسهيلات للمواطنين في الجوانب الخدميَّة كافَّةً، من خلال متابعتها السلطات القائمة لإنجاز المشاريع وفقًا لاحتياجات المدينة، أو من خلال مساعيها في جمع التبرعات من التجار وغيرهم، وصرفها في مجالات خدمة المجتمع.

وقد أشرنا سابقًا إلى بعض إسهامات ما عُرِفَ بـ(الحزب الوطني)[1]، وهو ليس حزبًا بالمعنى السياسي، وإنَّما هو جماعة شبابية من مختلف الطبقات المجتمعية، لها انتماءات وطنية، جمعها حبُّ البلاد وخدمتها ورعاية مصالحها، وأطلقت هذه الجماعة على نفسها هذه التسمية، وهي بمفهومنا تقترب كثيرًا من مفهوم منظمات المجتمع المدني، ومن المجالس الأهلية التي تهتم بمتابعة المشاريع المتعثرة لدى الحكومة، أو جمع التبرعات من أجل تحسين الخدمات داخل المدينة، فضلًا عن السعي في إصلاح ذات البين، ومعالجة المشاكل الاجتماعية، كالمغالاة في المهور وارتفاع تكاليف الزواج، والهجرة وغيرها. وقد قام على إثر الحزب الوطني ما عُرِفَ لاحقًا بـ(المجلس البلدي)، وهو يتقارب كثيرًا مع ما نطلق عليه حاليًّا (المجلس المحلي).

١ ينظر: مدرسة مكارم الأخلاق ثمانون عامًا من الجهد والعطاء ص٢٨-٢٩.

وللمجلس البلدي إسهامات كثيرة في متابعة الكثير من المشاريع الخدمية في البلد وإنشائها، بالتعاون مع السلطات الحاكمة. وأشهر مؤسسي هذا المجلس الشيخ صالح بكَّار باشراحيل، وهو ممَّن تولى إدارته أيضًا[1].

وقد تحدث المؤرخ أحمد الملاحي عن بعض هذه المجالس البلدية بحضرموت، ولكن بنوع من التهكم والاستخفاف متهمًا أعضاءَها بالفساد واستغلال مراكزهم، وكان حديثه عن المجلس البلدي بغيل باوزير، التي عاش مدة من حياته فيها ومات فيها، وبالمقابل أنصف المجلس البلدي الشحري، وأشاد بجهود رئيسه نائب لواء الشحر آنذاك الشيخ عبدالخالق البطاطي[2]. ولكنَّ المجلس الشحري لم يسلم لاحقًا من الاتهامات، لا سيما بعد أن أصبح يعتمد في تمويل مشاريعه على جباية الضرائب من المواطنين، بدلًا من متابعة السلطة لتتكفل بتنفيذ المشاريع. ولعلَّ هذا هو ما دفع الشيخ (صالح بكَّار) إلى تقديم استقالته من عضوية هذا المجلس ومن لجنته المسماة بالخيرية سنة (١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م)[3].

---

١ تنظر ترجمته في: مدرسة مكارم الأخلاق ثمانون عامًا من الجهد والعطاء ص٣٩.

٢ المذكرة التاريخية (مخ) ص١٥٩.

٣ ذكرت صحيفة الطليعة في عددها (١٤) الصادر في الخميس ٢٩ صفر ١٣٧٩هـ/ ٣سبتمبر ١٩٥٩م ص٤، أنَّ المجلس البلدي بالشحر قد ((فرض ضرائب جديدة، ففي ما يتعلق بالخيرية فرضت ضريبة تقدر بـ(٦٠) سنتًا على كل طرد يصل من المكلا برًّا أو بحرًا، كما فرضت ضريبة أخرى على البيوت تقدر بشلن واحد لذوي الدخل المتوسط، أما ذوو الدخل المرتفع فيؤخذ عليهم شلنان عن كل بيت. وفرضت ضريبة ثالثة على كل دراجة (سيكل) وقدرها ستة شلنات في السنة. ومما يذكر أنَّ المجلس ينوي القيام بعدة مشاريع منها تعميم مياه الشرب بانشاء عدة (جوابي) جديدة وملاعب للأطفال وحديقة عامة ونظافة المدينة، والمساهمة في إنارة المدينة بالكهرباء. وقد بدأ المجلس البلدي هذه المشروعات بجلب سيارة نقل الأوساخ)). وفيها أيضًا:=

ومن إنجازات المجلس البلدي في الجانب الرياضي بناؤه للملعب الرسمي الوحيد بالمدينة على الشارع العام (شمال سدة العيدروس)، وسُمِّيَ بـ(الملعب البلدي)[1]، وغُيِّرَ اسمه لاحقًا إلى ملعب (الفقيد الشاحت)، إلا أنَّ العامة إلى اليوم يطلقون عليه اسمه الأوَّل (الملعب البلدي)؛ امتنانًا لما قدَّمه للمدينة ذلك المجلس.

وأمَّا الأندية الاجتماعية والثقافية والرياضية، ففي سنة (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م) أُنشِئَ أوَّل نادٍ اجتماعي ثقافي رياضي بالمدينة، وهو (نادي الإصلاح الوطني)، برعاية نائب الشحر سالم أحمد القعيطي، وبرئاسة السيِّد عبدالقادر بن أحمد بن شيخ بافقيه، والد الباحث الدكتور محمد عبدالقادر بافقيه، وبعضوية السيِّد عبدالرزاق محمد باذيب، والد المفكر والسياسي علي عبدالرزاق باذيب (ت:١٤١١هـ/ ١٩٩١م) وأخيه عبدالله (ت: ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م).

وكان صاحب فكرة إنشاء النادي هو الكاتب ناجي سالم بن بريك. وقد افتُتِحَ النادي في البدء بمنزل الأستاذ محمد عمر باصالح. وكان من أعضائه البارزين الشيخ صالح بكَّار باشراحيل. ولم يستمر نشاط هذا النادي طويلًا، خاصة بعد أن تركه مؤسِّسُهُ بافقيه وعضوُهُ النَّشِطُ باذيب؛ بسبب انتقالهما للإقامة في العاصمة المكلا مرافقَيْن

=((وقدم الشيخ صالح بكار باشراحيل استقالته من لجنة الخيرية بالشحر، كما قدَّم استقالته من عضوية المجلس البلدي، والمعروف أنَّ الشيخ صالح بكار قدَّم عدَّة خدمات للبلاد، كما يعتبر من الأعضاء المؤسسين للخيرية والبلدي)). وفي فقرة أخرى في الصفحة نفسها: ((انتشرت بالشحر الكلاب، وقد أهلكت نتيجة لما قامت به من هجمات ما يقرب من خمسة عشر رأسًا من الغنم. ويقوم المسئولون بإبادة جميع الكلاب بواسطة التسميم)).

١ افتتح النادي بعهد نائب لواء الشحر الشيخ علي محفوظ بن بريك.

للنائب سالم أحمدالقعيطي، بعد أن عُيِّنَ حينها وزيرًا للسلطنة خلفًا لأبي بكر بن حسين بن حامد المحضار[1].

وقد تأسست بالمدينة أيضًا عددٌ من الجمعيات منها جمعية المواساة اليافعية في أربعينيات القرن العشرين[2].

الجمعية الخيرية:

هي جمعية أهلية أُنشِئَت خلال الحرب العالمية الثانية بهدف مواجهة آثار المجاعة التي حلت بحضرموت ومات بسببها الآلاف. وكان لأهالي مدينة الحامي فضل السبق في إنشائها، لتعمَّم بعدها في مدن الشحر والمكلا وغيل باوزير. وكانت أبرز مهام تلك الجمعية تتمثل في توفير الطعام للفقراء والمعدمين، وإيواء النازحين من مناطق حضرموت الداخل، وكفالة الأيتام، وعلاج المرضى، وكذا توفير لوازم الدفن[3].

وكانت تعتمد على الدعم الخيري الذي يقدمه التجار والمحسنون والأهالي، ثم تبنَّت الدولة القعيطية هذه الجمعية بتخصيص جزء من ريع الجمارك والعشور لها. كما عملت الدولة على توحيد عمل هذه الجمعيات وجعلها جميعًا تخضع لجمعية المركز تحت اسم (اللجنة الخيرية)[4]، كما أصبح نُوَّاب الدولة في الألوية رؤساءً لتلك اللجان والجميعات، واستمرت هذه اللجان في عملها حتى بعد انتهاء الحرب، وأُلحِقَت بما عُرِفَ بـ(المجالس البلديَّة).

---

١ الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية (مخطوط) ص٨٠-٨١.

٢ أشار إليها المؤرخ صلاح البكري في كتابه: في جنوب الجزيرة العربية ص٧٨.

٣ الملاحي، المذكرة التاريخية (مخ) ص١٦٤-١٦٥.

٤ الملاحي، المذكرة التاريخية ص١٦٥، وباحمدان، محمد، عهد السلطان صالح ص١٢٥.

جماعة الإصلاح:

تأسست سنة (١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م)، وكان الغرض منها تأسيس هيئة من الأعيان والمصلحين تسعى لإصلاح ذات البين في لواء الشحر. وقد ترأسها الشيخ أبو بكر باذيب رئيس الغرفة التجارية بالشحر آنذاك[1].

جمعية التعاون الخيرية:

تأسست في سنة (١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م) في لواء الشحر، وأسَّسها الشيخ الأستاذ خميس كرامة حمدان[2].

جمعية أبناء الشحر بعدن:

تأسست في مدينة عدن مطلع ستينيات القرن العشرين، وتهدف إلى تحقيق التعاون والتكافل بين أبناء مدينة الشحر المقيمين في عدن، وتوحيد جهودهم، وحلِّ المشاكل التي قد تعترضهم في الغربة. وكان الأمين العام لها في أثناء التأسيس هو سالم محفوظ المصلي[3].

---

١ باحمدان، عهد السلطان صالح ص١٢٧.

٢ المرجع السابق، الصفحة نفسها. وللشيخ خميس حمدان اطال الله في عمره ترجمة في كتاب مدرسة مكارم الأخلاق ثمانون عاماً من العطاء ص٥١.

٣ ينظر: البيان العام الذي اصدرته الجمعية كإشهار تأسيسها في صحيفة الطليعة العدد (٣٦) الصادرة الخميس ٧شعبان ١٣٧٩هـ/ ٤ فبراير ١٩٦٠م، ص٨.

الأندية الرياضية:

تأسست في المدينة عدَّة أندية رياضية واجتماعية، منها[1]:

- **نادي كوكب الصباح:** ويعد أوَّل نادٍ رياضي في المدينة، تأسس سنة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م[2].

- **نادي الاتحاد الرياضي الثقافي الإصلاحي**[3]: وقد جاء في اللوحة الجدارية التأسيسية التي أوردها المؤرخ الرياضي سعيد محفوظ سعدالله اسم النادي هكذا (نادي الاتحاد الرياضي الوطني)، وتأسس في ١٧ من ذي الحجة ١٣٦٠هـ[4]، الموافق ٥ يناير ١٩٤٢م.

- **نادي الشباب الأدبي:** وقد امتلك هذا النادي أوَّلَ مذياع يدخل المدينة، أهداه له السلطان صالح القعيطي سنة (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)[5].

-نادي الوطن.

-نادي الشباب الرياضي الثقافي.

-نادي شباب الجنوب الرياضي: تأسس سنة ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

---

١ عدد من اسماء هذه الاندية استقيناها من المذكرة التاريخية (مخ) المرجع السابق ص٨٠. ولمعرفة المزيد عن هذه الاندية وتاريخ الرياضة في مدينة الشحر يمكن الرجوع إلى سعدالله، سعيد محفوظ، كرة القدم بين الامس واليوم. بن بريك، محمد سالم، من بوجمبورا إلى سعاد قصة حياة النجم ايوب جمعة.

٢ باوزير، سعيد، الفكر والثقافة ص٢٣٥.

٣ تأسس هذا النادي سنة ١٩٤٧م. ينظر: عنه بالتفصيل، باحمدان، عهد السلطان صالح ص٧٦. وبعض الروايات تفيد إلى تأسيسه سنة ١٩٥٢م. وقد ذكرت صحيفة الطليعة في عددها (١٠) الصادر ٦ أغسطس ١٩٥٩م عن وجود شائعات تفيد بإغلاق هذا النادي وتقديم لجنته للمحاكمة، وانه وبعد تواصل مندوب الصحيفة مع الجهات المعنية ثبت نفي الخبر برمته.

٤ سعدالله، سعيد محفوظ، كرة القدم بين الامس واليوم ص٢٦.

٥ المذكرة التاريخية ص٢٠٤.

ويتوجب علينا التنبيه على ما لاحظناه من خلال مطالعتنا ومتابعتنا لما كُتِبَ عن هذه الأندية، من أنَّه لا يوجد ضبط حقيقي لأسمائها، فعلى سبيل المثال نادي (الاتحاد الرياضي الثقافي الإصلاحي)، نجده يُسمَّى في بعض المراجع بنادي الاتحاد الإصلاحي الثقافي الرياضي، وتارة بنادي الاتحاد الثقافي الرياضي الإصلاحي. وكذا نادي شباب الجنوب، الذي يُطلَق عليه أحيانًا نادي الشباب الرياضي، وهكذا.

بداية دخول كرة القدم مدينة الشحر:

يحدثنا المؤرخ أحمد الملاحي في كتابه (المذكرة التاريخية) عن بداية معرفة الحضارم لكرة القدم وكيفية دخولها مدينة الشحر لأوَّل مرة، فيقول: ((إنَّ حضرموت قديمًا لم تعرف كرة القدم، وإنَّما كانت تعرف أنواعًا أخرى عربيَّةً من لعبة الكرة، وكلها اختفت بعد ظهور كرة القدم، لأنَّها لعبة جديدة ومنظَّمة، تُقام من أجلها النوادي والحفلات والمباريات، وتشجعها الحكومات، وانتشارها في العالم وإذاعتها في الجرائد والراديوهات. ومادة الكرة في الزمان الماضي، كانت تُصنَع محليًّا من الخِرَق (القماش)، أي تُلَفُّ الخِرْقةُ حول محورها بصورة كبيبة مدحرجة، ثم تُشَدُّ بخيوط متينة بهيئة الشبكة، وحجمها يختلف باختلاف أنواع اللعب بها، فأكبر حجم مثل حبة النارجيل (الكزاب) بلا قشر، أي لا يزيد قطرها على ١٢ سم، وقد تحصل كرة صغيرة مجوفة، مصنوعة من المطاط يسمونها (كرة بحرية). وأمَّا كيفية دخول كرة القدم بالشحر فخُذْ مني الخبرَ اليقين، ودع عنك قولَ غيري، فعلى الخبير بهذا الشأن سقطت، اعلم أنَّه في أجواء سنة ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م، جاء إلى مدينة الشحر مصريَّان يريدان الوصول إلى مدينة تريم عند

السيد الكريم أبوبكر بن شيخ الكاف، فنزلا بيت وكيله وهو سعيد اليزيدي اليافعي، وكان معهما (كرة القدم)، فأتيا بها إلى ساحة الباغ ليلعبا بها مع التلاميذ، فلم يجدا بها أحدًا إلا نحو ستة نفر من التلاميذ أنا أحدهم، فطلبا منَّا أن نلعب معهما، فدهش التلاميذ عندما رأوا هيكل الكرة؛ لأنَّهم ما سبق لهم أن رأوا مثلها، أو سمعوا بصفتها، فوثبت أنا فرحًا عندما رأيتها، قائلًا: (فت بول) أنا أعرف اللعب بها. وذلك أنِّي قد رأيتها في مدينة جزيرة زنجبار وعرفت كيفية اللعب بها، ثم صرنا نلعب بها نحن والشابَّان المصريَّان طول العشية إلى أوان الغروب، وبعد يوم سافرا إلى مدينة تريم على الجمال، وغاب عني خبرهما. وعلى هذا أعتقد أنَّهما لعبا بها هنالك في تريم مع بعض المولدين. ولمَّا سافرت إلى تريم وجدت بعض الموالدة من طلبة الرباط يلعبون بها لعبًا غير منظم، وذلك في شهر الحجة سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م. وبعد أن سافر هذان المصريان إلى تريم عثرت أنا على كرة بحرية، في حجم البرتقالة، فلعبت بها مع ثلاثة من الموالدة بأقدامنا، فكان الطلبة يتفرَّجون على هذه اللعبة الجديدة عليهم))[1] إلى أن قال: ((ولمَّا كان في سنة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، اجتمع في مدرسة مكارم الأخلاق ستة تلاميذ من مواليد إفريقيا أنا أحدهم من مواليد جزيرة القمر (إنُجزيجا)، والثاني والثالث هما ابنا أمان باشيبان، من مواليد (لامو)، والرابع والخامس هما ابنا مزروع، من مواليد (تنقانيقا)، والسادس هو أبو بكر الشاطري من مواليد (ممباسا). فقلنا يحتاج لنا كرة القدم لنلعب بها هنا في ساحة المدرسة، فطلب السيد أبو بكر الشاطري من والده أن يرسل له (كرة القدم)، فأرسلها حالًا، فصرنا

١ أحمد الملاحي، المذكرة التاريخية (مخطوط) ص٨٢ – ٨٣.

نلعب بها في فناء المدرسة أثناء الفسحة وعشية. وكان الطلبة من أولاد الشحر يترجون علينا، وبعد مدة سمحنا لبعضهم أن يلعب معنا. وكان السيد سقاف بن صالح الهدار معجبًا بهذه اللعبة الجديدة، حتى صار من هواة لعبة كرة القدم، وحتى صار بطل الميدان في المباراة، وبعد مدة أيضًا وهبناها له يلعب بها مع سائر الأولاد في المدرسة وخارجها. وكان اللعب يومئذ غير منظم، وإنما كان كتدريب وتأليف لضربها بالأرجل فقط، ولم يزالوا كذلك إلى أن ألفوها، وبدأت اللعبة تنتظم بسبب المولدين الذين يرجعون من المهجر، واستمرت الكرة هكذا إلى أن جاء من الهند أحد سلاطين القعطة، وهو صلاح بن منصر بن عبد الله بن الجمعدار عمر القعيطي ... وصلاح منصر هذا خاله سالم بن أحمد القعيطي نائب لواء الشحر آنذاك، وكان وصول صلاح من الهند إلى الشحر وعمره تقديرًا خمسة عشر سنة، وانتظم في سلك طلبة مدرسة مكارم الأخلاق سنة ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م، حينما صرت أنا مدرسًا بمدرسة مكارم الأخلاق، فتشوق صلاح للكرة، فأحضرها له خاله من عدن، وأصلح له ميدانًا للعبة كرة القدم أمام القصر السلطاني المسمى (دار ناصر) ... وصار صلاح بن منصر يلعب بكرة القدم أمام الحصن هو وزملاؤه التلاميذ، فازدادت شهرتها بالشحر، ثم انتقلت من الصبيان من تلاميذ المدرسة إلى الشبان الذين قد تخرجوا من المدرسة، ومارسوا كرة القدم حتى تقوَّت وتنظَّم اللعب أكثر بسبب المولدين والشباب الآيبين من المهجر. وكنَّا نحن المولدين نسمي كرة القدم (فوت بول)، وبعض الأهالي يسمونها (الكُبَّة)، وكانوا يسمون المرمى (المحوى)، ونحن المولدين نسميها "القول"))[1].

١ أحمد الملاحي، المذكرة التاريخية (مخطوط) ص٨٤– ٨٩.

ويذكر الملاحي أيضًا أنَّ بدء ممارسة هذه اللعبة رياضةً منظمةً بقوانينها الصحيحة كان بفضل الضباط الأردنيين ومعلمي التربية الرياضية القادمين من السودان لتعليم التلاميذ في دار المعلمين، وكان هذا سنة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م، إلى جانب تعليمهم رياضات أخرى لم تكن معروفة ككرة السلة والطاولة والتنس وألعاب الجمباز. ويعدُّ محمد طه الدقيل، وهو من أب حضرمي وأم سودانية، أوَّلَ مدرس حضرمي للرياضة البدنية في المعهد الديني بغيل باوزير، وكان هذا في سنة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، وقد تطوع الدقيل ليكون مدربًا لفريق نادي كوكب الصباح الرياضي بالشحر[1].

السينما والمسرح:

عرفت مدينة الشحر السينما في مدَّة متأخرة جدًّا من عهد السلطنة، حينما استُورِدَ جهاز عرض الأفلام عن طريق المجلس البلدي القائم وقتذاك، وبرعاية نائب اللواء عبدالخالق البطاطي. وكان مقر السينما في البدء بساحة الباغ في الطرف الشرقي من المدينة. وهذه السينما لا تتعدى الجدار الأبيض وجهاز العرض (البروجكتر) وأجهزة الصوت فقط، ولم تكن هناك مقاعد للمشاهدين. وكان العرض بعد صلاة العشاء، وكانت الأفلام حينها غير ملوَّنة، وبعضها ناطقٌ وبعضها صامت، وعُرِضَت أيضًا بعض الأفلام الوثائقية القصيرة. ثم نُقِلَ مقرُّ السينما إلى خارج الباغ، وخارج السور من الناحية الشرقية، بالقرب من كوت الكاف (كوت منصور). وفي منتصف الثمانينيات

١ للتفصيل ينظر: الملاحي، أحمد، المذكرة التاريخية ص٨٨. وفي (ص٩٢) يذكر الملاحي أنَّ هذا النادي أُعِيدَ افتتاحه رسميًّا في ربيع الآخر سنة ١٣٧٣هـ، بعد توقف نشاطه زهاء سبع سنوات بسبب المجاعة التي عمَّت حضرموت.

نُقِلَ إلى مبنى آخر حديث بجوار حديقة البلدية من الناحية الغربية قُبالة (دار ناصر)، وأُطلِقَ على هذه السينما (سينما سمعون). وكان المشاهدون يفترشون التراب بالرغم من أنَّ المشاهدة لم تعد مجانية. وكانت مشاهدة العروض في السبعينيات تضم الجنسين معًا الذكور والإناث، وفي بدء الثمانينيات اقتصرت على الذكور فقط.

وبداخل مقر السينما أقامت الدولة خشبةً للمسرح، وكانت خلفية هذا المسرح هي الجدار الذي تُعرَض فيه الأفلام السينمائية. وفي هذا المقر قُدِّمَت الكثير من العروض المسرحية لبعض الفرق المحلية والخارجية. وأشهر الفرق التي اهتمت بالمسرح وقدَّمت العشرات من العروض الهادفة هي فرقة (بُرْمَة)، المنسوبة لأشهر ممثليها الكوميديين، وهو المرحوم سالم باحمبص. وكذلك فرقة المرحوم الكوميدي الشهير عبدالله عمر باحبيشي. وجُلُّ المواضيع التي تناولتها تلك الفرق تتعلَّق بنقد الأوضاع الاجتماعية والسياسية، في صورة تهكمية ساخرة.

ومنذ الخمسينيات والمدينة تشهد عروضًا مسرحية متنوعة، لكن لم يكن بها مسرح مستقلٌّ خاصٌّ تُؤدَّى فيه تلك العروض. وكانت الفرق الشعبية المسرحية تؤدي رقصاتٍ وعروضًا مسرحيةً في حفلات الزواج أمام بيت العرس مقابل أجر، هذا إلى جانب العروض الفنية والغنائية الأخرى التي تؤديها فرق أخرى متخصصة.

وكان للمسرح المدرسي أثر كبير في نهضة الفن المسرحي، إذ تبنَّت المدارس، وفي طليعتها مدرسة مكارم الأخلاق، الكثيرَ من المسرحيات الهادفة، التي كانت تعرضها للعامة ضمن احتفالاتها السنوية أو الفصلية. وقد استمر المسرح في تطوره وازدهاره إلى بداية العقد الأخير من القرن العشرين.

الخاتمة

ها نحن في هذه الوريقات الأخيرة نختتم ما بدأناه من مشوار طويل مع هذا (المختصر الواسع) كما أطلق عليه أستاذي الباحث عبدالله صالح حداد، بعد اطلاعه على مسوَّدته، وقد استعرضت خلاله المراحل التاريخية التي مرت بها مدينة الشحر منذ نشأتها الأولى ثم نموها وتطورها انتهاءً بالعصر الحديث بنهاية آخر سلطنة حكمت البلاد (السلطنة القعيطية)، ووقفنا على أهم المحطات والأحداث السياسية في كل مرحلة تاريخية، بقدر ما أسعفتنا به المصادر والمراجع والوثائق المتاحة، ولا شكَّ أنَّ ثَمَّ أحداثًا في تاريخ هذه المدينة لا تزال غائبة، تحتاج مزيدَ اطلاعٍ وبحثٍ وتفتيشٍ وتنقيب.

ولا أدَّعي لهذا المختصر الكمالَ ولا الخلوَّ من النقص والعيوب، فالكمال لله وحده، كما لا أدَّعي لهذا السِّفْر استيفاءَ كل الأحداث أو الشخصيات البارزة والمؤثرة التي عرفتها المدينة عبر حقبها التاريخية من سلاطين وأمراء ونُوَّاب وعلماء وفقهاء وأعيان، إذ إنَّ هناك الكثير منهم لم يُذكروا ولم يُشرْ إليهم، لأنَّ كتابنا هذا إنَّما هو مختصرٌ يتوخَّى لملمةَ ما تبعثر من تاريخ هذه المدينة، وإخراجَهُ في سياقٍ واحدٍ متسلسل، يتيح للقارئ فهمًا أوسعَ لمجمل الأحداث والتطورات التي مرت بها المدينة عبر عصورها التاريخية المختلفة، ويُقدِّم صورةً واضحةً لحضور مدينة الشحر بشخوصها وأحداثها ولتأثيراتها في صنع التاريخ العام لحضرموت، ويُبيِّن أيضًا ما كان للمدينة خلال عهودها التاريخية من خطرٍ ومكانةٍ، إذ كانت محطَّ أنظار القوى المتصارعة على النفوذ داخليًّا وخارجيًّا، وهدفًا استراتيجيًّا طالما سعت للاستحواذ عليه الدويلات التي تعاقبت على حكم

المنطقة أو حاولت أن تحكمها، وقد كانت الشحر هي المفتاح الرئيس لباب حضرموت، وقيل فيها إنَّ القابض على الشحر كالقابض على (الحنجور)، أي حنجرة حضرموت.

لقد شهدت هذه المدينة عبر تاريخها قيام دويلات متعددة، إلا أنَّ الصبغة الغالبة على تلك الدويلات أنَّها دويلات عشائرية، لم يكن همُّها الإنسان الشحري وتحقيق أمنه واستقراره ورفاهيته، بقدر ما كان يهمُّها السيطرة على موارد المدينة وخيراتها والاستفادة من مزاياها الاستراتيجية وخاصة ميناءَها، وهو الميناء نفسه الذي عَدَّهُ بعضهم من أسوأ الموانئ في العالم لضحالته، واضطرار السفن إلى الوقوف بعيدًا عن الشاطئ لتفريغ حمولةٍ أو شحنها، إلا أنَّ هذا الميناء بالرغم من سلبيته هذه قد كان شريانَ حياةٍ ليس للمدينة وحدها وإنَّما لكل حضرموت، ولم تقلَّ أهميته ولم تضعف ولم يفقد قيمته إلا بعد تأسيس ميناء المكلا المنافس التجاري القوي ذي المزايا التي مكَّنته من التفوق على ميناء الشحر. وبضعف الميناء ضعفت المدينة وساءت أحوالها وفقدت أهميتها، كما أنَّ تحول عاصمة الدولة القعيطية منها إلى مدينة المكلا التي استأثرت بكل مزايا التطوير والتحديث ألقى بظلاله السلبيَّة على الحياة في الشحر.

إنَّ هذه المدينة أثَّرت في صياغة الكثير من أحداث تاريخ حضرموت العام، وتأثرت كذلك بما يجري حولها من أحداث، وعانت كما عانت سائرُ المناطق الحضرمية من الكوارث والمآسي التي كان العامل السياسي سببها الأكبر.

ويلاحظ أنَّ صانعي تاريخ هذه المدينة ليسوا من طوائف عامة الشعب، إذ ظل العامة بمعزل عن كل الصراعات السياسية التي شهدتها المدينة والمنطقة عمومًا، وإنْ كانوا هم أوَّلَ المكتوين بنارها. ولعل للنظام الطبقي القاسي الذي ساد المنطقة دهرًا

طويلًا أثرًا في هذا التغييب، واضطرار عامة الناس إلى تبني المواقف الحيادية، والاكتفاء بالتفرج على تلك الصراعات، وحصر الاهتمام في تحصيل قوت يومها الذي لا يُنال إلا بشقِّ الأنفس، حتى شاعت بين العامة تلك الأمثال الشهيرة التي سارت فيهم وتوارثوها جيلًا بعد جيل، كقولهم: ((من أخذ أُمَّنا، هو عمّنا))، و((قَعْ ذرَّة تأكل سكَّر))، و((تَمَسْكَنْ تَسْلَمْ، تَعَقْرَب تُقْتَل))، و((سليمان يفزّع وهو تحت الشطفة))، و((سِرْ بالجدار وقُلْ يا سَتَّار))، و((حمار الدولة دولة)).

إنَّ ثقافة السلبية التي عبَّرت عنها هذه الأمثال الشعبية وُلِدَت في ظل حكومات متعاقبة غاشمة لا تعرف الرحمة والشفقة على أحد، بل لا تعرف الرحمة حتى مع حكامها أنفسهم، وقد مر بنا في تاريخنا المحلي عدد من الحكام الذين دفعت بهم الأحداث السياسية المضطربة إلى التنازل عن عروشهم، والانزواء خلف الزوايا والدروشة.

ولا عذر للناس في تبني تلك المواقف السلبية بأي حال من الأحوال، فهم أبناء البلد الأصليون، وهم الأحقُّ بحكمها وتسيير أمورها، وحتى في تلك المواقف النادرة التي يمكن عدُّها من قبيل التحرك الشعبي لتغيير الواقع، نجد أنَّها من نتاج الحاكم نفسه، وليست من تلقاء أنفسهم.

إنَّ الوضع السياسي غير المستقر، وتهميش العامة وعزلهم عن المشهد السياسي، دفعهم إلى إشغال أنفسهم بالإقبال على الغناء وإقامة الحفلات والزيارات والرقصات الشعبية وغيرها من مظاهر اللهو الإجتماعي، أو بالنكوص والانزواء في المساجد والزوايا والانفصال شبه الكلي عن المجتمع، أو بالهجرة والارتحال طلبًا لحياة ومعيشة أفضل، ولو خلف البحار.

وفي نوع آخر من تفريغ العامة لشحناتهم المكبوتة، نجدهم ينغمسون في (صراعات الحويف والحارات)، وهي الصراعات التي بلغت مرارًا إلى الاشتباك والعراك الدموي والقطيعة، حتى دُوِّنَ بعضها في التواريخ مثل (هدَّة العكف والغالبي ومطراق حنين). وكان للشعراء الشعبيين أثر في إذكاء نيران هذه الصراعات والفتن والتحريض عليها. وتلك الصراعات وإن خفَّت حدتها الآن كثيرًا، أو اختفت تمامًا بسبب تنامي الوعي والتغيرات الديمغرافية للسكان داخل المدينة، إلا أنَّ جذوتها لا تزال تحت الرماد، وتتخذ أشكالًا أخرى.

وبظهور كرة القدم ظهر نوعٌ جديدٌ من التنافس وهو التنافس الرياضي، الذي اتخذ في أحيان كثيرة صورًا عدائيةً. ولا شك أنَّ السياسيين في تلك الحقبة استغلوا مثل ذلك التنافس بين الأحياء والحارات أو بين الأندية والفرق الرياضية أسوأ استغلال، أسهم في إحداث شرخ كبير، وتأجيج أحقاد مجتمعية دفينة، ظل الناس يعانون منها إلى اليوم.

لقد عانت هذه المدينة من الحرمان من أيسر مقومات الحياة ومن الخدمات التي يمكن أن تحقق لأهلها بعضًا من الاستقرار والرفاهية، وقذفت الأوضاع السياسية بأبنائها إلى الهجرة والاغتراب، أو النكوص والانغلاق داخل الأحياء والحارات، في حين يتمتع فيها الغريب بكل وسائل الراحة والترفيه والتميز، وربما الحكم أيضًا.

ولعل بدء تفتح المدينة على العالم الخارجي ونيلها لبعض الخدمات كان في العقد الرابع من القرن العشرين، حينما بدأ الاهتمام الجاد بتحسين البنية التحتية والفوقية للبلاد وتطويرها، ووُجِدَ حكام وقادة وأعيان وشخصيات اجتماعية مخلصة، أخذوا على عاتقهم الاهتمام ببناء المجتمع وتطوره، فكان في أعمالهم تلك البدايات الأولى للنهضة،

وكان للمجلس البلدي أثر كبير فيها، فضلًا عن عامل الاستقرار النسبي. ولكن تلك النهضة للأسف لم تستمر طويلًا؛ نتيجة للتداعيات السياسية في أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات من القرن العشرين، ليسدل التاريخُ الستار على عهد السلطنة القعيطية، معلنًا بدء حقبة جديدة وصفها بعضهم بأنَّها أكثر ظلامًا وإقصاء.

المصادر و المراجع

-القرآن الكريم.

- التوراة.

- قاموس الكتاب المقدس، هيئة التحرير د. بطرس عبد الملك وآخرون، كتاب إلكتروني ملف وورد، الحقوق محفوظة لشركة Compubraill.

- ابن أعثم الكوفي، أبو محمد أحمد، كتاب الفتوح، تحقيق علي شيري، ج١، دار الأضواء، ط١، ١٩٩١م.

- ابن الأثير، أبو الحسن علي الشيباني الجزري، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبدالموجود، الناشر دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٤م.

- ابن العماد، عبدالحي بن أحمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، مج ١٠.

-ابن المجاور، أبو الفتح يوسف، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى بتأريخ المستبصر، راجعه ووضع هوامشه: ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر ١٩٩٦م.

- ابن حبيب، أبو جعفر محمد، المحبَّر، تصحيح: د. إيلزة ليختن شتيتر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون طبعة وبدون تاريخ.

- ابن خلدون، عبدالرحمن، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر، مراجعة د. سهيل زكار، ضبط المتن ووضع الحواشي، خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠م.

- ابن سباهي زاده، محمد بن علي البرسوي، أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تحقيق المهدي عيد الرواضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.

- الأفغاني، سعيد، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٦٠م.

- الأنصاري، أبو عبدالله محمد بن أبي طالب، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نشره المستشرق الدانمركي أوغست ميرن سنة ١٩٢٣م.

- إنجرامس، دبليو إتش، (تقرير حول الحالة في حضرموت سياسيًّا وإجتماعيًّا وإقتصاديًّا) حضرموت ١٩٣٤-١٩٣٥م، ترجمة د. سعيد عبد الخير النوبان، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط١ ، ٢٠٠١م.

- إيفانوف، نيقولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية (١٥١٦-١٥٧٤م)، ترجمة يوسف عطا الله، مراجعة: د. مسعود ضاهر، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٨م.

- بابطين، علي بن محمد باخيل، إدراك الفوت في ذكر قبائل تاريخ حضرموت، دار عمار، الأردن، ط١، ٢٠٠٩م.

- باحسن، عبدالله محمد:

- نشر النفحات المسكية في أخبار الشحر المحمية، دراسة وتحليل محمد يسلم عبدالنور، تريم للدراسات والنشر، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠١٠م.

- تنبيه العقلاء بشرح ما جرى على بعض أبناء الفضلاء، تحقيق عادل حاج باعكيم، دار الحامي للدراسات والنشر، ط١، ٢٠١٥م.

- باحمدان، محمد سالم، عهد السلطان صالح بن غالب القعيطي، ط١ ، فبراير ٢٠٠٨م.

- بارفعة، أحمد بن عمر، ثلج الفؤاد بالأمن والسلم في ترجمة العلامة محمد بن عمر بن سلم وتاريخ رباطه الشهير بالتعليم والعلم، عني به: سامي بن محمد باشكيل، دار تقريب التراث للنشر والتوزيع وخدمة التراث، الجمهورية اليمنية، حضرموت، ط١، ٢٠١٦م.

- باعكيم، عادل حاج:

- أريج الياسمين في ترجمة تاج العارفين الشيخ سعدالدين بن علي الظفاري، طباعة مطبعة وحدين الحديثه للأوفست، ط١، ٢٠١٦م.

-العلامة القاضي سالم بن محمد بامعيبد صاحب مسجد بقشة بمدينة الشحر، ط١، ٢٠١٦م.

- بافقيه، محمد بن عمر الطيب، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٩٩٩م.

- بافقيه، محمد عبدالقادر، تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م.

- بامخرمة الهجراني الحضرمي، جمال الدين الطيب بن عبدالله بن أحمد:

- النسبة إلى المواضع والبلدان، مركز الوثائق والبحوث، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠٠٤م.

-قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر،عني به: بو جمعة مكرمي، خالد زواري، دار المنهاج، جدة، السعودية، ط١، ٢٠٠٨م.

-بامطرف، محمد عبد القادر.

- الرفيق النافع على دروب منظومتي الملاح باطايع، مطبعة السلام، عدن، ١٩٧٢م.

- قبيلة قضاعة اليمنية، إصدار مكتب وزارة الإعلام، محافظة حضرموت. ضمن كتيب بعنوان: الشحر مدينة وتاريخ، لمجموعة من المؤلفين.

- الشهداء السبعة، صدر بإشراف وزارة الثقافة والسياحة جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بالتعاون مع حكومة الجمهورية العراقية. دار الحرية للطباعة مطبعة الجمهورية - بغداد ١٩٧٤م.

- ملاحظات على ما ذكره الهمداني من جغرافية حضرموت، تحقيق ومراجعة، حسن صالح غلام العمودي، دار حضرموت للدراسات والنشر، ط٢، ٢٠١١م.

- المختصر في تاريخ حضرموت العام، دار حضرموت للدراسات والنشر، ط٢، ٢٠٠٤م.

-في سبيل الحكم، صدر بإشراف وزارة الثقافة والسياحة في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية بالتعاون مع حكومة الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة، مطبعة الجمهورية، بغداد، ١٩٧٤م.

-الميزان، دار الهمداني للطباعة والنشر، عدن، ط١، ١٩٨٥م.

- المعلم عبدالحق، دار الهمداني للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٣م.

- مسرحية سور الشحر، إصدار فرقة الشحر للمسرح التابعة لإدارة الثقافة والسياحة م/ الشحر، ١٩٧٧م.

- لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى، دار حضرموت للدراسات والنشر، المكلا، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠٠١م.

- باوزير، سعيد عوض:

-صفحات من التاريخ الحضرمي، دار الوفاق للدراسات والنشر، الجمهورية اليمنية، عدن، ط٣، ٢٠١٢م.

-الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي، توزيع المكتبة الوطنية، المكلا، ١٩٦١م.

- باوزير، محمد عبدالله بن هاوي، وبن دحمان، عبدالله سعيد.

-كراسات في تاريخ حضرموت وتراثها، طبع في مطبعة الإبداع، عدن، ط١، ٢٠١١م.

-مدينة العرفان غيل باوزير، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠١٠م.

- البطاطي، عبدالخالق عبدالله، إثبات ماليس مثبوت من تاريخ يافع بحضرموت، ط١، ١٩٨٩م.

- البكري، صلاح:

-تاريخ حضرموت السياسي، المطبعة السلفية، ط١، ١٣٥٤هـ.

- في جنوب الجزيرة العربية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠٠٤م.

- بلفقيه، عبدالله بن حسن، صفحات مجهولة من تاريخ حضرموت، مع تعليقات موسوعية للعلامة المؤرخ علوي بن طاهر الحداد، تحقيق وتقديم: مصطفى بن عبدالرحمن العطاس، تريم للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٥م.

- بلفقيه، عيدروس علوي، جغرافية الجمهورية اليمنية -دراسة إقليمية، دار جامعة عدن، ط١، ١٩٩٧م.

- بن الأنف القرمطي، عماد الدين إدريس، روضة الأخبار ونزهة الأسمار في حوادث اليمن الكبار والحصون والأمصار، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي الحميري، منشورات الهيئة العامة اليمنية للكتاب، ١٩٩٥م.

- بن بريك، محمد سالم، من بوجمبورا إلى سعاد، قصة حياة النجم أيوب جمعة، مؤسسة حضرموت للتنمية البشرية، ط١، ٢٠١٥م.

- بن سلم، سالم أحمد، مرافئ تربوية، سلسلة الرسالة التربوية، الكتاب ٢، يصدر عن الإعلام التربوي بمكتب تربية حضرموت-المكلا، أغسطس ٢٠١٠م.

- بن سمرة الجعدي، عمر بن علي، طبقات فقهاء اليمن، تحقيق فؤاد سيد، دار القلم، بيروت، لبنان.

- بن صالح، عبدالعزيز، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، المكتبة الإنجلو المصرية.

- بن علي الحاج، محمد سعيد، عمر بن عوض القعيطي سلطان الدولة القعيطية الحضرمية، حياته – عهده – آثاره، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٤م.

- تامر، عارف، أروى بنت اليمن، دار المعارف، مصر، سلسلة اقرأ العدد٣٣٠، يونيو ١٩٧٠م.

- الجعيدي، عبدالله سعيد

-الأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية في حضرموت ١٩١٨-١٩٤٥م، رسالة لنيل درجة الماجستير، جامعة عدن، كلية الآداب، قسم التاريخ، ١٩٩٩م، إشراف، أستاذ مشارك، د. أحمد محمد بن بريك.

-الأوضاع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية في حضرموت ١٩١٨-١٩٤٥م، دار الوفاق للدراسات والنشر، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠١٠م.

-في رحاب تاريخ حضرموت الحديث والمعاصر، مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، ط١، المكلا، حضرموت، ٢٠١٦م.

-الجوهي، خالد حسن، إمارة آل بن بريك في الشحر، دار الوفاق، الجمهورية اليمنية، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

-حداد، عبدالله صالح

- رقصة العدة من الألعاب الشعبية، منشورات فرع المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف م/ حضرموت، المكلا سبتمبر ١٩٨٠م.

-معجم شعراء العامية الحضارمة، إصدار مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، حضرموت، ط١، ٢٠١٦م.

-رجال الشحر في شرق إفريقيا من خلال أدبهم الشعبي، دار حضرموت للدراسات والنشر، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠١٦م.

- الحداد، علوي بن طاهر، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها، تريم للدراسات والنشر، ٢٠٠٥م، نقلًا عن طبعة سنغافورة ط١، ١٩٤٠م.

- الحموي، ياقوت بن عبدالله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.

- الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، المحقق: إحسان عباس، الناشر: مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - طبع في مطابع دار السراج، الطبعة: ٢ - ١٩٨٠ م.

- الخزرجي، علي بن الحسن، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، الناشر مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٣م.

- درميولين، دانيال فان و د. هـ. فيسان، حضرموت إزاحة النقاب عن بعض غموضها ترجمة وتقديم محمد سعيد القدال ط١، دار جامعة عدن للطباعة والنشر ١٩٩٨م.

- دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر بيروت، لبنان، دار الفكر دمشق، سوريا، ط١، ١٩٩٠م.

- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد، الأعلام، دار العلم للملايين، ط١٥، مايو ٢٠٠٢م.

- الدمشقي، أبو بكر بن بهرام، جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير لابن بهرام الدمشقي، ترجمه من التركية العثمانية وحققه وعلق عليه: د. مسعد بن سويلم الشامان، إصدار مركز حمد الجاسر الثقافي، ط١، ٢٠٠٧م.

- الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة محققين بإشراف شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة، بدون تاريخ.

-سعدالله، سعيد محفوظ، كرة القدم في الشحر بين الأمس واليوم، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، ط٢، ٢٠١٢م.

-سعيد، أمين محمد، ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر. بدون تاريخ.

-السقاف، حمود محمد جعفر، أضواء جديدة على التاريخ، تبابعة وملوك اليمن، مركز عبادي للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٤م.

- السقاف، عبدالرحمن بن عبيدالله، إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت، دار المنهاج - لبنان - الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

- السقاف، عبدالله بن محمد، تاريخ الشعراء الحضرميين، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٣٥٣هـ.

- السلمان، محمد حميد، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج (١٥٠٧-١٥٢٥م)، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٠م.

- شهاب ، محمد ضياء، وابن نوح، عبدالله، الإمام المهاجر أحمد بن عيسى بن محمد بن علي العريضي بن جعفر الصادق، ما له ولنسله وللأئمة من أسلافه من الفضائل والمآثر، دار الشروق، جدة، ط١، ١٩٨٠م.

- الشاطري، محمد أحمد، أدوار التاريخ الحضرمي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع،ط٢ ، ١٩٨٣م.

- الشحري، علي أحمد، لغة عاد، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠٠٠م.

- الشرجي الزبيدي، أحمد بن عبداللطيف، طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٦م.

-الشلي، محمد بن أبي بكر، عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، تحقيق: إبراهيم أحمد المقحفي، مكتبة تريم الحديثة صنعاء، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠٠٣م.

- شنبل، أحمد بن عبدالله، تاريخ حضرموت، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، مكتبة صنعاء الأثرية، ط٢، ٢٠٠٣م.

- صابان، د. سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مراجعة: د. عبدالرازق محمد حسن بركات، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ٢٠٠٠م.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٧م.

-عبادة، عبدالفتاح، سفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداتها في الإسلام، مطبعة الهلال، مصر ١٩١٣م.

-العجم، رفيق، موسوعة مصطلحات التصوف الاسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط١، ١٩٩٩م.

- عصبان، أكرم مبارك، الفرق والمذاهب في حضرموت، دار حضرموت للدراسات والنشر، المكلا، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠١٠م.

- العلوي، محمد بن هاشم، رحلة إلى الثغرين الشحر والمكلا، طبع على نفقة آل الكاف شعبان ١٣٥٠هـ، تريم.

- العلوي، هادي، المستطرف الصيني، دارالمدى للثقافة والنشر، سوريا، تاريخ الطبع ١٩٩٤ - ٢٠٠٠م.

- علي، جواد، المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، ط٤، ٢٠٠١م.

- عمارة اليمني، نجم الدين، تأريخ اليمن، ويليه المختصر المنقول من كتاب العبر للقاضي العلامة عبدالرحمن بن خلدون المغربي، ثم أخبار القرامطة باليمن، طبع بمطبعة كلبرت وررونكتن، لندن، ١٣٠٩هـ.

- العيدروس عبدالقادر بن شيخ، تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر، دار الكتب العلمية. لبنان، ط١، ١٩٨٥م.

- فرانتسوزوف، د. سرجيس، تاريخ حضرموت الاجتماعي والسياسي قبيل الإسلام وبعده، تقديم وتعريب: د. عبدالعزيز بن عقيل، المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء، ط١، ٢٠٠٤م.

-فلبي، هاري سانت جون، بنات سبأ، رحلة في جنوب الجزيرة العربية، تعريب: د. يوسف مختار الأمين، مكتبة العبيكان، المملكلة العربية السعودية، الرياض، ط١، ٢٠٠١م.

- الفيفي، محمد يحيى، الدولة الرسولية في اليمن، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥م.

-الكاشاني، عبدالرزاق، معجم اصطلاحات الصوفية، تحقيق وتقديم وتعليق: د. عبدالعال شاهين، دار المنار، القاهرة، مصر، ط١، ١٩٩٢م.

- ك . خ . براور / أ. كبلاينات، اليمن في أوائل القرن السابع عشر الميلادي، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ١٩٩٨م،ط٣.

- الكاف، سقاف علي

- حضرموت عبر أربعة عشر قرنًا، مكتبة أسامة، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

- دراسة في نسب السادة بني علوي، دار المختار الإسلامي. (من دون بيانات أخرى).

- الكثيري،خالد حسين بن عمر، آل كثير أصولهم وفروعهم، مطبعة الأحقاف الحديثة، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠٠٨م.

- الكسادي، بدر بن أحمد، القاموس البحري، مراجعة حسن صالح شهاب، المجمع الثقافي، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٤م.

-لقمان، حمزة علي: أساطير من تاريخ اليمن، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.

- المازندراني، موسى الحسيني، تاريخ النقود الإسلامية، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع،بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨٨م.

- مجموعة من المؤلفين، الموسوعة اليمنية، دار الفكر المعاصر، لبنان، ط١، ١٩٩٢م.

- مجموعة من المؤلفين، الشحر مدينة وتاريخ، إصدار مكتب وزارة الإعلام، محافظة حضرموت. طبعة قديمة بالرونيو.

-مجموعة من المؤلفين، مدرسة مكارم الأخلاق، ثمانون عامًا من العطاء. صادر عن إدارة المدرسة والسلطة المحلية م/ الشحر. بدون تاريخ.

- محيرز، عبدالله أحمد، رحلات الصينيين الكبرى إلى البحر العربي، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، دار جامعة عدن للطباعة والنشر ٢٠٠٠م.

- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به وراجعه: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،ط١، ٢٠٠٥م.

- المصلي، محفوظ سعيد، تنبيه العزائم إلى شرح أمثال الحضارم، تحقيق عادل حاج باعكيم، مكتبة تريم الحديثة، حضرموت، الجمهورية اليمنية، ط١، ٢٠١٥م.

- المقحفي، إبراهيم أحمد، معجم البلدان والقبائل اليمنية، جزأين، دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع، صنعاء، المؤسسة الجامعية للدراسات للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٢م.

- المقدسي، محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم،حررها وقدم لها: شاكر لعيبي،دار السويدي للنشر والتوزيع -الإمارات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت. ط١، ٢٠٠٣م.

- الملاحي، عبدالرحمن، ومعيلي ، علي حسن، تاريخ الصراع الحمومي القعيطي ودوافعه، وثائق الندوة العلمية التاريخية حول المقاومة الشعبية في حضرموت، المنعقدة في كلية التربية، المكلا، في ٢٥-٢٦فبراير١٩٨٨م، إصدار جامعة عدن، كلية التربية المكلا.

- الملاحي، عبدالرحمن عبدالكريم.

-الدلالات الاجتماعية واللغوية والثقافية لمهرجانات ختان صبيان قبائل المشقاص ثعين والحموم، مطبوع من دون تفاصيل الطباعة.

- ملامح من التداخل المعرفي بين ربابنة اليمن وعُمان، وزارة التراث والثقافة، عمان، ط١، ٢٠٠٦م.

-الحضارم في ممباسا ودار السلام، دار حضرموت، ط١، ٢٠٠٤م.

- الموقع الجغرافي والتاريخي والاقتصادي والاجتماعي لمدينة الشحر، بحث ضمن عدة بحوث بعنوان الشحر مدينة وتاريخ، إصدار مكتب وزارة الإعلام بمحافظة حضرموت.

- مدينة الشحر بوابة حضرموت الجنوبية التاريخية في القرن الثامن والتاسع الهجريين. بحث ضمن أبحاث أخرى بعنوان أبحاث الحلقة العلمية الرابعة والخامسة في ذكرى دخول المهاجر إلى الله أحمد بن عيسى المهاجر إلى حضرموت، إصدار منتديات وادي حضرموت الثقافية الاجتماعية، تحت إشراف مركز الإبداع الثقافي للدراسات وخدمة التراث التابع لأربطة التربية الاسلامية ومراكزها التعليمية والمهنية.

- الفرس في أرض اللبان. مجلة آفاق، العدد ٦، السنة ٣، فبراير ١٩٨٤م. صادرة عن فرع اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، فرع محافظة حضرموت.

-مهران، محمد بيومي، دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، مصر.

-موسى، محمد بن حسن بن عقيل، المختار المصون من أعلام القرون، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، جدة، بدون تاريخ.

- الناخبي، عبدالله بن أحمد

-حضرموت، فصول في الدول والأعلام والقبائل والأنساب. أو شذور من مناجم الأحقاف، دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع، جدة، ط١، ١٩٩٧م.

-يافع في أدوار التاريخ أو رحلة إلى يافع، ط١، ١٩٩٠م.

-إجازة عامة في الأسانيد والمرويات، وهو الثبت المختصر للعلامة الشيخ عبدالله الناخبي، إعداد: محمد بن أبي بكر باذيب، دار الفتح للدراسات والنشر.

- نعمة، حسن، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، دار الفكر اللبناني، بيروت،١٩٩٤م.

- هلفريتس، هانس، قادني الفضول حول العالم، رحلة موسيقية مصورة لاقتفاء الأثر، صادر عن سفارة جمهورية ألمانيا الاتحادية بصنعاء ومعهد الآثار الألماني قسم الشرق - فرع صنعاء ٢٠٠٧م ترجمة عرفان عبود.

- الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب

صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ط١، ١٩٩٠م.

الإكليل، تحقيق أوسكار لوفغرين، رواية محمد بن نشوان الحميري، طبع بمطابع بريل في مدينة ليدن سنة ١٩٥٤-١٩٦٥م.

- الهمداني اليعبري الحرازي، حسين بن فيض الله، بالاشتراك مع د. حسن سليمان الجهني، الصليحيون والحركة الصليحية في اليمن، منشورات المدينة، صنعاء، ط٣، ١٩٨٦م.

الدوريات والصحف والمجلات:

-مجلة العرب الصادرة عن دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض - المملكة العربية السعودية

-ج١، ٢ ، س٣٢ ، نوفمبر-ديسمبر سنة ١٩٩٦م.

-ج٣، ٤ س ٣٢ ، يناير- فبراير سنة ١٩٩٧م.

-ج٧، ٨ س٣٢ ، يونيو – يوليو سنة ١٩٩٧م.

-مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، الصادرة عن جامعة عدن، المجلد الثاني، العدد الثالث، يناير، يونيو، ١٩٩٩م. الجرو، أسمهان سعيد، طرق التجارة البرية والبحرية في اليمن القديم.

-مجلة آفاق. يصدرها اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، فرع محافظة حضرموت، العدد السادس، السنة الثالثة، فبراير، ١٩٨٤م، عبدالرحمن الملاحي، الفرس في أرض اللبان.

-مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت العدد ٤٥، ربيع الثاني، ١٤٠٦هـ. الخالدي، عمر، عرب حضرموت في حيدر آباد، ترجمة، جمال محمود حامد.

-مجلة الدارة، العدد، ٣، السنة ١٠، ربيع الثاني ١٤٠٥هـ الخالدي، عمر، الوجود العربي في حيدر آباد، نتائج هجرة الحضارمة إلى الهند، ترجمة وتلخيص: عبدالسلام عبدالمنعم.

-مجلة اليمن، العدد ٢٦، ذو القعدة ١٤٢٨هـ/ نوفمبر ٢٠٠٧م، مركز البحوث والدراسات اليمنية، جامعة عدن، سارجنت، روبرت بيرترا، البرتغاليون قبالة ساحل جنوب بلاد العرب.

-مجلة حضرموت الثقافية، صادرة عن مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، العددان (١، ٢)، سبتمبر – ديسمبر ٢٠١٦م.

-مجلة سعاد الصادرة عن جمعية الشحر للثقافة والتراث العددان (٥-٦) (أكتوبر ٢٠٠٨م)، (مارس ٢٠٠٩م).

-صحيفة شبام، العددان (٢٣١)، (٢٣٢) ١جمادى الآخرة ١٣٢٤هـ الموافق ٣١ يوليو ٢٠٠٣م. ٨ جمادى الآخرة ١٣٢٤هـ الموافق ٦ أغسطس ٢٠٠٣م.

-صحيفة الطليعة (مجموعة أعداد).

- صحيفة الشرارة، العدد (٦٠١) ٢٤ / ٨ / ١٩٨٨م.

- نشرة الفكر الصادرة بغيل باوزير العدد (٥) يناير-مارس ١٩٩٧م.

المخطوطات:

-الملاحي، أحمد بن عبدالقادر الملاحي، المذكرة التاريخية الشحرية.

-الملاحي، عبدالرحمن عبدالكريم، مدخل مدرسة مكارم الأخلاق الأهلية بمدينة الشحر (١٣٣٧-١٣٥٩هـ/ ١٩١٨-١٩٤٠م) جهود أهلية رائدة في سبيل تنمية المجتمع.

البحوث والرسائل والدراسات المنشورة وغير المنشورة:

-بامطرف، محمد عبدالقادر، كيف كنا وكيف أصبحنا (محاضرة)، مطبوعة على ورق الرونيو عن الوحدة الأدبية للشباب م/ الشحر ٨ أغسطس ١٩٨٨م. بمناسبة مرور أربعين يومًا على وفاة المؤرخ بامطرف.

-الجرو، د. أسمهان، العلاقات السياسية بين عمان واليمن القديم في العصر الحميري القرن (٤-٦م).

- الخالدي عمر، الوجود العربي في حيدر آباد، بحث، ترجمة وتلخيص: عبدالسلام عبدالمنعم. مجلة الدارة، العدد، ٣، السنة ١٠، ربيع الثاني ١٤٠٥هـ.

- خليل ، د. محمد محمود، الخليج والجزيرة العربية في الوثائق والحوليات الصينية فترة العصور الوسطى، أسرة مينج نموذجًا، منشور في مؤتمر العلاقات العربية الصينية، جامعة قناة السويس، ٢٠١٢م. (نسخة إلكترونية بحوزتي).

- ر . ب . سارجنت ، التجار والتجارة في اليمن من القرن ١٣ – ١٦ م . نشر في كتاب دراسات في تاريخ اليمن الإسلامي ، صادر عن المعهد الإمريكي للدراسات اليمنية ، ترجمة وتقديم د . نهى صادق .

-شعيب، شيخة بنت صالح محمد، ميناء الشحر في القرن ١٠هـ/١٦م دراسة تاريخية حضارية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الدكتور عمر بن سالم بابكور، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى. ٢٠٠٥م.

- الصرايرة، مها حسن، الحياة العلمية في حضرموت في القرنين ١-٢هـ (رسالة ماجستير، جامعة مؤتة ٢٠٠٦م).

-عبدالنور، محمد يسلم، الحياة العلمية في حضرموت في القرنين السابع والثامن للهجرة، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي وحضارته، إشراف الدكتور عبدالرحمن عبدالواحد الشجاع، كلية الآداب، جامعة صنعاء، ٢٠٠٨م.

- عصبان، أكرم مبارك، الأحداث التاريخية بحضرموت في منتصف القرن الهجري، قراءة في السيف النقاد.

الفِهرس

الفصل الأول
الخلفية الجغرافية والاجتماعية لمدينة الشحر
مع مدخل للتاريخ السياسي القديم حتى ظهور الإسلام

الفصل الثاني

الشحر منذ دخول الإسلام حتى قيام السلطنات اليافعية

الفصل الثالث
الحكم اليافعي لمدينة الشحر

الفصل الرابع
مدينة الشحر في عهد السلطنة القعيطية



هذا الكتاب:

هذا الكتاب معني أساسًا بتاريخ جزء محدد من حضرموت، فهو دراسةٌ تاريخيّةٌ لمدينة الشحر منذ تأسيسها، مرورًا بالدويلات والإمارات التي تعاقبت على حكمها، وصولاً إلى الدولة القعيطية بوصفها آخرَ دولة انتهجت الحكم الوراثي والاعتماد على العصبية العشائرية في تثبيت حكمها وترسيخه، وهو نمطٌ في الحكم ساد لقرون، وقد أفردت لهذه الدولة فصلًا مستقلًا؛ لقربها تاريخيًا من العصر الذي نحن فيه، كما أن بعض شخوصها ومعاصريها ما زالوا أحياءً يُرزَقون، وعلى اعتبار أنَّ الدُولَ التي تلتها كانت مختلفة تمامًا عنها وعن سابقاتها، سواء من حيث شكل الدولة ونظامها وإدارتها أم منْ حيث الأحداث التي ارتبطت بها وتميزت فيها، كما أنّهُ في هذه المرحلة المتأخرة (ما بعد القعيطية) لم تعد الشحر كما كانت في غالب عهودها الماضية، ذات الشأن الكبير، التي تتهافت الدول لخطب ودها، وتستميت أمام أسوارِها الرجال؛ إذ فقدت مركزها الريادي وأثرَها الفعّالَ في التاريخ الحضرمي عامّة، وأصبحت مجرّد مدينةٍ قابعةٍ على شاطئ بحر العرب، قد شاخت وهرمت، وسُلِبَت منها عوامل التأثير.

مركز حضرموت للدراسات
التاريخية والتوثيق والنشر



توزيع: دار الوفاق للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية-الرياض
واتساب: +966535307788



